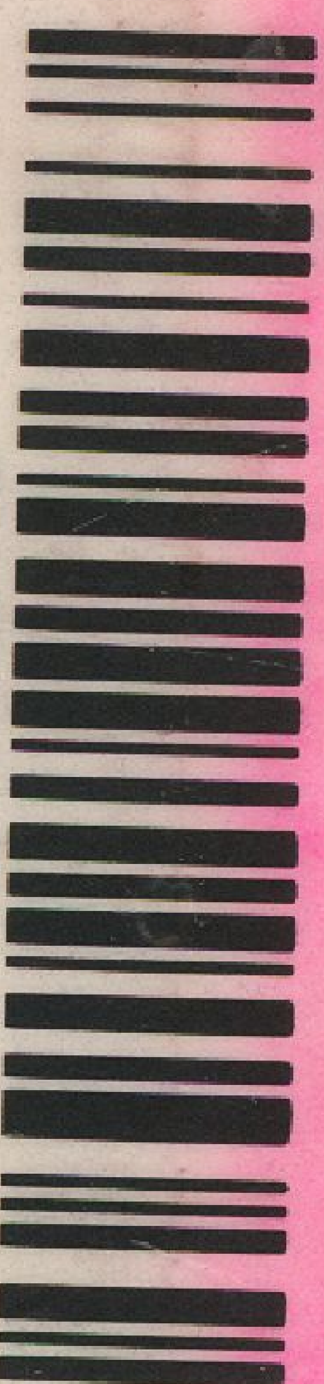
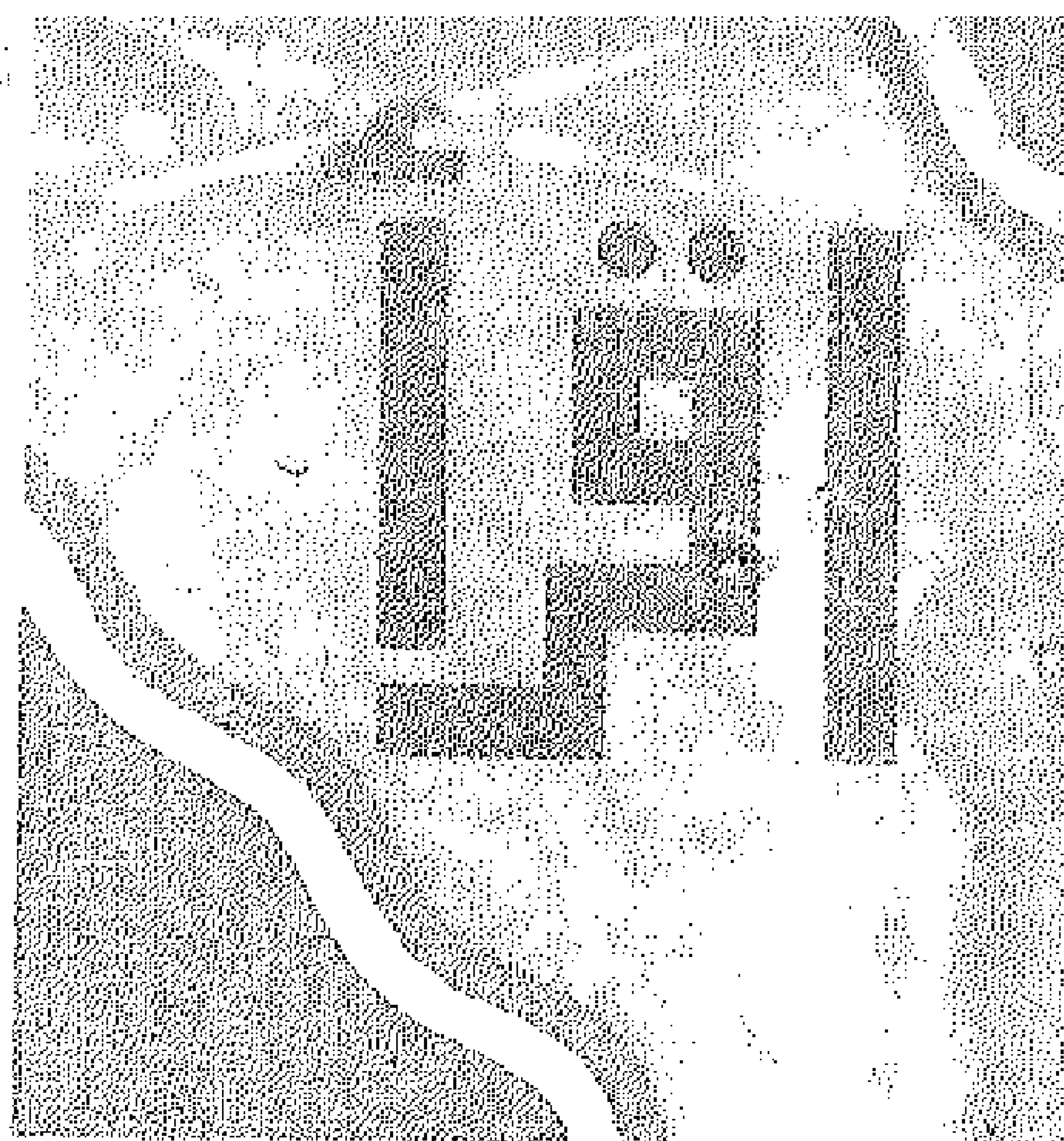


Bibliotheca Alexandrina
0137871



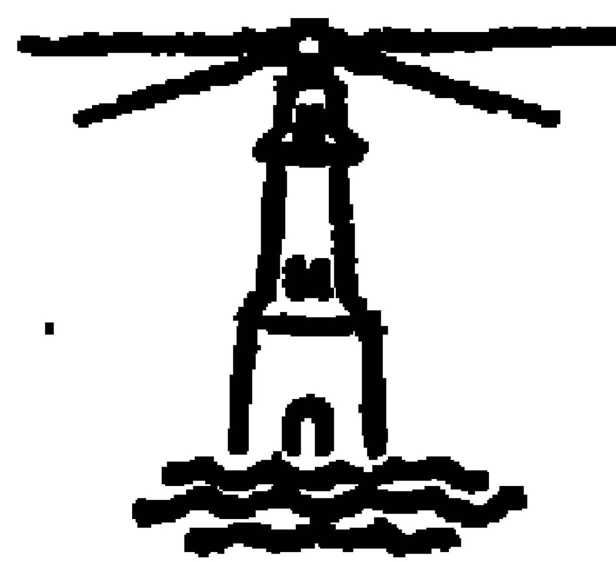
يوسف جوهر

ابتسامات... وحيّة رقطاء



تصدر في أول كل شهر

رئيس التحرير: السيد أبو النجا



دار المعارف بمصر

خذ المعارف من دار المعارف

اقرأ ٣٦٦ – أبريل سنة ١٩٧٣

الناشر : دار المعارف بمصر – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج.م. ع .

يوسف جوهـــر

ابتسامات... وحيّة رقطاء

اقرأ ٣٦٦

دار المعارف بمصر

الإهداء

إلى ابنتي سهير ...

التي طالما تسلقت كتفي

وانتزعت قلمي وأنا أكتب

هذه القصص ..

ابتسامات ... وحيّة رقطاء !!



جادت عليها الحياة بأنعمها . وهبتها جمالا ندر أن يوهب للبشر ، ووهبته قلباً كريماً وحظًا باسماً .. وكانت آية حظه أنه سبق سواه وبنى بها بيتاً .. تحسده عليه أصفى الطيور المغردة بالا وأرقها مزاجاً ..

كان ما بينهما هو نبوغ الحب، وتفوقه المتجدد على نفسه .. بين عينيها وعينيه صلة ، تشبه الصلة بين النبي وإيمانه .. يكفى أن تتعانق نظراتهما لتتحول الأمور إلى ما يشتهيان بسحر ساحر ، فيجدان فى الظلام الدامس ليلتهما المقمرة ، ويستنبطان من أعماق الصمت والسكون أجمل الألحان .. ويستطيعان ، وكلاهما وادع بين ذراعي الآخر فى مقعد صغير ، أن يذهبا إلى رحلة بعيدة ، حول عالم جميل ، طائرين بأجنحة ملونة ريشها منتخب من غرفة ملابس الملائكة !

ولم يكونا كسولين . فجدا فى البحث عن بذور أزهار السعادة ، ليزرعاها فى حديقة حياتهما .

مضى عام على شغفهما بأرض الحديقة . . والأزهار المسماة بالأطفال لم تظهر . .أما زهرة النجاح فقد شقت التربة ، ولكنها لم تكن قابلة للنمو ، وبقى « كامل » فى عمله حيث هو لا يتقدم . وأزهار الشهرة ذبلت مع كتاب طبعه وتلقاه النقاد أسوأ لقاء . . والصداقة أطلت من بين الأعشاب أوراقها شاحبة ، وسيقانها طويلة عارية ، لا يكسوها إلا شوك الحسد ..

ونقودهما القليلة التى خبآها فى أرض المعروف أكلها دود الاقتراض .

زهرة واحدة هى التى نبتت نباتاً حسناً ، وملأت الحديقة وغمرتها .. تلك كانت زهرة الابتسام . .

أينما سارت « سميرة » كان الابتسام ينبت تحت قدميها . . وينضر عيشهما . . وكان كامل ينظر إلى شفتيها ، والابتسام يراقصهما ، فيهون لديه كل هم ويصغر فى عينيه كل شقاء . .

* * *

وسأل كامل قلبه فى سر وخفاء : « هذا الابتسام أما يغيض من محياها أبداً ؟ ! »

وأجابه قلبه متعجباً : « أتحسدها ؟ ! »

فاستدرك قائلا : كلا . . ولكنى لم أر فى عينيها الدموع أبداً .

— إن الملل تسلل إلى نفسك . . بدأت تسأم الهناءة .

— تظلمنى يا قلبى . . أنا مازلت سعيداً ، ومازلت حريصاً على سعادتى .

واقتضب الحديث . . وهرب من قلبه .

وكان يظن أنه تخلص من ذلك الخاطر المنكر ودفنه فى أعماق النسيان .. لكن ما أشد ما تعجب عندما وجد نفسه وجهاً لوجه — من جديد — مع رغبته القديمة فى أن يراها . . تبكى !

أهى الكراهية ؟ ! . . ضحك ساخراً . . فما كان معقولا أن يكره

٨

نفسه .. وكانت إلى جواره فضمها إلى صدره ضماً شديداً كأنما ليستغفر من إثمه . . وسألته متعجبة : « لماذا تضحك ؟».. فاضطرب . . ألم تعوده أن تقرأ أفكاره . . ولكى يضللها مضى يرتجل خاطراً كيفما يكن ، وإذا هو يقول لها : « أضحك لأننى أتخيل الذعر على وجهك وأنت فى الطائرة .. سنطير إلى الإسكندرية غداً » .

ورقصت سميرة فرحاً . كان السفر بالطائرة أمنيتها التى يأباها عليها ضناً بها على الأخطار .. وأنفقا بقية المساء فى إعداد برنامج الرحلة : «ثلاثة أيام جميلة أريدها خالصة لى يا كامل .. حذار أن تفكر فى أعمالك .. سيكون عملك الوحيد أن تحبنى ، وتسبح بى حتى ألهث من التعب »

ووصلا إلى العقدة التى لا تحلها الأحلام . . نفقات السفر والإقامة فى الإسكندرية .. ثلاثة أيام كاملة .

وفكرت قليلا ، ثم مضت إلى حجرة النوم . . وعادت بشارلى شابلن .

وكانت على فم شارلى ابتسامة عريضة . . إنه حصالة نقود فى شكل تمثال .

وقالت ضاحكة وهى تهز شارلى لتسمع زوجها رنين الفضة : « كنت أخبئه فى دولابى منذ زواجنا . . انظر إلى هذا الثقب فى ظهره . . وضعت فيه كل قطعة فضية وقعت عليها يدى . قلت لنفسى . . ولدنا المقبل قد يسوؤه أن نكون فقراء . »

قال وهو يبقر بطن شارلى : « كما يسوء أباه أن تخبئى فى الدولاب رجلا سمع كل ما دار فى مخدعنا من أحاديث عاماً كاملا » .

٩

وبعد إحصاء النقود تمت موازنة الميزانية . . الذهاب بالطائرة . .فلا مفر من أن تكون العودة بالقطار ، وفى مركبة من مركبات الدرجة الثالثة .

* * *

وفرغ من عمله . وأسرع ليلحق بها فى المطار كما تواعدا . . لكنه وجدها فى انتظاره عند باب مكتبه : « غيرت رأيى . سنسافر الآن فى مركبة الدرجة الثالثة وفى العودة نركب الطائرة ! » .

وكان إتهامه إياها بالجبن والخوف هو مادة ضحكهما طول الطريق إلى الإسكندرية .

* * *

واختارت سميرة غرفة فندق تقع فى الدور الأخير من عمارة شاهقة .

قال لها محتجاً وهما يطلان من الشرفة على الشارع : « إننا مرتفعان ارتفاعاً يورث الدوار . لو تعطل المصعد لأنفقنا أيامنا الثلاثة فى الوصول إلى هذه الغرفة » .

أجابت وهى تشبك ذراعيها حول عنقه بحنان : « أعجبتنى هذه الغرفة لأنها معلقة بين الأرض والسماء . . كأنها طائرة . . انظر إلى السائرين فى الطريق . . إنهم يبدون أقل حجماً . . كلام فى سرك . لن نركب الطائرة فى عودتنا » .

وكان قد بدأ يضحك عندما وضعت أناملها على فمه لتسكته : « إنه ليس الخوف . سأعترف لك بالحقيقة . . وأنا ذاهبة لأحجز التذاكر فى الطائرة قابلت صديقة قديمة حزينة . . إن شاباً سيزور البيت خاطباً . . وهى فى حاجة إلى ثوب جديد جدير بالمناسبة . وقد أقرضتها النقود .

أغاضب أنت ؟ » .

وكررت « أغاضب أنت » وهى تبتسم ابتسامة يرق لها قلب الصخر الصلد ، فوجد نفسه يضغط كيانها الرقيق بين ذراعيه . . واندفعت الكلمات من فمها متقطعة وهو يهصر عودها : « لا مفر من الاعتماد على السندوتش فى أثناء إقامتنا هنا . ولا مفر من العودة أيضاً فى مركبة الدرجة الثالثة » .

وتحركت فى نفسه ، كما تتحرك الحية الرقطاء ، رغبة تهمس : « اغتنم هذه الفرصة لتسمعها كلاماً قاسياً يبكيها ويطرد الابتسام من عينيها »

ولكن الحية الرقطاء فزعت من صوت سميرة التى كانت تقول : « كنت واثقة أنك لن تغضب . . أستطيع أن أصدق أن هذه العمارة الضخمة لن تكون فى مكانها غداً ، لكننى لا أتصور أبداً أننا سنختلف يوماً . إنك ستؤذينى بكلمة خشنة أو نظرة قاسية . . أمن الممكن . أن نتخاصم يوماً ما ، على أمر ؟ ! » .

وحاول أن يسكتها بقبلة ساحقة لكن الكلمات ظلت تنساب من بين شفتيها الموثقتين بلثماته : « فلنفرض أننى عصيتك يوماً . هل تغضب ؟ ! »

قال ضاحكاً : « من يدرى » . .

قاطعته فى عناد : « تكذب . . أنا واثقة أن هفواتى كحسناتى لن تصادف فى نفسك إلا القلب الرحيم الحنون . انظر إلى هذا العمق بين الشرفة وأرض الطريق . وتخيله مضاعفاً مرات لا عدد لها ، ثم تعال أقل



لك إن هوانا أعمق ، . . احسب هذه الحسبة ، وتسل بالتفكير فيها ريثما أرتب شعرى عند الحلاق وأعود إليك . وحذار أن أعود ولا تكون قد « اخترعت » بعد سهرة عظيمة فى حدود الميزانية .

* * *

لم يفكر فى السهرة ، لكنه فكر فى ابتساماتها السخية كأشعة الشمس .. وفى عمق حبهما . . نعم ، لن يكون بينهما شقاق أبداً . . ولو أطاع الناس خالقهم مثلما تطيعه هى لرفعت الأرض إلى السماء ! وتذكر فجأة رغبته الآثمة فى أن يرى الدموع فى عينيها .. هذا لن يكون .. إن السرور ينفجر من نبع غزير فى قلبها ، لا يكف أبداً عن التدفق . . هيهات أن يقف فى طريقه حزن أو كدر .

وهمست فى نفسه الحية الرقطاء : « لكن أما تصبو إلى أن تسىء إليها مرة . . جرّب أن تضعها مرة هدفاً لغضبك لترى كيف تبدو عندما تنهمر من عينيها الدموع ؟ . . حاول أن تبكيها ثم تصالحها ! ..»

* * *

وعادت وذلك الخاطر الغريب يداعب خياله .

عادت فرحة بالتسريحة الجديدة ، وبعقد من الياسمين يطوق عنقها الناصع ، وقالت وهى تدور حول نفسها أمام المرآة : « لم يكذب فى قوله إننى أجمل فتاة رأتها عيناه . كنت أظنه ينافق . . »

سألها : « من هو . . الذى ظننته ينافق ؟! »

أجابته وابتساماتها تسطع فى المرآة ، وتأمر كل شىء من حولها

أن يشاركها مرحها : « إنه حمدى .. كان يقص شعره فى صالون الحلاقة الذى دخلته ، فى قسم الرجال .. تصور المصادفة !.. وخرجنا معاً . وسار معى إلى مفترق الطريق الموصل إلى هنا . واشترى لى هذا العقد من الياسمين تحية متواضعة ، على حد تعبيره ، لأجمل فتاة . . رأتها عيناه ! »

امتقع لون كامل ، وأحس كأن الحية الرقطاء تعض قلبه . كان حمدى من أقارب سميرة ، وقد حدثت زوجها من قبل أنه حام حولها ، وفكر فيها ، ثم قطع عليه كامل الطريق إلى أمانيه . . هذا هو كل ما يعرفه عنه ، ويومها ترك سميرة تقرأ على وجهه أنه لا يحب أن يسمع عن هذا الرجل أو يراه

ربما لو قالت له فى لحظة أخرى ، غير هذه اللحظة ، إنها رأت حمدى ، لما أعار الأمر التفاتاً .. ولكن الآن بالذات كان ذلك السم الغامض يعربد فى قلبه . لم تكن الغيرة ولا الشك ، فقد كانت ثقته بها عمياء ، ولكنه كان ذلك الشر الذى يستهويه ويغريه بالظلم والأذى.. إذا ذهبت هذه الفرصة التى يستطيع أن يبكيها فيها فقد لا تعود أبداً . . فليغتنمها . . ولمارس القسوة . . وسيعرف بعد قليل كيف يلاطفها ويرقأ دمعها ! . .

وأيقظه صوتها الضاحك : « أكان يجب ألا أقبل منه عقد الياسمين ؟»

ودوى فى الغرفة صوت . . صوت لم تسمعه سميرة من قبل ، ولا توقعت أن تسمعه . . صوت لطمة خلت من الرحمة . . على خدها !

ورآها وهى تشحب ، وتمتقع ، وتذهل .

ولكن الدمع الذى اشتهى أن يراه غزيراً فى عينيها لم ينبثق ، كانت هناك ابتسامة تحاول أن تتشبث بالبقاء وهى تقول له : « حمدى لم يقابلنى . ولم يشتر لى عقد الياسمين .. كنت أداعبك .. اشتريت أنا الياسمين .. لأنك تحبه » .

ونطق فى عينيها فجأة صمت مخيف . . صمت قال له الكلمات التى أحبت دائماً أن تداعبه بها : « هفواتى كحسناتى لن تصادف منك إلا القلب الرحيم الحنون » .

وتحولت إلى الشرفة . .

وأسرع فى أثرها ليقول لها مستغفراً : « سامحينى .. ساعدينى على قتل الحية الرقطاء التى تختبئ داخل نفسى . »

ولكنه لم يجدها فى الشرفة .

وأطل من علٍ ليراها على أسفلت الطريق ، ومن حولها المارة يتجمعون . . .

السّاقية تدور !!



كنت أصبو أن أكون محامياً ، وكان يصبو أن يكون طبيباً . وكنا في ذلك الحين ما نزال تلميذين في القسم الداخلي بالمدرسة الثانوية ، وكنا نتحدث عن هذه الآمال ونحن جلوس عند ساقية تروى حقلا قريباً من المدرسة، نداعب بأيدينا الماء الذى تسكبه القواديس في الحوض، ونداعب بخيالنا أمانينا ، ونمد أعناقنا إلى المستقبل . فأنا أرجو أن أكون محامياً بارعاً « أفكّ » من المشانق ، وصاحبي « زكريا » يؤكد أنه لن يكون طبيباً فحسب ، بل صاحب مستشفى يتوافد عليه المرضى من كل صوب .. وكنا نتّادى فى المنى ، فنحلم أن لنا زوجات صغيرات جميلات نغدق عليهن الحب ، ويغدقن علينا السعادة ، وأن لنا بيوتاً حافلة بالأنس يزينها أطفال لهم حلاوة الملائكة وبراءتهم . .

وكانت الساقية تدور ونحن نتحدث ، وتروسها يئن حيناً ، ويغنى حيناً ، ويسكت حيناً ، وكأنه يغافلنا ويسترق السمع . . وعم « منيسى » صاحب الحقل جالس هو الآخر يصغى إلى الغلامين اللذين يتحدثان عن المحاماة والطب والحب بصوت يحاولان أن يكون مسموعاً له ، ثم يسأم الإصغاء فيقوم ليحثّ زوج البقر المربوط إلى الساقية ، ويحكم ربط العصابة على أعينه وهو يغنى مواله المحبوب الذى مازلت أذكر منه : « نجمتين فى السما يشهدوا إنى مظلوم .. واحدة فى برج اليمن وواحدة فى برج الروم ، جمل الهوى عضنى ، وجات عضته شوم ، هاتوا

القلم والدواية واكتبوا على نابه ، وان رحت قتيل الغرام يلزموا أصحابه ! »

وكنا نسمع صوت جرس العشاء يدوّى فى فناء المدرسة ينادى الجائعين، فنلقى السلام على عم منيسى الذى عضه جمل الهوى ، وننقده ثمن ما أكلناه من بطيخ أو قثاء ، ونجرى . .

كان هذا من عشر سنوات . .

* * *

ما أسرع ما تنقضى السنون ! وما أعجب ذاكرة الإنسان ! إن تاريخ تلك الأيام محفور فى ذهنى كأنه حدث بالأمس . لن أنسى هذا اليوم الذى حزمنا فيه الحقائب بعد أن أدينا امتحان « البكالوريا » . آن أن نفترق إلى حين ، وأعود إلى قريتى قرب « نجع حمادى » وينصرف صاحبى زكريا إلى « السنبلاوين » ، نفترق لنجتمع فى أكتوبر ، فى القاهرة، لا فى هذه المدينة التى شاءت الظروف أن نتلقى فيها دراستنا الثانوية معاً ونتعارف فيها . ولم نكن قد رأينا القاهرة ، وإنما كنا نسمع عنها . لن أنسى الحديث الذى ملأنا به الساعة التى تسبق قيام القطار الذى سيقلنى ونحن نتمشى على إفريز المحطة . لقد تحدثنا عن « الطب» و« المحاماة » وعن ميعاد الكشف الطبى فى الجامعة ، وعن المكان الذى سنقيم فيه معاً فى القاهرة . . .

وظهرت النتيجة ، وكنت أنتظر برقية من قريب لى فى القاهرة ، لكن البرقية لم تصل . وكان فى قريتنا طالبان متقدمان للبكالوريا ،

وسمعت في منزلهما الزغاريد ، فأيقنت أنه « السقوط » وكان بقطر أفندى الصراف مشتركاً في « جرنال مصر » ، فذهبت إليه في الصباح بعد ليلة لم يغمض لى فيها جفن ، وبحثت عن « نمرتى » في قائمة الناجحين عبثاً ، وانكفأت إلى منزلى . فإذا بصديقى الناجح الهمام الوفى زكريا فى « المندرة » ، ما كاد يعلم النبأ المفجع حتى أتى من السنبلاوين يؤدى « واجب العزاء » ويخبرنى أنه « الإنجليزى » اللعين ؛ وكانت في عينى صديقى دموع وهو يوصينى « بالجدعنة » في الملحق لأن درجاتى في الإنجليزى ٩ والنجاح من ١٦ .

غير أنى لم « أتجدعن » قط .. .وظهرت نتيجة الملحق ، فإذا بالتسعة تنكمش إلى ٧ ، وهكذا كنت أول من أخل بالاتفاق . وذهب زكريا وحيداً محزوناً إلى القاهرة ليلتحق بكلية الطب ، وأبت أنا إلى القسم الداخلى بالمدرسة الثانوية . من هذا الوقت كرهنا الإنجليز أنا وصاحبى كرهاً شديداً ، وصرنا من غلاة الوطنيين الثائرين على القوم ولغتهم ؛ وكان هذا الكره يتزايد ، وكنت أحس بالحسرة كلما تسلمت رسالة من صديقى وقد وقعها « الدكتور زكريا » . وكان الذى يزيد حسرتى أنه يبدأ خطاباته بكلمة «عزيزى الأستاذ» تطييباً لخاطرى ، وكانت حسرتى تذكى حماستى ، فاجتزت امتحان البكالوريا في يسر وسهولة في العام التالى .

لكن الدكتور زكريا هو الذى أخل بالاتفاق هذه المرة . فقد « بلّط » في إعدادى الطب . ولما مضيت إلى القاهرة لألتحق بالحقوق وجدته يعد

حقائبه ليغادر مصر إلى « ليون » ، فقد ضنت عليه الكلية بمقعد إلا إن أراد أن يكون طبيب أسنان ، ولما كانت « الساعة » رفيقة أحلامه ، فقد رفض « الأسنان » بإباء وشمم .

وهكذا قدر لنا أن نلتقى لنفترق . وودعنى بعد أن وضعنى فى « البنسيون » الذى كان يقيم فيه ، وبعد أن رتب حوائجى فى الغرفة التى كانت له عند « مدام ريشار » وشدد على ألا أغادر بيت هذه المرأة الطيبة .

وعدت من الإسكندرية بعد أن ركب صديقى الباخرة ، وفى حجرتى الجديدة أسندت رأسى إلى مكتب رصت عليه مجلدات قانونية ضخمة سبقت المناهج وابتعتها من سور الأزبكية . وخلت هذه المجلدات هى القواعد العتيدة التى ستقوم عليها أعمدة المستقبل الشامخ ؛ وخنقتنى العبرات. كنت أود أن يشاركنى زكريا السعى إلى المجد والعلا ، وفكرت فى عمق الحب الذى أحبه لى وأحببته له ، وأحسست أننى وحيد ، فشهقت باكياً . وقد شق على فراق زكريا .

ووضعت على كتفى يد رفيقة ، فرفعت وجهى فإذا بمدام ريشار ، وقد انتشرت على وجهها العجوز ابتسامة وديعة . . وإذا بابنتها مادلين قد وقفت على الباب وعلى وجهها سمات الحزن .

ما أطيب هذه الأم والابنة ! وما أقدرهما على مسح الدموع وإزالة الهم والشجن ! لقد غنت العجوز دوراً تغنيه الأم لولدها ، بعد أن شربت

كأساً من النبيذ ، وأدارت مادلين الحاكى ، وكانت الأسطوانة فرنسية ، فلما رأت أنى لا أتذوقها ذهبت إلى الشقة المقابلة واستعارت من صاحبة لها أسطوانة عربية .

وعلى المائدة عرفت أن الأم أرملة مات زوجها فى حرب ١٩١٤ ، وترك لها جاك ومادلين طفلين ، فمازالت بهما تربيهما من إبرتها حتى شب جاك ، وتعلم الميكانيكا ، وصار صاحب ورشة سيارات ناجحة ؛ لكنه قتل فى ليلة عيد الميلاد منذ عامين ، فى حادث تصادمت فيه سيارته بقطار عند « مزلقان » ، فلم يعد هناك بد من أن تخرج مادلين لتعلم الأطفال فى إحدى المدارس ، وتعطى دروساً فى « البيانو » ، ولم يعد هناك بد من أن تؤجر غرفة مفروشة من مثواها . .

وهكذا أخذت الأم والفتاة تحكيان لى عن حياتهما وآلامهما لتسليانى ، وعلى مائدتهما البسيطة ذقت نعيماً جديداً ، وعرفت أن حياتى معتمة تنقصها الأشعة التى تشرق من عيون السيدات .

فى هذا البيت الصغير وجدت متعة بريئة هادئة لم أحصل عليها فى بيتى عند أمى وأبى ، حيث اعتدت أن أرى أمى منهمكة فى العجن والغسل من الصباح إلى المساء ، وأبى منصرفاً إلى الحديث مع المزارعين فى المندرة ، أو مع العمدة فى الدوار ، أو مع الملاحظ فى النقطة . كانت مادلين تعزف وتغنى أحياناً ، وكنا أحياناً نلعب الورق وندير الحاكى ، وكان يروقنى تندرها وحديثها بلغة عربية متكسرة .

كنت حتى ذلك الحين لا أعرف المرأة إلا عن طريق الكتب ، وكنت قد

كونت لنفسي عقيدة أنه لا توجد امرأة خليقة بالعبادة والعذاب ، فإذا بمادلين تغير عقيدتي وتقنعني أن المرأة تستطيع أن تكون أكثر من أنثى ، أن تكون العالم بأسره لرجلها . كانت ذات جمال رائع ونفس ذكية . كانت تفهم أدق ما يجول في خاطري من تعبير وجهي ، فتكفيني مشقة إخضاع الكلمات العربية لحصولها من لغتنا ، وكانت هادئة الطبع رصينة ، لا تضع مساحيق ، ولا تبالغ في التأنق ، ولا تهمل الصلاة في خدرها أمام أيقونة العذراء وصورة أخيها الراحل .

كم كانت مادلين ظريفة عندما كانت تبسم ابتسامة الصباح وهي خارجة إلى عملها ! وقد تتلطف فتمد أناملها إلى رباط رقبتي فتهذبه وهي تلومني في رفق على إهمال زيي . في تلك اللحظة كنت أستنشق عن قرب عطر شعرها ، وكنت أحس كأن ابتساماتها تنساب في نفسي كما ينساب البرق في الأفق ، وكان يهب منها نفس خفيف يشملني ، ويفعل بي ما تفعله الخمر بشاربها .

وكنت ليلة الخميس أسهر كثيراً وأستيقظ متأخراً في صباح الجمعة ، وذات صباح كنت ممدداً في فراشي مستيقظاً لكن مغلق العينين ، وكنت أفكر في مادلين . . وأحسست وقع أقدام في الحجرة ، فرفعت جفني قليلا لأراها ! . . وكانت تتقدم على أطراف قدميها ، وإذا بها تقف قرب سريري ، وتحدق إلى وجهي ، وعلى محياها التعبير الذي ينشده الفتى في الفتاة . وفتحت عيني فجأة فإذا بها تجفل وتمضي لا تلوي .

إذن فبنفس مادلين ما بنفسي . فلأجترئ على شفتيها وأذق

منهما طعم القبلة التى طالما قرأت عنها وحلمت بها . إن مادلين تعود فى الساعة الثالثة . فيجب أن أرتدى ملابسى وأكون على استعداد فى هذا الوقت . حتى إذا دق الجرس هرعت إلى الباب وقد عقدت « الكرافتة » فى الجانب الأيسر من عنقى . وهى لاشك سترتاع وتندفع لتصلحها ، وسترفع وجهها نحوى ، فأهوى بفمى على فمها ، وأختطف منه ابتسامته الهائمة ، وأطفئ ظمئى . وليكن ما يكون ! ..

ودق الجرس ، واندفعت إلى الباب ، وفتحته . .

لكن مادلين لم تكن وحدها . . .

كانت معها فتاة مصرية ، وابتسمت المصرية وهى تنقل نظرها بين رباط رقبتى ووجه صاحبتها ، وقهقهت الفرنسية عالياً ، وتصبب جبينى عرقاً .

— هذه « فكرية » التى حدثتك عنها ، عادت اليوم من السفر . .

وكانت مادلين قد حدثتنى فى الواقع من قبل عن صديقتها العزيزة « فكرية » التى تسكن الشقة المقابلة ، وعن والدها سعيد بك المفتش بوزارة الزراعة ، وعن الإخوة الصغار الذين تتولى فكرية العناية بهم بمساعدة مربية مذ ماتت أمها . .

وكانت مادلين قد أطرت جمال صاحبتها كثيراً ، فلما رأيتها عرفت أنها لم تكن مبالغة ، وكانت فكرية بين الحين والحين ترفع عينيها نحوى . وفى تلك اللحظات استطعت أن أقابل نظراتها ، وأحسست كأنى أترنح وأفقد توازنى . . إن فى عينى هذه الفتاة الجنة والجحيم ! ..

وضمتني حجرتي في الليل ، وخاصمني النوم .. .وقال لى الأرق إن اللحظة التي فتحت فيها باب الشقة كانت من أخطر لحظات حياتي ، وإن القدر الذى دفع بفكرية أمامى فجأة قد قضى بلفت قلبي الذى كان يجرى نحو مادلين لفتة شديدة غامضة النتائج ، وخلت أن الماضى بحسناته وسيئاته قد انمحى ، وأننى لا أعرف شيئاً فى الوجود غير عينى فكرية ! . .

* * *

ومضت الأيام ، وكانت فكرية تزور صاحبتها كثيراً ، وكنت ألقاها وأتحدث إليها . وعرفت مادلين بفطنتها ذات نفسى ، وخيل إلى أنها صدمت وحزنت لما عرفت، لكنها اعتصمت بكبريائها وتماسكت ، وأدهشنى أنها تمهد لى السبيل إلى قلب فكرية ! . .

ولم تقم فكرية فى الطريق إلى قلبها عقبات كثيرة .

ذات مساء ذهبت إلى السينما فى صحبة مادلين وأمها وفكرية . وجاءت جلسة فكرية إلى جوارى ، وكان موضوع الرواية يبعث على الحزن ، فلما بلغ قمة التأثير فوجئت بفكرية تسند رأسها إلى كتفى وتجعل شعرها الحريرى يلامس خدى ، وتناولت كفها وأبقيتها فى كفى فلم تسحبها .

وأضيء النور ، فرأيت عينيها مخضلتين بالدمع ، وقرأت فيهما أننا.. قد تفاهمنا .

ودقت الثانية بعد منتصف الليل وأنا أتقلب فى فراشى . . وخرج

العاشق إلى الشرفة ، فإذا بفكرية واقفة فى نافذتها . وارتدت، وكل منا يحاول ألا يراه صاحبه .

كان الصباح صباح أحد ، وخرجت مادلين وأمها إلى الكنيسة ، ولم أجد فى نفسى الرغبة فى الذهاب إلى الكلية و بقيت فى حجرتى .

ودق الباب . . وإذا فكرية فى ثوب بسيط من ثياب المنزل ، وسألت فى تردد عن صاحبتها . وكنت واثقاً أنها نعرف أن مادلين فى الكنيسة . . ثم استأذنتنى فى أن تدخل لتختار بعض أسطوانات مادلين . وكان واضحاً أنها تختلق سبباً لتبقى معى . وحاولت أن أنتهز الفرصة وأن أقول شيئاً ، لكن شجاعتى خانتنى . واضطرت أن تحمل ما اختارت وأن تمضى إلى الباب ، وعنده مدت يدها مودعة ، غير أنى لم أترك يدها ، وسألتها من حلق جاف : « ليه كنت سهرانة امبارح ؟ » فابتسمت وأجابت : « وليه كنت سهران »؟ ! وكانت ترف على شفتيها ابتسامة .. وقبلت الابتسامة!

قبلتى الأولى على فم امرأة ، القبلة التى حلمت بها من شفتى مادلين ..

لكن لماذا ارتجفت وارتعدت ؟ ما هذه القشعريرة التى سرت فى بدنى ؟ وكيف تشعل القبلة الحمى فى جسد فتى صحيح ، فيضطر أن يلجأ إلى فراشه و يتدثر بغطائه وقد تصبب جبينه عرقاً ؟ !

* * *

وصارت قبلاتها الخبز الذى أحيا به .

وعلى هذا الخبز عشت ثلاث سنين . كان لحجرتى باب على السلم ، وكانت فكرية تزورنى فى جنح الظلام . تطعمنى من خبزها وحنانها

بكرم وسخاء، وكنا نتحدث عن المستقبل والسعادة القادمة وجنة الزواج .. بقيت سنة وأحصل على الليسانس وأصير .. رجلها .

لم نترك شيئاً إلا تحدثنا عنه ، الأثاث ، نظام البيت ، طراز الغرف ، الألوان ، هل أسمح لها أن تضع أصباغاً .. طالما ألحت على أن أحكى لها عن أمى وأصفها لها . طالما تمنت أن يحضر أبى من الصعيد لزيارتى لتراه ولو من بعيد . .

* * *

ليت السماء لم تجب هذه الأمنية . . كنت ذات مساء عائداً من السينما فى صحبة الفتاتين ، وكنا قد سمحنا لأنفسنا بشىء من الجعة ، وكان الطريق أمام المنزل خالياً ، فأخذنا نعدو ومادلين فى يمينى وفكرية فى يسارى ، فلما اقتربنا من الباب رفعت وجهى إلى الشرفة وإذا أبى واقف ينظر فى دهشة ، ولم يكن قد أنذرنى أنه قادم . .

ولم تخف عليه رائحة الجعة ، وسألنى فى برود عن الفتاتين ، ولم يزد على أن قال : « يا خيبة أملى ! لم أكن أعلم أنك خسرت فى مصر » .

* * *

أمضى ليلته على السرير إلى جوارى، لكنه لم يحدثنى بكلمة واحدة .. وفى الصباح رفض أن يمس طعام الإفطار ، وقال لى وهو يضع عباءته على كتفه : « بقيت ثلاثة أيام على إجازة عيد الفطر . تعال إلى البلد بلا إبطاء، فقد عزمت أن أعقد لك على ابنة عمك « صدّيقة » .. »

ولم أتردد فى أن أجيب : « لا أستطيع أن أتزوج صدّيقة » ..

وهنا ثار . وكان « لاروس» على مقربة منه فتناوله وقذفني به ، وهو يصيح : « طبعاً .. حضرتك داير مع بنات الإفرنج والشوام .. أنا منتظرك فى إجازة عيد الفطر ، فإن لم تحضر فإياك أن تريني وجهك مرة ثانية ، ولن يصلك منى مليم واحد » .. وخرج . .

* * *

لم أكن قد فكرت من قبل فى « صديقة » تفكيراً جدياً ، لا لأنها كانت قبيحة ، بل لأنها كانت فى الخامسة عشرة ، وكانت صغيرة القد ، ولم أكن أتمنى أن أتزوج لعبة . وكان عمى أغنى منا كثيراً ، وكان أبى يعتمد على الأطيان التى يستأجرها منه . وكنت أشم رائحة الكبرياء فى معاملتها لى .. فلابد أنها سمعت من ذويها أننا أقل منهم جاهاً .. ولم يكن أبى فى الحقيقة يرمى أن يزوجنى صديقة ، بل أن يزوجنى الأرض. فقد كان لها أخ وحيد مصدور يقضى أيامه فى مصحة حلوان . وكلما زرته لمح لى فى حسرة أنه ذاهب وأنى سآخذ الأرض مع أخته . هذا ما نفرنى من هذا الزواج ، وجعلنى أجيب أبى من غير تردد أنى لا أستطيع أن أتزوج صديقة .

وزنت كل شيء فى نفسى ، ثم صممت ألا أسافر إلى البلدة مهما يحدث ، وبقيت فى القاهرة معذباً تنهال على نفسى مطارق ذات أسماء متعددة : غضب أبى ، حب فكرية ، لن يرسل مليما واحداً ، التخلى عن الفتاة التى وعدتها بالزواج ولوثتها بقبلاتى .

وكنت أعرف أن أبى رجل عنيد ، وأنه تعود أن يطاع ، فكززت

يدى على الجنيهات القليلة التى لدى ، وبعت ساعتى الذهبية ، ووطنت نفسى على اتخاذ « ساندوتش الفول » طعاماً أساسياً . وكان القسط الأخير لحسن الحظ قد دفع ، فأيقنت أنى أستطيع أن أقاوم بقية العام . وكان قد بقى على الامتحان ثلاثة أشهر .

* * *

وانقطعت رسائل أبى ، وأخذت أعيش عيشاً مريراً ، حتى ظهرت النتيجة ، فإذا بى منقول إلى السنة النهائية ، ومن أوائل الناجحين .

وكنت أحسب أن أبى سيرق لى حينما يعرف تفوقى ، لكن كل أملى فى صفحه قد تلاشى ، فقد تسلمت رسالة من أمى بخط مأذون القرية ، تنبئنى فيها أن عمى عرض على أبى يد ابنته لى ، لأن خاطباً غريباً فى الطريق ، وأن أبى عز عليه أن يعرف عمى أنه لا يستطيع أن « يحكمنى » فسكت . وعد عمى السكوت رفضاً فغضب ، وزوج ابنته لحكيم مستشفى الإنكلستوما ، وأنه انتهز فرصة خيبة محصول القطن ، بسبب الدودة ، وتذكر فجأة كل ما فى ذمة أبى من مبالغ متأخرة . . ورفع الدعوى . . وأخذ حكماً . . وبدأ ينزع الملكية .

ويستنزل المأذون — سامحه الله — على رأسى بلسان أمى غضب الأرض والسماء ، ويذكرنى بسقر وعذاب السعير . . ولعنات أخرى لا أظن أنها مرت بخيالها ولكنه نسبها إليها !

* * *

وانقضت عطلة الصيف بدون أن يصلنى من أبى أى عون ، وأيقنت أنه نبذنى ، وأنه لن يرسل أقساط المدرسة ، وفكرت فى الموت . .

غير أن الأمل عاودنى عندما أعفتنى الجامعة من المصروفات . ولم تكن فكرية تخفى شيئاً من حالى عن مادلين ، فإذا بمادلين تجاهد حتى تجد لى سيدتين أعطيهما دروساً فى اللغة العربية لقاء أجر زهيد لا يكاد يكفى لطعامى .

لقد افتديت بكل ما أستطيع مقامى إلى جوار فتاتى ، لكننى كنت أنحدر إلى البؤس انحداراً سريعاً . ولم يكن من المروءة أن أبقى فى الغرفة التى تؤجرها مدام ريشار لتعينها على العيش ، فأجمعت أمرى وأخبرت مادلين ذات مساء أنى راحل فى الصباح ! . .

ما أنبل هذه الفتاة ! وما أرحم قلبها ! لم أكد أتهيأ للنوم تلك الليلة حتى سمعت نقراً على الباب ، ودخلت مادلين وفى يدها النقود التى تركتها على المائدة ، وفى عينيها دموع . .وبكت وهى تتوسل إلىّ ألا أذهب . . كم حاولت أن تقنعنى بالبقاء . إن لها نقوداً فى البريد تستطيع أن تقرضنيها لكى أواجه نفقاتى ، وأدفع أجر الغرفة لأمها ، ولن يعرف أحد . . حتى فكرية !

لكنى اعتذرت . وقنعت بغرفة رطبة فى حى فقير ، وكنت سعيداً فى هذه الغرفة الضيقة التى وسعت آمال الحب وأطماع المستقبل . كانت فكرية توافينى وتأسو بيديها الرحيمتين جراح كرامتى . وانصرفت بكل قواى إلى الدرس لأنجح وأمسح عن وجهها بسمته المحزونة . وصار حبها سلاحى فى كفاحى .

كنت أحياناً أمل العمل وأفتر ، ثم كانت تأتى فجأة وتسكب نور

عينيها فى عينى ، فأشعر أن صدرى يضىء ، وأن قلبي طائر يصدح ويغنى وتمتلىء نفسى بحب الحياة . فى تلك اللحظات كنت أحس أن سعادتى ترهقنى ، وأننى عاجز عن شكر السماء ، فتنحدر من عينى دموع من فرط الحنان والشكران ، وتنطلق نفسى إلى العلا تنشد نجمها بين ألمع النجوم . .

* * *

وفجأة تحطمت القيثارة . .

كانت فكرية تزورنى كل أسبوع ، لكن ها هو ذا شهر يمضى ، لم تظهر ولم ترسل حرفاً . وذهبت أسأل مادلين ، فعلمت منها أن فكرية « عزلت » ولم تترك عنوانها الجديد ، وانصرفت محزوناً لا أكاد أصدق مادلين .

وانقضت شهور وأنا أنتظر فكرية عبثاً ، وأيقنت . . أنها القطيعة .

وذات مساء .

كنت واقفاً فى شارع عماد الدين عند سينما النصر وإذا هى قادمة تتهادى وذراعها معلقة فى ذراع شاب أنيق ، جميلة فاتنة كعهدى بها ، ووجهها ينطق أنها شديدة الإقبال على الحياة ، فقد أذاعت فيه المساحيق بجرأة لم أعهدها فيها من قبل !

وتبعتها وهى تدخل السينما .. وأطفئت الأنوار ، واستطعت أن أجلس خلفها ، فإذا ضحكاتها الناعمة تنطلق من صدر مطمئن مفعم بالسعادة ، وإذا بها تميل على صاحبها وتهمس فى أذنه ، ويهمس فى أذنها ، ويدها تغطى يده ، ورأسها يميل إلى كتفه ، وشعرها الحريرى يلمس خده ...

فكرت أن أفاجئها لكنى وجدت شفتى تختلجان ولا تضبطان كلاماً .. وأجزاء وجهى ترتجف فتماسكت ، وانسللت إلى الخارج .

* * *

كنت أحسب أن « صنم » فكرية سيتحطم فى نفسى بعد هذه الضربة وإنى سأدير ظهرى للماضى ، فإذا بى أكتشف أن آلامى لم تبرح صدرى وإذا حبى جديد لم تبله الأيام ولم يطفئه الدرس والتأمل والتأسى ، وعشت فى دنيا غريبة غير دنيا الناس ، أصارع أشجانى ، وأدافع خيالاتى وأطرد فكرية عبثاً من أحلامى . أينما أدرت بصرى كان يباغتنى وجهها .. وأتلفنى شوقى ، وأضلنى أساى وهواى ، ويئست من نفسى ، وأسلمت قيادها للأحزان .. ومضيت فى دراستى بعقل شارد .. كنت أقرأ ثم أستعيد ما قرأت فإذا بيد خبيثة قد مسحت عن ذهنى كل شىء ، وإذا بى صاحب ذاكرة مطفأة وفهم مريض . كنت أعتقد أننى سأخفق فى امتحان الليسانس ، لكن حدثت الأعجوبة .. نجحت ..

وإذا فكرية فى حجرتى ! .

قالت : « كنت أقرأ الأهرام ورأيت اسمك بين الناجحين ، وذكرت الماضى فجئت أهنئك . طالما حلمنا معاً بسعادة الليلة التى تحصل فيها على الليسانس . وتواعدنا أن نقضيها متعانقين ، وهأنذا أبر بوعدى . لقد خنتك .. خنتك . لكننى لك الليلة . الليلة فقط . وغداً لغيرك . لم أجئ لأخدعك .. إننى مخطوبة .. »

ودنوت منها .. ولطمتها .

ووقفت تبكي وهي خافضة الرأس . . وراقني أن أراها ذليلة معذبة وهي سبب عذابي . ولكني فوجئت بغضبي يتراجع أمام دمعها المنهمر ، وترنح قلبي وأنا أرقبها وصدرها يضج بالبكاء . . ما أضعفني ! . كرهت الناس ونفسي لكني لم أكرهها . . هذه الغرفة كانت سمائي السابعة ولم تصبح حقيرة رطبة إلاّ يوم هجرتها وهجرتني .

ووجدتني أضحك منها ومن نفسي ضحكاً كالبكاء . . هذه الفتاة التي وهبتها قلبي ووضعت فيها أملي، ومنحتها من نفسي كل شيء حتى لم أعد شيئاً ، تأتي لتسخر مني . لتصارحني أنها لم تعد لي .

وهممت أن أطردها لكنها وضعت أناملها على شفتي لتمنع ما تتوقعه من كلمات قاسية ، وألقت رأسها على كتفي ، وانساب في أذني همسها خجولا مبللا بالدمع : « قبلني في فمي . . انزح قبلاتك القديمة . . أحسست فجأة بروحي ممتلئة منك فأتيت إليك لتفرغ ما بنفسي من هواك . . أريد أن أذهب إلى الآخر فارغة . . لن أخدعك وأزعم لك أني أتزوج مرغمة . . مأساتي أنني أحبك وأحبه أكثر . . خفت عليك أن أكون لك وقلبي معه . . أنا حائرة حيرة شديدة . . أنا مجنونة . . » .

وحاولت أن أدفعها بعيداً . . حاولت بفكري فقط . . بقي رأسها على كتفي . . وأنا أصغي لنحيبها تبخر غضبي للكرامة . . وأنفاسها اللاهثة امتصت كبريائي . . وحنوت عليها وأنا أخبئها في حضني ، كما يحنو الطائر على وكره المهدم . .

يا لها من ساعة سعيدة كلها تذكارات عذوبتها فى مرارتها . أخدعنا الزمان وعشنا فى الماضى ؟ أم الزمان خدعنا وأوهمنا أننا فى صباح حبنا لا فى مسائه ؟ لست أدرى . . وإن كنت أدرى أننا تواعدنا أن نلتقى وكلانا يرى فى عينى صاحبه أن هذا لن يكون . لأن الكأس التى كنا نشرب منها قد تصدعت . وأعطت فى تلك المرة الأخيرة خمرها الأخيرة، رشفناها وهى تنساب من شقوق الكأس . وعندما سحبت يدها من يدى وهى تغادر غرفتى أحسست أن الكأس قد انشطرت . .

* * *

ومرت أعوام . . لم أر فيها فكرية ولم أسمع عنها . وكنت قد وفقت فى المحاماة ، وافتتحت مكتباً فى القاهرة . وذات مساء دخلت مكتبى فوجدت سيدة فى انتظارى ، وإذا هى فكرية وفى يدها صبى فى الرابعة، وقرأت فى قسماتها أنها غير سعيدة .

قالت : « لو كنت أملك أجر محام لما جئت إليك . لا حق لى أن أظهر فى حياتك ، لكننى لم أجد مفراً . أنت المحامى الذى يرضى أن يدافع عنى بغير أجر . لقد خاصمنى زوجى وطردنى وطفلى . وقد استصدرت ضده حكم نفقة منذ سنة ونصف . لكننى لم أستطع التنفيذ . إنه يتهرب من الدفع بشتى الحيل والألاعيب . هل تكره أن تساعدنى . . إن لم يكن من أجلى فمن أجل هذا الصغير . . لم أعد أحتمل أن أعيش عالة على الأقارب . »

كانت فكرية تعرف أنها تأمرنى وهى تتوسل إلى . . قرأت ذلك فى عينيها . .



ورددت إلى السحر القديم فجأة . . أصبحت فى غمضة عين طالب الحقوق الذى كان يرتجف من الحب والوجد ، وينام ليله على شوك السهر ، ويقضى نهاره فوق جسر التهدات ، وقد التفت حول ساقيه أفاعى الغيرة .

واستنجد طالب الحقوق بالمحامى الرزين وأهاب به : «كان ذلك من عشر سنين .. إنك الآن رجل آخر » .

وقبل المحامى النصيحة وقال لفكرية فى تؤدة : « اطمئنى ياسيدتى سنحصل لك على حقك » .

* * *

وتعقبت الزوج بسلسلة من الدعاوى والحجوزات.. ونجحت فى إبطال كل البيوع الصورية التى افتعلها تخلصاً من الدين .

وذات مساء ، وأنا فى مكتبى تسلل طالب الحقوق على أطراف قدميه ، ووقف خلفى يهمس فى أذنى : «حقاً إن المحاماة مهنة النجدة .. ولكننى لا أظنك فى قضية زوج فكرية محامياً فقط . . إنى أشم بين جنبيك رائحة الكبد المحترقة . . إنك تكره الرجل لأسباب أخرى لا تخفى علىّ » .

وقطع الحديث وصول الزوج .. كان قد طلب موعدا من محامى زوجته .

وظل طالب الحقوق واقفاً إلى جوارى ينظر معى إلى الزوج ورفض أن ينصرف .

وبعد حديث قصير تبينت أن وراء إضرابه عن دفع دين النفقة سبباً يخفيه . . إنه يريدها أن تعود إليه .

وجدت نفسي ممتعضاً من رغبته ، واندفعت أقول له : « إن موكلتي مصرة على الطلاق » .

واحتقن وجهه من الغضب . . وألقى على المكتب حزمة من الخطابات وهو يصيح حانقاً : « مصرة على الطلاق لكي تذهب إلى هذا النذل الذي يبثها لواعج غرامه » .

وبدأ يقرأ . .

ولم أكن في حاجة إلى أن يلقي على سمعي تلك العبارات الملتهبة فقد كانت من إنشاء طالب الحقوق الذي يقف خلفي ، كتبها إلى فكرية عندما كان ينعم بالحب في الأيام الخالية .

وقاطعته : « هل تحققت يا سيدي من تاريخ هذه الرسائل . فلعلها سابقة على الزواج .. وليس من العدل أن تحاسبها على ما بدر منها قبل أن تعرفك » .

وأجابني وعروقه تنفر في عنقه من الغيظ : « هبها رسائل قديمة . . لماذا تحتفظ بها . . لماذا تتسلل من الفراش ، بعد منتصف الليل ، وهي تحسبني نائماً لتذهب إلى أقصى حجرة في البيت ، لتنفرد بها وكأنها تنفرد بكتاب صلاة . . إنني ما أحجمت حتى الآن عن التشهير بها إلا إكراماً لطفلي » .

وانتفض طالب الحقوق الذي كان يقف إلى جواري وتقمصني .. وحاول أن يكون سيد الموقف . . ولكنني تذكرت في اللحظة الحاسمة بعض قواعد لعبة الجودو .. وصرعته .. وشددت وثاقه ، وحبسته داخل عقلي .

وقلت له ، وأنا حزين من أجله : « يابنى . . إن بقاءها مع زوجها هو الضمان الوحيد الذى يعصمنى من العودة إليها .. لو عدت إليها ماذا يحميك من أن تهجرك إلى زوجها الحالى أو إلى رجل آخر ، ثم تقول لك ببساطة : « اكتشفت أننى أحب هذا الرجل أكثر منك .. لا أريد أن أخدعك وأبقى معك . . وقلبى معه ! . . »

وقبل طالب الحقوق النصيحة على مضض .

ولم يتدخل وأنا أعقد الصلح بين فكرية وزوجها .. تنازلت عن متجمد النفقة . . وتنازل عن الرسائل وقبل أن أمزقها .. ورضيت أن تعود إليه .

ووضعت فكرية يدها فى يدى مودعة . . وقرأت فى عينيها أنها تريد أن تقول لى : « أيها النذل . . كنت قد بدأت أحبك أكثر منه ! ..»

* * *

ومنذ أيام

قصدت إلى المدينة التى تلقيت فيها دراستى الثانوية إلى جانب صديقى « زكريا » لأترافع فى قضية . وفى الغروب حملتنى قدماى إلى حيث الساقية التى كنت أجلس عندها معه منذ عشر سنوات ، فإذا بها باقية كما هى ، وإذا كل شىء كما كان إلا لحية عم « منيسى » صاحب الحقل التى صارت صافية البياض بعد أن كان لونها لا إلى البياض ولا إلى السواد . . وجلست أنظر إلى الماء المتساقط ، وأحدق إلى القواديس وهى ترتفع وتنخفض ، وقد نما عليها الطحلب ، وصارت لها كسوة خضراء . وأخذت أصغى لصرير الساقية ، وسمعت جرس العشاء ينادى الجائعين

من تلاميذ القسم الداخلى ، فذكرت زكريا ، وأحسست أنى جائع ، وودت لو أجري نحو المدرسة كما كنت أفعل فى الماضى ، لكنى ذكرت الشارب الذى يثقل شفتى ، وأحسست أن العشر سنين تسقط كلها أمام ناظرى ، وتكون حائطاً يفصلنى عن صباى . ووقعت عينى على زوج البقر وقد عصبت أعينه وأخذ يدور ويدور . .

أكنا أحسن حالا أنا وصديقى زكريا من هذا البقر الأعجف المعصوب العينين ؟ ألم يكن « المستقبل » محجوباً عن أعيننا ؟ أكنت أعرف أننى سألتقى بمادلين وبفكرية ، وأن زكريا سيذهب إلى فرنسا ويعود بعروس من عرائس السين تموت على ضفاف النيل بعد سنة ، وهى تضع ابنها البكر الذى كان براً بها ففاضت روحه مع روحها ؟!...

كأن صاحبى « زكريا » لايزال جالساً معى عند الساقية . . كأن حديثه لايزال عالقاً بجو هذا الحقل : « سأصير طبيباً عظيماً ، وسيكون لى مستشفى اسمه مستشفى الدكتور زكريا ، وسنأتى إلى هذا المكان فى صحبة زوجاتنا ، من أجل الذكرى ، زوجتى فى ذراعك وزوجتك فى ذراعى ، وأطفالنا أمامنا يمرحون . أول أبنائك يحمل اسمى ، وأول أبنائى يحمل اسمك ، أولى بناتى باسم زوجتك ، وأولى بناتك باسم زوجتى .. سنكون معاً دائماً . لن نفترق . هذا عهد . . »

مسكين زكريا ! لقد قدر لكن الأقدار ضحكت . بعد كل هذه الأعوام ، ليس له زوجة ، وليس لى زوجة ، وليس لنا أبناء . . ولم « أفك » أنا حبلا واحداً عن رقبة مشنوق ، ولم يصر صاحبى طبيباً عظيماً

ولا صاحب مستشفى . . كل زبائنه من الخيل والبغال والأبقار التى تملكها وزارة الزراعة ، فقد « لعب » فى فرنسا وعاد طبيباً بيطريًّا فقط ، ووظف فى الحكومة ، وألف القعود ، ولم يعد الغلام النحيل الجميل ، بل اكتنز جسمه شحماً ولحماً ، وتدلت تحت ذقنه حقيبة تحوى أقة من الدهن . . كم أشفق عليه كلما زرته فى محل عمله ، فوجدت العرق يقطر من وجهه ومن حوله « الحداوى » وأدوات « التطبيق » ! وكم أدهش كلما دخلت عليه فى بيته فوجدته « يهوّم » فى كرسيه أو يقرأ فى كتب صفراء حواشيها أطول من متونها . . يحدثنى عن النقشبندى والقلقشندى ويحاول جهده أن يفرّ من حاضره ويدفن حياته فى مجاهل يختنق فيها عن ذكرى زوجته العزيزة الراحلة . .

عند الساقية أخذت الذكريات تساقط شجنها فى قلبى ، كما تساقط القواديس ماءها فى الحوض . وظللت أصغى لقلبى وهو يمتلىء بالأحزان ثم قلت لطالب الحقوق ملاطفاً : « هيا ننصرف من هذا المكان » .

وألقيت نظرة ورائى وأنا أسير ، فرأيت عم « منيسى » واقفاً يغنى مواله القديم « جمل الهوى عضنى ، وجات عضته شوم » وهو يحكم وضع العصابة على أعين بهيمته . .

والترس يصرّ كأنه يحكى قصتنا ساخراً . .

والساقية تدور . .

* * *

قلت لمحدثى « الأستاذ بهجت » وهو يرفع كأسه إلى شفتيه : « إنها تدور فى رأسك » . .

وناديت « جارسون » الكازينو لأدفع له الحساب، لكن بهجت طلب كأساً أخرى . فلما ذهب الساقى ليحضرها سألته : « ومادلين ؟ ماذا جرى لها ؟ » . .

قال لى « صه . »

وكانت تمر أمامنا وقتذاك غادة تدفع أمامها عربة طفل ، فلما ابتعدت رفع كأسه إلى شفتيه وأجابنى من وراء الكأس وهو يبتسم : « إنها هى . إنها زوجة صاحب الكازينو » ..

وفهمت سر إقباله على الشراب . وسر حبه لزكريا . . وسر تردده على هذا الكازينو بالذات . .

* * *

ربنا... يفرجها!!



بعد مرور ستة أشهر على الزواج ارتفعت الكلفة بين بهية وفوزى .. ووجدت الجرأة على أن ترفع عينيها إلى وجهه وهو يقبّلها . . ثم وجدته الشجاعة على أن تقول له وقلبها يكاد ينخلع من الخجل : « هات لنا تلفزيون » .

وسكت فوزى لحظة قبل أن يجيب ، وكاد قلب بهية المضطرب أن يقف ، خشية أن تكون جاوزت بهذا الطلب حد الأدب . . فإن بهية كانت قادمة من الريف . . ولقد لقنت هناك ، فى كفر عشم الله ، قبل رحلتها الميمونة إلى القاهرة ، أن الرجل هو السيد المطاع . . وأن بنت الناس الطيبين لا تخاطب زوجها إلا إذا وجه إليها الحديث ، ولا تقول له « أريد » ، لأنه وحده صاحب الحق فى أن يريد أو يزهد .

وفى اللحظة التى استولى فيها على فوزى الصمت توقعت بهية أن يصفعها رجلها أو ينتهرها على الأقل . . فلما قال لها بصوت رقيق : « ربنا يفرجها » لم تصدق لأول وهلة أنها نجت . . ودوى فى أذنيها وجيب قلبها . . وقاربت الإغماء من فرط فرحتها بالسلامة . .

* * *

ولم يكن فوزى جافياً غليظ القلب كما أرادت زوجته أن تتخيله ، وقد أسرفت على نفسها فى التوجس عندما حسبت أن كل الأزاج على

شاكلة أبيها ، يغاضب أمها فتشارك عقيرته عصاه فى الغضب . وإذا لم يلق عليها يمين الطلاق واكتفى بزواج آخر ، كان فى منتهى الكرم !

وعندما فوجئ فوزى بهذا التوقير الذى جاءه طائعاً يجرر أذياله لم يزهد فيه ، واستمرأ المهابة ، ولبس لبهية جلد الأسد .

وعندما رأى فوزى أنه أعجبها فى الزى الجديد خرج به إلى الناس ، ولكن أصحابه والذين عرفوه من قبل لم يصدقوه ، ولم يأخذ أبصارهم منه إلا فرو الحمل .

وقد غفر فوزى للجميع ، وهو مبتئس ، ذلك الانتقاص من قدره ، لكنه لم يستطع أن يغفره للأسطى محسن صاحب صالون الحلاقة الذى يعمل فيه . . باليومية .

برغم أن الأسطى محسن يعرف أنه « تأهل » فإنه لايزال فى نظره صبيه . . حقاً إن فوزى دخل الدكان وهو غلام فى العاشرة ، مهمته أن يمسك المنشة ويطارد بها الذباب الذى يحاول أن يحط على وجه الزبون أثناء الحلاقة . ولكن ذلك كان من زمان . . منذ اثنى عشر عاماً . . أما الآن فقد حذق الصنعة ، وصار من حملة المقصات . . وصار أيضاً زوجاً لبهية . . فكيف يرسله صاحب الدكان لشراء اللحم والخضار كما كان يفعل من قبل . . ولو اكتفى بهذا لهانت البلوى . . ولكنه يقول له أيضاً أمام الزبائن : « يا واد » .

* * *

وذات ليلة باح لبهية . . قال لها : لم أعد أطيق هذا الذل . . سأفتتح « صالوناً » خاصًّا بى .

وخلعت بهية من معصميها الأساور الذهبية التى جاءت بها من بيت أبيها تأييداً منها للمشروع . . وقال فوزى لها وهو يقبلها : « لا تحسبى أنى نسيت . . ربنا يفرجها وأشترى لك التليفزيون » .

وعاشت بهية مع الحلم الجميل . رأت بعين الأمل إقبال الزبائن على « صالون » الانشراح ، وقال لها التفاؤل إن انتظارها للتليفزيون لن يطول . . وتخيلت نفسها قابعة إلى جواره تدير الأزرار ، فيمتلئ البيت بالصور والأنغام ، وتمسك بيدها الأغانى التى تحبها ، وتشاهد الأفلام وتتابع الحلقات .

ومرت الشهور . . كلما قرأ فوزى فى عينيها أنها موشكة أن تسأله : « متى تشترى التليفزيون » بادر إلى لقاء السؤال فى منتصف الطريق . . وقال لها بابتسامة تنضح طيبة : « ربنا يفرجها » .

وكانت بهية تحمل فى قلبها الابتسامة الطيبة ، وتتلكأ أمام واجهات الحوانيت التى تعرض أجهزة التليفزيون كلما أذن لها زوجها بالخروج ، وكانت تعود وفى قدميها ألم من السير الطويل . . وفى قلبها نشوة ، وصورة لآخر جهاز استقر عليه رأيها .

* * *

ولكن الشهور تحولت إلى سنين والحلم لايزال حلماً . . فى العام الأول كان « صالون » الانشراح لايزال يتأرجح بين الإخفاق والنجاح .. وفى

العام الثانى حدثها فوزى عن ضرورة إضافة كرسى آخر بالمحل بما يلزمه من مرايا وأدوات . . وأسطى باليومية استكمالا لمظاهر « الصالون » الكبير . . وفى العام الثالث علق فوزى لافتة مكتوب عليها : « قسم خصوصى للسيدات » ، وأضاء اللافتة بالنيون . وجاء بحسناء لكى تجلس على « الكيس» !

* * *

وفى العام الرابع قال فوزى لزوجته وهو يتنهد بارتياح : « نستطيع الآن أن نشترى التليفزيون» ، ولكن بهية لم تتحمس للفكرة . . كان حلمها قد سقط إلى قاع حياتها الراكدة وصار آسناً .

إنها غير الفتاة التى كانت منذ ثلاث سنوات . . شغفها بالأغانى أخلى الطريق لشغفها بصوت طفلتها فواكه . . والمسلسلات تصلها من راديو الجيران الذى « يزعق» بأعلى صوته فى الليل والنهار .

وقالت بهية لزوجها وهى تضع على خده قبلة حيية . : . نعم وجدت الشجاعة لتبدأه بقبلة بعد عشرة السنين : « ما نفعنا بالتليفزيون.. دوشة دماغ وقلة عقل » .

ولكنه جادلها فى ذلك . . ووجدت نفسها تقول : « إذا كنت مصراً أن تشترى لى شيئاً فإنى أفضل أن أستعيد الأساور . . إنى أحس بحرج كلما زارنا أبى ونظر إلى يدى العاريتين » .

وصمت فوزى لحظة . إنه كان يعتمد فى شراء التليفزيون على التقسيط . . وهو نظام لم يتسرب بعد إلى الصاغة . . وبعد الصمت

القصير قال فوزى لزوجته وهو يضمها إلى صدره : « ربنا يفرجها » قالها وهو صادق العزم أن يحقق وعده فى القريب .

* * *

ولكن العام التالى لم يكن عاماً سعيداً . . فإن مأمور الضرائب جاء إلى المحل ، ومن سوء حظ فوزى أن الكراسى كلها كانت مملوءة ، وأن بعض الزبائن كانوا فى الانتظار . . وظن السيد المأمور أن هذا يحدث طول النهار . . وعندما تلقى فوزى خطاباً مسجلا عليه ختم الحكومة تولاه الزهو . وسكنت أصابعه المرتعشة ، وهو يفحصه ، تكهنات سعيدة . . ثم مرت عينه على السطور ، وصرخ كأنه جلس فجأة على خازوق : « إنه إخطار ربط الضريبة » .

وعاد إلى البيت والخازوق فى ظهره ، وقال لزوجته وهو يبكى : « هذا المبلغ المطلوب منى أن أدفعه ضريبة لو كنت كسبت نصفه طول العام لاستعدت لك الأساور من زمان » .

وقالت له بهية وهى تهون عليه أمر الخازوق : « آنت تذهب إلى عمك الأسطى محسن وتستشيره فى الأمر . . وأنا أذهب إلى السيدة زينب وأشكو لها مأمور الضرائب » .

* * *

ونظر الأسطى محسن إلى صبيه القديم من فوق إلى تحت ، وقال له وقد وجد أخيراً الفرصة للشماتة : « تأتينى بعد خراب بصرة . . أنوار نيون . . وقسم خصوصى للسيدات ، وفتاة على الكيس ، وتريد أن

تعتقك الضرائب . . هل تظن أنى أترك القطن مطلا من المقاعد، والمرايا مكسورة ، والفرش متآكلة قصر ديل ؟ إنى أفعل ذلك لكى يراه المأمور فلا يتجبر » . وانتقل الأسطى محسن من التقريع إلى التدبير ، وقال لفوزى بلهجة العالم ببواطن الأمور : « إن المآمير يأكلون . . واطعم الفم تستحى العين » !

* * *

وعمل فوزى بالنصيحة .. وكانت عالية جداً هذه النصيحة . . كلفته ثلاثة أعوام من عمره فى السجن ، بتهمة محاولة رشوة موظف عمومى .

ولكن الدكان ظل مفتوحاً مدة غيابه ، فإن بهية لفت نفسها فى ملاءتها، وجلست على الكيس ، تراقب الأسطوات وتحاسب الزبائن ، ونظراتها الحلوة صارمة . . ووجهها الصبيح صائم عن الابتسام . وقلبها مملوء بصورة شاب تتقلص يداه، على قضبان قفص الاتهام وهو يسمع الحكم .

* * *

وعند انتهاء مدة العقوبة استقبلت بهية بعلها على باب السجن بالمزيكة وسقت الشربات . . وكانت ليلة للأحباب . . ولم يستطع فوزى أن ينفرد بها ويضمها إلى صدره إلا والفجر يقترب .

وهمست بهية فى أذنه وأهدابها تتعثر فى الخفر القديم : « سددت الضرائب ، وأتعاب محامى الابتدائى ومحامى الاستئناف . . ودكان

الخردوات المجاور دفعت لصاحبه خلو رجل وضممته للمحل . . والأشيا رضا والحمد لله . . » .

وقاطعها فوزى وهو يشتد فى ضمها : « والأساور ؟ . . حذار أن لا تكونى قد استرددت الأساور » .

ووجدت المرأة لتطلق ضحكتها فى صدره وهى تقول له : « مازلت تذكر . . إنى أنا نسيت » .

وتغير صوته من الحب إلى العتاب وهو يقول لها : « كان يوقظنى من نومى فى السجن الندم لأنى لم أسترد لك الأساور» . . قالت له بصوت قرير : « كنت أريدها لكى تراها أنت وتسمع رنينها فى معصمى . . فلما ذهبت ماتت الرغبة . . كلها كام سنة وتحتاج ابنتنا فواكه لأساور وجهاز . . يجب أن نكون عقلاء » .

ولكنه رفض العقل . . وتشجعت بهية وقالت : « إذا كنت حقًّا تريد أن تحقق لى أمنية فاعلم أن أمنيتى أن أحج إلى بيت الله » .

وصمت فوزى قليلا . . وأدار بعض الأرقام فى رأسه . . حقًّا إنه لا يوجد الآن رصيد . . ولكن لا يزال بينهما وبين موسم الحج بضعة أشهر .

وخرج من صمته وقال بحنان : « ربنا يفرجها» .

* * *

وانتظرت بهية الفرج ، ولكنه أبطأ ذلك العام فإن أحد زملاء فوزى فى السجن زاره بمجرد الإفراج عنه . . وبدأ يحلق عنده ذقنه كل يوم .

وكان رجلاحلو اللسان . . كان يقول له ورأسه تحت الماكينة « الزيزو » :
«هذه الطاسة يا فوزى مملوءة بالمشاريع .. ولكنك تعلم أن الإنسان يخرج من السجن خاوى الوفاض » .

وآمن فوزى بالعبقرى . . وتبنى فكرة إنشاء مصنع للعطور ، وباع المنزل الصغير الذى كان يأويه . . واقترض ما استطاع . . ووضع المال فى يد الاقتصادى الذى ملأ رأسه بأحلام الثراء .

ولكن الاقتصادى اختفى فى اليوم التالى ، وترك الممول التعس فريسة لأصحاب الكمبيالات . وبعد أشهر قليلة بيع الصالون فى المزاد ، والذى تكون له زوجة مثل بهية يسقط لكنه ينهض من كبوته من جديد . ولذلك لم يعمل فوزى أجيراً فى صالونات أخرى إلا سنين قليلة ثم أصبح صاحب صالون من جديد .

* * *

وذات مساء قال فوزى لزوجته وهو متهلل الوجه إنها تستطيع أن تحج هذا العام . وصمتت بهية هذه المرة .. صمتت لكى تسأل نفسها : هل تقول له إن الألم بدأ وهو فى السجن ولكنها احتملنه . . لم يكن لديها وقت . كانت مضطرة أن تجلس على « الكيس » طول النهار . وفى العام الذى حلم فيه فوزى بمصنع العطور لم يعد الألم محتملا . . وذهبت سراً إلى طبيب . . وصارحها أنها أورام خبيثة ، وأن العملية ضرورية . .

ولكنها لم تشأ أن تزعجه . . تكفيه هموم المحجوزات .

ولأمر ما سكت الألم .. سكت إلى حين. وحسبت أن المرض ذهب..

ولكنها الآن تدرك أنه لم يذهب ، ولكنه يئس من الشفاء .

* * *

وعندما طال صمتها قال لها فوزى : « استعدى للحج » .

ولكنها ابتسمت وقالت : « لا رغبة لى فى الرحلة . . أمنيتى أن نشترى « حوش » . . أن يكون لنا مكان فى القرافة . . فظيع أن يموت الإنسان ، ويلقى فى مقابر الصدقة » .

وبعد نقاش اقتنع برأيها وقال لها : « ربنا يفرجها »

* * *

وذات مساء بهيج هتف فوزى من بئر السلم وهو يصعد الدرجات وثباً : « بهية » . .هل تعلمين ؟ .. وجدت نفسى أمام المحتال وجهاً لوجه . . وأمسكت بتلابيبه . . ولكنه قال لى إن أحواله معدن . . وإنه يكره أن يعود إلى السجن . . وأعطانى المال . . ابشرى يا بهية . . سنشترى الحوش ونبنى المقبرة » .

ولم تجب بهية . . وهزها ولكنها لم تتحرك . . ونظر إلى وجهها . . كانت عليه ابتسامة صغيرة تتعثر فى الخجل والحياء . .

وقالت له الابتسامة : « معذرة . . إنك تأخرت قليلا . حاولت أن أنتظرك وعجزت . . ولكن عشاءك . . معد على المائدة » !

* * *

الحبّ أقوى من الموت!



سئم محسن العاصمة . . إن العيش فيها متشابه ، وممل ، ومرهق للأعصاب . . إنه يستيقظ كل يوم فى الضحى ، فتطوف برأسه الذى يحطمه الصداع خواطره الكليلة وتذكاراته المختلطة عن سهرة الأمس . . إنها دائماً كسابقاتها . . ماذا غير الطعام والميسر ، والخمر ، والنساء ؟ .. قليلة هى الأشياء التى تستكبر على ثراء وارث شاب ، يبعثر النقود بلا احتراس كما تبعثر ضربات أنامله الرماد الذى ينبعث من جذوة سيجارته !

فتح محسن عينيه فى ذلك النهار قرب الظهر .. وبدأ يطالع الصحف ، وهو فى سريره ، بفتور ، وبلا رغبة . . ثم ألقاها جانباً وأخذ يحدق إلى السقف بتبلد . . إنه يكره أن ينهض ليذهب ، كالعادة ، إلى مقهاه المختار فى شارع فؤاد الأول ، ليحتل كرسيه على الإفريز ، يحملق فى سيقان الغاديات والرائحات . . ويدرس بأناة ودقة صحيفة السباق ، ليختار الجياد التى يلعب عليها . . ثم يستعين بكؤوس من الوسكى على التفكير فى برنامج الليل . .

حدث كل هذا مرات كثيرة من قبل . . وسيحدث اليوم أيضاً . . هذا الفراغ هو عدوه اللدود وخصمه العنيد . عندما مات والده منذ عامين انقطع عن الدراسة فى كلية الهندسة . . رأى فى ذلك الحين أن الأجدر به أن يدير أملاكه بنفسه ، وأبى أن يخضع لمشقات الدراسة وسيطرة الأساتذة

وذل الامتحانات . . إنه ليس بحاجة إلى وظيفة يعيش منها وقد صار الوارث الوحيد « للعزبة » . . وكم هو نادم الآن لأنه حطم حياته الفكرية وسرعان ما مل إدارة أملاكه ، وترك ذلك إلى موظفيه ، وانصرف إلى مسراته ، فعب منها حتى عافها . . وها هو ذا يتوسل إلى الساعات أن تأتى بجديد ، وتنقذه من الضجر . .

وبدا له عندما أتم ارتداء ملابسه أن يتوجه إلى الريف . . إلى ضيعته ، و يبقى هناك وقتاً ، بعيداً عن الضجيج ، والخلان ، والصاحبات ، والرقص . . لعل الهدوء والصفاء يغسلان أعصابه الملوثة المضناة .

كان الريف يودع الخريف ، والنسيم قد بدأ يرق ويمسح بكفه الندية على النفوس المتعبة . . والسماء الصافية قد بردت أطرافها لاقتراب الشتاء ، وبدأت تتدثر بالغمام وكأنه ثياب باهرة من القطيفة الفضية . . فأحب محسن الحياة هناك ، وأقام أياماً فى أحضان السكون ، فى البيت الريفى الصغير الضائع فى الحقول . .

* * *

وفى الضيعة رأى محسن فاطمة .

كانت فاطمة هى زوجة عليوة سائق الدوكار ، وكانت صبية رائعة الحسن ، تزوجها عليوة منذ بضعة أشهر . . ماتزال الحناء تضحك فى كفيها . . ولا يزال الكحل يثقل أهدابها ، ويطرح ظله الساحر على الذهب المذاب فى عينيها العسليتين الواسعتين .

وكانت تحمل فى البكور اللبن من الحظيرة البعيدة إلى البيت ،

ليعد منه إفطار السيد . . فألف أن يراها كل صباح تقبل تتهادى بذلك القوام الخالد المشوق الذى تمتاز به الريفية المصرية . . وكانت تحييه وكل مسام وجهها تبسم !

وصار محسن حريصاً على أن يستيقظ مبكراً لكى لا تفوته تلك الابتسامات التى تطيب نفسه بالحصول عليها فى فاتحة نهاره .

وعندما كانت تعود كانت نظراته تتبعها .

وبدأ يحس أن هناك صلة بين شبابها المتفجر والقلق المبهم الذى أصبح يلتهم ساعاته . . إن نظراتها الخجلة تحفر فى قلبه هوة عميقة .

ومضت أيام . وإذا هو يسبق فى كل صباح إلى حظيرة الماشية ليرى فاطمة هناك وهى تحلب الأبقار . . وتبخرت أرستقراطيته حتى لم يعد يجد غضاضة فى أن يعاونها ، ويمسك بين يديه الأوعية التى يتساقط فيها السائل النقى الأبيض .

وصار يكثر كلما رآها ، من الضحك والمزاح .. لكنه خجل مع ذلك أن يعترف لنفسه أنه عاشق .

وقد لقى مراراً فاطمة وحدها . ولم يكن فتى عفيفاً ، لكن أساليبه الناعمة أخفقت مع القروية الحسناء ، وسرعان ما تبين أنه لا مغمز فى خلقها ، وأنها لن تكون أبداً سهلة القياد .

وبدأ يحسد عليوة سائق الدوكار ، الذى يستمتع بهذا الجمال المنيع . .

وكان عليوة فلاحاً فى الخامسة والعشرين ، يخدم فى العزبة كما خدم

أبوه من قبل ، ويتقاضى جنيهاً كل شهر ، وذلك المبلغ كان يجعله عيناً بين أنداده ورصفائه ، فكان راضياً عن الحياة سعيداً بعيشه الوادع وكان يميزه فى بيئته قوامه المرتفع ، وعضلاته الشداد، ووجهه الوسيم الذى تزينه تلك العصفورة الخضراء المرسومة على صدغه . وكان يبدو على مقعده فوق الدوكار يكاد يترنح زهواً فى جلبابه الأبيض النظيف . فكانت النظرة المنصفة تحكم أنه كفء لفاطمة التى ناضل فتيان القرية ونافسهم وحصل عليها دونهم ، لكنه مع ذلك بدأ لا يروق لمحسن ، وبدأ يعامله باحتقار ، ويخاطبه بلهجة تفوح منها رائحة النفور . . فقد كان واثقاً أن عليوة من ذلك الطراز الذى يأبى الضيم ، وأنه لن يكون أبداً رجلا مخدوعاً ، وأن الهبات لن تغمض عينيه .

وغادر محسن القرية ونار الرغبة فى زوجة عليوة تستعر بين جنبيه . وكان يأمل أن يطفئ لوعته الجديدة فى كؤوس الوسكى ، وفى رضاب الغانيات ، لكن وجه فاطمة ظل يرافقه ، ولم ينس أبداً الفتنة النائمة فى ملامحها العذبة المضنية .

* * *

وأيقن أنه ترك قلبه فى العزبة .. وعاد . إلى هناك .

وكان عليوة ينتظره بالدوكار على محطة القرية ، ليحمله إلى الضيعة .

وعندما رأى الفتى سيده سعى إليه بوجه مشرق ، وانحنى على يده ليلثمها ، ككل مرة ، لكن محسن جذبها منه بخشونة وجفاء .

إنه يجد الآن أن عليوة ثقيل الظل . . إنه يكرهه .

فى الماضى ، طيلة مسير الدوكار نحو الضيعة ، كان محسن يملأ تلك الساعة بالمزاح ، ويسأل عليوة عن شئونه ، ويتبسط معه ، ويمنحه سيجارة يأمره بتدخينها . . أما هذه المرة فإنه ظل صامتاً ، ولم يطلب إلى الفتى القروى أن ينشد أحد مواويله التى يتصاعد الدخان من كلماتها الملتهبة .

ورأى محسن فاطمة مرة ومرة . . ولكن تعذر عليه أن يلمسها ، وصرخ الحيوان المفترس الرابض فى أعماقه ، وعض قلبه الطائش بلا رحمة .

وأيقن أنه لن يصل إلى أمنيته ، ولن يحصد ثمار أحلامه مادام عليوة فى الطريق .

وانقلب كرهه إلى غضب . وأحس كأن هذا الخادم الحقير يتحداه بوجوده . . ويقف فى وجه رغبته .

وبدأ يبعث به فى مهام شاقة معقدة تستغرق وقتاً طويلا فى البلدان المجاورة ، ليقضى الليل بعيداً عن بيته .

لكن فاطمة ظلت سيدة نفسها ، وانتصر الزوج الغائب على المغازل الغنى الجميل .

واستفحل غضب محسن . . وتطاير فى رأسه شرر الحقد . .

ماذا لو مات عليوة ! . .

فاتذهب حياته رخيصة كحياة أولئك القرويين الذين يصرعهم الرصاص فى الحقول والسكك الزراعية ، وما هى إلا أسابيع ثم يصبحون فى ذمة النسيان .

وعندما يذهب ستكون فاطمة سهلة المنال . .فلا أهل لها إلا أمها ، وما أيسر أن تغدو الحسناء الفقيرة خادمة عنده فى المدينة ، أو فى منزله الريفى ، حسبما يحلو له . فهل يغرى به أحد المجرمين الذين يحترفون القتل فى الناحية ؟ ! كلا . . إن الأسلم أن يجهز عليه بنفسه ، بطلقة من مسدسه ، وما أكثر الفرص السانحة ..

وهمست شهوته العمياء : «ما قيمة حياة فلاح . . إنهم يموتون كثيراً كالذباب ، ويولدون كثيراً كالبعوض ، ولا تحس الدنيا بذهابهم ومجيئهم . . سيعوض أهله عن فقده . . وستكون النقود أنفع لهم ، فتجد أخته مهراً ، ويستطيع أبوه أن يستأجر مزيداً من الأرض .. وعطفه على أرملة خادمه سيكون أمراً طبيعيًّا ، ولن يثير ريباً .. .

إنه يعرف أن عليوة ينصرف من عمله فى نحو الساعة العاشرة . . فيذهب إلى الترعة البعيدة أو إلى المصارف الكبيرة التى تصفى فيها المياه المتخلفة من رى الأرز ، ليمارس هوايته المحببة : صيد السمك بالصنارة .

ورسم محسن خطته . سيعثر على عليوة وهو يصيد السمك بعيداً عن الضيعة ، فيرديه بطلقة من مسدسه ، ثم يدفعه بقدمه إلى المياه ولن يعرف أحد . . فإن الزراع يعودون فى المساء إلى القرية النائية ، والحقول البعيدة ترتمى فى الليل فى أحضان الصمت ، وتندثر فيها الحركة ولن يكشف الأمر عاجلا . . ولن تحوم حوله شبهة .

كان محسن يجتر أفكاره تلك وهو عائد فى الظلام من جولة صغيرة على قدميه عقب العشاء .

وحانت منه التفاتة وإذا هو يسير مقابل الدار التى يقطنها عليوة وامرأته . . إن السراج لا يزال ساهراً يطل من النافذة الضيقة نوره الواهن المرتعش . فهل هما مستيقظان ينعمان بالحب !

وقسا قلبه .

* * *

وفى الليلة التالية رأى محسن عليوة وهو يحمل الصنارة والطعم والمخلاة ويتوجه إلى الترعة . . وتريث حتى أوشك الليل أن ينتصف ، ثم تبعه بعد أن أعد مسدسه ووضعه فى جيبه .

ولم يجد عناء فى العثور عليه . . فإن عليوة كان ينوح بموال حزين ، وكان النسيم يتنقل بصوته الرائق . .

وكم ابتهج عليوة عندما رأى سيده .

وقال له محسن : واصل غناءك الشجى .

وكان يتحسس بين كل لحظة وأخرى مسدسه بيده المرتجفة . . ولم يستطع أن يعتقل تصوراته وهواجسه .

إن الحقول لن تردد فيما بعد صدى هذا الصوت الحنون . . إن عليوة لا يعرف أنها آخر أغنية ينشدها . . وأنه لم يبق على أجله المكتوب إلا خطوة . . عجباً . كم هو مطمئن آمن . . آه لو يعرف أنه على حافة الموت .

وفى تلك اللحظة جذب عليوة الخيط ، وإذا فى نهايته سمكة كبيرة ، أخذت تتلوى ألماً وتحتضر ، ولعاب القمر الفضى .يسيل عليها .

وحدث محسن نفسه : « إن المسكين يشبه هذه السمكة الغبية التى انتزعت صنارته حياتها بغتة . . عما قليل ستؤخذ أيضاً حياته . . »

وقذف عليوة بالصنارة إلى الماء مرة أخرى وهو يقول : « على بختك يا سيدى » .

وأسر محسن لنفسه : إذا أمسكت الصنارة سمكة فسيرمز ذلك إلى أن فاطمة ستكون من نصيبى .

لكن الطعم ذاب فى الماء ، واضطر عليوة أخيراً أن ينتشل الخيط والصنارة فارغة .

وتشاءم محسن . .

وأخرج سيجارة ليدخنها . .

وبدا له أن يقدم واحدة للفتى الذى يودع الحياة . . طالما خصه فى الماضى بهذه المجاملة الصغيرة . وعندما أعطاه تلك السيجارة الأخيرة أمره أن يشعلها .

ولثم عليوة اليد التى امتدت إليه باللفافة . .

وخزت تلك اللثمة قلب محسن .

أرهقه أن عليوة لا يشك فى شىء .. ولا يدرى أن هذه اليد التى قبلها ستصرعه ، ربما بعد دقيقة أو دقيقتين . .

ووقعت كف محسن على المسدس النائم فى جيبه، مرة أخرى، فأحس ببرودة الصلب تلدغ أنامله . وارتعش ، وآثر أن يتريث . . لا بأس . .فليدخن عليوة سيجارته إلى النهاية .

فتح عطف السيد قلب عليوة ، فأطلق صوته ليناً طروباً بموال كان يعرف أنه قريب إلى نفس محسن .

وكان القمر قد تسلّق السماء ، وتطلّق محياه ، وتناثرت من أساريره بسماته الكبيرة ، فخيل لمحسن أنه يرى فى ضوئه الغامر ، الدم وهو يترقرق بنشاط فى وجه عليوة . . الدم . . الذى سينبثق ويخضب العشب النامى على شط الترعة .

وكانت سحائب الدخان الرقيقة تنبعث من فم عليوة مع غنائه . فيخيل إلى الناظر أن الغمامات الزرقاء الصغيرة هى أجنحة الألحان العذبة .

ووقف محسن خلف الفتى المشغول بالصيد وأخذ يختار المكان الذى سيصوب إليه طلقته .

وفى تلك اللحظة جذب عليوة الصنارة من الماء وقد علقت بها سمكة كبيرة ، واستدار نحو سيده ليقول ، والفرح يملأ عينيه : « إننا ضمنا طعام الغد يا سيدى » !

الغد . . .

ومع ذلك فإن الرصاصة ستنطلق ، وسيزمجر دويها : « لا غد لك أيها الرجل » !

سأله محسن : « أتحب السمك كثيراً يا عليوة ؟ »

فأجاب ببساطة : « لا يا سيدى . . لكن فاطمة . . تحبه » .

— ومن أجل ذلك تسهر الليل ، بعد تعب النهار ؟ ! .

ضحكت البساطة المقيمة فى أسارير عليوة ، مرة أخرى وهو يقول : « فاطمة تفرح عندما ترى الصيد كثيراً ، ومخلاتى مملوءة بأنواعه .. » .

— أتحبها . . يا عليوة ؟ . .

رفع الصائد إلى سيده عينين مملوءتين ثقة وصراحة ، وقال : « فاطمة بنت حلال يا سيدى . .. بنت طيبة » .

فعاد السيد يلح : « لكن أتحبها كثيراً ؟ » .

فأجاب ، فى خضوع ، وصوته مثقل بالحنان : « إننى أحبها كعينى . . لو أعطونى ثقلها ذهباً . . لو زوجونى أميرة لأتخلى عنها . . لما رضيت » !

وقال محسن ضاحكاً : « مغفل ! . « فاطمة ليست أفضل من غيرها . كلهن لا قلوب لهن » !

ابتسم عليوة ابتسامة تدل على عدم الاقتناع ، وقال بعد صمت قليل : « أنت لا تعرف فاطمة يا سيدى . . إنها تستحق الحب . . ما بعدت مرة عن بيتى إلا كنت مطمئناً . . مهما غبت أشعر أن الاطمئنان يملأ عروقى وقلبى . . فأنام نوماً عميقاً . . ولا يمر برأسى خاطر سوء . . وماذا يرجو الرجل أكثر من ذلك ؟ » .

وكان عليوة يتكلم وهو يحدق إلى الأمواج الصغيرة الموشاة بأشعة القمر ، ويسكب عليها ابتساماته .

وكأن افتكاره بفاطمة أبهجه . فإنه رفع وجهه بغتة نحو وجه سيده

وقال بحماسة وإخلاص : « نعم يا سيدى . إننى أحبها . . حياتى بدونها لا معنى لها » .

وجد محسن أن يده المنقبضة على مسدسه فى جيبه تتراخى ، وأن أنامله تتخاذل وترتجف . . إنه لم ير من قبل حبًّا واثقاً كهذا .

أحس أن رغبته المحترقة فى فاطمة تهدأ وتنطفئ . . وأنه عاجز عن الغدر بذلك الحنان الفياض الذى يكنه عليوة لامرأته !

كأن الموت الذى فكر فيه ودبره يهرب من وجه هذا الحب . . وعندما امتلأت جعبة عليوة بالسمك بدا عليه أنه يريد أن يعود ، وتنبه محسن من شروده . . فطلب إلى الفتى أن يمضى لسبيله ويدعه وحده .

وتردد عليوة . . كره أن يترك سيده . . لكن محسن انتهره ، وصرفه . .

* * *

وبقى مع هواجسه وقتاً طويلا .

ولم يعد البرد محتملا . . فقفل راجعاً ، يجر قدميه وقلبه جرًّا .

ورأى عندما أصبح فى حدود الضيعة ، شبح رجل . . خيل إليه أن هذا الرجل يرقبه ويتبعه من بعيد . فى خفاء وحذر ، وأوجس خيفة . لعل هذا المتسلل ، فى هذه الساعة المتأخرة ، يريد به شرًّا . .

وصاح وهو يغالب ذعره ، ويضع يده على مسدسه : « من هناك »

وإذا بصوت عليوة يقول : « أنا . . أنا يا سيدى . . »

واقترب محسن منه وقال له مؤنباً : « لماذا لم تدخل بيتك . . ماذا يبقيك فى الطريق ؟ » .

أجاب عليوة كالمذنب : « كنت أنتظر عودتك يا سيدى . . كيف أسمح لنفسى أن أنام قبل أن تصل . . الحقول فى الليل لا أمان لها » .

وصغر محسن فى عين نفسه . .

وقال لعليوة ضاحكاً : « شكراً . . اذهب واسترح » .

وبعد أن مضى عنه خطوة رجع إليه ، وقال له وهو يناوله المسدس الذى أخرجه من جيبه : « هذا هدية لك . . مادمت تحب الحراسة » .

* * *

وفى الصباح مضى الدوكار بالسيد إلى المحطة القريبة ، فقد اعتزم العودة إلى المدينة . .

وعندما جاء القطار وضع فى يد عليوة كثيراً من القطع الفضية وهو يصافحه بحرارة ، وكأنهما صديقان . .

وعاد سائق الدوكار فى طريق الضيعة جذلان طروباً ، يطلق صوته الرنان بموال حنون . .

وكان طول الوقت يفكر فى . . فاطمة !

المطاردة



كانت أمسية من أمسيات نوفمبر التى تنفث فيها الأرض آخر التنهدات الحارة الباقية فى قلبها ، وكنت جالساً مع صديقى زاهر ، بعد أن تناولنا العشاء ، فى شرفة الفندق المطلة على النيل ، نرقب أشعة القمر وهى تتهالك على صدر الموج وكأنما شفها الشوق . .

وكان زاهر شاعراً شاباً لفتت الأنظار قصائده الأولى التى لمسنا فيها نفحات نبوغ مبكر . . وقبل أن يتزوج لم يكن أصدقاؤه يظفرون به كثيراً ، فقد كان فتى طليقاً مولعاً بالمغامرات الناعمة . . والفراشات الملونة الجميلة كانت تتساقط بوفرة فى لهب الشهرة . . فلم يكن لديه وقت يصرفه مع الرجال . . أما بعد أن تزوج فقد كف عن كل هذا ، وصار يحب الهروب من البيت ، ليتطفل على مجالسنا ويشاركنا سمرنا الخشن الذى لا تمر فيه أبداً همسات النساء الرقيقة ، وسألته ، وأنا أنفث دخان سيجارتى : « إنى فى عجب من أمرك ، فإن تاريخك القديم ما كان يبشر أبداً بأنك ستغدو زوجاً نظيفاً ! » .

فقال وهو ينقر غليونه على كعب حذائه لتتساقط منه بقايا الرماد :
« إن الزواج تأديب وتهذيب وإصلاح .. وقد غدوت حقاً زوجاً أميناً . .
وما حاولت قط أن أخدع زوجتى إلا مرة واحدة ، ثم تبت وأنبت . . » .

وملأ غليونه بالتبغ ، وأشعله ، ثم أرسل فى الفضاء تلك النظرة الحالمة التى كانت تنبئنى دائماً أنه شاعر . . وحلا له أن يواصل حديثه فقال : « نعم . . إنها مرة واحدة ، وكنا فى شهر العسل ، وخرجت وحدى ذات ليلة تاركاً زوجتى فى سريرها تقاسى آلام الصداع . . ولم أكن متألماً لها ، بل أحسست فى قرارة نفسى بشىء من التشفى ، فإنها شغلت كل وقتى ، طيلة ثلاثة أسابيع ، حتى لم أخط بيتاً واحداً . . وقد تنفست الصعداء عندما اعتذرت عن عدم الخروج معى . . وأحسست وأنا أسير وحدى فى الطريق ، وذراعها ليست فى ذراعى ، أننى عصفور كان موثق الجناح وأفلت من القيد .

ورأيت الأنوار تتلألأ فى حديقة الأزبكية ، وتذكرت أن مهرجان الجمعية الخيرية يقام الليلة ، فابتعت تذكرة . . وكان الجو ساحراً والمصابيح الكهربائية الملونة تتدلى من أغصان الشجر ، وكأنها ثمر غريب من ثمار الجنة . . والأزهار تماوج فى النور الأخضر والأحمر وكأنها تنبت تحت خطوات الحسان . ولحات عيونهن ، والبسمات البيضاء المتناثرة من شفاههن تذكر بالحب وتغرى بالطيش . . فأخذت أمشى فى الحديقة ، وأحدق إلى الغاديات والرائحات ، وأنا أحس أن قلبى قد بدأ يعربد فى صدرى !

ولفتتنى فتاة تشتمل بملاءة سوداء من ملاءات بنات البلد ، تتبختر فارهة ممشوقة وكأنها عود من الخيزران ، ومشيت فى أثرها ، ثم تقدمتها خطوات لأرى محياها ، فطالعنى جبينها الوضاح المضىء . وكان النصف

الأسفل من وجهها يختفى تحت البرقع ، فلم يكن بصر الناظر إليها يتوزع ، بل كان يستقر على عينيها .. وقد ندمت لأننى تطلعت إلى هاتين العينين ، اللتين تناديان وتستدرجان إلى هوة عميقة من الغواية .

وتأخرت وراءها ولكن خطواتى ظلت موثقة بخطواتها .. وبعد جولة صغيرة التفتت إلىّ وابتسمت ، كأنما تدلنى أنها تدرك أنى أتبعها .. وغادرت الحديقة بعد أن رنت إلىّ بنظرة تنم عن الدعوة ، فخرجت أيضاً ، ولم أكن قد كففت طول الوقت عن أن أزجر نفسى .. فإننى ما نسيت لحظة أننى زوج ، وأننى تركت عروسى فى البيت وحيدة متعبة .. فضيت أحتال على ضميرى ، وأزعم له أن الشاعر ، لا أنا ، هو الذى يرتكب هذه الحماقة ، ويسعى وراء قصيدة ستمليها هاتان العينان النجلاوان .

ولم أحجم ، ولا وجدت كبير مشقة فى أن أصل بينى وبينها حبل الحديث .. وعندما اقترحت عليها أن نركب عربة تجوس بنا خلال الجزيرة ضحكت فى تمنع هو الرغبة بعينها ، فتأكدت أنها سهلة القياد .. لكن ذلك لم ينقص من سرورى .. وركبت إلى جوارها ، وإذا هى تلزم ركن العربة لتباعد بينى وبينها ، فعجبت من هذا التناقض بين الصدّ والإقبال .

ولفتنى أن صدرها كان يعلو ويهبط وكأنها تلهث ، وأن صوتها كان مضطرباً .. وحاولت أن تضحك فبدت ضحكتها عصبية تظهر فيها نبرات الانزعاج .. وعندما تناولت يدها أحسست قبل أن تجفل

وتسحبها أن أصابعها باردة ، وأن نوعاً من القشعريرة يسكن أطرافها ، فأدركت أنها امرأة غير عادية . واستولى على ذلك الصمت الذى يعبر عن الاستياء .

وكأنها لاحظت أن تحفظها ضايقنى . . فأقبلت على ، وحاولت أن تبدو ظريفة مرحة . . لكنها مع ذلك كانت محتشمة احتشاماً خيل إلى أنه أساء إلى سائق المركبة الذى ألف أن يتصاعد أجره وفاقاً لما يحدث وراء ظهره .

وكان لصديقى علام شقة هادئة فى قلب المدينة يتخذها وكراً لفضائحه . . ولم يكن بحكم عمله كمفتش فى إحدى الوزارات يبقى فى القاهرة أكثر من أسبوع فى الشهر ، فكان يترك مفتاح الشقة مع البواب لينتفع بها خلصاؤه .. وقد شعرت وأنا أقود «نعمات» إلى هناك أننى رجل ردئ ، فإن قلبك لا يطاوعك أن تخون عروسك فى شهر العسل إلا إن كنت ممعناً فى الضعة . . لكن شيطانى ظل يوسوس لى أن كل شىء مباح للشاعر ، وأننى أود من صميم الفؤاد أن أحصل على تلك السيدة الغامضة .

وعندما صرنا وحدنا فى ذلك المأوى الفاخر الأنيق نزعت البرقع الذى كان يخفى نصف وجهها ، فتمت أمام ناظرى آية الحسن التى شهدت بها عيناها ، فقد كان لها فم دقيق ، كالزنبقة الحمراء ، وذقن لطيف يلهم قبلات صغيرة عابثة . ثم جذبت عن كتفيها الملاءة السوداء التى كانت تشتمل بها ، فأطاعت بعد قليل من التردد ، وبدت

فى ثوب رائع ، فعجبت أن تختار فتاة من بنات البلد ثيابها بهذا الذوق الرفيع . . وأن تكون فى جلستها وحديثها فاتنة ومصقولة وحاصلة على كل هذه الرقة واللباقة !

وكم كان غريباً — وهى الشاردة التى تصاحب الكثيرين — أن تكون متحفظة تتقبل مداعباتى والنفور فى عينيها والخوف فى حركاتها ، فقدرت أنها حديثة عهد بالانحدار والإسفاف ، وتذكرت قصص الشقيات البائسات اللاتى يسفكن أعراضهن ليحصلن على الخبز ، لكن قضى على هذا الظن الثياب الفاخرة التى كانت ترتديها ، والعقد الثمين الذى كان يطوق جيدها ، فظلت أمامى لغزاً عسيراً ، وبخاصة عندما طلبت أن تشرب خمراً ، وكأنها تريد أن تمعن فى الابتذال ، وأن تثبت لى أنها وثيقة الصلة بمجالس الشراب . . وكان بيت ذلك الصاحب مزوداً بمقصف صغير ، فحصلت على بغيتها . ومع ذلك اغرورقت عيناها من أول جرعة . وزودتها النشوة بشىء من الشجاعة ، وفكت عقداً من لسانها ، وجعلتها أكثر تسامحاً ، فلم تجزع عندما جلست إلى جوارها . لكنها ظلت تذودنى عن شفتيها ، بلا رفق ، مؤنبة : « لا تكن عجولا . فإن الليل أمامنا طويل » . وعجبت من أمر تلك الساذجة الماكرة . . وبعد أن كنت أعتقد أنها غريرة عديمة التجارب بدأت أرجح أنها مدربة على فنون الإغراء ، وأن حياءها قناع زائف ، لكننى آثرت الصبر ، وتوقعت من الخمر أن تصرعها وتبدد ما تتكلف من مقاومة .

وعندما شربت عدة كؤوس ، كانت هى ماتزال ترشف من كأسها



الأولى ، وبينما أصبحت أرى الدنيا حمراء ظلت هى محتفظة بهدوئها ، ومضت تصدنى وتكرر القول : « لا تكن عجولا فإن الليل طو يل ! . »

وفجأة قالت لى إنها تشتهى شيئاً من الفاكهة ، فذكرت أنى رأيت دكاناً فى الشارع القريب ، واستأذنتها لحظات ، وقد استخفنى الحماس ، فشكرتنى برقة ، وانطلقت وأنا أجد أن عينيها تستطيعان أن ترسلانى إلى آخر الدنيا .. وعدت بعد عشر دقائق مسرعاً كالزوبعة ، مثقل الذراعين بقراطيس تحوى شهى الثمار ...

وإذا نعمات ليست فى البيت ! .

لقد ذهبت .

وكان ذلك عجيباً . فإنها جاءت طائعة . وما تعقبتها إلا بعد أن رأيت الدعوة واضحة فى عينيها ، فأوجست أن تكون سارقة تمارس السطو بطرائق مبتكرة ، لكن ساعتى الذهبية التى نسيتها فوق الخوان قبل أن أخرج كانت فى مكانها . ولم يكن يبدو أنها مست شيئاً .

وعدت إلى دارى مخذولا بعد منتصف الليل ، لأرى زوجتى ماتزال مستيقظة تئن من الصداع . وزعمت لها أن دواعى العمل هى التى أخرتنى إلى تلك الساعة ، فأنى لها أن تعرف أننى سعيت إلى الإثم ، وأننى لولا شريكتى الشاردة لعدت ملوثاً خائناً للعهد ؟ !

ومنذ تلك الليلة خطرت نعمات فى أحلام يقظتى مرات عديدة .

وما نسيت أبداً عينيها السوداوين تلمعان فوق البرقع ، وتذكرانى

بالفجر عندما يلمع فى ثنايا الليل . وكم تمنيت أن أعثر بها فأقتص لذلك الحلم الشهى ، وأسحق شفتيها بقبلاتى .

ثم زجرت خيالاتى. وقمعت تلك الرغبة الجامحة المشبوبة التى كانت تغرينى بالتفكير فيها . وبعد عدّة أشهر استرحت إلى اليأس وساد السلام ذاكرتى !

* * *

وذات ليلة ، فى حفلة ساهرة ، لفتنى وجه امرأة كانت جالسة فى ثياب السهرة ترقب الرقص . و بعد لحظات تبينت أنها « نعمات » . إذن فهى سيدة ممتازة ، وقد كانت تتخفى فى الملاءة السوداء . .

دنوت منها ، وسألتها باسماً : « إننا التقينا من قبل ، فهل تسمحين بهذه الرقصة ، يا سيدتى ؟ . . » فحدقت بعينيها إلى وجهى ولم تلبث أن عرفتنى ، وامتقع وجهها ، لكنها نهضت وتبعتنى .

وانحنيت على أذنها هامساً ، وأنا أراقصها : « ها قد عثرت عليك . . ولن تفلتى منى . . هذه المرة » .

فغمغمت بصوت خافت وقد ازدادت شحوباً : « حسناً . . » ثم أضافت وعلى فمها ابتسامة حزينة : « مازلت عجولا . . مع أن الليل طويل . . قدنى أيها الصديق إلى الحديقة . فإننى أحس أننى أختنق هنا » .

وغادرنا بهو الرقص ، وهبطنا إلى الحديقة الشاسعة ، ولم تكن مضاءة فتسلل إليها قبلنا كل الذين يحبون الظلام .

وجلست إلى جوارى على مقعد تخفيه خميلة عن العيون . ولم أدر أمن البرد كانت ترتعش أم من الخوف وهى تهمس : « عندما رأيتك خيل إلى أننى ألتقى بشبح أفظع حماقة ارتكبتها فى حياتى » .

فظننتها تعتذر عن فرارها فى تلك الليلة وأجبت : « إن كل شىء يغتفر لحسنك » . فقالت كأنما لتوضح قصدها : « إننى أود يا سيدى أن أقص عليك قصة صغيرة لتقلع عن خطتك ، إن كنت قد عقدت العزم على أن تطاردنى . . فإننى كنت قبل أن أراك فى تلك الليلة المشئومة امرأة شريفة ، وقد ظللت أيضاً كذلك حتى اليوم ! » .

ثم باحت لى أنها كانت ، فى تلك الليلة ، تنتظر زوجها ليذهبا إلى المسرح ، لكنه جاء من الخارج متعجلا وبدل ثيابه ، وزعم لها أن عملا عاجلا يستلزم أن يسافر إلى الإسكندرية فى الحال ، وأنه سيبيت هناك . فلم تعترض . .وبعد أن مضى ذهبت تعلق البذلة التى خلعها فى خزانة الثياب . . ووضعت يدها فى أحد الجيوب لتبحث عن علبة ثقاب ، فعثرت برسالة معطرة نسيها الزوج العجول ، وتبينت أن الموعد الذى ينتظره هو موعد غرام ، فثارت ثائرتها ، وأقسمت لتكيلن له بالكيل نفسه ، وخرجت فى الليلة نفسها متخفية فى ملاءة خادمتها ! . .

. وعندما لقيتنى كانت نفسها ماتزال مهتاجة ، وكانت ماتزال تبحث عن الرجل الذى سيرسله القدر ليعاونها على التنكيل بشرف الرجل الغادر .

لكنها بعد أن صحبتنى وجدت أن الأمر ليس سهلا كما ظنت

وجبنت . .وكرهت وجهى المحتقن بالرغبة، وخافت منى بعد أن أصبحت عبداً دميماً للشهوة. ففرت وقد أيقنت أن كرامتها أعز عليها من الانتقام .

وأضافت نعمات : « فهل تصر يا سيدى على أن تطاردنى الليلة أيضاً . . إنك تضيع وقتك عبثاً . . »

قلت لها ، بلهجة قاطعة ، وقد تملكنى الخجل: « أبداً . . أبداً يا سيدتى » .

ذلك أننى تذكرت زوجتى . . وقف شعر رأسى وأنا أتصور أنها تعرف خيانتى وتفكر فى مثل هذا الانتقام الرهيب .

* * *

ومنذ ذلك اليوم صممت ألا أخدع زوجتى أبداً .

بل إننى أقدم لها دائماً حساباً دقيقاً عن ساعاتى فى الخارج . . وأين كنت . . وإلى أين أنا ذاهب .

وإنها لتعجب ، وتحتج قائلة : « إننى أثق بك ، وما طالبتك قط بمثل هذا . . » .

لكننى أحب دائماً أن أثبت براءتى مقدماً ، فإن دمى يجمد فى عروقى كلما تصورت أن من المحتمل أن أتعرض للخطر الذى تعرض له زوج نعمات !

نقطة ضعف



عيد الأم يقترب .. والمدينة منتعشة . المتاجر مزدحمة بالمشترين . . والأطفال يملأون الطريق .. هذه المرة هم الذين يختارون لأمهاتهم الهدايا . . وهم الذين يقودون الموقف .. وفى أيديهم الزمام . وتمنى « إبراهيم » وهو يتسكع فى الطريق لو كانت له أم .

ولم يكن إبراهيم طفلا .. ولكنه كان يطيل النظر كلما لمح نفسه فى مرايا الحوانيت أو زجاج واجهاتها .. يطيل النظر ويدقق ، باحثاً عن « الطفل » فى وجهه .

فى وجه ابن الخمسين ..

رأى إبراهيم فى حاجبيه ما يخالطهما من شعر أبيض وتقطيب .. ورمق فى عينيه نظرة عابسة .. ولحظ تقاطيع قاسية جفت منها الابتسام وقال لنفسه : كانت هنا يوماً مكان كل هذا « ملامح طفل » !

كان طفلا .. جبينه مضىء ، وبشرته ناعمة ، وقلبه قادر على الفرح ، وأساريره يأوى إليها الضحك . . ويمسك يد أمه ، كهؤلاء ، إذا مشى إلى جوارها فى الطريق . .ويملأ عينيه من وجهها قائماً وقاعداً . . ويعصاها ليذوق حلاوة صفحها . . وتضربه وهى ترتعش حباً !

كان طفلا وكانت له أم ، ولكن ذلك منذ زمن بعيد .

لابد أنه كان صغيراً جداً عندما افترقا . . إنه لا يدرى الآن كلما

أخذه الماضى إليه، أبقايا ذكريات تلك التى تساوره، أم تهاويل أحلام ؟!

إنه يحسب أن القطار دهمها ذات مساء من أمسيات طفولته ، وهى تسحب الجاموسة عبر الخط الحديدى الذى يخترق القرية . .ولم تعد إلى البيت . . ولكن الجاموسة عادت .

وفى تلك الليلة لم تنم أمه معه . بقيت حيث سقطت فوق القضبان إلى أن تأذن الحكومة برفع جثتها، ومن حولها حلقة من النساء ينتحبن.. وكأنه يذكر أنه حاول أن يصل إلى أمه ، ويرى كيف أكلها « الوابور » والدموع فى عينيه يزاحمها الفضول . ولكن النساء المعولات منعنه . . ونام فى حجر إحداهن . . واستيقظ فى الضحى ليجد نفسه فى فراش غريب . . وليس إلى جواره أحد . . وجرى إلى الخط الحديدى حيث صرعت أمه . . ولكنه لم يجدها هناك ، وقال له طفل وهو يشير إلى رجال فى طريق المقبرة :- « إنهم ذهبوا يدفنون أمك . . » ومع أنه تعود أن يجرى مع لداته وراء كل جنازة ليتفرج فإنه فى هذه المرة جبن عن اللحاق بالموكب . وثقلت خطاه . . وعاب على أمه أنها ترضى النوم على هذه الخشبة المحمولة على أكتاف الرجال ، وكره منها أنها ترضى أن تدفن من غير أن تقاوم ! . .

ومع أن إبراهيم لم يكن ينفر من اللعب مع رفاقه فى دروب المقبرة .. لم يجرؤ على الدنو منها منذ سكنتها أمه . . وعلى شدة شوقه إليها ولهفته إلى رؤية وجهها خاف أن تظهر له هناك ، خوفاً حزيناً ، ودخل

إلى نفسه رويداً رويداً معنى الموت .

والخوف الذى كان يقصيه عن المقبرة كان يدنيه من الخط الحديدى.. فكان يتسلق شجرة توت قريبة ، ويرقب منها مقدم القطار الذى دهم أمه عند الغروب . . وكان يفعل ذلك أول الأمر فى رهبة . . وكان قلبه ينخلع والأرض تهتز تحت ضجة العجلات . . وكان يسمع فى ولولة الصفارة جزع أمه من الموت المباغت . . ثم تحولت الرهبة مع الأيام إلى غضب . غضب صلب لا يلين . . وكان إبراهيم يجد فى يده دائماً ، حجراً يرمى به سائق القطار وهو قابع بين الأغصان .

* * *

أبقايا الذكريات أم تهاويل الأحلام هى التى تضيف إلى تاريخ طفولته أن أباه تشاءم من الجاموسة التى افتدتها أمه بحياتها وباعها . . باعها وتزوج بثمنها !

والنساء اللاتى كن يتحلقن حول جثة أمه على شريط القطار وهن باكيات ، رآهن حول العروس فى ليلة الزفاف ، طروبات يطلقن الزغاريد ! وهو نفسه بعد أن أكل من « النقل » الذى جاءت به معها لم يحس لها ضغينة . ولولا أنه صار ينام وحده وأخذت هى مكانه إلى جانب أبيه ، لما ساءه منها شيء . . وكلما كان أبوه خارج البيت كانت تلاعبه وتخطب وده بالهدايا ، وتتوسل إليه أن يبقى كلما أحب أن يلحق برفاقه فى ساحة الجامع . .وعندما توثقت صداقتهما باحت له أنها تخاف إن تركها وحدها أن يظهر لها عفريت أمه ، ويحاسبها على زواجها من أبيه !

باحت بذلك وهى ترتجف ، فقد كانت بدورها طفلة فى الخامسة عشرة . .

واقشعر الصبى وهى تمسك يديه بيدين باردتين ، وتسر إليه بما تهامس به القرية من أن أمه تظهر على الخط الحديدى عندما يكون القمر فى تمامه ، وتمشى بين القضبان كالنائمة ، فإذا حسبها السائق من الإنس ونزل لينقذها ، استدارت له وحدجته بعينين يقدح منهما الشرر ، ونفخت فى وجهه نفساً من نار جهنم قبل أن تتلاشى وتذوب فى فضة القمر .

وكان إبراهيم يستخلص من أحاديث زوج أبيه أن أمه على حق فى بغضها لسائقى القطارات . فقد قتلها أحدهم . . وإذا كانت تظهر لهم بدافع من الكره فلا شك أنها ستزوره بدافع من الحب . .ومع أنه كان فى شوق إليها لم يكن يجد أنه يستطيع أن ينظر إلى عينيها الحمراوين المشقوقتين إلى أعلى . . ومنذ توقع قدومها خاف النوم وحده فى الظلام . ومزق الخوف من الليل قلبه الصغير . .

وقرر أن يتسلل إلى القاعة التى ينام فيها أبوه مع عروسه ليقبع تحت السرير ، لكى يفزع إليه إذا جاء طيف العدوة الحبيبة . وقبع هناك ، وقد تحولت جوارحه كلها إلى أذن تصغى لنباح الكلاب البعيد ، وحركة الماشية فى الحظيرة ، ورفيف أجنحة الطير على السطح . يصغى لكل هذا ، ويربطه بمقدم أمه ، ويخيل إليه أنه من علامات ظهورها . ولعله كان بين النعاس واليقظة عندما صرخ صرخة عظيمة تبين بعدها أن

الذى مشى عليه فأر كبير . وأيقظت الصرخة أباه ، ولم توقظ الزوجة الصغيرة ، فإن نومها كان أثقل من خوفها من ضربها . وسحب الرجل الطفل من مخبئه وقد ظن به الظنون ، وحاول إبراهيم ذكر الحقيقة ، ولكنه لم يجد لسانه .

وأرسلته دفعة قوية إلى خارج القاعة ، دفعة مشفوعة بوعيد أن يجلده فى الصباح حتى يسيل دمه .

ولم يكن الصباح بعيداً . .ونظر إبراهيم فى يأس إلى خيوط الفجر . . والنور الذى كان ينقذه من ويلات الليل صار نذير عذابه وهو موثق فى الفلقة .

وعندما استيقظ الرجل الحريص على ألا يقتحم أحد مخدعه ويفضح خلوته ، كان إبراهيم قد صار عند الخط الحديدى .. وكان يعرف أن قطار الصباح قادم بعد قليل . . وتمنى لو يدهمه كما دهم أمه.، لكى يتحول إلى شبح يخيف بدلا من أن يخاف . . يخيف على الأخص أباه الذى يضربه . . ولكن اهتزاز الأرض تحت العجلات دفعه بعيداً . . ولم يجد الموت سهلا كما كان يظن ، واعتصم منه بشجرة التوت يجلس بين أغصانها العالية وقد انسابت دموعه .

ولم تشغله الدموع عن قطف ثمرات التوت . وعندما شبع اكتشف أنه يستطيع أن يعيش بعيداً عن أبيه، وقرر الهرب . .

* * *

ومشى حذاء الخط الحديدى . . ووجد دائماً فى طريقه ما يأكله . .

استضافته غيطان الفول الأخضر . .وسقطت عليه حبات الجميز وهو نائم فى ظلها . . وقضم كيزان الذرة نيئة. . وأحب طعم الحلبة ورائحتها أكثر من قبل . . وذات ليلة وجد نفسه فى مدينة كبيرة اسمها مصر . . أم الدنيا .

ورأى أطفالا نائمين على رصيف ففعل مثلهم . . نام بعمق وقد ذهب مصباح الشارع بالخوف الذى كان فى قلبه ، ولكنه عندما استيقظ فى الصباح لم يجد جلبابه الجديد على جسده . . .

وسرعان ما تبين أن المدينة ماكرة .. وأن الحقول كانت أحنى عليه.. فقد كانت تخيفه فى الليل ، ولكنها كانت تملأ بطنه . . أما هنا . . فى هذا الزحام الكبير . . فليس الشبع سهلا . . وعليه أن يفعل مثل الصبية الآخرين الضائعين مثله . . يمد يده ويستجدى باكياً من الجوع أو يخطف شيئاً من بائع جائل .. أو يبحث فى صندوق القمامة عن لقمة.

* * *

وذات صباح وجد جلبابه على جسد غلام . . ودخل مع السارق فى معركة . . معركة قصيرة . . إن هى إلا دقيقة ثم صار الجلباب فى يده . .

وكان هناك رجل واقف يراقب الأمر .. وأعجبه من إبراهيم أنه عالج الموقف فى سرعة وحزم . . وتقرب إليه . . وأخذه إلى المقهى القريب . . وطلب له كوباً من الشاى الساخن الشهى ممزوجاً بالحليب .

وبعد « مباسطة » فى الكلام عرض عليه أن يعلمه النشل . .

لكن لم يثبت في ذلك نجاحا . . ومل الحرفة . . وهرب من أستاذه . . أبوه كان يجلده . . لكن هذا كان يكويه . . والكى . . كان أفظع .

* * *

وتنهد إبراهيم وهو يرى وجه ابن الخمسين فى مرايا الحوانيت وعيد الأم يقترب . .

أبقايا ذكريات هى ؟ . . أم تهاويل أحلام ؟ ! . .

إنه سرح فى شوارع القاهرة وعلى صدره صندوق فيه إبر ودبابيس وأمشاط . . وتسلق الترام .. واشتهر عند الكمسارية والسائقين بأنه مشاغب.

ولعله كان فى الخامسة عشرة عندما انتقل بنشاطه إلى القطارات وعلى ذراعه جردل « الكازوزة » . . والمناكفة التى كانت صغيرة مع كمسارية الترام كبرت .. ومطاردة حرس القطارات له صارت مرتبطة بكسبه لقوته.. الجرى على سطح القطار والوثوب منه وهو مسرع صار جزءاً لا يتجزأ من سعيه إلى رزقه .

ولكن هل هو السعى إلى الرزق فحسب ؟ !

أكثر من مرة اضطر إلى الاختباء تحت القطار . . تعلق بالعمود الذى يمسك العجلات . . وكان ينظر إلى دورانها ، ويصغى لدويها ويحدق إلى الخطر المحدق به غير مكترث .. كان يملأ نفسه شيء واحد.. أن أمه ماتت على هذه القضبان . . وكان يخال كأنه يرى موتها ، ويألم له ، ويعوض الحسرة عليها التى فاتته فى جهالة طفولته . .

* * *

الآن يدرك أنه كان يكابد، وهو لا يدرى، لوعة خرساء على أمه، ومع أن ضجة القطار كانت تملؤه كآبة لم يستطع قط أن يفارقها . وأحب دائماً أن تزوده بالسخط الذى كان يحتاج إليه لكى يحصب قطار القرية بالحصى وهو فى أعلى شجرة التوت ، ذلك العدوان الذى ارتقى إلى قذف السائق بزجاجات الكازوزة الفارغة . . ثم الهرب .

الهرب كانت له فى نفسه لذة تعادل لذة الشغب . .ولم يكن يدرى ماذا يفعل بحياته إذا لم تكن هناك قطارات يفلت منها ، ويحاور عمالها ، ويضرب سائقيها . . .

وبعد أعوام ملّ هذا . . كما ملّ النشل من قبل . . أحس كأن اللعبة لم تعد تلائم سنه . . وكأنه فى حاجة إلى هروب أكبر .

هل هذا هو الذى دفعه إلى تغيير حرفته . . جاء عام وإذا هو وقاد فى باخرة تجوب البحار . . ورأى الدنيا . . وعرف نساء من شعوب مختلفة . . ووجد على لسانه كلمات أكثر من لغة . . ولقنته الموانئ دروساً كثيرة فى الخير والشر . . وباع واشترى أشياء ممنوعة . . وبعد أن صار فى يده مال كثير هرب من البحر إلى اليابسة . . وعاد إلى القاهرة من جديد .

* * *

دخلها دخول الوارث المبذر . وجلس يلعب القمار فى حانة . . حانة حقيرة . . فبرغم أنه عرف النعيم كان يحن إلى النقطة التى بدأ منها .

وفى الحانة جلس يلعب القمار مع ناس لا يعرفهم . . وبعد أن انغمسوا فى اللعب والشراب جاء رجل ، صديق للآخرين ، واشترك فى اللعب . .

وكانت ثياب الرجل ملوثة بالفحم والزيت . . وعندما علم أنه سائق قطار انقبض صدره ، وامتلأت نفسه بالكآبة التى كانت تعاجله كلما سمع صليل العجلات على القضبان . .

وقبل قدوم السائق كان يلعب باستقامة ، ولكنه بدأ ينحرف ، ولم يستطع أن يقمع ميله إلى أن يغشه . .

ولكن السائق كان يقظاً . وقال له : يا لص . .

وقامت معركة .

وتذكر إبراهيم الأيام التى كان يضرب فيها السائقين بزجاجات الكازوزة الفارغة . . ويهرب .

وتقلصت يده على زجاجة الخمر الكبيرة . . وضرب بها المائدة . . وعندما صارت بقيتها فى يده ، أشبه بالخنجر ، طعن بها السائق فى رقبته مرات .

وعندما رأى الرجل عند قدميه جثة يغطيها الدم . . رأى فى اللحظة نفسها أن الشىء الذى كان يهرب منه ويجد فى الهرب كان مختفياً داخل نفسه . كان . . الانتقام

* * *

وحاول أن يشرح ذلك للقاضى ولكنه عجز . . ولم يجد الكلمات

ولم يجد لسانه . .

ودخل السجن . .

وخرج بعد سنين كثيرة . .

خرج منذ أيام .. وفى يده مال قليل . يضعه السجن فى يد عميله لكى يبدأ حياته من جديد .

* * *

وفى ذلك الصباح كان إبراهيم يمشى فى شوارع القاهرة الكبيرة وهو يفكر كيف يبدأ . .

ومن أجل ذلك كان ينظر فى واجهات الحوانيت .

ولكن الواجهات كانت تعرض هدايا عيد الأم .

واختلس النظر إلى المرايا . . وبحث عن الطفل فى ملامحه التى جف منها الابتسام . .

تذكر أنه كان يوماً طفلا .

وتذكر أشياء كثيرة . . واختلطت فى نفسه بقايا الذكريات بتهاويل الأحلام .

شجرة التوت القائمة إلى جوار الخط الحديدى فى أى بلد ؟! . . أين هى ؟ ! إنه لا يدرى . . .

لو عرف لذهب إلى هناك وحام حول المقبرة وهتف « يا أمى . . . يا أمى أنا ولد صغير »

* * *

ودخل متجراً كبيراً فى شارع ٢٦ يوليو . .

دخل ليرى الأمهات وهن يتبعن أولادهن مطيعات باسمات .

وتقدمت منه بائعة جميلة وسألته برقة : « هل تريد شيئاً يا سيدى ؟ »

وأجابها وقد أخذته رقتها على غرة : « أريد شيئاً لأمى . . ولكنى حائر فى الاختيار » .

وقالت له بصوت ودود : « ما رأيك فى هذا الشال من القطيفة ؟ ».

وكانت سنو السجن قد دربته على الطاعة . وهذه المرة لم يكن الصوت الودود يأمره ، ولكنه أطاع .

وخرج والشال فى يده .

ومع أن ما دفعه قصم المبلغ الذى سيبدأ به حياته من جديد ، فإنه كان سعيداً .

أسعده أن يراه الناس والهدية تحت ذراعه .

وحاول أن يتخيل وجه أمه والشال محيط به . ولكن الخيال لم يسعفه .

ثم خفق قلبه فجأة .

إنه يقطن حجرة على سطح بيت .

وفى شقة صغيرة فى الطابق الرابع تقطن سيدة عجوز .. لقد لاحظ من قبل أنها وحيدة .

ماذا لو أهداها الشال .. ماذا لو قال لها : « لعلك فى حاجة إلى ابن كما أنا فى حاجة إلى أم » !

* * *

وعندما لمحها فى أول الشارع الذى يقطنه أيقن أن الحظ فى صفه ، وقرر أن يلحق بها .

ولمحته هى أيضاً . . وضاعفت من سرعتها ، لكى تتجنبه ، فإن شيخ القسم قد همس فى أذنها بالأمس : « صاحبك الذى يسكن على السطح خارج من الليمان . . وأنت تعيشين وحدك . . كونى على حذر » .

وضاقت المسافة بينهما . . وحاول أن يكلمها . .ولكنها لم تجبه .

وقال لنفسه : « العجوز المسكينة لابد أنها صماء ! » .

وأبطأ قليلا ، ثم عاوده الأمل فى أن تسمعه على السلم .

ولكنه فوجئ بها تصعد الدرجات وثباً وكأنها شابة صغيرة .

وحاول أن يفعل مثلها ، وأجهده ذلك فإن وزنه كان ثقيلا .

ووصل إليها وهى تفتح الباب . ومد يده بالشال وهى تغلق فى وجهه الباب والذعر فى عينيها يطرده .

وصرخت .

ولما صرخت فهم .

وحاول أن يتكلم . . أن يوضح . .

ولكنه لم يجد لسانه . . وهربت منه الكلمات .

وأسرع إلى غرفته على السطح .

وبسط الشال . . ولمسه بأصابعه . وحاول من جديد أن يذكر وجه أمه ، ولكنه عجز . .

وقهره العجز ، وأخفى وجهه فى القطيفة السوداء . . وبكى .

بكى وقد نال منه اليقين أن أمه . . وأمه فقط .. هى التى كانت تستطيع أن تفتح له الباب . .وهو قاتل .

* * *

التراب الأحمر



الناس يذهبون إلى أسوان فلم لا يذهب ؟ . .

إن عنده وفرة فى الوقت . . ووفرة من المال . .

ووجد نفسه فى الطائرة ، وعينه مثبتة على اللوحة المضيئة : « التدخين ممنوع . اربط الحزام » .

وأطفأ سيجارته . ولكنه لم يربط الحزام . نفذ ما يمس الناس . . وتراخى فيما يمسه ، فقد تعود منذ زمن أن يعامل نفسه بعدم اكتراث ، وأن تستوى عنده أمور كثيرة .

ولكن عين المضيفة التقطت مخالفته ، وامتثل لابتسامتها والطائرة تتسلق السماء . .

لقد طار من قبل مرات كثيرة . . وفى لحظات الطيران الأولى كان ينتابه شعور مركز بأنه يفارق الدنيا . وكان يحس من ذلك رهبة وإشفاقاً .. ولكن هذا الشعور فارقه الآن . . واستبدل به الاستخفاف . ولم يكن استخفافه شجاعة . . ولكنه كان زهداً فى الهروب من القدر !

* * *

وانطفأت لافتة « التدخين ممنوع » ، وبدأ عادل يدخن من جديد . .

وأخذ ينظر عبر النافذة إلى الأرض الهاربة .. ثم مل هذا وأخذ ينظر

داخل نفسه . . حياته كهذه السيجارة لا طعم لها . . إنه يستهلك سجائره من غير أن يتذوقها . . وهكذا يفعل بأيامه ولياليه . أحياناً تقع عينه على « الطقطوقة» فيخال أن الذى فيها ليس أعقاب السجائر ، ولكنها أعقاب السنين التى ذهبت سدى .

ولم يكن عادل عاطلا حتى ينتابه هذا الشعور . أحلام أقرانه كانت عنده حقائق، حصل عليها ومازالت طوع بنانه . فقد تخرج فى كلية الهندسة بتفوق . .وأتاح له تفوقه فرصة العمل فى شركة كبيرة فى شارع سليمان باشا . . وكان عمله أن يدرس العطاءات ، وبعد سنين من المران والخبرة صار مشرفاً على أعمال زملائه . . ينفق فى ذلك ساعة ، ويستجم ساعة بالوقوف فى الشرفة ، يرقب من أعلى السيارات وهى تمرح فى الطريق . . والفتيات فى أحدث أزيائهن، تسيل أنوار النيون على ثيابهن الزاهية ، وتخضب شعورهن المصبوغة بألوان لم يتفتق عنها ذهن أبرع حلاق . ويشفق عليه التليفون أن يمل الوقوف فى الشرفة فيستدعيه رنينه . . وتنبثق فى أذنه أصوات ناعمة ، وضحكات هائتة تملأ خياله بعيون خضراء وعسلية . . بقصص قصيرة وطويلة . . وتذكره بحسرات انقضت . ومسرات فى الطريق . ودموع حلوة . وضحكات مرة .

وبعض الشباب يصابون فى الحب بخيبة أمل . . لكن عادل لم تلحقه من الحب إصابات ولا كدمات . . فقد اخترع معادلة رياضية أثبت

فيها لنفسه أن أكاذيبهن أحلى من صدقهن . . ولم يكن بمقتضى هذه المعادلة يحمد لأى فتاة أن تبقى على ولائها له .

وكان هذا يزعج أمه التى كانت تحس أن وحيدها لن يتزوج إذا كبرت فى رأسه آراؤه الطائشة .

* * *

وابتسم عادل وهو يتذكر قلقها عليه ، ابتسامة كبيرة ، حجبها عن بقية الركاب ظهر المقعد الذى يتقدمه . . كانت صورة أمه ، فى خاطره ، هى الشيء الوحيد الذى يحمله على الابتسام الكبير .

وقد ألف أن يحارب خوفها عليه بالابتسام . وحتى بعد أن حجبها الموت عنه إلى الأبد صار الابتسام خصلته معها كلما التقى بها فى دروب الذاكرة . كأنما ليثبت لها أن فراقها لم ينل منه . . اطمئنى ياأماه لم أعد صبيًّا هشًّا . . ومخاوفك علىّ لا محل لها .

* * *

محنة واحدة عجز عن الابتسام لها ، واحتاج إلى صدر أمه ليبكى عليه .

فات على مصر وقت كان فيه الإنجليز يتعلقون بأهداب الخيال ، ويأملون فى البقاء . . ولكن الفدائيين لم يدعوهم يهنأون حتى بالحلم ، وكانوا يستيقظون مذعورين على دوى الرصاص وانفجار القنابل . . والحلم الجميل انقلب إلى كابوس لا صحوة منه إلا صحوة الموت تحت أنقاض المعسكرات ، وقد نقع فراشهم فى الدم .

وذات ليلة جاء دور عادل لكى يذهب إلى السويس مع مجموعة من الرفاق .

وتحت ستار الظلام تسللوا حسب خطتهم الموضوعة .

ولكن موقف عادل وهو يقترب من العدو اختلف عن موقفه أيام التدريب فى صحراء القاهرة .

إن الشجاعة التى رافقته هناك ، والخطر خيال ، أعوزته هنا والخطر محدق به .

وبدلا من أن يتقدم إلى الأمام تراجع إلى الوراء .

وطلع عليه الفجر ليكتشف أنه هرب وتجنب المعركة .

ورفع رأسه إلى حافة المصرف الجاف الذى نام فيه ، والفجر يرفل فى ردائه الرمادى . وسلك طريق العودة كاللص المحاذر أن تراه عين .

ثم اعترضت طريقه جثة وهو فى بعض الطريق . تبين من الثياب أنها لأحد رفاقه . . وأدار الوجه المنكفىء فى التراب ليرى صديقه أحمد قد حنا عليه الندى و بلله بدمعه .

وهم أن يواصل الهرب . ولكنه عاد أدراجه بعد خطوات ، وقد خال صديقه يقول له موبخاً : « إنك خفت الموت ، فهل تخاف أيضاً الموتى ؟ »

عاد أدراجه معتذراً . .وحمله ومضى به . وقال له أحمد وهو نائم على كتفه : « لم يعد ممكناً أن نقف معاً فى الشرفة ، ونطل على البنات المرحات فى شارع سليمان باشا . . سأعفيك منذ اليوم من الحديث عن فتيات أحلامى . ولن نتجادل ونحن ذاهبان إلى الأفلام والمطاعم أيها

نختار . ستذهب وحدك » .

وعندما وصل عادل إلى بقية الرفاق حسبوه خاض المعركة مع أحمد وزامله فيها . ولم يجد هو الشجاعة ليقول لهم الحقيقة . . وتركهم على وهمهم .

* * *

ولكن الحقيقة حاصرته عندما انفرد بنفسه فى بيته . . وتمنى لو أن أمه معه ولم تذهب ليقول لها : « كنت جباناً مرتين . عندما خانتنى الشجاعة . . وعندما ادعيتها وجثة أحمد على كتفى » .

* * *

واهتزت الطائرة فى مطب هوائى انتزع عادل من هواجسه . . وتبين أن ذاكرته قد قصّت عليه كيف فقد الابتسامة . عبثاً يطلب منها أن تكف عن سرد القصة المعادة التى يعرفها . وكيف لا يعرفها وهو يحمل جثة أحمد على كتفه دائماً .

ولم يكن أحمد هو الذى يقول له « أعوزتك الشجاعة » . . ولكنه كان يقولها لنفسه .

* * *

ومنذ ذلك اليوم فقدت الحياة طعمها ، وصار ينظر إلى نفسه كلما ألقى رأسه على الوسادة ، فى آخر الليل ، كما ينظر المدخن إلى أعقاب السجائر فى المنفضة .

سئم الوقوف فى الشرفة . الحياة البهيجة التى تتدفق فى شارع سليمان



لم تعد تعنيه . . رنين التليفون لم يعد له فى أذنه ذلك الوقع الحلو . الأصوات الناعمة عبء ثقيل . والضحكات الفضية ليس لها فى نفسه صدى . العيون السوداء والخضراء التى كانت تتقاذف قلبه ، وكأنه كرة ، عاجزة الآن عن أن تفعل به شيئاً . قلبه صار أثقل من أن يطير فى الهواء .

ومركز الثقل كان تلك الوصمة . . وصمة الهروب من المعركة .

* * *

وبحث عادل عن معركة يخوضها . .

ومرت السنون وهو يبحث . . وينقب عن خطر يتعرض له .

تفانى فى عمله الهندسى فى مكتب سليمان باشا . ولكنه كان يشعر بأحمد واقفاً فى الشرفة يرقبه ساخراً ، ويقول له وضحكته تجلجل : « هذا عمل رجل ناعم اليدين . . أين الخطر فيه ؟ » .

وأضناه البحث عن الخطر . .

خرج فى قوارب صيد خفيفة إلى عرض البحر ، واختار الفروسية رياضة ركب لها كل جواد جامح . وكال اللكمات لكل من وقع فى يده فى الطريق وهو يضايق سيدة . وتحرش بفتوات النوادى الليلية . ولكن ضحكة أحمد ظلت تجلجل فى أذنه . .

وظل على قوله له : « هذا رائع ، ولكنه ليس رهيباً . . إن الخطر الحق هو أن تواجه عدوًّا . . هناك فارق بين من يموت وهو يتسلق الجبل فى نزهة . . وبين الذى يموت من رصاصة تثقب صدره فى معركة » .

* * *

وعندما وقع العدوان على بور سعيد كان ممكناً أن يجد هناك فرصته الذهبية . . ولكن المدينة ضربت وهو فى فراش المستشفى يستأصل الزائدة .

وبكى عادل . وفضل أن يظن الذين حوله أنه يبكى من ألم الجراحة . . وأن يجهلوا الجرح فى قلبه .

ولعل الانفعال والأسى . ووطأة الوصمة . . هو ما أصابه بمضاعفات وأخر شفاءه .

وأبل عادل من جراحته والاعتداء قد آذن برحيل .

وعاد إلى مكتبه . . وانتظر أحمد . كان يريد أن يقول له : « أرأيت ؟ . . لقد رفضتنى المعركة . . لا غفران لجبنى القديم . . ولا مفر من الوصمة ! » . .

ولكن أحمد لم يأت فى تلك الليلة . . وكأنه لم يشأ أن يضايقه .

ولم يلتقيا بعد ذلك . . فإن عادلا استقال من الشركة . . ولم يترك لأحمد عنوانه الجديد .

ترك الشركة وصار يتنقل من عمل إلى عمل . . وفى كل مكان ذهب إليه كان الملل له بالمرصاد . . مقاعد المكاتب كانت مريحة ، ولكنها مبطنة بالملل . . ومثلما يفعل العابثون بمقاعد السينما ، عندما يمزقونها بالمدى ، صار هو يفعل ذلك بالمناصب التى يتولاها وكأن بينه وبين النجاح ثأراً .

* * *

وهو الآن فى مقعد الطائرة الذاهبة إلى أسوان بعد أن هجر آخر وظيفة . . وقد اعتزم بعد عودته من رحلته القصيرة أن يسافر للخارج . وأعد أوراقه . . وادعى لنفسه أنه سيستزيد هناك من الدراسة . . ولكنه كان يعرف أنه يكذب على نفسه ، وأنه يريد أن يستشفى من السآمة .

* * *

وعندما وصلت الطائرة إلى الأقصر كان لا يزال يجتر أفكاره . ولم يتنبه والطائرة تحلق به من جديد إلى أن فتاة قد شغلت المكان الشاغر إلى جواره ، ولم يأبه لها. .وكانت الحسناء قد ألفت أن يبدأها غيرها بالحديث ويتسول منها الإجابة . . وغاظها منه ذلك. . واضطرت أن تستأذنه فى تصفح جريدته لتتفرج على الكتابة العربية . . وهى تفتح الصحيفة اصطدمت يدها بيده . . وأدركت أنه موصل ردىء للحرارة ، وأن جمالها لم يبهره . .

وقالت له إنها أمريكية وإنها تتعلم الهندسة . . وقد جاءت إلى أسوان لاستكمال دراسة عن السدود .

وعندما عرفت أنه لم يزر أسوان من قبل ظنته سائحاً مثلها . . ولكنه أكد لها أنه مهندس مصرى . . وقبل أن تهبط الطائرة كان قد وعدها أن يريا السد معاً ، وفى حسبانه أنه سيهرب من وعده ، فإن به ضيقاً بالهندسة والإنشاءات .

* * *

كان عادل من مواليد حى جاردن سيتى ، وتردده على الأحياء الشعبية

كان أشبه بتردد أولاد الذوات . . أما القرى فكانت تمرق أمامها سيارته المرحة فيلتقط منها نظرة عابرة أشبه بنظرة المتفرج العجول إلى لوحة فى معرض الصور .

فلما وضعته الطائرة فجأة فى بؤرة الصعيد الأقصى أحس بوجدانه ينقلب رأساً على عقب .

رافقته الأمريكية الجميلة إلى منطقة السد . . ووقف هناك مأخوذاً . . وفى طريق العودة نسى أنها إلى جواره . وفى فندق الكتاراكت اطمأن إلى أنه لم يعد مسئولا عنها . . وأن صباها يضمن لها الكثير من الحفاوة .

ومضت عليه أيام ثلاثة وهو ينحى على نفسه باللوم ، لأنه جاء إلى أسوان متنزهاً ، وأن فتاة أمريكية هى التى أخطرت السد فى باله ودعته إليه .

منذ ثلاثة أيام وهو يحس كأن مشاعره تنصهر فى بوتقة .

لقد قرأ من قبل وسمع أن بلاده فقيرة وطيبة وسيئة الحظ . . ولكنه يشهد الآن ذلك ويتحققه . . الوجوه السمراء تقطر بساطة وبؤساً . . والبيوت من الطوب النيء من غير أقفال . فليس فيها ما يسرق أو يخشى عليه الضياع . وإلى جوارها مساكن الموتى تكاد تتشابه بمساكن الأحياء عبوساً واستكانة . .

وهنا وهناك يظهر مرفق نحيل لطفل من كم ممزق . . وعمال التراحيل الذين صعدوا من قراهم فى الدلتا ، إلى مصر العليا ، مازالت فى قسماتهم ظلال همّ دفين . . ومازالوا فى حاجة إلى وقت لكى يتحول لون وجوههم

المترب إلى لون حى . . كأنهم لم يصدقوا بعد أن سوء حظهم الموروث قد آذن بزوال . . وكأنهم فى خوف أن تكون أجورهم الجديدة حلم ليلة صيف مقمرة . وأن يردوا إلى ما كانوا فيه من عوز وإقلال . ولذلك جاءوا معهم ، خوفاً من الجوع ، بخبزهم من الذرة الصفراء المخلوطة بالحلبة . . يتبلغون به مع أدامهم من البصل والمش .

وكان عادل يتفرس وجوههم فيخال أنهم هم بعينهم الذين حفروا قناة السويس . .هم وليس أجدادهم . . وأنهم بعثوا لأن القدر يريد أن يعتذر لهم عما ألحقه بهم .

يعتذر ويكحل عيونهم برؤية المستقبل .. فإن المستقبل قد لاحت تباشيره . . ورؤيته لم تعد متعذرة ولا محجوبة بالضباب .

إن صخور الجرانيت تتحرك من مكانها . وهى اليوم خيوط الحلم الجديد . . والجبل يفتح قلبه الصلد . .ويتمزق من حب ورضا ، والكراكة ترتفع بشظاياه الثقيلة وكأنها قيثارة ، تلتقط برشاقة نغمات خفيفة من نوتة موسيقية .

الجبل الذى تمنى أن ينفجر من غضبة زلزال جاءته المعجزة بيضاء لا تضمر شراً ، ولكنها تفيض حباً ورحمة .. والصخور تتنحى طواعية للنيل الذى يريد أن يغير مجراه قليلا ليغير وجه التاريخ كثيراً .

فى أصوات عمال التراحيل وهم يغنون سمع نفسه يغنى ووجد ابتسامته على شفاههم وهم يضحكون .

أينما ذهب عادل سمع قلبه يغنى . . من بين عيدان الزرع الضعيف

على حافة الصحراء قال لنفسه : واديبا ستمتد خضرته . .الأزقة الضيقة التى تتعرج كالسدود بين البيوت الفقيرة لن تكون هنا بعد اليوم .. ولا عودة إلى الوراء .

لا عودة إلى الوراء . . الكهرباء تتدفق وتسطع فى هذه البقاع التى عاشت أجيالا على نور السراج . . تسطع وتدير مصنع السماد . وبيوت المصنع البيضاء المكيفة الهواء لا يسكنها الخواجات الذين يشرفون على العمل كما كان الحال من قبل. . إنها الآن بالمئات . . ولكن هذه هى البداية .

ورأى مجموع العمال المبتهجين وقد نقعت فى التراب الأحمر ثيابهم ووجوههم الضاحكة . . إنهم قادمون من مناجم الحديد . . ترابنا مسته معجزة . . وكما كان ينبت القمح والقطن والقصب سينبت القطار والطائرة والغواصة . .تفاءل يا أخى وثق فى الغد. . فلا عودة إلى الوراء .

* * *

تفاءل يا عادل ولا تبتئس . . إنك واهم إذ تحسب نفسك جباناً فاتته معركة ورفضته أخرى . الوصمة فى خيالك ، وليست فى قلبك الطاهر . . خيالك ضللك حين صور لك أن الشجاعة الوحيدة هى الشجاعة المختومة بالدم . . البلد الذى يبنى نفسه معاركه لا تنتهى .. وهنا فى أسوان ساحة معركة. . علينا أن ننتصر فيها على الذين يتمنون لنا الإخفاق ويعملون له. . والذين يفتون فى عزمنا. .فيقتلون إيماننا . . ويصورون لنا أن الخدش فى خطتنا جرح مميت . . والهفوة الصغيرة مصيبة قاصمة .

وتنبه عادل على يد توضع على كتفه ، وإذا هو أحد زملاء الدراسة فى كلية الهندسة . .

وقال إبراهيم لعادل : « أنا أعمل هنا فى إنشاءات السد . أقصد كنت أعمل هنا . . ولكنى وجدت وظيفة فى القاهرة ، واستقلت . تسألنى لماذا استقلت ؟ ألم تسمعنى ؟ . .قلت لك جاء الفرج من القاهرة . . إنك واقف الآن تنعم بشمس يناير . ولكن تعال إلى هنا فى يوليو ، لكى تدخل جهنم وتنصهر فيها . . ستضربك الشمس وتطيح بك . . إنك فى الأسابيع الأولى هنا تظن نفسك فى نزهة . .ثم تمضى الأشهر ويستولى عليك الشعور بأنك فى منفى . ثم تكتشف أن الخبرة التى كسبتها تستبقيك ، وأن مصير العمل هو مصيرك . . إنك سجين هنا ماحييت . . .وتحس عند ذلك أنك على حافة الجنون . . صخور تنسف وتنهمر فوق رأسك كالمطر . . وضجة الجبل وضلوعه تتحطم وتصم أذنيك . . إذا كانت لك زوجة فستبكى من الوحدة والضجر . .وإذا كانت لك حبيبة فستزهد فيك وترفض الحياة هنا . .وإذا مرضت فلا تطمع فى إخصائى . سيكون الموت أقرب إليك من العلاج الصحيح .

ثم ماذا أنت هنا ؟ . . مهندس مغمور . . ستجد نفسك ضائعاً فى زحام هذا العمل الكبير . . لن تجد اسمك مكتوباً على جدران السد عندما يتم . وأنا لست مغرماً بلقب الجندى المجهول أظفر به بعد أن أشقى سنين فى طريق الموت البطىء .

* * *

وودع إبراهيم صاحبه ومضى فى طريقه . .

وعرف عادل وهو يتبعه بنظرة آسفة أن هناك عدواً لم يكن ملتفتاً إليه يقيم مع الإنسان داخل ثيابه . .

وفى الصباح تقدم عادل بطلبه لكى يشغل وظيفة إبراهيم التى خلت .

وعندما قبل طلبه أحس أن المعركة ترحب به ولا ترفضه. وأن الوصمة القديمة تنصرف من قلبه .

* * *

ووقف فى منطقة السد يتأمل إحدى الكراكات وهى تقضم الجبل وكأنه يتأمل قيثارة تعزف . وحانت منه التفاتة فرأى الأمريكية الحسناء جالسة فى الشمس وبين يديها أوراق ترسم فيها المنطقة .

واقترب منها ، ولأول مرة منذ وقت بعيد ابتسم ابتسامة دافئة .

وأدهشها أنه يبتسم لها بعد طول إهمال .

ولم يخطر فى بالها أنه يبتسم للأوراق بين يديها .

سارق الحلق



استيقظ فى الظهر .

هذه عادته منذ صار نجماً محبوباً .

وجاءه خادمه بالتليفون . . وبينما هو يدير القرص بأصابع ماتزال نائمة وضع الخادم أمامه صينية عليها تفاحة وكوب من عصير البرتقال .

هكذا تعود النجم المحبوب أن يبدأ يومه أو يتوسطه ، إذا تذكرنا أننا فى الظهر .

وأعاد السماعة إلى مكانها بعد أن قال صوت حلو فى الناحية الأخرى من الخط : « النمرة غلط » .

ولم تكن النمرة غلطاً . . ولكن الجملة كانت اصطلاحاً تمنع به « نوسة » المكالمة إذا كان زوجها فى البيت .

ومضى الممثل يفكر فى نوسة ، وهو يقشر التفاحة . . وابتسم وهو يقول لنفسه إنها تشبهها رونقاً ومذاقاً . . بل إن نوسة لا شك أشهى . . إنه يدرك ذلك برغم أنه لم يقشرها بعد من ثيابها

وابتسم ابتسامة الواثق من أن ذلك سيحدث قريباً . إنه يعرف أنه شديد السلطان على النساء .

ورنّ التليفون مرة أخرى ، وخواطره السعيدة تمرح فى رأسه . وسأل

صوت حالم عن الأستاذ ، فأجاب بأن الأستاذ نائم ، وزعم أنه خادمه . ولم يكن يعرف صاحبة الصوت . . واعتذر أمام ضميره عن هذه القسوة أنه لا يستطيع أن يلبي نداء كل المعجبات ، فإنهن كثيرات . كثيرات .

ورن التليفون مرة ثالثة . . فرفع السماعة وألقاها جانباً ، وهو كالواثق من أنها معجبة أخرى .. أف منهن ! ومن التفاح ، ومن عصير الليمون !

واشتهى الممثل طبقاً من الفول مغطى بالبيض ورغيفاً أسمر وبصلا أخضر . . اشتهى وتحسر ، فإن لرشاقته عليه حقًّا . . وهو يعرف أن « عوده » هو الذى يجذب شركات الأفلام . . والنساء !

* * *

ومنذ سنين قليلة لم يكن الأمر هكذا . . لم يكن يتناول الإفطار إطلاقاً . لاعتبارات اقتصادية . . وفى الظهر والمساء كان الفول فى أغلب الأحيان طبقه المفضل . . ولم تكن تصيبه من ذلك سمنة .

وتقلصت ابتسامته وهو يتذكر تلك الأيام . كان يدمج ميزانية الطعام فى ميزانية المواصلات . فإما أن يتخذ من الفول فى معدته وقوداً يدفع كيانه الهزيل من مسكنه فى السيدة إلى عماد الدين . . وإما أن يصوم ويركب الترام .

أما الآن فإن عربته القوية حلت المشكلة . . ولم يعد يخاف الجوع ولكنه صار يخاف الشبع .

* * *

وفى عماد الدين كان يجلس على رصيف المقهى . .ومن ستر الكريم

أن المعدة ليست شفافة . . وأن العيون لا تستطيع أن ترى أمملوءة هى أم خاوية ؟ . . وكان يعزيه أن ما يظهر منه للناس هو بدلته الأنيقة وشعره اللامع وذقنه الحليق .

وكان الناس من حوله على رصيف المقهى يحملقون فى المارات ، وينثرون تحت أقدامهن التعليقات الجنسية ، وأحياناً يذهبون فى أثرهن ، وأحياناً يتآمرون معهن على سهرات حمراء . .أما هو فكان يعف عن كل هذا ويتجنبه ، فقد كان فى حاجة إلى رضاء السماء عنه . وكان قلبه يخاطب خالقه مناجياً : « يارب . إنى لا أتقيك لأنى خاوى الوفاض. . سيكون هذا حالى أيضاً لو ملأت يدى وأعطيتنى . . على الدوام سأبتغى مرضاتك» .

* * *

وانسحبت الابتسامة تماماً وذكريات المقهى تضرب حوله حصارها. . كان تقاه يعطف عليه « سماحة » جرسون المقهى .

وكان سماحة يقرضه ويقول له : الصبر مفتاح الفرج . الأستاذ فلان الذى يكتسح الشارع بسيارته الآن كان فى الماضى يتوسل إلىّ أن أعفيه من طلب القهوة لضيق ذات اليد . . المهم ألا تطغى عندما يفتح الله عليك . . أن تصلى الفرض كما تفعل الآن .

* * *

وسماحة نفسه كان يصلى ، ومع ذلك ذهب إلى السجن ، فقد ضبط فى قعدة كيف . وكان له ابن يافع يعمل صبىّ كواء . .

وأوصى السجين ابنه أن يجمع النقود التى له فى ذمة الزبائن ويوكل له محامياً . وجاء الكواء يطالب الممثل العاطل بتسعين قرشاً ، وكانت المطالبة أمام رواد المقهى جارحة وملحة ومذلة . . من أين يأتى بهذا المبلغ الطائل ؟ . . وشعر أنه مسئول عن حرية سماحة ، وأنه سيسبب بقاءه فى السجن .

وفى ذلك المساء مشى كما لم يمش من قبل . . ساعات وساعات . ونسى أن يصلى ، ونسى أنه جائع .ولم يعد يذكر إلا أنه مخلوق ردىء منكود لاضرورة له . . ولا يساوى قرشاً ، وتمنى وقد ملأه السخط لو يدخل فى شجار . لو تلبسه تهمة ويذهب إلى السجن . . إنه لن يقاوم ، ولن يدافع عن نفسه لو أن هذا حدث . . وقادته قدماه إلى البيت . . وفى المدخل سمع شبشب « حميدة » يقرع الدرجات وهى تهبط السلم . . وكانت حميدة تقطن الطابق الرابع مع أمها . وكانت فتاة ملفوفة ناضجة فى خديها غمازتان ، وفى عينيها منجم للابتسام . . وكانت أم حميدة تستدعيه أحياناً لكى يكتب لها رسائل إلى أقاربها فى البلد ، فيصعد ويرى الفتاة وقد استعدت لاستقباله بغسل وجهها ودعكه بالمنشفة حتى يحمر ويتوهج ، وكان ذلك أقصى الزينة . . وكانت عينه تقع على صدرها وثغرها وساقها . ثم يحبس نظراته وراء قضبان السطور التى يكتبها ويلعن الشيطان .

أما فى تلك الليلة وحميدة تهبط السلم فقد أحس كأن الشيطان يقيم داخل دمه . . وكان الظلام دامساً فى الدهليز ، وهناك وقف متربصاً ،

وعندما وصلت جذبها إليه وفى نفسه أن ينهب كنوز صدرها وشهد شفتيها .

ولكن حميدة أصابها ذعر شديد ، ودفعته عن نفسها ، وباعدت بينها وبين يديه المحمومتين.. وهمست متوسلة: « أنا مخطوبة يامحمد ». ولما لم يردعه ذلك صرخت .

وعندما ظهر السكان من شقق البيت وقفوا ، وفى أيديهم مصابيح البترول ، على بئر السلم . أيقن الممثل من الفضيحة ، وأسقط فى يده ولكنه فوجئ بها تجيب على استفسارات الناس : « حرامى . هرب لما شاف محمد . . ربنا يسترك يا محمد اخرج اجرى وراه . .يمكن تلحقه » .

وعندما عاد بعد منتصف الليل كانت الضجة قد هدأت ولم تخلف إلا مصباحاً صغيراً ينير الدهليز . وفى الضوء الخافت رأى الممثل شيئاً يلمع عند قدميه . .وانحنى والتقطه . .وإذا هو فردة حلق . .وعرف أنها تخص حميدة ، وأنها سقطت منها وهى تقاومه .

* * *

وفى الصباح كان قد وصل إلى قرار . إن الفتاة الطيبة لن تضار لو عاشت بغير حلق فى أذنيها . . وخرج يبحث عن صائغ . وبعد ساعة كان قد دفع دين سماحة ، ورافق ابنه إلى المحامى . وفى الظهر أكل « نيفة » فى سيدنا الحسين وشرب الشاى فى الفيشاوى .

* * *

وتنهد محمد وضميره يذكره بفردة الحلق .. كانت تلك الأيام هى

ختام النحس . . ثم جاء النجاح والمال ، ونسى الممثل وعوده للسماء . . وملأت الخطايا مخدعه . . ولم تقابله حميدة أخرى تخاف اللص . فى حياته الآن نساء كثيرات يبحثن جاهدات عن لص يسرقهن .

وأفاق على ضحكة رقيقة تتسلل إلى الحجرة . وإذا هى « نوسة » تقول له مداعبة : « النمرة غلط » . ثم تضيف فى بساطة ، وهى تجلس على حافة الفراش : « كان نصحى نازلا . . من مصر الجديدة بالسيارة . . وقلت له خدنى معاك »

ومضت لحظة صمت تذكر فيها الممثل أن نصحى هو زوجها .

ثم قطعت نوسة الصمت بقولها فى دلال : « نزلت فى شارع عماد الدين لأشترى أشياء » .

وأحس كأنها تقول له : « نزلت لأبيعك نفسى » .

وكان الصلاح الذى جالسه على رصيف المقهى فى الأيام الخالية قد فارقه منذ زمان . واشتهى أن يتم الصفقة التى يغريه بها الصوت المدلل . . وجذب نوسة إليه . ولكنها قاومت . . بشدة ونشبت بينهما معركة تافهة . . فإن الحسناء كانت قد قررت أن تغلب على أمرها .

* * *

وفى اللحظة الحاسمة وقعت عين الممثل على شىء يلمع فوق البساط . . إنه سوار نوسه الماسى سقط منها فى أثناء الشد والجذب .

وبرق فى ذاكرته فجأة حلق حميدة وهو يلمع فى تراب الدهليز .

وتراخت يده المشدودة على خصر السيدة وهو يصغى إلى همس

حميدة القديم فى ظلام الدهليز : « أنا مخطوبة يا محمد » .

وأحس الفتور يدبّ فى نفسه وجسده وهو ينظر إلى نوسة . . وأحس الاحتقار يزاحم الفتور . إنها أيضاً ممثلة . . تستدرجه إلى الانتصار عليها وتجهز فى عينيها مقدماً دموع الندم على سقطتها . . وإنها لكاذبة . . المقاومة كانت هناك ، من حميدة . فى ظلام الدهليز . . هناك لحقه الخذلان . .

ووجد نفسه يوصلها إلى الباب .

* * *

وبعد انصرافها تبين أنها لم تدرك أنها فقدت السوار ، وانحنى والتقطه .

وبعد ساعة كانت سيارته تأخذ طريقها إلى حى السيدة .

ووقفت السيارة فى مدخل الحارة .. فإن المدخل كان ضيقاً ، والسيارة كانت كبيرة .

وتجمع الناس حوله . . لم يعرفوا الفتى الذى كان يسكن حارتهم منذ سنين . ولكنهم عرفوا النجم المحبوب وهللوا له .

* * *

وزاد ذلك من أمله فى أن يبهر حميدة أيضاً . . إنها قاومت التعس الفقير . لكنها ستخضع للبطل ، وسيغشى بصرها بريق المجد .

* * *

وعندما وصل إلى الطابق الرابع وفتحت حميدة الباب ورأته أضاء وجهها ورحبت به .

وفى الردهة الداخلية كانت هناك صورة طفلة معلقة على الحائط. وأدرك أن حميدة تزوجت الساعاتى خطيب الأمس .

وقالت حميدة إن أمها خرجت إلى السوق . . وحدث نفسه أن الفرصة سانحة . وبينما هى تصنع له الشاى أخذت عينه تفحصها . إن قوامها مازال خصباً ، وشفتيها بلا أصباغ كالكرز فى الصيف ، ومنجم الابتسام فى عينيها زاد غنى .

وأحزنه أن شهرته لم تبلغها . . وأنها لا تدرى أنه صار نجماً . ولم تذهب إلى سينما لتراه . واضطر أن يحكى لها عما فعله الحظ به . . وأخذها إلى النافذة ليريها السيارة . وهناك وضع يده على خصرها ، ولكنها راغت منها فى هدوء ، وابتعدت عن النافذة . .وتشاغلت بحمل الطفلة بين ذراعيها . . ولم تقل له وهى تخطف نظرة من الصورة على الحائط : « أنا زوجة » ،ولكنه قرأ ذلك فى منجم الابتسام ، ولاحظ أنها تبتسم وتفكر معاً ، وأنها تقيس بعينيها المسافة إلى باب الشقة لكى تجرى إليه إذا بدر منه شىء يشبه الذى فعله بها فى الدهليز . وأحس الخزى من ريبتها . وود لو يستطيع أن ينفى عن نفسه أنه جاء ليخون . . وفجأة بدا عليه وكأنه عرف لماذا جاء . . وقال لها وصوته يرتجف : « أنت لا تعرفين . . أنا سارق الحلق » .

وشعر وهو يهبط السلم ويغادر البيت أنه أشرف قليلا مما جاء .

وعندما تبعه تهليل المارة والأطفال . وهو ينطلق بسيارته ، خيل إليه

أنه واحد منهم ، ينظر ساخراً إلى النجم المحبوب .

وعندما ابتعدت السيارة عن الحى قال له قلبه إنه يبتعد عن الحقيقة ..
ويعود إلى الوهم الكبير .

سيّدي الراكب ..!



المهر الذى دفعه البرنس لنظاكة كان ضربة سكين فى ذراعه . .
والبرنس لم يكن من أسرة مالكة.. فسكان خان عنتر ، حيث نشأ ، لم تكن تجرى فى عروقهم دماء زرقاء ، ومع ذلك كان الفتى برنساً . إذا انتهى من عمله كسائق تاكسي فى شركة الشمال ، أسرع إلى بيته يغتسل ويمشط بعناية شعره المجعد الخشن ، ويثبته بمادة صمغية ، ثم يرتدى قميصه السكروته والبنطلون النظيف ، ويلبس الحذاء الكريب ، ويربط ساعته على معصمه فوق سوار القميص .. ثم يذهب إلى القهوة .

ولم تكن الأناقة وحدها هى التى جعلت منه برنساً . إنه الكرم أيضاً . كان مزاجه فى الحياة أن « يصرف» على أصحابه . . فى القهوة يطلب لهم « المشاريب » .. وفى الأزمات يظهر حين يختفى الآخرون ويخف إلى النجدة .. إذا مرض زميل ساق السيارة بدلا منه إشفاقاً على أجر يومه أن يضيع ، وإذا نشب الشجار بين أصدقاء دخل بينهم بالصلح ودعاهم إلى قعدة على حسابه فى الخمارة .. لكى تتصافى النفوس .

وعلى مر الزمن لصق به لقب « البرنس » ، وحتى هو نفسه بدأ ينسى أن اسمه . . طلبة .

وكان طبيعياً أن تقع « نظاكة» فى حب البرنس . . ومن الإنصاف أن نقرر أنها هى التى شاغلته وبدأت المعاكسة . كانت نافذتها تقع أمام قهوة الوردة البيضاء . . وعندما كان البرنس يشرب الشيشة على الرصيف فى العصارى كانت نظاكة تكثر من الظهور فى النافذة ، عندما يكون وحده ، وتضع على إفريزها القلل لكى تبرد فى الهواء . . وتسقى اللبلابة وقصرية الريحان . وتطيل الجدال مع بائع البرتقال فى الثمن وصدرها يتأرجح مع حركاتها الكثيرة ، وكأنه فاكهة أشهى من البرتقال بزمان .

ولما كان البرنس ابن فن لم يخف عليه أن نظاكة لا تنادى الباعة ، ولكنها تناديه . . وأيقن من إغلاق النافذة كلما شاركه آخرون فى جلسة الرصيف أنها تخصه وحده بالظهور ، وأنها تلحظه على الدوام من وراء الخصاص المتحرك .

* * *

ومنذ ذلك الحين اشتد حرص البرنس على « قعدة » الرصيف . . ولم تكن المسافة تسمح بأن يتبين نظاكة وراء النافذة المغلقة ، ومع ذلك كان يجد فى قلبه عينيها العسليتين ، والسن الذهبية الضاحكة فى ثغرها . . وعندما كانت تقع « البنت» فى يده وهو يلعب الكوتشينة كان يراها صورة طبق الأصل من نظاكة ، لا ينقصها إلا الملاءة المحزقة على خصرها النحيل .

وذات مساء ظهرت الملاءة المحزقة فى الطريق . . ولم يفاجأ بذلك ،

فقد رأى فى النافذة المفتوحة أنها تتأهب للخروج .

وتبعها البرنس من بعيد . . ثم من قريب .

وكانت نظرة فابتسامة . . فعهد على الزواج .

* * *

والحب يرفع الروح المعنوية . . ويشحذ الهمم . . وهذا هو السر فى أن البرنس كره اللوريات ، وصار سائق تاكسى بعد شهر واحد من اللقاء الأول .

وصار فى وسعه أن يأخذ نظاكة إلى نزهات خلوية بعيدة .. وفى أمان من العيون أطلقا العنان للتنهدات . . وتكاشفا بأنهما لم يعد لهما جلد على الانتظار .

واشتد سخطهما على العقبة التى كانت فى الطريق .

أبو « نظاكة » كان « استرجى» فى ورشة موبليات .. معلم كبير فى صنعته . . الخشب الخشن العابس يتحول تحت لمساته إلى شىء براق له بهجة ورواء . كان يقبل على عمله بروح الفنان . كل قطعة أثاث يتولاها يجد لها فى قلبه من الحب ما يجده المثال وهو ينحت تمثالا والرسام وهو يرسم صورة ! . .

ومن هنا أكبر «حسنى» وتمناه زوجاً لابنته . . وكان حسنى نجاراً دقيقاً يعمل فى الورشة نفسها ويبدع . . وتأخذ مصنوعاته طريقها إلى معارض الأثاث فى شوارع القاهرة الكبيرة ، وكان أبو نظاكة يهتز

طرباً كلما رأى صنعة حسنى ويقول له : أنت ملك النجارين .. وحسنى يفغر فاه من الدهشة ، وهو ينظر إلى الموبليا بعد الدهان ، ويقول للرجل العجوز : « أنت ملك الأسترجية » .

وبين الملكين .. ضاع البرنس !

* * *

عندما ذهب ليخطبها ، وعرف أبوها أنه سائق تاكسى ، نظر إليه باستخفاف . وعندما قال له إنه فقير لا يستطيع أن يدفع مهراً ولا أن يفرش ثلاث غرف ، تحول الاستخفاف إلى احتقار ، وقال له بلا مواربة : « عندى العريس الذى يستطيع هذا » .

واندفع البرنس قائلا : « تقصد حسنى . حسنى علة على قلبها . . إنها تكرهه . . ولن تتزوجه أبداً » .

وقال له الرجل بدهشة : « وكيف عرفت ؟ » .

وارتبك البرنس . وأدرك أن لسانه خانه ، وبرطم بكلام غير مفهوم .

وأيقنت نظاكة التى كانت تتسمع وراء الباب أن أمرهما انكشف .

وعندما شيعه أبوها حتى السلم كان احتقاره للبرنس قد تحول إلى مقت .. لقد اكتشف سر تحول فتاته عن حسنى . . هذا الشاب إذن هو الذى يتدخل بينه وبين حلمه الشائق أن يصنع حسنى لابنته ثلاث حجرات .. يدهنها بيده . بكل ما يملك من براعة وحذق وحب لوحيدته . . موبليا تكون حديث الحى .

وأحس مدبولى أن المقت لا يكفى .. وأنه لا يستطيع أن يكتفى بالسخط على البرنس. . ووجد نظاكة فى وجهه ممتقعة من الخوف ، وألهمه خوفها ما يفعله. . ضربها. ضربها حتى كلت يده . ونفرت عروق رقبته وهو يصرخ : « بنت مدبولى تقابل الشبان سراً . لم أتزوج بعد موت أمك إكراماً لك . . خفت عليك أن تمسك إهانة. . وهذا هو جزائى أن يلحقنى الهوان بسببك وينظر إلى شاب لا أعرفه فى تحد وكأنه يملك منك ما لا أملكه ؟ ! » .

وخرج مدبولى من البيت غاضباً قبل أن يكمل شكواه منها. . ولو أكمل لقال: « إننى عشت كل هذه السنين وأنا أشتهى أن أملك قطعة موبليا واحدة من القطع التى تمر تحت يدى . ولكن ذلك كان مستحيلا . . وعندما أصبح المستحيل ممكناً على يد حسنى لا تريدين أن تتزوجيه ، وتتآمرين عليه وعلىّ . . حسناً ! » .

* * *

والأيام التى مرت بالبرنس بعد تلك الأزمة المفاجئة كانت قاسية. . كان يعامل الزبائن الذين يركبون معه بعصبية وخشونة ، وكان لا يسمعهم وهم يعينون له مكان النزول من شرود ذهنه ، وكانوا يتهمونه أنه يتعمد الخطأ طمعاً فى المزيد من الأجر ، وقلما كان ذلك يمر من غير شجار .

ومع ذلك لم يكن يعدم زبائن طيبين يعاملونه بالحسنى ، ويتبسطون معه فى الحديث .

وذات مساء تحدث مع راكب من هؤلاء عن هموم الدنيا ، ورفع

التكليف ، وفتح له قلبه .

قال للراكب : « صحيح الدنيا تنورت ، ولكن هناك آباء عقولهم مظلمة . . يعتقدون أن الحب عيب ، كأننا مانزال فى الجاهلية . .

« إنه يرفض أن يزوجنى لها ، أنا الذى أعبدها ، ويفضل علىّ آخر من أبناء كاره . . نجار أمى . لا يعرف الألف من المدنة . . ولكنه يستطيع مالا أستطيعه . . يستطيع أن يحول الخشب إلى موبليا تفرش ثلاث حجرات .

« ولكن هذا الزواج لن يتم لأنها تحبنى . نافذتها الآن مغلقة باستمرار حرم عليها أن تطل منها حتى لا ترانى ، ولكنى واثق أنها وراء النافذة المغلقة ، لأنها تحبنى . . وهى لا تخرج أبداً . حبسها فى البيت . . ولكنى متأكد أن الحبس لن يخضعها . . ولا الجوع . ولا العطش . . لأنها تحبنى » !

ولما كان مشوار الراكب طويلا . من العتبة إلى مصر الجديدة لم يجد البرنس بأساً فى أن يحاضر الزبون الطيب فى الحب .

اندفع يقول له : « وهل قلب الإنسان فى يده حتى تطلب منى أن أنساها . . أنا أعذرك إذ تحسب أن النسيان ممكن . . يظهر أنك لم تحب قط . ولكنك لو كنت حجراً ورأيت نظاكة فإنك تلين . . آه يا سيدى لو رأيت عودها ، وخصرها والملاءة تطوقه . . إنك تتذكر فى الحال العرائس التى تعرض عليها الفساتين فى فترينات شارع ٢٦ يوليو فى البداية . . قبل أن نقع فى الحب ، كلما رأيت الملاءة تخطر فى الشارع

وأنا فى أثرها كنت أقول لنفسى يكفينى يارب أن أرى قوامها فى الفستان الذى يخفيه هذا الحجاب الأسود ثم أموت . .

« ولكن ربك تركنى أعيش . . وسمح لى أن آخذها إلى القناطر . وأنتحت الملاءة عن فستانها الأحمر يتوهج منه وجهها الأبيض ، فخيل إلى كأنى أرى ناراً تتوهج فى الليل وتشقه ، ودار رأسى وقلت لربى : « أرى بديع صنعك الملفوف فى هذا الغلاف الأحمر ثم أموت » بنى آدم طماع يا سيدى .. وأسرعت إلى أبيها أخطبها منه لكى أثبت لربى وربك أننى تمنيت أن أرى ما يخفيه الفستان . . فى الحلال .

« ولكن أباها كما ترى يا سيدى الراكب رجل خلا قلبه من الرحمة . . يريد أن يبيع ابنته ببضع قطع من الموبيليا الفاخرة . . آه لو كنت أعرف يا سيدى هذه المصيبة مقدماً ، لأطبقت يدى على كل قرش كسبته . . ولكن البرنس اعتقد دائماً أن لذة الكسب فى الإنفاق . . واصرف ما فى الجيب يأتيك ما فى الغيب . .تصور فعل الحب بالنفوس.. البرنس يندم على أنه لم يكن بخيلا . . بل يندم على أنه خلق . . بعد منتصف ليلة أيقظت أمى عندما عدت إلى البيت وصرخت فى وجهها : هل كان من الضرورى أن تتزوجى وتلدينى للشقاء ؟ ! . . ودقت على صدرها وهى تقول لى : هل هذه هى الرحمة التى ترسلها إلى أبيك فى قبره يا برنس ؟ .. وصحت بها : يا مجنونة ، حتى أنت صدقت أنى برنس . . إننى معدم . . عاجز عن أن أشترى جهازاً لنظاكة وأنقذ الحب .

« وعند ذلك تنبهت أنا وأمى فى وقت واحد إلى أنى سكران . وتذكرت أنى قادم من« خمارة سبعة باب . إنى أعرف ما هى الخمر الجيدة . ومع ذلك ذهبت إلى هناك عمداً وطلبت زجاجة كبيرة من « الطفية » لكى أنسى . . ومع أن الطفية فيها من ماء النار شبه فقد أشعلتها بكبسولة سمراء . . ماركة جديدة اسمها منزول المهداوى . أكد لى بائعها أن الذى يبتلعها لا ينسى همه فقط بل يقول شعراً فكاهياً ويكتشف أنه دكتور فى القانون . وتنساب منه المواد المفرقعة . . وينسى همه . .

« وبعد أن أفلت من لسانى اسم نظا كة لم أجد جدوى من إخفاء الأمر عن أمى . كل الذى أفلحت فيه الخمر أنها ردتنى ولداً صغيراً يلتمس أنامل أمه على جبينه الملتهب وهو يعترف .

« وفى الصباح استيقظت يا سيدى الراكب على طرق فى رأسى . .

« وناديت أمى طلباً لكوب الحلبة الذى كانت تصمم أن تسقنيه كل صباح ، ولكنها لم تكن فى البيت .

« وبعد ساعة عادت . . متهللة الوجه . . أمى مجنونة قليلا يا سيدى الراكب . قلت لنفسى لعلها ذهبت إلى بيت الأسترجى وضربته . فهذه هى طريقتها مع أى رجل أو امرأة .

« ولكنها كانت أذكى من ذلك . . لقد ذهبت إلى الشيخ ريحان

ومعها « أثر » « نظاكة » . . خصلة شعرها التي وجدتها في جيبي . وقد كتب لها الشيخ ريحان « العمل » ، وأذابه في الماء . ورشت الماء من فورها على عتبة بيت الأسترجى . . وهي واثقة من النتائج . واثقة أن رجل حسني النجار ستكسر إذا تخطاه . .

« هل تظن أنها تنكسر حقاً يا سيدى الراكب ؟ » .

ولم يجب الراكب : فقد كان مشغولا باستكشاف الطريق . . وكانت السيارة قد وصلت إلى حافة الصحراء في آخر مصر الجديدة . . وتنبه البرنس على صوته وهو يقول له : « قف » .

ورغم أنه لم تكن هناك بيوت ينتهى عندها المطاف فإن الزبون دائماً على حق . ولذلك انصاع البرنس للأمر .

ونزل الزبون ونظر إلى العداد ثم نظر حوله . . ودس يده في جيبه . ولكن يده بدلا من أن تخرج بالنقود خرجت بخنجر . . وطعن به السائق وهو يزمجر : « أنا حسني الذى تريد أن تكسر رجله » .

وعندما أطلق ساقيه للريح كان يعتقد أنه قتل البرنس واستراح منه . ولكن البرنس كان قد حمى قلبه بذراعه وتلقى فيها الطعنات .

وعندما يكون المهر ضربة سكين في الذراع لا يستغرب أن يتم الزفاف في القسم ، بعد تمرد نظاكة وغضبها من محاولة اغتيال حبيبها .

ولما كانت والدة البرنس مجنونة قليلا فقد زغردت في القسم والضابط يشهد على القسيمة .

وعلى باب القسم وقفت تاكسيات تزيد على الثلاثين لتزف العروس . وذلك أيضاً لم يكن مستغرباً والبرنس صاحب فضل على الإخوان ، وله حاشية وأحباب .

* * *

الشيء الذى كان غريباً حقًّا أن والدة البرنس اختفت من البيت بعد شهر من زواجه .

ولما كانت مجنونة قليلا فقد اعتقد ابنها أنها فضلت أن تطفش على أن تعيش مع زوجة ابنها تحت سقف واحد .

وبعد أن تعب من البحث عنها ذهب إلى الشيخ ريحان يستعين بعلمه على المشكلة .

وابتسم الشيخ ريحان ، وقال له وهو مسبل الجفنين « إن العمل » الذى رشته أمه على عتبة الأسترجى كانت منافعه جمة .

ثم همس فى أذنه ببقية الحديث .

* * *

ولم يصدق البرنس أذنيه ، وأسرع إلى بيت مدبولى الأسترجى ودق الباب .

وفتحت له سيدة مجنونة قليلا ، اصفر شعرها الأسود ، وخضبت الحناء كفيها ، واختفت تحت الطلاء الأحمر بشرتها الداكنة .

ورأت الشر يقدح فى عينى ابنها ، وأحست كأن نظراته الشرسة تبحث عن سكين ، فأسرعت إلى الدولاب وعادت بقسيمة الزواج .

وبينما البرنس يتصفحها بعينين زائغتين وصل إلى سمعه صوت قرير .. كان الأسترجى جالساً إلى الطبلية على مقربة من السرير ، وأمامه زوج من الحمام . .ولم يكن يبدو على مدبولى أنه راغب فى الكلام الطويل . لقد رفع وجهه ليقول للبرنس بهدوء : « إنك آخر من يعترض على الحب » !

ثم انكب من جديد على طبقه .

الممر التجاري



الربيع فى ذلك الصباح كان خلىّ البال ، وكان يعدّ نفسه فى إجازة ، فقد أتم عمله . الأغصان الجافة أجرى فى عروقها دمه الأخضر .. وكتب شهادة الميلاد لملايين الأزهار التى كانت أجنة فى بطن الأرض السمراء . . والسماء خلع عنها كسوتها المرقعة بالغيوم ، ودثرها بالقطيفة الزرقاء . . والعصافير المغردة ألف لها أغانيها الجديدة .

أما العذارى فكن فى أول جدول أعماله . . تسلل إلى قلوبهن بالأمل . . وإلى عيونهن بالبريق . . ولف ساعده حول خصورهن فنحلت . . وخلّى عن صدورهن فنفرت . . ووعدهن أن ينشر ، بشكل وبائى ، نوعاً من الحصبة . . اسمه الحب . .

* * *

ولأن الربيع فى ذلك الصباح كان خلى البال ، وليس لديه ما يعمله ، أخذ يتسكع فى الشوارع . . وراقته شجرة من أشجار « دقن الباشا » فتسلقها ، وأحس الرثاء للباشوات ، الذين ذهبت ألقابهم ولم يبق منها إلا أذقانها ، فجعل يمشط شعرها بأصابع النسيم فى حنان .

لكنه لم يلبث أن مل هذه التسلية ومد بصره إلى نافذة قريبة .

وكانت نافذة فصل فى مدرسة بنات .

* * *

ونظر الربيع إلى البنات وابتسم . فقد تبين أنه رآهن من قبل ، وكن فى رحلة فى القناطر ، وجذبهن إليه أنهن من عمره ، وحلا له أن يلحظهن من بعيد . . وها هو ذا يتبين أنه قد احتفظ بملامحهن فى ذاكرته الوردية .

هذه ذات الغدائر تبدو منهمكة فى حل مسألة الحساب . ولكنها تكذب على الحساب. . إنها تكتب خطاباً للفتى الذى كان يخالسها النظر فى الحديقة. . إنها تقول له : « تسلمت رسالتك الأولى ، وأسعدنى أن المشرفة لم تستطع أن تضبطها .. قرأت المكتوب فى عينيك كلمة كلمة.. لغتك فصيحة وجميلة . . وابتسامتك هى أظرف ساعى بريد فى العالم . قد فهمت ما تريد أن تقوله. . أنا أيضاً أحبك . . ولكنى خائفة . . كيف أحب من أول نظرة شاباً رأيته فى القناطر مصادفة . . هذا ليس تراجعاً من فضلك ، ولكنى صريحة . . إننا لم نتحدث إلى الآن . . هل تجيد الحديث ؟ . أنا أموت فى الكلام الحلو. وقد حلمت دائماً أن الذى يضمنى إلى صدره ينطق الراء غيناً ، فإن لم تكن كذلك فإنى أفضل أن أنساك من الآن وأوفر تنهداتى » .

وفى هذه اللحظة غادرت معلمة الحساب مقعدها ، وبدأت تمر بين «التخت» متجهة إلى الفتاة ذات الغدائر، فبادرت إلى تمزيق الرسالة ، متظاهرة بأنها كانت تجرب فى ورقة حل المسألة . . ولم تشعر بأسف بعد أن

تجاوزتها المعلمة . فإنها كانت تكتب لفتى القناطر ، وهى تعرف أن رسالتها لن تصل إليه . . فإن « أتوبيس » المدرسة يوم رحلة القناطر جمع البنات ، وانطلق بهن . . وظل ذلك المجهول يودع « الأتوبيس » بنظراته وهو لا يملك اللحاق به .

وقالت ذات الغدائر لنفسها ، وهى تنظر إلى الرسالة الممزقة : « إذا كان حبه كبيراً فسيبحث عنى حتى يجدنى ، سيمر يوماً بعد يوم بكل المدارس الثانوية ويفرز البنات . . وسأجد نفسى أمامه وجهاً لوجه ، وعند ذلك أتأكد أنه يستحق الحب . . ولن أحزن عند ذلك على رسالة ممزقة . . سأكتب له بدلا منها عشرات ، ولو مزق قلبى فسأقدمه له لكى يمزقه من جديد » .

وأخرجت ذات الغدائر منديلها ، ومسحت دمعة ادعت لنفسها أنها بسبب ناموسة تسللت إلى أهدابها . .

* * *

وعندما وصلت المعلمة إلى آخر الفصل كفّت عن الحديث فتاتان كانتا « ترغيان » معاً . . وكانت إحداهما ذات شعر « أكرت » ملبد ، وأنف أحمر على الدوام بغير زكام ، وكان نهداها يسبقان سنها ، ويبدوان ، تحت المريلة ، كحبتين من جوز الهند الصلب . أما الأخرى فقد كانت ممسوحة الصدر ، وحاجباها كانا كثيفين لم يلعب بهما الملقاط بعد ، وكان سوادهما الحالك يطل على عينين كبيرتين جداً كعيون البقر .

ولما ابتعدت المعلمة همست ذات الأنف الأحمر مكملة الحديث الذي انقطع : « .. واقترب مني فجأة ، وحاول أن يقبلني فصفعته » . وملأت الشفقة عيني البقرة ، وهمست وهي تقارن خلسة بين جوز الهند وبين صدرها الممسوح : « يالك من قاسية » !

ولم يخطر ببال « نوال » التي كانت تجلس خلفهما ، وتصغي لهمسات البنتين أن القبلة والصفعة محض خيال ، وأن زميلتها تكذب .. ذلك لأن القبلات في حياة نوال كانت كثيرة ! ..

* * *

ودق الجرس ، جرس الدرس الأخير ، وتصاعد لغط البنات وهن يندفعن إلى باب الفصل ، وكأنهن حمام حبيس وجد ثغرة في القفص .

ولكن نوال تلكأت . . فتحت درجها على مهل . . والتقطت مجلة ، ودستها بعناية في حقيبتها بين كتبها ، وكأنها تخفي كنزاً .

وكان طريقها إلى المنزل هو طريق صاحبة الأنف الأحمر والأخرى ذات الصدر الممسوح ، فتريثتا في آخر الطرقة الطويلة ، خارج الفصل ، في انتظارها ، ثم ملتا الانتظار ، وقالت الأولى وهي تلف ذراعها حول خصر صاحبتها : « هيا بنا . . نوال تتهرب منا . ألم تلاحظي ذلك . سبعة أيام الآن وهي لا تعود معنا » .

وقالت الثانية وهما تستأنفان السير : « ماذا تظنين السبب » ؟

وأجابتها صاحبة الأنف الأحمر وهي تبتسم بخبث : « السبب .. أظنه الحب » .

ونظرت صاحبة الصدر الممسوح إلى صاحبتها بلهفة واهتمام ، كما ينظر الحالم إلى مفسر الأحلام ، وسألتها هامسة : « هل تظنينها تغافلنا وتذهب لتقابله » ؟

وقالت العالمة ببواطن الأمور : « هذا أكيد. .نوال خائنة . .أنا أقول لها كل شيء . وهي تخفى كل شيء . أليست هذه خيانة ؟ » .

وأجابت الأخرى فى حنان وطيبة : « ربما كان الأمر فى بدايته . . وفى نيتها أن تخبرنا عندما تتأكد » .

وقاطعتها ذات الأنف الأحمر ، وقد اشتدت حمرته من الانفعال : « أنت على نياتك . . نوال حويطة. . لعلها تظن أنى سأحسدها. .هل أنا ناقصة معجبين .. لقد حكيت لك أن عندى ثلاثة يعبدوننى . وأنت تعرفين أنى صفعت أحدهم ، عندما حاول أن يقبلنى ، مع أنه طيار » .

* * *

وضحك الربيع فى كمه وهو يسمع السخط المندلع فى الصوتين الناعمين . . وتذكر أنه نسى نوال فى الفصل فعاد إليها . . ولكنه لم يجدها هناك .

كانت نوال قد وصلت إلى قلب المدينة ، ووقفت فى شارع عدلى عند مدخل الممر التجارى . .ونظرت خلفها ، ولما أيقنت أن لا أحد يتبعها ولا عين ترقبها اقتحمت الممر ، وشقت طريقها فى زحامه .

وبعد دقيقة كانت فى شارع ٢٦ يوليو ، وتمهلت ريثما تلتقط أنفاسها وتأخذ حذرها من أخطار المرور ، ثم عبرت الشارع . . وتسمرت

أمام إحدى « فترينات » شيكوريل .

واتجهت نظرات نوال إلى فستان داخل « الفترينة » . .وكان هذا الفستان هو « الحبيب» الذي جاءت لتقابله .

منذ أسبوع وهى تهرب من صاحبتيها ، وتغير طريقها ، وتأتى إلى هنا لكى تقف أمام « الفترينة » . . وتتأمل الثوب . . كان ثوب سهرة أزرق كالسماء . .وتخيلت نفسها فيه ملفوفة فى سحابة رقيقة. . ولو رقصت به فلن يكون لها وزن ، ستغدو نغمة فى لحن طائر من ألحان الفالس .

لقد أحبت نوال الثوب ، من أول نظرة ، كما لم تحب شيئاً من قبل .

وأخفت نوال السر فى صدرها . . أشفقت أن تبوح به ، حتى لصاحبتيها لئلا تتهماها بالجنون . فقد كانت على الثوب بطاقة تعلن عن ثمنه خمسين جنيهاً وبضعة قروش .

فى أول مرة وقفت نوال أمام الثوب قالت لها البطاقة : « القروش أنا واثقة أنك تقدرين عليها. . ولكن الجنيهات الخمسين ! .. »

وهزت نوال رأسها بحسرة وانصرفت .

* * *

ومع ذلك عادت فى اليوم التالى إلى شارع ٢٦ يوليو . . ووقفت أمام الثوب .. واضطرت البطاقة أن تقول لها : « لماذا جئت؟ رحمة بك سأقسو عليك وأذكرك بأشياء . .قبل أن تنظرى إلى ثوب بخمسين جنيهاً انظرى فى الفصل إلى البنات من حولك . . ذات الأنف الأحمر دائماً أبوها سائق ترام ، وخديجة يكفلها زوج أمها « الساعاتى » ، ومرفت أمها

ممثلة فى المسرح الشعبى . . كلهن.. كلكن . . بنات بسيطات من أسر بسيطة . . بسيطة جداً .. لا يا نوال .. لا تعودى إلى هنا.. حلمك خاسر عقيم . . أم أنك نسيت أن أمك . تغسل فى البيوت ، وأنك من الشارع الضيق ؟

« تنكرين يا نوال أنك من هناك ، لأنك تسكنين مع أمك غرفة على سطح عمارة . .إنك واهمة . . إن الأسطح والبدرونات والأقبية هى امتداد لهذا الشارع .. وغرف الوصيفا ت الأنيقة فى القصور امتداد له ، هى والحانات التى تبيع الكأس والابتسامة ، والفنادق التى تؤجر الجسد والفراش. . كلها فروع من ذلك الشارع الضيق . . . »

وقالت نوال للبطاقة السليطة . فى مرارة : « إنى لا أجهل القراءة وأعرف جيداً معنى الرقم الذى تحملينه . . وإننى لن أجد فى يدى خمسين جنيهاً أبداً — ومن أجل هذا أجىء متخفية ، أحاذر أن يرانى أحد ماذا يضيرك إذا نظرت إلى الثوب ؟ .. إنى قانعة بالنظر إليه .. وإن ذلك يصيبنى بحسرة لذيذة أرجوك ألا تحرمينى منها » .

* * *

وأخذت نوال تمضغ حسرتها وهى تجر قدميها إلى البيت. . إنها تعرف أنها جميلة . . كلما مشت فى الشارع الكبير التفت إلى الوراء الرجال الذين يتجاوزونها . هذا يدل على أنهم كانوا يفحصون قوامها عندما كانوا خلفها ، ويقطع أن عودها نال منهم ، ومرآتها تؤكد لها أنها تستطيع بهذا الوجه الصبيح أن تسحر من تشاء . .

ولكنها تعرف أن سحرها مؤقت . . سرعان ما يزول . تعرف ذلك من حادثة حدثت لها .

فى مدخل العمارة كثيراً ما تقف فى انتظار المصعد الذى يحملها إلى السطح . العمارة مكونة من ثمانى طبقات . . ويتكاثر المنتظرون . وعندما يكونون من الرجال يقدمونها فى الركوب ، ويفتحون لها الباب . وقد لفت انتباهها منهم سيد مفرط فى الأدب ، ينحنى لها باحترام ، ويغضّ بصره إذا انفرد بها .. وقد قال لها مرة معتذراً وهو يهم بإطفاء سيجارته : « هل تضايقك رائحة السيجارة يا آنسة ؟ » .

وإنها لتعرف السر فى هذا الاحترام .. إنه يعتقد ، والآخرون معه ، أنها من أسرة تشغل إحدى الشقق الفخمة فى العمارة . وتحت مريلة المدرسة تتساوى بنت الباشا وبنت امرأة .. تغسل فى البيوت !

إن ذلك السيد يطفىء من أجلها السيجارة . . لم يمر فى باله أن ثوبها تحت المريلة هبة من أسرة تعطف على أمها ، وأن ملابسها الداخلية حافلة بالثقوب . . وأنها لو لم تكن مشدودة الصدر لما وجدت « السوتيان » الذى يحمل عنها عبء نهديها .

ثم جاء مساء مشئوم وقفت فيه نوال تنتظر المصعد هى والسيد الأنيق . وإذا بواب العمارة يندفع نحوها صائحاً : « نسيت أن أخبر أمك . قولى لها عندها غسيل غداً فى المنزل رقم ٧ فى شارعنا » . .

وأحست نوال أن الأرض تميد بها ، وفتح لها السيد الأنيق باب المصعد لكى تتقدمه فى الدخول . لكنها أيقنت أنه فعل ذلك ساخراً . .

وأحست أن قلبها يهبط والمصعد يرتفع . يهبط إلى قرار سحيق من الهوان تحت نظرته الضاحكة الفاحصة .. إنه هذه المرة لا يغض عنها بصره ولا يسرف فى الأدب . . وليلتها لم تنم . . عاف النوم أهدابها المبللة ، وجفل من غيظها . . إن تظاهرها بأنها إحدى ساكنات الشقق ذهب سدى .. وعبثاً منعت أمها من أن تغسل فى هذه العمارة .. لقد وضح الخفاء . .ونظرت من سريرها إلى أمها التى أعطتها السرير وقنعت بحصير على الأرض ، وقالت فى سرها : « مسكينة أنت يا أمى . تجنبت دائماً أن أمشى معك فى الطريق.. حرصت ألا يعرف أحد أن لى بك صلة.. تكبرت عليك ، وقد نلت الليلة جزائى ..

ومضت الأيام .. وتمنت ألا يجمعها المصعد بالبسيد الأنيق ، ولكن ما كل ما يتمنى المرء يدركه . . سرعان ما فوجئت به ذات ليلة ، يفتح لها باب المصعد فى أدبه القاتل لكى تتقدمه.. وأطاعته.. وعندما بدأ المصعد يرتفع ، وكانا وحدهما ، رفعت عينيها إلى وجهه ، وإذا عليه ابتسامة خبيثة. . وإذا هو يعلق المصعد بين طابقين ويأخذها بين ذراعيه ويقبلها .

وتمنت أن تصرخ ، ولكنها لم تفعل. وشل إرادتها صوته الآمر وهو يهمس : « أنا معجب بك من زمان . هل يغضبك أنى أحبك » .. ووصلت هذه العبارة إلى سمعها وكأنه يقول لها : « لا فضائح . إذا تكلمت عرف الكل أنك ابنة الغسالة. . قبلاتى هى ثمن السكوت » ..

وعندما وصلت إلى حجرتها تذكرت أنها سمعت كلمة « الحب »

وابتسمت بمرارة . . لقد شمت من الخمر التى هبت عليها مع أنفاسه اللاهثة رائحة حبه . . وفطنت أنه ذلك النوع من الحب الذى يستحى من فتاة الأسرة ، ويجترئ على ابنة الغسالة ، حتى ليعاق المصعد بين طابقين . . .

* * *

ومنذ تلك الليلة لم يتورع عن تقبيلها كلما حانت الفرصة . . وفى كل مرة كان يقول لها فى لوعة ولهفة : « إلى متى ترفضين هداياى ؟ . إلى متى تبقين على عنادك ولا تزورين شقتى . الظروف فى خدمتنا . . أمك لن تدرى من الأمر شيئاً . . لن يشعر بنا أحد . . إنها مغامرة فى منتهى الأمان . . إذا فعلت ذلك مرة أعطيتك حياتى » .

مر كل هذا فى بال نوال وهى تبتعد عن شارع ٢٦ يوليو ، وتدير ظهرها للثوب فى « الفترينة » . ولكنها فى ظلام الحجرة رأته أمامها . . رأته أمامها فى كفة . . وفى الكفة الأخرى رأت السيد الأنيق يقول لها باسماً : « إنها مغامرة فى منتهى الأمان . . إذا أقدمت عليها أعطيتك حياتى » .

وأدارت وجهها إلى الحائط ، وقالت لنفسها بشفتين جافتين : « أى أمان ؟ ! أنا أهذى ! » .

* * *

ومع ذلك ضبطت نفسها فى اليوم التالى واقفة أمام « الفترينة » تحدق فى الثوب ، ثم اكتشفت نفسها داخل شيكوريل تطلب من البائعة المختصة أن تقيسه .

وقالت لها البائعة وقد جاءت به من الفترينة : « ليس عندنا سواه . استيراد الفساتين من الخارج صعب ونادر جداً الآن . يكون من حظك لو جاء على قدك . يا سلام ! . . كأنه مفصل خصيصاً لك . نصيحة لا ترددى واكسبيه . إن من يراك فيه يقول إنك . ملكة » .

وأطالت نوال النظر فى المرآة .. وراحت أمامها وجاءت . . وتأملت نفسها من أمام ومن خلف ، ثم قالت للبائعة وهى تصطنع الفتور : « سأفكر » .

وقالت لها البائعة فى لطف وهى تودعها : « أتمنى أن يكون من نصيبك » .

* * *

وفى منتصف تلك الليلة تسللت نوال إلى حجرة السطح عائدة من شقة السيد الأنيق .. وأيقنت أن أمها التى تنام نصف ميتة من الإنهاك لم تشعر بدخولها كما لم تشعر بخروجها .

وتمددت نوال فى فراشها ، وأدارت وجهها إلى الحائط ، وانسابت دموعها فى صمت .

وقالت الدموع : « فى حقيبتى ثمن الثوب . ولكن المغامرة لم تكن فى منتهى الأمان كما زعم . سامحينى يا أماه . . إنه ليس مجرد ثوب سهرة . .إنه جواز المرور من الشارع الضيق إلى حياة جديدة . .إننى أقرأ فى المجلات الفنية قصصاً عجيبة. .ثوب جميل ، وقوام رشيق ، وقد يبتسم الحظ .. قد يبتسم فى مسابقة جمال . .وقد يبتسم من بين سطور

إعلان عن طلب وجوه جديدة . .وقد يبتسم من بين الأسنان المنفسحة فى فم منتج كريه الشكل .. إن مرفت ، ابنة الممثلة فى فصلى ، وقد أخفيت عنك أنها علمتنى الرقص ، وألقت على بعض المحاضرات ، ثم قالت لى : عليك الباقى . أغاضبة أنت يا أماه ؟ . . إن الأمر ليس مفجعاً كما تظنين . . كثيرات من معبودات الجماهير بدأن هكذا . . والمجتمع الآن ينحنى لهن ، والشعوب تصفق ، والرجال الشرفاء يلثمون أيديهن ، أنا واثقة يا أماه أن هذا الثوب بالذات سيجعل الوصول سريعاً .. أنت لم تسمعى البائعة وهى تقول لى : « إنى أبدو فيه كملكة . »

* * *

وفى طريق نوال إلى شيكوريل ، كان خيال الثوب يكفكف فى قلبها بقية من دموع .

وكانت أول من دخل المتجر عند فتح الأبواب .

وقالت لها البائعة وفى صوتها أسف : « بيع الثوب يا سيدتى » .

* * *

وترنحت نوال قليلا .

ثم نسبت ذلك إلى أنها لم تتناول إفطارها .

وتذكرت أنها قريبة من الممر التجارى ، وأنها تستطيع أن تأكل هناك .

وابتسم لها رجال كثيرون وطبق الحلوى تحت ذقنها ، ولم ترفض ابتسامتهم . .

ولماذا ترفض ؟ . .إنها تعرف أنها سلكت الممر التجارى بالأمس ، قبيل منتصف الليل . . وأن عليها أن تواصل السير فيه . . بعيداً بعيداً عن الشارع الضيق . .

المصباح الأعمى



كان ذلك المصباح من مصابيح الشارع محسوداً من زملائه ، فإن موقعه ، عند مدخل جسر قصر النيل ، كان موقعاً ممتازاً . إنه يستطيع أن يرسل البصر فيرى « سراى » وزارة الخارجية وما يجاورها من مبان أنيقة ، وعلى مقربة حدائق قصر النيل ، والميدان الشائق المترامى الأطراف ، وإلى يمينه السبعان العجوزان يطرحان وراء هما تلك القنطرة الهائلة التى تتمطى بكبرياء فوق النهر ، النيل العظيم أبو الأرض الطيبة.. أى جوار كريم !

منذ عشر سنوات يقف ذلك المصباح وقفته الرشيقة . وإلى أعوام قليلة كان سعيداً ، ولم يتعب ، ولم تدركه السآمة .. حسبه أن يدير البصر حوله ليتسلى . . كانت قامته العالية تمكنه من رؤية الكثير . . الشبان الذين يحلو لهم التلكؤ فوق « الكوبرى » ، والأمهات السعيدات يدفعن أمامهن عربات الأطفال ، والطلبة فى موسم الامتحانات تنشد وجوههم المتصببة عناء النسمات الندية ، والسيارات ، وعربات الركوب تسير مسرعة أو على مهل ، وتختبئ فى جوفها أشياء تسر . . أو تسوء !

وكان ذلك المصباح يحكى لجيرانه من المصابيح عن تنهدات التاعسات ، ويقص عليها قصص الفتيات اللاتى ألح عليهن الندم فجئن يراودن الموج عن



حياتهن ، منهن من جازفت وباتت فى ضيافة عرائس الماء ، ومنهن من تنتظر !

والمصابيح تتناقل الأخبار ولذلك فإنه أيضاً كان يسمع الكثير ، ويلم بما يدور فى الأزقة البعيدة . .

* * *

وعندما أعلنت الحرب العظمى الثانية منذ أعوام التقطت المصابيح النبأ من لغط المارة وتساءلت ترى ماهى الحرب ؟.. وما سر هذه الصفرة على الوجوه؟ وما صلة الحرب بهذا العتاد الذى يتدفق ، وبهذا السيل من الرجال المقبل من كافة أنحاء المعمورة ؟ .. ومم يخاف الناس ؟ ولم يقلقون ويشفقون ؟ ..

ومضت الأيام .. ودخل نقاش المصابيح نبأ جديد أخذت تهامس به وهى ترتعش .. إن مرضاً بغيضاً أتى فى أعقاب الحرب يصيب المصابيح بشر ما يمكن أن تصاب به . . يصيبها . . بالعمى .

* * *

ولم ينج المصباح الواقف عند مدخل « كوبرى » قصر النيل من هذه الآفة الوافدة . .جاء مساء فإذا هو ضرير قد نسجت على بصره غشاوة زرقاء حالكة الزرقة .

انتظر المصباح المسكين الشفاء عبثاً . . ثم أيقن أنه صار رهين محبسه وأن الغمة لن تنجلى . . فبدأ يتجمل بالصبر ، ويبتكر لنفسه من أسباب التلهى ما يبتكره المكفوف ليستعين به على آفته ويقهر عجزه . . وتعلم سريعاً أن يرى بسمعه . . إنه يميز بين الوقع الغليظ لأحذية الجنود وسير

القطا . ومرت به لغات ولهجات مختلفة . إن مصر أصبحت كبرج بابل . وبدأ يجد جواب السؤال الذى طالما حيره : « ما هى الحرب » ! ؟

إذن فهذه هى الحرب . . إنها المصابيح الضريرة . .وصفارات الإنذار تولول فى الليل . . والذعر يمنى به الناس وهم يسرعون إلى المخابئ وإنها رائحة الخمر تلوث نسيم النيل وأغانى السكارى تجرح هدوء الليل .. وإنها ضحكات الفتيات اللاتى أحببن الظلام وضللن الطريق .

رأى المصباح بسمعه كل هذا ، وحزن فى قلبه . . ولكنه عجز عن رؤية الأشياء التى لا صوت لها . النجوم التى كان يتيه كبراً عليها ويعيرها ساخراً من نورها الصغير الشاحب ، أما تزال حيث كانت أم أن القنابل وثبت عليها وطردتها من السماء ؟ . . والقوارب الحالمة التى تنزلق فى صمت وسكون على صدر الماء ، أما تزال تحلم ؟ . وخضرة الوادى . . ولون الزهر . . والوجوه التى تتصبب شقاء، وتنحنى على النهر من فوق « الكوبرى» لتنظر إلى الماء بعيون مظلمة تنحدر منها الدموع البائسة. . والسبعان العجوزان هل زادتهما الحرب هرماً على هرم وكآبة فوق كآبة ؟ . .ماذا دهى كل هذه الأشياء الحبيبة يا ترى ! . . كم هو مشوق أن يعرف !

* * *

ولكن شيئاً واحداً اشتد حنينه إليه أكثر من سواه . .فتاة صغيرة . . فى السادسة عشرة أو أزيد قليلا . . كانت تأتى فى الماضى وتجلس على الأرض وتسند ظهرها إلى ساقه الطويلة. . فتاة من بائعات « اليانصيب» تمضى فى الطواف بالطرقات لتبيع أوراق البخت. . وآخر النهار تتهالك

إلى جواره وقد أنهكها التعب فتعد قروشها وتحسب لنفسها ربح يومها وتمدّ يدها للمارة بما تبقى من أوراق وهى تتثاءب وتتراخى وكأنها واثقة أنها ستتخلص سريعاً من بضاعتها. إنها تعتمد على كلمات سحرية لها فى المتنزهين فعل التعويذة . إذا مر بها شاب وفتاة فحسبها أن تقول : « خد ورقة ربنا يخليلك الست » . أما إن كانت الفتاة تمشى وحيدة كاسفة فإن العبارة تتغير قليلا : « ربنا ينولك اللى فى بالك يا عروسة » .

وعندما تنفض يديها من أوراقها يكون كفاح يومها قد انتهى ، فتفرغ إلى مراقبة المتنزهين بعينين كسولين يملؤهما النعاس . إنها تحب ثيابهم الجميلة ، وتحب المركبات التى تجرها الخيول ، حبًّا فاتراً ، خلواً من الحسد والطمع ، فقد علمها الواقع ألاّ تحلم بالمستحيل !

* * *

كان المصباح مولعاً . . « بفتحية » ، وكان يشوقه كثيراً أن يلقى نوره على محياها ! فقد كانت جميلة . وكان شىء ما يتسرب فى سائر كيانها ويلقى الشفقة فى نفسه . شىء كأنه التعب يتغلغل فى وجهها الأبيض الشاحب ، وفى شعرها الفاحم المترب ، وفى أصابعها المعروقة الصفراء . . تعب يلف جسدها كله أكثر مما يلفه ثوبها القذر ، الممزق فى أكثر من موضع . .

وكان المصباح معجباً أيضاً بصوتها . . إنها تستطيع أن تغنى . وأى غناء . ذلك « التعب » يسقى النغمة الطروب فتستحيل بين شفتيها نغمة قلقة ، مضطربة ، حلوة ومرّة معاً ، فيها الهناءة والشقاء ، والحنين

البكر الذى يملأ قلب العذراء !

إن الحياة لم تفض غلاف قلبها . . كانت غريزة الطهارة الساذجة ملء إهابها ، يتحكك بها غلمان الشارع فتدفع عن نفسها ، وتخرج لسانها للقول المعسول !

ذات ليلة كان المصباح مستيقظاً يرقب نومها المتقطع ، فرأى رجلا يقترب منها ، ويقبض على ساعدها بيد من حديد ، وهو يحدثها حديثاً خسيساً فظنها فى خطر ، وإذا هى تعض اليد الآثمة ، وتفر لتنجو . . ظل المصباح يرقبها وهى تعدو حتى وقفت تلهث فى الميدان . وكم كان فخوراً بها . . من علمها ما يليق وما لا يليق ؟ . .لا أحد ! . . إن فطرتها هى التى ترعاها . . فطرتها ودعاء أمها الذى يطن فى أذنيها دائماً : « ربنا يا بنتى يكفيك شر أولاد الحرام » .

* * *

مرات قليلة جاءت فتحية وجلست تحت المصباح الأعمى . فحكى لها عما دهاه ، ورقت له وواسته ، وأنس مرات بصوتها المتعب الحنون ، ثم انقطعت عن الحضور . .وانتظرها عبثاً .

أربعة أعوام مضت الآن بدون أن تعود . . ولكنه لم ينسها قط . . طالما تاق إليها . . طالما سأل نفسه : أين هى يا ترى ؟ هل سافرت إلى أرض بعيدة ؟ هل ماتت ؟ أو أنها نسيته غير حافلة ، لأن وفاءها من وفاء بنى الإنسان ؟

* * *

وذات ليلة حدثت المعجزة . .تلفت المصباح وإذا بصره قد رد إليه وإذا هو يرى الأشجار والنهر والطريق. . وإخوانه المصابيح . .

وكل المصابيح أيضاً تبصر . . ارتفع المرض البغيض الوافد ، والغشاوة الثقيلة الزرقاء مسحتها عن العيون يد منعمة . .

وعرفت المصابيح سر نجاتها. . إن الحرب يتقلص ظلها وينحسر . . وانطلق نورها يزغرد فى كل مكان . فإنه لا توجد فرحة فى الدنيا تساوى فرحة من يستطيع أن يهتف « كنت أعمى والآن أبصر ! » .

ولكن مصباح قصر النيل ظل وحده كئيباً كاسف البال ، فإنه رأى كل الأشياء إلا الشىء الذى كان يتوق أن يراه قبل سواه. إن « فتحية » لم تظهر . عبثاً انتظر . .عبثاً سهر كل ليلة حتى الصباح . .باطلا أرسل بصره إلى آخر مداه !

وانتابه شوق ملح . . وأرهق قلبه تساؤل لا ينقضى : « هل سافرت إلى أرض بعيدة ؟ هل ماتت ؟ أما تعود أبداً ؟ ! . . » .

* * *

وعندما وقفت تحته ، فى منتصف ليلة ، حسناء هيفاء أنيقة لم يأبه لها . . ماله والأنيقات الناعمات ! . . إن حنينه لفتحية . فتحية وحدها بائعة البخت . .ذات القدمين العاريتين والوجه الذى ينضح تعباً .

ولكنه لم يملك نفسه من العجب عندما رأى الشابة الحسناء تنهار إلى الأرض عند قاعدته ، وتدفن رأسها بين ركبتيها وتنتحب بحرقة .

ولما استوفت حاجتها من البكاء نهضت ، وتطلعت إليه ، فرأى

وجهها ، ووجد تحت الدموع التى تملأ عينيها نظرة حزينة تسأله : « أما تعرفنى ؟ أنا فتحية ! » .

فتحية . . بأصباغ ومساحيق ، وثوب أنيق ، وجوارب حريرية. أين الشعر المترب ، والأظافر الملوثة ، والقدمان العاريتان ؟ . . أين الثوب الممزق ، وورقات البخت ترتجف فى يد هزيلة معروقة ؟ . .

قالت له متضاحكة : « كيف حالك أيها الصديق ؟ » .

كان يبدو فى صوتها أنها تزيف المرح. أنها خجلة منه خجلا دفعها إلى الإطراق وإلى البحث عن شىء تتشاغل به ، ففتحت حقيبة يدها وأشعلت سيجارة أمر يكية من ولاعة ثمينة ! . .

ورمق بداخل الحقيبة قبل أن تقفلها كثيراً من أوراق النقد .

وبدأ يفهم . .

إنها الحرب إذن . .

وسألها متغابياً : « من أين لك هذا ؟ » .

فصمتت ولم تجب . .

وأحرقت قلبه نار جعلته يقول : « كنت فخوراً بك . لقد عضضت مرة يد رجل لتتخلصى منه ! »

رفعت نحوه وجهها المكفهر متوسلة : « ولكن أمى ماتت . وكفت عن الدعاء لى . . لم يعد أحد يطلب من الله أن يكفينى شر أولاد الحرام ! »

وأكملت اعتذارها بشفتين ترتجفان : « فى الماضى كنت أنظر إلى

الثياب والحلى نظرى إلى المستحيل . . لكن فى هذه الأيام . . المستحيل أصبح ممكناً ! » .

ولم يحتمل دموعها التى بدأت تنحدر فى صمت ، فقال لها بصوت جاف : « كفى . . لا تبكى » .

وفرحت بشفقته ، فوثبت على ثغرها ابتسامتها الساذجة وهى تسأله « انظر إلىّ . . أما أبدو فاتنة هكذا ؟ » .

جاء دوره فى الصمت !

فاتنة ؟ . . كلا . . كانت أكثر فتنة فى ثوبها الممزق . . وأحس ألماً موجعاً ، لأنه لا يستطيع بعد أن يحبها ، فإنه الآن يعرف ما هى وقد انتهت الحيرة . . لم يعد فى وسعه أن يسأل نفسه ؛ أماتت ؟ أسافرت إلى أرض بعيدة ؟ . الآن هذا العزاء بعيد المنال ، ولا حيرة ، بل الحقيقة العارية القاسية . إنه فقد فتحية . . أما هذه الأخرى فلا يريد أن يعرفها!

وأخرجه من وجومه صوتها : « أحسست بحاجة شديدة إلى أن ألف ذراعى حولك ، فجئت إليك . جئت أعانقك وأسألك . أتعرف أين قلبى . إنه ضاع منى ، ولست أدرى أين فقدته ؟ !

* * *

وفى تلك اللحظة مر أحد جنود « الحلفاء » فبادلته فتحية كلمات قليلة متعثرة ، بلغة لم يفهمها المصباح ، ولكنه فهم مدلولها . .

ولما اقترب الرجل منها ، ووضع يده على كتفها ، لم تنفر ولم تكفهر ، واختلط ضحكهما ، واتجها إلى « الكوبرى » جنباً إلى جنب فى غير كلفة .

والتفتت فتحية إلى الوراء فجأة ، لتقول للصديق وهى تبتسم كالمعتذرة :
« سأمر بك فى وقت آخر ! » .

ولكنه عبس وصاح : « لا . . لا أريد أن أراك » ! .

* * *

والتفت المصباح إلى السبع الواقف بجواره ، وبادله نظرة حزينة . .

قال السبع فى كآبة : « هون على نفسك أيها الصديق ، إنها لم تفعل ذلك وحدها . . كل مثيلاتها . . » .

وقاطعه المصباح المتفع : « ليتهن بقين بائعات يانصيب ، ليتهن بقين شريدات معدمات ! » .

وأجاب السبع : « ولكنها الحرب أيها الصديق ! »

* * *

ولكنها الحرب . .

وأحس المصباح أن هذه الكلمة تطعنه فى قلبه . وأحس فى جوفه ناراً تتلظى غضباً وحقداً .

وأحس أنه يكره نفسه .

واشتهى المصباح النقاب الأزرق يسدل على وجهه من جديد .

إنه لا يريد أن يبصر . . إنه يود أن يرتد . أعمى !

الساق المقطوعة



كنت أراه مرتين كل يوم مرة فى الصباح وأنا ذاهب إلى عملى ، ومرة فى الليل وأنا آيب إلى بيتى .

كنت أراه ملقى على الرصيف يمدّ يده للسؤال كلما مر به عابر سبيل ، وإلى جواره ساقه الصناعية ، فكها من رباطها عند أعلى ساقه ومددها على الرصيف لتعرّض الأبصار وتكره القلوب على الشفقة .

ولكن طريقة عرضه لعاهته كانت تثير الاشمئزاز أكثر مما تثير الشفقة فقد كان يكشف ثوبه القذر عن فخذه المبتورة ، فتصطدم العين بلحمه الشائه الممزق . وفى الصباح حين كنت أرى هذا المنظر كنت أحس أن إفطارى لا يكاد يستقر فى معدتى ، وفى الليل كانت صورة الساق المبتورة تلازم خيالى وتدخل أحياناً أحلامى .

ولم يكن يبدو أنه جاوز الستين ، لكن كان جليًّا أن الحياة قد نفضت يدها منه ، وبغضته بغضاً شديداً ، وأغرت به أكثر من مرض مميت . إنه يلهث طول الوقت ، لأن السعال لا يدع له دقائق قليلة يلتقط فيها أنفاسه ، وإن وجهه الممتقع تترقرق فيه تلك الصفرة القاتمة التى نراها فى وجوه الهالكين الذين صرعتهم العلة واخترمهم الداء الوبيل .

وياله من وجه قبيحا . إن الدمامة قد أعلنت فى قسماته أبشع آياتها . وكم كنت أرى الأطفال الذاهبين إلى مدارسهم فى البكوز

لا يكادون يقتربون من مكانه المختار حتى يعبروا الشارع وينتقلوا إلى الرصيف الآخر ، ثم يخالسوه – عندما يجتازون مقابله – نظرات فيها كثير من الذعر ، وكم رأيت رجالا يفرون بأبصارهم بعيداً عندما يمرون به . .

وكنت ألاحظ ذلك، لأنى كنت لا أنفك أنظر إلى قبحه وشحوبه وعاهته .. وقد حاولت مراراً أن أشيح ببصرى عنه ، لكن شيئاً فى أعماق كان يقاومنى .

ماذا كان ذلك الشيء ؟ . .لست أدرى على وجه التحديد ، لعلى كنت أتوقع دائماً ألا أراه ، ولعل سبب نظرى إليه عجبى من أنه مايزال فى مكانه حيًّا يرزق . . كنت أقول كل يوم لنفسى وأنا أدخل ذلك الشارع الذى يرابط فيه : « لن أراه اليوم . . إن أحد أمراضه قد بغته وأسلمه إلى الموت » .

لكنى كنت أتطلع فإذا هو قد أتى مرة أخرى . أتى يجر شقاءه ، ويجلس فى إعياء ليفك رباط ساقه الصناعية ويمدها إلى جواره لتعترض السابلة .

ستة أشهر وأنا أتوقع له الموت كل يوم . وقد ضجرت وأصبحت « أريد » له الموت !

وكم حنقت على نفسى ولمتها بسبب قسوتى . كيف أطلب الموت وأتمناه لرجل حى ؟ . من أين لى هذا الفؤاد الحقود ؟ . أمجرد أنى أتوقع له الموت أنقم عليه لأنه لم ينفذ رغبتى ولم يمت ؟ أفظع بهذا ! ..

وبدأ ضميرى يراوغنى : « إنك لا تريد به شرًّا ، إنك تطلب له الرحمة والراحة ، الموت بالنسبة إليه هو النعمة الكبرى لأنه الخلاص من سقامه . إنك لا تحب له أن يظل عبداً للعلة . . أن يظل جسده المهدم موثقاً بهذه الساق الصناعية الرخيصة الثقيلة . تتمنى له أن ينجو من نظرات الذين يحسنون إليه وهم يمقتونه ويلقون إليه بالنقود الصغيرة إلقاء، حذر أن تمس أناملهم كفه كما تلقى كسر الخبز للكلب الأجرب ! » .

ومع ذلك كان ضميرى بوجهين . كان يتسلل فى دروب نفسى ومنعطفاتها ، ليلتقى بى فى ناحية أخرى من الطريق ، وليظهر لى بسحنة جديدة ويهمس : « ولكنك تكره الرجل ، تكرهه كرهاً أصيلا ، أما كففت عن أن تحسن إليه ؟ أما تجيب نظراته المستعطفة بنظرة باردة ؟ أتعاقبه لأنه لم يمت ؟ ! » .

فكنت أجيب عن هذا الاتهام غاضباً : « كففت عن الإحسان إليه لأنه إنسان كسلان . . لأنه يستمرئ التسول . . لم لا يذهب إلى ملجأ ليستريح ؟ ! . »

ولكى أعزز دفاعى اقتربت مرة من شرطى المنطقة، وقلت له بجفاء: « إنك تهمل فى تأدية واجبك . قانون التسول ينطبق على هذا الرجل فلماذا تغضى عنه ؟ . . إنه أولى الناس بملجأ العجزة » .

وقاطعنى الشرطى : « يا سيدى ، إنه لا يطيق الملجأ . أخذناه مرة إلى هناك فألقى نفسه من فوق السطح . وفى المرة التالية ابتلع موسى . إنه لا يريد أن يهجر هذا الرصيف . دعه يا سيدى إنه غلبان . وقاك

الله عاء الغليان ! » .

قضيت عنه وأنا أتنفس الصعداء . . لقد كنت على حق . . إنه يرفض الحياة فى الملجأ ، لأنه مولع بالاستجداء . وقد كنت على صواب فى أننى كرهته . وأنا إذن غير ملوم حين لا أعينه على التسول . وإنى لأستطيع الآن أن أقف فى وجه ضميرى وأمنعه من أن يعيّرنى .

* * *

ومضت الأيام وأنا أحاول عبثاً أن أتخلص من هذا الكره . وأعلنت لنفسى أننى أطلب له الموت . ولم أعد أستطيع أن أصرف ذهنى عن هذا الأمر . . كنت أمر بالشارع وأنا أنتظر أن تكون أمراض صاحب الساق المقطوعة قد أدت واجبها وأتمت عملها .

لكننى انتظرت عبثاً . وتعاقبت الأيام . إن الداء عاجز عن أن يدك هذا الطلل البالى . . ولكن الترام والسيارات تدوس الناس كل يوم فى القاهرة ، وتقضى على الأقوياء النافعين . فلم يغمض الردى ، الذى يتقمص ألف وسيلة ووسيلة من وسائل الهلاك ! عينيه عنه . . لكننى تخيلت دائماً أن هذا القضاء المرتجل سيحجم وسيبطئ كما أبطأ الموت الطبيعى .

فكم صدمت عندما رأيت ذات ليلة الموت وهو يبطش به بإحدى الطرائق التى مرت ببالى .

كان يعبر الشارع المعتم عند زاويته ، وإذا سيارة ضخمة من سيارات الجيش تقبل ، وقد حلا للسائق أن يطلقها بأقصى سرعتها فى الطريق

الخالى وإذا بخطوات الأعرج تضطرب ، وإذا ساقه الصناعية تخونه وتنزلق إلى الأرض .. ولم يستطع المسكين أن يسترد توازنه .. وانكفأ على وجهه وصرخ فى وجه السيارة قبل أن تمر فوقه صرخة حزينة ، مفعمة بالخوف والروع والهلع . . صرخة يتلظى فيها حبه للحياة ورهبته من الموت وإشفاقه من الألم والعذاب .

وضاعف السائق الهارب من جريمته سرعته ، ووجدت نفسى وجهاً لوجه أمام المسكين الذى طابت له الموت أكثر من مرة .. الساق الصناعية تهشمت . . والساق الأخرى بترت . . وعظمة الكتف سويت بالأرض وشرطى المنطقة يمشى على مهل، النعاس عالق بجفنيه الثقيلين . . وسقط ضوء مصباحه على وجه المسكين فرأيت تلك الملامح التى طالما نفرت من النظر إليها غارقة فى الدم المختلط بالعرق المتصبب، بغتت قلبى شفقة لا حد لها وأحسست كأن مخالب من الثلج تنشب فى أعصابى وأن ريح الليل الباردة تهمس فى أذنى : « إنك أحببت له أن يموت وتصورت له مصرعاً كهذا وقد تحقق ما تصورت . . فقر عينا . . إنه ضحيتك ! » .

وكم اضطربت نفسى . كنت كمن فتح عينه بغتة وإذا هو قاتل ! ورافقته عندما حمل إلى المستشفى .. أحسب أننى ما كنت لأصاب بأثقل مما أحسست به من الكآبة لو أننى كنت أنا الذى دهمته بسيارتى

وعندما سمعت أناته الخافتة المتقطعة تتساقط فى الظلام غمرنى الارتياح .. إنه إذن مايزال حياً . . فليته يعيش . . كم أريد أن يعيش لأتخلص من ذلك الشعور المرهق ، المسيطر على تفكيرى بأننى مسئول مع القدر عن موته ..

وسهرت ساعات إلى جواره ، أرقب بقاق بقية الحياة التى تتخبط فى جسده ، وأنظر إلى قسمات وجهه بلا ازدراء ، ونفسى تفيض حناناً . . فلما فتح عينيه عند منتصف الليل مضى يجيلهما حوله ، ثم بدا لى كأن ذاكرته قد ردت إليه ، فإن الدموع فاضت على أجفانه التى لا أهداب لها ، ومد لى يده كأنه يستنجد بى من آلامه ، فأخذتها بين يدى مواسياً ونظر إلى جواره نظرة حائرة ردها إلىّ ليسألنى عن ساقه الصناعية . . يا للمسكين ! . . هل أقول له إن خشبها تهشم وتناثر فى الطريق ؟ . . هل أنبئه أن الأخرى قد بترت ، وأنه لم يعد بعد بحاجة إلى السيقان الصناعية ؟ إنه مايزال إذن واقعاً تحت تأثير ذلك الألم الأصم الذى يعقب العملية الجراحية والذى لا نشعر معه أن عضواً من أعضائنا قد فصل .

وطمأنته إن ثيابه وساقه محفوظة له أمانة فى المستشفى إلى أن تعود له عافيته فتنبه إلى أنه فى ثياب المرضى ، وسألنى بقاق عن بضعة قروش جمعها من كد نهاره ، وكانت فى جيبه .

وبدأ حديثه يتقطع ، لكنى فهمت بعضه . . طلب إلى أن أوصل تلك القروش إلى « حميدة » فإنها بحاجة إليها . . وربما يموت فلا تحصل على هذه القروش . . إن « حميدة » هى زوجة ابنه الفتى الذى مات فى ريعان شبابه ، وقد كان يحب أن يمضى بقية أيامه فى أحد الملاجئ لكن من كان ينفق على « حميدة » ؟ . . ومن أين كانت تعيش ؟ . . كان يخاف إذا بقى فى الملجأ أن تتزوج فتى يحظى بها بديلا من ابنه الميت ولذلك لم يتردد فى أن يقفز من أعلى سطح الملجأ وهو

بساق واحدة ليكون إلى جوارها و يمنحها النقود التي يستجديها لكي تكف عن التفكير فى الزواج . .

وبدأ يصف لى الحارة التي تسكن فيها الفتاة! فإننى وعدته أن أوصل إليها تلك القروش التي جمعها من كد نهاره . لكنه لم يتم وصفه ، وخارت قواه ، واضطرب الكلام بين شفتيه ، ثم شل لسانه فى فمه . .

كانت إذن صحوة الموت فإن الطبيب جاء وجس نبضه . . ثم غادر الحجرة يمر بالمرضى الآخرين بعد أن أومأ إلى أن المسكين يلفظ أنفاسه الأخيرة .

وفتح صاحب الساق المقطوعة عينيه بغتة ، وفى سكرة الموت مد لى كفه مستعطفاً كما كان يفعل مع المارة وهو جالس على الرصيف .

وبحثت فى جيبي بلهفة فوجدت قرشاً وضعته فى اليد الممدودة .

لكنه لم يستطع أن يطبق عليه أصابعه. .

خذله الموت . .

وعندما خرجت إلى الطريق بكيت فى هدوء الليل كما لم أبك من قبل فى حياتى .

وقد مضى على هذا الحادث أشهر لكننى ما أزال أرهب المرور بالشارع الذى كان المسكين ينتظر فيه الإحسان .

فى الماضى لم أكن أحب أن أراه جالساً فى مكانه. . لكننى الآن أكره أن أجد مكانه خالياً. . وكثيراً ما أفاجأ به جالساً فى ذاكرتى ، وفى يده الممدودة للسؤال أصابع اتهام تشير إلى وتنادى : « هذا قاتل .. لا تدعوه يفلت » .

لا حياة تافهة !!



« يبدو أنك صائم . .هل تضايقك رائحة الدخان» ؟ وأجاب الشاب الرجل الذى بدأ يدخن : « لا . أبداً» .. وكان الرجل والشاب جالسين على مقعد فى محطة ينتظران المترو ، وقام الرجل المفطر وجعل يمشى على الرصيف إمعاناً فى الأدب ، وإشفاقاً على جاره من رائحة التبغ .

وبعد لحظة قام الشاب فى أثره . كان يريد أن يقول له : « نعم ، أنا صائم . .ولكن لوجه الفقر . منذ يومين لم أذق طعاماً . أنا جائع حتى الموت » .

ولكنه عندما وصل إلى الرجل هربت منه الكلمات . ووجد نفسه يسأل المدخن عن الوقت .

وأجابه الرجل وهو ينظر إلى ساعته : « باقى ساعة على المدفع . هانت . ولم يحفل « حسن » بالتعليق . . كان كل همه أن يبتعد بارتباكه فقد كانت هذه أول محاولة له فى عالم التسول ، وقد باءت بالإخفاق .

هل كان يجرى ؟ . هل كان يمشى على مهل ؟ . . لم يستطع أن يتذكر حتى وجد نفسه فى شارع ٢٦ يوليو .

وسأل نفسه إلى أين ؟ إنه جلس فى محطة المترو لأن الجلوس فيها بلا مقابل . . ثم تذكر فجأة أنه يستطيع أن ينهار على كرسى فى مقهى ورمضان كريم . .

ولكن « الجرسون » مضى يحوم حوله . . وخال أن فى عينيه نظرة

المحقق الذى يرتاب فى متهم . .إنه يريد أن يقوله له: « أنت لست زبوناً هنا. . أنت تلقيحة. . وصيامك كاذب » .

يااللوقح . ألا يرى شفتيه الجافتين . وشحوبه. . وارتجاف يديه ؟ وأشد قحة من « الجرسون » هذا المتسول الذى وقف أمامه وانطلق يقول له فى إصرار وعناد : « حسنة. . الكريم لا يضام . أعطنى مما أعطاك الله » .

وتمنى حسن لو يستطيع أن يضحك عالياً. . ولكنه كان خائر القوى فقنع بابتسامة ضئيلة وهو يقول له : « ليس معى فكة » .

وفوجئ بالسائل يقول له: « أفك لك » .

وعند ذلك نهض الجائع وكأن شيطاناً تقمصه ، وأخذ يتلفت حوله وهو يصيح : « بينى وبينك البوليس » .

وابتعد المتسول وهو يغمغم باستياء أن القلوب خلت من الرحمة. . وجعل حسن يرقب عرجه الزائف وهو يبتعد. .وتمنى لو يلحق به ويقول له : « إنك اعترفت أن معك فكة. .أعطنى قرشاً. . ترفض . تصر أن أعطيك مما أعطانى الله ؟ . . فتشنى . .لم يعطنى شيئاً منذ شهرين . .منذ شهرين أنا عاطل » .

لا تسألنى كيف صرت عاطلا . . إنها قصة طويلة تتلخص فى كلمة واحدة أنها « لطشت » والسلام . .والدنيا عندما « تلطش » معك يعرض عنك الأصدقاء . .والغرباء يغلظون لك فى القول ويقترحون عليك ببساطة أن تذهب إلى باب الحديد ، وتشتغل شيالا .

ليتنى أستطيع . ولكن العود هو أثقل شىء حملته فى حياتى . .

فأنا موسيقى حصلت على بعض النجاح فى الأفلام ، واعترفت الإذاعة بفنى . .ولكن هذا كان. . زمان ، قبل أن « تلطش » .

وهبنى ذهبت إلى المحطة وعرضت على الركاب خدماتى . هل تظن الحمالين يرحبون بزمالتى . أو أنهم «يلفعونى» على أكتافهم ويلقون بى فى حوض الماء تحت أقدام رمسيس . .إننى كنت واقعياً . . لم ألجأ إلى رصيف القطار وباقى الأحلام الجميلة. . بل لجأت إلى « نقابتنا » وقد أعانتنى مرة ومرة .. ثم قيل لى بصراحة إن صندوق النقابة نفسه يتسول . وكبار الزملاء يساعدونك مرة ومرة . ثم تتحول الإعانة إلى بطاقة توصية لشركات السينما ، أو موظفى الإذاعة . وتقع البطاقة تحت عيون باردة وتتحرك شفاه فاترة لتقول لك: « سنرسل فى طلبك . . لا تكن عجولا . . هناك عشرات مثلك ينتظرون دورهم .. » .

وقد تقع النظرة الباردة على أصابعك الصفراء من التدخين ، وبدلتك الأنيقة . . وقد تحاول أن تدافع عن نفسك وتقول : « إننى لا أدخن منذ شهرين. . والبدلة من مخلفات المجد الذاهب ، وقد جعت ولم أبعها لكى أقابلكم بها ، ولا أبدو فى عيونكم وسخاً حتى يشجعكم هذا على إعطائى عملا » .

ولكن لا فائدة . لا فائدة . النظرة الباردة فى كل مكان . .إنها قاعدة ثابتة. . إذا كانت الدنيا مقبلة عليك ، وقلت إنك مشغول ، ألحوا عليك وتوسلوا إليك أن تسخو بموهبتك ، ولا تضن على عشاق فنك. أما إذا صرحت بأنك جائع فإنك تسقط فجأة من حالق وتتحول إلى فاشل

يحترف التعطل . ولا يهم أبداً أنك أنت فى الحالين نفس الإنسان .

ومع ذلك شاركتهم فى السخط على بدلتى الأنيقة ، يا سيدى المتسول وحملت نفسى إلى شارع متفرع من العتبة الخضراء . . هناك يشترون كل الأشياء المستعملة . يشترون جهاز الإرسال المتبقى من طائرة محطمة ويساومون على فردة حذاء أختها مفقودة . .وعندهم ساعات تملأ بالمفتاح وقباقيب انزلاق . وزجاجات فارغة من كل حجم . . وطرابيش مزخرفة بالقصب من أيام السلطان عبد الحميد . . حتى طقم أسنانك يشترونه منك إذا شئت . . ومع ذلك عندما خلعت الجاكتة الأنيقة داخل الدكان وأنا أرتجف من الخجل ، رفض التاجر مساومتى فى الصفقة ، وقال لى وشاربه الكث تسيل عليه ابتسامة مجرب : « يا صاحبى يفتح الله . . المخبرون منتشرون فى منطقتنا ، فابتعد من هنا » .

وحاولت أن أقنعه . . خذها بخمسين قرشاً . . بعشرين . . فقال وهو يربت على كتفى ويتحسس القماش فى الوقت نفسه : « صوف إنجليزى ، متره بعشرة جنيهات وتبيعها بقروش ؟ .. ألم أقل لك إنها مسروقة . . نصيحة انفد بجلدك » .

* * *

وأفاق حسن على صوت مدفع الإفطار . .فتبين أنه لم يلحق بالمتسول ليستجديه ، وأن المسألة كانت هواجس . .وفوجئ بالجرسون واقفاً أمامه كالمارد يسأله : « مظبوط وإلا زيادة ؟ » . فانبعث واقفاً ، وغمغم وهو منصرف : « سأفطر فى البيت » .

وركب المترو . ولم يخف أن يطالب بالتذكرة . فهذه الساعة هى ساعة المعدة ، وعندما يقول للكمسارى أبونيه لن يطلب منه إبرازه إلا إذا كان رذلا جداً .

* * *

وعندما وصل إلى البيت تمدد فى الفراش . .وودّ لو يستطيع أن يحمل الحشية ويبيعها . . ولكنها لم تكن ملكه . . لقد استأجر الشقة مفروشة أيام الرخاء . والبواب له بالمرصاد منذ توقف عن الدفع .

ولم يكن هناك نور ، بعد أن جاءت شركة النور ، وقطعت التيار . . ومن أسف أن الذاكرة تضىء فى الظلام وتسطع . وتمر فى وهجها الأيام الماضية . . صاخبة متدافعة كأنها فى مظاهرة . .ولم ينقطع مرور الموكب أمامه . . كان له صاحبات أنفق عليهن ببذخ . .حيناً خف إلى غوث الملهوف . وأحياناً غلظ قلبه ، ورأى صفرة الجوع فى الوجوه فلم يعبأ . . كان قديساً . وكان فاسقاً . . عاش للنذالة وعاش للنجدة ، وكل هذا يتألق لعينيه الآن ، فى الظلام ، ويحاكمه ، ويجادله حتى ليصرخ : « كفى . كفى » .

وتذكر أن عنده فى البيت بقية شمعة . وأخذ يبحث عنها بلهفة فى الأدراج ، وبه أمل أن تدفع عنه الأشباح عندما تضىء . فى أثناء بحثه تمنى لو يجدها لا ليضيئها بل ليأكلها ويملأ بها بعض فراغ معدته .

ولكن يده المتخبطة فى الظلام عثرت فى أحد الأدراج بجسم بارد من الصلب . . وعجب كيف نسى هذا المسدس . وتذكر كيف اشتراه

فى فورة حماسه بعد حريق القاهرة ، وكيف حمله وذهب مع بعض الرفاق إلى منطقة القناة .. ولكن الرفاق تركوه ، فى السويس فى حانة. . وعادوا إليه فى الفجر وبهم جراح تنزف ليجدوا رأسه تهوم فوق المائدة من ثقل الخمر ، ومن لحن نشيد ذاع بعد ذلك واشتهر .

وإنه ليجد الآن هذا المسدس المنسى وكأنه يجد كنزاً . أخيراً عثر على شىء يستطيع أن يبيعه ويأكله .

* * *

ووجد نفسه فى الطريق هو والليل والمشكلة. . وكانت المشكلة أن المسدس غير مرخص ، وبيعه علناً متعذر . والمهم أن يتحول حالا إلى طعام يسكت صراخ معدته .

وسمع وقع خطوات تقرع الطريق الساكن.. واستوقف الرجل الذى مر به ، وخرجت يده بالمسدس وهو يقول بارتباك :

— هل تشترى هذا ؟

وقال الرجل بصوت قاتم : « إنها طريقة مبتكرة لبيع المسدسات فى الظلام والشارع مقفر . كن صريحاً وقل إنك تطلب محفظتى أو تطلق النار . ولكن اعلم أنى مسلح . مسلح » .

وفجأة أطلق الرجل ساقيه للريح وهو يصيح كالمحموم : « مسلح مسلح . الحقنى يا بوليس . .مسلح » .

وعرف حسن أن حدة الرجل وهو يخاطبه لم تكن شجاعة ، ولكنها

كانت عصبية الذعر . وكلمة « البوليس » أوحت إليه أن من الحكمة أن يجرى هو الآخر . .

* * *

وتهالك فوق السرير متلاحق الأنفاس . . إنها المحاولة الأخيرة وقد باءت بالإخفاق .. ولم يبق إلا الموت ، بلا مقاومة ، على هذا الفراش .

وأحس بالمسدس تحت جنبه وهو يتقلب . .وقال له السلاح : « لماذا تنتظر الموت . اذهب إليه وأنا أساعدك » .

وراقته الفكرة .

لماذا يؤجل الموت . المعركة مع الجوع مائعة . فعليه أن يحسمها ويستريح ، ويعفى الوجود من حياة تافهة . وتخيل نفسه وقد صار خبراً فى سطرين فى صحف الصباح ، مثل هذه الأخبار التى طالما قرأها عن منتحرين تخلصوا من هذا المصير ، وأحس بالغضب يتحرك فى نفسه ، وخرج إلى الشرفة وهو يخال من كثافة الظلام الذى يلفه أنه يتحرك فى أكفانه .

وسقط بصره على نافذة مضيئة عبر الشارع هناك رجل بدين يجلس وحده أمام مائدة حافلة . . دجاج وسمك وكتف خروف . . وأطباق أخرى عديدة يتصاعد منها البخار . . طعام يكفى عشرة . . الرجل يأكل بنهم ،ويصول ويجول بين الأطباق ، بأنامل توحى ، وهى تنطلق إلى فمه ، بأنه يرفض أن يشبع .

ووسوس فى أذنه شيطان الجوع : « لماذا لا تطلق عليه رصاصة

قبل أن تنتحر وجه إليه الدعوة إلى مائدتك . . مائدة الموت . . عند ذلك لن يكون نبأ انتحارك فى سطرين » . بل إن النبأ سينمو وتتفرع منه قصص بوليسية ، وعناوين مثيرة : لماذا أطلق الموسيقى النار على جاره ؟ هناك أسرار خطيرة وراء الحادث مندوبنا يؤكد أن هناك امرأة فى الطريق .

رجال البوليس سيقدحون زناد الفكر بحثاً عن حل اللغز . وفتيان الصحافة سيجدون متنفساً لطاقاتهم المختزنة . . ولكن لن يصل أحد إلى الحقيقة البسيطة : إن تافهاً أراد اصطحاب تافه آخر ، يضع ذراعه ، فى ذراعه ويخرجان معاً من هذا العالم .

وراق حسناً وهو يراقب ضحيته أن الرجل غافل عما يترصده ، وأنه يفكر ناعم البال ، فى غده الذى لن يكون ، ويمضغ طعامه على مهل . . ووضع يده على الزناد وهو يغمغم : « أنا قضاؤك ، وبعد لحظة ستكف عن الأكل إلى الأبد . سيوفر العالم كميات الطعام التى تستهلكها بلا مسوغ وستنجاب عنه التفاهة التى تمثلها ، وهو الرابح فى الحالين . . وبدأ يصوب والرجل يتناول الحلو . ثم تريث وقال لنفسه : « مهلا . . لا بأس أن يتناول عشاءه الأخير كاملا » .

وبعد أن مسح الأكول طبق المهلبية . نظر إلى أسفل المائدة ، فوثبت إلى سطحها ثلاث قطيطات بيض بدأ يسكب لها اللبن فى طبق .

وتذكر حسن القطط ، وأن هذه قصتها مع الرجل صباح مساء . .
وكانت القطط فى طور الطفولة . . وكانت تحب سيدها وتلعق اللبن

مرة ، ويده مرة . . وتذكر حسن أن أمهن لم تعد تظهر . لعلها هجرتهن وتركتهن يتيمات ، وأحس حسن أن شيئاً يلدغ قلبه . .وحاول أن يسميه لنفسه . . ورجح أن الشفقة على القطط لا على الرجل . . وكره أن يأتى الغد وليست لهن يد يلعقنها مع اللبن . .وخال كأن الجوع الذى يكابده جوعهن القادم لا جوعه الحاضر .. وأن الصخب المعربد فى قلبه هو صوتهن وهن ضالات فى الطريق بلا مأوى . وبدأت قبضته تتخاذل عن المسدس ، ووجد فى أعماقه دوى صوت يهيب به : « هذه الحياة التى تريد أن تأخذها معك ليست تافهة بالقدر الذى تظن . . إن فيها على الأقل نفعاً لهذه المخلوقات الضعيفة . . أنت الذى لا نفع منه . . اذهب وحدك » .

وهزأ من هذا الصوت الذى يتحرك فى داخله وقال فى عناد : « لا . لن أذهب وحدى . لقد وقع عليه اختيارى . وسآخذه معى فى الطريق الموحش » .

* * *

وتدخل فى الموقف حادث وقع فجأة فى الشقة المقابلة . . نهض الرجل عن المائدة ، بعد أن فرغت القطط من طعامها .. ومشى خطوة ثم ترنح .. وعاد إلى المائدة . . واعتمد على حافتها بيديه لكى يحتفظ بتوازنه ، ولكنه لم يستطع وهوى فوق المائدة ، وانكفأ رأسه بين الصحاف الفارغة ، والقطط من حوله تموء . .

وأصاب حسناً ذهول . .وظن لحظة أن عياراً أفلت منه وأصاب الرجل

فى مقتل . . ولكنه لم يلبث أن قطع بأنه لم يسمع دوياً ، ولم يتنسم دخاناً وتحسس السلاح فوجده مايزال بارداً فى يده .

وفى دقيقة كان حسن قد هبط السلم وأخذ يطرق حجرة البواب وهو يصرخ : « فى الشقة المقابلة رجل يموت » — وفى الدقيقة التالية ، كان هو والبواب يدقان باب الشقة ولا مجيب ، فيشتركان فى دفعه بالأكتاف . .

وبعد ساعة كان الطبيب الذى استدعى لإسعافه يغلق حقيبته وعلى فمه ابتسامة لم ينزعها عن شفتيه ، . . إن مريضه كان يئن فى الفراش .

وعند الباب سأله حسن عن هذه العلة التى كادت تودى بحياته ، قال على أذنه هامساً : « إنها علة ممتعة . . اسمها التخمة » .

وأحس حسن وهو يعود إلى جوار المريض شيئاً من السخط عليه ، وشيئاً من الندم ، لأنه سارع إلى نجدته . لقد كانت مطيته إلى الآخرة معدة فارغة بدأت تهضم نفسها . . وهذا الأكول مطيته إليها معدة مملوءة . . وحك رأسه فى حيرة . .

* * *

ولكنه نسى حيرته عندما أفاق الرجل وفتح عينيه . . وبدأ يشكر البواب الشهم والموسيقى الرقيق .

وعندما هم بالانصراف أقسم أن يتناولا معه طعام السحور .

ولم يجد حسن فى نفسه ميلا إلى رفض الدعوة ، وبخاصة أن الرجل كان

محدثاً لطيفاً .. لقد تبسط معهما ، وباح لهما أنه يعيش وحيداً برغمه، فقد كانت له زوجة هربت مع عشيق .. وهو يربت بيده السمينة على قططه الصغيرة وكأنه يقول لهن : « هذا سر حبي لكن . . أمكن تخلت عنكن وذهبت . إنها على شاكلة هذه المرأة الرديئة » .

وأوشك حسن أن يهيب به ، وقد لاحظ أنه بدأ يستغرق فى التهام الطعام : « إنك لم تنسها . هل تحاول ، من أجلها ، أن تنتحر بالنهم ؟ » .

ولكن البواب كان أسبق منه إلى الحديث وانطلق معقباً : « النساء حقاً خائنات . ولكن من الصواب أن يكون لك خادم يستدعى لك الإسعاف عند اللزوم » .

واهتز بطن المضيف من الضحك وهو يجيب مستنكراً : « خادم؟ .. أتريدنى أن أموت قتيلا . .أنا صاحب محل رهونات ، والخدم يظنون أن أمثالى ينامون على ورق بنكنوت بدلا من القطن » . .وتنهد البدين وهو يضيف : « مساكين زبائنى ، لو كنت مت . لذهبوا فوجدوا الباب مغلقاً . ومن غيرى يفك ضيقهم ويقرضهم بشروطى السخية » .

* * *

وعندما استيقظ حسن فى الصباح أدهشه أن أفكاره مرحة ، وأنه يحلق ذقنه ويمشط بعناية رأسه .

وخاطب حسن الوجه الحليق الذى وجده فى المرآة .. خاطبه قائلا : «كنت قاسياً عندما حكمت عليه بأنه تافه . هؤلاء الذين يقرضهم .. لو مات لوجدوا بابه ، باب الأمل ، مغلقاً . إنه على الأقل يؤجل انتحارهم إلى غد . والغد يوم جديد.. » .

* * *

ووجد حسن نفسه فى الطريق. . إنه لا يكره اليوم أن يبحث عن عمل وإن دمه ليركض دافئاً فى عروقه ، وهو يسمع فجأة راديو البقال منطلقاً بلحن من ألحانه. . إنه لحن قديم لن يقبض عنه أجراً ، ولكنه مع ذلك يمنحه التفاؤل . . فإن البقال يتمايل نشوان مع النغم ، وفى وجهه راحة ، وعلى شفتيه ابتسامة. . ابتسامة كأنها تخاطبه وتقول له : « أنت أيضاً لست تافهاً كما تظن قلوب كثيرة فى أماكن قاصية يدخل فيها البهجة لحنك هذا .. هناك رجل واحد تافه. . ذلك الذى حاول أن يطلق النار بالأمس » . .

* * *

وأحس حسن أن لحناً جديداً يولد فى قلبه .

ولكن من أين له الطعام حتى يتفرغ لميلاد هذا اللحن؟

ووقف فجأة ، متهلل الوجه ، كأن كنزاً قد سقط عليه من السماء .

سيذهب إلى الرجل البدين. . وسيرهن عنده المسدس .. ويضمن بهذا على الأقل ألا يقتله به. . إذا جاع .

وبعد أن يصبح فى يده المال ، سيقترض أيضاً من صاحبه الجديد إحدى قططه. . ويشترى لها لبناً ، ويضعها على المائدة لتلعقه أمامه. . وسيناجيها قائلا : « يا عزيزتى لا توجد حياة تافهة. . ولا حياتك .. أنا والآخر المقيم فى الشقة المقابلة لانزال نتنفس ونسعى تحت الشمس ، والفضل لكن » !

تم إيداع هذا المصنف بدار الكتب والوثائق القومية
تحت رقم ١٩٧٣/٢٣٨٥

مطابع دار المعارف بمصر
سنة ١٩٧٣

١٠



اقرأ

أمين يوسف غراب

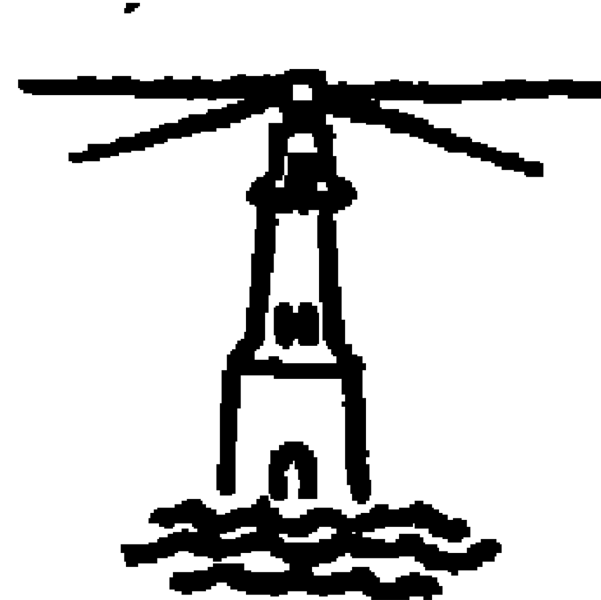
شباب امرأة





تصدر في أول كل شهر

رئيس التحرير: السيد أبو النجا



دار المعارف بمصر

خذ المعارف من دار المعارف

أمين يوسف غرّاب

شباب امرأة

اقرأ ٣٦٧

دار المعارف بمصر

اقرأ ٣٦٧ – مايو سنة ١٩٧٣

الناشر : دار المعارف بمصر – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج. م. ع.

الطفولة



١

قال لها هامساً ، وهو يتلصص بعينيه على أمها التى تقف عند عتبة داره فى نهاية الحارة تتحدث إلى أمه : تعالى نلعب . .

فلم تجب . وإنما أشاحت بوجهها عنه كمن لا تريد أن تسمع . فاقترب منها خطوة . . وشدّها من ذراعها وهو يقول بصوته الهامس الذى يفيض حناناً ورجاء يود تحقيقه : تعالى نلعب . .

فالتفتت إليه غضبى . وقالت وهى تنظر إلى يده الصغيرة التى ما زالت معلقة بذراعها : أنا مخصماك . .

ــ من غير سبب ؟

ــ اتهمتنى بسرقة الكرة . .

ــ إنى سألتك عنها . .

ــ لا . . اتهمتنى بسرقتها . .

ــ حقك علىّ . . وغداً سأجىء لك بكرة غيرها . .

ــ من أين ؟

فقال وهو ينظر إلى ذراعها الصغيرة التى ما زالت معلقة فى يده : سمعت أبى يقول لأمى ، إنه عندما يذهب إلى السوق بعد غد ، سوف يشترى له جورباً جديداً ، وعند ذلك سوف آخذ جوربه القديم وأصنع لك منه كرة جديدة .

فقالت وهى تنظر إليه . . ونور جميل يتألق فى عينيها : سوف أصنع لك كرة من عندى . . فأبى يملك أكثر من جورب . . وأستطيع أن آخذ منها ما أشاء .

ومع أنه لم يفطن إلى شيء ، فإنها تداركت سريعاً جملتها الأخيرة ، وما فيها من حرج له ، لذلك عقبت ضاحكة ، وذلك النور الجميل ما زال يتألق فى عينيها : تصالحنا . .

. فقال فرحاً : وسنلعب . .

– اسبقنى وسوف ألحق بك . .

– تعالى معى . .

– أعددت لك مفاجأة سارة . سأذهب لأحضرها .

فقال فى ابتهاج شديد : ما هى ؟

فنكست هدبيها الطويلين ، وهى تضحك ، وتضع أصبعها الصغيرة على غمازة فوق خدها المتورد ، وتقول ناظرة إليه : احزر . .

فقال مفكراً : كرة ؟

– لأ . .

– تؤكل ؟

– لأ . .

– تشرب ؟

– لأ . .

– ما هى إذن ؟

فقالت وهى تنسرق من أمامه ضاحكة . . . تقفز فى خطوات عالية كالغزال : اسبقنى وسأحضرها لك . .

فانصرف تغمره فرحة كبيرة . . ووقف ينتظرها على رأس الحارة حتى تجىء ، ويذهب معها إلى الجرن يلعبان مع الصبية على ضوء القمر فى رمضان ، الاستغماية – وجمال المالح – وحلقة ومضرب – إلى أن تدق طبلة عم نوفل المسحراتى أولى دقاتها ، فينصرف كل إلى بيته ، فرحاً مبتهجاً بما ظفر به فى هذه الليالى الجميلة من لعب .. ومرح .. ولهو بريء .

* * *

وبينما هو فى مكانه مرّ به عم نوفل تسبقه عصاه السنط الطويلة ، التى تهديه دائماً إلى الطريق ، ففزع الصبى لمرآه . وألصق جسده بالحائط فى الظلام حتى لا يشعر به . وقد انتابته حالة شديدة من الذعر ، وحالة أخرى من الاطمئنان أو الرضا لا يدرى . فهو إن ظفر به عم « نوفل» الليلة ، حرمه من الاستمتاع باللعب مع سلوى فى الجرن ، وإن لم يظفر به حرم الصبى نفسه من بعض الطيبات التى تعود عليه فى الليالى التى يقود فيها عم نوفل فى أزقة القرية وحاراتها ، يدق على بيوت الناس ليوقظهم للسحور والصلاة التى هى خير من النوم .

وظل الصبى فى مكانه من الحائط حائراً لم يقطع بأمر . ينظر فى خوف أو رضاً لا يعرف ، إلى عصا عم نوفل الطويلة ، وهى تقترب منه ، متمنياً من قلبه أن تخطئه ، ومتمنياً أيضاً من قلبه أن تظفر به . بيد أن الأولى هى التى كان لها التفضيل فى نفس الصبى ، لأنه كلما رأى العصا تقترب منه وخطوات عم نوفل المتعبة تدب إليه ، أطبق على شفتيه وألصق جسده بالحائط حتى ودّ لو أنه دخل فى قلبه ، ولكن عم نوفل كانت له حاسة شم قوية ، يستطيع أن يشم بها رائحة الناس ويميزهم ويتعرف عليهم ، لذلك ما إن اقترب من مكان الصبى حتى حول عصاه الطويلة إلى الجدار الذى يختبئ الصبى بجواره ، وقال على الفور : إمام ؟

فاضطرب الصبى وتعالت دقات قلبه وهو يجيب سريعاً : نعم ..

ــ أين كنت أمس . . وأول أمس . . وكيف تجعلنى أبحث عن غيرك ليمسك بيدى ويحمل عنى الفانوس ؟

فتلعثم الصبى وهو يقول : كنت أجود فى جزأى عم وتبارك ، كما قلت لى . .

ــ أنت تكذب . .

فقال الصبى خائفاً : اسأل أمى . .

ــ أملك شقية بك ، وبلعبك طوال الليل فى الجرن .

صمت عم نوفل لحظة ، ودق بعصاه على الأرض ثم قال : هل تريد أن أشكوك إلى أبيك ؟

ــ لا . . لا . . إنه يضربنى . .

قالها الصبى فى خوف شديد وهو ينظر إليه حتى لكأنه يظن أنه يراه . . فقال الشيخ : إذن ستسرح معى الليلة .

وأراد الصبى أن ينطق .. ولكنه التفت فرأى « سلوى » تهل على رأس الحارة من بعيد ، كما يهل القمر الوليد فى الأفق من بعيد ، فاضطرب ثانية وتعالت دقات قلبه ، وأحس بضيق شديد وقال خائفاً وعيناه معلقتان فى عينى الشيخ الضرير : سأسرح معك الليلة وكل ليلة ، فقط لا تشكونى إلى أبى .

ــ سأنتظرك فى المسجد . .

نطقها الشيخ وانصرف ، تسبقه عصاه ، تبحث فى الظلام عن بيت الشيخ الشافعى مأذون الشرع ليقرأ فيه بعض القرآن ، الذى تعود أن يقرأه أيضاً فى بيوت غيره من أهل القرية طوال شهر رمضان ، وفى غير شهر رمضان أيضاً . فعم نوفل له فى القرية مكانة ملحوظة ، ويقوم فيها بأعباء كثيرة . فهو برغم أنه كهل فى الستين من عمره ، وبرغم أن الأيام أتت على كل شىء فيه ، ولم تبق من جسده إلا ما يشبه الصورة القديمة التى تآكل إطارها وتسلل البلى إلى رسمها ، فهو مقوس الظهر ، معوج الساقين ــ برغم هذا كله هو فى القرية حركة نشاط دائمة ، لا تعرف الهدوء ولا الراحة ولا الملل . فهو ففيه المسجد الذى يؤذن فى الناس للصلاة . . وهو الذى يؤم الناس فى الصلاة . . وهو حانوتى القرية الوحيد الذى يغسل الموتى ويكفنهم ، ويتلو على رءوسهم القرآن عندما يخرجون من الدنيا . . وهو يتلوه أيضاً كل صباح فى بيوت

أهل القرية — بالمسانية — أى بالسنة ، نظير كيلة أونصف كيلة من الحنطة أو الشعير كل عام .

أما إذا جاء رمضان ، فهو أيضاً مسحراتى القرية الذى يجو بها كل ليلة بطبلته ، يدقّ بها الأبواب باباً باباً . وبرغم أن هذا كان يجهده كثيراً ، فإنه كان يسعده أيضاً . وهو لا يسعده وحده ، وإنما يسعد معه جماعة كثيرة من الصبية والصبيات والعجائز الذين يقطنون معه دهليز « المرعشلى » ، وهو دهليز كبير يضم أكثر من عشرين غرفة .. أوقفها واقفها على الفقراء الذين لا مأوى لهم من أهل القرية ، كما أوقف جناحاً من هذا الدهليز على «خولى» زراعة الوقف ، يقطنه هو ومن يشاء من أسرته ، وهو الجناح الذى يقطنه « إمام» مع أمه وأبيه .

وكان سكان هذا الدهليز جميعاً ، إذا جاء رمضان وطلعت عليهم بشائره فى الأفق ، غمرتهم فرحة لا حد لها ، وعاشوا جميعاً فى هناء زائد وسرور مقيم ، وذلك بسبب الصدقات الكثيرة التى كانت تنهال على عم نوفل فى رمضان ، وكان يوزعها على سكان الدهليز الذين كانت قلوبهم تطير من الفرح عندما يدخل عليهم نوفل بعد السحور حاملا جواله المكتظ بالخيرات ، ويفرغه أمامهم على الأرض ، فيلتفون حوله كالقطط الجائعة ، يستخلصون بأيديهم الصغيرة الجبن من العجوة ، ومخلل اللارنج والقثاء من البلح والجوافة ، والخبز الجاف من الكحك والمنين والغريبة ، وعظم الدجاج وقطع اللحم من رءوس الفجل والكرات ، وما إلى ذلك كله من خير عميم ، يظفر الصبى منه بالنصيب الأوفر دائماً .

فكر الصبى فى هذا كله سريعاً وهو فى مكانه يشيع الشيخ الضرير . ومرت به خيالاته مروراً سريعاً كالنور العابر ، فغمرته لذة كبيرة سال لها لعابه ، وودّ لو أنه سبق الزمن وانطوى سريعاً هذا النصف الأول من الليل ، ووجد نفسه برفقة الشيخ يحمل له الفانوس ، وهو يدق الطبلة ، فتتفتح الأبواب ، وتمتد الأيدى إلى الجوال بكل هذه الخيرات .

* * *

بيد أن هذا كله تلاشى فجأة ، وذاب كما تذوب قطرة الندى تحت وهج الشمس ، عندما التفت فرأى سلوى تقبل عليه وهى تحمل له فانوساً اشترته له حتى يكون مثلها ومثل بقية الصبية الذين يلعبون بفوانيس رمضان فى الجرن ، بيد أنه أحس عند رؤية الفانوس فى يدها بشىء كثير من الخجل ، وأحس بهذا الخجل يتزايد وهى تقدمه له . . وتقول فى فرحة غمرت وجهها كله وزادته بهاء : هذه هى المفاجأة التى أعددتها لك . .

ولما لم ترتسم على وجه الصبى الفرحة التى كانت تنتظرها ، وأدركت بذكائها سريعاً سر خجله وارتباكه . . قالت على الفور ، مسترسلة فى الضحك ، مستطردة فى الحديث : سأقول لك السر . . فقط لا تذعه على أحد . .

ــ أى سر ؟

ــ خالتى آمنة ــ تقصد أمه ــ هى التى اشترته لك . . وأنكرته منك لأنها غاضبة عليك . .

ــ لماذا ؟

ــ لأنك لم تحفظ بعد جزء عم . .

فتهللت أسارير الصبى وهو يتناول من يدها الفانوس ، ويشدها من ذراعها ، ويركض معها إلى الجرن قائلا فى ابتهاج : إن أمى لا تعرف شيئاً . . لقد حفظت أيضاً تبارك ، وقد سمع ، والأحقاف ، وفصلت ، والزمر . وعما قريب سأحفظ نصف القرآن ، وأذهب إلى طنطا وألتحق بالمعهد الأحمدى . سمعت أبى يقول ذلك .

ثم أراد أن يقول لها شيئاً آخر ، ولكن ساحة الجرن الكبيرة طالعتهما مكتظة ممتلئة بصبية القرية يحملون الفوانيس المضاءة ويركضون بها فى ساحة الجرن الذى تراءى لهما من بعيد كساقية فوانيسها من النجوم الباهرة التى تتلألأ فى الليل ، فوقفا بفانوسيهما ينظران إلى مئات الفوانيس

الأخرى فى فرحة غامرة ، وكل آمال الصبى والصبية أيضاً أن يظل رمضان فى القرية طيلة شهور السنة ، بل طيلة أيام العمر ، حتى يدوروا فى هذه الساقية .

٢

لم يشعر الصبى فى حياته بسعادة خالصة كهذه التى أحسها هذه الليلة ، وهو يلعب « الاستغماية » مع سلوى فى الجرن ، يكر معها ويفر . . يركض ويقفز . . يراوغها وتراوغه . . يهرب منها بين الصبية حتى لتكاد تفتقده . . ويظهر لها فجأة من بين أرجلها فتأخذها المفاجأة . . وتقفز على كتفه حتى لا يهرب منها مرة أخرى ، ويلعب معها « جمال المالح» فيسير على أربع ، ويروح يقفز أمامها مغمض العينين كما يقفز الأرنب الضرير فى الفضاء ، وهى تطارده من أمام ومن خلف . . وتطارده عن شمال وعن يمين ، حتى إذا ما ضيقت عليه الخناق ، وأدخلته تلك الدائرة التى يجب عليه ألا يدخلها ، قفزت كالفارس على ظهره ، وامتطته كما تمتطى الجواد ، ولفت به حول الدائرة سبع مرات . وكلما توانى ركلته فى فخذه أو ضربته على رأسه . . وهذا جزاء الذى يقع فى الدائرة .

وظل الصبى كذلك ناسياً كل شىء إلا هذه السعادة التى هو فيها . إلى أن وقف فجأة مضطرباً ، حائراً ، يستمع إلى صوت طبلة عم نوفل التى تناديه . وينظر بعينه إلى الفتاة التى تريد أن تواصل اللعب معه . إن شيئاً ما يلح عليه أن يبقى . . وآخر يناديه أن يذهب . . إنه قد وعد عم نوفل بالذهاب إليه هذه الليلة ، وهو يريد أن يبر بالوعد . لا من أجل تلك الصدقات التى سوف يظفر منها بنصيب . . وإنما من أجل تلك الأجزاء الثلاثة من القرآن التى لم يحفظها بعد . . ويخشى أن يتسلل خبرها إلى أبيه عندما يجىء من التفتيش ليلة الجمعة ، فيثور ويغضب . .

وسوف يفضح سره عم نوفل إن هو أخلف وعده معه هذه الليلة ولم يذهب إليه . . وهو إن أذاع سره هذا فلن يذيعه فقط . . وإنما سيذيع معه أنه هرب منه أكثر الليالى التى مضت . . وسيذيع أيضاً أنه سرق البيض من أمه واشترى به « حلاوة طحينية» . ومن يدرى ربما لم يكتف بالحقائق فيضيف إليها أشياء ويختلق معها أشياء . . ويقول له مثلا إنه لم يحفظ بعد شيئاً من تلك الأجزاء الثلاثة ، مع أنه يعلم علم اليقين أنه يحفظ « عم» و « تبارك » عن ظهر قلب . . وأن الذى ينقصه فقط فى جزء « قد سمع » هو التجويد . .

ونظرت الفتاة إلى الصبى الذى توقف عن اللعب فجأة ، وإلى عينيه المضطربتين وقالت فى دهشة : إمام . . ما بك ؟

– لا شىء .

– هل تعبت ؟

– . . فقط أريد أن أذهب إلى عم نوفل . .

والفتاة تعلم مدى النفع الذى يعود على الصبى من مصاحبته عم نوفل فى هذه الليالى . . لذلك قالت له متهللة الوجه مصطنعة الضحك والسرور : اذهب . . اذهب إليه . .

– وأنت ؟

– سألعب قليلا . . ثم أنصرف إلى البيت . .

وكأنه كان ينتظر منها أن تنصرف معه فقال : لقد دقت الطبلة . .

فقالت ضاحكة وهى تتناول فانوسها من على الأرض وتهم باللحاق بالصبية الآخرين : بدرى . .

وأراد الصبى أن يقول لها شيئاً آخر ، ولكنها كانت قد غابت عن عينيه ، فانصرف إلى المسجد حيث عم نوفل الذى التقى به على باب المسجد ، يحمل جواله الذى صنعه على هيئة مخلاة علقها بحبل على كتفه ، كما علق الطبلة التى كان يحملها على صدره بحبل فى الكتف الثانية ،

وأمسك بيده اليمنى عصاه السنط الغليظة يدق بها الأرض ، كما يدق الطبلة بعصا أخرى صغيرة أمسك بها فى يده الثانية . فاقترب الصبى منه بدون أن ينبس ، ومد إليه ذراعه الصغيرة ولفها على ذراع الشيخ . . ومن ثم سار بجانبه ، يستمع كما يستمع كل ليلة إلى الشيخ وهو يردد مترنماً بصوته الأجش المبحوح ، سجعاته المعروفة المتكررة التى لا تتغير : « يا سيد فلان يا أصيل الجدود — ياللى العطا طبعلك ، وأصلك يجود» .

وكان كل من فى القرية — عند عم نوفل — أصيل الجدود . وكانت لعم نوفل قدرة عجيبة فى معرفة البيوت وأسماء سكانها . فما كان على الصبى عندما يبلغ أول الزقاق ، أو الحارة ، إلا أن يقف به ويهمس له باسم الحارة أو الزقاق فقط ، فيعرف هو على الفور بيوت الحارة أو الزقاق بيتاً بيتاً ، ويردد أسماء سكانها اسماً اسماً ، وهو يدق على الطبلة مترنماً بسجعاته . ويظل كذلك ولو وقف طول الليل حتى يفتح الباب ، ويخرج صاحب البيت أو صاحبته أو أى إنسان آخر ويناول الصبى ما يجود به ، فيتناوله الصبى صامتاً ويضعه فى الجوال ، ثم ينصرف إلى بيت آخر . . وكثيراً ما كان الشيخ يسأل الصبى بعد أن يغلق الباب ، عن الذى وضعه فى الجوال ، فيخبره الصبى عن الصدقة التى تصدق بها صاحب البيت أو صاحبته ، خيارة ، قطعة جبنة ، قطعة عجوة ، كعكة ، شقة بطيخ ، وكانت قسمات وجه الشيخ تنفرد وتنقبض وفقاً لإجابات الصبى .

وظلا كذلك يسيران إلى أن بلغا دوار العمدة ، وكان العمدة يتناول سحوره هذه الليلة على المصطبة أمام الدوار ، ورأى الصبى ما حفلت به « الطبلية» من طعام شهى ، فهمس بذلك سريعاً للشيخ . وقد كان الاتفاق بين الصبى والشيخ أن يهمس له الصبى بكل شىء . وما إن قال الصبى للشيخ ما قال حتى تسمر الشيخ فى مكانه ، وقد تهلل وجهه ، وانفرجت أساريره ، وتطلق جبينه المترهل ، واهتزت يده مرتعشة على

العصا وكأنها ترقص طرباً . . ومن ثم راح بصوته الأجش المبحوح يرسل في الليل عقيرته ، متغنياً بسيد القرية ، بل سيد القرى جميعاً ، وعمدتها الذى بعث الله به إليها ، ليهديها من ضلال ، ويخلقها من عدم ، معدداً مناقبه وأخلاقه وصفاته وكريم سجاياه وأفضاله على الدنيا كلها ، وحسناته على الناس والخلق أجمعين . ثم راح يصف كسمه ورسمه وجماله ، ثم أصله وفصله وفرعه وسلالته التى تنتمى إلى الأنبياء والرسل . .

وظل كذلك حتى استنفد الشيخ كل ما فى جعبته . ولم يبق فيها شيء يقال لأحد . وقد أثلج هذا المديح صدر العمدة ، وملأ قلبه غروراً وكبرياء ، ومشاعره لذة وابتهاجا ، فلم يصرفهما كالعادة سريعاً بشيء يجود عليهما به من الذى حفلت به « الطبلية » أمامه ، وإنما ظل يصغى إلى هذا المديح ، ويستمع فى نشوة إلى هذا الثناء وإلى أصله الكريم الجدود ، وشجرته التى أصلها فى الأرض وفرعها فى السماء ، وسلالته التى تتطاول على الخلق أجمعين بانتمائها إلى الأنبياء والرسل ، حتى تعب الشيخ وتصبب العرق من جبينه المتجعد ، وسال قنوات على تلك الأخاديد التى أحدثها الزمن فى وجهه وحول عينيه ، وحتى بح صوته وخفت وغدا أشبه بعواء القطط وهى تلف حولك وتبصبص لك بذنبها مستجدية وتتمسح بك لتطعمها .

ولما بلغ الشيخ هذا الحد من الإعياء ، وعجز صوته عن أن يصل إلى الآذان واضحاً ، أشفق عليه العمدة إذ رفع يده وأشار إلى الصبى ، فترك الصبى الشيخ سريعاً ، وقفز إليه كما يقفز كلب الصيد إلى القنص ، ولما مثل أمامه ، مد الرجل يده إليه وأعطاه ورك دجاجة سمينة كانت فى يده ، فتلقفها الصبى غير مصدق ، ولما عاد إلى الشيخ لم يضعها فى الجوال كبقية الصدقات الأخرى ، وإنما حشرها فى جيبه سريعاً ، وحشر فوقها أيضاً ورقة صفراء خشنة كانت فى يده ، وحشر هذه الورقة جيداً وبإحكام . وهو لم يفعل ذلك خشية على جيبه أن يتلوث ، وإنما



حرصاً على ألا تنفذ رائحتها الشهية إلى خياشيم الشيخ ، فيعرف الحقيقة . ومن ثم تأبط ذراع الشيخ وانصرف معه . وفى الطريق ، وبعد أن ابتعدا قليلا ، ارتسمت على وجه الشيخ هالة من نور ، وهو يلتفت إلى الصبى قائلا : ماذا أعطاك سيدنا العمدة ؟

فقال الصبى فى خبث وخوف وهو ينظر إلى عينى الشيخ المغلقتين ، وكأنه يخشى أن يرجع إليهما البصر : كسرة من الخبز وبعضاً من عظم الدجاج .

فتلاشت تلك البسمة التى كانت تتألق على وجه الشيخ وقال مقطباً فى تحسر شديد : لهم اللحم ، ولنا العظم !

فقال « عم فضل » السقاء ، وهو يقترب منهما لاهثاً يحمل على ظهره قربة ماء كبيرة ، وكأنه يحمل أعباء الدنيا وأثقالها فوق ظهره : ولهم الدنيا ولنا الآخرة يا عم نوفل .

فابتسم الشيخ ابتسامة صفراء ، وقال فى ضيق وهو يتمتم بصوت خافت وكأنه يخاطب نفسه : ومن الذى اختار لنا هذا ؟

— استغفر . . استغفر يا نوفل . . وفى السماء رزقكم وما توعدون .

نطق عم فضل هذه الكلمات فى سرعة ردت إلى الشيخ صوابه ، وجعلته يفطن إلى ما قال ويكفر عنه سريعاً ، فحوقل واستغفر وبسمل وهمهم بشفتيه وهو يتلو فى صوت مسموع : (قل أعوذ برب الناس . ملك الناس . إله الناس . من شر الوسواس الخناس . الذى يوسوس فى صدور الناس . من الجنة والناس) .

قالها الشيخ وهو يمسح على شفتيه ويقول مخاطباً عم فضل : صحيح يا فضل . . الخير فيما اختاره الله .

فقال الصبى للشيخ وهو يتحسس بيده الكنز الذى فى جيبه ، ويحشر فوقه الورقة مرة أخرى حتى لا تنفذ رائحته : عم فضل دخل بالقربة حارة الدناصورى .

فصمت الشيخ ولم ينطق ، وظل صامتاً ، حتى بلغ به الصبى نهاية الحائط ودخل معه الدهليز ، فألقى بالجوال فى وسطه ، كما ألقى بجسده المتعب بجواره . وبعد أن استراح قليلا ، دس يده فى قلب الجوال ، وأخرج منه بعض الطعام ، أكل منه ما شاء ، ثم تركه كالعادة للذين يقطنون الدهليز ، فتجمعوا حول الجوال ، وتهافتوا عليه ينبشون بأظافرهم فى قلبه ، كما تنبش الكلاب فى صناديق القمامة تماماً ، وانصرف هو إلى المسجد ، ليؤم بالناس صلاة الفجر . . أما الصبى فقد اختفى عن الأنظار حتى عن أمه ، وجلس بجانب الحائط من الحارة فى الظلام ، وأخرج من جيبه ورك الدجاجة ، وهم أن يأكل ، بيد أنه تذكر شيئاً ، أوقفه عن الأكل وجعل يده ترتد بالكنز الذى فيها .

حقيقة أن سلوى سوف لا ترحب كثيراً بهذه الهدية لأنها تأكلها كثيراً ، ما من يوم يمر إلا ويرى أمام باب بيتها ريش الدجاج وعظمه ، وفى غير رمضان أيضاً . وهى ربما ترفضها لأنها لا تحب — كبنات الأغنياء — أن تشارك فى طعام يتصدق به الناس . ولكن من يدرى ربما لا ترفضها من يده هو ! وحتى لو رفضتها فسوف لا ترفض الاعتزاز بهذا الصنيع الذى هو غاية ما فى طوقه ، وسوف تشعر بأنه يتذكرها دائماً حتى فى الشىء الذى يأكله . ولكن أين هى الآن ؟ هل عادت من الجرن ؟ هل نامت ؟ هل ينتظر إلى الصباح ولا يأكل ورك الدجاجة الليلة ؟ أيبقيه معه حتى يلتقى بها ؟ وبينما هو يفكر هذا التفكير إذا بباب بيت الناظر يفتح ، ويخرج منه الأستاذ الشرنوبى أبو إسماعيل بطربوشه الأحمر القانى وجلبابه الأبيض الناصع ، والقبقاب فى قدمه فى طريقه إلى المسجد لصلاة الفجر جماعة ، وما إن اقترب قليلا ورأى الصبى حتى قال له : لماذا أنت وحدك فى الظلام يا إمام ؟

فقال الصبى وعينه ما زالت معلقة بالباب الذى خرج منه الناظر : كنت أصحب عم نوفل إلى المسجد .

فقال الناظر مداعباً وهو ينصرف : حسبتك ستصلى معنا الفجر .
ووجد الفتى نفسه يلحق به ويسأله : « هل نامت سلوى » ؟
فقال الرجل مستطرداً فى مداعبته : وهل تنام العفاريت ؟ ما زالت على السطح تلعب بحجة أنها تنتظرنى حتى أعود من المسجد .

فغمرت الصبى فرحة لم يكن لينتظرها ، ورجع يركض إلى الدهليز ، وذهب إلى السلم الخشبى الملقى على جداره من الداخل ، وراح يقفز عليه كما يقفز الأرنب فى الليل حتى بلغ سطح الدهليز ، ومن ثم وقف يتلفت على سطح بيت سلوى الذى يجاور سطح الدهليز مباشرة ، وما إن رآها لاهية مستغرقة فى اللعب تقفز تلك القفزات السريعة التى يمر مع كل قفزة من تحت قدميها الحبل الذى تمسك بطرفيه فى يديها ، حتى أشار إليها إشارات سريعة جداً كمن يريد أن يلفت نظرها إلى أمر هام ، فتوقفت عن اللعب ، ووقفت فى دهشة تنظر إليه من بعيد . ولما عاود إشاراته السريعة لها ، أقبلت عليه . ولما لم يبق بينها وبينه سوى الحاجز الصغير الذى يفصل بين السطحين سألته متلهفة وهى تحاول أن ترى وجهه من خلف الحاجز ، فلا تستطيع : ماذا تريد ؟

فقال وهو يشب على قدميه ليراها ، ويشير لها بيده أن تتبعه عند قبو الطاحونة ، وهو الذى ينتهى بالسطحين من الخلف ، وينتهى عنده الحاجز أيضاً ، وهى طاحونة مهجورة تهدم سقفها ، وتعود سكان الدهليز أن يحفظوا فيها الروث والنفايات الجافة والتبن الذى تأكله الماشية فى الصيف ، فازدادت دهشتها وقالت : لماذا ؟

– معى لك هدية حلوة . .
– أبقها إلى الصباح . .
– تحمض . .

ولما عرفت أن الهدية تؤكل تلاشت الابتسامة الخفيفة التى كانت قد ارتسمت على ثغرها ، وقالت وهى تهم أن ترجع : أنا تعشيت . .

ـــ أرجوك .

نطقها الصبي فى ذلة وفى رجاء ملح يشوبه ألم خفيف استشعرته الفتاة وأحست به ، وأشفقت على الصبي من أن ترفض له طلباً يحزنه إلى هذا الحد أن يرفض . فراحت تركض بجواره على السطح ، وبينهما الحاجز ، ويركض هو بجوارها فى الليل ، وكلما تحسس الكنز الذى فى جيبه ، وكلما رأى الفتاة بجواره تركض لتقتسم معه ورك الدجاجة ، غمرته فرحة لا حد لها .

ووقف الصبي أمامها يرتجف يريد أن يقول لها شيئاً . . بيد أن هذه السعادة تبددت فجأة، أو لعلها تبددت بشيء آخر لم يكن الصبي ليعرف أن له وجوداً فى الحياة ، فقد حدث أنهما عندما بلغا قبو الطاحونة سقطا معاً فى قلبها ، كما تعودا أن يسقطا دائماً فى قلبها وهما يلعبان. غير أن سقوطهما هذه المرة جاء فوق كومة عالية من التبن انهارت بهما معاً ، فتعالى صراخهما الضاحك ، وصخبهما المرح ، وكل منهما يحاول أن يمسك بصاحبه حتى لا يسقط فوق الأرض ، وكادت هى تسقط فعلا ، فمد يده سريعاً ليمسك بها ويمنعها من السقوط . وما إن فعل حتى رد يده سريعاً أيضاً ولكن فى غضب ، وقد تجهم وجهه فجأة واربدت سحنته وهو يقول لها فى صوت خشن لم يتعود أن يخاطبها به من قبل : أهكذا تكذبين على ؟

فانعقد لسان الفتاة دهشة وقالت فى استغراب شديد وهى تنظر إليه : أنا كذبت عليك يا إمام . . وفى ماذا ؟

ـــ تسرقين الكرة ، وتخفينها فى ثيابك ، ثم تدعين عدم رؤيتها ؟

فازدادت دهشة الفتاة إلى حد كبير وهى تقول : أنا سرقت الكرة يا إمام . . ؟

فقال الصبي فى غضب : أيوه . .

ـــ من قال ذلك ؟

فنظر إليها مشيراً إلى مكان ما فى الصدر وقال : إذن ما هذا الذى تخفينه فى صدرك ؟

ونظرت الفتاة سريعاً وبدون وعى إلى المكان الذى يشير إليه ، وما إن رأت « الكرة » التى أخفتها فى صدرها حتى اضطربت أنفاسها ، واحمر وجهها خجلا ، وتوردت وجنتاها ، وغدتا باون الدم ، ولهثت أنفاسها ، كما تعالت دقات قلبها فى سرعة شديدة ، وأطبقت شفتيها فلم تجب .

ورأى الصبى كل ذلك ، وظن أن اكتشافه « للجريمة» هو الذى أخزاها كل هذا الخزى ، وهو الذى ورد وجنتيها حتى أحالهما هكذا إلى هذه الحمرة القانية ، وعقد لسانها خزياً وخجلا واضطراباً ، فقال وهو يتركها وينصرف إلى باب الطاحونة الموصل للحارة ، والغضب ما زال فى عينيه : سأخاصمك .

فتمتمت الفتاة فى حرج شديد محاولة أن تحرك ساقها التى خدرت وتسمرت فى مكانها لتلحق به : إ . . . إ . . . إمام . .

ــ لا تذكرى اسم « إمام» ثانية على شفتيك !

وكانت قد لحقت به . . فوقفت مرتبكة جداً ، محاولة ما استطاعت أن تخرج نفسها من هذا الخجل الذى ألم بها ، وهذا الاضطراب الشديد الذى يكتنف كل جزء فى جسدها . وأخيراً استطاعت أن تنطق متمتمة فى صوت خفيض ملتهب أحست حرارته تنساب كألسنة اللهب من بين شفتيها : أنا لم أسرق الكرة يا إمام . .

فالتفت إليها الصبى ، وقد آلمه أن تغالطه إلى هذا الحد ، وقال فى حدة وغضب : وتكذبين أيضاً ؟

ــ ولم أكذب . . .

فقال متحدياً فى غضب وثورة : أأكسفك ، وأمد يدى إلى صدرك وأخرجها منه ؟

فاضطربت الفتاة فى خوف شديد ، وقالت متلعثمة تنظر إليه ، ودقات قلبها أكثر خفقاناً وأكثر عنفاً : إن هذه ليست كرة يا إمام . .

فالتمعت عيناه فى الظلام ، وهو ينظر إليها فى غيظ ، ويقول فى نفس السرعة التى مد بها يده إلى صدرها : إذن ما هذه ؟ !

وما إن فعل حتى ارتدت يده فجأة . . مضطربة . . ترتعش فى خوف وألم كأن أحداً ضربه عليها ضربة موجعة ، ومرت به لحظات ثقال راح فيها يلهث وهو مغمض العينين ، وقد أحس بدوار شديد جعل جسده كله أشبه بدوامة تلهث فيها أحاسيسه ، ويغلى فيها دمه ، وتصطرع فيها عواطفه ، ويختلط بعضها ببعض فى عنف وقسوة .

ووقف الصبى أمامها يرتجف يريد أن يقول لها شيئاً . . يريد أن يعتذر لها عن هذا الجرم الذى ارتكبه . . عن هذه التهمة التى اتهمها بها . . يريد أن يقول لها شيئاً آخر غير هذا كله . . ويعتذر لها عن يده هذه التى « تطاولت» بدون قصد . . ولكن ألا بد أن يعتذر ؟ . . ألا يكفى كل هذا الذى يعانيه ؟ ألا تكفى هذه النار التى أحرقته ؟ . . هذه الدوامة التى يصطرع فيها كيانه كله الآن ! . . ألا يكفى كل هذا ؟ ! وإذا اعتذر فهل يقول لها كل شىء ؟ ثم ما هو هذا الشىء الذى سيقوله لها ؟ . . سيعتذر لها عنه . . إنه هو نفسه لا يعرفه . . إنه يحس به فقط . . ويحس به أشبه ما يكون بثعبان كبير يستيقظ ويتثاءب ويتمطى فى جسده فيشد معه الجسد كله شداً عنيفاً إلى شىء مجهول . . شىء جعله فجأة إنساناً غير الذى كان . . إنساناً يزيد على عمره سنين طويلة . يزيد عن قوته قوى أخرى هائلة . . إنه الآن أشبه بعملاق يستطيع أن يفعل كل شىء . وأن يطبق على كل شىء . وأن يحطم أيضاً كل شىء ، فهل يقول لها هذا ؟

أيتحدث إليها به أم يتحدث إليها عن شىء آخر يعانيه الآن ؟ . . هل يحدثها عن لسعات هذه النار التى تلدغ كل كيانه حتى لتكاد تشويه

. . تحرق أحاسيسه حتى لتكاد تحيلها إلى رماد . . تعض جسده حتى لكأنها ناب الثعبان الذى يتمطى فى كيانه ؟

ولكن ما هذا الشيء الذى له كل هذه القوى .. كل هذا السحر ؟ فيه هذه النار . . وفيه أيضاً هذا النور . . فيه الضعف والقوة . . فيه الرضا به والسخط عليه . . فيه الشوق إليه والخوف منه ؟ !

وهل هى أحست به أيضاً ؟ هل تعرفه ؟ هل ألم بها كما ألم به الآن ؟ هل تفتحت له أحاسيسها فى نشوة كبيرة . . كما تفتحت لها أحاسيسه فى نشوة كبيرة ؟ . . هل حرقتها ودمرتها كما حرقته الآن ودمرته ؟

مرت به كل هذه الأحاسيس سريعاً وهو ما زال بجوارها مغمض العينين ، وذراعه التى تؤلمه مدلاة بجانبه أشبه ما تكون بثعلب صغير ميت علقه فى كتفه . . ولما رأته كذلك أشفقت عليه ، وجاهدت نفسها حتى أزاحت عن وجهها المتورد وعينيها المحمرتين بعض الخجل الذى ران عليهما ، وحركت شفتيها فى جهد لا حد له ، وتمتمت بصوت خجول جداً : إمام . .

ولما لم يجب استطردت : أنا مسامحاك . .

وهم هو الآخر أن يفتح عينيه ، ويجاهد نفسه ليقول لها شيئاً ، ولكنه سمع غيره يقول لها : أما زلت ساهرة ؟

فارتمت الفتاة فى أحضان والدها وهى تقول ضاحكة : كنت أنتظرك حتى تصلى الفجر .

وقال الشيخ نوفل الذى كان يتوكأ على عصاه ويسير بجواره ، وكأنه يتم حديثاً بدأه : إن شاء الله الإقامة ستكون فى مصر نفسها . .

— طبعاً ما داموا قد نقلونى إليها .

— ومتى السفر إن شاء الله ؟

— أغلب الظن غداً . . أو بعد غد . .

فقال الشيخ الضرير فى ألم وهو يدخل معه الحارة : ستعيش القرية

حياتها تذكر ابنها البار . . فهل تتذكرها أنت . . يا أستاذ شرنوبى ؟
— وهل ننسى الأهل . . والذكرى الطيبة يا شيخ نوفل ؟
وكادت عين الشيخ نوفل تدمع وهو يصافحه وينصرف إلى الدهليز. كما انصرف الأستاذ الناظر وابنته سلوى إلى البيت .

٣

كان الصبى فى الظلام يصغى إلى هذا بانتباه . . ثم انصرف هو الآخر . . ولكن إلى أين ؟ لا يدرى . هل انصرف إلى الدهليز ونام فى الحجرة مع أمه التى تشكو داء الكبد وتعانى من آلامه ما عجزت عنه وصفات القرية جميعاً ، وعجزت عنه أيضاً تذكرة داود التى يحفظها — عن ظهر قلب — الأسطى شلبى ، حلاق الصحة . أو نام الصبى فى تلك الليلة فى مكانه خلف جدار الطاحونة ؟ وهل نام نوماً هادئاً ، أو ظل نائماً ليستيقظ أو مستيقظاً لينام ؟ !

وهل داعبته فى النوم تلك الأحلام المزعجة المخيفة التى مرت به وهو نائم . . أو هو لم ينم وإنما ظل مستيقظاً . . يصغى بانتباه إلى ذلك الحديث القصير الذى دار بين الرجلين ، والذى كان لمعانيه وألفاظه فعل النار فى أذنيه ؟ ! إنه لم يذكر قط شيئاً من هذا كله ، وإنما الذى يذكره جيداً أنه بعد صلاة العصر فى اليوم التالى ، وهو فى المسجد يجلس أمام الشيخ متربعاً بجوار المنبر يهتز ويميل ذات اليمين وذات الشمال ، ويده على صدغه وهو يتلو ويجود السورة الأخيرة من « قد سمع » — اصطدمت يده بشىء كان فى جيبه . ولما تبينه بعد أن خرج من المسجد وجده ورك دجاجة أزرق اللون . . تتصاعد منه رائحة عفنة كريهة ، فمد يده وألقى به لكلب كان يسير بجواره فى الطريق . . ومن ثم واصل السير . .
ودلف سريعاً إلى الدهليز ، ودخل الحجرة التى تنام فيها أمه . . ولما

لم يجدها اقتحم باباً صغيراً يفصل بين الحجرة و « التعريشة » ، وهى خلف جدار الدهليز بجوار الطاحونة ، ذات أربعة جدران مجدولة من أعواد الحطب والبرص وعيدان الذرة ، وسره أنه رأى أمه معافاة متماسكة قواها ، وقد علفت الجاموسة وأشعلت الكانون ووضعت القدر عليه . . وشم الصبي رائحة البخار التى تتصاعد من القدر . . ونظر فى داخله فرأى بعض حوافر الماعز وأرجلها تتناهبها النار فى قلبه ، تغوص حيناً وتطفو أحياناً ، فتذكر أن اليوم يوم الخميس ، وهو اليوم الذى يجىء فيه أبوه من التفتيش ليبيت معهما فى القرية . تذكر الصبى هذا كله وطرب له ، وزاده طرباً هذا الاهتمام الزائد الذى تظهره أمه دائماً فى كل مناسبة لأبيه . لذلك قال لها فرحاً وهو يرتمى فى أحضانها كطفل : لماذا لا تريحين نفسك وتكلفينى ببعض هذه الأعمال ؟

فقالت ضاحكة وهى تربت على كتفه فى حنان : لو أنك فتاة لعلمتك كيف تحلب الجاموسة ، وتجلس أمام الكانون ، وترتق لى ولأبيك الثياب ، ولكنك رجل .

فقال الصبى ضاحكاً وهو يقبلها عند كتفها : وبماذا يكلف الرجل ؟

— أن يحفظ القرآن . . ويذهب إلى المعهد . . وينال الشهادة ، ويصبح « خوجه » كما تريد له أمه ، ويتمنى له أبوه . .

فقال فى مرح وهو يقطب ويقفل ما بين حاجبيه مداعباً : إننى أقصد الآن . .

فقالت وهى تنحيه بعض الشىء ، وتمسك بملعقة كبيرة من الخشب وتديرها فى قلب القدر : أريدك أن تذهب الآن إلى بيت عمك الناظر . . لتشحت لنا من خالتك الست صبرية رأساً من الثوم . .

فنهض الفتى سريعاً ليقوم لأمه بهذه المهمة . . بيد أنه عند الباب تذكر شيئاً فوقف متردداً . . وكاد أن يرجع ثانية لولا أنه وجد نفسه أمام بيت الناظر يدق بيده الباب دقات لا تكاد تحدث صوتاً ولا يكاد يسمعها

أحد ، ومع ذلك سمعتها الست زوجة الناظر التى فتحت الباب وقالت مبتهجة للصبى عندما رأته : إمام ؟ ! تفضل . .

نسى الصبى الشىء الذى جاء من أجله ، ووجد نفسه يسأل مرتبكاً وهو يمد نظراته المضطربة . . ويتسلل بها خلسة داخل الدار : أين سلوى؟

فقالت الست صبرية فى ابتهاج شديد ، وهى تمد يدها إلى الشال القطيفة الأحمر الذى على رأسها . . وتغطى به شيئاً كان قد لاح عند الكتف : ذهبت مع عمك الناظر إلى مصر . . لترى البيت الجديد الذى سنقطنه هناك . .

فانعقد لسان الصبى فجأة ، وتعالت دقات قلبه حتى فاضت على أذنيه فلم يسمع جملتها الأخيرة وهى تقول له بأنها ستعود الليلة . . بيد أنه بعد جهد تمتم فى صوت خفيض جداً ووجهه إلى الأرض : أمى تريد رأساً من الثوم . .

فظنت المرأة الطيبة القلب أن هذا الطلب الصغير هو الذى أخجل الصبى وأربكه إلى هذا الحد . ولا سيما أنها تعلم عنه أنه كثيراً ما يرفض أن يطلب شيئاً من أحد . . وكثيراً ما كانت تقدم له وهو يلعب مع سلوى بعض الحلوى . . فكان يرفضها ولا يقبلها إلا بعد إلحاح ، لذلك تعمدت الابتهاج والترحيب وتركته سريعاً ولم تمكث غير قليل حتى عادت وهى تحمل فى يدها عدة رءوس من الثوم ناولتها له وهى تقول : اتفضل . . غالى والطلب رخيص .

فلم يلتفت الصبى إلى هذا القول . . ولم يشكرها أيضاً على هذا الفضل ، وإنما وجد نفسه يسألها هذا السؤال الذى أضحكها كثيراً : هل المسافة من هنا إلى مصر بعيدة ؟

فقالت أم سلوى ضاحكة فى سذاجة وهى تربت على كتفه : إن مصر لا تبعد أبداً على حبيب . .

٤

أقبل المساء فى ذلك اليوم سريعاً جداً أكثر مما كان ينتظر له الصبى أن يقبل . . وأقبل معه والده متعباً مكدوداً يحمل على كتفه خرجاً كبيراً امتلأت إحدى عينيه بكيزان الذرة الجافة ، وامتلأت العين الأخرى بحبات الشعير المخلوطة بالحلبة . . وثلاث أقات من الخيار « الصيفى » الذى يميل إلى الصفرة دفنت جميعها فى عين الخرج التى يحملها الرجل على صدره ما عدا خيارة واحدة بقيت على الوجه أكل نصفها وبقى النصف الآخر ملوثاً تنطبع عليه ثلاث نقاط سوداء تكاد تكون ثابتة ، ولكنك لو تأملتها قليلا لوجدتها ثلاث ذبابات تأكل فى قلب الخيارة ، ولعلها رافقت الرجل من أول الطريق . .

وما كاد يخترق الدهليز ويدلف إلى الحجرة ، حتى ألقى بالخرج لاهثاً ، وقعد بجواره محاولا فى عناء شديد أن يسترد بعض أنفاسه ليحيى زوجته بكلمة ، ولكنه لم يقدر . ونظرت إليه آمنة ، ورأت وجهه المصفر ، وعينيه الغائرتين ، وعنقه الذى يهتز بين عظمتين بارزتين فوق الصدر ، وكأنها أشفقت على الرجل من كل هذا العناء ، فقالت وهى تنظر إلى الخرج وكأنها تنظر إلى شىء بغيض : أفى هذه السن وهذه المتاعب وهذا الشقاء كله تحمل هذا الخرج على كتفك وتسير به ثلاث ساعات على قدميك ؟

وكان الصبى فى هذه اللحظة قد دلف إلى الحجرة وارتمى فى أحضان والده الذى نسى كل شىء إلا فرحته بلقائه ، وقال وهو يمد يده إلى طرف ثوبه يجفف به العرق الذى ما زال يتصبب من جبينه ، ويتساقط على عينيه : كان لا بد لى من أن أجىء ، فقد بلغنى نبأ سار فرحت له كثيراً .

فقالت آمنة وقد انفرجت شفتاها عن ابتسامة عريضة : خيراً . . إن شاء الله . .

– بلغنى أن إمام أتم حفظ الواجب . . وسوف يؤهله هذا لدخول المعهد هذا العام . .

فقال الصبى على الفور وهو يعانق والده ويلتى بذراعيه الصغيرتين حول عنقه : واليوم أيضاً انتهيت من تجويد كل ما حفظت من القرآن .

ولم يعجب هذا الحديث الأم ، ولم تطرب لهذه الأنباء . ولذلك قالت وهى تتحسس وجهها وتتناول الطبلية من جوار الحائط وتضعها بينهما : حسبتك ستقول غير هذا . .

فقال الأب : ألا يسرك أن ترى ابنك يحفظ القرآن ويحمل الشهادة ويصبح خوجه كخوجات مدرستنا الذين ينعمون بالمنصب والجاه . . ويتمتعون ببسطة فى الرزق يا آمنة ؟ !

فقالت ضاحكة وهى تمد يدها إلى قلب القدر وتفرغ ما فيه فى طبق كبير من الفخار كان أمامها على الطبلية : لو كان الأمر بيدى ، لفضلت له أن يذهب معك إلى الحقل ، ويحمل عنك بعض العناء الذى تقاسيه ، وإلا فلماذا يجىء الآباء بالأبناء إن لم يحملوا عنهم بعض العبء يا بلتاجى ؟ !

فتنغص وجه الرجل ، ولمعت عيناه ، وتدهورت منهما سريعاً بعض نظرات قاسية حمراء . . وقال وكأنه يلفظ أنفاسه مع ما يقول : إنك إذن تحكمين عليه بالموت يا آمنة . . فلو أن أباه لم يكن جاهلا ، وكان يعرف حتى كيف يفك الخط لتغير مصيره . . وكان الآن على الأقل فى التفتيش كاتباً للشغالة بثلاثة جنيهات بدل الجنيه والنصف الذى لم يزل واقفاً منذ عشرين عاماً . والذى منذ عشرين عاماً أيضاً يكاد يقتلنى الخوف عليه أن ينقص ، أو يمسه القدر بسوء .

ـــ إنها أرزاق يا بلتاجى . .

ـــ ولكنها لم تكن عادلة يا آمنة . .

ـــ استغفر . استغفر يا شيخ . . لم يعد فى العمر بقية ، وكل ما يأتى به الله خير . .

فتمتم الرجل مستغفراً ، وهو يتناول قطعة من حافر الماعز ويلوكها

بين شدقيه . . وما إن استشعر لذتها حتى تطلق وجهه ، وارتسمت فرحة كبيرة فى عينيه وهو يأكل ويقول للصبي الذى يأكل معه صامتا : لو أنك كنت تحبنى حقًا لدعوت لى ربك أن يمد لى فى العمر ويبقى لعينى هذا البصيص من النور ، حتى أراك « خوجه » فى مدرسة قريتنا ترتدى الكاكولة والقفطان . . والجورب والحمالة الاستك . .

وكأن الصبى أراد أن يقول شيئاً يطمئنه به أوكأنه أراد أن يعده بتحقيق هذا الرجاء . ولكنه قبل أن ينطق كان باب الحجرة قد فتح وظهرت منه عصا الشيخ نوفل الطويلة ، وما إن تخطى العتبة وشم رائحة الكوارع حتى قال : مساء الخير يا بلتاجى . .

ثم هو لم ينتظر حتى يرد عليه الرجل تحيته بل واصل حديثه قائلا : كيف تأكلون الكوارع خلسة ، ولا تدعون إليها حبيبها المتغنى بها أثناء الليل وأطراف النهار . .

فقال الرجل ضاحكاً وهو يفسح له مكاناً بجواره : حماتك بتحبك يا نوفل . .

فقال الشيخ ممتعضاً وهو ما زال فى مكانه : أنزل الله عليها وابلا من غضبه . لا تذكرنى بها يا بلتاجى .

فقالت آمنة ضاحكة : يا شيخ ، لقد ماتت من خمسين عاماً ، حرام عليك ؟

فقال الشيخ وكأنه يدفع قوله بعصاه التى يدق بها الأرض : عشت معها خمس سنوات ، وماتت من خمسين سنة . ومع ذلك ظلت ذكراها السيئة يا آمنة تماماً كالعقرب يموت وذيله ما برح باقياً .

فقال بلتاجى وهو يكاد يستلقى من الضحك : حرام عليك .

ثم استطرد بعد أن فرغ من الضحك : اجلس . . اجلس .

فقال الشيخ جاداً : بل انهض أنت .

— خيراً ، لماذا ؟

— نذهب إلى بيت الأستاذ الشرنوبى ، لنودعه مع المودعين . سيرحل الليلة مع أسرته فى قطار الليل . .

وأحس الصبى فجأة بشىء من الخوف . وهو يسأل بدون وعى : الليلة ؟ وهل رجع من مصر ؟

فقال بلتاجى الذى كان يجهل كل شىء : تقصدون الأستاذ الناظر ؟

فقالت آمنة فى تحسر : نقلوه إلى مصر ، وحرمونا منه ومن أسرته وخلقها الطيب .

فقال بلتاجى فى حزن شديد وهو ينهض سريعاً : كيف حدث هذا؟ كيف نحرم منه ؟

فقال الشيخ نوفل وهو يخرج مع بلتاجى ويخترق معه ظلام الدهليز : إرادة الله يا بلتاجى .

— ولكن كيف حدث هذا يا نوفل ؟

فقال الشيخ ملتاعاً فى غم شديد : كما يحدث دائماً لهذه القرية المنكوبة يا بلتاجى . يمر عليها الخير ، ولكنه لا يلبث فيها .

وصمت الشيخان ، ولكن الصبى الذى كان يسير خلفهما فى الظلام قال متسائلا : وهل هناك قطار يذهب إلى مصر فى الليل ؟

فقال الشيخ نوفل وهو يتحسس عتبة الدهليز بعصاه : وحتى لو لم يكن يا بنى ، فثق أن الله يخلقه سريعاً ، ما دام فيه خير سيذهب عنا !

فقال بلتاجى : ولماذا يجزينا الله هذا الجزاء يا نوفل ؟

— من أعمالكم ساط عليكم !

ثم اقترب منه ومد شفتيه إلى أذنه وهو يهمس إليه فى الظلام : العمدة من ثلاثة أيام اشترى عشرة أفدنة. أضافها إلى الأربعين التى عنده ، وأمس وبعد أن بُحّ صوتى ، وجف لسانى وأنا أعدد أفضاله ومناقبه تصدق على بعظمة دجاجة .

فارتعش الصبي الذى كان يصغى إلى هذا الهمس ، وقال وهو يشد كم الشيخ وينظر إلى الحارة التى غصت بأهل القرية الذين جاءوا لتوديع الناظر : اسكت . العمدة أمامك .

وكاد الشيخ أن يسقط خوفاً وذعراً، لولا أن العمدة الذى لم يسمع شيئاً قال فى صوته الجهورى الذى يميز من بين مئات الأصوات : سلامات يا شيخ نوفل .

ــ سلمت ودمت وبوركت وعوفيت يا سيدنا وتاج راسنا .

ثم عمل بلسانه سريعاً بين شفتيه المضطربتين وقال : دائماً سباق إلى الخير ، ستحفظ لك القرية جميعها هذا الفضل الكبير ، فضل سعيك على قدميك لوداع رجل بار كالأستاذ الشرنوبى أبو إسماعيل .

وأقبل ذلك الجمع الكبير يتقدمه العمدة على بيت الناظر حتى غصت به مندرته الفسيحة ، فرحب بهم شاكراً لهم جميعاً هذا الفضل الكبير ، كما راح الجميع يثنون على مناقبه ويتحدثون عن أفضاله الكبيرة على النشء وعلى أهل القرية جميعاً . ثم وقف الأستاذ فتوح مدرس الخط بالمدرسة وألقى قصيدة عصماء عدد فيها مناقب الناظر ، ولم ينس أن يثنى فيها على العمدة أيضاً ويعدد مناقبه ويذكر أياديه البيضاء على القرية جميعها مما جعل العمدة يتيه عجباً وفخراً ، إلى أن اقتربت الساعة من الثانية عشرة ، فأقبل حنطور العمدة على الحارة ، لينقل الأسرة إلى محطة الدلتا فى القرية. أما الناظر فقد سار وسط الأهلين جميعاً الذين جاءوا لوداعه عن يمينه وشماله العمدة والشيخ مأذون الشرع ، والأسطى شلبى حلاق القرية ، ثم الأساتذة أهل العلم والفضل والأدب من المدرسين فى مدرسة القرية ، إلى أن بلغ الركب المحطة ، وجاء القطار الذى أقبل بشعاً كريهاً أشبه ما يكون بثعبان ضخم يزحف على بطنه فى الليل ، فاضطرب الصبى الذى كان وحده من دون المودعين جميعاً يقف واجماً فى ركن قصى خلف كشك المحطة ، ينظر ذات اليمين وذات الشمال ، يمد نظراته

فى وجوه الناس جميعاً ، ويشب على قدميه حيناً آخر ، وكأنه يريد أن يرى شخصاً معيناً . ولم يكد القطار يقف حتى لفظ خليطاً من الناس ، ثم ابتلع فى نفس السرعة خليطاً آخر ، وكان من بين الذين ابتلعهم الأستاذ الشرنوبى أبو إسماعيل ، والست صبرية زوجته ، وابنتهما الصغيرة سلوى .

وكما أقبل القطار بشعاً كريهاً يزحف على بطنه فى الليل ، ويرسل صفيره الذى يشبه عواء الكلاب الضالة ، انصرف أيضاً بشعاً كريهاً يزحف على بطنه فى الليل وهو ينعق كالبومة . ولم يدر الصبى لماذا تعلقت عيناه به ، وظلت معلقة فى أذياله حتى تلاشى ، وأصبح القطار الضخم فى عينيه أشبه بالذبابة التى تنتابها فى الليل عاصفة هوجاء ، فوقف صامتاً وكأنه يتأمل التحول السريع فى كل شىء ، فى الأيام والزمن ، والإنسان والجماد ، والضحك والبكاء ، والقرب والبعد ، وليالى اللعب الهنيئة ، وساعات الجد القاسية .

ولم يخرج عن هذا التأمل أو هذا الجمود الذى أطبق عليه إلا بعد أن رفع عينيه المبتلتين بالدموع فرأى ساحة المحطة التى كانت تغص بجموع المودعين موحشة خالية إلا من « غنيم » خفير المحطة الذى أحزنه هو الآخر هذا الفراق ، فأقبل من عند الصهريج بعد أن أقفل الطريق وراء القطار وأعاد التحويلة بالخطر ، وهو يردد مغنياً فى الليل بصوت موحش حزين استمع إليه الصبى ، ووقف يصغى إليه جيداً والدموع تتساقط من عينيه :

زعق الوابور ، على السفر قلت رايحين فين
رايحين تغيبوا سنه ولا تغيبوا اتنين
ياللى ملكتوا الفؤاد يا كحله جوه العين

..

٥

لم تكن حياة الصبي فى المعهد شقاء كلها ، ولم تكن بؤساً كلها ، وإنما تخللتها لحظات كثيرة من السعادة ، غمرته وفاضت عليه ، وأنسته كل شيء دونها . هذه اللحظات هي لحظات نجاحه المطرد وقدرته الدائمة على الدرس والتحصيل . ولذلك كان لتفوقه فى العام الأول الأثر الكبير فى حياته ، وفى نفسيته ، وفى مشاعره نحو نفسه ونحو الآخرين ، فقد تغيرت نظرته لكل شيء حتى نحو نفسه ، فكلمة الصبي أصبحت فى خبر كان ، وحلت محلها كلمة « الشيخ » ، الشيخ إمام ذهب والشيخ إمام جاء . وساعده على ذلك بسطة فى الجسم وهبها الله له ، حتى إنه سبق سنه بسنوات ، وغدا فارع الطول ، عريض المنكبين ، قوى البنية ، ضخماً عملاقاً ، كما وهبه الله أيضاً جمالا فى الوجه ، وصفاء فى العين حتى خافت عليه أمه ، وراحت تحمله ما لا يطيق من الأحجبة والتعاويذ التى تقيه شر العين .

وراح يقضى أيام الإجازات فى القرية ، لا كما كان يقضيها فيما مضى يلعب فى الجرن «الاستغماية» و«جمال المالح» و«حلقة ومضرب» ، أو يسرق البيض من أمه ويشترى بثمنه الحلاوة الطحينية لتأكلها سلوى ، أو يقود الشيخ نوفل فى ليالى رمضان ويطوف معه على الأبواب مستجدياً الصدقة ، وإنما كان يقضى أيامه فى القرية ، إما فى المسجد يصلى ويتعبد ، أو فى المدرسة يتحدث إلى أساتذتها الذين سوف يكون معهم فى القريب العاجل ، ويتفقد بعض الفصول . ويصغى إلى الأساتذة وهم يلقون دروسهم على الطلاب ، أو يذهب إلى كتاب الشيخ عليش الذى قضى فيه زمناً وتعلم فيه أحرف الهجاء ، وأحياناً كان يجلس فى الكتاب بدل الشيخ عليش ويلقى هو الدرس على الصبية ، أو يذهب إلى المسجد ويؤذن فى الناس بدل الشيخ نوفل ، حتى إذا ما انقضت أيام الإجازة وعاد الشيخ إمام إلى المعهد ، ترك فراغاً كبيراً فى كل أنحاء القرية ،

وفى المدرسة ، وفى الكتاب ، وفى المسجد ، وفى قلب أمه التى كانت تغمر الفرحة قلبها كلما رأته مقبلا على الحارة يخب فى الكاكولة الكشمير والحذاء الأصفر الفاقع ، وفى قلب والده الذى كلما رآه وكان متعباً مكدوداً ويعانى مرض الشيخوخة التى داهمته سريعاً ، سعد وابتهج ، وشفى من كل أمراضه . وظل الصبى أو الشيخ إمام هكذا من نجاح إلى نجاح حتى جاء يوم الفصل وهو امتحان المعهد الأخير الذى سينال فيه الشيخ تجهيزية الأزهر وينتقل بعدها إلى القاهرة .. وكان نصيب الشيخ أكثر مما كان ينتظر وأكثر مما كان يتمنى . .

لقد نجح بتفوق كبير ، من الخمسة الأوائل الذين من حقهم على الدولة أن يدخلوا معاهدها الكبيرة ويتعلموا فيها بالمجان ، ولم تكن فرحة إمام بهذا النجاح العظيم من أجل نفسه ، ولا من أجل مستقبله الذى تحدد ، وإنما من أجل أبيه الذى حقق له بعض آماله . . وحقق له مع هذا النجاح أشياء أخرى لا تقل أهمية عن النجاح نفسه ، وهى أن الدولة سوف تتكفل به ، وسوف تريح والده من عناء كان لا بد مجهده إذا ما ذهب إلى القاهرة واحتاج إلى نفقات العلم بجانب نفقات الحياة . لذلك ما إن علم بهذه النتيجة السارة حتى رجع إلى القرية سريعاً تسبقه أشياء كثيرة . . كثيرة جداً يريد أن يزفها لأبيه ، بيد أن الله الذى يرأف بالصالحين من عباده ويهيئ لهم من أسباب النجاح والهناء والسعادة أكثر مما يقدرون ، يعود لحكمة يعرفها فيقسو عليهم ويصيبهم بدون أن ينتظروا بشقاء ليس من سبيل إلى احتماله ، وليس من سبيل أيضاً إلى الصبر عليه .

فقد رجع الفتى إلى القرية عصر ذلك اليوم فرحاً مسروراً . . وما إن أقبل على الحارة تسبقه هذه الفرحة الغامرة ، حتى استوقفته الحاجة مقبولة وقالت له وهى تذب بمذبتها اللوف أسراب الذباب المتجمعة فى قلب صندوقها الفارغ وبصوت يذوب أسى ولوعة وحزناً : كن لأمك المسكينة عوضاً لها عن أبيك . ومن أنجبك يا بنى لم يمت . .

الشباب



٦

قال خاله لأمه ، بعد أن شيعوا جثة والده وعادوا إلى البيت : إن عليك أن تخلى حجرتك فى الدهليز يا آمنة ليقطنها الخولى الجديد .

فامتقع وجه آمنة ، قالت وهى تمسح بعض الدموع التى على خديها : أهكذا سريعاً يا عبد العزيز ؟

— إنه سكن الخولى يا آمنة . . وقال لى الناظر اليوم ، ونحن نشيع الجنازة ، إن خولياً جديداً قد عين خلفاً للمرحوم .

— لعلهم كانوا ينتظرون موته .

نطقتها آمنة وهى تغمض عينيها الدامعتين . . ثم عادت وفتحتهما وقالت وهى تنظر إلى الأرض، وكأنها تبحث عن شىء عند قدميها : ولكن أين أقيم وأنا مريضة كما ترى ؟

فصمت شقيقها لحظة ، ثم تمتم وكأنه ينتزع الكلمات انتزاعاً من بين شفتيه : فى بيتى يا آمنة .

فاضطربت فى خوف شديد وقالت : فى بيتك ؟

— أجل . . ألست شقيقك ؟ . . وبيتى هو بيتك يا آمنة . . .

فنكست آمنة رأسها وقالت وما زال الخوف يلازمها : أبعد أن حرمت عليك زوجك حتى زيارة القرية التى أنا فيها ، تعود وتقبلنى فى بيتها ؟

ولم يسمع إمام بقية الحديث الذى دار بين خاله وأمه ، أو بين الشقيقين . . لأن الدموع كانت قد غمرت عينيه .

وأحس بالدموع تطمس المرئيات جميعاً فى عينيه ، وتحيلها خيالات متعددة تتراقص أمامه . . جثة أبيه مسجاة على خشبة كبيرة والماء يصب عليها . . ثوب أبيض تلف فيه الجثة . . حفرة كبيرة فى قبر مهجور . . كومة من التراب تنهال . . امرأة تلطم خديها . . امرأة تشق ثوبها . .

وجه المرأة يغبر ويكتئب حتى يصبح كقطعة من الفحم . . نفس الوجه يمتقع ويصفر ويكتنفه الشحوب حتى يصبح كالرقعة الصفراء الفاقع لونها . . بيت سيخلى . . غرفة عزيزة ستهجر . . صبى يلعب فى الجرن . . شيخ يرتدى الكاكولة والعمامة البيضاء .. المعهد . . تجهيزية الأزهر . . القاهرة وسنوات التخصص . . خبز . . نقود . . جوع . . دموع تنساب . . أرض تدور .. رأس يكاد يتحطم ، ثم شىء ثقيل يسقط على الأرض لم يفطن إليه أحد . . لحظات تمر . . باب يفتح . . أم تدخل . . يد رحيمة تمتد . . صدر خافق يحنو . . قلب حنون يتفتح . . أحضان ترتجف . . ذراع ترتعش تنهضه . . تحنو عليه . . وثغر كأنه الدنيا يغمر وجهه بالقبلات . .

٧

ومرت بعد ذلك أيام كان لا بد لها أن تمر . . وحدثت خلالها أحداث كان لا بد لها أن تحدث . انتقلت آمنة إلى دار عبد العزيز ، وعاشت هناك تستجدى اللقمة وتنتظرها من يد المرأة التى تبغضها وتحقد عليها وتريها صنوف الهوان ألواناً .

وذهب الشاب إلى القاهرة الواسعة التى بهرته طلعتها ، وأقلقته الحياة فيها . فراح يهيم على وجهه فى الطرقات طول النهار وأغلب الليل . يقطع الأزقة ، ويجوس خلال الدروب والحارات لعله يظفر بغرفة متواضعة بأجر زهيد يمكنه سداده .

كان كل الذى يحمله فى جيبه تميمة أعطته أمه إياها وقالت له إن أباه كان يحملها لتوسع له الرزق . . وتجلب له الخير وتهيئ له من أمره رشداً . وخطاب أملته عليه أمه ، وأملاه عليه أيضاً الشيخ نوفل وذيله بسطرين من عنده الشيخ بسيونى مأذون الشرع . . يرجون فيه رجل البر

والتقوى والصلاح والعلم الشيخ الشرنوبى أبو إسماعيل . الذى ما زالت القرية تذكر أيامه بالخير . . يرجونه خيراً بالشاب ، ويوصونه أن يكون له عوناً إذا احتاج إلى العون ، وأن يكون له فى غربته نصيراً إذا عز النصير . ويحمل الفتى مع ذلك أيضاً ثلاثة جنيهات . . بعضها تصدق به عليه خاله من وراء زوجته ، وبعضها كان ثمن الخلخال الذى باعته أمه، وبعضها الآخر كان يملكها من قبل . وثلاثة جنيهات ثروة كبيرة من غير شك . . ولها فى حساب الفتى شأن أى شأن ، ولها أيضاً فى تقديره قيمة كبيرة يشكر الله عليها ويحمده إذ أتاحها له . ولكن أليست الأيام هى الأخرى لها عنده كل هذا الشأن ، ولها فى تقديره كل هذه القيمة ؟ هل يتاح له أن يظفر بمثل هذا المبلغ مرة أخرى ؟ وهل يتصدق خاله عليه بشيء مرة ثانية ؟ وهل تجد له أمه خلخالا آخر تبيعه ؟

كان التفكير فى هذا يرهقه إرهاقاً شديداً ويسبب له قلقاً إذا أمسى ، ويسبب له قلقاً إذا أصبح . . واضطر مرغماً كل يوم أن يدفع خمسة القروش أجر نومه فى لوكاندة المدينة المنورة الكائنة خلف مسجد سيدنا الحسين . أما ما عدا ذلك كله فهو عنده ميسور وميسر . . فالطعام قد دبر الله له أمره . . إذ صنعت له أمه «قفة» كبيرة ملأتها « بالمرحرح» : وهو خبز من الحلبة والشعير وبعض الذرة . . علم الفقر أهل الريف كيف يصنعونه بطريقة فنية ماهرة تجعله يعمر طويلا بدون أن يلحق به عطب فيتغير طعمه ، وهو عدا ذلك يمتاز بأنه رقيق جداً بحيث تسع القفة الواحدة زاداً كثيراً يكفى الشاب عدة أشهر . . يقضى الله بعدها أمراً كان مفعولا . وكذلك أيضاً يسر الله له أمر ملابسه ، فالكاكولا الكشمير التى كان أبوه رحمه الله قد صنعها له ما زالت زاهية اللون ، تحتفظ بجدتها ، ولا يهمه بعد ذلك ما يرتديه تحتها من ثياب ، سواء أكانت جديدة أم قديمة . . مرتقة أم غير مرتقة .

وظل الفتى كذلك عدة أيام يطوف بالحارات والأزقة فى النهار يبحث

عن غرفة يقيم فيها بأجر متواضع يستطيع أداءه ؛ فإذا جاء الليل وذهب إلى لوكاندة المدينة المنورة لينام ويستريح من عناء النهار خاصم النوم عينيه ، كلما تذكر خمسة القروش التي سيدفعها في الصباح أجراً للوكاندة . بيد أن لكل شيء نهاية ، وكما قالت له أمه إن عين الله ساهرة ، وإنه من وراء الخلق ييسر لهم أمورهم ، ويفرج لهم كروبهم ، وإن الأمور إذا تعقدت كان هذا إيذاناً بحلها . . فقد بعث الله قلباً حنوناً أشفق عليه ورثى لحاله ، هو قلب محمدين خادم اللوكاندة الذى هداه إلى غرفة يسكنها بأجر زهيد يقدر على أدائه .

كانت الغرفة التي اهتدى إليها ، في بيت قديم في زقاق الجناينية المتفرع من حارة درب المسرات . في حي حوش الشرقاوى بباب الخلق . . خلف ديوان المحافظة ، تملكه الست شفعات الحربوطلي الشهيرة بالمعلمة. وقد لاقى الشاب عناء كبيراً حتى اهتدى إلى هذا البيت الذى كتب له عنوانه محمدين . . لأنك لكي تبلغ هذا البيت يتحتم عليك أن تصعد عشر درجات من الحجر القديم المتآكل تغمرها المياه القذرة صيفاً وشتاء ، وتعرف في الحى إلى الآن بـ « سلالم السبيل » ، ثم تنحدر منها يميناً إلى حارة درب المسرات ، وتسير شوطاً كبيراً وسط عدة أبنية متلاصقة ، حتى إن شرفاتها المصنوعة من خشب البغدادلى على الطراز العربي القديم المعروف « بالمشربيات » تكاد تكون متصلة ، ولا بد أن تجد أمام كل شرفة صنفاً من القلل القناوى ذات الألوان المختلفة ، والأغطية النحاسية . . وعليك أن تسير في هذا الزقاق الذى يمتاز بطول غريب جداً حتى تقطعه إلى نهايته . . وعند ذلك تبلغ « السيرجة » المعروفة في الحى بـ « سيرجة المعلمة » ، فتملأ أنفك رائحة الزيت والكسب والبذور العفنة . . فتسترد أنفاسك لأنك تكون قد بلغت البيت ، وطالعك بابه الفولاذى الضخم الذى انتصب بين بعض الأقبية المهجورة والجدران المهدمة أشبه بتمثال ضخم قام بين الأطلال من عدة قرون .

كان الباب من السمك والضخامة بحيث لايمكن زحزحته أو تحريكه.. تزين جوانبه بعض نقوش نحاسية قديمة أكل الصدأ بعضها وبقى بعضها الآخر يغالب الزمن ، ويتوسطه باب آخر صغير ذو « سقاطة » حديدية ضخمة ، ما إن ترفعها بيديك حتى تسمع صوتاً مزعجاً بالداخل أشبه بأصوات الأوانى النحاسية عندما تسقط على الأرض ، فتنزعج وتخاف . . بيد أن هذا الخوف يزول عندما تتبين أنه صوت الجنزير الطويل المعلق فى طرف السقاطة من الداخل . ثم بعد ذلك ينفتح الباب ، أو بمعنى أصح تنفتح الخوخة ، فتحنى رأسك ، وتقوس ظهرك لتدلف منه ، فإذا أنت أمام دهليز فسيح ، ولكنه رطب مظلم ، لا تستطيع من الظلام أن تتبين بسهولة محتوياته ، أو ترى ما يشبه الأشباح تطالعك فى الظلام منتصبة على جوانبه، فإذا ما تبينتها جلياً عرفت أنها أبواب الغرف الثلاث التى يتكون منها البيت ، أو بمعنى آخر هى التى يتكون منها نصف البيت فقط . لأن النصف الآخر ، وهو الذى فى مواجهة الداخل ، قبو كبير تتوسطه السيرجة ، وهى عبارة عن بئر فوقها حجر ضخم فى وسطه دائرة كبيرة كدائرة الساقية يدور فيها حمار خلفه متاعبه وشقاؤه .

ثم بجانب مدخل السيرجة ، وعلى يمين الدهليز ، نصف برميل قديم امتلأ بالماء الآسن القذر ، تعلوه طبقة خضراء لزجة ، تتصاعد منها رائحة كريهة ، تشبه رائحة الكسب والبذور العفنة التى تتصاعد من السيرجة . وعلى رأس نصف البرميل ، حنفية صغيرة تتساقط منها بعض نقاط الماء فى هدوء حزين كما تتساقط فى الليل دموع الثكالى . أما الغرف الثلاث فكانت إحداها — وهى على يمين الداخل مباشرة خلف الخوخة — ذات باب نظيف يميل لونه إلى البياض ، يعلوه شباك زجاجى مختلفة ألوانه . وكانت هذه الغرفة تمتاز عن غيرها بسرير كبير من النحاس قام فى وسطها كالتختروان ، تزينه ملاءة محلاوى ذات مربعات بيضاء وحمراء ، وتعلوه ناموسية من التل اليمبى انعقدت فى قلبه فغدت كالقبة

المنقلبة فى الهواء . ويمتاز هذا السرير أيضاً بعلو غريب ، بحيث لا يمكنك اعتلاء سطحه إلا بواسطة سلم دائرى وضع أمامه ، وحليت درجاته الثلاث المبطنة بالقطن والحرير بغطاء من القطيفة الخضراء الباهتة ، وحول كل درجة من الدرجات الثلاث برقع من القطيفة أيضاً تتدلى منه عدة شراريب ذات ألوان متعددة .. ويقابل السرير « بوريه » كبير وضع خلف باب لم يستعمل ، كان فيما مضى يوصل إلى الغرفة الثانية التى تلى هذه الغرفة مباشرة ، وهى الغرفة التى قطن فيها الشاب . و« البوريه » يكاد هو الآخر يكون فى ضخامة السرير له عدة أدراج وخزانة كبيرة ، وفوقه تحت المرآة رخامة كبيرة زرقاء تكسرت منذ سنوات ، وقد امتلأ قلبه بعلب العقاب الفارغة والإبر والدبابيس القديمة وعدة قطع من الفاسوخ والحاوى وعين العفريت . وبذور الكسبرة والشيح . . وقد تلوث هذا كله بسائل الشمع مما يدل على قدمه ، حتى غدا منظره قذراً مشوهاً . وبجوار الشمعدان قلة بيضاء من الزجاج عليها باقة من الورد الصناعى الذى بليت أوراقه . وتآكل بعضها ولوث الذباب بعضها الآخر ، وحول عنق القلة عدة حبال رفيعة من الخرز الأبيض والأصفر والأحمر ، علقت بها عدة حاقات نحاسية ، ونصف مفتاح حديد قديم ، وحجاب مغلف تغليفاً جيداً . ثم بجوار القلة كوز نحاسى ، تزينه عدة نقوش عربية قديمة ، وضعت عليه قطعة من اللوف ، وصابونة حمراء ممسكة ، وبجانبه مكحلة ذات مرود نحاسى منقوشة ببعض النقوش العربية المرسومة على الكوز . .

هذه الغرفة تقطن فيها المعلمة شفعات ، صاحبة البيت والسيرجة ، وهى امرأة فى منتصف العقد الرابع ، ذات جمال أخاذ تبهر العين طلعته ، وقوام سمهرى ممشوق عرفت كيف تغذيه وتتعهده ، فغدا كالفرع المياد الذى يتهادى مع النسيم ، ووجه يفيض بالبشر ، يعلوه جبين وضاح يشبه فلق الصبح ، تزينه دائماً قصة من الشعر الفاحم يتوسطها فرق

صغير انطبع على الجبين كالهلال الوليد ، وفوق هذا كله منديلها المطرز بالترتر وخرج النجف ، وزهور القرنفل البيضاء ، انعقد حول رأسها ، وتدلت أطرافه بين المقصوص الطويل المنساب حول الأذن التى يزينها قرط ذهبى كبير على هيئة نصف دائرة ، يروح ويجىء على الكتف المرمرية البيضاء ، التى حجبتها ملاءة سوداء رقيقة من الحرير الخفيف الرقيق الملمس عرفت كيف تحكمها فى مهارة فائقة حول جسدها ، وتضغط نسجها الرقيق على قوامها الفارع وقدها الممشوق ، بحيث فصلته تفصيلا وأبرزت محاسنه وجعلت كنوزه تتوهج نوراً فى عينيك ، تماماً كما تتوهج كنوز الماس والجواهر فى قلب فترينة من زجاج . .

وهى امرأة عصبية المزاج جداً ، شرسة الطباع إلى حد كبير ، فإذا ثارت أو غضبت أو عكر صفوها ، ينقلب هذا الجمال كله ، وهذه الفتنة التى لا حد لها ، وهذا الخفر والحياء الذى يشبه حياء العذارى وخفرهن إلى عنف وقسوة ووحشية . . مما جعل سكان الحارة والحى كله يخافونها ويخشونها ويعملون لها ألف حساب وحساب . ولذلك فالقول ما قالت المعلمة ، والأمر ما أمرت به المعلمة . وقد ساعدها هذا بعد أن مات زوجها من سنين وأشرفت هى على الثروة التى تركها لها : البيت والسرجة وثلاثة دكاكين فى حارة السطوحى ، وحوش فى درب سعادة — ساعدها على أن تدير هذا كله بنفسها بدون أن تفكر فى الزواج ، أو فى أحد يساعدها فى الإشراف على السرجة إلا الأستاذ حسبو ، وهو الذى يقطن فى الغرفة الثالثة من الدهليز الذى يقع بجانب السرجة تماماً ، وحسبو هذا أو الأستاذ حسبو ، كما كان يصر على أن يسمى نفسه ، كهل فى الستين من عمره ، برغم أنه كان يصر على أنه مازال فى دور الشباب المكتمل والرجولة الناضجة ، وكان منظره يبعث على الغرابة والدهشة بحيث يلفت نظرك بمجرد أن تراه ، وتقف عيناك عليه لا تتحولان ، فهو يرتدى بذلة لا يعرف لها عمر ولا لون ولا طراز . . فهى عدة ألوان ،

إذ كلما تآكل جانب منها رتقه بلون جديد . . وهو يرتدى دائماً ياقة منشاة عالية من الطراز القديم ورباط رقبة ، تآكلت أطرافه حتى بلغ التآكل عقدة الرقبة ، وصديرى من الحرير الألاجه ، زى أصحاب اليسار فى الزمن القديم ، وقد بلى هذا الصديرى أيضاً وتمزق وتآكل حتى لم يبق منه سوى أزراره الصدفية الغالية التى تدل على أصله وترمز إلى مجده القديم . ويضع على عينيه دائماً منظاراً سميكاً ذا أسلاك نحاسية صدئة قد تلوث زجاجه الأبيض وتشقق بحيث إنك لا تستطيع أن ترى من خلفه شيئاً . وهو برغم نحافته وضموره وشحوب لون وجهه الدائم الذى يشبه وجوه الأموات يتمتع بحيوية غريبة ونشاط دائم ، ونفس صافية مستبشرة دائماً يضحك ولا يعبس أبداً ، ويرسل الفكاهة تلو الفكاهة ، والنكتة تلو النكتة ، حتى ليجعلك تستلقى من الضحك .

وكان لا يبالى إذا واتته النكتة أن يلقى بها ولو كان فى حضرة النساء مهما كان مرماها . وهو يشغل فى الحى عدة وظائف غير وظيفته الأصلية وهى إدارة السرجة ، وإدارة أعمال المعلمة جميعاً والإشراف عليها ، فهو « عرضحالجى» الحى ، ويعد نفسه من أشهر رجال القانون ، وقد كتب لافتة كبيرة يعلقها فى الليل على باب غرفته فى الدهليز ، ويعلقها فى النهار على الحائط فى الحارة حيث يجلس إلى « ترابيزته » الخشبية ، وقد كتب عليها بخط بارز واضح « الأستاذ حسبو القط خبير بشئون المحاكم الأهلية والشرعية وجميع القوانين على اختلاف أنواعها ، وباشكاتب محكمة سابق ، ووكيل محام سابق ، وعضو نقابة وكلاء المحامين سابقاً» . وقد اتخذ له مكتباً على رأس الزقاق عند أول حارة السطوحى ، حيث يجلس على الطريق بجانب الحائط إلى « ترابيزة» خشبية قديمة عليها محبرة نحاسية مستطيلة صفراء اللون يضع فى قلبها عدة أقلام من البسط ، وبعض بقايا من أقلام الرصاص وفى طرفها فجوة بداخلها قطعة من القماش مبللة بالحبر الأزرق الذى يميل إلى السواد ، وبجانبها بعض

العرائض البيضاء . وهو يعتز جداً بهذه المحبرة النحاسية التي لها عنده تاريخ قديم معروف فهي المحبرة التي كان نابليون يوقع منها أوامره اليومية إلى جيشه أيام احتلاله قاهرة المعز ، ثم آلت من بعده إلى قائده العظيم كليبر ، ثم بعد قتل كليبر اغتصبها بعض الفرنجة الذين استوطنوا مصر بعد جلاء الفرنسيين ، ثم انتهت فى النهاية إلى جده الثانى ، أى جد الأستاذ حسبو الذى كان يشغل وظيفة مهمندار السلطنة ، وظلت فى حوزته إلى أن ورثها هو . وكان يجلس إلى مكتبه هذا طوال اليوم ، ومن حوله بعض النسوة يستشرنه فى شئونهن ، وحل مشاكلهن ، وهو بدرايته الواسعة ، يصرف لهن الأمور ، ويحل لهن المشكلات العائلية أو يعقدها ، حسب ما فيه مصلحة موكلته من حيث الطلاق ، أو النفقة ، أو الطاعة أو الزواج .

وكان للأستاذ حسبو وظيفة ثالثة أهم بكثير من هذا كله هى كتابة رسائل الغرام للعشاق والمحبين ، وقد برع فى هذا براعة فائقة ، حتى اشتهر فى الحى بذلك ، وصارت له سمعة واسعة ، ومقدرة لا تدانيها مقدرة — فرسالة واحدة من رسائل العشق والهيام يدبجها بيراعه يكون لها فعل السحر ، بحيث يلين الحجر ، ويذيب الحديد ، ويجعل الحبيب القاسى القلب يخر ساجداً عند قدمى المحب من أول سطر ، إن لم يكن من أول كلمة ، ولذلك فهو كل ليلة ، وبعد صلاة العشاء بالذات ، لا بد أن يكون فى مكتبه على رأس الحارة ، حيث توافيه خلسة بعض بنات الحى ، ونسائه ، وشبابه ، هذا يكتب للمحبوب يستجدى الوفاء ويرجو اللقاء ، ولو مرة عند سلالم السبيل ، وتلك تصف لزوجها الغائب كيف أضناها الشوق ، وطال بها البعاد ، وهذه الحبيبة تصف للحبيب كيف كانت فرحة اللقاء ، ولذة العناق ، وسعادة القلب عندما وافاها الحبيب فى الظلام خلف السرجة . وهو يعتز بمقدرته هذه الفائقة فى تدبيج الرسائل ، ولا يسمح لأحد أن يعارضه فى لفظ ، أو يعترض على معنى . . ومن

يفعل فالويل له . وقد حدث ذات مرة أنه كان يقرأ رسالة غرامية كتبها لخادمة جميلة لتبعث بها إلى الحبيب المتجنى عسى أن يلين قلبه ، وراح الأستاذ حسبو يقرأ عليها بصوت منغم ما جادت به قريحته وما دبجه يراعه .

« أبعث إليك مع الليل سلامى، وأبثك مع انفجر هيامى ، وأرسل إليك مع النسيم كتاب غرامى ، كتبته وأنا على الجمر أتقلب ، وفى نار الحب أتعذب ، وفى جحيم الشوق غارقة ، وإلى طلعتك البهية وامقة » . . .

وعند ذلك استوقفته الفتاة وسألته قائلة : وامقة يعنى إيه يا أستاذ ؟

فثار الأستاذ حسبو لهذه المقاطعة وهذا السؤال ، وغضب غضباً شديداً حتى كاد يمزق الرسالة ، لولا أن الفتاة اعتذرت له ، واسترضته ، وقدمت له القروش الخمسة ، وهى الثمن الذى حدده لكل رسالة غرامية يكتبها . فهدأت ثائرته ، وعلت ثغره ابتسامة وهو يتناول منها القروش الخمسة .. ويخرج لها الرسالة من درج « الترابيزة » الذى كان قد أعاده إليه ، كما أخرج زجاجة الخمر وشرب منها قليلا ، ثم أخرج أيضاً كتاباً قديماً بالياً أصفر الصفحات ، كتب على غلافه السميك « جنة الأشواق فى رسائل العشاق لمؤلفه أمير المحبين وحبر العاشقين سيدنا عبد الله بن القيروان . . طيب الله ثراه . . وجعل الجنة مثواه ، ونفع المحبين بذكراه » .

وبعد أن راجع الفهرس طويلا فتح الكتاب على صفحة بعينها ، كتب على رأسها العبارة التالية « بين الأحبة والأحباب فى رسائل الهجر والعتاب » ، وراح يقرأ فى سره قليلا فى هذا الباب حتى وصل إلى كلمة « وامق » فراح يقرأ شرحها على الفتاة : « وامق بمعنى عاشق أى مشتقة من العشق كما يشتق العاشق من المعشوق . والله أعلم » .

٨

ذهب الشاب إمام كما قال له محمدين إلى حارة السطوحي وانحدر منها إلى زقاق درب المسرات ، وسر سروراً كبيراً عندما عرف من صبي صغير كان يلعب أمام البيت أن الغرفة الخالية فى منزل « المعلمة » ما زالت خالية ، ولم تؤجر بعد . وكان الصبي الصغير أطيب خلقاً مما كان ينتظر الشاب . لأنه ذهب معه إلى حيث يجلس الأستاذ حسبو وكيل المعلمة .

وتقدم الشاب من الأستاذ حسبو فى خطى وئيدة وبسمل وحوقل كعادته كلما هم بأمر ، ثم ألقى عليه السلام ، فرد الأستاذ حسبو التحية ، ولكن بدون أن ينظر إليه ، فقد كان منهمكا فى تدبيج عريضة دعوى طلاق . فقال الشاب : أريد أن أستأجر الغرفة الخالية عندك فى البيت . .

عند ذلك رفع الأستاذ حسبو رأسه ونظر إلى الشاب وتفحصه جيداً من خلف منظاره السميك الملوث ثم قال : اسمك ؟

— إمام بلتاجى حسنين ، من البتانون مركز المنوفية .

— صنعتك ؟

— طالب علم .

فعاود الأستاذ حسبو النظر إليه وقال ساخراً : كل هذا الجسم الطويل العريض ، وطالب علم ؟

فصمت الشاب فى خجل ولم يجب . فقال الأستاذ حسبو فى السخرية نفسها : وطالب علم فى أى كتاب يا أستاذ إمام .

— فى الأزهر الشريف .

فصمت الأستاذ حسبو لحظات مد خلالها يده إلى حقيبته الجلد ، وأخرج زجاجة الخمر وأفرغ منها شيئاً فى جوفه . ولما لاحظ أن شيئاً من الامتعاض ارتسم على وجه الشاب ، قال وهو يعيد الزجاجة إلى

مكانها ، وما زالت شفتاه ترتعشان تقززاً من طعم الخمر الرخيصة ومذاقها المر : دواء . . . دواء يا بنى .

ثم مسح على شفتيه وقال وهو ينظر إلى الشاب : هل تعرف الماكينة التى تدار بالسولار . أى بالغاز القذر ؟

فاندهش الشاب لهذا السؤال الغريب وقال : أجل أعرفها .

ــ أنا مثلها تماماً . . هى لا تدور إلا بالغاز الوسخ . . وأنا أيضاً لا أسير إلا بهذا الدواء الوسخ . .

قال ذلك واستلقى ضاحكاً فى قهقهة كبيرة ، فجاراه الشاب فى الضحك تأدباً . . بيد أنه اعتدل فجأة وقال جاداً وهو يعاود النظر إليه وكأنه يراه لأول مرة : قلت لى إنك مجاور فى الأزهر ، وإنك تريد أن تستأجر الغرفة . . فهل عرفت قيمة إيجارها ؟ .

فقال الشاب : مهما كانت فهى مقبولة منك .

فقال الأستاذ حسبو وهو ينظر إليه وكأنه يسدى إليه نصيحة : هذا كلام فارغ . القربة لا تخرّ إلا على رأس من يحملها ، والنار لا تحرق إلا من يمسكها ، وأنت الذى ستدفع ، فهل تقدر على دفع ثلاثين قرشاً لا تنقص دانقاً ؟

فقال الشاب على الفور فرحا كأنه ظفر بكنز : أقدر .

ــ وتدفعها مقدماً ؟

ــ مقدماً . .

ــ وبصفة دائمة ؟

ــ دائمة .

ــ وبلا إبطاء أو إهمال أو تأخير ؟

ــ وبلا إبطاء أو إهمال أو تأخير . .

ــ وألا تراوغ فى الدفع بحجة المرض ، أو ضيق ذات اليد أو

سرقة نقودك ، أو فقد بعض الأهل أو الصحاب ، كما يفعل الطلبة أمثالك ؟

ــ أبداً . . أبداً . . إنى لست من هؤلاء .

فقال الأستاذ حسبو مبتسماً وهو يرفع منظاره من على عينيه وينفخ فيه ويمسحه بخرقة كانت بجانب المحبرة النحاسية ملوثة بالحبر : ومن الذى يضمنك . يا سيد إمام بلتاجى حسنين ؟

فأرتج الأمر على الشاب وصمت حيناً . ثم قال متلعثماً فى خوف شديد : ليس لى غير الله . .

ــ ونعم بالله .

نطقها الأستاذ حسبو فى إيمان زائد وهو يفتح الدرج ويخرج منه عقداً مطبوعاً ويقول : وحتى إن لم تدفع يا بنى بعد هذا . فسوف أتكفل أنا بالسداد عنك .

٩

كانت فرحة الشاب بهذه الغرفة التى ظفر بها ، وبهذا الإيجار القليل الذى لم يكن ينتظره ، وبصداقته التى توطدت من أول لقاء بالأستاذ حسبو ، فرحة كبيرة أنسته كل متاعبه التى عاش فيها منذ أن هبط القاهرة ، ولذلك ذهب من فوره إلى محمدين فى لوكاندة المدينة المنورة ، وشكره على هذا الجميل الذى لن ينساه ، وأعطاه خمسة قروش نظير هذه الحسنة التى أسداها إليه ، ونظير أن ينقل له القفة وبعض متاعه الآخر إلى هناك . كما استطاع الشاب ــ وبواسطة محمدين أيضاً ــ أن يحصل على سرير ينام عليه بأجر زهيد جداً من مخلفات أسرة اللوكاندة هو عبارة عن حمارين من الخشب تنقلهما كما تشاء ، وتضعهما فى أى مكان تشاء ، وفوقهما شبكة من الأسلاك « سكونه » تعلوها مرتبة عبارة عن

كيس فارغ من أكياس القطن محشو بالقطن ، وفوقها ملاءة محلاوى نصف عمر ، وبطانية صوف خشنة من مخلفات الجيش البريطانى . وقد نقل له محمدين كل هذا إلى السكن الجديد . . وما إن أقبل المغرب حتى كان الشاب فى غرفته مبتهجاً كل الابتهاج ، ينظفها ، ويرتبها ترتيباً جميلا . ثم بعد أن اطمأن إليها وإلى ترتيبها ، ووضع الكاكولة على المسمار الذى أعده لها فى الحائط ، ووضع العمامة فى السفط الذى أعده لها وغلفه جيداً بالورق السميك حتى لا تنفذ إليها الصراصير ، ارتدى جلبابه ، ووضع القبقاب فى قدميه وانصرف إلى باب الخلق يتريض وينظر إلى القاهرة لأول مرة وإلى الناس والأجناس الذين يروحون ويجيئون أمامه . وظل كذلك إلى أن أحس بالجوع ، وفكر أن يعود إلى بيته لتناول العشاء ، ولكن رائحة السمك المشوى التى تنفذ إلى خياشيمه من سماك الملوك الذى فى الميدان جعلته يقف ليفكر قليلا .

ثم انتهى به التفكير إلى أن يأكل سمكاً هذه الليلة ، فاشترى ربع رطل بقرش ونصف ، كما ذهب إلى طرشجى الأمراء الذى بجانبه واشترى مخللا بنصف قرش ، ومن ثم ذهب إلى غرفته وهو يحمل نعيم الدنيا جميعاً بين يديه . وما إن بلغ الغرفة ، وأشعل مصباحها الزجاجى ، الذى صنع له برنيطة من الورق المقوى حتى يحتبس نوره ويتركز فى مكان واحد هو الذى يذاكر فيه ، ووضع كومة السمك الصغيرة أمامه . وما إن تطلع إليها حتى غمرته الفرحة ، وانهال عليها يلتهمها التهاماً . ثم بعد أن أكلها جميعاً أفرغ نصف القلة فى جوفه ، واستلقى بعد ذلك على السرير ناعم البال ، هادى النفس ، مطمئن الضمير .

إنه الآن يستطيع أن يطمئن إلى كل شىء .. إلى مستقبله وإلى حياته الجديدة ، وأن يذهب إلى الكلية كما يريد ، ويستذكر درسه فى بيته كما يريد ، ويستطيع أن يدفع إيجار غرفته هذا الزهيد بدون مشقة أو عناء ، ويستطيع أن يأكل من حين إلى آخر سمكاً طازجاً شهياً من سماك الملوك ،

ويستطيع بنصف قرش أن يقف أمام طرشجى الأمراء غير هياب أو وجل ، وغير ذلك كله، بل أهم من ذلك كله ، يستطيع الآن وبخطى ثابتة وعزم قوي ورأس مرفوع أن يذهب إلى العباسية ويسأل عن الوايلية الصغرى وعن شارع البرجاس والمنزل رقم (٨) ويزور الأستاذالشرنوبى أبا إسماعيل ، والست صبرية زوجته ، وابنتهما سلوى ، زيارة الصديق للصديق، أو الأهل للأهل ، بدون خجل أو تردد أو خوف ، ما دام لا يريد معونة ولا يريد مساعدة فى شيء ، وأن يقابل سلوى ويتحدث إليها حديث الصديق للصديق أيضاً ، والزميل للزميل ، والند للند، إنه لن يقابلها كما كان يقابلها وهو فى القرية حافى القدمين ، ممزق الثياب ، يغمض عينيه عما فى يديها أو فى جيبها من حلوى ، وغير الحلوى حتى لا تفضحه عيونه التى تتهافت نظراتها وتذوب على ما فى يدها من طعام شهى وأصناف الحلوى اللذيذة . .

إنه سيقابلها الآن رجلامكتمل الرجولة ممتلىء العين مرتدياً زيه الجديد الأنيق : الكاكولة ، والعمامة ، والحذاء اللامع .

ولكن هل تذكره سلوى ، وترحب به ، وتطرب للقياه كما كانت تفعل فى الماضى ؟ . . أو أن السنوات السبع التى مرت وغيرت من كل شيء غيرتها هى أيضاً ؟ وهل حدث لها كما حدث له ؟ فرع طولها ، وامتشق قوامها ، وغدا جسمها ذاك النحيل فارعاً فارهاً ملتفاً ، تزينه الثياب ، كما تزين الكاكولة الآن جسمه الكبير وطوله الفارع . ونظر إلى الكاكولة الزرقاء اللامعة ، المعلقة على المسمار بجانب السرير ، وذلك السفط الصغير المبطن بالورق السميك والعمامة البيضاء الناصعة التى فى قلبه . ثم نظر إلى الحذاء الأصفر اللامع الذى وضع بجانب السفط يحليه ذلك الإبزيم الأصفر الفاقع الذى نام على جانب الحذاء ، فزانه وزاده بهجة ورواء . نظر إلى كل هذا وابتسم ، وغمرته نشوة فاضت على كيانه ، جعلته وهو مستلق على ظهره فوق السرير يحملق بعينين .

سعيدتين فى سماء غرفته ، كما يحملق العصفور الطروب فى سماء الربيع بين الأزهار . وظل كذلك إلى أن داعب النوم عينيه فقرأ الفاتحة ، وآية الكرسى ، وسورة يس ، كعادته كل ليلة عندما ينام . وزاد عليها هذه الليلة سورة الفلق ، وكرر من شر حاسد إذا حسد مرات حتى غلبه النوم فنام سعيداً لأول مرة ، منذ أن نزح إلى القاهرة .

١٠

وكما سعد الشاب فى هذا اليوم كل هذه السعادة ، سعد أيضاً الأستاذ حسبو ، واطمأن اطمئناناً كبيراً ، فقد كان بقاء هذه الغرفة التى استأجرها الشاب خالية لا يسكنها أحد ، يسبب له قلقاً كبيراً وآلاماً لا حد لها ، إذ كان يعرضه دائماً إلى غضب المعلمة ، وإيذائها وسخريتها المرة ، والغلظة له فى القول كلما رأته أو حدثته ، حتى إنها من يومين فقط ثارت عليه ثورة عنيفة ، وكادت يدها تمتد إليه بالأذى ، لأن الغرفة ظلت خالية ، ولم تهدأ ثائرتها إلا بعد أن أنذرته بالطرد من البيت والسرجة والدكان والحارة والحى كله إن لم تسكن الغرفة خلال الأيام القليلة الباقية عن الشهر ، فوعدها بذلك ، مؤملا الخير كله فى السماء والأرض ، داعياً الله أن تسكن الغرفة حتى لا يتعرض فى كل ساعة من ساعات النهار والليل إلى هذا الأذى الكبير ؛ ولهذا كانت فرحته لا تقدر فى هذه الليلة عندما استأجر الشاب الغرفة ، وراح ينتظر عودة المعلمة من درب سعادة . فقد تعودت أن تذهب إلى هناك من حين إلى آخر ، وتقضى اليوم كله . ومن فرحته لم يشأ أن ينتظرها فى البيت ولا فى المكتب على رأس الحارة ، وإنما انتظرها عند سلالم السبيل فى الظلام حتى أقبلت تتيه وتخب فى ملاءتها الحريرية السوداء الرقيقة التى أحكمتها حول جسدها الفارع وقوامها الممشوق ، وتدل عجباً بذراعها العارية التى حلت معصمها

بالذهب الخالص والثعابين الثلاثة الذهبية التى التفت حول المعصم وزانت الذراع البيضاء العاجية التى أخرجتها من قلب الملاءة السوداء ، كما يخرج عمود النور من قلب الظلام . وما إن رآها الأستاذ حسبو حتى أسرع بإخفاء زجاجة الكونياك فى جيبه الخلفى ، ومسح على شفتيه سريعاً ، وتقدم إليها ونور الفرحة ينبعث من عينيه ويشع من خلف زجاج منظاره الملوث ، وزف إليها البشرى وهو ممسك بعقد الإيجار فى يده .

وما إن سألته بعض أسئلة وعرفت أنه أجر الغرفة إلى مجاور فى الأزهر حتى غضبت وثارت وانقلبت سحنتها فجأة إلى ما يشبه الوحش المفترس ، وقالت صارخة فى صوت كالرعد وهى تمسك بعقد الإيجار من يده وتمزقه وتلقى به فى وجهه : لا بد أن تطرده الآن ، أن تلقى به الليلة إلى الخارج .. أنا لا أريد أن أجلب المتاعب إلى نفسى . . قلت لك ألف مرة إن المجاورين وطلاب العلم لا يجدون قوت يومهم ، فكيف بهم يدفعون الإيجار . ألق به إلى الحارة الليلة . . الآن . . وإلا ألقيت بك أنت . . أسامع ؟

وسارت وسار خلفها الأستاذ حسبو يرتعش ، كما يسير الكلب الخائف الذى تشده وراءك فى حبل . وكلما حاول أن يقول شيئاً أرغت وأزبدت ودوى صوتها فى الليل ، إلى أن بلغت نهاية الزقاق ، ووقفت عند الخوخة ، ونزعت ملاءتها ووضعتها على كتفها كما لو كانت تريد أن تخوض معركة ، وقالت له ثانية بأعلى صوتها : قلت لك إن لم تطرده الآن وتلقى بعفشه إلى الحارة ، طردتك أنت وألقيت بسحنتك هذه القذرة فى مرحاض .

ثم فتحت باب غرفتها فى ثورة وردته خلفها فى عنف كاد يرتج له البيت كله . . ووقف الأستاذ حسبو يرتجف فى قلب الدهليز المظلم إلا من نور خافت ينبعث من قلب السرجة ، وينظر إلى باب غرفتها الذى أغلقته خلفها فى عنف ، وباب غرفة الشاب المجاور لبابها تماماً .

وفكر ماذا يقول له الآن ؟ وأين يبيت الفتى الليلة ؟ والمعلمة لم تشأ أن تبقيه إلى أن يطلع النهار . وهل تتحكم بالناس هكذا ؟ وهل تظل هكذا هذه المعلمة تسومه هذا العذاب ، وتكيل له كلما رأته بهذا الكيل الذى لا يتحمله إنسان ؟ وهل يزال قلبها بهذه الغلظة وهذه القسوة ، بحيث تطرد شاباً فى هذا الوقت من الليل وتلقى بعفشه إلى الطريق ؟ وهو إن لم يطرده الآن كما أمرته ، وأبقى عليه إلى أن يطلع النهار ، فسوف تطرده هو وتلقى به فى الطريق ، أو تبقيه لتصب عليه جام غضبها وتسلط عليه سوط عذابها الذى تعب منه جسده الهزيل .

وأحس الأستاذ حسبو بشىء من الضيق يجثم على صدره ويكاد يخنق أنفاسه ، فأسرع إلى زجاجة الكونياك وأخرجها من جيبه الخلفى وتجرع منها عدة جرعات ، ثم أعادها ثانية إلى جيبه ومن ثم مسح على شفتيه ، وفى هدوء كبير جداً اقترب من باب غرفة الشاب ، وظل ينقر حتى استيقظ الشاب وفتح الباب ، وما إن رأى الأستاذ حسبو أمامه حتى رحب به ترحيباً كبيراً جداً وهو يدعوه إلى الدخول ، ووقف الأستاذ حسبو وسط الغرفة يتأمل محتوياتها لأول مرة ، ويفحصها بعينه ، وينظر إلى الحمارين الخشبيين والحشية التى يحملانها ، والبطانية الصوف القديمة المتآكلة المتكومة عليها كالكلب الأجرب المتكوم فى الطريق ، وقدر المش والمخلل الذى تجمد من الرطوبة ، وخرجت من قلبه الديدان الصغيرة هائمة تسبح حول جدرانه ، وإلى بعض لقيمات المرحرح التى انتشرت على الحشية وإلى رءوس السمك المقلى وشوكه الذى بقى فى الورقة الصغيرة الملوثة بالزيت المحروق ، ثم إلى القميص الزفير الممزق الذى يرتديه الشاب وينام فيه — نظر الأستاذ حسبو إلى هذا كله ثم إلى الشاب الذى يتصبب أمامه عرقاً وخزياً من كل شىء وقع عليه نظره فى الغرفة. وأحس الأستاذ حسبو الخزى والخجل اللذين أحس بهما الشاب . فكيف ينبئه بالمهمة التى جاء من أجلها ؟ إنه أحس بالعطف على هذا الشاب منذ

المرة الأولى التى رآه فيها ، منذ أن قال له أن لاأحد له فى الوجود غير الله ، وهو يحس هذا العطف يتضاعف الآن ويزداد ويكاد يبلغ أقصاه عندما رأى غرفته ، ومنامته ، وبؤسه هذا البائس ، وفقره هذا الذى لا يماثله إلا فقره هو وبؤسه ، فكيف يطرده الآن من الغرفة ؟ كيف يلقى بمتاعه فى الحارة ؟ ثم أين هو المتاع الذى سيلقى به ؟ إنه إن ألقى بشىء إلى الخارج ، فلن يلقى إلا بالشاب نفسه .. وفى هذا قسوة وظلم .

وأحس الرجل بحرج شديد ، وبشىء من الضيق يكاد يجثم على صدره ، فأخرج زجاجة الكونياك ، وتناول منها عدة جرعات ، ثم قال للشاب مبتسماً بعد أن مسح على شفتيه : جئت أطمئن عليك .

ــ أشكرك . وهذا ما كنت أنتظره منك .

فعاود الأستاذ حسبو النظر إلى الغرفة ومحتوياتها مرة أخرى ثم قال : أأعجبتك الغرفة ؟

ــ نعمة كبيرة وفضل من الله .

فارتبك الأستاذ حسبو بعض الشىء ، ولكنه قال : أخشى أن تكون الغرفة رطبة عليك .

ــ أبداً . . أبداً . .

ثم ابتسم الشاب وقال : فرق كبير بينها وبين غرفتنا السابقة فى دهليز المرعشلى .

فاغتاظ الأستاذ حسبو وقال : الحقيقة أن جميع الذين قطنوها خرجوا منها مرضى ومصابين بالروماتزم . وأنا كما قلت لك أحببتك ، منذ أن رأيتك ، ولذلك فأنا أخشى عليك المرض يا بنى .

ــ المرض والصحة بيد الله . وما دامت هذه الغرفة منك ، وعن طريقك ، فلن أبرحها حتى ولو كان فيها مماتى .

فأخرج الأستاذ حسبو زجاجة الكونياك مرة أخرى . وتجرع منها عدة جرعات ثم أعادها إلى جيبه الخلفى ، ونظر إلى الشاب وقال له

هامساً بعد أن مسح على شفتيه مرة أخرى : إذن تعاهدنى على أن تكون معى دائماً ، وتفعل كل ما أشير عليك به .

ــ أعاهدك . .

ــ وأن تتخذ منى صديقاً مخلصاً لك .

ــ بل سأتخذ منك والداً .

فرفع الأستاذ حسبو ذراعيه المرتعشتين وطوق بهما عنق الشاب وقبله ، ثم أمسك بيديه ورفعهما مع يديه إلى أعلى وهو يقول : ردد معى هذا الدعاء ، قل من قلبك : اللهم انصرنا على القوم الظالمين ــ اللهم انصرنا على القوم الظالمين . اللهم انصرنا على القوم الظالمين . اللهم اجعل انتقامنا منها بقدر إساءتها إلينا .

فقال الشاب فى دهشة كبيرة بعد أن ردد الدعاء : من هى ؟

فقال الأستاذ حسبو وهو يضحك ويخرج من الباب ويغلقه خلفه على الشاب : الدنيا الظالمة يا بنى !

ثم انطلق إلى فناء الدهليز . ووقعت عينه على باب غرفة المعلمة ورآه مفتوحاً . إنها ما زالت تنتظره ، وستسأله ماذا فعل ؟ ولماذا لم يطرد الشاب ويخرجه الآن ؟ فماذا يقول لها ؟ وحقيقة لماذا لم ينفذ رغبتها ، ويطرد الشاب كما أمرته ؟ أليس بيتها ؟ أليست هى صاحبة الحق المطلق فى ملكها تبقى من تشاء ، وتطرد من تشاء ، وتعز من تشاء ، وتذل من تشاء ، فلماذا يوقع هو نفسه فى هذا الحرج الشديد ، ويعرض نفسه إلى سخطها وإلى إيذائها الكبير ؟ لقد ذهب إلى الشاب ليقول له ان المعلمة أمرت بإخراجه الليلة . فلماذا عاهده على أن يكون له عوناً . عونا على من ؟ على هذه المرأة !! إن رجال الزقاق جميعاً ، بل رجال الحارة أيضاً ، بل رجال الحى كلهم لو تكاتفوا وتعاونوا وتعاهدوا وكانوا يداً واحدة على هذه المرأة ، لبطشت بهم جميعاً ، فكيف يقف هو وهذا الشاب الذى لا حول له ولا قوة أمامها ، وكيف يبلغ به الجنون أن يفكر فى هذا ؟

أن يوقع نفسه فى هذا الشر الكبير ؟ إن المثل يقول : « اربط الحمار فى المكان الذى يأمر به صاحبه » ، وهى قد أمرت أن يطرد هذا الشاب فليطرد الشاب كما أمرت .

وأخرج من جيبه الخانى زجاجة الكونياك ، وتجرع منها عدة جرعات وأعادها إلى مكانها ، ثم مسح على شفتيه ، واتجه سريعاً إلى غرفة الشاب ، ووقف على بابها ، ورفع يده المرتعشة لينقر عليها من جديد . ولكن ماذا يقول له؟ المعلمة تريد أن تطردك من الغرفة ، وتأمرك بالخروج الآن ؟ لماذا ؟ حقيقة لماذا ؟ لماذا تريد هذه المرأة القاسية القلب أن تطرده ؟ لقد كانت هذه الغرفة تؤجر بخمسة وعشرين قرشاً ، فاستأجرها هذا الشاب بثلاثين ، وكان الإيجار يدفع مؤخراً ، وفى نهاية كل شهر ، ودفعه هذا الشاب مقدماً وفى أوائل الشهر ، فلماذا يطرد ؟ لا . . لا . . لن يطرد هذا الشاب ، ولن يطرده هو أبداً ، ولن تطرده هى أيضاً ، وإذا طردته فسيتعرض هو لها ، سيمنعها ولو أدى به الأمر إلى أن يغرس أظافره هذه الطويلة المدببة فى عينيها ، وليكن ما يكون . إن ما سيكون مهما يكن سواده فلن تبلغ حلكته هذا السواد الذى يعيش فيه مع هذه المرأة ، هذا البؤس الذى يتمرغ فيه . وأنزل يده التى كان قد رفعها لينقر بها على باب غرفة الشاب ، وهم أن ينقل قدمه ليرجع من حيث أتى ، بيد أنه فجأة وقف فى مكانه مرتعشاً وجلا مبهور الأنفاس ، فقد سمع صوت المعلمة ينبعث مدوياً من غرفتها تناديه باسمه . . حسبو . . حسبو . . فأسرع إليها فى ذعر شديد ، ووقف أمام باب الغرفة ، فقد كان محرماً عليه أن يدخل عليها غرفتها . ولما رأته قالت له وغضب الدنيا جميعها يرتسم على وجهها : هل طردت هذا الفتى ؟

ــ أجل . . أجل . . طردته ، طردته .

ــ وخرج نهائياً؟

ــ أصدرت إليه الأوامر المشددة بالخروج فوراً ، فذهب ليأتى

بجمال يحمل له متاعه إلى لوكاندة المدينة المنورة حيث كان .

ـــ مدينة منورة ، مدينة مظلمة ، فقط يخرج الليلة .

قالت له ذلك وهمت أن تدخل وترد الباب فى وجهه بعنف شديد كما تعودت أن ترده دائماً فى وجهه بعنف شديد ، بيد أنها لم تكد تفعل حتى سمعت فجأة صوت الشنوانى وهو أحد عمال السرجة ينادى ويستغيث ويولول صارخا : بهلول . . بهلول . . أغيثونى . . الحقونى . بهلول سقط فى البئر . بهلول سقط فى البئر .

فانطلقت كالسهم ومن خلفها الأستاذ حسبو يقطع فناء الدهليز . وما إن أقبلت على السرجة ورأت الحمار فى قلب البئر غارقاً وسط عصير الكسب والبذور اللزجة ، يكاد يموت وتختنق أنفاسه ، وقد غطس كله فى قلب البئر ، ولم يظهر منه سوى رأسه وأذنيه فقط حتى انفجر مرجل غضبها ، وتعالى صراخها فى الليل ، كما انطلق الأستاذ حسبو مهرولا إلى الزقاق هائجاً منادياً بأعلى صوته على أهل الزقاق أن يهبوا لإنقاذ بهلول من البئر . وما هى إلا لحظات حتى اجتمع أهل الزقاق جميعاً رجالا ونساء فى قلب السرجة ، الكل يحاول أن يهدئ من ثورة المعلمة ، والكل يحاول أن يخرج بهلول من قلب البئر . وتعالى الصراخ والهرج والمرج . هؤلاء يحاولون بكل ما أوتوا من قوة أن يزحزحوا الحجر الضخم الذى انزلق من مكانه فوق فتحة البئر وسدها على الحمار فلا يستطيعون ، وهذا ينادى بأعلى صوته طالباً حبلا أو جنزيراً ليحزم به الحمار ، ثم يتعاون الجميع على رفعه ، وهذا ينزع ثيابه ويغطس فى قلب البئر ، محاولا أن يحرك الحمار من مكانه فلا يتمدر ، وهذه تصرخ مولولة على الحمار الذى يكاد يختنق ، والمعلمة تنذر بالويل والثبور لسكان الزقاق ، وعمال السرجة وعلى رأسهم الأستاذ حسبو إن مات الحمار أو أصيب بسوء . وبينما الجميع يأخذهم الفزع واليأس إذا الشاب يخرج من غرفته على هذا الصراخ والعويل ، ويقف فيهم ، ويستأذن من الجميع أن يبتعدوا

قليلا . ونظر إلى الحجر الضخم ، ثم ثبت ظهره على جدار السرجة وقدميه الاثنتين على الحجر ، ومن ثم ضغط بكل قوته ، وهو يبسمل ويتمتم بشيء من القرآن، فإذا الحجر الضخم يتدحرج أمامه كالكرة ، ثم شمر عن فخذيه ، وعقد حول خصره أطراف قميصه الممزق الذى يرتديه ، وسقط فى قلب البئر ! وما هى إلا لحظات تكاد تشبه الغمض حتى خرج بالحمار محمولا على كتفيه ممسكاً به بذراع واحدة قد لفها حول ظهره ، ووقف الجميع ينظرون فى دهشة ، ووقفت المعلمة مبهورة جاحظة العينين تنظر إلى كتف الشاب العريضة الضخمة التى تحمل الحمار وذراعه المفتولة القوية ، التى تلتف حوله ، ثم تنظر إلى جسمه الفارع القوى وهو يسير بالحمار حتى بلغ به فناء الدهليز ووضعه على الأرض بين الحياة والموت . ظن الجميع أن الحمار قد مات ، بيد أن الشاب طمأنهم إذ طلب رأساً من البصل ، ولما جيء به إليه شطره شطرين ، ومن ثم ضغط عليه بين أصابع يده الواحدة فتساقط عصير البصل نقاطاً سكبها الشاب فى منخارى الحمار الذى ما لبث أن أفاق كأن لم يحدث له شيء .. ولما رآه الشاب كذلك ، ورأى أن مهمته قد انتهت ، مد يده وأزال عن قميصه بعض الأوحال التى تلوث بها ، وهم أن ينصرف ، بيد أن المعلمة ، التى ما زالت نظراتها المبهورة ، وعيونها الجاحظة عالقة بذراعه وكتفيه لم تتزحزح ، اقتربت منه وسألته قائلة : أتقطن أنت فى هذا الحى؟

فنظر الشاب إلى باب الغرفة الذى يجاور باب غرفتها تماماً وقال : إننى أقطن فى هذه الغرفة . .

فأخذتها المفاجأة وهى تزم شفتيها سريعاً ، وتكاد تغمض عينيها حتى لا تفضحها دهشتها ، وقالت : إذن انزع هذا القميص لكى أغسله لك .

فقال الشاب بدون أن ينظر إليها وهو يفتح باب غرفته ويتوارى

خلفه : شكراً . . سوف أغسله بنفسى !

وهمت أن تدخل وراءه الغرفة وأن تقول له شيئاً ، ولكن صوتاً خفيضاً جداً يكاد يشبه الهمس أقبل من وراء ظهرها يقول : أنفذ الحكم وأطرده . . أم تراجع المحكمة نفسها ؟

فلم تلتفت إلى الأستاذ حسبو الذى كانت الابتسامة العريضة تغمر وجهه وترقص على شفتيه . . وإنما تركته وانصرفت إلى غرفتها صامتة تنظر إلى شىء بعيد .

١١

كان من الأشياء التى اتخذها الشاب عن أبيه ، وتمسك بها ، وعاهد نفسه وربه عليها ، أداء فريضة الصلاة فى مواعيدها . . وألا يصلى الفجر قضاء أبداً مهما تكن الأسباب . وقد أصبحت هذه عادة عنده ، فهو مهما كان متعباً . ومهما كان مستغرقاً فى نومه ، فلا بد أن يستيقظ فى ساعة محددة من الليل تسبق صلاة الفجر دائماً بنصف ساعة على الأقل . ثم هو لا ينام بعدها ثانية .

وقد استيقظ من تلقاء نفسه قبيل الفجر فى تلك الليلة ، ونهض من فراشه وأشعل المصباح الزجاجى ذا البرنيطة التى صنعها له من الورق السميك ، ثم وضع القبقاب فى قدميه وخرج إلى الدهليز وفتح الحنفية التى أحدث صوت الماء المنساب منها فى البراميل صوتاً مزعجاً فى الليل أقلق المعلمة شفعات فى فراشها ، ففتحت عينيها فى الظلام ، ومدت أذنيها فى الليل ، فسمعت صوت الشاب عند الحنفية يتوضأ ويردد الشهادتين بصوت عال ، فضايقها هذا بعض الضيق ، ولكنها مدت يدها وسحبت الغطاء على وجهها ونامت ، بيد أنها عادت فاستيقظت ثانية عندما انتهى الشاب من وضوئه وعاد يدق بلاط الغرفة بالقبقاب

الذى فى قدميه ، فأحدث القبقاب صوتاً مزعجاً أيضاً نفذ إلى أذنيها مباشرة ، فازداد ضجرها ، وزاد من هذا الضجر صوت وابور الجاز الذى أشعله الشاب ووضع عليه إبريق الشاى لكى يغلى الماء فى الفترة التى يقضيها فى الصلاة ، وضايقها هذا كله ضيقاً شديداً ، وأقلقها ، وأثار سخطها إلى حد أنها راحت فوق الفراش تحدث نفسها وهى تتقلب كالسمكة فى الماء ، وتنام حيناً على جنبها الأيسر ، وحيناً على جنبها الأيمن ، وحينا آخر تسد أذنيها ، ومرة تغمض عينيها . وظلت كذلك حتى انطفأ وابور الغاز ، وتلاشى صوته المزعج ، فهدأت ثائرتها ، ومدت يدها إلى الغطاء وسحبته على وجهها مرة أخرى ، وأغمضت عينيها ونامت ، بيد أن هذا النوم لم يمتد بها طويلا هذه المرة ، لأن الذى فعله الشاب — وكما تعود أن يفعله كل ليلة — أنه بعد أن خلص من صلاة الفجر وصنع الشاى وأفرغه فى كوب أمامه جلس أمام المصباح ليذاكر ، فتناول ألفية ابن مالك ، وكان حفظها بالنسبة إليه عسيراً للغاية ، وقد زادها عسراً الشيخ زناتى — وكيل الكلية — الذى حتم على طلبة اللغة العربية ضرورة حفظها فى خلال خمسة عشر يوماً ، حفظاً مجوداً ، وأن تفهم فهماً . . مفهماً . . ومعروفاً معرفاً ، كما كان يقول — رحمه الله — لذلك جلس الشاب بعد أن خلص من صلاة الفجر متربعاً أمام المصباح وراح يبدأ ويعيد ، ويتلو ويرتل ، وهو يهتز أمام المصباح ذات اليمين وذات الشمال ناسياً نفسه وهو يقرأ بصوت عال مسموع :

كلامنا لفظ مفيد كاستقم ... واسم وفعل ثم حرف الكلم
واحده كلمة والقول عم ... وكلمة بها كلام قد يؤم

ونفذ صوت الشاب إلى أذنيها من ثنايا الباب الذى يصل بين الغرفتين والذى وضعت أمامه الدولاب لكى تسده نهائياً وتفصل بين غرفتها والغرفة الأخرى . فنفذ إلى أذنيها خشناً أجش بغيضاً ، أطار النوم من عينيها ، وأقلقها قلقاً كبيراً ، فثارت ثورة عنيفة ، وهبت من فراشها ساخطة ،

وفتحت باب غرفتها فى عنف ، ووقفت فى فناء الدهليز تنادى بأعلى صوتها حسبو ، لكى ينقذها من هذا الكرب ، ولكن الأستاذ حسبو كان فى فراشه ، نائماً ببذلته الخالدة وصدريته الممزقة ذات الأزرار الصدفية الغالية أشبه بتحفة أثرية يرجع عهدها إلى عدة قرون ، يغط فى نوم عميق ، ليس من سبيل إلى إيقاظه منه ، حتى ولو انهدم الدهليز ، أو سقط بهلول فى البئر مرة أخرى .

ولما بح صوتها دون مجيب ، وغاظها ذلك جداً ، وزادها سخطاً على سخطها ، اندفعت فى ثورة هائلة ، ودفعت باب غرفة الشاب فانفتح على مصراعيه فأحدث دوياً هائلا ذعر منه الفتى ذعراً شديداً . وزاده ذعراً عندما وجد أمامه امرأة شابة عارية إلا من قميص نوم رقيق ، كاد يكشف عن الجسد كله ، تدخل عليه غرفته فى الليل ، وتسبه سباً مقذعاً جارح اللفظ قبيح المعنى : أنت تخرج الآن . . فوراً . . أنت تظن نفسك فى ميضة . . حنفية تفتح طول الليل . . قبقاب يدق على البلاط كما تدق أرجل البغال .. وابور جاز يشعل بصوت مزعج . . تقرأ بصوت كصوت الحمير ، وما تعيده تزيده كفقهاء الجبانة . . حرف يؤم فى قلبك وكلام يغم فى عينك ، وعين الذين خلفوك .

واستمع الشاب إلى كل هذا ذاهلا مأخوذاً ، حتى إنه من شدة دهشته البالغة لم يسمع أو يفطن إلى بعض العبارات التى صدرت منها . بيد أنه نظر إليها بعد ان انتهت من هذا السباب ، وما إن رفع عينيه إلى صدرها العارى وقميصها الذى انشق من أمام عن قبة الثديين ، حتى رد البصر سريعاً وأغمض عينيه ، وهو يحوقل ويتمتم بألفاظ من القرآن وكأنه يستغفر عن ذنب كبير . ثم بعد جهد ، وبعد لحظات مضت ، استطاع أن يسترد فيها أنفاسه ويقول وهو يفتح عينه دون أن ينظر إليها : من حضرتك ؟

فقالت ساخرة وصدرها ما زال يعلو ويهبط من شدة الغضب :

عاشقة لك . . مغرمة بك . . متيمة لم تنم طول الليل من أجل عيونك السوداء .

ثم استردت أنفاسها سريعاً وقالت فى نفس الثورة والغضب : أتريد أن تعرف من أنا؟ أنا صاحبة البيت.. صاحبةهذه الميضة التى تسكن فيها.

فقال الشاب وعينه لم تهبط إلى أكثر من وجهها الثائر وشفتيها المضطربتين. ولكن فى غيظ شديد : وهل صاحبة البيت تكون على هذا الجانب من الوقاحة؟

فغلى الدم فى عروقها وهى تقول : أنا وقحة يا كلب ؟ !

— وغير مؤدبة .

فاربدت سحنتها اربداداً مفزعاً ، وانحنت فى سرعة خاطفة على قدمها اليمنى وتناولت الشبشب ذا الكعب العالى والوردة الحمراء . ورفعت ذراعها به فى وجهه وهى تقترب منه كلبؤة مفترسة وتتمتم بشفتين مرتعشتين : أنا قليلة الأدب . . يابن الكلب . .

بيد أن الشاب لم يمهلها تتم ، فقد كانت يده أسبق إلى ذراعها التى تريد أن تنهال عليه ، وأمسك بها فى عنف ، وضغط عليها فى قوة وغضب حتى كادت الذراع تختنق بين أصابعه الخشنة والمتوترة، فاضطربت المرأة ووقفت خائفة ترتجف تنظر إلى تلك الذراع القوية المتحجرة التى أمامها ، وتلك اليد التى تضغط على ذراعها حتى تكاد تعصرها عصراً . وحانت منها التفاتة إلى كتف الشاب العريضة الصلبة التى تشبه الفولاذ ، والتى رأتها منذ ساعات تحمل الحمار فى يسر وكأنها تحمل دجاجة ، فارتعبت وخافت ، وسقط الشبشب من يدها . وعند ذلك تركها الشاب ، وقال وهو يبتعد عنها قليلا وينظر إليها شزرا : لو أن امرأة فى قريتنا فعلت هذا ، ورفعت الشبشب فى وجه رجل ، أياً كان هذا الرجل ، لكان نصيبها القتل . ولكنى أكتفى الآن بطردك .

ثم نظر إلى باب الغرفة وقال وهو يشير إليها بالخروج : تفضلى .



فلم تجب بشيء أو كأنها كانت تريد أن تجيب بشيء، ولكنها انفجرت على الفور باكية ترتعش ، وجسدها كله يضطرب ويهتز وكأنها خشيت أن تسقط ، فاستندت إلى الحائط وارتفقته بذراعيها العاريتين، ودفنت رأسها الصغير الجميل بينهما ، ومن ثم راحت تبكى بكاء مكتوماً ، وتضطرب اضطراباً عنيفاً . ونظر الشاب إليها ، وإلى جسدها الذى يغلى كالمرجل أمام عينيه ، وإلى الدموع التى انسابت من عينيها وتساقطت على القميص فبللته، فخاف وارتبك بعض الشيء ، وانقلبت ثورته إلى شفقة ، وغضبته العنيفة إلى عطف كبير على المرأة المستضعفة أمامه ، فاقترب منها وهو يحوقل ثانية ويتمتم بألفاظ من القرآن مرة أخرى ، ويغمض عينيه ، حتى لا يبيح لنفسه ما حرم الله ، ويرى ما أمر الله أن يستر ، ولذلك قال وهو ينظر إلى بعيد وكأنه يخاطب شخصاً آخر : م تبكين؟

فلم تجب وإنما استرسلت فى بكائها المرير ، فقال الشاب وهو أشد ما يكون أسفا : إن كنت فى لحظة غضبى قد أسأت إليك ، فإنى أعتذر وأرجو من الله ومنك المغفرة على هذا الذنب الذى لم تكن لى يد فيه .

فرفعت صدرها الملتصق بالحائط ، ونظرت إليه بعينيها المحمرتين الغارقتين فى الدموع ، وقالت بصوت حزين أثار شفقة الشاب إلى حد كبير : إننى أبكى حظى العاثر ، وبختى المائل ، ونصيبى الذى هو أشد سواداً من الليل . إننى امرأة شرسة الطباع ما فى ذلك شك . أسيء إلى من يحسن إلى . وقد أسأت إليك برغم الحسنة التى قدمتها لى ، وبرغم أنك أنقذت بهلول من الموت . ولكن هكذا أنا ، فاعذرنى . إن الأيام ، والليالى ، وسوء الطالع الذى يلازمنى دائماً ، وحظى العاثر مع كل الذين يحيطون بى ، كل ذلك جعلنى مرهقة دائماً ، مجهدة الأعصاب دائماً . أتفه الأشياء تثيرنى وتقلقنى ، وتسبب لى النكد الشديد . وكذلك أيضاً أتفه الأشياء تضحكنى وتسعدنى ، وتطربنى طرباً شديداً . أنا أشبه

ما أكون بطفلة ، بامرأة لا عقل لها . إن الذى يعرفنى لا يغضب منى أبداً ، وإنما يشفق على دائماً .

ثم استرسلت فى بكائها حيناً آخر ، واستطردت : ولكن لا أحد يعرفنى ، ولذلك الكل يسىء إلى ، والكل يغضب منى .

ثم صمتت لحظات أخرى ، جففت فيها دموعها وقالت فى صوت خفيض جداً ، حزين جداً : أنا امرأة شقية ، أنا أشقى امرأة قدر لها أن تعيش فى هذه الدنيا .

وتأثر الشاب ، وقال وهو يمد يده ويتناول الكاكولة الكشمير من على المسمار ويطرحها على جسدها الذى كاد أن يتعرى أمامه بعد أن سالت الدموع على قميصها وألصقت نسجه الرقيق على البطن بدون أن تفطن هى إلى ذلك : إنك مسكينة . . إلى هذا الحد تشقين فى حياتك ؟

— وأكثر من هذا الحد .

— وما السبب فى ذلك ؟

— كل شىء . . كل شىء .

— أسرتك مثلا ؟

— لو كانت لى أسرة ما كان هذا حالى . . قلت لك إنى شقية .. لا أب ، ولا أم ، ولا أخت ، ولا قريب أتفيأ بظله .

— وزوجك ؟

فانفجرت باكية بكاء عنيفاً ، حتى راح جسدها يضطرب ويعلو ويهبط تحت الكاكولة المنطرحة عليه . وظلت كذلك إلى حين بدون أن يجرؤ الشاب على أن يقول لها شيئاً ، أو يخرجها من هذه الحمى التى انتابتها إلى أن رفعت إليه وجهها الغارق بالدموع ، ونظرت إليه بنفس العينين المحمرتين اللتين بلون الدم وتمتمت بصوت يكاد يختنق ، وهى تزيح الدموع التى تجمعت على شفتيها : زوجى مات .

— عظم الله أجرك .

نطقها الشاب فى حزن شديد ، وألم ارتسمت معالمه على وجهه وهو يصغى إليها وهى تتحدث مستطردة : مات من سبع سنوات كاملة ، وأنا أعيش فى ظلام، أرى كل شىء ولا أرى شيئاً. أضحك لكل شىء وما عرفت الابتسامة طريقها إلى قلبى . وأعيش فى الدنيا ومع الناس وليس لى أحد فى الوجود . كان هو الفرحة ، والابتسامة ، والدنيا ، والحياة . كان هو النور الذى أفتح عليه عينى ، والمناعة التى يعيش عليها قلبى . كان هو الوجود كله ، ولكنه مات .

فنظر إليها الشاب وقال لها : إنك طيبة القلب إلى حد كبير .

ـ ولكنهم يقولون غير ذلك .

ـ لهم ما يقولون . ولله القول الفصل . .

ـ ترى هل يغفر لى الله هذه الأخطاء وهذه المعاملة القاسية للناس ؟

ـ طالما أنك تحملين هذا القلب الطيب ، وهذه السريرة النقية ، وهذا الوفاء الذى لا حد له لزوجك ، فثقى أن الجنة مثواك إن شاء الله .

ـ هل تغفر أنت لى خطئى معك اليوم ، وتهجمى عليك ، وغلظتى لك فى القول ؟

فقال الشاب فى ابتسامة صادقة تألقت على شفتيه : وهل يملك الابن إلا أن يغفر لأمه كل شىء . .

فنظرت إليه وقد أثارها على الرغم منها هذا التشبيه ، وكاد ينفجر معين غضبها مرة ثانية ، ولكنها أسرعت وخنقت هذه الثورة فى صدرها وقالت مبتسمة : وهل أنا مثل أمك ؟

فقال الشاب فى سذاجة لا حد لها : ثقى أنه من الآن لا فرق عندى بينك وبين أمى . .

فقامت ناهضة وهى تضحك فى غيظ ، وتزيح الكاكولة من على كتفيها وتعيدها إليه : إذن أمك عجوز جداً .

ففطن الشاب إلى الخطأ الذى تورط فيه ، وقال على الفور يجاريها

فى ضحكتها ، وهو يغمض عينيه ويشيح بوجهه حتى لا تقع نظراته على القميص الملتصق على البطن : أقصد فى المعاملة ، وليس فى السن طبعاً .

فقالت وهى تمد يدها لتصافحه وتنصرف : إنك أنت أيضاً طيب القلب جداً .

ثم قالت وهى تشير بيدها إلى الباب المغلق الذى يفصل بين الحجرتين : إننى جارتك . وهذه هى غرفتى ، وأى شىء تحتاج إليه تجده فى الحال .

فقال الشاب : هذا فضل منك . والله أرجو أن يجزيك عنى خير الجزاء .

فنظرت إليه وشىء يلتمع فى عينيها ، ثم قالت ضاحكة وهى تخرج وترد الباب : أهكذا كل المجاورين لا بد أن يتكلموا بالنحوى ؟

وأحرج الشاب هذا القول — المجاورين — واحمر له وجهه خجلا ، وأراد أن يهم خلفها ويقول لها شيئاً ويصحح لها الوضع ، ويفهمها بأنه ليس مجاوراً فى الأزهر كما تظن ، وإنما فى سنوات التخصص ، وعما قريب سيصبح مدرساً للنشء معترفاً به من وزارة « المعارف » ، ويفهمها غير ذلك أيضاً ، يفهمها أن المجاور فى الأزهر لا يستحق منها هذه السخرية ، فهو رجل علم ، ودين ، وصلاح ، وتقوى ، وليس هو كما تظن — فتى — من الذين يتسولون بكلام الله وآياته المحكمات .

وراح بينه وبين نفسه يعجب من هؤلاء الذين يحملون فى نفوسهم كل هذه السخرية للمجاورين فى الأزهر الشريف وطلاب العلم والدين ، وكيف أنهم بهذه السخرية وهذه النظرة المزرية له ، يرتكبون إثماً كبيراً وهم لا يشعرون . وراحت هذه الأفكار تلم به ، وتثقل عليه وهو يرتدى ثيابه ليخرج ، بيد أنه قبل أن يخرج سمع طرقاً على الباب ، وسمع صوت الأستاذ حسبو يناديه ، فأسرع وفتح الباب ، وما إن رآه الأستاذ حسبو

مرتدياً ملابسه حتى اندهش ، وسأله لماذا استيقظ هكذا مبكراً وارتدى ثيابه أيضاً ؟ وأين يريد أن يذهب فى هذا الوقت المبكر ؟ فأخبره الشاب بأنه تعود دائماً أن يستيقظ هكذا كل يوم ليصلى الفجر ، وأن يخرج أيضاً مبكراً لأنه تعود كذلك أن يذهب إلى الكلية مشياً على قدميه ، ليوفر أجر الترام الذى لم يدخل أجره فى حسابه . فاندهش الأستاذ حسبو وقال مشفقا وهو ينظر إليه : ولكن المسافة طويلة جداً يا بنى ، ولا أحسبك قادراً على أن تقطعها على قدميك فى الذهاب والإياب كل يوم .

— الله يعين .

ثم قال فى ثقة وإيمان : وهو سبحانه ، قد وهبنا الصحة من أجل ذلك ، من أجل أن نستعين بها على هذه الصعاب .

فقال الأستاذ حسبو وهو يتناول نصف رغيف كان أمامه على الطبلية بجوار كوب الشاى الفارغ ويقضم منه : إذن فلى نصيحة ، يتوقف عليها مصيرك فى هذا البيت ، بعد أن ثبت الله أقدامك فيه بفضل بهلول !

— خيراً . ما هى ؟

— ما دمت تستيقظ كل يوم مبكراً هكذا ، فعليك ألا تحدث ضجيجاً فى الغرفة ولا فى الدهليز . فمثلا الحنفية لا تفتحها إلا بمقدار حتى لا تحدث صوتاً ، ولا تسير بالقبقاب على البلاط ، وإن ذاكرت بعض دروسك فبصوت خافت . حتى لا تقلق المعلمة فى نومها ، فتقلب لنا البيت رأساً على عقب .

فقال الشاب ضاحكاً على الفور : وكادت أن تقلبه اليوم ، لولا أن الله سلم .

فقال الأستاذ حسبو فاغراً فاه : هل أقلقت المعلمة ؟

— لم أقصد .

ـ وماذا فعلت ؟ قل . . أسرع .
ـ اقتحمت على الباب ، وأغلظت لى فى القول ، وبلغت بها القحة بأن رفعت الشبشب فى وجهى ، ولم تلق به إلا عندما هممت بضربها .

فارتعشت شفتا الأستاذ حسبو وهو يسأل ذاهلا : تضربها ؟ تضرب من ؟

فقص عليه الشاب كل الذى حدث . وكيف أنهما تصالحا ، وخرجت راضية ، وكيف أنها ست طيبة القلب ، لا تضمر سوءاً ، وإن كان مظهرها يدل على غير ذلك . إلى أن أنهى الشاب حديثه قائلا : إنها فعلا سيدة طيبة القلب إلى حد كبير حتى إننى وضعتها فى منزلة أمى .

ـ أمك ؟ !

نطقها الأستاذ حسبو وهو يتلفت حواليه كمن يريد أن يستغيث . ثم أسرع إلى الشاب وأمسك بذراعه ، وسحبه إلى ركن قصى بعيد عن البابين حتى لا يسمعه أحد ، ثم همس فى أذنه وهو ما زال يتلفت حواليه فى خوف شديد : إنك مغفل .

ولم يدع الشاب يقول شيئاً لأنه استطرد : إنها أفعى ، ثعبان كبير ، حشرة مؤذية ، سم بطىء ، مرض خبيث !

ثم تلفت حواليه مرة أخرى ، وهو ممسك بذراع الشاب ، وواصل قوله : إنها تماماً كالقنبلة التى لم تنفجر ، من الخير للناس جميعاً أن يبتعدوا عنها ، أن يتجنبوا خطرها وأذاها . لو أدى بك الأمر أن تبطل صلاة الفجر هذه ، حتى لاتفتح الحنفية ، وتدق بالقبقاب على البلاط فتقلقها ، فسوف يغفر الله لك ، لأنه أشفق بعباده من أن يكتووا بنارها .

ثم تلفت حواليه ثانية وأراد أن يقول شيئاً آخر ، ولكن الكلمات وقفت فى حلقه ، وجحظت عيناه ، وارتعشت يده الممسكة بذراع الشاب وهو يصغى إلى صوتها الجهورى فى الدهليز ، وهى تنادى فى

عصبية : حسبو . . يا هباب يا حسبو . . يا زفت يا حسبو .
وكما ينطلق السهم ، انطلق الأستاذ حسبو مبهور الأنفاس .

١٢

خرج الشاب بعد هذا الحديث القصير بينه وبين الأستاذ حسبو ، يفكر بعض التفكير لا فى هذه المرأة وما قالته له أو قاله عنها الأستاذ حسبو . . لأن الأمر سواء أكان هذا أم ذاك فهولا يعنيه فى شيء ، وإنما الذى فكر فيه هو معاملتها هذه القاسية للأستاذ حسبو ، وثورتها دائما عليه ، وغلظتها له فى القول كلما رأته أو تحدثت معه . بيد أن التفكير فى هذا سرعان ما نسيه أيضاً ، إذ شغل عنه بألفية ابن مالك التى راح يقرؤها فى سره وهو يسير فى الطريق ، سره أن وجد نفسه قد حفظها وحفظها جيداً مجوداً ، وفهمها أيضا فهماً مفهماً كما يريد الشيخ زناتى . وقد أبهجه ذلك إلى حد كبير ، وجعله يتذكر أمه ، ودعواتها الصالحة إليه .. والتميمة التى طلبت منه أن يحتفظ بها فى جيبه ، وفكر فى أن يكتب لها رسالة ليطمئنها عليه ، وعلى النجاح الذى أصابه حتى الآن ، فى السكن ، وفى معرفة الأستاذ حسبو وصداقته وحبه إياه ، وفى الكلية وتعلقه بدروسه ، وحفظه ألفية ابن مالك حفظاً جيداً مجوداً . فكر أن يكتب إليها بكل هذا ولكنه تذكر الأستاذ الشرنوبى أبا إسماعيل ، وزوجته الست صبرية ، وابنتهما سلوى ، فى الرسالة التى فى جيبه إليهم ، والسلام الذى حملته أمه للرجل وأسرته .

فكر فى كل هذا ، وفى ضرورة الكتابة إلى أمه ، لكن بعد أن يقوم بهذه الزيارة عصر اليوم . لذلك عندما خرج من الكلية لم يذهب إلى البيت ، وإنما ذهب إلى العباسية ، وراح يسأل عن الوايلية الصغرى وشارع (. .) والبيت رقم (. .) بيد أنه عندما عثر على البيت ، وبدأ

يصعد السلم ، انتابته أحاسيس كثيرة ، أحس بشيء من الاضطراب ، حتى إنه وقف لحظات على السلم ، وفكر فى أن يرجع من حيث أتى ، وأن يرجئ هذه الزيارة إلى فرصة أخرى ، لأنه لم يطمئن إلى أشياء كثيرة ، ولأنه يخاف أيضاً من أشياء كثيرة . . هل يستقبله الأستاذ الشرنوبى بالترحاب الذى ينتظره ، أو أن السنين الطويلة التى فاتت ، والمركز الكبير الذى يشغله فى وزارة المعارف العمومية ، والأيام التى من طبيعتها أن تغير كل شيء ، قد غيرت من الرجل ، فتجعله يستقبله — إن استقبله — فى فتور وعدم ترحاب ، وينظر إليه — إن نظر — من أعلى ، كما ينظر أهل السماء إلى أهل الأرض ؟ والست صبرية زوجته . هذه السيدة الطيبة القلب الكريمة الخلق ، هل تتلقاه كما كانت تتلقاه وهو طفل فى الحارة ، هاشة باشة مرحبة ، تأخذه بين أحضانها وتقبله ، وتملأ له جيبه بالحلوى ، أو غيرت الأيام حالها ، فترفض حتى مجرد الترحيب ؟ وسلوى . . وما إن ذكر الاسم وجرى به لسانه ، حتى اضطرب وتعالت دقات قلبه ، وشعر بما يشبه الخوف يلم به ويطبق على أنفاسه . ترى ألم تزل هى الأخرى كالعهد بها طفلة لم تزد على أمس إلا أصبعاً كما قال الشاعر ، أم كبرت ونضجت ، وأينع فرعها ، ورق عودها ، وغدت ستاً مصرية متحضرة ، فيصعب عليها معرفته إن رأته ، أم تذكره وتذكر أيامة والقرية والزقاق والحارة ، وليالى الجرن ، وفوانيس رمضان ، والاستغماية ، والحلقة والمضرب وو . . ؟ وأحس بأنفاسه تطبق عليه مرة أخرى . . أأنستها الأيام والسنون هذا كله ؟ هل تعرفه ؟ هل تلقاه ؟ هل يعرفها هو ؟ هل يلقاها ، ويتحدث إليها وتتحدث هى إليه ؟

وحانت منه التفاتة إلى قدمه ، وهو يصعد السلم متخاذلا فرأى الحذاء الأصفر الفاقع ، والإبزيم الذى ينام ملتمعاً على جانبيه ، فشعر بشيء من الارتياح .. وزادته هذه الراحة اطمئناناً وهو ينظر إلى الكاكولة الكشمير الفضفاضة التى تزين طوله الفارع وقوامه الممشوق ، وازداد

اطمئناناً أيضاً عندما رأى على مرآة خاطره عمامته البيضاء التى تزين رأسه ، وشالها المزهر الأبيض الناصع البياض الذى يلفه حولها . وكان قد وصل إلى باب الشقة ، ووقف أمامه ، فبسمل وقرأ بعض آيات قصار من سورة الحجرات تعود أن يقرأها ، كلما أراد أن يخرج من حرج .

ومد يده وضغط على الزر الكهربائى ووقف ينتظر ، وكل حواسه عيون متجهة إلى الباب ، ومد يده مرة أخرى ليضغط على الجرس ثانية ، بيد أن الباب فتح فجأة وظهرت غادة حسناء لم تر العين أجمل منها . وما إن رأت أمامها رجلا عملاقاً فارع الطول ، حتى اضطربت ، وردت الباب سريعاً فى وجهه ، وهى تسأله من خلف الباب : ماذا يريد ؟ فلم يجب على الفور ، بل لم يجب إطلاقاً ، لأنه ارتبك ارتباكاً شديداً ، وشعر بالخجل والخزى يكتنفانه ، لأنه ظن نفسه قد أخطأ فى العنوان ، بيد أنه عندما سمعها تعيد عليه السؤال مرة أخرى وتسأل من هو ؟ وماذا يريد ؟ وهل هو فعلا يقصد هذا البيت بالذات ؟ استطاع أن يحرك شفتيه ويتمتم بصوت خفيض كاد أن يتلاشى قبل أن يبلغ أذنيها الواعيتين : أليس هو منزل الأستاذ الشرنوبى أبى إسماعيل .

فأجابه الصوت الأنثوى الرقيق من خلف الباب : أجل . من حضرتك ؟

— أنا . إمام . .

— من ؟ . . إمام ؟

فاضطرب الشاب أكثر وهو يقول : إمام بلتاجى حسنين ، من البتانون مركز المنوفية .

فعقدت الدهشة لسان الفتاة وهى تفسح لعينيها فرجة فى الباب وتنظر إليه دهشة مستغربة : إمام ابن خالتى آمنة ؟ !

ولم ينطق الفتى بشىء ، لأنها كانت قد اندفعت إليه ناسية نفسها

حتى كادت ترتمى فى أحضانه وتعانقه فى شوق زائد وحرارة ، وهى تسحبه من يده سريعاً إلى الداخل ، والفرحة تكاد تطير صوابها ، حتى إنها تركته واقفاً فى قلب صالة البيت الفسيحة حائراً أين يجلس ؟ وراحت تركض فى طفولة ، وهى تنادى صارخة فى فرحة لا حد لها : ماما ، ماما ، إمام ابن خالتى آمنة .

وخرجت الست صبرية التى تقدمت بها السن بعض الشىء من المطبخ ، وكانت تحمل فى يدها مصفاة فيها بعض حبات الطماطم ، وهو الشراب المفضل عند الأستاذ الشرنوبى . وما إن رأت إمام حتى ألقت بالمصفاة سريعاً ، ومسحت يديها سريعاً أيضاً فى ثوبها المنزلى الفضفاض ، وتلقفت الشاب فرحة بين أحضانها ، وعانقته وقبلته كما كانت تعانقه وتقبله وهو صبى يلعب مع سلوى فى الحارة ، ثم راحت مرة أخرى تعانقه وتقبله وهى تقول فى غبطة وسرور وعيناها تتفحصانه من الرأس للقدم : صلاة النبى ، صلاة النبى . شباب وجمال ، وطول وعرض .

فقالت سلوى وهى لا تكاد تملك نفسها من السعادة : تصورى يا ماما أننى لم أعرفه عندما رأيته ، وكدت أغلق الباب فى وجهه .

وكان هذا اللقاء الكريم قد أطرب الشاب إلى حد كبير ، فقال مسروراً وهو ينظر إلى سلوى ، وكأنه ينظر إلى شىء ينير عينيه : أنا أيضاً لم أعرفك ، حتى إننى خشيت أن أكون قد أخطأت العنوان .

فقالت الست صبرية وهى تجلسه بجوارها على الكنبة مرحبة : عمر . سبع سنوات . من أيام البتانون للآن .

وجلس الثلاثة يتحدثون ، عن الزمن والأيام ، والسنوات السبع التى مرت ، وقفزت بسلوى وإمام من الطفولة إلى الشباب ، كما راح الشاب يحدث الست صبرية وسلوى عن القرية وأهلها ووفاة والده ، ومرض والدته ، وداء الكبد الذى يعاودها من حين إلى آخر .

وكلما امتد الوقت بالشاب وأراد أن ينصرف ألحت عليه سلوى فى البقاء ، وأقسمت الست صبرية عليه أن يظل حتى العشاء ، وحتى يحضر الأستاذ الشرنوبى الذى سيسر كثيراً لرؤيته ، والذى كان دائم السؤال عنه وعن أخباره . وبلغ من حرص سلوى على بقائه أنها غافلته ، وسرقت منه العمامة التى كان يضعها بجانبه على أحد المقاعد حتى لا يخرج . وظلوا كذلك إلى أن أقبل المساء ، وعاد الأستاذ الشرنوبى من الخارج ؛ وما إن دق الجرس وعرفت سلوى أنه والدها حتى راحت فى طفولة وسرور تعد له مفاجأة . . إذ تركت الشاب الذى يجلس معها فى الصالة ، وأسرعت تفتح الباب لوالدها ، ثم اختبأت خلف الباب بدون أن يراها والدها أو يراها الشاب ، وما إن خطا الوالد إلى الصالة . ورأى رجلا غريباً فى البيت حتى وقف مبهوتاً ، يسأل من هو ؟ ولولا الضحكات التى لم تستطع أن تكتمها سلوى ، وانطلقت منها مدوية خلف الباب ، لتحرج موقف الشاب .

وكما استقبلته سلوى ، واستقبلته أمها ، استقبله أيضاً الأستاذ الشرنوبى ، وراح يهنئه على نجاحه الكبير فى الدراسة ، وكيف أنه حقق رجاء والده — رحمه الله — فيه ، وكيف أن الأستاذ الشرنوبى كان يحرص دائماً على تتبع أخباره أولا بأول ، ولذلك ساءه جداً عندما عرف من الشيخ فراج عمدة البتانون — الذى قابله مصادفة فى ميدان الخازندار وشرب معه فنجاناً من القهوة — أن إماماً هنا فى القاهرة منذ زمن ، ولم يتصل به .

وراح الأستاذ الشرنوبى فى حنان الأب ووفاء الصديق يرحب بالشاب ، ويسأله عن مدرسته ودروسه وسكنه الجديد ، وعما يحتاج إليه من مساعدة. ولما قدم له الشاب الرسالة التى قد أملاها عليه الشيخ بسيونى مأذون الشرع ، وقرأها تأثر جداً ، إذ استشعر من ثناياها مدى ما يعانيه الشاب من فقر بعد وفاة والده ، ومدى حاجته إلى المعونة الصادقة فى القاهرة الواسعة ،

التى يتخبط فى خضمها كل فقير معوز يطلب العلم فى معاهدها .

وود الرجل أن يقرض الشاب قرضاً حسناً يعينه على حياته الشاقة وضيق ذات اليد الذى يقاسيه ، بيد أنه خشى أن تؤلم هذه المعونة الشاب ، وأن تحدث حرجاً فى نفسه وكرامته وعزته الريفية التى يفخر بها ، ولذلك عرض الأمر على زوجته الست صبرية ، وتفاهما فى الأمر ، ثم اتفقا على حل يجنب الشاب هذا الحرج ، ويحفظ له كرامته وعزته وكبرياءه ، وهو أن سلوى فى حاجة إلى دروس فى النحو واللغة والدين ، وأن الشيخ الخزرجى يعطيها هذه الدروس مرتين فى الأسبوع نظير مائة وخمسين قرشاً ، فلماذا لا يستعاض بالشاب عن هذا الشيخ ؟ والشاب أقرب صلة بهم ، وأكثر مودة لهم ، وهو للفتاة بمثابة الشقيق ، وللبيت بمكانة أحد أفراد أسرته. ورحب الأستاذ الشرنوبى بفكرة زوجته الصائبة ، وشكرها عليها ومثلها لها ضاحكاً كما كان يمثل لها دائماً أفكارها الصائبة التى كانت تواتيها من حين إلى حين ، بأنها كالساعة المعطلة دائماً تمر عليها لحظة ما تكون فيها أضبط ساعات العالم ! وأسرع من فوره وعرض الفكرة على الشاب ، بدون أن يشعره بالهدف الذى يرمى إليه من ورائها ، فرحب بها الشاب ترحيباً كبيراً ، وعدها مفخرة له وشرفاً كبيراً أن يكون أستاذاً لابنة أستاذه ومربيه .

وقضى السهرة تلك الليلة فى بيت الأستاذ الشرنوبى ، وتعشى مع الأسرة ، وظل معها إلى وقت متأخر من الليل ، يتحدث ويسمر ، كما كان يتحدث ويسمر بين أمه وأبيه . ثم انصرف على أن يعود أول الأسبوع القادم ليبدأ دروسه مع الفتاة . . وودعته الأسرة بحرارة ، كما استقبلته ، فرحة به كما لو كان ابناً لها عاد من غيبة طويلة .

وبعد أن انصرف الشاب ، سألت الست صبرية زوجها عن مستقبل الشاب ومركزه فى الهيئة الاجتماعية ، بعد أن ينال شهادة التخصص ، والوظيفة المحترمة التى سيتقلدها ، والمرتب الذى سيتقاضاه.. ولما أجابها الأستاذ الشرنوبى عن كل سؤال ، وكانت إجاباته جميعها فيها ما يطربها ويثلج

صدرها ، أطرقت قليلا ثم نظرت إليه وكأنها واتتها فكرة من تلك الأفكار الصائبة التى توافيها من الحين إلى الحين . . وما إن أشرقت عيناها نوراً بالفكرة ، حتى أحست سلوى بما ترمى إليه الأم ، فتورد خداها ، وانصرفت خجلة إلى مخدعها ، متعثرة الخطوات ، مضطربة الفؤاد ، وتسللت إلى فراشها الدافئ الوثير ، وانطرحت عليه مغمضة العينين ، مسبلة الهدبين الطويلين . . ومن ثم راحت تستعيد حوادث كثيرة ، وأحداثاً جمة ، يرجع العهد بها إلى ما قبل سبع سنوات أيام أن كانت طفلة تعيش فى قرية البتانون ، وتقطن زقاق المرعشلى ، وتلعب فى الحارة ليالى رمضان ساهرة فى الجرن تلعب الاستغماية ، وجمال المالح ، وحلقة ومضرب ، والكرة الجورب . . وفجأة زمت شفتيها ، وجحظت عيناها ، وظلت كذلك جاحظة العينين ، إلى أن غلبها النوم فنامت مطبقة العينين على هذه الأحلام الجميلة ، وعلى هذه الذكريات التى يعيش عليها الإنسان دائماً أكثر العمر إن لم يكن العمر كله .

١٣

فى حياة بعض الناس ، فى أحاسيسهم ومشاعرهم ، أشياء كثيرة غريبة الشأن . أشياء ليست مجهولة لديهم ، وليست أيضاً معروفة عندهم ، فهى أشياء تعرف ولا تعرف ، نحبها ونحس بها ونكاد نلمسها بأيدينا ونراها بأعيننا ولكننا لا نعرف شيئاً عنها . ما هى ؟ ما سرها ؟ ما حقيقتها ؟ إنها أشبه بالخيوط الدقيقة التى لا ترى . . والتى تربط بعض الناس ببعضهم الآخر ، وتصل بينك وبين الآخرين فى المشاعر والأفكار والأحاسيس ، وهى التى نعبر عنها أحياناً بقولنا بين القلب والقلب رسول . وهذا الرسول كثيراً ما يكون رسول حق وصدق ، لا يعرف الكذب ولا النفاق ، وهو إن همس فى أذنك شيئاً ، فإنما يهمس لك بما فى قلب

الآخر ، فإن كان صدقاً وإخلاصاً لا يزيده شيئاً أو ينقص منه شيئاً ؛ وأحس الفتى وهو يسير فى الطريق ، بأن شيئاً ما يبهجه ، ويفيض عليه ، ويغمر فؤاده ومشاعره ، ويكاد يربط تلك المشاعر وذلك الفؤاد بسعادة ضخمة ، سعادة جعلته يسير فى الطريق مرحاً ، خفيفاً يكاد يطير بجناحين . . إنه يضحك ويبتسم ، ويسير ويقفز ، وينظر ذات اليمين مرة ، وذات الشمال أخرى . إنه يريد أن يقطع كل الطرقات ، ويرى كل المارة ، ويمتع عينيه بكل شىء ، بالمركبات التى تروح وتجىء ، بالأنوار التى تتألق فى عينيه . إنه لا يريد أن ينام ، إنه لا يريد لهذا الليل أن ينقضى ، إنه يريد الآن أن يرى أمه ، وأن يرى الشيخ نوفل ، والشيخ بسيونى مأذون الشرع ، وكل من يحب . يريد أن يرى الذين يحبونه جميعاً ، ولكنهم الآن فى البتانون ، وهو فى (مصر) . مصر الواسعة ، مصر أم الدنيا . . مصر التى كان يسمع عنها فى الكتب ، وتذكر الذين عرفهم من أهلها ، وذكر عدة أسماء . . وتذكر محمدين . . ولوكاندة المدينة المنورة ، ومسجد سيدنا الحسين الذى يجاورها . . وكان قد بلغ ميدان العتبة الخضراء ، وأحس برغبة شديدة فى أن يرى محمدين ، وأن يجلس إليه ، ويتحدث معه وهو يشرب الشاى . وسأل أحد المارة فدله على الطريق . وراح وحده فى الليل يقطع شارع الأزهر إلى أن بلغ المسجد ، فعرف اللوكاندة من تلقاء نفسه . . واستقبله محمدين استقبالا جميلا . . وجلس معه يتحدث ويشرب الشاى ، ويقص عليه قصة اللقاء الأول بعد سبع سنوات لسلوى ووالدتها الست صبرية . . ووالدها الأستاذ الشرنوبى . ورأى محمدين النور الذى يتألق فى عينيه وهو يتحدث ، والفرحة التى تغمر فؤاده وهو يذكر اسم سلوى ، ففطن إلى شىء ، ولذلك قال له وهو يناوله كوباً من الشاى : عليك إذن أن تسهر الليل بطوله ، ولا تنام فى النهار إلا قليلا .

فأجاب الشاب مستغرباً : لماذا ؟

ـ لكى تستطيع أن تحصل على الشهادة :

فاندهش أكثر لهذا الحديث الدخيل الذى لا صلة له بما كانا يتحدثان فيه ، وقال وهو ينظر إليه مستغرباً جداً : وما الـ لة بين حصولى على الشهادة ، وحديثى معك عن سلوى وأسرتها ؟

فقال محمدين ضاحكاً : إذا استطعت أن تحصل على خمسة القروش ، تستطيع أن تنام فى لوكاندة المدينة المنورة ، أما إذا حصلت على الشهادة فقد تستطيع أن تحصل على سلوى .

فارتبك الشاب واحمر وجهه خجلا ، وكاد كوب الشاى أن يسقط من يده ، لولا أن محمدين فطن إلى ارتباكه فقال وهو ينهض وينهضه معه : ما رأيك لو صلينا الفجر فى سيدنا الحسين ؟

فزالت ربكة الشاب ، وظهر الارتياح على وجهه ، وراح يسير بجواره فى الظلام ، ويخترق معه فى صمت الزقاق الممتد خلف المسجد مباشرة ، إلى أن دخلا المسجد ، وذابا فى زحمة المصلين . ولما انتهت الصلاة ، وودع الشاب صديقه محمدين ، وجد نفسه وهو يودعه يضغط على يده ، ويشكره من كل قلبه شكراً حاراً ، لا على اللحظات الجميلة التى قضاها معه ، ولا على كوب الشاى الذى قدمه إليه ، وإن كان محمدين قد ظن ذلك ، ولكن حقيقة هذا الشكر الحار كانت لأشياء أخرى كثيرة هامة لفت نظره إليها محمدين بكلمة عابرة .

إذا حصلت على الشهادة ، استطعت الحصول على سلوى .

فانطبعت على ثغره ابتسامة عريضة كادت تنير وجهه كله ، وتنير أيضاً الطريق أمامه ، بيد أنها سرعان ما أخذت تغيب إذ اكتنفها بعض الغمام الذى تمثل له فى الشهادة نفسها ، والطريق إليها ، وسبيل الحصول عليها ، وتلك الطلاسم العديدة : الكنز على الدر المكنون ، الرسالة التفسيرية فى التوحيد ، حاشية اليازجى فى المنطق « هذه الكتب التى ليس فيها من الجمال أو اليسر غير أسمائها فقط » .

وأراد أن يقول لنفسه شيئاً ، بيد أنه كان قد بلغ البيت ، فمد يده إلى ذلك الجنزير الطويل ، ورفع به سقاطة الخوخة فى حذر شديد حتى لا يسبب للمعلمة المستغرقة فى نومها فى الغرفة المجاورة قلقاً أو إزعاجا . ثم اخترق الدهليز على أطراف قدميه فى الظلام ، حتى بلغ باب غرفته ، فأدار مفتاحها فى حذر ورفق . وما إن عاد فأغلقه أيضاً فى حذر ورفق ، حتى تنفس الصعداء ، وراح — فى ظلام الغرفة لأنه لم يشأ أن يشعل مصباحها الزجاجى — ينزع ملابسه رويداً فى هدوء واطمئنان وسعادة طاغية لم يستشعرها فؤاده منذ زمن بعيد . ولما وضع ملابسه فى أماكنها المعدة لها : العمامة فى السقط المغلف بالورق السميك ، والكاكولة على المسمار ، والحذاء فى مكانه من الأرض ، ولما اطمأن إلى ذلك كله ، استلقى على سريره كما تعود أن ينام عارياً إلا من سرواله الطويل الذى تنسدل أطرافه إلى ما بعد الساقين ، وبقى صدره العريض عارياً تغطيه تلك الطبقة السوداء من الشعر الكث الخشن . ومن ثم راح وهو مستلق على ظهره يسبح فى دوامة من الأحاسيس الجميلة والآمال العراض ، والأمانى العذاب ، وهو يستعرض بعينيه الواسعتين المعلقتين فى الهواء بسقف غرفته الرطبة المظلمة ، شريط حياته الطويل . . القرية . . دهليز المرعشلى . . الزقاق . . عم نوفل . . طبلة المسحراتى . . الجرن . . فوانيس رمضان . . سلوى . . الثلاث بيضات التى سرقها . . الحلوى الطحينية التى ابتاعها لسلوى .. الضربات التى سددتها له أمه . . طبلية العمدة . . ورك الدجاجة . . السطح . . كومة التبن . . وفجأة زم شفتيه وتصلبت أصابعه الخشنة وهو يغرسها فى الوسادة النائم عليها ، وعيناه تبرقان بريقاً خاطفاً ، وأنفاسه تترى لاهثة متقطعة ، فيعلو منها صدره وينخفض ، وهو يستعرض حادث الكرة التى سرقتها سلوى ، وخبأتها فى صدرها ذات يوم .

وظل كذلك لحظات يعلو فيها صدره ويهبط ، وتبرق عيناه وتلتمع ،

وتسرع أنفاسه وتنقطع ، إلى أن اكتحلت عيناه بالسواد، وغامت نظراته خلف سحابة من الخيالات المتشابكة التى لم يستطع أن يتبين منها شيئا ، إلى أن أطبق عينيه وأطبق أيضاً شفتيه وسبح فى نوم عميق ، وما زالت أصابعه الخشنة مطبقة على الوسادة .

١٤

المرء بأعصابه ، هذه حقيقة مقررة ، ولكنها ليست الحقيقة كلها، لأن هناك قوة غير عادية هي التى تتحكم فى هذا العضو المادى ، أو هذه الأعضاء التى يتكون منها العصب على حد قول الأطباء .

وهذه القوة غير العادية لم يعرف لها اسم محدد حتى الآن ، فتارة هى الإحساس ، وتارة هى الشعور ، ومرة هى الفؤاد ، وأخرى هى العواطف . ولعل هذا الاسم الأخير هو أقرب الأسماء إليها ، لأننا فى حقيقة الأمر نعيش بعواطفنا . وإن عواطفنا هى التى تتحكم فى أعصابنا هذا التحكم المرير ، وهى التى تجعلها بلا أدنى سبب ترغى وتزبد وتثور إلى درجة الغليان ، وهى نفسها أيضاً التى تجعلها تهدأ أو تطمئن وتهبط إلى درجة الصفر .

ونقول بلا أدنى سبب ، لأن نظرة عابرة تلقيها عينك مصادفة على شيء ما كفيلة بأن تقلب حياتك رأساً على عقب ، وتجعلك تعيش فى ضيق وفى قلق ، وفى جحيم أيضا ! وهذا ما حدث بالذات لشفعات أو للمعلمة شفعات التى لا ترضى بغير هذا اللقب بديلا ، فهى منذ اللحظة التى وقعت عيناها على هذا الشاب الريفى الساذج وهى تشعر بأنها فى ضيق . ضيق تبعده عنها أحياناً فيبتعد ، ولكنه سرعان ما يعود متسللا إليها من حيث لا تدرى . وهو لا يلم بها فى أول الأمر مظلماً مقبضاً بحيث يثيرها ويقلقها ، وإنما هو يلم بها كما يلم نسيم الفجر الرقيق

العليل بالزهرة الجافة الظامئة فينديها ويرطبها ويرويها ويفتح أفواهها للحياة ، وأوراقها للدنيا ، وعبيرها للخلود . ثم فجأة تطلع الشمس القائظة فتحيلها إلى الجفاف والقحط والظمأ الذى لا يستشعر حرقته إلا من عرف نعيم الارتواء .

كانت هذه هى حالها تماماً منذ أن رأت « إمام » ، تذكره وتذكر اللحظة التى رأته فيها ، وكتفه العريضة التى رأتها تحمل بهلول ، ويده الخشنة الغليظة التى شاهدتها قابضة على معصمها فى عنف فتضطرب ، وتسر ، وتشعر بفيض من الرضا ، ثم فجأة تذكر أشياء أخرى كثيرة ، هذا الإنسان العابر ، هذا الطالب الذى لا يعدو أن يكون واحداً من آلاف الطلاب الذين تمتلئ بهم القاهرة كل عام . . سنه ، سذاجته ، الفرق الهائل الذى بينها وبينه ، كبرياؤها ، غطرستها ، سطوتها فى الحارة والزقاق والحى كله ، القاصى والدانى يرهبها ويخشاها . . تذكر كل هذا ، فتبعده عنها سريعاً ، والغريب أنه يبتعد ، ويبتعد سريعاً كما تريد له ، ولكن هذا الضيق الذى تشعر به ، هذا الظمأ الذى تعيش فيه ، هذا الجفاف الذى يكاد يقتلها ، هذا الظمأ الذى يكاد يحيل كل جارحة فيها إلى رماد . . هذه النار التى تكاد ألسنتها تأكلها أكلا . . ما هذا ؟ وما هو ؟ وأين كان ؟ . . ولماذا لا يأتيها إلا إذا ذكرت هذا الشاب ، ورأت صورته ماثلة لعينها ، أو بمعنى أصح لماذا لا تستشعر كل هذا الظمأ إلا إذا أبعدت صورته عن خاطرها ؟ . .

إنها من غير شك تريد منه شيئاً ، وهى تعرف جيداً هذا الشىء الذى تريده ، وتعرف أيضاً كيف تحصل عليه ، وتعرف كذلك أن لها من الوسائل ، وعندها من الأسلحة التى زودتها بها الطبيعة ما يجعلها تظفر دائماً بما تريد ، وإنها فى تاريخ حياتها الطويل لم يستعص عليها أمر ، فما بالها اليوم تتعقد أمورها كل هذا التعقيد ، وتضيق بحياتها وبنفسها كل هذا الضيق ، وتستشعر كل هذا التعلق الذى يشبه تماماً

الخوف من الإخفاق ؟ ! ألأنه أغلظ لها فى القول ؟ ألأنه كاد يضربها ويطردها من غرفته شر طردة ؟ ألأنه لم يطر جمالها ، ولم يأخذه هذا الجمال ويستحوذ عليه ، ويجعله يسجد أمامه ، كما سجد أمامه جميع الرجال الذين رأتهم وأطروه وأخذوا به ؟ أم لسنه الصغيرة ، وعمره هذا الذى لم يتجاوز الثمانية عشر عاماً ؟ ولكن أهى من البلاهة بحيث يستهويها رجل فى هذه السن ، وتشتهى إنساناً فى عمر أولادها لو أنها أنجبت وكان لها أولاد ؟ أم ترى هذه السن نفسها هى التى تغريها به وتحببها فيه وتقربها منه ؟

وشعرت بشىء كثير من الضيق يلم بها ، وازداد هذا الضيق عنفاً عندما جاء الليل ولم يجئ هذا الشاب معه إلى غرفته كما تعود أن يجىء ، وراحت فى قلب فراشها الدافئ الوثير ، تتقلب ذات اليمين وذات الشمال ، تدفن رأسها فى الوسادة حيناً ، ثم تريحها عليها حيناً آخر ، وتلقى بالغطاء من على جسدها مرة حتى يتعرى جسدها تماماً ، ثم هى مرة أخرى تشد الغطاء عليها ، وتلف جسدها فيه كأنها تخاف من شىء يتربص بها . وكلما سمعت حركة خارج غرفتها ، أو أحست بدبيب فى الدهليز ، شعرت بشىء من الراحة ، وفتحت عينيها ومدت أذنيها مداً طويلا فى الظلام ، وكلما أدركت أنه دبيب بهلول فى السرجة أو خطوات الأستاذ حسبو يدخل غرفته أو يخرج منها ؛ عاودها الضيق ، ورفست الغطاء بقدمها فى عنف ، ثم عادت ثانية وفى العنف نفسه وسحبته عليها ولفت جسدها فيه ثانية ، وفجأة تذكرت شيئاً أطربها وهدأ من أعصابها ، وجعل الابتسامة الجميلة ترتسم على شفتيها الغليظتين . إنه لم يأت حتى الآن لأنه تعود أن يصلى العشاء فى المسجد ، وإذن فهو سيأتى تواً وبعد صلاة العشاء مباشرة ، وسوف تنتحل عذراً أى عذر لتراه وتلتقى به ، لا لشىء ولكن لترى هذا الشاب الذى يقلقها طيفه كل هذا القلق ، ويحيرها كل هذه الحيرة ، حتى كأنها ترى فيه شيئاً لم تره فى غيره من الرجال ،

ولكن ما هذا الشيء ؟ . . إنها تريد أن تعرفه ، تريد أن تراه ، وتراه الآن بل فى هذه اللحظة . . إنه لا بد أن يكون شيئاً ، هاماً . . هائلا . . ولكن إلى هذا الحد تمتد بالناس صلاة العشاء فى المساجد ؟

وأرادت أن تعرف الوقت ، كم الساعة الآن ، وهل فرغ الناس منذ زمن بعيد من صلاة العشاء ؟ أو ما زلوا فى المساجد يصلون . ؟

ونفضت الغطاء عن جسدها للمرة العشرين أو المائة بعد العشرين لا تدرى ، وغادرت الفراش ، ومدت يدها إلى المصباح الزجاجى الذى كان على البوريه وأشعلته . وألقت على نفسها نظرة فى المرآة ، فرأت أشياء كثيرة رضيت عنها بعض الشيء ، وأشياء كثيرة أخرى رضيت عنها كل الرضا ، ثم ألقت نظرة على ذلك الشحوب الذى ارتسم على وجهها ، وتلك الحمرة التى فى عينيها ، وكادت هذه النظرة تطول وتطيل وقوفها أمام المرآة ، غير أن شيئاً آخر لا تدريه على وجه التحقيق ، ولكنها تدرى أنه أهم عندها من هذا الاصفرار والشحوب ، وأهم عندها أيضاً من هذا الاحمرار الذى أحال لون عينيها إلى ما يشبه الدم ، جعلها ترتد سريعة من أمام المرآة . . ووقفت لحظات حائرة وسط الغرفة تنظر إلى لا شيء ، ثم مدت يدها إلى الباب لتفتحه ، وأحست أنها تمدها فى حذر ، وحذر شديد أيضاً ، وضايقتها هذه الحركة الحذرة منها ، إنها لم تتعود الحذر فى حياتها ، إنها دائماً المغامرة الجسور ، إنها كثيراً ما ألقت بنفسها فى النار ، فلم تحترق ، وإنما احترق الذين حاولوا إنقاذها ، فما بالها اليوم خائفة وجلة تكاد يدها ترتعش ، وصدرها يعلو ويهبط ؟ !

وحانت منها نظرة أخرى إلى المرآة ، بيد أنها لم تكد تفعل حتى وقفت فجأة جاحظة مسمرة العينين على شيء أمامها لم تره إلا الآن ، ولم تكن لتقدر أنها ستراه . . وراحت تنظر إليه وتدقق النظر فيه وتتفحصه جيداً ، وتتفحص أيضاً عينيها لعل نظراتهما خاطئة . . لعلهما تتوهمان ، ولكنها تراه فعلا ، وتراه مخيفاً هائلا برغم دقته ورقته . . إنه تماماً أشبه

بالخيط الرقيق الدقيق الذى لا يكاد يرى ، ولا تكاد العين تقع عليه إلا إذا كانت قوية الإبصار . . إنه يتسلل إلى رأسها خلسة ، وفى مهارة فائقة ، حتى لا يراه أحد ، إنه يختفى بين خصلات شعرها الأسود الفاحم حتى غدا بينها – بين تلك الخصلات الفاحمة الناعمة ، وفوق هذا الرأس الصغير الجميل الذى يتوج أجمل وجه عرفته امرأة ، إنه يبدو فوق هذا الرأس تماماً أشبه بالكسر الذى لا يكاد يرى فى آنية غالية . ومدت يدها التى تقلصت أصابعها وارتعشت . . مدتها إلى هذا الثعبان الدنىء الذى اختفى فى طيات شعرها ، وقطعت تلك الشعرة الدخيلة التى لم تكن قط لتقدر أنها ستراها بيضاء !

إنها إذن تلعب لعبة خطرة لم تأمن عاقبتها ، إذن هى تخشى الإخفاق ، ولكن لماذا تخشاه هذه المرة ، وهى التى لم تجربه قط فى حياتها ؟ بل لماذا ذكرته الآن ؟ وما الذى جعل هذا الخاطر يمر بخيالها ، أو هذه الكلمة تمس شفتيها ؟ ورنت فى أذنها كلمة . . بل كلمات فراحت فى انتباه شديد تصغى إليها وكأنها تصغى إلى حديث يدور بين اثنين يتحدثان على مسمع منها . .

وهل ستغفر أنت لى معك اليوم . . تهجمى عليك . . وغلظتى لك فى القول ؟ . .

– وهل يملك الابن إلا أن يغفر لأمه كل شىء ؟

وزمت شفتيها ، وزوت أيضاً ما بين عينيها ، ووقفت لحظة فى مكانها خلف الباب جامدة لا تطرف . . ولكن ما الذى يضايقنى فى هذا القول ؟ . . وما الذى أريده منه حتى يضايقنى منه هذا القول ؟ . . إن الذى أريده منه شىء واحد . . واحد فقط هو أن يخرج من بيتى فوراً الليلة . . هذه اللحظة بالذات .

واتخذ وجهها الذى ما زال يكتنفه بعض الشحوب ، واتخذت أيضاً عيناها اللتان بلون الدم ، صورة اللبؤة العجوز الثائرة التى فقدت وعيها ،

ومدت يدها بعنف وفتحت الباب ، وما إن توسطت الدهليز الذى اكتنفت الظلمة كل جوانبه حتى صرخت بأعلى صوتها صرخات مدوية .. فى رعب وخوف شديد . . حسبو . . ولما لم يجب عاودت النداء عليه مرة ثانية ، فلم يرد . حينئذ اقتحمت عليه الباب فى عنف ، ودخلت منه كالغول الكبير ، وما إن رأته نائماً ، ورأته مخموراً يترنح والزجاجة على صدره حتى دوى صوتها فى الليل كالصاعقة : أطرش ، هل فقدت سمعك ؟ . . هل أصبت بالصمم ؟ . .

وروع الأستاذ حسبو وهو فى مكانه ، وأطبق عليه الخوف ، وتكور أشبه بالقنفذ محاولا ما استطاع أن ينهض من مكانه وينتصب واقفاً وينحنى أمامها احتراماً ، ولما تمكن من هذا كله بعد جهد ، تمتمت شفتاه المرتعشتان ، واضطربت عيناه اللتان لا تكادان تبصران شيئاً من فرط شرب الخمر ، وقال : لم أسمع النداء يا معلمة . .

ــ سمعت الرعد ، قل لى كم الساعة الآن ؟ . .

ــ كما تريدين لها أن تكون يا معلمة .

فاحتدم غيظها وقالت : أنت الذى يجب أن يدور فى الساقية بعد بهلول .

ــ أدور ، يا معلمة . .

ــ أنت حيوان . .

ــ ولكنه حيوان أليف ، يا معلمة ! . .

فصرخت فى وجهه صرخة مفاجئة ، أرعبته وجعلته يرتعش فى مكانه ، ويرتعش أيضاً وهو يبحث عن الساعة التى أخطأ مكانها تحت الوسادة ، ولما نفد صبرها وغاظها بحثه الطويل عن الساعة ، قالت وهى تنظر إليه فى ضيق لا حد له : هل حان موعد صلاة العشاء ؟

فتراخت يداه وهما لا تزالان تبحثان عن الساعة ، والتفت إليها مبتسماً فى دهشة كبيرة : سلامة عقلك يا معلمة ، أى صلاة عشاء ،

لقد انتهى الناس من صلاة الفجر أيضاً . .

ـــ ماذا تقول ؟ . .

نطقتها ذاهلة مرتعشة الشفتين وقد اكتنفها خجل شديد تراجعت على أثره وخرجت ، وما إن بلغت غرفتها وأغلقت الباب خلفها ، حتى ارتمت لاهثة على السرير ، ودفنت وجهها الذى أغرقته الدموع فى الوسادة إنها مجنونة . . مجنونة . . لا بد أن تكون قواها قد اختلت ، وعقلها قد ذهب ، حتى استأهل منها التفكير فى هذا الشاب كل هذا الوقت الطويل. كل هذه اللوثة التى جعلتها تسأل الناس عن صلاة العشاء ، فى حين أن صلاة الفجر قد انتهت وأوشك الليل أن ينتهى . وأجهشت باكية تنتحب ، وراح صدرها على الفراش يعلو ويهبط . . وظلت كذلك إلى حين . .

ولكنى ذهبت إلى حسبو لكى يطرد هذا الشاب فوراً ، فمالى نسيت ذلك ، ورحت أسأله عن الساعة ؟ وهل فرغ الناس من صلاة العشاء ؟.. ومع ذلك لم يحدث شىء . . سوف أطرده أنا اليوم . سوف أجعله لا يبيت فى هذا البيت ليلة أخرى . . إن هذا هو أسلم الأشياء . . إن هذا لا بد أن يكون . . لا بد أن يحدث . . ويحدث قبل أن ينقضى النهار .

واطمأنت إلى هذه الفكرة الصائبة ، وارتاح إليها قلبها راحة أضفت على كيانها كله الكثير من الهدوء والاطمئنان الذى كانت تعيش فيه قبل يومين ، قبل أن يأتى هذا الشاب إلى بيتها ويقطن فيه ، وتقع عيناها عليه ، ولما اطمأنت حقيقة إلى هذه الفكرة ، وأحست بكل هذه الراحة إليها ، أحست أيضا أنها فى حاجة إلى أن تنام ، فأغمضت عينيها ، واستغرقت فى نوم هادئ عميق ، بيد أنها لم تمكث طويلا حتى استيقظت ، ولم تدر ما الذى أيقظها ؟ أهى الشمس التى طلعت سريعاً ، أم ضجيج السابلة فى الزقاق ؟ ولكن الذى تدريه أنها بقيت فى مكانها فى الفراش

تسترق السمع إلى غرفة الشاب من خلف الجدار . . ولكن لماذا لم يستيقظ هو الآخر مبكراً كعادته ؟لماذا لم يذهب كعادته ليغتسل ويتوضأ؟ ولماذا لم تحدث خطواته بالقبقاب هذا الضجيج الذى تعودته ؟ . . لماذا لم يشعل وابور الجاز الذى تعودت أن يزعجها صوته فى النوم ؟ لماذا لم يقرأ فى كتبه ، وينفذ صوته إلى غرفتها واضحاً ، وإن كانت لم تعرف لفظاً واحداً مما يقال ، ولا معنى لحرف مما يقرأ ؟ . . ألم يجئ بعد ؟ ولكن أين ذهب ؟ وأين سيبيت إن لم يكن فى غرفته ؟ . .

وتسللت من فراشها فى حذر بدون أن تحدث أدنى حركة ، وأتت بمقعد وضعته أمام الدولاب الذى وضع خلف الباب الذى يفصل بين الغرفتين ، ووقفت عليه ، ومدت عنقها مدًّا طويلا كما مدت أيضاً نظراتها مدًّا طويلا ، وراحت تنظر من خلال الزجاج المغبر الذى عششت عليه العناكب وأقامت بيوتها فوق شراعة هذا الباب المعطل من عدة سنين . واستطاعت أن ترى . . وأن ترى أشياء كثيرة ، منها جسده الضخم الفتى الذى استلقى نصف عار على الفراش ، كما يستلقى الوحش المفترس على العشب ، ورأت أيضاً صدره العارى ، وتلك الظلة الكثيفة من الشعر الأسود الخشن التى عششت على الصدر ، ورأت الذراعين القويتين الغليظتين اللتين التفتا بجانبى الصدر العريض ، كما رأت أصابعه الخشنة الغليظة التى تشابكت فوق تلك الظلة من الشعر الكثيف ، وكأنها اللجم الفولاذية التى تكبح جماح الجواد القوى من الانطلاق وهو نائم . رأت هذا كله ، وحدقت إليه ، وأدامت النظر طويلا ، ولكن ماله ما زال مستغرقاً فى نومه حتى الآن ؟

وهبطت من على المقعد ، وأسرعت إلى الشال الأسود الخفيف ، ووضعته على كتفيها العاريتين ، وهمت بالخروج سريعاً ، بيد أنها توقفت لحظات عند الباب ، ثم عادت إلى البوريه وفتحت أحد أدراجه ، وأخرجت منه بعض أدوات التجميل ، ووقفت حيناً أمام المرآة تتزين

وتتجمل ، ولما اطمأنت إلى كل شيء ، تسللت من الغرفة تخطر على مهل ، وتسير على أطراف قدميها ، إلى أن بلغت باب غرفته ، وراحت فى حذر شديد تنقر عليه نقراً هيناً حيناً ، وأقرب إلى العنف حيناً آخر ، حتى استيقظ الشاب . وما إن فتح الباب ورآها أمامه وجهاً لوجه حتى أخذته المفاجأة ، واضطرب اضطراباً شديداً ، وراح فى خجل زائد ينظر إلى نصف جسده العارى ، ويحاول أن يختفى به خلف الباب ، ويحاول أيضاً أن يحرك شفتيه ليقول لها تأدباً : تفضلى . .

وما إن رآها استجابت ودخلت حتى ازداد اضطرابه ، وراح يركض كطفل باحثاً عن أى شيء يغطى به هذا النصف العارى من جسده ، ووجد أمامه تلك البطانية فالتف بها ، ونظرت هى إليه وإلى خجله الزائد ، وارتباكه الذى لا حد له ، وقالت : رأيت الشمس تطل من النافذة ، وسمعت الناس يروحون ويجيئون فى الزقاق ، وأنت لم تستيقظ كالعادة لتذهب إلى المعهد .

— أشكرك . .

قالها الشاب فى امتنان ، وشكر حقيقى ، فسرها منه ذلك ، كما سرها البشر الذى رأته مرتسماً على وجهه ، وقالت : لعلك لم تتأخر كثيراً عن موعد المدرسة ؟

فقال ممتناً وهو ينظر إليها : اليوم يوم الجمعة ، وهو يوم العطلة الأسبوعية . .

فبلعت أنفاسها ، وارتبكت بعض الشيء ، بيد أنها تمالكت نفسها وقالت فى شيء من الخجل : لم أكن أعرف ذلك . .

وصمتت لحظات ثم قالت : الأيام ، والليالى ، والدنيا ، والشقاء الذى أنا فيه ، كل ذلك أنسانى نفسى . . أنسانى حتى أسماء الأيام وأن اليوم هو يوم الجمعة .

ثم تهدج صوتها وقالت فى أسف : أنا متأسفة إذ أزعجتك ، وأقلقتك وأيقظتك من النوم .

ــ أبداً ، أبداً ، أنا أشكر لك هذا الاهتمام .

فقالت وهى تتجه إلى الباب محاولة الخروج : سأتركك لتنام بعض الوقت ، طالما أن اليوم عطلة .

ــ لا ، إننى أريد أن أخرج الآن .

فالتفتت إليه ، ورفعت مع التفاتها بعض خصلات ناعمة من الشعر كانت تنسدل على الظهر ، وقالت : وأين تذهب فى يوم عطلتك ؟

ــ تعودت كل يوم جمعة ، أن أقرأ الفاتحة لأبى فى ضريح أم هاشم ، ثم أصلى الجمعة فى مسجد سيدنا الحسين رضى الله عنه . .

فزوت ما بين حاجبيها وقالت وكأنها تذكرت شيئاً هاماً : فكرتنى ، أنا أيضاً متعودة كل صباح جمعة أن أزور قبر المرحوم ، أقرأ له الفاتحة وأوزع على روحه الصدقات .

فتطلق وجه الشاب بشراً وقال وهو ينظر إليها نظرة تقدير : هذا عمل جليل ، يحفظه لك الله ويثيبك عليه ويجزيك عنه خير الجزاء .

فرفعت ذراعها إلى الحائط ، فارتفع مع الذراع شىء ما على الصدر ، ولاح من طوق الثوب ، ثم قالت وهى تسند رأسها على الذراع المتكئة على الحائط ، وتنظر إليه بعين واحدة لأن عينها الأخرى كانت مختبئة خلف ذلك الشىء الذى برز على الصدر : أحقيقة أن الله يجزينا خير الجزاء إذا ما زرنا مقابر موتانا ؟ . .

ــ وأمرنا رسوله صلى الله عليه وسلم بأن نزورها دائماً إذ قال . .

والتفت إليها سريعاً ليذكر لها نص الحديث الشريف ، بيد أن عينه ما كادت ترى ذلك الشىء الذى ارتفع مع الذراع إلى أعلى وبدت قمته عارية فوق الصدر ، حتى ارتدت نظراته خجلى تضطرب ، وأدار وجهه بعيداً عنها ، وقال متمتماً نص الحديث فى خجل شديد وكأنه

يخاطب شخصا آخر : « زوروا القبور ، فإنها ترق القلب ، وتدمع العين ، وتزهد فى الدنيا ، وتذكر بالآخرة » .

فقالت وقد فطنت إلى اضطرابه الشديد . متعمدة أن تنزل ذراعها :

حديثك جميل .

— إنه حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم . .

فاقتربت منه بعض خطوات وقالت : كم أنا فى حاجة إلى رجل مثلك . يخفف عنى آلامى .

فقال وهو ما زال ينظر إلى بعيد : آلام الدنيا . . تكتب حسنات لنا فى الآخرة . .

فاقتربت منه خطوات أخرى وقالت : إننى جاهلة . . إننى أريد أن أعرف . قل . . اضرب لى مثلا . كيف أن هذه الدموع تنقلب فى الآخرة ضحكات ؟

— مثلا حزنك هذا الدائم على زوجك ، وحفظك لذكراه ، وحرصك على زيارة قبره كل يوم جمعة . هذه كلها حسنات يضاعفها الله لك يوم القيامة . . ويجزيك عنها جزاء طيباً . .

فصمتت حيناً ثم رفعت عينها إلى وجهه وقالت : واللواتى يتزوجن بعد وفاة أزواجهن .

— لكل فى الحياة ظروفه . وكثيراً ما تحتاج المرأة إلى الرجل ، ولا تستطيع أن تستغنى عنه .

فتهدج صوتها وهى ترنو إليه وتسأله متلهفة : قلت لك إننى جاهلة ، فوضح لى ما تقول . كيف لا نستطيع أن نستغنى عن الرجل ؟

فاضطرب بعض الشىء وهو يقول : لأنها بطبعها ضعيفة ، وفى حاجة إلى من يعينها .

— وماذا أيضا ؟

— ولأن الرجل يكفل لها دائماً الرزق .

ــ وماذا أيضا ؟

فازداد خجلا وهو يقول : ولأنه يسعى فى الأرض من أجلها .

ــ قل . قل . وماذا أيضاً ؟

ــ ولأنه . . .

وصمت ولم يجب . .

فقالت لاهثة مضطربة الأنفاس تتطلع إليه : وماذا أيضاً . قل . . قل . .

فهمهمت شفتاه لحظة . . وهو يتمتم بشىء من القرآن كان يحفظه ثم وجه الحديث إليها : قال الإمام على كرم الله وجهه : « الرجل الصالح للمرأة ظل . والمرأة الصالحة للرجل ظل . . فحافظوا على ظلالكم » .

وفجأة انسابت الدموع من عينيها ، وفجأة أيضاً ألقت بنصفها الأعلى على سرير الشاب دافنة وجهها بين ذراعيها وراحت معولة تبكى وتنشج نشيجاً موجعاً ، وكل جارحة فيها تهتز وتضطرب ، فارتاع الشاب وارتبك ارتباكاً شديداً ، وراح حائراً يتلفت حواليه . وكلما ألقى نظره عليها ورأى ما بدا عارياً من جسدها ، ورأى ظهرها يعلو ويهبط والدموع التى أغرقت وجهها وذراعيها العاريتين ازداد خوفه واضطرابه . . وكلما حاول أن يسألها من بعيد بدون أن يقترب منها عما بها لم تجب ، بل تمعن فى البكاء والعويل ، وتضاعفت حيرته وارتباكه . وأخيراً أسرع ناحية الباب محاولا أن ينادى الأستاذ حسبو ، ولكنها صرخت فيه صرخة مدوية وهى تنشج وترتعش : دعه . . لا أريد أن أراه . . لا أريد أن أرى أحداً .

فارتد الشاب إليها وكل شىء فيه هو الآخر يرتعش . . واستطاع أن يجاهد نفسه حتى اقترب منها ووضع يده المرتعشة على رأسها ، وهو يقول فى نفس الخوف والاضطراب : ماذا بك ؟ ماذا بك ؟

فمدت أناملها ، وأمسكت بيده وتمتمت وهى ترفع إليه وجهها الذى

أغرقته الدموع : إنني أبكي الظل الذى فقدته !

فتأثر الشاب تأثراً شديداً جدًّا ، وتمتمت شفتاه وهو يمد يديه إلى كتفيها لينهضها : اللهم لا حول ولا قوة إلا بالله . .

ثم أنهضها وأجلسها بجواره على الحشية ، وراح فى حنان جم يجفف لها دموعها ، كالابن الحنون الذى يجفف دموع أمه الثكلى وهو يقول وكأنه يخاطب نفسه : إنك طيبة القلب حقيقة . إن من تحمل مثل هذا القلب الكبير . وتحس هذا الإحساس النبيل ، لن تتخلى عنها عناية الله أبداً ، وحسب المرء أن يكون الله عوناً له .

فقالت وهى ما زالت تبكى وتنظر إليه : إننى متعبة جدًّا ، فهل لك أن تصنع معروفاً ، فتصحبنى معك لزيارة المرحوم . إننى أخشى إن ذهبت وحدى أن أصاب بسوء .

فقال سريعاً وهو ينهض محاولا أن يستعد للخروج : وسوف أصحبك كل يوم جمعة إلى هناك . وسوف أكون دائماً كما قلت لك و بمثابة الابن البار .

فاضطربت ثانية بعد أن هدأت بعض الشىء ، ونهضت سريعاً فى ضيق شديد محاولة الخروج ، بيد أنها وقفت عند الباب لحظات وقالت بدون أن تنظر إليه : إلى أن ترتدى ثيابك سأنتظرك عند السلالم بجوار السبيل . فقال الشاب فى اهتمام زائد : دقيقة واحدة وألحق بك . .

١٥

أسرع الشاب بعد أن خرجت فاغتسل ، وحرص على أن يتوضأ فقد قرأ فى كتاب « بهاء الضوء فى الصلاة وفرائض الوضوء» أن الإمام على كرم الله وجهه ، كان لا يذهب إلى زيارة مقابر الموتى ، إلا إذا تطهر وتوضأ وارتدى ثيابًا نظيفة . . وكذلك فعل هو . ثم لحق بها عند

سلالم السبيل كما وعدته . . وهناك وجدها تنتظره داخل عربة حنطور ، فاندهش وتردد قبل أن يركب ، وأفهمها أنه كان يفضل السير على الأقدام ، ففيه فائدة للصحة ، وتوفير للمال . فضحكت فى ابتهاج كبير ، وهى تمد إليه يدها ليركب بجانبها بعد أن قالت له إنها متعبة كما يعلم ، ولا تستطيع أن تذهب من باب الخلق إلى المحمدى سيراً على الأقدام ، فاقتنع وركب بجوارها ولكن بدون أن يمد يده إلى يدها الممتدة إليه . ولما جلس بجوارها داخل العربة ، لاحظت أنه يتعمد الابتعاد عنها بشكل ظاهر ، فضايقها هذا ، وضايقها إلى حد الغيظ ، ولكنها تظاهرت بالسرور وقالت ضاحكة تنظر إليه وهو منزو فى ركن العربة يتمتم بكلمات من القرآن : لماذا تجلس هكذا ؟ . . استرح فى جلستك .

— مستريح . الحمد الله . .

فنظرت إليه مرة أخرى ، وإلى المسافة التى تفصل بين ثوبيهما وقالت وهى ما تزال تضحك : تأكد أن ثيابى نظيفة ، وليس فيها ما يلوث ثوبك إذا جلست مستريحاً .

فخجل الشاب وقال : العفو . . لم أقصد ذلك . .

فقالت وهى تنظر إليه النظرة نفسها : ولكنك قصدت متعمداً ألا تلمس يدى التى امتدت إليك وأنت تركب العربة .

فتضاعف خجله وقال وهو ينظر إليها مبتسماً : لم أقصد ذلك أيضاً ، وإنما تحاشيت أن ينقض وضوئى إذا صافحتك ووضعت يدى فى يدك .

فقالت وقد ارتسمت بعض أمارات الدهشة على وجهها : أ أنقض وضوءك إذا صافحتك ، ووضعت يدك فى يدى ؟ . .

فصمت قليلا وقال : الدين يقول ذلك . .

— وهل ينقض وضوؤك إذا صافحك رجل أيضاً ؟

— الرجل لا . .

— ولماذا إذن المرأة ؟

فارتبك ، وأراد أن يقول شيئاً ولكنه لم ينطق . وأحست بسرور داخلى لهذا الحرج الذى أوقعته فيه ، فصمتت هى أيضاً لحظات . ثم قالت وكأنها تخاطب نفسها فى دهشة : شيء غريب . .

ــ ما هو ؟

ــ أن يصافحك رجل فلا ينقض وضوءك . . وتصافحك امرأة فتنقض هذا الوضوء . .

فقال الشاب فى سذاجة كبيرة : هذا شيء طبيعى . .

ــ وما الطبيعى فيه ؟

ــ إن هذا رجل ، وهذه امرأة .

فتهدج صوتها وهى تقول : وما الفرق بين الاثنين ؟

ــ كبير جداً . .

فقالت بنفس الصوت المتهدج الخافت الذى يكاد يشبه الهمس : ما هو ؟ . . حدثنى عنه قلت لك إننى جاهلة . . وأريد أن أتعلم . . قل . . تكلم . .

ثم أمعنت إليه النظر وهى ما زالت تتمتم : تحدث . . قل . . ما هو الفرق ؟ . .

فقال الشاب : لا أستطيع أن أوضحه لك . . ولكن الذى أعرفه . . أن أصحاب المذاهب لم يتفقوا على رأى . فمثلا ابن حنبل . . يحتم وجوب الغسل إذا لامس الرجل المرأة ، ومالك يكتفى بإعادة الوضوء . . أما الشافعى فيجيزه اضطراراً ما دامت النيات خالصة والنظرات طاهرة . . والملامسة بريئة . .

ــ رجل طيب الشافعى هذا . .

ــ الفاتحة لروحه . . الفاتحة . .

ومد الشاب يده إلى أمام وراح يقرأ الفاتحة بصوت عال ، واضطرت هى إلى أن تجاريه فقرأتها معه ، ثم قالت وهى تنظر إليه وهو يمسح

على وجهه بعد أن قرأ الفاتحة : وأنت ما مذهبك ؟
— حنبلى . .
— يا ساتر ! . . ولماذا لم تكن شافعيا ؟
— هكذا كان أبى رحمة الله عليه . .

وكانت العربة قد بلغت بهما نهاية الطريق فهبطا منها ، وراحت هى تسير وسط القبور ، والشاب يسير خلفها مغمض العينين ، يقرأ آيات من القرآن فى تأثر شديد . . وزاده تأثراً ذكره لأبيه ، حتى اخضلت عيناه ، وراح من حين إلى آخر يجفف دمعة تسقط هنا وأخرى تسقط هناك ، إلى أن بلغت به قبر المرحوم فدارت حوله مرات وهى تقرأ الفاتحة وتبكى ، فى حين جلس الشاب بجانب القبر متربعاً ، وأخرج من جيبه مسبحة طويلة سوداء كان قد ورثها عن والده . . وراح يقرأ سورة الحجرات بصوت مرتفع ويجود ما يقرأ وهو يهتز ذات اليمين وذات الشمال ، كما كان يهتز وهو يجود القرآن على يدى الشيخ نوفل فى القرية وهو صبى .

وراحت هى تنظر إليه مبتهجة مسرورة مقدرة له هذا الخلق الطيب وهذا التدين الكبير ، وهذه الصحبة التى أنستها الكثير من متاعبها . . حقيقة هى لم تزر قبر المرحوم منذ سنوات ، بيد أنها كانت إذا رأته مرة أحست بانقباض شديد وضيق يكاد يجثم على قلبها . أما زيارته اليوم فهى أشبه بأن تكون رحلة جميلة . وزادها سروراً أنها التقت عند القبر ببعض النسوة التى كانت على صداقة قديمة بهن ، ورحن يتحدثن إليها وتتحدث إليهن ويلمنها لوماً شديداً لأنها بقيت أرملة حتى الآن ولم تتزوج ، وكيف أنها ستقضى على جمالها بهذا الحزن الذى تعيش فيه ، وتقضى على شبابها بهذه الحياة الجافة التى تحياها ، وأن المرأة إن لم يكن لها خير فى شبابها ونفسها لم يكن لها خير فى أحد ، وأن الذى مات ، مات وانتهى .

وأطربها هذا القول وراحت تصغى إليه فى سرور ، وكلما أوشك

هذا الحديث أن ينتهى ، مدته بكلمة عابرة ، أو نظرة ساهمة ، أو حسرة على فقد المرحوم الذى لم تعوضه . .

وطال الحديث بينهن ، بيد أن واحدة منهن لم تكن مشتركة فيه . ضايقها هذا القول الممل ، وهذه النصائح التافهة ، وكانت لا تعرف شيئاً كثيراً عن شفعات . فقالت وهى تنظر إلى إمام الذى كان قد فرغ من قراءته ومن قراءة الفاتحة أيضاً ، واتجه إلى شفعات لينصرف بها : لا تصغى إلى هذا القول . ويكفيك سعادة أن يصبح ابنك هكذا ولو كان لى ابن مثله لكفانى وأسعدنى أن أترمل عليه إلى الأبد .

واكفهر وجهها فجأة ، وزاده عبوساً أن بقية النسوة نسين ما كن يتحدثن فيه ، وأيدن هذا القول ، ومددن أيديهن إلى إمام يصافحنه ويشدن برجولته ويوصينه خيراً بأمه هذه التى جعلت منه رجلا . وارتبك إمام ولم يجب ، بل أمن على هذا القول . وارتبكت هى أيضاً ، وكأنها خشيت أن ينفجر غضبها ، فمدت يدها وصافحتهن سريعاً وانصرفت تسير بالشاب صامتة بين القبور إلى أن رفعت إليه رأسها المحترق ، ونظرت إليه وقالت ضاحكة فى مرارة كبيرة : أترى أنى أشبهك إلى حد كبير ، حتى إنهم يظنون دائماً هذا الظن ؟

— إنه ظن جميل ، ويسرنى أن يظنوه دائماً . .

— لست أرى فرقاً كبيراً بين الحقيقة وبين ما يظنون . .

— أبداً . . أبداً . .

ففطن الشاب إلى شىء ، وقال سريعاً فى مجاملة حلوة : فى شىء واحد فقط . .

فأمسكت أنفاسها وهى تقول : ما هو؟

فقال مبتسماً بدون أن ينظر إليها : فى السن .

فقالت مبتهجة تضحك من قلبها : أينا أكبر سنًّا يا ترى ؟ .

— أمى من غير شك ؟ .



ــ هذه مجاملة منك . .

فقال الشاب جاداً : أمى عجوز . . تزيد على الأربعين . .

فارتعش قلبها حتى لكأنه أصيب بحجر . . وارتعش معه كيانها كله ، ولكنها قالت متماسكة وهى تنظر إلى مكان خطواتها على الأرض : والتى فى سن الأربعين عجوز ؟ . .

ــ تخطت سن الشباب على الأقل . .

فصمتت ولم تجب ، وظلت تسير بجانبه ساهمة واجمة تنظر إلى مكان خطواتها على الأرض . وأدرك هو أنها محزونة ، ولكنه لم يدرك سبب أحزانها . فنظر إليها وقال : فيم تفكرين ؟ . .

ــ أحس بانقباض شديد . .

فقال فى سذاجة : هكذا نكون دائماً بعد زيارة مقابر موتانا ، ولكن بذكر الله تطمئن القلوب ، فاذكرى الله سبحانه وتعالى ، واذكرى أيضاً أن هذا مصير الخلق جميعاً وأن هذه هى سنة الله فى خلقه . .

فقالت وهى تحاول جاهدة أن تبتسم : أأثقل عليك لو أننى طلبت منك طلباً يسيراً ؟

ــ بالعكس يسرنى . . وثقى أننى لن أرفض لك طلباً . .

ــ أى طلب ؟

ــ أى طلب . .

ــ احلف . .

ــ وجلال الله . .

قالها الشاب فى ثقة وإيمان لا حد لهما . وسرها ذلك بعض الشىء ولكنه لم يسرها السرور كله ، ولذلك صمتت ولم تجب فسألها باهتمام : ماذا تطلبين ؟

ــ إننى أشعر بضيق شديد ، والذهاب إلى البيت الآن سيزيدنى ضيقاً ، ولذلك أنا أريد أن أتنزه بعض الشىء . . وليس من عادتى أن

أتنزه بمفردى ، لأن نظرات الناس وأحاديثهم السمجة تزيدنى ضيقاً . . لذلك أريدك أن تصحبنى . .

ـ إلى أين ؟

ـ كما تريد أنت . .

فقال ضاحكاً فى ابتهاج : إننى من الأرياف ، ولا أعرف عن القاهرة شيئاً . .

ففكرت بعض الشىء . . أو تظاهرت بأنها تفكر بعض الشىء ، ثم بعد حين رنت إليه بعينيها الواسعتين . . وقالت متمتمة وكأنها ما زالت تفكر : نذهب . نذهب يا سيدى . . نذهب . .

ثم قالت وكأنها تذكرت شيئاً جميلا : أولا نتناول الغداء ، ثم نذهب إلى السينما الساعة الثالثة .

فتردد الشاب ثم قال فى شىء من الحرج : الغداء أمر سهل . . أما السينما ؟

وأطبق شفتيه ولم يجب ، فقالت : أتكره السينما ؟

ـ لم أذهب إليها فى حياتى . .

ـ ألأنك تكرهها ؟

ـ لا . . ولكن لأنى سمعت فضيلة الشيخ الفرجانى فى المعهد يقول إنها من المحرمات . .

فقالت فى دهشة : السينما حرام ؟

ـ مكروهة على أية حال . .

ـ لماذا ؟

ـ يقولون إنها تعرض أحياناً بعض الصور الخليعة ، وترى من أعضاء الجسد ما حرم الله أن يرى ، وهذا حرام . .

ـ ليست كما تظن . . وسنذهب إلى سينما مؤدبة جداً . . وسوف ترى . .

ـ إذا كان الأمر كذلك أوافق . .

فتطلقت أساريرها ، وشعرت بنشوة لا حد لها . . إذ استجاب هكذا سريعاً إلى رغبة من رغباتها ، وانطلقت معه خفيفة رشيقة مرحة ، كالعصفور الذى انطلق من سجنه يحلق فرحاً فى الفضاء الكبير . وراحت تسير معه فى شوارع القاهرة وأحيائها الشعبية كطفلة حديثة السن يسيل لعابها لكل شىء . . حيناً يشربان عرق السوس . وحيناً يأكلان الترمس والحلبة . وحيناً الحلوى ، وحيناً تتحدث إليه حديثاً جميلا ، يستغلق عليه باطنه فيبتهج لظاهره ابتهاجاً شديداً . وحينا يتحدث هو إليها عن دهشته من أهل مصر ، ونساء أهل مصر ، وكيف يسرن فى الطرقات هكذا سافرات متبرجات ، يبدين من زينتهن ما لا يجب أن يبدى ، ويظهرن من مفاتنهن ما حرم الله أن يظهر ، تروح تحدثه ضاحكة عن هذا التزمت الذى يعيش فيه ، وعن الحرية التى تتمتع بها فتاة الحضر ، والسجن الذى تعيش فيه فتاة القرية . .

وظلا كذلك إلى أن انتصف النهار . وحل موعد الغداء ، فذهبت به إلى « حاتى العائلات » . وهو مطعم معروف فى ميدان باب الخلق ، تعودت المعلمة شفعات أن تتردد عليه من حين إلى آخر . وهناك استقبلهما حسان السفرجى استقبالا حسناً ، وأعد لهما مائدة منعزلة كما أرادت ، واستقبلهما عصعص الشواء استقبالا حافلا ، وترك فحمه وناره وأسياخه وراح يرحب بها ، ويسألها عما تريد وعما تشتهى أن تأكل اليوم . . فطلبت منه فى فرحة زائدة أن يعد لها الكثير من أنواع الشواء . . أما الشاب فكان فى شغل عن هذا كله برائحة الشواء الشهية اللذيذة التى تداعب منخاريه وتنفذ كرائحة العطر الجميل إلى خياشيمه . وزاده سروراً أن حفلت المائدة أمامه بأنواع الطعام المتعددة ذات الرائحة الزكية ، فراح يأكل بفرحة غامرة ، ويلتهم الطعام التهاماً غير ملتفت إلى شىء . . لا المعلمة . . ولا فرحة عينيها اللتين تريانه وهو يأكل بهذه الشهية ، ولا

إلى ملاءتها الحريرية التى تركتها تنسدل من على الرأس والكتفين . تاركة الرأس الجميل والشعر الكستنائي اللامع تتهدل خصلاته وتنساب على ظهرها . . وفوق كتفين بلون العاج . حتى الصدر العريض العارى يتموج نوره ويتيه استعلاء بقيمته ودلالا بتوأميه ؛ وإن لم يفطن إليه ولم يره . . ولم يغضبها ذلك أو ينغص من سعادتها . لأن فرحتها بسعادته بالطعام وإقباله عليه . وأساريره التى فاضت بشراً بطلعة المائدة ؛ كل ذلك أحب عندها من كل ما عداه . إنه عندها كل شيء . إنه مطلع النور ، إنه أول الغيث . . أول لبنة فى صرح الحب . . تحقيق الآمال . . استجابة الرجاء . . إنه الوسيلة . . وهل الحب إلا الوسيلة التى نعبر عليها الطريق إلى الغاية . . إنه لم يكن قط الغاية نفسها . . إننا إذا بلغنا النهر نكون قد ارتوينا . . نكون قد نلنا كل شيء . لذلك فإن الوفاء والعطف والإخلاص والحنان والدموع والتضحية والشقاء وإنفاق المال — ليس كل ذلك إلا من أجل الوصول إلى الغاية فقط . . إن هذه كلها مطايا نعبر عليها الطريق إلى النهر . . أما إذا بلغنا النهر فلن نكون فى حاجة إلى هذه المطايا . . لن نكون فى حاجة إلى شيء منها أبداً . . لأن أمواجه ستأخذنا قسراً . . ستنسينا حتى متاعب السفر ومشاقه . . إذن فكل شيء هو الطريق ، والطريق فقط . .

ونظرت إليه وهو يلتهم قطعة من اللحم يحشو بها فمه ، فمدت يدها واقتطعت له قطعة أخرى ، وناولته إياها ، ولاحظ هو أنها لم تأكل كما يأكل هو ، ولم تقبل على الطعام الإقبال نفسه الذى يقبل هو به عليه . فقال لها وهو يتناول قطعة اللحم من يدها : لماذا لا تأكلين أنت أيضاً ؟

— يكفينى أن أراك تأكل . .

فقال على الفور فى سذاجة لا حد لها : هذه عاطفة نبيلة . . لا يستشعرها إلا قلب أم فعلا . .

فلم تسمح لفرحتها الغامرة أن يعكرها هذا المعكر الكريه ، ولذلك قالت على الفور ضاحكة فى سرور ، وهى تنتقى قطعة أخرى من اللحم وتناوله إياها : كل هذه . .

ــ أكلت كثيراً !

ــ هذه فقط . .

فقالت بدلال وهى تبعد بطرف أصبعها خصلة خبيثة من الشعر كانت قد تسللت إلى مكان ما على الصدر : وهل ترد لى يداً ؟

فتناولها من يدها سريعاً وهو يقول ضاحكاً فى بشر : ولن أرد لك طلباً ما حييت . .

فقالت وهى تمد قدمها تحت المائدة وتضغط فى حنان على قدمه : ولا حتى هذا الطلب ؟

فارتعدت قدمه تحت المائدة كأن عقرباً لدغتها ، ومد عينه سريعاً تحت المائدة، فطالعته يدها تحمل نقودا ، فقال وهو ما زال يضطرب : ما هذه ؟

ــ ادفع الحساب . .

فتردد وأراد أن يقول شيئاً ولكنها سبقته قائلة : ألم تقل بأننا أهل ؟

ثم قالت وهى تضغط على يده : وأنا التى أضفتك ، ولكن هذه أيضاً أشياء بيننا فقط . . أما فى نظر الناس فأنت الرجل . .

ثم عقبت ضاحكة وهى تصفق لتستدعى الخادم : وسوف تكون الرجل دائماً . .

وكان الخادم قد أقبل ، فقدم هو له الحساب . ولما انصرف أراد أن يعطيها ما تبقى معه من نقود ، بيد أنها قالت وهى تنهض وتتناول الملاءة الحريرية السوداء ، وتلفها فى إحكام على ذلك النور الذى يشع من الظهر والكتفين : أنسيت أننا اتفقنا . .

ــ على ماذا ؟

ـ على أنك رجلى . . وأنك ستأخذنى اليوم إلى السينما . .

فقال فى شىء من الخجل والارتباك : سوف أدفع أنا ثمن السينما . .

فقالت ضاحكة وهى تضع يدها تحت إبطه وتنصرف : عيبك أنك لا تفهم سريعاً . .

وكأنها أدركت ما يؤلم فى هذا التعبير . فأسرعت قائلة وهى ما زالت تضحك : أقصد أنك سريع النسيان . .

ـ نسيت ماذا ؟

ـ أنك ابنى فيما بيننا ، ولكنك رجلى أمام الناس . .

فقال وهو يجاريها فى الضحك : لك الحق . . وسوف لا أنسى هذا بعد الآن . .

وكانا قد انصرفا من المطعم . وكما كانا يقطعان الطرقات ويتفرجان على الناس والمعروضات حتى يحين موعد الغداء ، كذلك فعلا حتى يحين موعد السينما . بيد أنهما كانا هذه المرة أقل تكلفاً ، وأقل تحرجاً أيضاً . فمثلا لم يجد الشاب حرجاً فى أن يضع يده فى يدها فى الطريق ، ولم يجد أيضاً تحرجاً كلما رأى شيئاً جميلا أعجبه وأراد أن يلفت نظرها إليه أمسك بها من ذراعها . . وسرها هذا سروراً لا حد له ، حتى إن الوقت مر سريعاً ، على غير ما كانت تنتظر .

ولما جاء موعد السينما ذهبا إليها . وراحت تريه الإعلانات ، وراح هو فى طفولة ينظر إليها ويقرأ أسماء الممثلين والممثلات ، وهى تمدحهم جميعاً : دون أن تعرف شيئاً عنهم ، ولكن لتحببه فى الدخول . .

ولما استقر بهما المكان داخل السينما ، وأطفئت الأنوار ، سرتها منه أشياء كثيرة جداً كان يجب ألا تسرها ، ولكنها تغاضت عن الكثير من سذاجته البالغة التى كانت تضايقها ، فقد جلس الشاب بجوارها قلقاً ينظر ذات اليمين وذات الشمال ، وعندما بدأت إشارة الفيلم ظهر عليه الخوف والاضطراب ، وجحظت عيناه وهو يحملق جيداً فى الصور حتى

إنه حدث ما جعلها تنفجر ضاحكة ممسكة بكتفه ضاغطة عليها حتى لكأنها تريد أن تثبته فى مقعده ، فقد حدث أن أقبل على الشاشة وابور فى سرعة هائلة وقد تعالى دويه وصفيره المزعجان ، فخاف الشاب واضطرب وأمسك بيديه المرتعشتين فى مقعده ، كأن الوابور سيسير عليه . ولا تدرى هى لماذا سرتها سروراً بالغاً هذه السذاجة التى لا حد لها . ولهذا راحت تتحدث إليه مرة فلا يجيب ، وتضع يدها على كتفه فلا يتحرك . وكانت الرواية من روايات رعاة البقر التى فيها الكثير من البطولة والفروسية ، مما أعجب الشاب كثيراً وجعله فى مقعده يميل ويتحرك ويحس بأحاسيس البطل ، حتى إنه أحياناً كان ينسى نفسه ويندفع فى حماس مع البطل الذى يروح يكيل الضربات لعدوه ، ويصرخ بأعلى صوته فى الصالة ، مشيراً بقبضة يده للبطل بقوله : اديله — اديله — وعندما يرى كميناً أعد للبطل الذى يقبل عليه بدون أن يدرى حتى يكاد يسقط فيه ، يصرخ الشاب أيضاً بأعلى صوته فى الصالة محذراً : ارجع — ارجع — حاسب .

وبالرغم مما فى هذا من إحراج كبير للمعلمة ، التى راحت نظرات الجمهور وسخرياته توجه إليها وإلى الجالس بجوارها . . فإنها كانت هى الأخرى سعيدة سعادة لم تستشعرها منذ سنوات ، وذلك لسبب واحد فقط هو إحساسها بأنها استطاعت أن تصنع شيئاً لهذا الشاب يسعده إلى هذا الحد ، ويخرجه عن وقاره الجامد الذى يعيش فيه .

ولما انتهى العرض وخرج الجمهور . وكان المساء قد أقبل ، ظل الشاب غارقاً فى فرحته ، سابحاً فى سعادته هذه التى تفيض عليه ناسياً نفسه ووقاره ، كما كان تماماً فى السينما يعيش مع البطل ، لدرجة أنها لما استدعت أحد الحوذية فى الطريق ، ووقفت أمامهما العربة ، وركبت هى ومدت يدها إليه ، لم يرفض يدها كما فعل ذات مرة ، وإنما تناول يدها فى فرحة غامرة ، وصعد إليها خفيفاً رشيقاً غير هياب ولا وجل . ولما جلس لم يجلس بعيداً عنها ، وإنما جلس ملتصقاً بها يضحك

ويقهقه كما كان يضحك فى السينما . وانتهزت – وهى ملتصقة به – هذه اللحظات ، والطريق المقفرة التى تسير فيها العربة ، وراحت تذكره بالأشياء التى أطربته فى الفيلم والتى تزيد من سروره ، فراح الشاب يضحك مبتهجاً كما لو كان ما زال جالساً فى السينما يشاهد الأحداث أمامه على الشاشة . بيد أنه حدث فجأة ما عكر عليه صفو هذا المرح وهذا الابتهاج . . فقد شردت المعلمة فجأة وصمتت منكسة الرأس ، أشبه بمن يعالج ألماً حاداً ، ومدت يدها إلى جبينها الذى تتلألأ عليه حبات الترتر وخرْج النجف المدلاة من المنديل أبو أويه الذى عصبت به رأسها الجميل ، وراحت تعصر جبينها عصراً فى ألم . .

وسألها الشاب عما بها ، فطمأنته فى أول الأمر ، وأفهمته بصوتها الخافت المحموم بأنه الصداع الحاد ، فتألم الشاب ألماً شديداً محاولا أن يصنع لها شيئاً ، وسرها إلى حد كبير منه هذا الاهتمام . . محاولة أن تطمئنه ما استطاعت . . بيد أنها لما عجزت عن احتمال الألم وعن حمل رأسها أيضاً أخذت تزفر زفرات حادة متقطعة وهى تميل برأسها على رأس الشاب الذى راح يمسح عليه بيده ، وهو يقرأ سورة الفلق . وكلما أمعن الشاب فى القراءة ازداد وجعها ، وارتعش جسدها كله وهى ملتصقة به ، طالبة منه فى توسل أن يحضر لها سريعاً شيئاً يخفف هذه الآلام . .

وحاول الفتى – وهو فى غاية الحزن – أن يرفع رأسها من على كتفه لكى ينصرف سريعاً ليشترى لها « برشامة » ، بيد أنها توسلت إليه ألا يتركها ، وأشارت له أن يوقف العربة ويرسل الحوذى ليشترى هو البرشامة . وانصرف الحوذى سريعاً يبحث عن «البرشامة» . . ونظر الشاب إليها مشفقاً جداً ، وراح بيده يمسح على رأسها النائم على كتفه مرة أخرى . وهالته كثرة الدموع التى رآها تنساب من عينها ، فأخرج منديله وراح يجفف لها هذه الدموع ، فأمسكت هى بأصابعه ، ونظرت إليه من خلال

تلك الشبكة المرتسمة على وجهها ، وقالت بصوت أشبه بلفحات النار : إنى أرتعش . . إنى أرتعش . . إن رأسى يكاد يتفتت .

ثم انفجرت باكية مرة أخرى وهى تقول متوسلة : إن رأسى يكاد يحترق . . خذنى إلى جوارك . .

فالتصق بها الشاب أكثر من ذى قبل وهو أكثر اضطراباً .

ـ خذ رأسى إلى صدرك .

قالت ذلك ثم ارتمت برأسها وكتفيها على صدر الشاب الذى من شدة حزنه راح يفسح لها المكان الذى تريد . .

ونظر الشاب إلى الجسد الذى يرتعش على صدره والوجه الذى تغمره الدموع وهو يتمتم فى حزن شديد : اللهم لا حول ولا قوة إلا بالله . تشجعى .

ونظرت هى إليه من خلال شبكة الدموع مرة أخرى ، ونظرت إليه جيداً هذه المرة ، ومدت ذراعيها المضطربتين ، وتحسست بيديها كتفيه وعنقه الضخم ، وراحت تبكى ، فازداد اضطراب الفتى ، ومال بعنقه الذى بين ذراعيها على رأسها الذى يحترق ، واقتربت برأسها من رأسه ، ووجهها من وجهه . . وأنفاسها من أنفاسه ، وعيناها من عينيه ، وراح ينظر فى إشفاق زائد وأسف مرير ، إلى هذه العيون التى كانت تضحك منذ لحظات ، فإذا بالدموع تغمرها الآن ، وتنظر هى من خلال تلك الشبكة المائية المرتسمة على عينيها إلى عينيه القاسيتين اللتين تشبهان عينى صقر . . وأحست بشىء من الخوف يكتنفها ويخنق أحاسيسها جميعاً ويضغط عليها فى عنف . وكما يخشى فاقد الوعى المقدم على الانتحار أن تخونه قواه فيسرع بلا أدنى تفكير بالضغط على الزناد ، كذلك أغمضت هى عينيها سريعاً ، وجذبت بذراعيها الملتفتين حول عنقه ، وجهه إلى وجهها سريعاً أيضاً ، ومن ثم تمتمت فى حشرجة الميت تماماً وهى تطبق بشفتيها على شفتيه : إمام . . إنى أحبك . قبلنى .

ولم تفطن بعد ذلك إلى ما حدث على وجه التحديد . . وإنما الذى تذكره تماماً أنها رأت جسدها كله ملقى فى وسط العربة ، كما رأت أيضاً فيما رأت الشاب يفر هارباً يتخبط فى الظلام . . كما يتخبط تماماً الإنسان الذى يطارده فى الليل ثعبان هائل مخيف . .

١٦

« لكل شىء إذا ما تم نقصان» !

بهذا كان يتحدث الشاب إلى نفسه وهو يسير فى الليل خائفاً مضطرباً يتلفت ذات اليمين وذات الشمال كأن ذلك الثعبان الهائل ما زال يطارده !

إنه كان يقدر كل شىء ، ويفكر فى كل شىء ، وينتظر أيضاً من الدنيا والناس كل شىء ، إلا أن تكون هذه المرأة التى تحمل هذا الخلق الطيب ، وهذا القلب الكبير ، وهذا الكرم الذى أغدقته عليه تكون على هذا السوء ، أو هى تريد منه هذا السوء . . ولكن كيف سولت لها نفسها هذا الإثم الكبير ، الذى دونه الموت من غير شك ؟ . . وكيف لم يفطن هو إلى غرضها ؟ ولكن هل هى بهذا الخبث بحيث جعلته يتخذها كأم له . . بحيث جعلته يظنها ملاكاً فى حين أنها فى الحقيقة شيطان رجيم . . فى حين أنها تريد منه . . تريد منه ماذا ؟ وانفجر باكياً ، وأخرج منديله المحلاوى الكبير وجفف به دموعه التى سالت واختلطت بحبات العرق المتصبب من جبينه . . وواصل سيره ، كما واصل أيضاً حديثه إلى نفسه . . ولكن! ماذا يفعل الآن ؟ وكيف يعود إلى هذا البيت الدنس ثانية ؟ . . إلى هذا الشيطان الرجيم مرة أخرى ؟ . إلى هذه المرأة الداعرة ؟ وهل أساء هو إلى أحد حتى يسىء إليه القدر ، ويوقعه فى هذا السوء ؟ . . وأخرج منديله مرة أخرى وجفف بعض الدموع . . وواصل حديثه إلى نفسه . . إنه حقيقة استطاع أن يرد عنه هذا الشر

بمجرد أن فطن إليه ، فهل يستطيع ذلك مرة أخرى ؟ . . ألم تكن هذه المرأة التى استطاعت أن تجعله يحسن بها الظن ، وكانت لها القدرة على أن تجعله يتخذها أمًّا فعلا ، ألم يكن فى استطاعتها أيضاً — ولها من الدهاء هذا القدر — أن تجعله . . تجعله ماذا ؟ . . وجحظت عيناه جحوظاً غريباً وهو ينظر إلى السماء وكأنه يستجديها ويسألها العون . .

إن أسلم الأشياء ألا يعود ثانية إلى هذا البيت . . ولكن ماذا يصنع ؟ وأين يبيت ؟ . . أيذهب إلى محمدين ويطلب منه أن يبحث له عن مسكن آخر ؟ . . وماذا يقول له إذا سأله عن السبب ؟ أيقول . . ودمعت عيناه وتمتمت شفتاه بألفاظ من القرآن كان يحفظها . .

وظل يقرأ وهو يسير على غير وعى ، ويقطع الطرقات خائفاً يضطرب إلى أن وجد نفسه بدون قصد يقف متردداً أمام بيت من البيوت ، ، وجد نفسه بدون قصد يصعد السلم ويقف أمام باب إحدى الشقق ، ويدق الجرس ، وما إن فتح الباب حتى وجد نفسه وجهاً لوجه أمام سلوى ، ونظرت الفتاة فى دهشة إلى وجهه الأصفر الشاحب ، وعينيه الزائغتين . . وقالت مضطربة قبل أن تدعوه للدخول : إمام ، ما بك ؟

فتذكر كل شىء وتمالك نفسه وقال مبتسماً : لا شىء ، لا شىء ، فقط أردت أن أتريض فجئت ماشياً ، والمسافة بعيدة أتعبتنى . .

فانفرجت أساريرها فى ابتهاج وهى تقول وتدعوه للدخول : أزعجتنى يا شيخ . . حسبتك مريضاً . . ادخل .

ودخل الشاب . ولما جلس هدأت أنفاسه ، وعاد إلى طبيعته ، وأقبلت الست صبرية مرحبة ، كل ذلك بدون أن يفطن إلى دهشتيهما من حضوره المفاجئ ، ولما أدرك فى نهاية الأمر ، انتحل لمجيئه هذا عذراً ، وقال : وجدت عندى من الوقت والفراغ ما يمكننى من أن أبدأ الدرس مع سلوى الليلة ، بدل من أن نبدأه فى الأسبوع القادم . .

ففرحت الست صبرية ، وشكرت له هذا الاهتمام ، وتركتهما ليبدأ

الدرس ، وانصرفت لتصنع لهما الشاى ، وجلست معه سلوى ، تنظر إلى وجهه ، وإلى الفرق الهائل الذى كان عليه منذ لحظات عندما فتحت له الباب ، وكيف أنه تغير سريعاً من الاصفرار والشحوب والاضطراب ، إلى هذا البشر وهذا الابتسام والهدوء والاطمئنان ، فقالت متخابثة وهى تتعمد البحث عن الكراسة التى سيبدأ فيها الدرس الأول : أظنك ما زلت تذكر أيام زمان !

— وهل تنسى أيام العمر ؟

— وتذكر أنك تعودت دائماً أن تقول لى الصدق ، ولا تكذب على .

— وسأتعود دائماً أن أقول لك الصدق ، ولا أكذب عليك .

— قل إذن ماذا كان يزعجك عندما فتحت لك الباب ؟ !

فعاد الاصفرار يرتسم رويداً على وجهه ، ويبين فى نظراته الخوف ، وقال سريعاً كمن يريد أن يبعد سوءاً عنه : لا شىء ، لا شىء ، قلت لك لا شىء . .

— إذن أنت تكذب .

فارتبك الشاب وقال : كلا ، وإنما الأمر أيسر مما تظنين . .

— ما هو ؟

— الحقيقة أننى غير مستريح إلى السكن الذى أقطن فيه .

فعقدت الدهشة لسانها وهى تسأله : قلت لى أمس إنك مستريح إلى حد كبير .

— اتضح أن البيوت كالناس . . لا نعرفها على حقيقتها إلا إذا خبرناها . .

— وما الذى يضايقك فى البيت ؟

فعاوده الارتباك وزم شفتيه فى حزن ، وتمتم وهو ينظر إلى الأرض ويضغط على أنامله حتى ليكاد يعصرها : السيرجة ، ورائحة الزيت ،

والعفن الذى يتصاعد من الكسب . . و . . وأشياء أخرى ، قذرة . . قذرة جداً .

ولاحظت عليه الحزن الشديد الذى هو فيه ، فتركت مقعدها وانتقلت إلى جواره ، وقالت له وهى تربت على ذراعه مطمئنة : من الغد سوف أبحث لك عن سكن ملائم عندنا هنا فى الوايلية . فقال وهو ما زال يفرك أصابعه وينظر إلى الأرض : وهل يكون بالقيمة التى أقطن بها الآن ؟

— ليست العباسية كما تظن ، إن فيها الكثير من الأحياء الشعبية الملائمة جداً ، ومع ذلك اترك هذا لى وسوف ترى .

— يفعل الله ما يريد .

نطق هذا فى إيمان لا حد له ، ثم نظر إليها وقال : هه . . لنبدأ الدرس الأول .

فقالت ضاحكة وهى تتناول الكراسة من على الطاولة التى أمامها : سيكون ثقيلا من غير شك .

— لماذا ؟

— لأنك غير منشرح الصدر الليلة .

— قلت يفعل الله ما يريد ، هه لنبدأ الدرس .

فقالت وهى تضع الكراسة أمامها وتمسك بالقلم : اتفضل . .

فصمت حيناً طويلا ثم رفع عينيه إليها وقال : اكتبى أولا فى وسط الصفحة الأولى . . بسم الله الرحمن الرحيم . . وبه نستعين .

فأشرق وجه الفتاة وهى تكتب ما أملاه عليها بعناية وخط جميل . . وبعد أن كتبت قال لها : أى شىء يضايقك فى العربى .

فقالت ضاحكة : صدقنى ! إذا قلت لك . . إن اسمه يضايقنى . .

فقال وهو يجاريها فى الضحك : لهذه الدرجة !

— ثقيل ومعقد ، جر ، ونصب ، وكسر ، وإعراب . .

فقال ضاحكاً : وماذا تقولين إذن عندما تدرسين المتن ، والفقه والعروض ؟

ثم نظر إليها وقال : لعل الإعراب هو الذى يضايقك بعض الشيء .

— بل ينغص على حياتى . . ذهب عمر لينام . . عمر لم يذهب لينام . . شرب عمر الشاى . . عمر لم يشرب الشاى . . مالى أنا شرب أو لم يشرب !

فقال بعد أن أغرق ضاحكاً : إنك تتوهمين . . إعراب هذه الجمل البسيطة من أيسر ما يمكن ، اكتبى . .

فتناولت القلم ونظرت إليه .

— احتفظ عمر بـ . . . .

فقالت ضاحكة : تانى عمر ؟ . .

— دعى عمر هذا الذى يضايقك وليكن مثلا . . مثلا . .

وأخذ يفكر فى اسم علم غير عمر ، فقالت هى ولكن بدون أن تنظر إليه : إمام مثلا . .

فقال مبتسماً فى ابتهاج : إمام . . إمام . . اكتبى يا ستى . . احتفظ إمام بـ . . بـ . . .

فقالت وهى تضحك : يا ترى بماذا احتفظ :

فقال وكأنه عثر على ما يريد : احتفظ إمام بذكرياته . .

فقالت وهى تضع القلم ضاحكة : ليس لهذا محل من الإعراب . .

— لماذا ؟ . .

— لأنك قطعاً لم تحتفظ بها كلها . . كما أحتفظ أنا بها كلها . .

— ومن قال لك ؟

— إذن قل لى ما هو الذى احتفظت به ؟ . .

— أيام الطفولة . . القرية . . والحارة . . ودهليز المرعشلى . . عم نوفل . . عم فضل السقا . .

— وماذا أيضاً ؟ . .

ـ ودار الأستاذ الناظر . . وابنته سلوى .

فقالت وهى تخفض عينيها : وماذا أيضاً ؟ . .

ـ والجرن ، وفوانيس رمضان ولعب الاستغماية ، وجمال المالح ، وحلقة ومضرب ، والسهر للفجر .

ـ وماذا أيضاً ؟ . .

ـ وخالتى مقبولة . . والترمس . . والسودانى . . وكيزان الحلبة والحلوى الطحينية . . و . . و . .

ـ وماذا ؟

فقال ضاحكاً : وسرقة البيض . . والعلقة التى ما زلت أذكرها .

ـ وماذا أيضاً ؟ . .

وانخفض صوته وهو يتمتم فيما يشبه الخجل : والكرة (الشراب) .

فخفق قلبها وتعالت دقاته . وصعد الدم إلى وجهها فورده ، وتمتمت بصوت شبه مختنق وهى تنظر إلى الأرض وتضغط بأصابعها المضطربة على القلم الذى فى يدها : وماذا أيضاً ؟

ـ وليلة السفر ، والقطار الذى يبتعد عن القرية ، والموال الذى كان يغنيه عم غنيم خفير المحطة ، والذى أسال دموعى ، وأنا أستمع إليه ، وما زالت تسيل كلما ذكرته . .

ـ ما هو . . ؟

زعق الوابور على السفر قلت رايحين فين
ح تغيبــوا سنه ولا تغيبــوا اتنين
. يا اللى ملكتو الفؤاد . يا كحله جوه العين

ـ تسمح أكتبه ؟ . .

وبينما هو يمليه عليها وهى تدونه على هامش الكراسة أقبلت الست صبرية حاملة صينية الشاى ، وما إن رأتها تكتب حتى ابتهجت ابتهاجاً شديداً ، وقالت لإمام وهى تناوله كوب الشاى : اعمل معروف .

أحسن دى فى العربى . . حُطِّى كَلَمُن . .

وبعد أن قدمت الشاى للاثنين ، وحاولت أن تخرج ، عادت ووقفت عند الباب مخاطبة الشاب : ولكن اسمع . . حاذر أن تشغل بالدرس الذى تعطيها إياه عن درسك أنت ، ليس المهم أن تنجح هى ، وإنما المهم أن تحصل أنت على الشهادة هذا العام .

قالت ذلك ولم تنتظر جواباً وخرجت ، ولم يدر الشاب لماذا خفق قلبه لهذا القول ، ولم يدر أيضاً لماذا رنت فى أذنه كلمة محمدين له : إذا حصلت على الشهادة استطعت أن تحصل على سلوى — ونظر إلى الفتاة فرآها تنظر فى خجل إلى الأرض وقد تورد وجهها أكثر من ذى قبل ، ومرت لحظة صمت طويلة عليهما ، حانت خلالها نظرة من الفتاة إلى وجهه فرأته يسبح فى تفكير عميق ، فقالت له : فيم تفكر ؟

— لا شىء ، لا شىء . .

— وهل زال الشىء الذى كان يضايقك عندما أقبلت ؟

— الحمد لله ، عندما رأيتك زال كل شىء .

نطقها الشاب بسرعة ومن غير أن يدرك ، ولما فطن إلى ما قال وإلى ما فيه من حرج ، احمر وجهه خجلا وارتبك ارتباكاً شديداً ، وقال وهو يعود ثانية إلى يديه يعصر أصابعه : أقصد أننى أحس كلما جئت إلى هنا ، أننى بين أهلى وعشيرتى .

فقالت غضبى تزم شفتيها فى طفولة محببة : ورؤيتى . . ألا تسرك ؟

— بل تسعدنى ، وتخفف عنى الكثير من المتاعب ، ولولا ذلك لما جئت الآن .

فسألته جادة : وما هى الأشياء التى تسبب لك المتاعب ؟

فعاوده الاضطراب بعض الشىء وقال : أشياء كثيرة . . كثيرة جداً .

— منها . .

فصمت ولم يجب ، فقالت : أتنكر عنى شيئاً ؟

ـ حتى إذا رغبت فى ذلك لم أستطع . .
ـ إذن قل ، ما الذى يؤلمك إلى هذا الحد ؟ . .
ـ قلقى على أمى المريضة ، وشوقى الزائد لرؤيتها .
ـ إنها بخير ، وسوف أجعل أبى يكتب لها خطاباً يستفسر عن صحتها . .
ـ شكراً . .
ـ قل وماذا أيضاً . .
ـ هذا السكن الذى أسكنه . .

فنظرت إلى أساريره التى أظلمت فجأة وقالت : إلى هذا الحد يضايقك هذا السكن ؟
ـ بل يخيفنى ، إننى أتمثل باب غرفتى الآن أشبه بثعبان ضخم ، فاتحاً فكيه ، شاهراً أنيابه ، ليلتهمنى . .

فقالت فى ذعر : ولماذا قطنت فيه ما دام هو بهذه البشاعة ؟ . .

فصمت ولم يجب ، وراحت هى تتطلع إليه ، وإلى العبوس المرتسم على وجهه ، ثم قالت مشفقة فى حنان كبير تسرب مع صوتها الناعم إلى قلبه فأرضاه وأطربه : سوف لا أعود إلى البيت غداً إلا بعد أن أجد لك السكن الذى تطمئن إليه . .
ـ أنا لا أعرف كيف أرد لك كل هذا الجميل . .

فقالت ضاحكة : إن هذا ميسور جداً ، عليك أن تسرق ثلاث بيضات أخرى ، وتشترى لى بها حلاوة طحينية . .

فضحك حتى استلقى ، وتركته يضحك ، ثم قالت جادة وهى ترنو إلى عينيه الجميلتين ووجهه الذى يقطر صفاء وطهراً : كنت أظن أن الذى يشغلك هو نفسه الذى يشغلنى ويسبب لى بعض القلق . .
ـ ما الذى يشغلك ؟
ـ رغبتى فى أن تنال الشهادة هذا العام .

ـ عندى إيمان صادق بأنى سأنالها بإذن الله .

فقالت فى فرحة غامرة وهى ترنو إليه نصف رنوة : إذن ، أعد لك هدية النجاح من الآن .

فتذكر ما قاله له محمدين ، ونظر إليها بعينيه الواسعتين ، وقال بصوت لا يعرف لماذا خرج خافتاً أشبه بالهمس : وما الهدية التى ستعدينها لى ؟

فتمتمت متوردة الوجه ، وهى تغمض عينيها ، وتنظر إلى الأرض فى خجل : لا أعرف . .

ـ أنا أعرف . .

فقالت وهى ما زالت تنظر إلى الأرض : ماذا تعرف ؟ . .

ـ أعرف . .

وأمسك ولم يكمل ، ومنعه الحياء أن يقول لها الشىء الذى يريده ، ويحدثها عن السعادة التى يعيش فيها ، والتى يستمد منها قوته ، وظل صامتاً ينظر إلى الأرض ، وظلت هى أيضاً صامتة تنظر إلى الأرض ، وطالت فترة الصمت هذه بينهما طويلا . . طويلا جداً ، وامتدت بالاثنين إلى أشياء كثيرة مجهولة ، تستشعرها الأحاسيس ، وتهزج بها القلوب ، وتترنم بها العواطف ، وتجعل الجسد كله أشبه بالطائر الذى يحلق فى عوالم شتى من البهجة . . واللذة . . والسرور . . تماماً كتلك التى حلقا فيها ذات ليلة . . ذات ليلة خالدة . . ليلة لا تنسى . . ليلة كانت هى الحياة . . وكانت هى الدنيا . . وكانت هى العمر . . وكانت هى الذكرى . . ليلة انهارت بهما كومة التبن . . واكتشف فيها سرقة كرة من الكرات . . فارتعشت الأصابع وخفقت القلوب ، واشتعلت الأحاسيس ، وهزج الجسد ، وغنت الحياة ، ورقصت الدنيا !

وظلا كذلك يحلقان إلى أن هزج عصفور فى السماء ، وأرسل صوتاً أشبه ما يكون برعشة وتر . . أو رجفة قلب ، أو اختلاج شفاه . . ورن

الصوت فى أذن الفتى : قل . . تعرف ماذا ؟

ففتح الشاب عينيه ، محاولا أن يفيق من ذلك الحلم الذى يعيش فيه ، ومسح شفتيها بلسانه ، وقال وهو ينظر إلى صورة صغيرة لسلوى بملابس المدرسة أمامه على الحائط : أعرف أنك ستهدينى هذه الصورة .

فقالت وهى تخرجها من الإطار وتقدمها إليه : ظننتك ستطلب شيئاً كبيراً . .

فقام وهو يتناولها من يدها متلهفاً ، ويضعها فى جيبه ، وينهض سريعاً كمن يريد أن يهرب بشىء ، ولما رأته يتجه إلى الباب قالت : ولكننا لم نبدأ الدرس . !

فقال ويده ما زالت على الجيب الذى فيه الصورة فوق القلب : دائماً اليوم الأول فى الدراسة ، ينفق فى الإعداد للدروس .

فقالت وهى تنظر إلى الأرض ، وتمد يدها لمصافحته : ومتى ستعود ؟

— غداً إن شاء الله .

وتماماً كما هبط هو السلم يحرك أصابع يده ، التى كانت فى يدها ، ويضغطها ويفردها ، وهو يتحسس حائط السلم . كانت هى فى الغرفة ، تحرك أصابعها وتضغطها وتفردها وهى تتحسس الكراسة ، التى كتبت عليها بخط يدها : احتفظ إمام بذكرياته . .

١٧

وهبط إلى الطريق ، وغمرته وحشته ، واكتنفته ظلمة الحوارى والأزقة التى راح يسير فيها ، بيد أنه تجلد وتماسك وراح يسير . فقد كان لا بد له أن يسير ، إلى أن بلغ أول الزقاق ، وطالعته الخوخة ، والخنزير الضخم المعلق فى وسطها ، فإذا به يتراجع خائفاً ، وأخافه هذا المنظر ، وأراد أن يرتد راجعاً ، وحرك قدميه ، وحاول أن يدير وجهه وينطلق

راكضاً ، بيد أن رجفة ارتجفتها عيناه فتغير المنظر أمامه ، ورأى الباب قائماً تتوسطه الخوخة ذات الخنزير الضخم ، ومد يده التى كانت ترتعش ، وجفف العرق البارد الذى كان يتصبب من وجهه ، واقترب خطوات ، ومد يده إلى الخنزير وهو يبسمل ويستعيذ بالله ويتلو آية الكرسى ، وما إن فرغ منها حتى انفتح له الباب فى يسر اطمأن إليه كثيراً . . لأن الخنزير لم يحدث تلك الأصوات المزعجة التى تعود أن يحدثها ، وكان ذلك يهمه جداً ، لأن الذى كان يطمع فيه ويرجو من الله تحقيقه هو أن يبلغ غرفته ، وأن يتمكن من إحكام إغلاق بابها خلفه قبل أن يشعر به أحد ، حتى إذا ما طلع النهار استطاع أن يدبر من أمر نفسه الكثير ولو أدى به الحال أن يعود ثانية إلى لوكاندة المدينة المنورة ، ولو أنفق بدل القروش الخمسة . . عشرة ، وبدل أن يمكث يوماً بغير طعام يمكث أياماً ، فكل ذلك أحب إليه مما يدعونه إليه ، وقد كان فعلا حذراً الحذر كله ، موفقاً التوفيق كله ، فقد استطاع أن يعيد الخوخة إلى ما كانت عليه ، والخنزير إلى مكانه ، وأن يخترق الدهليز بدون أن يشعر به أحد ، ولا الأستاذ حسبو الذى كان فى السيرجة مع بهلول ، يرتب له شئونه ويعد له عليقه وهو مخمور يترنح ويتمايل ذات اليمين وذات الشمال ، ويغنى مبتهجاً ، وزجاجة الخمر فى يده :

سبع سواقى بتنعى   لم طفوا لى نار
يا منية القلب قول   لى إزاى عشق الجار
يبقى النظر فى النظر   والقلب قايد نار

كما يطمئن الغريق ويلفظ آخر أنفاس الخوف ، عندما يمسك بحبل النجاة ، اطمأن الشاب ، وتطلقت أساريره عندما دخل غرفته بدون أن يراه أحد ، وأغلق بابها خلفه إغلاقاً محكماً ، واطمأن إلى قوة رتاجها وإلى أنه لا يمكن لقوة ما أن تقتحم عليه غرفته أو تحرك هذا المزلاج الضخم السميك ، وراح وسط الغرفة يجفف عرقه ، وينزع

ثيابه رويداً بعد أن أشعل المصباح ، وهو يبتسم من حين إلى آخر ، فقد تذكر حديثه مع سلوى ، ونظرات الخجل التى تبودلت بينهما ، وعبارات الإخلاص والحب التى ترددت على شفاههما ، وتذكر مع ما تذكر الشهادة و رغبة سلوى فى حصوله عليها ورغبة أمها أيضاً فى ذلك ، ورنت فى أذنه كلمة محمدين ، وانفرجت أسارير وجهه وهو ينظر إلى الصورة ويتأملها ، وانفرجت أساريره مرة أخرى وهو يمد يده فى إيمان لا حد له إلى الرف الخشبى الذى فوقه بعض الكتب التى عليه أن يدرسها ويستوعبها ويحل طلاسمها ، ولم يشعر هذه المرة بصعوبة هذه الكتب أو ثقل موادها كما كان يشعر من قبل عندما يتناولها ويبدأ القراءة فيها ، كما أشعل فى حذر ما بعده حذر وابور الجاز ، وأعد عليه كوباً من الشاى الثقيل الأسود الذى يساعده على السهر ، وجلس على الأرض أمام المصباح ، يقرأ الدروس ويذاكر . .

وكلما نسى نفسه ونسى أيضاً حذره الذى يجب أن يحذره ، وارتفع صوته بالقراءة ، كما تعود أن يرفع صوته وهو يقرأ ، عاد سريعاً وزم شفتيه فى اضطراب ، وراح يتلفت حواليه خشية أن يكون قد سمعه أحد ، وحين يطمئن إلى أن أحداً لم يسمعه يعود إلى القراءة سرًّا ، وظل كذلك زمناً لا يدرى تحديده ، أطال أم قصر . . وإنما الذى يدريه أنه أغرق نفسه إغراقاً فى الكتاب الذى بين يديه ، وراح يقرأ ويعيد ويحفظ ، وراح أيضاً يهتز ذات اليمين وذات الشمال ، وهو مغمض العينين يتلو ما يريد أن يحفظ بصوت مرتفع كعادته عندما يريد أن يحفظ جيداً ، وإذا به فجأة يسمع شيئاً . . لم يسمعه بأذنه كما تعودت الناس أن تسمع بآذانها ، وإنما سمعه بقلبه وبإحساسه ، ففتح عينيه فإذا شفعات منتصبة أمامه كالسهم أو كالهول ، أو كالقدر لا يعرف كيف نفذ إليه ، أهبط عليه من السماء ، أم خرج من الأرض ؟

ونظر إليها مرتاعاً ، ممسكاً بشفتيه آخر لفظ كان ينطق به وهو

يقرأ ، كما تصلبت أصابعه على الكتاب الذى كان فى يده ، وراح ينظر خائفاً . . ورأى بنظراته المضطربة فيما رأى الباب الذى بين الغرفتين ، والذى كان خلفه دولابها الكبير — رآه مفتوحاً بعد أن نقل الدولاب الذى كان خلفه من مكانه ، فعرف عند ذلك أنها حقيقة ، وأنها لم تكن خيالا كما كان يظن ، ولم تكن أيضاً عفريتاً خرج إليه من الأرض أو هبط عليه من السماء ، وإنما هى شفعات جاءته من هذا الباب الذى لم يكن يذكره أو يذكر له وجوداً . وارتعدت فرائص الشاب ، وهو جالس أمامها القرفصاء على الأرض ينظر إليها ، وتنظر إليه ، وامتدت هذه النظرات بينهما لحظات ، انحنت خلالها عليه ، وراحت تربت على كتفه التى ترتعد تحت يدها وهى تقول : ما الذى يخيفك إلى هذا الحد ؟

فلم ينطق وإنما انفجر باكياً ، وراح يولول كطفل ، فأخذته إلى صدرها وراحت تمسح على رأسه بيدها وهى تجفف له دموعه التى انسابت على صدرها العارى دافئة فزادتها هى أيضاً اضطراباً وهى تقول : قلت لك ما الذى يخيفك إلى هذا الحد ؟

فرفع الشاب وجهه المبلل بالدموع عن صدرها وفتح عينيه . ولما رأى صدرها ، قال يخاطبها بصوت رعش مضطرب ، كما يخاطب القتيل قاتله قبل أن يجهز عليه : إننى أخاف منك . .

فقالت وهى ما تزال تمسح على رأسه ، وتتحسس شعره بأصابعها : تخاف منى أنا ؟ !

ولما لم يجب قالت وهى تمسك بذقنه وتنظر إليه : قل . . تكلم . . ممَّ تخاف ؟ !

— قلت منك أنت . . منك أنت !

— وهل أنا أخيف الناس إلى هذا الحد ؟

فقال الشاب باكياً : أجل . . أجل . .

فجحظت عيناها فى دهشة وهى تسأله : أنا أخيف الناس ؟ . .

كيف ؟ . . قل . . تكلم . . كيف أخيفهم ؟ وممّ يخافون ؟ . .

ــ من الله . . من الله . .

فزمت شفتيها ثم قالت هامسة بعد حين : وهل فيما بيننا ما يغضب الله ؟!

ــ أخشى أن يكون . .

ــ يكون ماذا ؟ . . تكلم . .

فصمت ولم يجب . . فمدت يدها ومسحت على رأسه مرة أخرى . . ولما لاحظت اطمئنانه بعض الشيء قالت وهى ما تزال تمسح بأناملها المرتعشة على رأسه المحموم : قل . . تكلم . . تخشى ماذا ؟ !

فأراد أن يقول شيئاً ولكنه لم يقدر . . فصمت مطرقاً . . ولما طال صمته قالت : لماذا لا تريد أن تتكلم ؟

ــ ماذا أقول ؟

ــ ما الذى جعلك تتركنى فى العربة وتفر هارباً ؟ . .

ــ لأنى . . لأنى . .

ثم أطبق شفتيه ، فقالت هى : لأنى أردت أن أقبلك ؟ !

وكأنه ظفر بالردّ الذى لا يحرجه ، لذلك نطق على الفور : أجل .. أجل . .

فسرحت طويلا ، ثم قالت وكأنها تريد أن تغمض عينيها : ألم تقل لى إننى كأمك ؟

فنظر إليها الشاب ذاهلا وقال : أجل . . قلت لك ذلك . .

ثم عاد فتمتم وهو يحول نظراته عنها فى ألم ، وكأنه يخاطب نفسه : وكنت أقولها من قلبى . . علم الله . .

فصمتت لحظات ، ثم قالت له : هل بين الأم وابنها هذا الذى تظن . .

فلم يجب ، وأطرق إلى الأرض . فاقتربت منه قليلا ، وقالت وهى تربت على كتفه : ألم أقل لك يا بنى إننى يتيمة وحيدة لا أب ، ولا

أخ ولا زوج ، ولا ولد . . ولما قلت لى إننى كأمك ظننتك ابنى حقيقة . . وأردت أن أقبلك . . فهل فى هذا ما يغضب الله . . ويغضبك إلى هذا الحد ؟

فقال فى فرحة لا حدّ لها : حقيقة أن بعض الظن إثم . . و . .

بيد أنه عاد فأغمض عينيه سريعاً . . عندما رأى صدرها العارى ، وقميصها الخفيف الذى انشق من أمام عن ثديين بارزين مخيفين . ولما عاودته إطراقته قالت وهى تربت أيضاً على كتفه : تكلم . . ماذا كنت تريد أن تقول ؟ . .

فتمتم بصوت خافت وهو ما زال ينظر إلى الأرض : إذا كان هذا حقيقة فإنى أرجو أن تغفرى لى هذا الظن . .

فنظرت إليه طويلا هذه المرة ، ثم قالت بصوت متهدج فيه الكثير من البكاء : والآن أظل ساهرة حتى تجىء ، لكى أسألك : لماذا هرب الابن من أمه ؟ فتقابلنى هذه المقابلة الجافة !

ـ قلت لك إننى أخطأت . . وحقيقة أنا أسأت الظن .

فأدارت وجهها بعيداً ، وقالت وهى تبكى بصوت مرتفع : وما الذى جعلك تسىء بى الظن ؟

ـ صور لى الشيطان أشياء كثيرة . . ووسوس لى أيضاً بأشياء كثيرة .

فالتفتت إليه والدموع فى عينيها قائلة : ماذا صور لك ؟

فأطرق الشاب إلى الأرض ، ولم يجب . .

فقالت وهى تمد يدها إلى ذقنه مرة أخرى ، وترفع وجهه إلى وجهها : تكلم . . قل . . ماذا صور لك الشيطان ؟ . .

ـ أشياء كثيرة كلها فتنة وإغراء . . وخشيت . .

ثم زم شفتيه ولم يكمل . فقالت له بصوت لا يكاد يبين ، ويدها الممسكة بذقنه ترتعش ارتعاشاً عنيفاً : خشيت ماذا يا إمام . . قل . . تكلم . . أنا أمك . .

ـ خشيت أن . .

وزم شفتيه مرة ثالثة أو رابعة . . وقال وهو يكاد يبكى : أرجو أن تعفينى من هذا الحديث . .

فقالت ، وظل ابتسامة حلوة تتألق على شفتيها المبللتين بالدموع : أنت تسىء بى الظن إلى هذا الحد .. وأنا قلبى يحرم علىّ العشاء ، حتى تجىء ؟!

ـ أنا سببت لك كل هذه المتاعب ؟!

قالها الشاب فى إشفاق وأسف لا حدّ لهما . . فقالت هى الأخرى فى أسف مرير : وما زال العشاء أمامى لم أقربه . .

ـ أرجو لك عشاء هنيئاً إن شاء الله . .

فقالت على الفور ضاحكة فى بشر : سيكون هذا إذا تناولته الأم ، مع ابنها العزيز . .

ـ أنا تعشيت ، والحمد الله . .

ـ إذن ، فلن أتعشّى أنا . .

ـ قلت لك أنا تعشيت . .

فقالت وهى تنظر إلى عينيه الجميلتين : على الأقل . . اجلس مع أمك حتى تتناول عشاءها . .

ولم تمهله حتى يجيب ، وإنما مدت يدها إليه وأنهضته ، وسارت أمامه ، وسار هو خلفها : وحانت منه التفاتة ، وجاءت منه مصادفة على الرغم منه ، فرأى ظهرها الذى يكاد يكون عارياً ، والقميص الأملس الناعم ، الذى يتماوج فوقه ويهتز ، فتماوج معه وتهتز أشياء ، فأغمض الفتى عينيه سريعاً فى ألم ، كما يغمضهما الإنسان تماماً على نار تلفحه ، وراح يتمتم وهو يدلف خلفها إلى الغرفة فى الليل ببعض آيات من القرآن ، ويتلو سرًّا فى سرعة واضطراب : (قل أعوذ برب الناس . ملك الناس . إله الناس . من شر الوسواس الخناس . الذى يوسوس

فى صدور الناس . من الجنة والناس) .

ولما دخل الغرفة وفتح عينيه ، وكان قلبه قد اطمأن بعض الشىء ، لفت نظره السرير الضخم المرتفع عن الأرض ارتفاعاً كبيراً ، والدرجات الثلاث المبطنة بالقطيفة التى توصلك إليه ، ورأى الكلة الحمراء التى تشبه قبة السماء المنقلبة ، والمساند الثلاثة ذات القطيفة الخضراء والصفراء ، فقال ضاحكاً ، وكأنه يتذكر شيئاً : ما زالت هذه الأسرة باقية إلى الآن ؟

فقالت له ، وهى تنظر فى ضيق إلى الدولاب الذى ازدحمت به الغرفة بعد أن نقلته من خلف الباب : وهل رأيت سريراً مثله ؟ . .

— سرير أمى كان مثله تماماً . .

ثم عقب ضاحكاً : وكنت لا أستطيع أن أصعد إليه إلا إذا قفزت كما يقفز الحصان تماماً . .

فقالت ضاحكة : وهل كنت تنام فى أحضانها ؟ . .

فقال وهو يضحك فى سذاجة لا حد لها : وظللت أنام فى أحضانها إلى أن بعنا السرير ، والبيت أيضاً ، وانتقلنا إلى دهليز المرعشلى .

فقالت وهى تحاول أن تزحزح الدولاب من مكانه ، لتفسح الغرفة : أنت طيب القلب . .

فقال وهو يبعدها عن الدولاب ويقترب هو منه : أين تريدين وضعه ؟

فقالت وهى تشير إلى حائط آخر غير الذى به الباب الموصل للغرفتين هنا . .

فلم يفطن إلى شىء .. وقال وهو ينظر إلى ضخامة الدولاب : عليك أن تسندى فقط .

وفى أسرع مما كانت تظن ، حمل الدولاب على كتفه ، ونقله إلى المكان الذى أشارت إليه ، وراحت هى تنظر إليه وإلى عضلاته التى نفرت مرة أخرى كما نفرت وتجمدت يوم رفع بهلول من البئر ، وقالت

ضاحكة فى بشر وهى تجره من ذراعه إلى الكنبة المقابلة للسرير ، والتى أمامها العشاء : أنت ضيفى الليلة . .

ثم أردفت وهى تجلسه بجوارها على الكنبة ، وترفع الغطاء عن الطعام : ستأكل معى . . أليس كذلك ؟

فنظر نظرات سريعة إلى الطعام الذى حفلت به المائدة ، وقال وهو ينظر بالذات إلى دجاجة سمينة كانت تتصاعد منها رائحة حلوة : قلت لك تعشيت .

— وإذا استحلفتك بأمك . .

— هذا يمين عزيز . .

فقالت وهى تنقل الدجاجة من مكانها ، وتضعها أمامه : إذن فأنت تعزنى حقيقة . وإذن تأكل . .

وراح الشاب فى غفلة من نفسه يلتهم الطعام التهاماً ، وراحت هى تنظر إليه فرحة فى صمت كما كانت تنظر إليه تماماً فى المطعم ، وطالت فترة الصمت بينهما حيناً ، إلى أن حانت التفاتة من الشاب إلى الباب الذى بين الغرفتين والذى كان لا يزال مفتوحاً ، فأحس بشىء من الريبة أو الخوف يعود إليه ثانية ، فأنهى طعامه سريعاً وفجأة قال لها : ولكن لماذا أتعبت نفسك ونقلت الدولاب من وراء هذا الباب ؟ ولماذا أيضاً دخلت على منه ولم تدخلى من باب الدهليز كالعادة ؟ !

فأدركت على الفور كل ما يجول بخاطره ، وقالت وهى تنهض لترفع المائدة وتعد له الشاى : أهذا الذى أغضبك ؟

— بل زاد من شكى . .

فقالت فى حزن وهى تحسر عن ساقيها وبعض فخذيها وتجلس القرفصاء لتتناول وابور الجاز من تحت السرير : صنعت هذا الذى صنعت ، ودخلت عليك من هذا الباب ، لأن الأيام علمتنى أن الناس لا ترى دائماً إلا الجانب الأسود فقط . .

فقال وهو يحاول أن يبعد عينيه عن تلك الساق التي انحسر عنها الثوب حتى ثنية الفخذ : أي جانب أسود في هذا ؟

— لو أنني طرقت بابك في هذا الوقت من الليل ، ورآني حسبو ، أو أحد من الذين يعملون في السيرجة ، فماذا كانوا يظنون ؟

فقال الشاب في حدة تشبه الغضب : كانوا يظنون ماذا ؟ . . قاتلهم الله !

فقالت ضاحكة ، وهي تنهض ، وتجلس بجواره ، ملقية بذراعيها العاريتين على كتفه ، ووجهها لوجهه : يظنون الذي ظننته أنت تماماً . .

فقال وهو يغمض عينيه ، عن شيء ما على الصدر : أنا لم أظن شيئاً . .

فمدت إحدى ذراعيها ، وأمسكت به من أذنه ، متصنعة الغضب تنظر إليه بنصف عين : بل ظننت . .

ثم قالت وهي تعرك أذنه مستطردة : قل . لا تكذب . ظننت أم لا ؟

فتمتم ووجهه إلى الأرض : ظننت . .

فقالت وهي تمسك به من ذقنه وترفع وجهه إلى وجهها الذي التهب فجأة : ظننت ماذا ؟

فلهثت أنفاسه ، وهو يقول : قلت لك إنه الشيطان . . ومع ذلك اعتذرت إليك .

فتهدج صوتها وهي تأكل من وجهه بعينيها : أهذا الاعتذار من قلبك . .

فاضطرب وهو ينظر إلى فخذها التي تعرت بجواره ، وتمتم : من قلبي . .

— أتقسم ؟

— أجل . . أقسم . . أقسم . .

فاقتربت منه حتى لفحت أنفاسها الدافئة وجهه كله ، وقالت وكل شيء فيها يرتعش : وتقسم على شيء آخر ؟

فتمتم مرتعشاً بين ذراعيها : ما . . ما هو ؟ . .

– ألا تعود ثانية إلى هذا الظن السيئ .

فقال مضطرباً ينظر إلى ذلك الشيء الذى على الصدر: أبداً . أبداً .

حتى لو أحسست إحساس الأمومة الذى أحسه الآن . . و . . وعانقتك .

– أ . . أبداً . . أ . . أبداً .

– و . . وقبلتك .

– أ . . أ . . أبداً . . أبداً .

– وأخذتك هكذا بين أحضانى ؟

وفجأة جحظت عيناه جحوظاً مخيفاً ، وتصلبت أسارير وجهه ، واكفهرت سحنته ، حتى غدت مغبرة قاتمة . فخافت وارتعدت فرائصها ، وأغمضت عينيها متراجعة تريد أن تصرخ . . أن تستغيث . . أن تهرب من بين ذراعيه . ولكنه كان قد أطبق عليها فى عنف ، كما يطبق الوحش على فريسته فى عنف ، فلم تستطع أن تهرب ، ولم تستطع أيضاً أن تستغيث ، وكل الذى فعلته أنها مدت ذراعاً مرتعشة تضطرب إلى مصباح زجاجى كان بجوارها على البرميه ، ومن ثم أطفأته رويداً . . ورويداً أيضاً تسلل من الباب الذى بين الغرفتين ، والذى كان لا يزال مفتوحاً ، تسلل نور شاحب مصفر ، وتسلل مترنحاً على الأرض ، يقصر ظله حيناً ويمتد ظله حيناً آخر ، ويلتمع نوره الشاحب مرة ، ويخفت مرة أخرى ، حتى لكأنه شعاع ضئيل ينبعث من عين راهب كهل يبحث عن إنسان لم يعد . فى حين ظل السراج نفسه فى الغرفة الأخرى طوال الليل تتأرجح ذبالته فوق كتابين من كتب الفقه والدين ، حتى لفظ آخر أنفاسه ، مع الفجر !

١٨

منذ ذلك اليوم ، أو منذ هذه الليلة تغيرت أشياء كثيرة . . تغير حتى فضاء الدهليز ، وغدت ظلمته الداكنة ظلا ظليلا تستريح له العين ، وغدت وحشته المقبضة أمناً جميلا وهدوءاً محبباً ترتاح إليه النفس . وتغير أيضاً صوت السرجة الأجش الذى كان يشبه فحيح الأفاعى فى الليل ، ورائحتها الكريهة التى كانت تضيق بها النفس ، وغدا الصوت ينبعث فى الليل كاللحن الجميل ، وغدت رائحتها الكريهة كالمسك أو الطيب حتى الخوخة ومنظرها البشع ، والجنزير الضخم الذى يشبه الثعبان الكبير الفاغر فكيه ، الشاهر أنيابه ، غدا حبلا رفيعاً كأوراق الورد ، ناعماً كنسج الحرير . .

وتغير كذلك الشاب ، فلم يعد أبداً إمام بلتاجى حسنين كما كان من قبل ، أو الشيخ إمام المجاور فى الأزهر ، وإنما غدا شاباً وسيماً ، وأفنديا أنيقاً للغاية ، يرتدى البذلة الفخمة ذات اللون الجميل ، والأزرار الستة المصفوفة على الجانبين ، والطربوش الأحمر الفاقع بدل العمامة والكاكولة ، كما راح المنديل الأحمر ورباط الرقبة الذى من لونه يزينان صدره ويتألقان نوراً على الصدر ، حتى شعر رأسه الخشن الكث الذى كان لا يعرف الحلاق إلا نادراً غدا ناعماً لامعاً مصففاً تنبعث منه رائحة عطر القسيس الزكية التى تشمها على بعد أمتار .

وتغيرت غير ذلك أشياء أخرى هامة منها أو لعل أهمها وجه المعلمة شفعات نفسه . فقد غدا وجهاً جديداً تكاد لا تربطه صلة بالوجه القديم . فقد ذهبت تلك الغبرة وذلك العبوس الذى كان يكتنفه دائماً ، وغابت تلك الخطوط السوداء وتلك التجاعيد والأخاديد التى كانت قد بدأت ترتسم معالمها على الوجه ، كما زالت أيضاً تلك الدائرة الزرقاء التى كانت

تتراءى حول العين حتى لتكاد تلتف بها ، وغدا الوجه فى مجموعه مشرقاً فتاناً يقطر شباباً وبهاء ونوراً ، تزينه عينان جميلتان تشعان نوراً يشبه الابتسام ، أو ابتساماً يشبه النور ، ويتوسطه فم لا يني يضحك دائماً ، يضحك لنفسه ، ويضحك للناس ، ويضحك أيضاً للنهار إذا أدبر ، ويضحك ويغرق فى الضحك لليل إذا أقبل ، ولا تني أيضاً شفتاه الغليظتان الحمراوان تتلمظان وتبتسمان حتى فى النوم ، كما غدا الشعر الطويل الناعم الذى كانت تتهدل خصلاته حيثما اتفق ، مرة على الظهر ، أو على الصدر ، وأخرى بين النهدين ، والذى كان لا يعرف الغسل إلا من الحين إلى الحين — غدا فاحماً ناعماً تطرحه دائماً على الكتفين العاريتين ، كما تنطرح الرقعة السوداء الناعمة على العاج ، وغدا الجبين تزينه القصة الملتفة به كما يلتف الغمام حول الفجر ليزيد من بهائه ويزيد هو من ظلمته ، وتمايل عليه — أى على الجبين — كله حبات القرنفل وخرج النجف والبلابل السبع التى انسابت على عقدة المنديل أبو أويه وتدلت مع أطرافه ومع خصلة شعر واحدة على يمين الأذن ، فيحدث صوت البلابل السبع مختلطة بصوت القبقاب المطعم بالصدف ، يحدث صوتاً أشبه ما يكون بهزيج أو وسوسة الحلى ، أو أنغام الموسيقى فى الليل تنبعث إلى أذنك من مكان بعيد .

وتغيرت غير ذلك أيضاً أشياء أخرى كثيرة ، كانت لها أهمية كبرى فى حياة بعض الناس ، لعلها زادتهم بؤساً على بؤس . أو لعلها أضفت عليهم أمناً وهدوءاً وراحة بال . فهم أنفسهم لا يعلمون ، ومن هؤلاء الناس الأستاذ حسبو القط الذى أخذت حياته تسير سيراً مرضياً إلى حد كبير — فى نظر من يراه على الأقل — فلم تعد المعلمة كما كانت من قبل ثائرة عليه دائماً ، غاضبة عليه أبداً ، تغلظ له فى القول كلما رأته ، وتعنفه تعنيفاً مراً كلما التقت به ، وتتطاول عليه باللسان وباليدين بين الحين والحين ، بل أخذت تلاطفه ، وتداعبه أحياناً ، بل تتندر معه

فى بعض الأحايين ، ولم تعد تحاسبه ذلك الحساب العسير إذا ما أخطأ فى شىء ، أو أهمل فى خدمة بهلول ، أو أساء التصرف فى أمر من أمور السيرجة ، بل أعطته الكثير من الحرية ، وأعطته أيضاً مطلق التصرف فى شئون السيرجة جميعها ، ونفضت هى يدها من هذه المتاعب ، وانصرفت إلى شأنها ، تغيب ما تشاء ، وتعود إلى البيت متى تشاء . ونتج عن هذا ، أو عن تغيبها الدائم ، ما مكن الأستاذ حسبو من مضاعفة دخله ، فجميع الأوقات التى كان يقضيها فى العمل فى السيرجة راح يقطعها فى كتابة «العرضحالات» وخطابات العشق والغرام ، مما جعله يملك القروش الكثيرة ، التى يشترى بها الخمر ، ويشتريها بكثرة ملحوظة . وبعد أن كانت الزجاجة صغيرة يتسع لها جيب بنطلونه الخلفى فقط ، أصبحت كبيرة وممتلئة بصفة دائمة ، بل أصبحت أكثر من زجاجة ، يعب منها عبًّا ، يعب منها كلما قام أو قعد ، ويعب منها إن غفل أو استيقظ . . ويعب منها أيضاً كلما سالت دموعه ، فقد كان من عادته إذا أغرق فى الخمر أن يبكى . . يبكى أحياناً وهو يضحك ، ويبكى أحياناً وهو يبتسم . . ويبكى أحياناً أخرى إذا ابتهج وأرسل صوته الأجش مغنياً ومردداً مواله الحبيب إلى نفسه :

سبع سواقى بتنعى لم طفوا لى نار
يا منية القلب قول لى إزاى عشق الجار
يبقى النظر فى النظر والقلب قايد نار

* * *

ولا يدرى ، ولا يدرى أحد أيضاً ، لماذا كان يردد هذا الموال دائماً وترتفع به عقيرته كلما أغرق فى الخمر ، وكلما رأى بعينيه المحمرتين المقرحتين اللتين كانتا تبدوان من خلف منظاره الزجاجى الملوث أشبه بقطعتين من القطن منغمستين فى الدماء شبح إمام مقبلا على الزقاق ، أو خارجاً منه ، يتيه فى حلته الأنيقة ورباط رقبته الفاقع وشعره المصفف

الذى تنبعث منه رائحة عطر القسيس ، فيحس الشاب بشىء من الخجل فيسرع الخطو أو يخففه . فإذا التقى به وجهاً لوجه ، واضطر الشاب إلى مصافحته ، قال له حسبو — وهو يتمايل من الخمر ضاحكاً — جملته التقليدية التى لا يغيرها كلما التقى به أو تحدث إليه فى أيامه الأخيرة : أين أراضيك ؟ !

— فى المدرسة .

— قواك الله . .

ثم يتركه وينصرف يتمايل مخموراً وهو يضحك كعادته ، وتسيل الدموع من عينيه كعادته أيضاً كلما أغرق فى الضحك . ويظل يسير حتى يبلغ نهاية الزقاق ، ويهبط على مهل متحسساً بيديه الواهنتين سلالم السبيل حتى يبلغ نهايتها . ثم يسير بضع خطوات حتى يبلغ « خمارة كرياكو » ، وهى ما زالت قائمة إلى الآن فى ميدان باب الخلق . ويقف بجوار البرميل فإذا يده المرتعشة بالزجاجة الفارغة والقروش الثلاثة يقف إلى كرياكو وهو يقول ضاحكاً : السولار . .

وتغير ضمن ما تغير أيضاً أشياء أخرى ذات بال . . أشياء رقيقة ناعمة ، ذات أحاسيس ومشاعر وقلب ينبض بالحياة وآمال عراض تكاد تبلغ العمر ، وتمتد إلى الدنيا والحياة ، تغيرت هى الأخرى ، أو لعلها تأثرت على الرغم من بعدها البعيد عن كل شىء . . تغير وجه صبوح كان أشبه بالقمر الوليد يقطر ضياء وطهراً ، فإذا الغمام الداكن يكتنفه ويغرقه فى لجة من السواد . وتغير فم رقيق رقة الورد كان لا يكف دائماً عن الافترار والابتسام لكل شىء كما تبتسم الأقحوانة لكل شىء ، لسكون الليل . . وقطرات الندى . . وطلعة الفجر . . . وطلعة الصبح وإشراقة النور . . تغيرت وجفت واصفرت كما تصفر ورود الصيف وتجف أوراق الشجر . ولولا رعشة تكتنف الشفتين من حين إلى حين ، لظننتهما أى شىء غير أنهما شفتان شهيتان لثغر جميل . وتغيرت أيضاً عيون

ومحاجر وأهداب ذات ظلال كانت تبعث السحر وترسل النور ، فغدت معتمة مظلمة تبعث الوحشة وترسل السواد . وحدث هذا كله من يوم أن انقطع الأستاذ عن تلميذته ، أو المدرس عن دروسه بلا مقدمات .

لقد انتظرت التلميذة أستاذها فى اليوم الثانى ولكنه لم يعد . وهو لم يعد أيضاً منذ أيام، بل منذ أسابيع وشهور . وهى قد ظنته فى أول الأمر مريضاً أو أصيب بسوء ، وظنته كذلك الست صبرية . وظنه كذلك أيضاً الأستاذ الشرنوبى ، وازداد قلقه عليه . فذهب إليه فى المدرسة ، وهى المكان الذى يعرفه . حقيقة لم يجده ؛ وحقيقة أيضاً أنه لا يذهب إلى المدرسة بانتظام ، وحقيقة ثالثة أنه بخير ، وأنه لم يصب بسوء . وترك له خبراً يرجوه فيه بأن يزوره فى البيت وأنه فى انتظاره من وقت إلى آخر . وحقيقة رابعة أن هذا الرجاء قد بلغه ، ولكنه لم يعمل به . وبذلك قام الأستاذ الشرنوبى بكل ما يجب أن يقوم به رجل طيب ، يهمه أمر إنسان يعزه . أما أن ذلك الإنسان لم يستجب إلى الرجاء ، ولم يعمل بما يجب أن يعامل به الأهل والأصدقاء ، فهذا شأنه هو ، وليس للأستاذ الشرنوبى أو أسرته دخل فيه . ولكن هذا القلب . . هذا القلب الطفل الأخرس الذى لا يعرف النطق ، هل ينسى الإنسان الذى أنطقه بأول حرف من أحرف الكلام ، وألهب أحاسيسه كما تتحرك شفاه الطفل وتنطق بأول لفظ فى الحياة ؟ هل ينسى هذا ؟ هل ينسى حياته ؟ هل ينسى دنياه ؟ هل ينسى وجوده كله ؟ ! وأخيراً هل ينسى القلب . . القلب الذى عاد فأصيب بالخرس سبع سنوات ، ثم عاد فجأة إلى النطق ليلة أن عاد إليه الذى أنطقه أول مرة ؟ هل ينسى ذلك ؟ وهل من الممكن نسيانه ؟ هل فى طوق بشر أن ينساه ؟

ولاحظت الست صبرية هذا كله ، وأحست به إحساساً عميقاً أقلقها ، وأشفقت على ابنتها الوحيدة من هذا الضنى الذى تعيش فيه ، والذى شقيت به هى أيضاً لا بحسبانها الأم فقط ، ولكن بحسبانها أيضاً

امرأة تعرف كيف تحس قلوب النساء وتشعر وتتعذب بالحب الأول . ولذلك اختلست من وقتها ساعة من الزمن ، كما هربت من الناس جميعاً حتى ابنتها وزوجها ، وذهبت فيها إلى الكلية لمقابلة الشاب . وكم لاقت السيدة المحافظة الخجول التي لم تتعود الخروج من البيت ، من صعاب ومشاق ومتاعب فى السؤال والاستقصاء ، ومعرفة الطريق الموصل إلى المعهد ، وركوب الترام وزحام الناس إلى أن بلغت المعهد ووقفت على بابه تنتظره خجلة مرتبكة يكاد يوقعها الخجل والارتباك فى شر ما تقع فيه سيدة مثلها ، إلى أن جاء إمام مقبلا من بعيد ، فأنكرته ، ولم تتعرف عليه أول الأمر ، حتى إنه عندما أقبل عليها أدارت وجهها خجلا من هذا الأفندى الوسيم الرقيق الذى يسير فى دلال ، ولولا أنه مد يده لمصافحتها لظلت فى مكانها تنتظر الشيخ إمام بلتاجى حسنين الذى جاءت من أجله وطلبت مقابلته .

ولذلك كانت دهشتها بالغة عندما صافحها وحياها ، فلم ترد عليه التحية ، بل لم تسحب يدها من يده من فرط المفاجأة التى أذهلتها ، وراحت تنظر إليه وتتفحصه جيداً . الحلة الأنيقة التى يرتديها ، والقميص الحرير الذى تزينه ربطة العنق الحمراء ، والشعر المصفف الذى يتضوع مسكاً من تحت الطربوش الأحمر الذى مال زره الأسود على مؤخرة الأذن .

وبعد فترة صمت طويلة قضاها الشاب ناظراً إلى الأرض فى ارتباك شديد ، راحت تتحدث معه حديثاً طويلا ، انتهى بأنها تركته وانصرفت غير مؤمنة بكلمة واحدة مما قاله لها . لا بالمرض الطويل الذى أقعده عن زيارتهم وعن مواصلة الدروس للفتاة ، ولا بقصة خاله الذى مات وورثت أمه ماله ، الذى مكنه من أن يعيش ميسوراً ويرتدى الزى الإفرنجى ، ويتحلى بالذهب الخالص ، الساعة الثمينة التى تزين سلسلتها صدره ، والخاتم الغالى الذى يتألق فى يده ، وأزرار قميصه الذهبية

ذات السلاسل الدقيقة اللامعة . لم تصدق شيئاً من هذا كله ، ولا الوعد الذى قطعه على نفسه بزيارتهم الليلة أو غداً ، واستئناف الدروس من جديد للفتاة .

وكما خرجت الست صبرية من البيت صباحاً صامتة لا يعرف أحد وجهتها ، عادت إليه ظهراً صامتة أيضاً لا يعرف أحد أين كانت ؟ بيد أن الصمت أحياناً لغة تفهمها القلوب التى شفها الحزن ، وصهرها الألم . وقد فهمت الفتاة كل شىء ، وكأنها كانت فى صحبة أمها لزيارة الشاب ، ورأته رؤية العين ، وسمعت حديثه كله . ولذلك حاولت ما استطاعت فى ذلك اليوم أن تتجنب أمها حتى تتجنب حديثاً عرفته من ألفه إلى يائه . كما حاولت أن تكون أكثر مرحاً وضحكاً وابتساماً لعلها بذلك تستطيع أن ترسل بصيصاً من نور يزيل بعض السواد الذى يكتنف وجه الأم . وقد نجحت الفتاة فى هذه الرواية المرحة التى نقلتها ، وفصول الضحك والابتسام والمناغاة التى لعبتها ، مما خفف كثيراً عن قلب الأم ، وأعاد إليها وإلى البيت بعض الأمن والهدوء وبعض الاطمئنان وراحة البال .

وظلت الفتاة كذلك إلى أن جاء الليل ودخلت حجرتها ، بيد أنها لم تكد تغلق الباب خلفها حتى نزعت ثياب التمثيل التى ارتدتها طوال اليوم . فعاد القلب إلى وجيبه ، والثغر إلى ارتعاشه ، واللحظ إلى رجفته واضطرابه ، فصعدت إلى الفراش لاهثة مغمضة العين ، وألقت بجسدها الذى حطته فى ثياب النوم على الفراش فى غير انسجام . حتى ذلك النور الذى كان يرسل شعاعه الهادئ فى الظلام وهى نائمة إذا ما انحسر الغطاء عن فخذ أو انشق الثوب عن صدر تلاشى نوره ، وذهب ضياؤه ، وإن كان قد بقى أصله يذكرك به ، تماماً كالمصباح الجميل المنطفئ الذى تراه عيناك ، فتكاد ترى معه النور الذى كان يرسله والذى كان يشعه ! . . وظلت الفتاة كذلك منطفئة مظلمة معتمة الروح والجسد ،

نائمة كاليقظى ، ويقظى كالنائمة ، إلى أن انقضى الليل برغم طوله المرير ، لأنه كان لا بد له أن ينقضى ، ونهضت من فراشها مبكرة كما تعودت أن تنهض مبكرة ، وحاولت أن ترتدى ثياب التمثيل مرة أخرى . ولكنها لم تقدر ، فارتدت ثياب المدرسة بدلا عنها ، وراحت ترتب حقيبتها المدرسية ، وتضع فيها ما تحتاج إليه من كتب وكراريس وأقلام . فوقعت عيناها على كراسة معينة بالذات ، كراسة بيضاء خالصة البياض لم يكتب فيها سوى جملة واحدة فقط ، حاولت أن تقرأها ولكنها لم تقدر . ولما أعادت إليها النظر واستطاعت أن تقرأها لم تعرف لها معنى ، ذلك لأن دمعة من تلك الدموع التى كانت تقطر من عينيها سقطت على لفظ معين من الجملة فطمسته وطمست معه المعنى كله . . وإلا ما معنى « احتفظ . . بذكرياته » ؟ ولكن لماذا تفطر هذه الدموع على هذا اللفظ بالذات ، على الاسم دون سواه ؟ ألأن صاحبه مات ؟ وهل من الحتم علينا أن نشيع أمواتنا بهذه الدموع ؟ ولكن هل يموت الناس وهم أحياء ؟ وهل هكذا تكون دموعنا على الذين يموتون وهم أحياء ، أشد حرقة ، وأشد مرارة ، وأشد لوعة . . وأشد أيضاً ناراً ، من تلك الدموع التى نشيع بها الذين يودعون الحياة . الذين يموتون موتاً حقيقياً ؟!

العُمر



١٩

كان لا بد أن يحدث شيء ما . هذا ما كان يؤكده بينه وبين نفسه أكثر من واحد فى الزقاق وفى الحارة ، ويؤكده أيضاً حسبو بينه وبين نفسه كلما رأى المعلمة فرحة مرحة تتيه فتنة وإشراقاً ، وتتضوع شباباً وجمالا ، كما تتضوع الزهرة اليانعة ، وترسل أريجها العبق فى الخمائل . . ويؤكده أيضاً بينه وبين نفسه كلما رأى الشاب يرتدى حلة أنيقة فى النهار وأخرى أكثر أناقة فى الليل ورآه يروح ويجيء فى الزقاق كما يروح ويجيء الطاووس مزهوًّا بوسامته ، فخوراً بالألوان المتعددة البراقة التى حباه بها الله . . ويؤكده أيضاً بينه وبين نفسه كلما فرغت الزجاجة وراح مترنحاً يجر ساقيه جرًّا فى الظلام ، وهو يهبط سلالم السبيل فى طريقه إلى « كريا كو » ليأتى بزجاجة أخرى من الخمر .

وتؤكده كذلك المعلمة شفعات نفسها ، وتكاد تؤمن به كلما استشعرت النعيم الذى تعيش فيه ، وأحست الهناءة التى تفيض عليها ، وأظلتها شجرة اللذة التى تتفيأ ظلالها . كانت تؤكده دائماً وتؤمن به كلما أغرقتها لحظات هذه اللذة .

كانت تحس إحساساً غريباً ، كلما نهلت من هذا السلسبيل الذى يغرق الجسد ويفيض على القلب وتنتشى له الروح . أحست أنها أشبه بمتسول كان يطمع فى قرش ، فإذا بك تتصدق عليه بآلاف الجنيهات . حقيقة أن هذه الصدقة أصبحت ملكاً له ، وحقيقة أنه ينعم بها ويعيش فى خيرها ، ولكن هل حقيقة أن متصدقاً يتصدق بكل هذا النعيم ؟ ! كان هذا هو إحساسها ، وكان هذا هو الذى يسبب لها القلق أيضاً ويجعلها تؤكد بينها وبين نفسها أن شيئاً ما لا بد أن يحدث .

ولكن ما هذا الشيء ؟ إن أحداً من هؤلاء جميعاً لا يعرفه . لا الأستاذ

حسبو ، ولا المعلمة شفعات ، ولا إمام أفندى ، أو الأستاذ إمام كما كان ينادى ، ولا حتى الست صبرية أو ابنتها ، لأن واحداً من هؤلاء جميعاً — ولا حتى الشاب نفسه — كان يظن أو يقدر أن مجرد زيارة الست صبرية للشاب فى المعهد سوف تترتب عليها هذه الأحداث الجسام، فقد حدث أن طالباً خبيثاً كان على صلة بإمام و معه فى فصل واحد ، ويعرف عنه كل شىء . كان هذا الطالب يجلس فى مكانه فى الفصل ، فحانت منه نظرة عابرة إلى النافذة المطلة على الباب ، فرأى الست صبرية وهى تتحدث إلى الشاب ، فظنها تلك المرأة التى تعيش فى حياة الشاب ، فأشار إلى الطلاب جميعاً ، وعندما عاد إمام مختالا كالطاووس يقطع فناء المدرسة يتيه عجباً بألوان ثيابه انفجر الطلاب فى قلب الفصل يضحكون ضحكات عالية .

ضج الفصل جميعاً بالضحك المدوى والقهقهة العالية ، حتى الأستاذ. واحد فقط هو الذى لم يضحك . هذا هو إمام الذى ظل يتصبب عرقاً وخزياً فى مكانه لا يتحرك ، إلى أن انتهت الحصة . وانتهى الدرس ، واليوم أيضا ، وراح يسير فى الطريق ساهما واجما مطأطئ مرأس ينظر إلى الأرض التى يسير عليها وكأنه يبحث عن شىء عند قدميه .

وظل يسير مغمض العينين لايفتحهما إلا على اضطراب شديد ، فكلما سمع أحداً يضحك فى الطريق ، ظن أنه يضحك منه ويسخر به كما ضحك الطلبة وسخروا هذا اليوم ، كما ضحك الأستاذ أيضاً حتى كاد يستلقى هو الآخر . ولكن لماذا كانوا يضحكون جميعاً هكذا ؟ ألأنهم جميعاً كانوا يعرفون ؟ إذن هم جميعاً يعرفون أن هناك امرأة فى حياته . . امرأة تنفق عليه . وأن هذه الثياب الأنيقة التى يرتديها ، وهذه الحياة الرغدة التى يعيشها ، إنما هى من صنع امرأة — امرأة . . . . . وأغمض عينيه وثقلت قدمه على الأرض حتى غدا لا يستطيع أن ينقلها إلا بجهد . . وهل الطلاب والأساتذة هم الذين يعرفون ؟ ! والحارة . .

والزقاق . . ونظرات النسوة التى كانت توجه إليه ، وأطفال الزقاق الذين كانوا يتفرجون عليه عندما انقلب أفنديا ، وكانوا ينادونه أحياناً بيا «خواجه» والأستاذ حسبو الذى كلما رآه مقبلا ، أو مدبراً ، أغمض عينه وأخرج الزجاجة من جيبه وأفرغ فى جوفه جرعات . ماذا يقول عنه هؤلاء جميعاً ؟ بل ماذا قالت عنه الست صبرية عندما التقى بها هذا اللقاء العابر الفاتر ، ورأته هكذا كالطاووس يختال مصفف الشعر مزركش الثياب التى اختلفت ألوانها ؟ ماذا قالت عنه ؟ وماذا قالت لسلوى عنه ؟ وسلوى . . سلوى !

وأغمض عينيه ، وظل يسير إلى أن بلغ الزقاق . وحانت منه التفاتة وهو يدلف إلى الدهليز فرأى بهلول وهو يدور فى السيرجة مغمض العينين يجر خلفه ذلك الحجر الثقيل الضخم ، وكأنه يجر أثقال الحياة ومتاعب الدنيا ! وراح يتأمله طويلا . . ولا يدرى الشاب لماذا كانت هذه الوقفة الطويلة ، وهذا التأمل الطويل أيضاً . إن هذا الحمار يدور هكذا ليل نهار فى هذه الغرفة المسماة بالسيرجة ، وهو مغمض العينين لكى لا يرى هذا الثقل الذى يجره ، لأنه إن رآه ، إن رأى هذا الحجر الضخم فسوف لا يجره ، وسوف يمتنع عن الدوران . ولا بد أن حميراً غيره رأت هذا الحجر الضخم فامتنعت عن جره . وإلا لما اخترع هذا الغماء الذى يوضع على العينين فيجعل صاحبه يظن أنه يسير فى طريق سهلة معبدة كما تسير بقية الحمير . ولعله من هذا الاختراع الذى روضت به الخيل والبغال والحمير ، اخترعت تلك الأغطية التى توضع على عيون بعض الناس لكى لا يروا تلك الأثقال التى يجرونها خلفهم ، وإلا كانوا امتنعوا هم أيضاً كما امتنعت البغال والحمير ! ولكن هل يقدر هذا الحمار على أن يقضى العمر هكذا يجر هذا الحجر الثقيل . وحانت منه التفاتة إلى ركن من أركان السيرجة فرأى كمية وافرة من شعير الحنطة والفول والكسب أعدت لطعام الحمار . إنهم يطعمونه بكثرة ، ويغدقون عليه كل هذه

الخيرات لكى تكون له القدرة على الدوران . إذن هو يطعم ويشرب ، ويعنى به لا لشىء إلا لكى تكون له المقدرة على أن يجر خلفه هذا الحجر الكبير !

ومد الشاب يده وفتح باب غرفته ، فطالعته على الطاولة الكبيرة أشياء فوقها غطاء أبيض نظيف ، فمد يده وكشف عنها الغطاء فإذا بها عدة ألوان متباينة من الطعام الشهى أعدته له شفعات التى اضطرت إلى الخروج قبل أن يجىء .

ونظر الشاب إلى ألوان الطعام المتعددة ، وتأمل أوراك الدجاج وشرائح اللحم ، وراح يتفرس فى هذا كله ويتأمله . وكلما نقل عينه من صنف عاد إليه مرة أخرى وراح يتفرس فيه ويتأمله . ثم بعد أن استوعبه جيداً تمتم وهو يدير وجهه بعيداً عنه : تماماً . . نفس الشىء . . الشعير . . والحنطة . . والفول . . والكسب . .

وجلس الشاب على المقعد — بين السرير والمائدة — جلس صامتاً واضعاً خده على يده بدون أن ينبس أو حتى يتنفس ، أشبه ما يكون بآلة صماء . وجلس كذلك طويلا جداً إلى أن سمع نقراً على الباب ، فاعترته رجفة ، هزت كيانه كله ، كتلك الرجفة التى هزت كيانه ، عندما دوى ضحك الطلبة فى الفصل . وقبل أن ينطق ، أو يقول شيئاً ؛ رأى أمامه الأستاذ حسبو يتمايل بزجاجتين فى يده ، إحداهما فارغة ، وهو يضحك ضحكاً متصلا ، وقد وضع طربوشه فوق أرنبة أنفه التى برزت عظمتها ، كما تبرز قطعة الحديد الصدئة من الأرض . وترك صدريته مفتوحة تظهر قميصه البالى الممزق ، وعظام صدره البارزة منه . ووقف أمامه أشبه ما يكون بمسخ فى سيرك ، يريد أن يلعب شيئاً يضحك به الناس . ونظر إليه الشاب ، ونهض ماداً يده إليه ليصافحه ، ولكن حسبو لم يلتفت إليه ، ولم يصافحه ، وإنما نظر إلى المائدة الحافلة بالطعام الشهى وهو يضحك ويقول مغرقاً فى الضحك : كل . . لماذا لا تأكل ؟

فصمت الشاب ولم يجب ، فصاح حسبو ضاحكاً وهو يمد يده إلى صدر حمامة محشوة ، ويشير إلى الزجاجة التى فى يده : كما أن هذا (الجاز الوسخ) لا غنى لى عنه لكى أنقل قدمى ، فكذلك هذا الحمام ، لا غنى لك عنه لكى تستذكر دروسك جيداً .

فأطرق الشاب مغمض العينين وكأنه يغمضهما على نار تتلظى ، وظل كذلك إلى أن قال حسبو ضاحكاً فى ابتهاج وهو يجلس بجوار الحائط : أعرف أننى استضفتك يوماً على نصف رطل من السمك المقلو ، ولكنى لم أعرف بأنك هكذا سريعاً ستردها لى حماماً ولحماً طازجاً له هذه الرائحة الزكية .

فلم يجب الشاب أيضاً ، وظل فى إطراقته مغمض العينين إلى أن قال حسبو وهو يأكل : منذ أيام ، وأسابيع . . لم أرك إلا أمس . . فأين كنت ؟

فاضطرب الشاب وارتبك ارتباكاً شديداً . وقال وهو يرفع إليه طرفه المخضل : المدرسة ، والدروس ، والمذاكرة .

فقال حسبو بعد أن ابتلع شيئاً كان فى فمه وهو يضحك : أعرف أنها أشياء متعبة ، متعبة جداً . . أنا أيضاً ذقت الأمرين من هذه المذاكرة .

فأدرك الشاب ما تنطوى عليه عباراته من تهكم لاذع وقال : وغير ذلك ، فقد اشتقت إلى أمى ، فذهبت لزيارتها فى القرية .

فقال حسبو وهو يحشو فمه بشىء : وكيف صحتها ؟

— بخير . .

— لعلها شفيت من المرض الذى حدثتنى عنه .

— الحمد لله .

فضحك حسبو مرة أخرى وقال : كيف حال القرية ومن فيها ؟

— كلهم بخير . الحمد لله .

وكان حسبو قد فرغ من طعامه ، ومسح أصابعه بورقة كانت أمامه . ثم قال وهو ينظف تلك الأصابع فى أطراف ثيابه الرثة ، ويخرج من بين ثنايا هذه الثياب ، رسالة قدمها إليه : هذه رسالة من أمك تقول لك فيها إنها تشرف على الموت ، وإنها أرسلت إليك عدة رسائل فلم ترد عليها بواحدة .

فارتعشت يده وجحظت عيناه وهو يتناول منه الرسالة ، وما إن قرأها حتى انكفأ على حافة السرير الذى يجلس بجانبه وانفجر باكياً . وراح حسبو ينظر إليه وهو يبكي ، فيضحك حيناً ويبتسم آخر ، وكلما أمعن الشاب فى بكائه ونحيبه ، أمعن حسبو فى ضحكه وابتسامه . وظل كذلك إلى أن قال له وهو يفرغ شيئاً من الزجاجة فى جوفه : لا تبك ، نفس الشيء الذى ألهاك عن أمك ، هو نفسه الذى ألهانى عن أولادى .

فعقدت الدهشة لسان الشاب ، وهو ينظر إليه ويقول : ألك أولاد ؟

فاستلقى الأستاذ حسبو ضاحكاً ، وظل يضحك بصوت عال ، ولما فرغ من ضحكه وأراد أن يقول شيئاً ، اغرورقت عيناه فجأة وانفرطت منها الدموع بغزارة ، وسالت على وجهه المغضن ولحيته المغبرة . وكانت أول مرة يرى فيها الشاب الأستاذ حسبو يبكي ، فانتقل إلى جواره ، وقال له وكأنه لا يصدق ما يرى . : أتبكى ؟

فمسح الأستاذ حسبو شفتيه المبللتين ، ونظر إلى الشاب بعينيه المنغمستين فى الدم وقال : إننى أشفق عليك يا بنى .

فأطرق الشاب إلى الأرض وهو يتمتم بصوت خفيض : أعرف . أعرف كل ما تريد أن تقول .

— لا . لا . أنت لا تعرف شيئاً .

فأشاح الشاب عنه مزوراً ، وأدار له كتفه وهو يقول وينظر إلى الأرض : قلت لك أعرف أكثر مما ستقول .

فابتسم حسبو وهو يخرج شيئاً من جيبه ويرى الشاب إياه وهو

يربت على كتفه فى حنان كحنان الأب تماماً : أتعرف صاحب هذه الصورة ؟

فتأمل الشاب صورة جميلة لرجل وقور وسيم مكتمل الرجولة يزين صدره وشاح أحمر يتوسطه هلال ذهبي وثلاث نجوم لامعة . تماماً كذلك الوشاح الذى يزين صدر القاضى وهو جالس فى كرسى القضاء . تأمل الشاب الصورة طويلا ، ثم قال وهو ما زال ينظر إليها : صورة من هذه ؟

ــ ألم أقل لك إنك لا تعرف شيئاً .

ثم نظر حسبو إلى الصورة وابتسم ، وهو يتناول الزجاجة ويفرغ منها شيئاً فى جوفه ، ويقول : أتصدق لو قلت لك إنها صورتى ؟

ففغر الشاب فاه وقال فيما يشبه الذهول : صورتك أنت ؟ !

فقال حسبو وهو يضحك ويعيد الصورة إلى جيبه : وغداً أيضاً سترى الناس صورتك فلا تصدق .

ــ أكنت قاضياً ؟

ــ كاتب أول محكمة « . . . . » .

ــ وما الذى حدث ؟ . .

ــ الذى حدث لك نفسه . . امرأة .

ــ امرأة ؟ !

ــ امرأة لا نظير لها بين النساء .

ــ من هى ؟

ــ كانت لها قضية ، وكانت تتردد علىّ فى المحكمة ، فحدث أن انتهت قضيتها ، وبدأت قضيتى أنا .

ــ أى قضية ؟

ــ قضية الحب .

ــ أحببتها ؟

ــ وما زلت !



فقال الشاب وهو ما زال ينظر إليه فاغراً فاه : قل . . كيف حدث هذا ؟

– نفس الذى يحدث فى قضايا النساء جميعاً . . أحيلت الأوراق إلى المفتى ، فأعدمت أنا ، وبرئت هى .

ونظر إلى حسبو ، فلم يدهش ، وإنما أغمض عينيه حيناً فقد أحس أن تلك الضحكات المدوية من حوله فى الفصل تغرس فى قلبه . وظل كذلك إلى أن استعاد قواه وفتح عينيه وتذكر الحديث فقال : وما زالت هى تعيش ؟

– وتبحث عن آخر لتقدم أوراقه إلى المفتى .

ثم عقب وهو ينظر إليه ويرفع الزجاجة إلى ثغره ويضحك : وأغلب الظن أنها وجدته .

فقال الشاب : أنا لا أفهم شيئاً مما تقول . .

فقال حسبو وهو ما يزال يضحك : والله ولا أنا .

فقال الشاب على الفور : ما هذا الذى تقول ؟ إنك تهذى ! كيف أفقدتك تلك المرأة حياتك ؟ أين وظيفتك ؟ وأين أولادك ؟ وأين أسرتك ؟

ثم نظر إلى لحيته الملوثة ، وثيابه الرثة ، وأصابع قدميه التى برزت حالكة السواد من أطراف حذائه الذى رتقت بعض جوانبه ، وترك بعضها الآخر . . نظر الشاب إلى كل هذا وقال : ثم أين أنت ؟ !

فقال حسبو بصوت كأنه يبعث من قبر : ألم أقل لك بأنه مات .

فأمسك الشاب بكتفى حسبو وراح يهزه هزًّا عنيفاً وهو يصرخ فى وجهه : قل . تكلم . قص كل شىء إننى أحس بأنى سأموت أنا أيضاً .

فقال حسبو وهو يضحك : اطمئن . اطمئن جدًّا . سوف لا تموت إلا بعد أن يموت شبابك أولا .

ثم قهقه وهو يدق الأرض بقدميه كطفل يلهو : ما دام لك هذا الشباب الفتى ، وهذا النور الذى ينبثق من عينيك ، فلك هذا النعيم

كله . لك هذا الحرير الذى ترتديه . . هذا المال الذى تملكه . . هذه المائدة الحافلة . . هذه العليقة التى تعينك على السير إلى نصف الطريق فقط وليس الطريق كله . . أتفهم . . أتفهم . . فقال الشاب وهو يكاد يبكى : أنا لا أفهم حرفاً مما تقول ، ولا أعرف شيئاً من هذه الألغاز .

فأغمض حسبو عينيه حيناً ، ثم عاد ففتحهما على شىء من الدموع وكأنه يخاطب شخصاً آخر لا وجود له : وأنا كذلك كنت مثلك أجهل أشياء كثيرة ، ولا أعرف شيئاً عن حقائق كثيرة ، مثلا كنت أجهل أن للرجل شباباً ، واحداً ، أما المرأة فلها شبابان ، وأن من سوء حظ الرجل الذى فى سنها أن يموت شبابه فى الليلة التى يولد فيها شبابها الثانى . . وكنت أجهل أن هذا المولود الثانى ، إنما يجىء متكاملا بالغ النمو فيه قسوة الحيوان المفترس ، وتطيّر الجواد الجامح الذى لا يصده أو يكبح جماحه إلا (أجير) قوى متين ، شديد البأس ، مثلك تماماً .

— ماذا تقول ؟

— لا تتكلم . قلت لك إنى كنت مثلك أجهل أشياء كثيرة ، ولا أعرف أيضاً أشياء كثيرة . مثلا كنت لا أعرف أن الإشفاق إنما هو بوادر الحب ، تماماً كما أن ارتفاع درجة الحرارة هى بوادر الحمى . . كنت لا أعرف ذلك ، ولو عرفته لما أشفقت على هذه المرأة التى جاءتنى تبكى والتى ساعدتها بكل ما أملك من وسائل شريفة فى أول الأمر ، وظللت أساعدها ، إلى أن ربحت هى قضيتها ، وخسرت أنا حياتى .

وعاد فأغمض عينيه وأطبق شفتيه وظل كذلك إلى أن قال الشاب : كيف خسرت حياتك ؟ . . قل . . تكلم .

فقال وهو مغمض العينين : سقطت فجأة مريضاً بأخبث أنواع الحمى ، التى لا يعيش ميكروبها إلا فى الدم . . فى القلب . . فى الكبد . . فى الرئة !

— أى مرض هذا ؟

— يسمونه الحب !

قال ذلك وزفر زفرة حارة . ثم استطرد وهو يبتسم : وكان لا بد لى أن أشفى ، أن أعيش ، لأنه ما من أحد يريد أن يموت . . وكان الدواء غالياً جداً . . وواحد . . واحد فقط هو الذى كان يبيعه ، ولكنه لا يعرف الرحمة ، فمددت يدى إلى السلفة من الناس كما هى العادة ، وأول المطر قطرة كما يقولون . استلفت من كل الناس حتى من عم أحمد فراش المحكمة ، حتى من القاضى . كل واحد كنت أروى له رواية تختلف عن الأخرى . مرة زوجتى فى المستشفى . . ومرة ابنى مريض . . وأخرى مصاريف المدارس ، ومع ذلك لم أشف ، وعجزت عن الاثنين . . عجزت عن الشفاء ، وعجزت عن سداد الدين ، وكان لا بد . .

وزم شفتيه فجأة وأغمض عينيه سريعاً كمن يستشعر ألماً . . وظل لحظات وكأنه يتوجع إلى أن تمتم بصوته الذى يشبه الأنين : كان لا بد أن أمد يدى إلى شىء آخر .

فمددتها إلى نفسى هذه المرة . . إلى حياتى . . إلى مستقبلى . . مددتها إلى الخزانة . . زورت أختاماً . . وزورت شيكات ، ورسوم قضايا . ومرتبات موظفين ١٥ ألف جنيه صرفتها على هذا الداء الخبيث ، هذا السرطان الذى فى الدم .

وكان الشاب قد استعاد بعض قواه . . فقال له : بتقول كم ؟

— ١٥ ألف جنيه .

— وبعد .

— ١٥ سنة سجن .

فاضطربت أنفاس الشاب وهو ينظر إليه ذاهلا : أنت سجنت ١٥ سنة .

— من يناير سنة ١٩٠٧ إلى يناير سنة ١٩٢٢ .

— وبيتك ، وزوجتك ، وأولادك .

— كانوا أطفالا ، لا يزيد عمر كبيرهم على أربع سنوات . . فلما كبروا ، وسألوا عن أبيهم . . قالت لهم أمهم إنه مات . وحسناً فعلت . وقبل أن أخرج بسنتين ماتت هى . . ولما خرجت وعرفت أنهم كبروا ، وفيهم من تزوج ، وأنهم سعداء . . بعدت عنهم . كان لا بد لى أن أفعل ذلك . كنت لا أستطيع أن أخرج عليهم من السجن . وعصر المعجزات انتهى فلا أستطيع أن أخرج عليهم من القبر .

— وهل تعرفهم الآن ؟

— وهل تجهل العين نورها ؟ !

— وكيف تراهم ؟

— عرفت أنهم فى كل عيد يذهبون إلى القرافة ويقرءون الفاتحة على روح أبيهم . فأذهب أنا إلى هناك وأقف من بعيد أنظر إليهم وأقرأ معهم الفاتحة على روحه .

قال ذلك وهو يضع يده على كتف الشاب مبتسماً يربت عليها وهو يقول ضاحكاً : ألم أقل لك إنه مات .

فنظر إليه الشاب طويلا ، ثم قال بدون أن يدرك شيئاً : ألا تزال تحبها ؟

— لأننى ما زلت مريضاً .

فتأثر الشاب إلى حد كبير . وقال وهو ينظر إليه : ألا تزال تراها ؟

— كلما رأيتك .

فاندهش الشاب وقال : كلما رأيتنى أنا ؟ ! . .

— أقصد كلما رأيت شبابك الفتى ، وحيويتك الخارقة ، وزيك الوسيم . أنسيت أننى قلت لك كيف يخلق الرجل بشباب واحد ، والمرأة بشبابين ؟

فقال الشاب : تقصد أنها عرفت رجلا غيرك ؟

فقال حسبو ضاحكاً وهو يمسح على شفتيه : وغداً . . شفعات ستعرف رجلا غيرك .

ــ عم حسبو !

نطقها الشاب فى ذعر لا حد له . . وفجأة انفجر باكياً . فنظر إليه حسبو وهو منكفئ على الحشية ، وتركه حيناً يبكى ويولول كطفل ، ثم اقترب منه ، وخلص من بين ذراعيه وجهه المبلل بالدمع ، ونظر إليه وقال فى حنان جم ، وإشفاق كبير : أتتوجع من شىء ؟

ــ لا . . لا . .

ــ هل أصابك المرض الذى أصابنى ؟ . . فانتفض الشاب مرتعشاً وهو يقول : لا . . لا . .

ــ أتحبها ؟

ــ أنا أكرهها . . أكرهها . .

ــ يا لك من محظوظ ! . . وماذا تنتظر إذن ؟

ــ لا أعرف ما ذا أعمل . . قل أنت . . أرشدنى .

فصرخ الرجل فى هياج شديد : اهرب . انج بنفسك . . قبل أن تصبح حسبو آخر . انظر . . انظر إلى هذا المسخ الذى أمامك . هذا الجسد الهزيل ، وهذا الوجه الذى شوهه الزمن . . انظر إلى هذه الثياب البالية . . هذه الخرق الممزقة . . هذا الحذاء التى اختلفت ألوانه . انظر . . انظر . . أيضاً .

ومد أطرافه الخشنة إلى القميص الذى يرتديه ومزقه فى عنف وهو يصرخ : انظر إلى هذا الجسد الذى مات ، هذه العظام التى برزت . . أتريد أن تكون كذلك ؟ أتريد أن تصفع فى الليل ، ويبصق على وجهك فى النهار ؟ أتريد أن تبحث عن اللقمة فلا تجدها إلا تحت أرجل الدواب ؟ أتريد أن تكون خادماً لبهلول ؟

فصرخ الشاب صراخ من تمزق جسده السياط التى تنهال عليه :

لا . . لا أريد أن أكون كذلك . . لا أريد أن أكون كذلك .

— إذن اهرب . انج بنفسك .

— وأين أذهب ؟

— إلى الشارع . إلى الرصيف . تسول فى الطرقات . مد يدك للسؤال . ألق بنفسك تحت عجلات الترام . كل ذلك خير من المصير الذى ينتظرك!

فابتلع الشاب دموعه وهو يقول : سأفعل ذلك . أجل سأفعل ذلك .

— والآن . . فى هذه اللحظة . . وقبل أن تجىء . . إنها إن جاءت وجدتك فلن تتركك تفلت من يدها .

ثم ابتلع حسبو أنفاسه وهو ينهض من مكانه ، ويستطرد : قم . . انهض . . اهرب . . انج بنفسك . . بحياتك . . بدنياك . . بما بقى من شبابك . .

فرفع الشاب عينيه المبللتين بالدموع . . ونظر إلى المسخ الواقف أمامه ممزق الثياب . . يعلو صدره وينتفض كالقربة ، فتبرز عظام الصدر سوداء مدببة كأعواد الحديد تماماً . . ثم نقل عينيه من هذا كله ، وراح ينظر إلى أشياء أخرى فى قلب الغرفة ، وأراد أن يقول شيئاً بيد أن حسبو سبقه هامساً فى أذنه وهو يجره من ذراعه ، ويتجه به إلى الباب : دع كل شىء فى مكانه . لا تخف . اطمئن . . اطمئن جداً . قلت لى يوماً إننى كوالدك . وسوف أكون فعلا هذا الوالد . سأحتفظ لك بكل شىء فى هذه الغرفة . فى هذا المرحاض . إلى أن تجد مسكناً نظيفاً . فأنقله أنا إليه بيدى . فقط انج أنت.

فهوى رأس الشاب حتى كأنه انفصل عن جسده ، وارتمى بوجهه على يد الأستاذ حسبو يقبلها ويمسح عليها بشفتيه ، ثم تركه وانصرف سريعاً وهو يلتفت خلفه كطفل يريد أن ينجو من شىء مخيف يطارده . وما إن غاب فى الظلام ، وتوارى الشبح فى الليل ، حتى مد حسبو أصابعه إلى شفتيه المرتعشتين ، وكأنه أزال عنهما شيئاً كان يمسكهما عن

الابتسام والضحك وترديد هذا الغناء فى الليل :

أنا رحت لشيخ عالم أشتكى ذلى
رمى الكتاب من يمينه والتفت قاللى
من اللى رماك على الهوى يا خالى
يتباع ويرخص فى طريقه الغالى
عشق الصبايا بحره ماله قرار
فى أوله فرحه وفى آخره عذاب ومرار

٢٠

فى مسجد سيدنا الحسين ، وفى ركن قصى من أركان المسجد الكبير ، جلس ثلاثة عند القبلة ، وبجوار المنبر يتحدثون حديثاً هاماً . كان أحدهم جالساً القرفصاء أمام شيخ عجوز تغطى رأسه عمامة خضراء كبيرة ، وتعبث أنامله من حين إلى آخر بحبات عدة مسابح طويلة ملتفة حول صدره كالأوسمة والنياشين ، وجلس الثانى بجواره يصغى إلى الحديث بانتباه ، وكلما اضطرب الذى يتحدث أو تقطع حديثه أو تلعثم ، وهو يريد أن يقص أشياء يمنعه حياؤه أن يذكرها ، نظر إليه الثانى نظرات مشجعة وهو يقول له : قل . . قل لسيدنا الشيخ كل شىء . لقد جئت بك إليه لعله يكون شفيعك عند الله .

فيواصل الشاب حديثه المضطرب المتقطع إلى أن انتهى من الحديث وقال كل شىء ، فنظر إليه الشيخ وقال وهو يتأمل وجهه الشاحب وعينيه المحمرتين : المهم فى هذا كله . . أتركت أيضاً مع ما تركت من أشياء غالية دروسك أم لا ؟

فقال الشاب وهو يتميز غيظاً : إن لم تتخل عنى عناية الله ، فإنى أقول لا .

فقال الشيخ : إذن اذهب إلى فتاتك وأنت مطمئن ، فهى لن يعنيها سوى مستقبلك .

فقال الشاب : وهل تحسن لقائى إذا ذهبت إليها ؟

فقال الشيخ : من رحمة الله يا بنى أن القلوب الطاهرة تلتصق بها الرحمة ، وتنطبع عليها المغفرة ، كما يلتصق القلب بالجوانح ويصبح جزءاً منها ، وتصبح هى جزءاً منه .

ثم أغمض الشيخ عينيه وتمتم بصوت شجى : (إلا من تاب وآمن وعمل عملا صالحاً فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفوراً رحيماً) .

ثم فتح الشيخ عينيه ونظر إلى الشاب ، ومد يده إلى رأسه ومسح عليها وهو يقول : اذهب إليها . . فليس أحب إليها من عودتك . . وسوف تجدها إن شاء الله من الصابرين .

فانحنى الشاب على يد الشيخ وقبلها ثلاثاً ثم انصرف . وعند باب المسجد ودعه محمدين على أن ينتظره فى اللوكاندة ، وسوف يعد له غرفة مناسبة يبيت فيها إلى أن يبحث له عن سكن جديد .

وفى الطريق أحس الشاب أنه ألقى عن كاهله عبئاً ثقيلا بعد هذا الحديث القصير الذى دار بينه وبين الشيخ ، كما أحس الشاب وهو يسير فى الطريق أنه الآن غيره بعد أن خرج من المسجد ، فقد أحس أنه ألقى هناك بآثامه وأوزاره جميعاً ، وأنه الآن كما كان قبل تلك الأيام السود يفيض قلبه بالإيمان ، وأنه الآن إن التقى بسلوى فسوف يلتقى بها خالصاً لها مخلصاً لها كما تريد هى له أن يكون ، وأنها هى أيضاً سوف تلقاه كذلك خالصة له مخلصة إليه . ولكن أقلوب الناس جميعاً كما قال الشيخ تلتصق بها الرحمة وتنطبع بالغفران ، أم هى القلوب التى تحب فقط ؟ هل تلقاه الست صبرية صافية القلب مخلصة الود كما كانت وكما يريد لها أن تكون ؟ وهل يلقاه كذلك الأستاذ الشرنوبى أبو إسماعيل ،

أم ينظر إليه نظرة من صنع الخير فى غير أهله . . نظرة من أراد أن يكون بك حفيا ولك وفيا وعليك عطوفاً ، فكنت له منكراً ذلك كله أشد الإنكار ؟ إن سلوى من حقها أن تصفح وتغفر ، لأن بيدها الأمر . . لأنها تحب . . والذى يحب له قلب . . عرف الحسنة وتناسى السيئة . . إذن هو إلى حد كبير جداً يؤمل الخير فى سلوى أكثر مما يؤمله فى أى إنسان آخر . . أكثر مما يؤمله فى الست صبرية ، وإن كانت أمها . . وفى الأستاذ الشرنوبى ، وإن كان والدها . إذن من الأصوب أن يلتقى بسلوى أولا وقبل كل شىء . . ولكن كيف يلقاها ؟ وماذا يقول لها ؟ أيقول لها كل الذى قاله للشيخ ؟ . . إنه لا يستطيع . . يقول لها ماذا ؟ . .

وأخرج منديلا من جيبه وجفف بعض الدموع ، ومن ثم أخذ يروح ويجىء وهو ينظر من بعيد إلى مبنى كبير يلتف به سور ضخم . . وينتظر خروج التلميذات من المدرسة إلى أن خرجن ، ومن بينهن سلوى . إنها كالعهد بها لم يتغير فيها شىء . . طاهرة كالملائكة .. صافية كالنور . . رقيقة كالزهر . . ولكن أين تلك الإشراقة التى كانت تنير ذلك الوجه ؟ أين تلك الابتسامة التى كانت تتألق على الثغر صفاء كطلعة الصبح ؟ أين تلك النظرة التى كانت رقيقة كالورود ، حلوة كالدنيا ، مرحة كأيام الطفولة ، وما بالها هكذا ساهمة واجمة لا تنظر إلا إلى الأرض ؟ ما بال هذا الوجه الجميل مصفر اللون تكتنفه الوحشة ؟ ما بال ذراعها هكذا متخاذلة متعبة لا تكاد تحمل حقيبة كتبها إلا بجهد ؟ أكانت مريضة .؟ لا شك أنها كانت مريضة .. س . . . س ... ووقفت بقية الأحرف التى يتكون منها الاسم على شفتيه ، ولم يستطع نطقها . . لا . . لا . . إنه لا يستطيع أن يناديها . . إنه لا يستطيع أن يلقاها . . إنه لا يستطيع أن يقول لها شيئاً . . لفظاً ، حرفاً واحداً من الحقيقة . . إنه لا يستطيع . . وأدار ظهره سريعاً وراح يسير ووجهه إلى الأرض.. يسير مرتبكاً جداً ، لا يدرى أهو يريد أن يسرع ليبتعد ، أم هو يريد أن يبطئ لتسبقه ؟ !

ولكن الذى يعرفه أنه كان يسير على الرصيف وهو يود أن تنشق به الأرض وتبتلعه حتى لا يراه أحد فى الوجود كله . . بيد أنه فجأة سمع صوتاً خافتاً بجواره يناديه : إ . . ما . . إمام . .

فأدار وجهه وما إن التفت إليها ورأته حتى نطقت على الفور : أتبكى ؟

فانهلت دموعه بغزارة ، وانتابته رعشة مفاجئة ، وراح ينشج بصوت عال لفت نظر المارة جميعاً وجعل الطالبات يلتففن حولهما . . ويسألن سلوى من هذا ؟ وما به ؟ مما أحرج الفتاة وسبب لها ارتباكاً شديداً . . ولم ينقذها من هذا الحرج الشديد إلا مركبة كانت مارة . . فأشارت إلى الحوذى ، وركبت وأركبته معها . . وفى داخل العربة راحت تسأله فى لهفة عدة أسئلة سريعة : هل هو مريض ؟ هل أصيب بسوء ؟ هل مات له أحد ؟ ثم هل كان يمر الآن مصادفة أمام المدرسة . . أو أنه كان ينتظرها ؟

وأحس الشاب بشيء كبير من الاطمئنان، لأن هذه الأسئلة برغم كثرتها لم تخرج عن هذا المحور. لم تسأله مثلا أين كان طيلة تلك الشهور الماضية ؟ وما الذى شغله عنها ؟ وإلا اضطرب وارتبك وتضاعفت آلامه . ولما قال لها إنه لم يمر مصادفة ، إنما كان ينتظرها ، وكل آماله أن تحسن لقاءه كما أحسنته الآن ، شعرت الفتاة بشيء غريب لا تدرى له كنهاً يسرى فى كيانها ، شيء أشبه بقطرات الندى عندما تمس الزهور فى الخمائل ، لقد أشرق وجه الفتاة فجأة ، وتفتحت عيناها ، وانبعث منهما نور قوى . . وبعد أن كانت تجلس بجواره فى العربة مضطربة مرتبكة من المفاجأة تنظر إليه وهو يبكى ولا تستطيع أن تقول شيئاً ، اقتربت منه وتناولت المنديل من يده وجففت له دموعه . . ثم قالت له أشياء كثيرة لطيفة . أشياء حلوة . . أشياء جعلته يشرق ويبتسم . وكانت المركبة قد قطعت بهما شوطاً ، ورأت الفتاة نفسها بجوار حديقة

عامة ، فأوقفت المركبة وهبطت معه إلى الحديقة . . وراحا يسيران بين أشجارها الوارفة إلى أن بلغا ربوة جميلة فجلسا عليها فى نفس الصمت الطروب الذى يلازمهما وهما يسيران . وبعد حين نظرت إليه وفاجأته مفاجأة غريبة لم يكن ينتظرها . . إذ قالت : المهم فى هذا كله أن تطمئنى على مدرستك ودروسك . . إن هذا هو خير ما تقدمه إلىّ بعد كل هذا الغياب الطويل .

يا لله ! . . ويا للقلوب الطاهرة فعلا ! . . إنه قول الشيخ نفسه . . إنها تنبؤاته نفسها . . إنها الألفاظ والعبارات نفسها التى نطق بها إليه . . إن هذا الشيخ لنبى . . إن محمدين إذن لم يكن هازلا عندما قال له : إن مسح الشيخ المرشدى على رأسك مسح الله خطاياك ومسح أحزانك جميعاً . . ونظرت إليه الفتاة وأحست أنه يفكر فى غير ما قالته له . . فسألته وهى تنظر إليه ، ولولا الحياء لكادت تمسك بيده ، وقالت : فيم تفكر ؟ . .

— فى الشيخ المرشدى .

وقص عليها الشاب قصة محمدين ومسجد الحسين والشيخ المرشدى والألفاظ التى صدرت منه ، فضحكت الفتاة حتى كادت تستلقى وهى تقول : إلى هذا الحد كنت تخشى أن تلقانى ؟

— لأنى إلى ما قبل هذه اللحظة كنت لا أعرف حقيقة هذا القلب . .

— أى قلب ؟ . .

— الذى تلتصق به الرحمة والمغفرة كما يلتصق هو بالجوانح فتصبح جزءاً منه . . ويصبح جزءاً منها .

— كلام من هذا ؟

— الشيخ المرشدى .

— وددت لو أنه كلامك أنت . . وددت لو أن ثقتك فى الناس الذين يحبونك ويخلصون لك تظل دائماً ولو كانت تلك الشهور التى

مضت سنين وأحقاباً . . ولو كان فراقاً إلى الأبد . .

ثم اختنق صوت الفتاة ، واحتبست الدموع فى عينيها وهى تقول وتجفف بعض القطرات التى انسابت خلسة من عينيها : شيء أحب أن أقوله لك . . شيء علمتنيه أنت ، هو أن الذكرى الطيبة يعيش عليها الإنسان طوال العمر ، وأن صفحات الخير فيها تظل بيضاء دائماً ناصعة البياض . وكلما أظلمت الحياة ، وأعتمت الدنيا ، كان ذلك البياض هو النور الذى نهتدى به . . وأظن أن ذكرياتنا كلها كانت طيبة ، صفحاتها كلها خير . . فمم كان الخوف من اللقاء ؟ . .

فقال الشاب وهو ينظر إلى الأرض : أخافنى الخطأ الكبير الذى ارتكبته .

ــ أحياناً تكون الأخطاء التى نرتكبها بإرادتنا .

فقال الشاب مفجوعاً : هل تعرفين شيئاً من الحقيقة ؟

ــ كل الذى أعرفه أن سعادتى الآن بعودتك لا تعادلها سعادة فى الدنيا . .

قالت ذلك وقفزت من جواره ، كما يقفز العصفور تماماً وقالت وهى تجفف آخر دمعة : هيا بنا لنذهب إلى البيت . .

ــ وبأى وجه ألقى أمك ؟ . . وماذا أقول لأبيك ؟

ــ أبى على سفر ، ولو أنه فى البيت الآن لما قلت سعادته برؤيتك عن سعادة أمى بلقائك هذه الليلة . .

قالت ذلك ومدت يدها إليه فأنهضته . . وراح يسير بجوارها وهو غير مصدق شيئاً من كل هذه السعادة التى يعيش فيها . وظل كذلك غير مصدق لشيء لا لنفسه ولا لوجوده ولا لتلك الفرحة الكبيرة التى فرحتها الست صبرية برؤيته . . ولا لتلك الحفاوة البالغة التى استقبلته بها . . ولا لتلك الجلسة الممتعة التى قضاها مع سلوى وأمها . . ولا

حتى لتلك الرسالة الطويلة التي كتبها مع سلوى لأمه يستفسر عن صحتها ويعدها بأنه سيزورها ، ويقضى معها إجازة الأسبوع القادم . إنه لم يذكر شيئاً من هذا كله إلا بعد وقت طويل ، بعد أن انصرف من البيت وذهب إلى لوكاندة المدينة المنورة والتقى بحمدين وجلس معه يشربان الشاى ، ويتحدثان ، ويذكران الشيخ المرشدى وقوله : « إن القلوب الطاهرة تلتصق بها الرحمة وتنطبع عليها المغفرة ، كما يلتصق القلب بالجوانح ويصبح جزءاً منها ، وتصبح هى جزءاً منه » .

٢١

عادت المعلمة شفعات إلى الزقاق آخر النهار ، بعد أن قضت اليوم كله فى (حمام) المردنلى الذى اعتادت أن تقضى فيه نهار كل خميس ، تغتسل وتستحم ، وتدلك جسدها وتدهنه بالعطور وأصناف الزيوت الغالية ، التى تعيد للجسم بشرته الملساء الناعمة وشبابه الفتى . . وراحت تصعد سلالم السبيل مترنحة الأعطاف ، تتأود كالغصن ، وتخب خبباً كالناقة الحاوب ، وقد تركت ملاءتها الحريرية السوداء التى أحكمتها على الردفين الرجراجين ، وخنقت بها الخصر فزادته وهناً على وهن ، تركتها تنسدل على الرأس وتسقط عن الكتف اليمنى لتظهر القرط الذهبى الكبير الذى صنعته على هيئة دائرة كبيرة وتركته يروح ويجىء على الكتف مع خصلة فاحمة من الشعر الناعم ، يداعبها النسيم فتميل حيناً على الكتف وحيناً تختلط بحبات الترتر وخرج النجف على الجبين .

وتصادف وقت مرورها أن كان الأستاذ حسبو جالساً إلى مكتبه ، على ناصية الزقاق ، فلم تلتفت إليه ، ولم تعره اهتماماً ، وكل الذى صنعته أنها سألته بدون أن تنظر إليه وبدون أن تتوقف أيضاً عن السير قائلة :
كل شىء عال ؟ . .

ـ بأنفاسك يا ست .

ونهض سريعاً ، وخلص ساقيه المتخاذلتين من تحت الترابيزة التى يجلس إليها ، وهم أن يلحق بها ، ولكنها كانت قد قطعت شوطاً بعيداً ، فراح يسير خلفها متخاذلا يترنح من فرط الخمر ، وكلما كاد يسقط استند على الحائط . إنه لم يرها فى يوم ما أجمل منها الآن ، ولا حتى فى أيام الشباب الأول ، ولا حتى فى أيام الصبا . . أهكذا تستطيع النساء أن تستعيد شبابها بين يوم وليلة ، تستعيد فتنتها بين عشية وضحاها كما تستطيع الشجرة أن تورق وتثمر وتنضج ثمارها وتتدلى على الأغصان ؟ ونظر إلى ساقيها العاريتين الجميلتين ، وعقبيها الحمراوين اللتين خرجت بهما من الحمام يكاد دم الشباب والصحة يقطر منهما ، ويسيل على القبقاب المطعم بالصدف الذى يزين قدميها ويزيدها فتنة ، كلما نقلت قدماً وهى تسير ، ورنت تلك الموسيقى التى تنبعث من بلابله الستة التى صفت على جانبيه . ونظر أيضاً إلى صدرها العارى الذى يشع نوراً ، والذى ازداد إشعاعه عندما مدت يدها إلى الصدر وكشفت عن جانب كبير منه وهى تخرج المفتاح الذى وضعته بين النهدين . . ثم نظر إلى القرط الذهبى وتلك الخصلة من الشعر الفاحم التى يداعبها النسيم فتنام على الكتف العارية وحيناً تختلط بتلك الوردة الحمراء التى تتدلى بجانبه . نظر إلى هذا كله من خلف منظاره الصدئ الملوث ، وراح يضحك وهو ينظر إليها وهى تفتح الباب لتدخل ، ويردد بذلك الصوت الأجش المبحوح الذى يشبه تماماً صوت خوار حيوان يموت :

يا ام العيون تتعشق
يا ام القوام مياس
يا ام النهود تتعبد
يا ام السيقان تنباس
يارابطه على الفرع ورده

فى مكان حســاس
الورد أنا رويتــه
وشــوكه جرحنى
و بدال مايداوى جرحى
بالقـــدم بانداس

* * *

ووقف لحظات فى الدهليز لا يعرف أين يذهب ، وراح ينظر إلى النور الوهاج الذى ينبعث من شراعة باب غرفة المعلمة ، ذات الزجاج الذى اختلفت ألوانه ، ويصغى إليها وهى تغنى أغنية نسائية خارجة تعودت أن تغنيها فى ليالى الأنس والابتهاج ، وكثيراً ما سمعها منها فيما مضى من الأيام ، وأثارته هذه الأغنية ، وبعثت فى نفسه الكثير من الذكريات ، وأحس بشىء يكاد يطبق على أنفاسه وهو فى الظلام ، فرفع الزجاجة إلى ثغره وتجرع منها عدة جرعات ، ثم عاد وتجرع غيرها أيضاً ، حتى كاد يأتى على ما فى الزجاجة كله . وحانت منه التفاتة فى الظلام فرأى بهلولا فى السيرجة مغمض العينين يجر خلفه ذلك الحجر الضخم . . فنظر إليه طويلا . ولايدرى لماذا أراحته رؤية بهلول ، ولا لماذا ذكرته بأشياء هامة كان قد نسيها تماماً ؟ فابتهج وتمتم فى ابتسامة عريضة ، وهو يحدق إلى بهلول وإلى العصابة التى على عينيه والحجر الضخم الذى يجره خلفه : سوف تستريح أيها الشقى .

وقبل أن يتم كانت يده تدق دقات متواصلة على باب غرفة المعلمة . . التى أجابت من الداخل بعد حين : من ؟

ــ حسبو .

ــ لا أريد أن تثقل على الآن . اترك كل شىء إلى الصباح .

فقال ضاحكاً من خلف الباب : إنها أشياء لا صباح لها يا ست .

فقالت صارخة من الداخل فى ضيق : إننى نزعت ثيابى .

ــ إننى أريد أن أحدثك عن بهلول .

ــ انطق . . تكلم . . ماذا تريد أن تقول ؟

فقال وهو يدقق بعينيه المحمرتين فى كل أنحاء جسدها الذى انتصب أمامه عارياً إلا من قميص رقيق هفهاف كأوراق الورد : إنه حمار فعلا .

ــ من هو ؟ . .

فقال وهو يغرق فى الضحك : بهلول . . بهلول . .

فقالت مبتسمة تنظر إليه مشفقة إذ ظنته مخموراً لا يفقه : وماذا كنت تظنه إذن ؟ . .

ــ إنسان . بنى آدم . له قلب يقدر الجميل . . وعين ترى الجمال .

ــ من تقصد ؟

ــ هذا الحمار الذى كان يقطن فى هذه الغرفة .

فقالت شاهقة وهى تحس بقلبها يسقط بين جنبيها : إمام . . ! . .

ــ قال لى إن اسمه الحقيقى بهلول ، واليوم سقطت العصابة التى كانت على عينيه ، ولما رأى ضخامة الحجر الثقيل الذى كان يجره خلفه ، خاف وفر هارباً ولن يعود .

وكما يقف التمثال صامتاً صلباً متحجر الوجه ، وقفت هى لحظات تنظر إلى حسبو الذى ظنته خيالا أو حلماً . ولما رأته يتحرك ويريد أن يسير تحرك الدم الذى يغلى فى كيانها وصعد إلى وجهها فيما يشبه لسعات النار ، فجحظت عيناها جحوظاً مخيفاً ، وتصلبت أصابع يديها وهى تطبق بها فى قسوة على عنق حسبو فى عنف ، وتقول شبه صارخة : تكلم . أعد الذى قلته ثانية .

فقال حسبو ، وهو يحاول أن يجد لعنقه متنفساً بين أصابعها ليضحك : قال لى إن اسمه الحقيقى بهلول . واليوم سقطت العصابة التى كانت على عينيه ، ولما رأى ضخامة الحجر الثقيل الذى كان يجره

خلفه ، خاف وفر هارباً ولن يعود .

فقالت وهى تضغط على عنقه بيديها لتكتم أنفاسه : وماذا قلت أنت له ؟

ـ قلت إننى مثلك ، ظللت أجر هذا الحجر سنوات ، ولكنى لم أهرب برغم أنها استبدلت بى بهاليل كثيرة ، وقلت له أيضاً . .

بيد أنها فجأة دفعته دفعة قوية فسقط مترنحاً على الأرض . . وتركته وعادت سريعاً إلى غرفتها محمومة كاللبؤة التى تريد أن تفترس كل من أمامها ، وفتحت غرفة الشاب ونظرت إليها ذاهلة . إن كل شىء فيها كما هو لم يتغير . لم ينقصها إلا هو ، هو . .

ونظر إليها حسبو وهى خارجة كاللبؤة المسعورة ، وأغرق فى الضحك ، وظل يضحك وهو فى مكانه ملقى على الأرض ، وظل يضحك وهو يلقى بجسده الخائر على فراشه الخشن محتضناً الزجاجة التى تعود أن يحتضنها إذا أراد أن ينام . وظل يضحك حيناً ، ويحتضن الزجاجة حيناً آخر ، ويغمض عينيه مرة ويفتحهما مرة أخرى بدون أن يدرى من أمره شيئاً ، ولا من أمر الليل الذى يمر به شيئاً . وظل كذلك إلى أن هب مذعوراً على دوى هائل ظنه أى شىء إلا باب غرفته الذى فتح فى عنف على مصراعيه ، ورأى تلك الأصابع المتصلبة القاسية التى تشبه مخلب الهرة الهائجة تنشب فى صدره ، وشفعات تنظر إليه بعينيها اللتين ما زالتا فى جحوظهما الغريب المخيف ، وهى تصرخ فى وجهه تلك الصرخات المتقطعة : قل أين ذهب ؟ بحثت عنه فى كل مكان فلم أجده . . تكلم . . انطق . . أين أخفيته ؟

ولما رأته ما زال يضحك ويغرق فى الضحك ركلته بقدميها ركلة موجعة ، وعادت إلى غرفتها ، ووقفت على الباب بين الغرفتين ذاهلة مبهورة الأنفاس ، تنظر بعينيها اللاهثتين إلى محتويات غرفة الشاب ، وأثاثها الذى أنفقت فيه مالها ، وملابسه الفاخرة التى صنعتها له . والأحذية التى

بلغت الستة ، والحلل الغالية التى تزيد على الثمانية . . والكرافتات ذات الألوان البراقة الزاهية ، والملابس الداخلية التى كلها من الحرير – كل هذا أتت به إليه ، ومع ذلك يهرب منها .

وجحظت عيناها مرة أخرى ، وتصلبت أصابع يديها وارتعشت وهى تنشب أظافرها فى هذا كله ، وتلقى به وسط الغرفة لتمزقه . ولما لم يبق شىء فى الغرفة حتى بعض ملابسها الداخلية التى كانت فى غرفته ، تناولت المصباح الزجاجى من مكانه ، لتفرغ ما فيه من بترول على هذا كله الذى تريد أن تحرقه ، فإذا هى ترى بجانب المصباح الذى كان على الرف مصحفاً ، فظنته كتاباً من كتبه التى يجب أن تحرق ، فتناولته فى عصبية ، وهمت أن تلقى به فى النار ، بيد أنها رأت تحته شيئاً أدهشها . . رأت صورة لفتاة فى الرابعة عشرة من عمرها ترتدى ثياب المدرسة التى زادتها براءة وطهراً . . المريلة والفيونكة والجورب الأبيض وحقيبة الكتب التى تحملها فى يدها . .

نظرت إلى الصورة وهى ترتعش ، واقتربت بها من البوريه حيث المصباح ما زال مشتعلا فى غرفتها ، وتأملتها طويلا ، ودققت فيها النظر طويلا غير واعية . وكلما أمعنت فيها النظر تجسمت الصورة فى عينيها ، وظلت تتجسم رويداً رويداً حتى رأت الفتاة أمامها ، بجمالها الرائع ، وقوامها الرشيق ، ووجهها الذى يكاد دم الشباب يحيله حمرة تشبه حمرة الشفق . وراحت تعيد النظر إلى هذا كله مرة . . ومرة . . وتحدق إليه من جديد ، بيد أن نظرة مضطربة من تلك النظرات الزائغة التى تتدهور من عينيها وهى تنظر إلى صورة الفتاة ، حانت منها إلى مرآة البوريه الواقفة أمامه ، فرأت صورة غريبة مذهلة ، رأت وجهاً لم تكن تعرفه من قبل ، رأت وجهها عجوزاً مغضناً . . تمشت خلف المساحيق التى عليه عدة خطوط سوداء دقيقة أشبه ما تكون تماماً بآثار الثعابين الصغيرة على الرمال . . ورأت تلك الخطوط تزداد وتكبر وتكثر وتتجمع تحت

العينين ، مما زادها بشاعة وقبحاً . .

وقفت تتأمل هذا الوجه ، وتتأمله مليا وتدقق فيه كما كانت تدقق في وجه الفتاة منذ لحظة ، وقارنت بين الوجهين ، فرأت شيئاً عجيباً . . رأت وردتين إحداهما تتضوع مسكاً وترسل أوراقها الحمراء والبيضاء أريجاً عبقاً نفاذاً ، وتتألق بهاء وفتنة فوق الغصن . . ورأت الوردة الثانية جافة ذابلة تساقطت أوراقها جميعاً ، أو كادت ، ولم يبق فيها سوى تلك الجذور الزرقاء الكريهة المنظر . فاندهشت دهشة كبيرة ، وراحت تنظر ثانية إلى الوردتين ، وتقارن بين أول العمر وآخره ، وبدايته ونهايته : نهاره وليله ، وفجأة سقطت الصورة من يدها على الأرض ، فانكفأت عليها تبكي في صمت بكاء موجعاً يكاد يمزق أحشاءها ، وتئن أنيناً مختنقاً لا تكاد تسمعه أذناها .

وظلت كذلك زمناً لا تدرى أطال أم قصر ؟ ولكن الذى يدريه حسبو هو أنه لما رآها تتسلل من البيت مع الفجر ، وسألها أين تذهب ؟ انفرطت الدموع من عينيها ، وظلت تبكي . . وتبكي . . حتى توارت عن عينيه .

٢٢

إن الزوج الذى تخونه زوجته ، ويعرف خيانتها ويطلقها ، يكون قد أراح ضميره ، فلم يعد يهمه بعد ذلك تقوّل الناس عليه ، ولا نظراتهم إليه ، ولا ضحكاتهم الخبيثة كلما مر بهم ، ما دام هو في قرارة نفسه قد اطمأن إلى شرفه الذى دافع عنه .

وكذلك تماماً كان الشاب عندما عاد إلى مدرسته صباح السبت راضياً كل الرضا مطمئناً كل الاطمئنان ، بعد أن فر هارباً من يد الخطيئة ، وطلق حياة الرذيلة طلاقاً لا رجعة فيه . . واجتث جذور الدنس من

أساسها فلم يعد لها فى حياته أثر . إن شيئاً ما لا يهمه الآن ، لا تلك الضحكات الصفراء التى كانت تأكل جسده أكلا ، ولا تلك النظرات الخبيثة التى كانت تخترم صدره وتنفذ إلى القلب فتدميه ، بل راح يشفق على الذين ينظرون إليه ، ويضحكون منه ، ويسخرون به ، لأنهم جهلاء لا يعرفون . وظل كذلك إلى أن انتهى اليوم وخرج من المدرسة مع الخارجين ؛ بيد أنه لم يكد يخطو بعد الباب خطوة واحدة على الرصيف ، حتى وقف شاخصاً فى مكانه ينظر بعينين زائغتين إلى الأرض التى تدور به حيناً ، وحيناً إلى وجوه الطلبة الذين تزاحموا حوله بالضحكات التى يوجهونها إليه والألفاظ الجارحة التى يصفونه بها . . وحيناً آخر إلى شفتاه الجالسة أمامه فى العربة الحنطور ثائرة متنمرة ، مربدة السحنة ، مكفهرة الوجه ، ترسل عيناها الحمراوان الجاحظتان بريقاً كأنه اللهب ، وهى تأمره فى ابتسامة صفراء أن يركب . وتعالت ضحكات الطلبة مرة أخرى ، وتهافتت نظراتهم وتزاحمت داخل العربة ، ووضحت ألفاظها الجارحة ، وبعد أن كانت تلميحاً مستتراً غدت تصريحاً مكشوفاً ومفضوحاً أيضاً . وتقدم طالب قوى من الشاب ودفعه فى قوة إلى قلب العربة ، وهو يقول ضاحكاً : اركب .

وحين ركب الشاب وسارت به العربة قالت له : لماذا هربت منى ؟ .

— . . . .

— فى أى بيت قضيت الليلة البارحة ؟

— أى امرأة من النساء أخذتك منى ؟ . . أهكذا يكون الخروج من الحمام سهلا كدخوله ؟

— . . . .

— أهكذا يكون جزائى منك ؟ !

لم يكن أمامها أحد حتى يرد عليها أو يجيب عن هذه الأسئلة . إن الإنسان الجالس بجوارها فى العربة إنما شبه لها ، وإنه إنسان ميت

تماماً لا حياة ولا روح . . كأنه بجوارها جثة هامدة يتفصد منها العرق ويسيل قنوات على الوجه الشاحب والعينين الذاهلتين . وظل كذلك وقتاً طويلا جداً . ظل كذلك حتى بلغت بهما العربة نهاية الطريق ، وهبطت منها ، وجرته فى يدها صاعدة به سلالم السبيل ، واخترقت به الحارة والزقاق ، حتى إن حسبو عندما رآه اضطرب وسقطت الزجاجة من يده ! وكما كانت تجره فى الطريق جرته وهى تدخله الغرفة وتلقى به على المقعد وتغلق الباب خلفها .

وفتح الشاب عينيه ونظر فيما حوله ، ثم عاد فأغمضهما ثانية ، وظل كذلك إلى أن تسربت إلى أنفه رائحة كريهة تشبه العفن ، رائحة سوداء يعرفها جيداً ، لأنه عاش فيها زمناً ، وأحس بها تنفذ إلى أنفه وتتسرب إلى خياشيمه وتطبق على أنفاسه حتى لتكاد تزهق روحه ، فعاد وفتح عينيه ثانية ونظر إلى المرأة المتنمرة المتحفزة الواقفة أمامه كالهول وقال : لماذا جئت بى ثانية إلى هنا ؟

— جئت بك إلى بيتك . .

— لم يكن لى بيت ، وإنما لى ماخورة وتركتها . . هربت منها ، ولن أرجع إليها أبداً . .

— إذن ما قاله حسبو كان حقيقة . .

فقال الشاب وكأن قوى الأرض جميعاً تجمعت على شفتيه : أنا الذى يقول لك الحقيقة . .

— وما هى الحقيقة ؟ . .

— إنى أبغضك . . أكرهك . . أحتقرك . . لن ترى وجهى بعد اليوم . .

فقالت ضاحكة فى ثقة : هل هذا فى يدك ؟ . .

— فى يد من إذن ؟ . . !

— حقوقى التى عندك ، مالى الذى أنفقته عليك . . عرضى الذى أبحته لك . .

— كل ذلك دفعت ثمنه غالياً . .

— أى ثمن دفعت ؟ . .

— دينى الذى هجرته ، خلقى الذى فقدته ، شرفى الذى أهدرته . . و . .

وصمت ، فقالت : وماذا ؟ تكلم ، قل كل شىء . .

— وأخيراً شبابى ، شبابى الذى فقدته على مذبح هذا الجسد ، الذى هو ملك لكل شاب . .

فقالت ضاحكة فى غيظ : أهكذا قال لك حسبو؟ . .

— لم يقل حسبو شيئاً ، ولكن ثقى أننى لن أكون حسبو آخر ، سأنصرف الآن ، سأعود بالحمال الذى سينقل لى متاعى من هذه البؤرة . .

ثم نظر إليها والنار تندلع من عينيه وقال : دعينى أخرج . .

— وإن لم أدعك . .

— حطمت رأسك هذا بيدى . .

— ولماذا لا أحطم رأسك أنا بهذه اليد التى ما زال خيرها عليك ؟ . .

— ثقى أن الموت أحب إلى وإلى الناس جميعاً من هذا الخير الذى تظنين . . قلت لك افتحى الباب . .

قال ذلك ومد يده ليفتح الباب ، ولكنها جذبته من ذراعه جذبة قوية كادت تسقطه على الأرض وهى تقول : لقد كان كل أملى أن أجىء بك إلى هنا ، الآن لن أدعك تفلت من يدى . .

ثم أرسلت ضحكة عالية وهى تعقب ثائرة : أتظن أننى إلى هذا الحد مجنونة ؟ أتظن أننى بعد أن أطعمتك وكسوتك وجعلت منك رجلا ، أدعك تفلت من يدى لتذهب إلى تلك الفتاة التى شغفتك حبًّا ، تلك التلميذة التى تفضلها على ؟ ! . .

فقال وهو ينظر إليها فى دهشة زائدة : أى فتاة ؟ وأى تلميذة ؟ . .

فمدت يدها فى عصبية إلى درج من أدراج البوريه ، وأخرجت أجزاء صورة ممزقة ، وقالت وهى تصرخ فى وجهه وتريه الصورة : صورة هذه الفاجرة التى تخطف الرجال وهى بعد لم تشب عن الطوق . .

— اخرسى . .

وقبل أن يتم كانت ذراعه الثقيلة التى ارتفعت إلى أعلى قد سقطت على رأسها فى ضربة موجعة أسقطتها على الأرض ، وهم أن يخرج ، بيد أنها زحفت سريعاً على الأرض ، وأمسكت بقدميه ، وانهالت عليهما تقبلهما بدموعها المنسابة ، وشفتيها المرتعشتين وهى تنتحب مولولة فى صوت مختنق متقطع : إننى أحبك ، إننى أحبك ، ثق أن لا غناء لى عنك ، ثق أن الموت أحب إلى من فراقك . .

ورأت مصادفة وهى تتمرغ عند قدميه أجزاء الصورة الممزقة على الأرض ، فتعالى نحيبها وهى تقول بنفس الصوت المختنق المتقطع : حقيقة أننى امرأة عجوز انحدر بى العمر ، انحدر بى الشباب ، ذبل جمالى ، وهى فتاة صغيرة . . شابة . . حقيقة لا ذنب لك فى هذا ، ولكن أنا أيضاً لا ذنب لى فيما صنعته الأيام ، حقيقة أن الأيام انحدرت بى . . وحقيقة أننى أصبحت امرأة عجوزاً . . ولكننى أحبك ، فأشفق على عجوز تحب . .

قالت ذلك سريعاً ، سريعاً جداً ، حتى لا يمنعها شىء عن كتمانه ، ثم نظرت إليه تنتظر منه جواباً ، فإذا بالجواب ركلة قاسية موجعة ، ألقت بها فى ركن الغرفة ، فلم تصنع أكثر من أنها أغمضت عينيها ، حتى لا تراه وهو ينحنى على أجزاء الصورة المتناثرة على الأرض ، ويجمعها فى حنان لا حد له ويضعها فى جيبه ويخرج . .

٢٣

ذهب الشاب بعد خروجه من البيت إلى مسجد سيدنا الحسين فصلى المغرب جماعة مع المصلين ، ثم ذهب إلى لوكاندة المدينة المنورة ، وقص على محمدين كل ما حدث ، واتفق معه على ضرورة نقل متاعه الليلة من بيت هذه المرأة ، فذهب معه محمدين إلى المنزل الجديد الذى استأجر له فيه سكناً ملائماً ، وأعطاه مفتاحه ، ثم استأجر له عربة لينقل له متاعه كله دفعة واحدة ، وتركه وانصرف إلى اللوكاندة ، فى حين ركب إمام العربة بجانب الحوذى إلى أن بلغا الزقاق ، فأوقفا العربة أمام سلالم السبيل وانصرف إمام إلى المنزل ، فوجد المعلمة شفعات واقفة على باب الزقاق مستندة بظهرها إلى الخوخة وأمامها بعض العمال ، تصدر إليهم أمرها ، وترتب معهم شئون السيرجة ، كأن شيئاً لم يحدث على الإطلاق ، وعندما رأت إمام مقبلا ومعه الحوذى صرفت من معها سريعاً ، وظلت هى فى مكانها إلى أن اقترب إمام من الباب ، وأراد أن يدخل بدون أن يحييها أو حتى ينظر إليها ، فابتسمت ضاحكة وهى تمد يدها إليه لتصافحه قائلة : أظن الصباح رباح ، وكل تأخيرة وفيها خيرة . .

فلم يرد عليها ، وحاول الدخول ، فاعترضته وقالت وهى ما زالت تضحك : النهار له عيون ، والملائكة تغضب إذا أقلقتها فى الليل . . ألم تقل إنك مسلم وحنبلى وتعرف الله جيداً . .

فغاظته منها هذه السخرية وقال فى صوت عال : لن يطلع علىَّ النهار وأنا فى هذا البيت كما قلت لك . .

فقالت وهى تضحك أيضاً : اخفض صوتك ، الناس تسمعك . .

فقال : لو استدعى الأمر أن أجمع سكان الحارة جميعاً لفعلت . .

ــ أنا لا يهمنى الحارة ولا سكانها ، وإنما الذى يهمنى أمك المريضة النائمة فى غرفتك . .

ــ أمى ؟ ! . .

نطقها الشاب فى دهشة لا حد لها بدون أن يصدق أذنيه ، فقالت وهى تكتم فرحة فى القلب تريد أن تنبثق نوراً من العين : جاءوا بها بعد أن خرجت مباشرة محمولة على عربة ، لأنها لا تقوى حتى على النطق ، ومعها رجل ضرير ، فأكرمتها ونظمت لها غرفتك بيدى . . وأنمتها بنفسى على السرير . . لا تنس أنها أمى أنا أيضاً . .

لم يسمع الشاب نهاية الحديث ، لأنه كان قد اندفع إلى الداخل . وما إن فتح الباب ورأى أمه مسجاة على الفراش وبجوارها عم نوفل ، حتى ارتمى عليها يبكى ويقبل يديها ويبلل شفتيها بدموعه ، ويسألها عما بها . ولما أحست به ، وأفاقت من إغمائها بعض الشيء ، وجاهدت نفسها حتى فتحت عينيها قليلا ، ونظرت إلى إمام لم تصدق ، ثم عادت ونظرت إليه ثانية وهو متكئ على صدرها يبكى ، ولما عرفته جيداً تمتمت فى صوت لا يختلف كثيراً عن صوت ابنها الباكى وقالت : أنت يا إمام لبست أفندى فى مصر . .

ثم أغمضت عينيها ، وعادت إلى إغماءتها الطويلة التى لازمتها منذ ثلاثة أيام كما قال له عم نوفل ، الذى راح يقص على إمام قصة الشقاء الطويل الذى عاشت فيه الأم فى أيامها الأخيرة ، بسبب داء الكبد الذى كان يلازمها ، والذى حار فى أمره الأسطى شلبى حلاق الصحة ، ولما استفحل بها الأمر وساءت حالها ذهبت إلى حكيم المركز الذى قال إنها مصابة بخراج فى الكبد ، ولا بد من ذهابها إلى مصر لإجراء عملية ، لأنه من غير المتيسر إجراؤها عندنا فى الريف ، فجئت بها إلى مستشفى قصر العينى ، لأننى لم أستطع أن أذهب بها إلى مستشفى خاص لضيق ذات اليد ، ولكنهم هناك أهملونا ، وقالوا لنا عودوا بعد ثلاثة أيام لعدم وجود أسرة خالية ، وحالتها كما قال حكيم المركز وعمك الأسطى شلبى ، تستدعى عملية عاجلة ، وإلا ماتت فى الحال ، ولما خشيت أن تموت منى

فى الطريق ، سألت أولاد الحلال عن عنوانك فدلونى عليه ، فجئت بها إلى هنا ، وأنا كما ترى رجل ضرير لا حول لى ولا قوة ، وليس فى استطاعتى أن أفعل أكثر مما فعلت . .

وأنهى الشيخ نوفل حديثه ببعض الدموع التى تفجرت من بين أهداب عينيه المقفلتين ، فقال الشاب وهو يتميز حزناً وألماً : وتحتاج هذه العملية إلى نفقات كثيرة ؟ . .

فقال عم نوفل وهو يمد أصبعه إلى إحدى عينيه المقفلتين ويمسح بعض الدموع : يقولون يا ابنى أشياء خيالية ، يقولون إنهم يطلبون خمسين جنيهاً ، إنهم يا بنى لا يفقهون شيئاً ، لأنهم لو باعوا المريض نفسه لما وجدوه يساوى هذا الثمن الذى يطلبونه لشفائه ، إنهم يا بنى لا يفقهون شيئاً ، لا يفقهون شيئاً . .

قالها الرجل فى غيظ وحزن شديدين ، ثم سكت عن الكلام ، ومرت لحظات صمت طويلة ، وكانت ستزداد طولا لولا أن صوتاً انبعث من الخارج يقول : أين العفش الذى ستنقله يا حضرة الأفندى ؟ . .

فتذكر الشاب ما كان قد جاء من أجله ، فخرج إلى الحوذى وصرفه ، ثم عاد إلى الغرفة ، ووقف حيناً بجانب أمه ينظر إليها وهى فاقدة النطق ، ويتأمل صفرة وجهها التى تشبه وجوه الأموات تماماً ، ثم غادر الغرفة لا يلوى على شىء ، ووقف على باب الزقاق فى الظلام واجماً ، أين يذهب ؟ بمن يستنجد ؟ حتى الأستاذ حسبو لأول مرة يغيب الليلة عن السيرجة ، لقد خرج وقت أن كان يتشاجر هو مع المعلمة خشية أن تفتك به . . أيذهب إلى محمدين ؟ . . ماذا يصنع له ؟ وما الذى بيده حتى يقدمه إليه ؟ . . أيذهب إلى الشيخ المرشدي ؟ . . هل يسأل له السماء أن تمطر ذهباً ؟ . . أيذهب إلى سلوى ويقص عليها الحقيقة ويجعلها هى تدبر له الأمر ؟ . . ولكن ماذا تدبر له ؟ من غير المعقول أنها تمتلك مثل هذا المبلغ . لو كان والدها مثلا موجوداً ولم يكن

على سفر ، فربما كان وجد له حلا ، إذن ماذا يعمل ؟ هل يترك أمه تموت أمام عينيه ؟

ونظر إلى السماء من خلال أسجاف الظلام التى تكتنفه وتملأ الدهليز والزقاق وتمتم : أهكذا يكون الجزاء ؟ أهكذا يجازينى الله هذا الجزاء السريع ؟ أهكذا يحاسبنى الله سريعاً على ما ارتكبت من آثام ؟ أهكذا يكون العقاب قاسياً . . أهكذا يكون الجزاء أن تموت أمى أمام عينى . . ولا أستطيع أن أفعل لها شيئاً ؟ . .

وانهلت الدموع من عينيه ، وراح يبكى بكاء عالياً وينشج كما لو كان طفلا صغيراً يتوجع ، وظل يبكى إلى أن أحس بيد تمتد إليه فى الظلام وتجره من ذراعه إلى الداخل ، فلم يقل شيئاً ، وسار كالسائمة خلف تلك اليد التى تجره ، إلى أن أدخلته المعلمة غرفتها وأجلسته على المقعد ، وسحبت طرف ثوبها وراحت تجفف له دموعه ، وتمسح له على وجهه وهى تقول : أطفل أنت . . إنها بخير ، وستشفى إن شاء الله . .

— إنها فى حاجة إلى إجراء عملية سريعة وإلا ماتت . .

— تجرى لها العملية حالا . .

فوضع شفته السفلى بين أسنانه ، وأطبق عليها حتى كاد يقطعها وهو يقول : إنهم يطلبون خمسين جنيهاً ، خمسين جنيهاً . .

— ليطلبوا ما يريدون ، خذ كل الذى تريده ، وأعطهم كل الذى يطلبون . .

فنظر الشاب إليها فاغراً فاه وهو يتمتم : ماذا تقولين ؟ . .

— أقول إننى ومالى كله ملك لك ، أظنك لا تصدق . .

ثم مدت يدها إلى منديل فى صدرها وأخرجته ، فإذا به يضم عشرات من أوراق النقد الكبيرة ، أخرجت من بينها خمس ورقات ، ثم أضافت إليها ورقة سادسة قدمتها إليه : وهذه عشرة جنيهات أخرى لما قد تحتاج إليه أنت من نفقات .

فلم يصدق الشاب شيئاً مما يرى ، ولا مما يسمع ، ولكنه لما فتح عينيه جيداً ورأى نقوداً حقيقية ، وأنه فى حقيقة وليس فى حلم ، ارتمى على يدها يقبلها ، ويمسح عليها بدموعه المنسابة : إننى لن أنسى لك هذا الجميل أبداً ، لن أنسى لك هذا . .

ثم عاد وقبل يديها ثانية ، وهم أن يخرج سريعاً ، بيد أنها لحقت به عند الباب واستوقفته لحظات ، وقالت وهى تنظر إليه ملقية بذراعيها على صدره الذى يضطرب : فقط لى رجاء بسيط عندك ، فهل تحققه لى ؟ . .

فقال الشاب سريعاً فى إخلاص لا حد له : قلت لك إننى مدين لك بحياتى ، قولى . . ماذا تريدين ؟

فصمتت حيناً ، ثم قالت وهى تغمض عينيها وتنظر إلى الأرض : إنك ولا شك تعرف جيداً العلاقة التى بيننا ، وكيف أن هذه العلاقة امتدت إلى سكان الحارة والزقاق جميعاً ، حتى راحوا يتقولون علينا السوء ، وتعرف جيداً أيضاً . . أنك لى ، وأن لا غناء لأحدنا عن الآخر . . وما دام الأمر كذلك ، فلماذا لا نخرس تلك الألسنة ، وبدل أن يكون هذا الذى بيننا سرًّا وفى الظلام ، يكون علانية وفى النور ، وبدل أن يكون أمامنا فقط . . يكون أيضاً أمام الناس ، وبدل أن نغضب الله نرضيه ، و يكون ذلك سريعاً ، أقصد الليلة مثلا ، بل الآن . .

فلم يفهم الشاب حرفاً واحداً من كل هذا القول ، ولذلك سألها جادًّا : قولى ماذا تريدين . . ؟

— أن نتزوج . .

فشهق الشاب شهقة عالية ، وقال فى ذعر شديد وهو يلقى بالنقود التى فى يده على الأرض ، ويخرج سريعاً ، كمن يريد أن يهرب من هول مخيف : أنا أتزوجك أنت ؟! . .

فنظرت إليه وهو يخرج سريعاً وابتسمت ، ووقفت فى مكانها

لحظة ، ثم مدت يدها إلى النقود المتناثرة على الأرض عند قدميها وجمعتها ، وابتسمت أيضاً ، ولم تعدها إلى مكانها فى المنديل الذى تحتفظ به فى صدرها ، وإنما وضعتها على البوريه وصعدت إلى السرير ، وانطرحت بظهرها عليه باسطة ساقيها وذراعيها فى استسلام عجيب ونشوة زائدة ، وهى تنظر بعينيها الواسعتين إلى سماء الغرفة ، وكأنها تنظر إلى سماء دنيا جديدة . . تقبل عليها ، لقد كانت واثقة من أنه سيحود .

وظلت كذلك وقتاً لم يطل كثيراً فى حسابها . . ولم يطل كثيراً أيضاً فى حساب الزمن نفسه ، وإن كان قد طال وبعد وامتد سنوات فى حساب غيرها من الناس إلى أن رأت يداً مرتعشة تفتح عليها الباب ، ورأت الشاب يدخل عليها مطبق الشفتين ، ويقف وسط الغرفة مغمض العينين جامد السحنة متحجر الوجه ، لا يطرف ، ولا يتحرك ، فلم تأبه به ، ولم تلتفت إليه ، وظلت كما هى مستلقية على ظهرها فوق الفراش منبسطة الساقين والذراعين فى استسلام عجيب ، إلى أن سمعته يتمتم بصوت خافت جداً يشبه الهمس : قومى . .

– إلى أين ؟ . .

– نتزوج . .

٢٤

لم يستطع الشاب أن ينقل أمه إلى المستشفى فى تلك الليلة كما كان يود ، ولا حتى فى صبيحة اليوم الثانى ، لأن مراسيم الزواج لم تتم إلا عند الظهر تقريباً ، وذلك بسبب تغيب المأذون عن بيته فى هذه الليلة ، وعدم العثور على مأذون آخر بعد منتصف الليل ، برغم تلك الجهود التى بذلتها المعلمة فى تلك الليلة ، وبرغم أن قدميها كاد الدم يسيل منهما من كثرة سيرها فى الطرقات ليلا وتنقلها من حى إلى حى تبحث عن المأذون ، والشاب خلفها يتبعها خطوة خطوة ، يسير كما تسير ،

ويضع قدميه مكان ما تضع قدميها ، ويطرق الباب الذى تطرقه يدها ، بدون أن يفتح فه ، أو تطرف له عين ، أو تتحرك له شفة ، أو يقول غير ما طلب منه المأذون أن يقول ، وكل الذى قاله من عنده هو أنه بعد أن عقد العقد ، وخرج معها من بيت المأذون سألها قائلا : لماذا أردت أن يكون مؤخر الصداق مبلغاً ضخماً هكذا ، وأثبت فى العقد أنه مئتان من الجنيهات بالتمام ؟ . .

فقالت ضاحكة : لكى أسجنك إذا أردت أن تهرب منى يوماً . .

فلم يجب بشىء ، ولم يلتفت إلى شىء مما قالت ، فقد أنسته فرحته ، بدخول أمه المستشفى وإعداد العدة لإجراء العملية لها كل شىء ، وظل طوال النهار وإلى أن جاء الليل حركة نشاط دائمة ، يتحدث إلى الأطباء ، يدفع حساب المستشفى وأجر العملية مقدماً ، ويشترى لها كل ما تحتاج إليه ، إلى أن انتصف الليل تقريباً ، وأفاقت أمه بعض الشىء من إغماءتها ، وفتحت عينيها وعرفت أنها فى المستشفى ، وأن العملية ستجرى لها فى الصباح ، أى بعد ساعات ، فنظرت إليه وربتت على كتفه فى حنان أزال كل متاعبه ، ثم أغمضت عينيها ثانية ، بيد أنها بعد لحظات قصار عادت وفتحتهما ثانية ، وسألته وكأنها تريد أن تطمئن : إمام ، من أين جئت بهذه النقود ؟ . .

فجفل الشاب كما يجفل الجواد وقال وشىء ما يكاد يعصر قلبه : إنها إرادة الله . .

— و . . ونعم بالله يا بنى . .

وكأن الأم أحست بما يعانيه ابنها من ألم مميت فنظرت إليه وهى تحس أيضاً بشىء وقالت : هل من سر يخفى على الأم يا إمام ؟ . .

فارتعد الشاب فى مكانه ظناً منه أنها عرفت شيئاً وقال : أى سر . .

— كل هذه الأحزان المتجمعة فى عينيك . .

— من أجلك أنت فقط . .

– الموت بيد الله ، والحمد لله أولا وآخراً ، أليست هذه نعمة كبيرة ، أنني أراك رجلا ، ماذا كنت أنتظر أكثر من هذا ؟

ثم نظرت إليه في نفس الحنان الذى تغمره به ، وتمتمت وهى تدفعه من كتفه بيدها المريضة المرتعشة : قم ، قم يا بنى اذهب إلى بيتك لتستريح . .

– سأبيت هنا فى المستشفى . .

– ولماذا؟ . .

– لكى أكون بجوارك . .

فأغمضت عينيها ، وهي تطبق بأصابعها المتخاذلة على كتفه وكأنها تقول له: كثر خيرك . ومن ثم راحت فى صمت تعالج تلك الآلام التى تكاد تمزق أحشاءها ، وكأنها عجزت عن احتمالها ، ففتحت عينيها مره أخرى وقالت لإمام الذى كان يبكى : هل أتعبك إذا طلبت منك شيئاً ؟ . .

– ليتك تطلبين حياتى ، فقط يكتب الله لك الشفاء ، قولى ماذا تريدين ؟ . .

– فى (البقجة) التى أحضرتها معى من القرية مصحف والدك الذى كان رحمه الله يتبرك به ، فهل تحضره لى أضعه تحت رأسى لعله يخفف عنى بعض هذه الآلام . .

فنهض الشاب سريعاً بعد أن خلص فى رفق ذراعها التى كانت على كتفه ، وأراحها بجانبها على السرير ، وخرج مسرعاً يتخبط فى ظلام الليل ، حتى بلغ البيت ، ودلف إلى غرفته مباشرة ، وأخرج المصحف من قلب البقجة ، ومن قلب بعض الثياب أيضاً ؛ وهو يبسمل ويتلو الفاتحة فى سره ، بيد أنه عندما خرج من الغرفة ، التقى فى الدهليز بشفاعات التى كانت فى طريقها إلى غرفته ، عندما شعرت بمجيئه ، وكانت مرتدية ثوباً جديداً لم يكن قد رآه ، وما إن رأته وهمت أن تقول له شيئاً حتى رأت حسبو أمامها وجهاً لوجه يقبل مترنحاً من الخارج



والزجاجة فى يده ينظر إليها و يضحك ، فغاظها وجوده فى هذه اللحظة ، وقالت له وهى تنظر إليه شزراً : فيم تلصصك على زوج وزوجته فى الظلام ؟ . .

ففهم كل شيء إلا الذى قالته ، ورنت فى أذنه كلمة — زوج وزوجته — كزجاجة وزجاجات — فقال ضاحكاً يرد عليها ، وهو ينظر إلى الزجاجة التى فى يده : لأننى لا أستطيع النوم ، وهى فارغة . .

ثم نظر إلى الشاب الذى أدهشه جداً وجوده وقال : شرفت يا سيد بهلول . .

فاغتاظت ودفعته فى عنف حتى كاد يسقط وهى تقول : من اليوم لا أريد لأحد ما أن يمس زوجى بكلمة . . أسامع ؟ . .

— زوجك ؟ . .

نطقها الرجل وهو فاغر فاه يستمع إلى رنين الكلمة فى أذنه ، وكأنه يستمع إلى حكم يصدر بالإعدام على إنسان يعزه . .

— أجل ، زوجى ، زوجى ، وأعلن هذا على رءوس الأشهاد جميعاً ، وهذه قسيمة الزواج إن لم تصدق ، أسمعت . .

فلم يسمع الرجل شيئاً ، ولم ير شيئاً أيضاً ، ثم قالت للشاب وهى تسحبه من يده إلى غرفتها ، وتنظر إلى وجهه الشاحب الذى يقطر صفرة وعرقاً : ما بك ؟ . .

فقال وهو يلقى بجسده على المقعد الذى قبالته : أكاد لا أتمالك جسدى . .

— مم ؟ . .

— لم أنم منذ أول أمس . .

فقالت ، وهى تتناول من على المشجب ثوباً من ثياب النوم التى كانت قد أعدتها له : قم ، قم ، انزع ثيابك لتستريح . .

— لا ، لا ، سأبيت فى المستشفى . .

ـــ تبيت فى المستشفى ؟ ! . .

ـــ فقط جئت الآن لآخذ هذا المصحف لأمى . .

فقالت ضاحكة وهى ما زالت تنظر إليه : وهل يبيت العريس خارج البيت ليلة عروسه ؟ . .

فتذكر الشاب أنه زوجها ، وقال وهو ينظر إلى الباب الذى سيخرج منه : على الرغم منى . . إنها أمى . .

فقالت وهى ما زالت تضحك وتنظر إليه : أهكذا حتى فى ليلة زواجنا تأبى حماتى إلا أن تطفئ شمعتى . .

فقال الشاب محاولا أن يجاريها فى الضحك : إنها مريضة ، وستكون ليلة زواجنا يوم شفائها إن شاء الله .

ثم حاول أن يخرج فقالت له : اجلس قليلا . .

ـــ إنها تنتظرنى . .

ـــ تناول عشاءك ثم اذهب إليها . .

ـــ لست جائعاً . .

فقالت وهى تقرب المقعد إلى المائدة التى فى وسط الغرفة ، وتجلس عليه : قلت لك تناول عشاءك ثم اذهب إليها . .

فقال وهو ينظر إلى الطعام الذى اكتظت به المائدة على غير العادة ، بعد أن رفعت الغطاء عنه : ما هذا كله . . إنه يكفى لعدد كبير من الناس . .

فقالت وهى تضع فى الطبق الذى أمامه صدر الديك الرومى الذى كانت تزين به المائدة : عيبك أنك تنسى دائماً .

ـــ أنسى ماذا . .

ـــ إن هذه ليلة دخلتنا . .

فقال وهو ينهض : سآخذ قطعة من اللحم وكسرة من الخبز . . آكلهما فى الطريق .

ــ قلت لك تناول عشاءك ثم اذهب إلى من تريد . .

ــ هل أنا ذاهب إلى عشيقة . . قلت لك إنها أمى . .

ــ وأنا زوجتك . .

فاضطرب فى خوف ، وأراد أن يقول لها شيئاً ، ولكنها شدته من ثيابه مرة أخرى ، وأجلسته ، وهى تقول غاضبة بصوت عال : لن تخرج إلا إذا أكلت . .

فجلس فى حنق ومد يده إلى الطعام الذى تمثل له سما ناقعاً وتناول قطعة من اللحم وراح يلوكها بين شدقيه . . ونظراته إلى الأرض لم ترتفع عنها . بيد أنه لم يكد يبتلع اللقمة الأولى حتى استشعرت أحاسيسه لذة الطعام ، وسر هذا المعلمة شفحات الجالسة أمامه . . . ترقبه خلسة ، وازداد سرورها عندما رأت أسارير وجهه تتهلل شيئاً فشيئاً ، وقسمات وجهه التى كان قد طمسها الحزن كما تطمس الأمطار والأوحال الأشياء النظيفة تعود إلى ما كانت عليه من الجمال والإشراق والبهجة ، وازداد هذا السرور وتضاعف حتى كاد يبلغ ذروته عندما تفتحت عيون الشاب واستطاعت أن تبصر المرئيات وتميز بينها ، وتتعرف عليها ، وترى جيداً ثوبها الجديد الذى ترتديه والذى انشق من أمام إلى ما بعد الثديين . والذى انشق أيضاً من خلف حتى كشف عن الظهر كله ، وكاد ينزلق إلى ما فوق الردفين . والذى سألها عنه قائلا وهو ينظر إليه ويتفحصه فى امتعاض : لم أر هذا الثوب قبل هذه الليلة . .

ثم أطبق شفتيه على قطعة من اللحم كانت فى فمه . . كما يطبق الإنسان عينيه على منظر كريه ، ثم حاول أن يقول شيئاً فقال غيره : إنه ثوب جميل على أى حال .

فقامت ناهضة من على المائدة ، وقد اكتملت فرحتها ، واتجهت إلى البوريه قائلة : أعجبك . .

فقال وهو يشيح بوجهه عن ظهرها الذى تعرى أمامه : فقط كنت

أود لو ترتدين ثوباً يحجب هذا العرى . .

فقالت وظهرها ما زال إليه : يحجبه عن من ؟ . .

— عن العين !

— حتى لو كانت عين زوجى . .

ثم استدارت إليه حاملة زجاجة من النبيذ تفرغ منها فى كأسين وتقدم له إحداهما :

— ما هذا ؟

— عصير العنب .

فقال فى ذعر : لا . لا . لن أشرب .

— ولكنك كنت تشرب . .

— إننى أصلى منذ ثلاثة أيام .

فقالت فى غضب وصوتها يتخذ صفة الجد : قلت لك إنه عصير العنب .

— إنه مسكر ، وكل مسكر حرام ، وأنا أصلى كما قلت لك .

— وأريدك أن تصلى كل يوم ، وأنا أيضاً سأصلى معك كل يوم . ولكنى لا أريدك أن تموت .

— أموت !

نطقها الشاب فى خوف ، فلم تلتفت إلى قوله ، وإنما استطردت فى نفس الغضب : انظر إلى عينيك الغائرتين . . انظر إلى وجهك المصفر . . انظر إلى سحنتك المغبرة التى تشبه سحنة الأموات . . انظر إلى رقبتك وقد نفرت عليها عروقك الزرقاء ، فغدت كالثعابين التى تسبح على ماسورة فى الليل . . إنك . . إنك تموت فعلا .

فقال الشاب مضطرباً جداً وهو ينظر إلى الكأس التى فى يدها : لكن ما علاقة هذا بالخمر . .

— ليست هذا خمراً وإنما هو دواء . لو أردت أن أسقيك خمراً

كما تظن بحثت لك بالخمر التى تحبها ، بالكونياك الذى كنت تشرب منه حتى تفقد وعيك .

– و . . و . . ولكن .

– ولكن اشرب . . وقم اذهب إلى أمك التى تنتظرك فى المستشفى .

فتناول الكأس من يدها سريعاً، وأفرغها فى جوفه مرة واحدة ، ووقف ليخرج ، بيد أنها اعترضته وهى تملأ له الكأس الثانية : اشرب هذا أيضاً .

– أيضاً ؟ !

– اشرب . .

– . . . . . .

– وأيضاً هذه . .

– إن رأسى يدور . .

– اشرب . .

– . . . . . .

– هذه وكفى . .

– أيضاً . .

– اشرب . قلت لك .

ولما شرب الكأس الرابعة ، أجلسته وجلست بجواره وهى تقول : وما رأيك لو ذهبت معك إلى المستشفى ؟

فقال فى دهشة : تذهبين معى إلى المستشفى ؟

– أليست أمى أيضاً هى المريضة هناك ؟

– ولكن أين ستبيتين ؟

– كما ستبيت أنت .

– أنا سأظل ساهراً .

ثم ألقت برأسها على كتفه ، وقالت وهى تعبث بأصبعها فى أذنه التى تغمرها أنفاسها الدافئة : لن أدعك تخرج وحدك .

— كما تشائين .

فنقلت أصبعها من أذنه ، وربتت على شفتيه وهى تقول : لحظة . أرتدى ثيابى .

وتركته وذهبت إلى الدولاب . وأخرجت بعض الملابس الداخلية ، وثوباً غير الذى ترتديه ، وحملت كل هذا على يدها واتجهت إلى البوريه ، وقالت وهى تنظر إليه ضاحكة . وتمد يدها إلى المصباح : سأطفئ النور .

— لماذا ؟

— حتى لا ترانى عارية وأنا أرتدى ثيابى .

وأدارت مفتاح المصباح الزجاجى شمالا بعض الشىء ، فانخفض نوره ، وخفتت ذبالته التى راحت تتهافت وتتراقص فى شحوب أحال كل ما فى الغرفة إلى خيالات لا تكاد العين تميزها ، ثم ذهبت إلى جانب السرير بجوار الحائط وراحت تنزع ثيابها ، وتقول له كلما رأت ظلال جسدها الذى يتعرى رويداً تمتد على الأرض موضحة كل شىء : أغمض عينيك .

— إننى لا أرى شيئاً .

— بل ترى .

فقال وهو ينظر إلى تلك الظلال التى تمتد أمامه موضحة كل شىء : الحقيقة أننى أرى .

— ترى ماذا ؟

— أرى أننى فى حاجة إلى كأس أخرى .

— لماذا ؟

— لأننى أريد أن أنام .

— وأنا أيضاً .

وظلا يسبحان فى نوم عميق، حتى أطل عليهما من النافذة شيء أبيض ، أما هو فقد تبين فيه وجه الصبح ، وأما هى فلم تتبين شيئاً ، لأنها كانت لا تزال منسحقة تئن من فرط ما وهبت طوال الليل .

وفتح الشاب عينيه مرة أخرى ، وراح يتلفت حوله بدون أن يصدق شيئاً مما يرى . . وفتح عينيه مرة ثالثة وراح يلتفت حواليه . . حقيقة أنه نهار . . وحقيقة أنها شمس . . وحقيقة أيضاً . . أن هذه بقايا طعام . . وهذه بقايا خمر . . وهذه أيضاً . . ملابس نسائية ملقاة ذات اليمين . وذات الشمال . . وحقيقة أيضاً أن هذه . . غرفة . . وهذا سرير . . وهذه . . امرأة .

وهبّ الشاب مذعوراً كمن لدغته أفعى ، وارتدى ثيابه فى عجلة لا حد لها ، ومن ثم انطلق كالسهم خارجاً ، بيد أنه فجأة عند الباب وقف مرتعباً مأخوذاً ، ينظر بعينيه الجاحظتين إلى شيء رهيب أمامه . . شيء يخاف أن يمسه، أن يلمسه ، ولكنه لا يستطيع أن يخرج بدونه ، إنه جاء ليلة الأمس من أجله . إن أمه أرسلته ليجيء لها به . فإذا هو . . إذا هو ماذا ؟ ؟ وجحظت عيناه مرة أخرى ، وهو يخرج من جيبه منديلا نظيفاً يضعه على المصحف حتى لا تلوثه يداه . . ومن ثم خرج سريعاً ، وذهب إلى المستشفى ، ولكن بعد الساعة السابعة ، وهو الموعد المحدد لإجراء العملية .

وراح يصعد درجات السلم فى جنون ، وانطلق إلى الغرفة التى فيها أمه كالسهم ، ولكنه وجد الغرفة خالية ، ووجدهم قد نقلوها إلى غرفة العمليات ، وهولا يعرف أين تقع غرفة العمليات فى المستشفى ، ورأى إحدى التمورجيات تقبل على الغرفة الواقف على بابها . تحمل أثاثاً جديداً ، من أثاث غرفة المستشفيات ، فسألها على الفور : أين تقع الغرفة التى تجرى فيها العملية لأمى ؟

فقالت التمورجية ، وهى تدلف إلى الغرفة ، لتبدل أثاثها بدون أن تقدر على النظر إليه : البقية فى حياتك !

٢٥

— إن لم يخنى ذكائى فأنت الست سلوى .

— وكيف عرفتنى ؟

فقال محمدين : حدثنى عنك إمام أفندى كثيراً وأرانى صورتك . إنه يحبك جداً .

فقالت الفتاة وهى تنظر إلى الأرض فى خجل : شكراً ، وأين هو ؟

— ألم يذهب إليكم ؟

فقالت وهى تحاول ما استطاعت أن تحبس دموعها : كان عندنا من ثلاثة أيام . وقال إنه سيعود فى الصباح ، وإلى الآن لم يعد . وكنت أسمعه يذكر اسمك ، ويردد اسم لوكاندة المدينة المنورة ، فجئت أسألك عنه ، خشية أن يكون الذى أقعده الآن ، هو الشىء نفسه الذى أقعده ستة أشهر . .

— حقيقة أن أمره غريب . منذ ثلاثة أيام كما تقولين جاءنى بعد أن انصرف من عندكم ، وأعطيته مفتاح السكن الجديد الذى استأجرته له هنا بجوار اللوكاندة ، واستأجرت له عربة كارو لينقل عليها متاعه ، وإلى الآن لم أره .

— وأين يقع المنزل الذى يسكنه الآن ؟

فوصفه له محمدين وصفاً دقيقاً ، ثم قال وهو يودعها إلى ما بعد اللوكاندة : معذرة . ولولا أننى فى اللوكاندة وحدى ولا أستطيع تركها ، لذهبت معك .

— شكراً .

وانصرفت الفتاة تحمل حقيبة كتبها التى خرجت بها من المدرسة ، وذهبت إلى ميدان باب الخلق ، وراحت تسأل عن سلالم السبيل . وزقاق الجناينية ، والسيرجة التى فى نهايته ، ووقفت أمام الخوخة ، وشعرت باضطراب وهى تمد يدها إلى الجنزير الملتف على الخوخة ، كما تلتف السلاسل على باب سجن من السجون ، بيد أنها لم تكد تفعل ، حتى فوجئت بامرأة أمامها ، تقف شبه عارية فى ثوب قد انشق من أمام حتى أسفل الثديين . وانشق من خلف حتى كشف عن الظهر كله ، وانزلق إلى ما فوق الردفين ، فارتدت نظرات الفتاة عنها سريعاً فى دهشة زائدة وخجل مربك ، وازدادت هذه الدهشة كثيراً عندما سمعت الفتاة هذه المرأة ترحب بها ترحيباً حارًّا وكأنها تعرفها : أهلا ، أهلا . خطوة عزيزة يا حلوة . . اتفضلى .

فقالت الفتاة فى ارتباك بدون أن تقوى على النظر إليها : حضرتك تعرفينى ؟

– ومن ينكر القمر ، أو يخفى الشمس ، أو ينسى الصورة التى لا توضع إلا على القلب ، ولا تحفظ إلا فى المصحف ؟

– صورة من ؟ ؟

– صورة التلميذة المؤدبة الجميلة ، ابنة المدارس . .

– من أنت ؟ !

فقالت بدلال ، وهى تنظر إليها بنصف عين ، وتضحك ضاغطة على اللبانة التى بين شدقيها ، فتبرز عمق فجوة الغمازة التى على الخد : عشيقة . . مغرمة . . متيمة . خاصم النوم عينى ، وأضنى السهر قلبى . . مثلك تماماً وحياتك .

فقالت الفتاة فى ذهول لا حد له : مثل من تقولين ؟

– مثل التلميذة ابنة المدارس ، التى ما زالت بالفيونكة والجورب الأبيض ، والحبر يلوث أصابعها ، وتعشق الشبان ، وتتمرغ فى أحضانهم ،

ولا تخجل من أن تقتحم عليهم بيوتهم وتسأل عنهم . .

فقالت الفتاة لاهثة الأنفاس ، والدموع فى عينيها : أى بيوت ؟ وأى شبان ؟ إننى أسأل عن إمام .

— وأنا أيضاً أحدثك عن إمام .

فصرخت الفتاة بدون أن تصدق : أنت تعرفينه .

فقالت وهى تضحك ضحكة عالية رنت فى فناء الدهليز . . واخترقت أذن حسبو النائم فى غرفته يحتضن الزجاجة ويضحك : إنه زوجى . . فكيف لا أعرفه ؟

— زوجك ؟

نطقتها الفتاة مشدوهة ، وهى تنظر إليها هذه المرة ، وتتأمل كل شىء فيها . ولما لم تنطق ثانية قالت لها شفعات ضاحكة : مالك تنظرين إلى هكذا ؟ ألا تصدقين ؟

— أجل . لا أصدق . وأنت كاذبة . . كاذبة .

فلم تثر ولم تغضب ، وإنما استغرقت فى الضحك ، وهى تمد يدها إلى صدرها العارى ، وتخرج شيئاً من بين الثديين ، وتقول : اتفضلى يا حلوة . اقرأى قسيمة الزواج .

ولما طالت نظرة الفتاة ، وطال تأملها ، وطال أيضاً وجومها ، قالت شفعات ، وهى تضحك مرة أخرى : إن جئت ثانية فسوف أشترى لك نظارة معظمة . لكى ترينى جيداً .

ثم عقبت وهى تغلق الخوخة فى وجهها وتلف عليها الجنزير : مع ألف سلامة . . يا حلوة !

٢٦

استدارت المعلمة شفعات إلى غرفتها ، بعد أن طردت الفتاة ، وأغلقت باب الخوخة فى وجهها ، ولفت عليه الجنزير ، وراحت تقطع فناء الدهليز تصغى فى نشوة زائدة إلى صوت البلابل السبعة التى تنبعث من القبقاب المطعم بالصدف ، مختلطة بصوت فرقعة اللبانة التى بين شدقيها ، والتى كلما ضغطت عليها برزت واستدارت ، ولاح عمق الغمازة التى على الخد . . بيد أنها لم تكد تسير بضع خطوات ، وتتجه إلى غرفتها ، حتى حانت منها التفاتة عابرة إلى السيرجة ، فرأت بهلول ، واقفاً فى مكانه لا يتحرك . يهز رأسه ذات اليمين وذات الشمال . . وقد سقطت العصابة عن عينيه ، فراحت تنادى بأعلى صوتها : حسبو . . يا زفت يا حسبو . . يا هباب . . يا حسبو .

وكان الأستاذ حسبو فى غرفته مستلقياً على فراشه الخشن بملابسه : البنطلون الذى لايعرف له لون ، والصديرى (الألاجة) الذى لم يبق فيه غير أزراره الستة الغالية تغالب الزمن لتبقى على الأصل القديم والمجد الدارس ، وقد عقد منديله المحلاوى على رأسه الذى وضعه مع نصف ظهره على حافة الوسادة ، ووضع على النصف الآخر الذى عليه الصدر مؤخرة الزجاجة ، لأن مقدمتها كانت فى فمه . وكان مخموراً لا يكاد يفقه ، ولهذا ترامى إليه صوت المعلمة ، وصراخها الذى ينبعث من الدهليز ، ترامى إلى أذنيه أشبه بهمس لذيذ فى حلم أبيض جميل ، ولهذا لم يرد ، وكل الذى فعله أنه رفع الزجاجة إلى ثغره وهو يضحك ، وأفرغ منها عدة جرعات فى جوفه وهو يضحك ، ثم أعادها وهو يضحك أيضاً . ويواصل أغانيه التى تعود أن يغنيها بصوت عال كلما أسرف فى الشراب ، وراح يأتى بكلمة منغمة من هنا ، وكلمة مسجوعة من هناك ، وشطرة من

موال ، وشطرة من موال غيره . . وظل كذلك إلى أن اقتحمت المعلمة عليه باب الغرفة فجأة فى عنف كالهول ، أو كالصاعقة ، فلم ينطق ، ولم يتحرك ، أو تطرف له عين . وما إن رأته فى منامته هذه مخموراً ، والزجاجة على صدره يحتضنها ويضحك حتى انفجر مرجل غضبها ، ودوى صوتها فى قلب الغرفة صارخاً : أطرش ؟ . . فقدت سمعك ؟ . أصبت بالصمم ؟

فلم يسمع شيئاً مما قالت ، ولم يتحرك أيضاً من مكانه ، وإنما تعلقت نظراته بقميصها الخفيف ، الذى انشق من أمام حتى أسفل الثديين وانشق من خلف حتى كشف عن الظهر ، وانزلق إلى ما فوق الردفين وأنساه هذا كل شىء ، إلا الزجاجة التى فى يده ، والغناء الذى يغنيه . ولذلك راح ينظر إليها ، وهو يرفع الزجاجة إلى ثغره ويشرب ثم أعادها إلى مكانها من صدره ، وهو ينظر إلى الوردة الحمراء التى تدلت مع القرط الذهبى فوق الكتف العارية ، ويردد مواصلا الغناء :

يا رابطة على الصدر وردة فى مكان حساس

فاحتدم غيظها ، وهجمت عليه ممسكة بالزجاجة من يده لتلقى بها فى الأرض . لتحطمها ، ولكن أصابعه الخشنة تكالبت على الزجاجة ، وراح يشدها من يدها ، فى قوة وخوف وهو ينظر إلى جسدها العارى والوردة الحمراء التى تروح وتجىء على الكتف العارية ، ويقول ضاحكاً وهو يشد منها الزجاجة : السولار يا ست . . البنزين يا معلمة . الجاز الوسخ يا عروسة الشباب .

فبرقت عيناها وهى تصرخ وتشد منه الزجاجة فى قوة هائلة : أعطنى هذه الزجاجة .

— لماذا يا عروسة . . يا زوجة الأفندى ؟

— أحطمها . لن تشرب الخمر بعد اليوم .

— الماكينة تقف . . تتعطل . . الدينامو . . ما يشتغلش . . حرارته تبرد . . الكهرباء تروح !

فضغطت بكل قوتها ،وكل ثورتها أيضاً تشدها منه . ولما لم تستطع انتزاعها من بين يديه تركتها فجأة ، فدفعته شدة الجذب إلى الوراء ، فسقط على ظهره فوق الأرض ، والزجاجة بين يديه ، فنظرت إليه وهو مستلق أمامها على الأرض ، وغلبها الضحك . وكادت تضحك لولا أنها قالت ، وهى تنظر إليه وتزم شفتيها : قم اذهب إلى بهلول . .

— أى بهلول فيهم ؟ . . بهلول الزوج ، أم بهلول الحمار ؟

فاحتقن الدم فى وجهها على الفور ، واندفعت إليه كاللبؤة ، تركله بقدمها فى قلبه وصدره ركلات موجعة وهى تقول فى غيظ يشبه الجنون : قلت لك ألف مرة لا تذكر اسمه على لسانك . . لقد أصبح زوجى . . زوجى . . أفهمت ؟

فأراد أن يقول لها شيئاً . يقول لها . . كفى عن الضرب . . يقول لها ضرباتك توجعنى . . تميتنى . . يقول لها إن كان لا بد من الضرب فليس بالقبقاب . . وإن كان لا بد من الضرب بالقبقاب ، فعلى الأقل يكون لغير هذا السبب !

أراد أن يقول لها هذا أو بعضه ، ولكنه رأى مرة أخرى الوردة الحمراء التى تدلت مع القرط الذهبى وخصلة ناعمة من الشعر الفاحم ما زالت تروح وتجىء فوق الكتف ، فتذكر أنه كان يغنى ، فقال مستطرداً يغنى وهو يضحك ، وعينه عالقة بالوردة لم تتزحزح عنها :

يا رابطة على الصدر وردهفى مكان حساس

وكأن هذه الكلمات انصبت ناراً فى أذنيها ، فانقضت عليه فى هول هائل ، وأنشبت أظافرها فى عنقه ، فخاف وارتعد ، وأفزعته رؤية ذلك الوجه الذى لم ير له مثيلا بين الوجوه ، وأرعبته رؤية تلك الأذرع التى تتلوى أمامه كالثعابين الضخمة زاحفة إلى عنقه لتطبق عليه ،

وروعته رؤية ذلك الرأس الذى يشبه رأس الأفعى الزرقاء تدنو منه لتعضه بأنيابها الحادة، فأغمض عينيه ، وهو يرفع ذراعه سريعاً إلى أعلى . . وظل يرفعها . . ويرفعها .. ويرفعها ثم هوى بها فجأة على ذلك الرأس ، فترنحت الأفعى على الفور ، وركنت إلى الحائط تتلوى خائفة أن تسقط . ولكنه . . فاجأها من الخلف بضربة أخرى أسقطتها أمامه على الأرض . ولما نظر إلى يده ، ووجد أن الزجاجة ما زالت فيها ، وأنها لم تتحطم بعد ، وإنما الذى تحطم هو رأس الأفعى ، ابتهج ضاحكاً وهو يحتضن الزجاجة ويخرج . بيد أنه عند الباب أحس أن ذيل الأفعى ما زال يتحرك ، فرجع إليها فى هدوء وراحة بال كان لا يعرف أن لهما وجوداً فى قلوب الناس . . وجلس أمام رأسها فى الهدوء نفسه . . وأغمض عينيه . . ومن ثم راح — والهدوء نفسه يرفع ذراعه إلى أعلى . . ويهوى بها على الرأس . . ويرفعها إلى أعلى ويهوى بها على الرأس . . وظل يرفعها إلى أعلى ويهوى بها على الرأس . . ولما فتح عينيه بعد حين . . ولم ير أمامه غير كتفين اثنتين فقط لا شىء بينهما . . ازداد هدوؤه . . وانفرجت أساريره، ونهض مطمئناً . . بيد أنه وهو ينهض رأى شيئاً فوقف ينظر إليه ، ويتأمله جيداً ، ولما عرفه مد يده إليه وأخرجه من وسط بركة من الدماء كانت أمامه . ومن ثم انصرف به من الغرفة واخترق به الدهليز . وفى الزقاق راح يتأمله ثانية على ضوء النهار . . ويتفحصه جيداً على نور الشمس الساطعة ، فإذا به وردة حمراء كانت فيما مضى تروح وتجىء على كتف كالبلّور . . فابتسم . . وضحك . . وظل يضحك وهو واقف . ويضحك أيضاً وهو يسير . . إلى أن بلغ سلالم السبيل فراح يهبط درجاتها على مهل . درجة درجة وهو يضحك . . يهبط درجة ثم يضحك . . ويهبط درجة . . ثم يضحك . . ويهبط درجة . . ثم . . يضحك !

(تمت)

تم إيداع هذا المصنف بدار الكتب والوثائق القومية
تحت رقم ١٩٧٣/٢٣٨٢

مطابع دار المعارف بمصر
سنة ١٩٧٣

هـ
١٥



اقرأ

دكتورة نعمات أحمد فؤاد

أحمد رامي

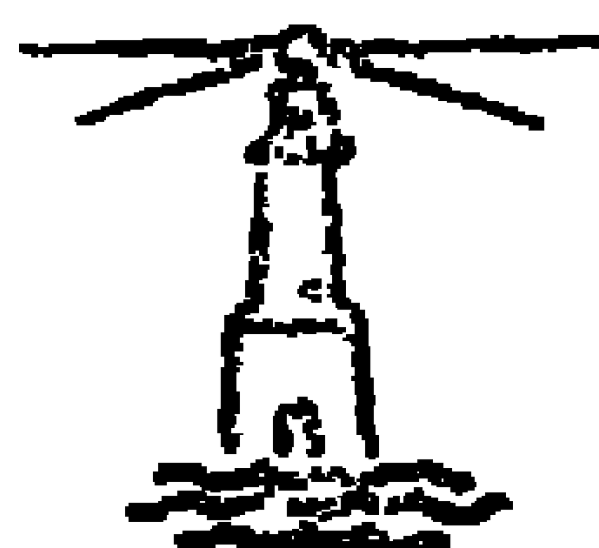
قصة شاعر وأغنية





تصدر في أول كل شهر

رئيس التحرير: السّيد أبو النجا



دار المعارف بمصر



دكتورة نعمات أحمد فؤاد

أحمد رامي

قصة شاعر وأغنية

اقرأ ٣٦٨

دار المعارف بمصر

اقرأ ٣٦٨ – يونيو سنة ١٩٧٣

الناشر : دار المعارف بمصر – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج.م.ع.

القسم الأول

تاريخ حياة

- مولد شاعر
- حديث شعره
- رامي وأم كلثوم

مولد شاعر

فتح الغلام عينه[1] على بيت ناغم . . . وكان صاحب البيت جميل الصوت عذب الغناء . وكانت بيته الذى يقع فى حى الناصرية ، درب جنينه (مندرة) لا تخلو من عازف أو مغن من أصدقائه هواة الموسيقى ، ومنهم «موسى صادق» عازف العود الشهير، و «محمود فخرى» و «إبراهيم الدهان» .

وكانت الأنغام الحنون تأخذ مسراها إلى مهد الغلام الوليد ، فينصت أحمد من بكاء ، وترقى إلى حجرة الصبى الدارج فيهرب من وسن . . . لقد كان صغيراً طروباً . . . وكأن الطبيعة تعرف أن الطرب بعض وسائله شاعراً . . .

وتجاوز الصغير سنى الطفولة الأولى إلى الحداثة ، فاصطحبه والده الطبيب فى سفره إلى جزيرة طشيوز[2] ، وكان ذلك عام ١٨٩٩ .

وفتنت الطبيعة فى طشيوز الغلام الوافد ، فأحبها وسحر بها ، فكان يرتع فى مسارحها ، ولكن ذاكرته لم تسلُه يوماً مثله ، بل كانت تدخر الألوان والأشكال والصور . . .

ودقت للرحيل إلى مصر أجراس ارتاع لها الغلام السارح فى الغياض ، الهائم فى الرياض ، القرير الناعم بما هو فيه ، المرتاح الجذلان بما صار إليه . . . وعبثاً حاول إرجاء السفر . . .

وودع الجزيرة سنة ١٩٠١ بعد أن مكث بها سنتين ، وودع عهد الجرى واللهو ، وعاد إلى مصر ليلتحق بالمدرسة . . . وواصل أبوه أسفاره بعد أن عهد به إلى عمته . . . وكان زوجها يقيم فى حى الإمام الشافعى ، فعاش الصغير بعد طشيوز بمناظرها ، بين المقابر ، فتحول مرحه وزياطه إلى صمت أقرب إلى الكآبة منه إلى السكون . . . واستوحشت

---

(١) ولد أحمد رامى فى أغسطس سنة ١٨٩٢ .

(٢) جزيرة طشيوز Thasos إحدى جزر بحر إيجة ، وهى على مسيرة ٦ ساعات بالمركب الشراعى من مدينة (قوله) مسقط رأس محمد على .

نفسه بعد فراق أبويه وحشة لم يبددها أنس مكان أو ضجيج حضر . . .

كان أحمد فى هذا الوقت قد نسى العربية تقريبًا بعد أن أخذ يتكلم التركية واليونانية . . .

ورأت عمته رأيها فيه فأدخلته الكتاب . . . (كتاب الشيخ رزق) ، ثم مدرسة السيدة عائشة ، ثم مدرسة المحمدية سنة ١٩٠٣ . . . وإذ انتهى المطاف بالتلميذ الصغير إلى المحمدية أخذ يذرع الطريق إليها جيئة وذهاباً غافلا عن جزيرة طشيوز وعهده بها . . . وغافلا بالطبع عن سياستها وما تجريه عليها المقادير . . . ومن علمه السياسة ولقنه أحابيلها ؟ . . . وبينما هو يتلقى دراسته بالمحمدية ، رجعت جزيرة طشيوز إلى اليونان ، فعاد بعودتها والده إلى مصر ، بعد غياب سنتين خالهما الصغير أعوامًا طوالا . . .

ولكنها عودة موقوتة تؤجج الشوق ولا ترويه ، إذ التحق الوالد بالجيش طبيبًا[1] ، ثم سافر إلى السودان فى الجهات النائية عند واو وبحر الغزال ، مما اضطره إلى ترك زوجه أيضًا . . . إلى أن دنا نحو الشمال فتيسر له اصطحابها معه . . .وعاد الصبي من جديد إلى العيش بعيداً عن أبويه . . .

وعهد به فى هذه المرة إلى جده لأمه . وكان مسكنه يقع بين مسجد السلطان الحنفى وجامع الشيخ صالح أبى حديد ، مجاوراً لبيت أسرة شوقى المشهور إلى الآن ببيت الموردلى . . .

ولا ريب أن جو الصبى هنا أصفى وأروح منه عند عمته . . . بل لعل بيئته الجديدة أقرب إلى طبيعته الطروب ، فقد كان حافلا بالتراتيل والأناشيد وتسابيح الفجر تُصعدها إلى السماء ، فى هدأة الكون ، مآذن المساجد المحيطة بالبيت الذى يحل به شاعر تضمره الأيام .

---

(١) الدكتور محمد راسى والد الشاعر هو ابن الأميرالاى حسن (بك) عثمان : نزل مصر سنة ١٨٧٠ وقد قتل فى موقعة كساب بالسودان سنة ١٨٨٥ . كتاب (تاريخ السودان) للأستاذ نعوم شقير .

كان أحمد فى هذه الأثناء قد بلغ التعليم الثانوى[1] . . . ترف عليه مخايل الشاعرية .

وفى ذلك الوقت أرسلت الشاعرية البكر أولى طلائعها . . . ونظم طالب الثانوى قصيدة « أيها الطائر المغرد » التى نشرت فى مجلة الروايات الجديدة لصاحبها نيقولا رزق الله سنة ١٩١٠ .

ترى ما الذى عطفه إلى الأدب ؟ أهى تلك الخطابات الطلية التى كان يرسلها إليه أبوه النازح ؟ أم الوسط الذى عاش فيه ودرج ؟ لقد أخذت عين الغلام فى بيت عمته مكتبة أدبية كان يقتنيها زوجها ، وامتدت يده الصغيرة تقلب كتبها ، فعثر فيها على أول كتاب شعر قرأه اسمه « مسامرة الحبيب فى الغزل والنسيب » ، وهو مقتطفات من شعر الغزل فى عصور العربية المزدهرة . . .

ثم اطرد به حب الأدب حتى اختلف إلى ندوات المدرسة التحضيرية. وكان ناظرها الأستاذ «سيد محمد» أديبًا ، نظم لطلبته جمعية النشأة الحديثة. وكان يعقد اجتماعاتها فى فناء المدرسة يوم الخميس من كل أسبوع ، ويخطب المجتمعين — وعددهم يكاد يبلغ الألف — الخطباء : صادق عنبر ، إمام العبد ، لطفى جمعة ، محمود أبو العيون ، وأضرابهم . . .

فى هذه الجمعية كان يلقن الطالب رامى قصائد كثيرة ليلقيها حتى انتهى به الأمر إلى نظم الشعر . . . وكانت بشائر نظمه قصائد وطنية ، ثم أخذ ينظم فى المناسبات . . .

وهيأته المدرسة الخديوية الثانوية لدخول مدرسة المعلمين العليا حيث تفجر خياله . . . ومدرسة المعلمين العليا مدرسة الرعيل الأول من

---

(١) نال أحمد رامى الشهادة الابتدائية سنة ١٩٠٧ ، والبكالوريا ١٩١١ من المدرسة الخديوية .

الأدباء(١) . . . وفى مدرسة المعلمين هذه عرف رامى ألواناً من الأدبين العربى والإنجليزى . . .

وحدث فى هذه الفترة أن اضطرت أمه إلى العيش فى مصر بعد أن تركت والده بالسودان لتكون إلى جوار أبنائها الذين تجاوزوا الطفولة . . . وضمت الأم أبناءها فى بيت يقع فى حىّ بركة الفيل . . . فى ذلك الجو الشرقى الذى تباركه السيدة زينب ويشيع فيه الذكريات الخوالد جامع ابن طولون والقلعة والقباب والنخيل . . .

وفى هذه الأثناء اتصل بحافظ إبراهيم وعبد الحليم المصرى ، وعن طريق أخيه وهو زميل رامى فى المدرسة ، عرف إسماعيل صبرى فقد صحبه إليه ، وكان منزله يقع أمام مدرسة طب قصر العينى ، وكانت له ندوة أدبية . . . ولم يكن رامى قد طبع ديوانه الأول بعد .

وهنا يطيب أن نقف لحظات عند علاقة الشاعر بمشاهير عصره فى فنه . . . سألته يوماً عن أحمد شوقى ، فسكت برهة ، ثم قال : لقد أحببت « شوقى » وأنا كبير بعد أن فهمته لا عن إيحاء من شهرة أو ناس . وتطلعت إلى لقائه سنة ١٩٢٠ بعد أن أخرجت ديوانى الأول ، فطلبت من زوج أخت شوقى أن يجمعنا فكان لقاء (فى جروبى) ، انتهزه أحمد رامى ، فقدم إلى شوقى الجزء الأول من ديوانه . ففتحه شوقى ثم قرأ أبيات الشاعر خليل مطران فى التقديم ، فقال لرامى : كنت أتمنى أنى كنت فى مصر لأسجل لك أبياتاً . فقال له رامى . . . إن شاء الله لا يفوتك الجزء الثانى . . .

ثم سافر رامى سنة ١٩٢٢ إلى باريس فى بعثة علمية . وكان شوقى يزور فرنسا كل صيف فيلم به رامى . . . وفى سنة ١٩٢٤ عاد رامى من فرنسا ، وعرف أم كلثوم ولازمها ، حين لازم محمد عبد الوهاب « شوقى » ؛

---

(١) من زملاء رامى الأساتذة : فريد أبو حديد ، عبد الحميد العبادى ، أحمد زكى ، محمد بدران .

فالتقى الشاعران عن طريق الغناء، فقدم شوقى « بلبل حيران » و « فى الليلى لا خلى » حين قدم رامى « إن كنت أسامح وأنسى الأسية » و « أخذت صوتك من روحى » .

والتقيا مرة أخرى عن طريق المسرح ، إذ قدم شوقى للمسرح المصرى مسرحيته « مجنون ليلى » ، وقدم رامى مسرحيته « غرام الشعراء » . ومثلت المسرحيتين السيدة فاطمة رشدى .

وكثيراً ما ضمهما على الود نادى الموسيقى الشرقى . . .

وأعجب شوقى برامى واختصه ، وكان يطيب له أن يدعوه إلى بيته فى حفلاته ، وأن يرافقه فى خلواته خارجه . . . وكان رامى يروق له أن يُلقى شعر شوقى فى الأندية . وتوثقت الأسباب بينهما حتى إن (شوقى) كان يُسمع « رامى » شعره قبل إخراجه للناس .

وروى لى رامى أن أكثر شعر شوقى إنما نظمه فى السينما الصامتة ! . كان شوقى يزعم أنه ضعيف النظر فيسعى ويأخذ مكانه فى الصفوف الأمامية، وهناك يترنم به (ويدندنه) . وفى الاستراحة يقابل « رامى » ويسمعه شعره .

كما كان رامى يحب شوقى ويؤثره على سائر شعراء العرب على الإطلاق فى القديم والحديث . . . سمعت منه هذا أكثر من مرة . . . ولشد ما كان يهز رامى قصائد شوقى التاريخية « النيل » و « مصاير الأيام » و « ناشئ فى الورد من أيامه » و « أنس الوجود » و « أبو الهول » و « توت عنخ آمون » .

أما الشاعر خليل مطران فقد عرف أنه يجلس فى قهوة سيلندد Splendid أمام حديقة الأزبكية ، فتقدم إليه بنفسه وعرض عليه شعره . وأصبح بعد ذلك يلقاه ، وزادت صلته به بعد عودة شوقى من أسبانيا .

وإذا كان رامى بعد أن نضج واستغنى عن تقديم الواصلين ، قد فوّت علينا حين صفّى شعره وجمعه فى ديوان واحد، تقديم مطران للجزء الأول،

وتقديم شوقى للجزء الثانى ، فإنى فى مقام التأريخ أسجل أبيات الشاعرين . . . وقد قدم خليل مطران الجزء الأول بهذه الأبيات :

حبذا الشعر خاطر يبعث النور ولفظ دان بعيد المرامى
كل بيت كمنبت الزهر حسناً وشذا أو كمرتع الآرام
بهرتنا آياته فى كتاب لندىّ الصبى سنى المرام
مذ رمى سهمه فجاء المُعَلّى ما شككنا فى أنه سهم رامى

وأما شوقى فقد قدم الجزء الثانى بالأبيات :

ديوان رامى تحت حاشية الصبا عذب عليه من الرواة زحام
بالأمس بَلّ صدى النهى وَسَمْيَهُ واليوم للتالى الولىّ سجام
شعر جرى فيه الشباب كأنه جنبات روض ظلهن غمام
يا رامياً غرضَ الكلام يصيبه لك منزعٌ فى السهل ليس يرام
خذ فى مراميك المدى بعد المدى إن الشباب وراءه الأيام

أما شاعر النيل حافظ إبراهيم فقد تعرف إليه رامى حين كان طالباً بالمعلمين . وعرض على حافظ بشائر شعره فشجعه ثم توطدت صلته به فى حلوان سنة ١٩١٩ ، حيث كان يسكن حافظ ويستشفى والد رامى . . . وكان مجلسهما فى حلوان يضم البشرى والبابلى ومحمد المويلحى وأحمد فؤاد صاحب (الصاعقة) . . .

ثم حدث بعد هذا أن سافر رامى إلى فرنسا فما إنْ عاد سنة ١٩٢٤ حتّى عاد اللقاء بين الشاعرين وتمكنت الألفة ... وكان حافظ فى ذلك الحين وكيلا لدار الكتب . . .

ويؤثر رامى من شعر حافظ قصائده :

« سجن الفضائل » و « حطمت اليراع فلا تعجبى » و « لا تلم كفى إذا السيف نبا » و « آذنت شمس حياتى بمغيب » و « راجعت نفسى فاتّهمت حصاتى » و « بنات الشعر بالنفحات جودى » و « هجعت

يا طير ولم أهجع » و « شبحاً أرى أم ذاك طيف خيال » وقصيدة زلزال مسينا . . .

ولكنه بعد هذا يفضل « شوقى » ، وكم سفّر رامى بينهما فيما ينجم عن المنافسة ، والمعاصرة ، وأحاديث المجالس بما تضمه من أنصار وخصوم ومروجى إشاعات .

* * *

وعرف رامى « ولى الدين يكن » حين كان يسكن حلوان ، وكان يقيم بها على الدوام .

وعرف من الأدباء كثيرين ممن عاصروه فى الشباب وما بعده . . .

وفى مقام الذكريات والحوادث والظروف والناس والمعالم التى صنعت « رامى » ، نذكر نادى الموسيقى الشرقى ، وكان أول ظهوره فى دار المؤيد بشارع محمد على . . . هناك كان رامى يطلع على الناس بشعره فى الأوقات التى تفصل بين وصلات الغناء . . .

واتصال الشاعر بنادى الموسيقى الشرقى زاده قرباً من النغم فهواه ، وهو الذى كان قديماً يسعى إليه بأية وسيلة . . . فكان يتعرف إلى . . . إلى « بائعى اللب » ليقف منهم على مغانى الأفراح . . . وكم ذهب إليها من غير دعوة . . . ومتى . . . فى الحادية عشرة مساء حيث يتجلى المغنى ويحلو معه السهر .

«ويستمع أحمد للغناء فى شطح واستغراق . . . وله معرفة بالصناعة وإجادة إذا غنى . . . وأكثر ميله إلى الدخيل فى العربية من النغمات الأجنبية كالنهاوند والعجم والنكريز وما إليها[١]» .

وكان المغنون يعرفون فيه « سَمّيعاً » فيقربونه ، ومنهم فى صباه يوسف المنيلاوى وعبد الحى حلمى ، وفى شبابه داود حسنى ، وأبو العلا محمد ،

---

(١) عدد الاتحاد الصادر فى ١٩٢٥/٩/٣٠ .

وإبراهيم شفيق ، وصالح عبد الحى ، ثم سيد درويش ، كما سمع بلبل ذلك العصر . . . منيرة المهدية . . .

كل هذا فى أثناء وجوده بالمدرسة الخديوية ومدرسة المعلمين ، وبعد تخرجه أى فى الفترة من سنة ١٩١٤ إلى سنة ١٩٢٢ [١] .

نعم كان طالباً فناناً لم يشغله تحصيل العلم عن الفن ، . . . كان سيال النفس ، حنّان الحس . . . كان وهو طالب يقف فى مناحات الخميس يسمع ويبكى حتى العصر ! ! وكان يهيم وراء الباعين المتغنين فى الشوارع والحارات حتى لقد مشى يوماً وراء عربة جميز من بيته فى حى السيدة زينب حتى بولاق . . .

وكان وهو مدرس يخرج عن موضوع الدرس ويلقن تلاميذه أناشيده الشعرية بعد أن يلحنها لهم ، على غرار بعض الأغانى الشائعة . . . ومن فصله وعن تلاميذه ينتشر النشيد فى المدرسة كلها . بل فى أحيائهم التى تقع بيوتهم فيها يفعل هذا حتى فى حصص الديانة . . .

وهو لا ينظم إلا إذا سمع موسيقى أو غناء ، وإذا نظم لا يكتب شعره ، بل يغنيه ترنيماً . ولعل هذا سر ليونة لفظه وطواعيته . . .

« ويصبو للطبيعة ومناظرها أصلية ومصورة ، ويستهويه اللون البنفسجى الضعيف " الباهت " ، لعل الكاتب أراد " الناصل " ويهش للزهر

---

(١) تخرج رامى فى المعلمين العليا سنة ١٩١٤ ، واشتغل عقب تخرجه بالمدارس الأهلية الثانوية كمدرسة القاهرة الثانوية بدرب الشمس بالسيدة زينب ، ثم مدرسة سانت مارى الثانوية . وفى سنة ١٩١٦ درس فى القربية الابتدائية الحكومية ، وظل بها حتى سنة ١٩٢٠ ... ثم صار أميناً لمكتبة مدرسة المعلمين العليا من سنة ١٩٢٠ - ١٩٢٢ ، حتى أوفدته الحكومة فى بعثة إلى فرنسا لدراسة فن المكتبات لمدة سنتين ، أى سنة ١٩٢٣ و ١٩٢٤ ، فلما عاد عمل بدار الكتب ينتقل فى مناصبها منذ سنة ١٩٢٤ إلى أن بلغ سن المعاش ، وكان قد صار وكيلا لها .

وينصت للطير والماء . ويحب الليالى المقمرة . . . وله ضحكة رفيعة مسرعة تخرج ذات ضوضاء . ويتحرك لها الشاعر من أعلى إلى أسفل . ويولع أديبنا بالحسن — وما أكثر ما أولع — ويطلب فيه معانى خاصة تميزه . . . »[١] .

وإذا نظم رامى الشعر لا يدونه ، ولكنه يغنيه مترنماً « فإذا دُعِي إلى إلقاء قصيدته فى حفل عام ، رأيته يتسلل بين الجموع ، ويمر بين المقاعد لا يكاد يحس بخطواته أحد ، حتى ينتهى إلى مكانه فيأخذ مجلسه . وإذا نودى باسمه ، مشى إلى منصة الخطابة بخطوات سريعة متزنة خفيفة اللمسات ، يكاد لفرط رقته يطير ، ثم يقف واضعاً إحدى يديه على المنصة والأخرى تظل حائرة ، فترة تعبث بفضل ردائه ومرة تتسلم خاصرته ، وحيناً تقبض على الهواء . ويلقى قصيدته بصوت عذب الرنين ، هادئ النبرات ، لكنه مع هذا الهدوء يُسمع الحفل كلّه لصفاء صوته ووضوح مخارجه . . . »[٢] .

ورامى ممن صهرتهم الأحداث والآلام . . . لقد ذاق اليتم ، وتجرع الثكل ، ومُنِيَ بفقد الأحبة ، وتشوه وجهه بفعل المرض والحوادث وهو فى الثلاثين من عمره ، وهو مغموط فى عمله فقد ظل الشاعر الفنان ١٩ سنة فى الدرجة الخامسة ! وهو آت من أوربا متفتح النفس ، واسع الأمل ، يحمل ثلاث شهادات عالية ، ويجيد من اللغات الأجنبية : الإنجليزية والفرنسية والفارسية ويفهم معها التركية ، فتقدم عليه حامل شهادة ابتدائية ! ! .

ثم خرج من دار الكتب بعد ثلاثين سنة خدمها فيها بمعاش قدره خمسة وثلاثون جنيهاً ، حين وصل زملاء له إلى المناصب الكبيرة .

---

(١) عدد (الاتحاد) الصادر فى ١٩٢٥/٩/٣٠ .
(٢) عدد (كل شيء) الصادر فى ١٩٣٠/١/٥ .

وحين أقول خدمها أقف وقفة ترسم أبعاد هذه الحروف التى قد يظن أنها مجرد لفظة كلام .

حين رجع رامى من باريس وجد الفهارس فى دار الكتب تتبع نظام اسم المؤلف، أو عنوان الكتاب (وكثيراً ما كان العنوان لا يوافق المضمون) ، أو موضوعات (وهذه أيضاً لا تعطى عطاءها كله) .

وهنا استحدث رامى أساوب tatch word أى جوهر الكتاب (أو مفتاحه) ويجعله رأس فيشة يجمع تحتها ، وحولها ، كل ما كتب عنه متفرقاً فى كتب شتى . وقد استأداه هذا العمل أن يجرد مخزن داو الكتب واستغرق هذا بضع سنوات حتى غدا موظفو الدار وعمالها حين يخرجون الكتب على هدى (الماده) ينسبون هذا إلى (فهرس رامى) .

ولعل أكبر ما أداه رامى لدار الكتب ولمصر هو تحقيقه ومراجعته وإخراجه (قاموس البلاد المصرية) ولهذا القاموس قصة : كان صاحبه الأستاذ محمد رمزى مفتشاً بالمالية . . . وكان عليه أن يقدر الضرائب فاتخذ من عمله منطلقاً إلى عمل كبير إذ جاب القطر المصرى بشمسية على ظهر حمار على امتداد ٢٥ عاماً همه معرفة أساس القرى. وكان أن وضع بعد هذا المسح الشامل عشرين ألف فيشة وأربعين كراسة مقسما القرى المصرية إلى ثلاثة أنواع :

قرى مندرسة (وهذه خصها بجزء) .
قرى حالية بالوجه البحرى (وخصها بجزءين) .
قرى حالية بالوجه القبلى (وخصها بجزءين) .
فكأن الكتاب من خمسة أجزاء .

وقد عرضت دول أوربا على الرجل أن تشترى كتابه هذا وتطبعه فرفض مؤثراً بلده مصر . وحدث أن توفى المؤلف قبل أن يطبع الكتاب وترك بنتين رأتا أن خير تصرف أن تعطيا مادة الكتاب لدار الكتب. فاشترت الدار عشرين ألف فيشة وأربعين كراسة بمبلغ ٣٠٠ جنيه !!

أى أن هذا العمل الكبير كانت قيمته جنيهاً فى الشهر !

وضعت دار الكتب الفيشات والكراسات فى خزانة حديدية أضيف مفتاحها إلى مفاتيح الخزائن الأخرى مع مدير الدار .

وفى هذه الأثناء كان أحمد رامى وكيلا لدار الكتب . . . وحدث أن غاب المدير فكان مديراً بالنيابة وتسلم المفاتيح مع تعريفه بها . . . ولما كان يعرف (محمد رمزى)[1] فقد استأذن المدير فى الاطلاع على كتابه والعمل على إخراجه . . . وهنا أحضر أوراق الجرائد البيضاء ، وظل أربع سنوات من ١٩٥٠ — ١٩٥٤ تاريخ خروجه على المعاش ثم سنتين أخريين إلى سنة ١٩٥٦ يعمل على ترتيب وتحقيق ومراجعة الفيشات وربط المعلومات بها . . . يعاونه فى هذا العمل السيد — أحمد لطفى السيد الموظف بالدار وقتئذ[2] . وكتب أحمد رامى إلى وزير المعارف يطلب إليه الموافقة على طبع الكتاب متعهداً بمراجعة البروفات مجاناً . فبدأ الطبع سنة ١٩٥١ مواكباً عملية التحقيق . . . وتم سنة ١٩٥٦ — ١٩٥٧ وخرج الكتاب باسم :

[قاموس البلاد المصرية من أيام الفراعنة إلى اليوم]

وهكذا خدم رامى دار الكتب . . .

وخرج منها كما وصفت . . .

ومع هذا لم يشك الرجل ولم يتبرم ، بل ظل والأحداث تعمل عملها فيه — ضحوكاً متفائلا . بل لعل أحداً لم يتكلم عن الأمل مثله . . . ولا يحتج هنا بقصائد كابية ، فقد يستعلى الإنسان على الألم ، ولكنه لا يستطيع أن ينجو من إحساسه به كل النجاة . . .

---

(١) الأستاذ محمد رمزى أخو الأديب إبراهيم رمزى .

(٢) وهو بالطبع غير أستاذ الجيل أحمد لطفى السيد .

وكسب رامى المال وبرق فى يده منه الكثير ، ولكنها كانت مبسوطة كل البسط ؛ فنفد المال بدون أن يتبقى منه فضل فى بنك، أو يتخلف عنه إيراد من أرض تُغل ، أو بيت يُدِر .

كان فنانًا يعيش يومه وحده . . . فلم تكن لماديات عصره المادى ، عنده ، اعتبار . . .

* * *

حياة فى سطور . . .

طفل غريب . . . شاب حالم . . . شاعر مرجّى . . . بعثة إلى أوربا . . . عالم جديد . . . لغة جديدة . . . لقاء مع الرباعيات . . . عَوْد واعد . . . صوت جديد وغريب . . . حب وتشبيب . . . شهرة وأضواء فى ناحية . . . وغمط وجحود فى ناحية أخرى . . . شاعر أغانى تردد قولَه الجموع . . . وموظف تخطئه الترقيات ، وتتخطاه الدرجات فلا يأسى ولا يشكو . . . إن المال يتدفق عليه من طريق آخر أليس صاحب المسرحيات والأغانى . . . ليهنأ عباد الوظيفة بالقطرات ففى لجة البحر ما يغنى عن الوَشَلِ . . .

فنان هايم فى (الورد النايم) وليالى القمر ، وإنسان عاطفى يحب الحب ويرضى ظلم الحبيب ويهوى السهد والجفا ويتمايل على ترجيع الأغانى . . . وباحث صلب مدقق محقق دءوب يصل السنين فى إخراج قاموس من خمسة أجزاء ! !

شريط حافل وتاريخ عريض . . . من كان يظن ؟ من كان يدرى ؟ حتى هو نفسه هل قدّر هذا ؟ هل تصور البداية ؟ هل تمثل ما صار إليه ؟ هل توقع يومًا أن يقصر فى حق الشعر مهما كان السبب حافزاً ؟ أتراه يحمد ما صار إليه أم يأسى على فائت ؟ قد يسهل علينا التكهن بعد دراسته فى شعره وأغانيه . . . فإلى هناك .

حديث شعره

ها هو ذا الديوان . . . هيا نبحث فيه عن الشاعر . والمترجم لشخصيات معاصرة ، تشتد حيرته ويرهقه الحرج حين يظن الناس أن مهمته أسهل . أليس يعيش فى جوهم ومجتمعهم ويلمس المؤثرات العامة التى أثرت فيهم ، عن مكابدة وإحساس ؟ ولكنى أرى رأياً آخر ، فالمعاصرة فى رأيى عامل معوّق ، لأن الدارس يفتقد معها البلورة التى تحدد الشخصية المدروسة . . . فالشخصية لا تتحدد معالمها النفسية والفنية تحديداً دقيقاً إلا إذا درست فى ظل دراسة صحيحة للمجتمع الذى عاشت فيه ، بعد تبلوره وتحديد العوامل التى كيفته ، العوامل الاجتماعية ، والعوامل السياسية ، والعوامل النفسية ، لأن هذه كلها متصلة الأسباب بالشخصية المدروسة بينهما وثيقة قربى ولحمة نسب . . . ولا يكفى — كما يحسب البعض — الوقائع المادية التى يعرفها الدارس بالمعاصرة .

ومن ثم أضطر اضطراراً ضاغطاً إلى أن أجعل دراستى لآثار المعاصرين الأدبية ، موضوعية إلى حد ما مع إيمانى برأى الأستاذ الناقد على أدهم الذى يقول : « إن آثار الكتاب مع أهميتها فى الدلالة عليهم ليست وثائق مؤكدة فى وصف أخلاقهم وحوادث حياتهم » (١) .

* * *

عرفنا قصة والده وأسفاره . وكيف أن « رامى » الطفل الذى تفتحت عينه على الجمال فى الطبيعة لم يلبث طويلا حتى عاد صغيراً إلى مصر وواصل الأب رحلاته . . . ولكنه طفل حساس مفرط الحساسية . . .

---

(١) العدد ٢٢٩ من مجلة « الرابطة الإسلامية » الصادر فى ١٩٥٤/١١/٣٠ .

كان يحس أنه ينقصه شيء كثير . . . بل ينقصه كل شيء . . . تنقصه لفظة « بابا » التي تضفي على قائلها الأمان والرضا والطمأنينة . . . تنقصه لفظة « بابا » التي تضم من الفرح والراحة والثقة معاني جمة ، لا يعرف الصغير بعقله الطفل كنهها ، ولكنه يستشعرها بفطرته فمن له « بابا » فهو ملك صغير ملبّي النداء مستجاب الرجاء ، من له « بابا » فهو محاط باللمسات والضمات والقُبل ، ومن له « بابا » فله في كل عيد ثوب وفي كل يوم بهجة . . . وعلى كل شفة ابتسامة . ومن له « بابا» فله سمير وله صديق وله رائد . . .

لهم الله أولئك الذين يفقدون آباءهم في فجر العمر والطريق طويل والسرى حافل ! .

لهم الله أولئك الذين يزج بهم إلى معركة الحياة صغاراً أغراراً لا تقوى سواعدهم على حمل سلاح ، ولا تقوى قلوبهم على تَخَن الجراح ، والمعركة لا ترحم ، وما من قائد يدبر أو درع تقي ! . . .

لهم الله أولئك الذين حكم عليهم أن يقفوا بأعوادهم المرتجفة في هوج الرياح بلا حمى من مأوى يقل أو ندى يُطل أو جناح يكنّ أو ظل يفيء ! . . .

مر الصبا من غير ما يا أبي ... بها أناديك وجـاء الشباب
كم مر بي عيد تمنيت أن ... يلبسني فيـه جديد الثياب
وحين أدركت المنى لم أفز ... من ثغره بالبسمات العـذاب
لم أمتَّع من أبي مـرة ... بمجلس حلو نضير الجناب
أو خلوة تنـدى أحاديثـه ... فيهـا على سمعي ندى السحاب
نشأت في يتم ولي والـد ... فما اكتفى الدهر بهذا العذاب
وزادني أن غـاله فانطوى ... بمـوته الصفو وعم المصاب
حرمتـه حيًّا طليح النـوى ... وفتـه ميتاً لقًى في يباب[1]

---

(١) قصيدة « يا أبي » ص ٤٢ من الديوان ط. دار الكتاب العربي .

على أن فى الأبيات خبناً، ونلاحظ أن بحر السريع الذى نظمها منه صعب جداً . وفى قلبه جرح آخر غائر خلفه أخوه الذى راح :

مستوحشاً فى عيشه ومماته ... متغرب الأموات والأحياء
هجر الديار وأهلها لاعن قِلًى ... إن الديار أحقّ بالحوباء
لكن حبٍّ المجد أشعرَ قلبَه ... رغم الهوى شيئاً من البغضاء
وقضى الحياة بعيد مطَّرح المنى ... والهم شرٌّ فواتك الأدواء
حتى قضى جهداً وراح شبابُه ... ونأى عن الزوار أى تناء
وثوى وما من واقف بضريحه ... راعٍ سوى صفصافة فرعاء
تبكى بأنات النسيم إذا سرى ... وأرنّ فى أغصانها اللفّاء (١)

هل اكتفت الأيام بهذا المقدار ؟ . . . لا . . . هناك سهم جديد راشه فأصماه :

هى أختى درجت فى كنفى ... ثم أمست وهى للروح سكن
علّلتُها طفلاً على بعد أبى ... وهو نائى الدار عنى والوطن
ثم دللت صباها فنمت ... كالنبات الغض فى ظل الفنن
فطواها الموتُ عنى بغتةً ... فى الشباب الغض والوجه الحسن (٢)

ولما كان الألم بوتقة النفوس الحساسة فقد صهرت المحن المتوالية « رامى » ، وتركت عليه ميسمها ، ففيه شفقة الحزن ، وفيه ومضة المجرِّب ، وفيه حَنّةُ البَكىّ ، وفيه رحمة الشجىّ ، وفيه رقة النجىّ ، وفيه برّ العائل . . .

فإذا أضيف هذا كله أو أضيف إلى هذا كله شاعرية الشاعر ، وفنية الفنان . . . فذاك رامى . . .

تركت له أخته التى حدثنا شعره عن مصابه فيها ، ولداً كان لا يزال

---

(١) قصيدة « صفصافة على قبر غريب » . ص ٤٤ من الديوان .
(٢) قصيدة « أختى » ص ١٠٣ من الديوان .

فى المهد صبيًّا ، فهل ناء به ؟ شعره يقول : لا . . . إن حديثه عنه حديث الودود العطوف حتّى لتشتهى أن تسمعه :

تركت لى مَلَكًا فى صورة من جبين واضح النور فتن
وعيون تسحر اللبَّ بما أودعتــه من ذكاء وفطن
وفم حلو اللَّمَى مبتسم فَرّ عن درّ توارى واستكن
فيــه منها ما يعزينى على فقدها إما هفا قلبى وحن
وابن أختى قطعة من كبدى أفتديه العمــر روحًا وبدن(١)

هل يوجد أبرّ من هذا بين الآباء بله الأخوال ؟ لقد تعهد راعى الطفل . . . تعهد جسمه وعقله حتّى صار رجلا يعتده الوطن بين ضباطه وتدخره مصر ليوم موعود . . .

هنا جمال الإشارة فى الدر الذى توارى واستكن ، وهنا جمال التصوير ، أكاد أرى الطفل غضًّا فى الشهور الأولى وقد أطلّت أسنانه الطفلة برءوسها فى فمه ولَمَّا يبدُ منها ، بعد ، غير نقط بيضاء متناثرة فى الفم البسَّام . . .

وتلك قاصمة الظهر . . . إن قلبه فى هذه يمتحن امتحانًا رهيبًا ... هيهات لهذا الجرح من ضماد ولا آس . . . وكيف يُداوى قلب الأب من جرح البنوة ؟ . . . إنها ابنته « أحلام » :

سميتها « أحلام » من طول ما ناجيت فى دنياى أحلامى
عشقتها طيفًا رفيقَ الخطى يسبح فى آفاق أوهامى
لا ينثنى عن فتنتى خاليًا أهيم فى صحــراء أيامى
أو ساهرًا تحت الدجى ساهدًا أردّد الشكوى بأنغــامى
سميتها أحلام حتّى أرى أنى أضمُّ اليــوم أحلامى
إنْ نظرتْ عينى إلى عينهــا غمرت فيها كلَّ آلامى

---

(١) قصيدة « أختى » ص ١٠٤ من الديوان .

نسيت من ماضيَّ ما نالني من بُرْح أوجاعي وأسقامي
وعشت في الحاضر عيشَ الرضا في جنة من روضَى النـامي
سميتها أحـلام يا ليتني سميتُ شيئًا غـيرَ أحلام
رفّت كزهر الروض في غصنه لما زَهَا تحت الندى الهامي
ولم تكد تفترّ عن بسمـة كالومضِ في بحر الدجى الطامي
حتى ذوت والعمرُ في فجـره لم يَعْدُ أفقَ المشرق الدامي
راحت كما ذابت خيوطُ الضحى ولم أزلْ في ليـل أحلامي(١)

لقد عرف رامي الألم في أثقل صوره على النفس وأشدها وقعًا. عرفه في صورة الأب الذي برح به السقام فلا هو يُرجى ولا هو يُفدى ولا هو يشفى ، ولكنه يذوى فيذوى معه كل إشراق .

وعرف شاعرنا الألم في صورة الأخ الودود يخلى مكانه في الدار ويعمره في القلب . . .

وعرفه في صورة « أحلام » ابنته التي ما كاد يشمها ريحانة حتى تساقطت أوراقها في يده ، فلم يبق منها إلا ذكرى من مس العبير . . .

من يلوم الرجل أو يلحاه إذا قال بعد هذا الكبَد كله :

أنا للحـزن وما يبعثـه في خيالي من تهاويل الشجن
كلما صرت بنفسي خاليـًا يتبدى من غيـابات الزمن
يعرض الماضي فيسقيني الذى ذقت فيـه من أفانين المحن
ثم يدعوني إلى مجلسـه بين أوّاه وباك من حزن

إن الشجيّ يأنس إلى الشجيّ . . . والبكيّ يستريح إلى البكيّ ، ولا يجمع القلوب كالألم ، ولا يرقىء الدمع كالتأسى . . .

وفي نفس رامي ندوب كثيرة يجرى منها الدم . . رثى أخاه « محمودًا » فهاج الرثاء هذه الأشجان :

---

(١) قصيدة « أحلام » ص ١٠٩ .

جدك سالت نفسه فى وغى سنَّار ما بين القنا المشتجر
وعمك المبكى ذاق الــردى فى ميعة العمر وعهد الصغر
يا ثالث الثاوين فى غــربة أهذه غايات ذاك السفر[1]

ويلام إذا شكى أو بكى ! ! . . . وتسأله عن هؤلاء الخليين اللوّم فيقول :

يلومنى النــاس ولم يشرعوا فى نهر أيامى الذى أجــرع
رنق أســقَّاه وبى غُلـةٌ فى الصدرِ لا تشفى ولا تُنقع
أعلم ما فى مائـهِ من قَـذًى وأســتقيه وأنا طيع
يا نهر أيامى أَمـَا نهلــةٌ تروى الصدى أو جانبٌ مُمْرِع
وأقفر الشطَّان من جنــة فأوحشَ المصطــافُ والمربع
وهاجــر الطيــرُ فلا صادح يشدو على الأغصان أويسجع[2]

فهل يُلام إذا أنَّ :

وفى فؤادى منبــع للأسى تفيض منه مؤلماتُ الذكر
وكل ما فى العيش من راحة أو تعب أو دعة أو خطر
مذكرٌ نفسى الذى فاتنى آنسُ للدمعِ إذاَ ما انحدر

حتى الدعة تذكره بآلامه وأحزانه ! . . . ألا يطيف بك هذا المعنى قول القائل :

ذو العقل يشقى فى النعيم بعقله وأخو الجهالة فى الشقاوة ينعم

ذو العقل وذو الحس الطاغى يشقى فى النعيم بعقله ! . . . وهل نريغ فنًا إلا على ضوء نفوس تحترق ؟

لقد عرف رامى الألم ، ولكن ألم الشاعر ألم موجب لو صح هذا التعبير ،

---

(١) قصيدة « دمعة على محمود » ص ٦٤ .
(٢) قصيدة « نهر الحياة » ص ٣٣ .

فلم يقعد به عن السير ، ولم يعجزه عن النماء والازدهار . . . لقد بكى وشكا ، ولكنه ليس بكاء العاجز الذليل وليست شكاة المستسلم الخائر . . . ولكنه صاغ الدمع أوزاناً ، والشكوى ألحاناً ، والألم شعراً . . .

وليس الذى تتركه الأيام معذباً كالمريض المشفى ، لا هو حى فيرجى ولا هو ميت فيستريح ، ثم يمده الألم بهذه الأبيات ، ويعينه الشجن على تجسيم هذه الصورة . . . ليس هذا بشاك تنفرك شكواه ، ولا باك يزعجك بكاؤه ، ولكنه إنسان له قيم وله مشاعر ، وله أحاسيس ، وله دموع تسكب على نفسك شؤبوباً من الرحمة وبرداً من العزاء . . .

ألا تمس هذه الأبيات نفسك فى أرق مواضعها :

ليس الشهيد هو الذى يطوى الثرى ويقرّ تحت جنادل ورجام
لكنه الحىّ الذى فى قلبه من طعنة الأيام جرح دام
كالطائر المجروح ضمّ جناحه طول الحياة على حداد سهام
سكنتْ فما انتزعتْ مكينَ سنانها كفٌّ وماسقته كاسُ حمام (١)

هذه صورة إنسانية . . . إنه إنسان ذلك الذى يستقطر النعمةَ من الألم . . . كالعالم البصير الذى يستخرج التبرَ من تراب المنجمُ . وقد يراه الكثيرون فلا يزيدون على أن يجعلوه لأقدامهم موطئاً ! . . . بل لعلهم ، أو لعل بعضهم ، يسخر من ذلك العاكف على التُرْبِ الواقف عليه وقوفَ شحيحِ المتنبى وقد ضاع خاتمه . . .

هاتى املئى كاسَ الشقاء فإننى أستمرئُ الأحزانَ يا أيامى (٢)

تُرى كيف تُستمرأ الأحزان ؟ ولِمَ ؟

الحزن أدبنى وهذب خاطرى وأنالنى أفقَ الخيال السامى
وأسال أسرابَ الدموع فصغتها صوغ المعانى فى شَجِيِّ نظامى

---

(١) و (٢) الديوان ص ٦٥ — ٦٦ قصيدة « نعمة الألم » .

وأرقَّ إحساسى ومدَّ عواطفى فوصلتُ كلَّ الناس فى أرحامى
قاسمتهم أحزانَهم وحملت من أعبائهم شطراً من الآلامِ(١)

إنه يمتح النعمة من الألم لعله يحمل نفسه على التفاؤل حملا ليرى الجانب المشرق . . . من الأشياء حتى الألم . ولكن أيبلغ به الأمر أن يستزيد من الشقاء ؟ . . . إنه يسخر بلا شك حين يقول :

هاتى املئى كأس الشقاء فإننى أستمرئُ الأحزانَ يا أيامى(٢)

وهو يسخر أيضًا حين يقول :

ماذا أودّ من الزمان وقد غدا يعتدنى خصمًا من الأخصام

إن الأمر والاستفهام فى البيتين قد خرجا عن معناهما الحقيقىّ كما يقول البلاغيون . . .

ماذا أود من الزمان وقد غدا يعتدنى خصمًا من الأخصام
ما زال يفرى فى نواحى جلدتى ويلح فى إذواء فرعى النامى
حتى غدوت وتحت أطباق الثرى بعضى وبعضى نُهزةُ الأيامِ(٣)

وبعد، فلست أقول إن الشاعر يعشق الألم ويتمناه، ولكن ما أردت أن أقوله هو أنه يكيف نفسه على هوى الظروف التى تلم به ويستعلى عليها، بأن يحول قتامَها إلى إشراق الفن، ويستبدل بجهامها جمالَ القصيد . . . على أنه فى صراع دائم بين مرارة الحقيقة، وتفويف الخيال . ولكنه عوّد نفسه « أن ترى أفياءَ هذا العيش ظلَّ جهام » . . .

حزن على الماضى وخوف عاجل مما يخبئُ آجل الأعوام
بين الحقيقة والخيال مصارعٌ أودت بما فى النفس من إقدام
لكننى عوّدت نفسى أن ترى أفياء هذا العيش ظلَّ جهام

---

(١) و(٢) و(٣) ص ٦٦ من الديوان .

وأخذت أذنى بالنواح فأصبحت تستعذب الأنات فى الأنغـــام
وتركت عينى للدموع فأصبحت فى الضوء آنسةً وفى الإظلام
ورجعتُ وطنت الفؤاد على الضنى فاعتاده ، واعتدت بِرحِ سقامى
وغرست فى قلبى الشجون فأثمرت وجنيت منهـــا نعمة الآلام (١)

* * *

لنفتح الآن صفحة جديدة على رامى « الأب » لنسمع معًا هذه المناغاة :

يا بنىّ ، ما أحيـــلى يا بنى أنتَ ظلٌ مدّه الله علىّ
نعمةُ العمر وتذكارُ الصبا والأمانى التى عزت لدىّ
لست أنساك جنينًا خافيًّــا فى ضمير الغيب أدعوك إلىّ
أتمنـــاك لعينى قـــرةً حين ألقـــاك وليداً فى يدىّ
أرقب اليوم الذى تبسم لى وترى آى الرضا فى مقلتىّ
فأناجيـــك بألحـــان الهـــوى ســـابقات خاطرى فى شفتىّ
كلمـــات هى لا معنى لهـــا غير أن تسمع منى أى شىّ
فـــتراعينى ولا تقـــوى على غض أجفـــانك عنى يا بنىّ

إنه هنا يحلق فوق الشعر وفوق الحياة المادية بقيمها . وتوافهها على السواء . . . إن ألحان الهوى التى يتحدث عنها الأب فى الشاعر أروع وأغنى وأفتن من كل لحن فى الدنيا حَنَّ به ناى ، أو غنّى به عود ، أو رجعته قيثار ، أو رنمه وتر ، أو شدا به غرّيد ، أو دَفّ به صوت واو صيغ من سلسال الفضة أو رنين البلّور . . . وما ألحان هؤلاء جميعًا إذا خفق القلب الإنسانى بحب البنوة وناجاها بألحان الهوى ؟

إن الشاعر على فنه لا يدرى كيف يصفها . . . وتبلغ حيرته مداها فيتمتم :

(١) ص ٦٦ من الديوان .
(٢) قصيدة « يابنى » ص ٥ .

كلمات هى لا معنى لها غير أن تسمع منى أى شى
أتراها تكون أشواقاً رقراقة ؟ إن الشوق بعضها
أتراها تكون حياة دفاقة ؟ إنها أكثر من حياة اندمج بعضها
فى بعض وسرى فيه واتحد به .
أتراها تكون منى حلوة ؟ إن المنى منها وليست كلها

. . . إنها ألحان الهوى . . . وإنها أشواق وحياة ورجاء وخوف وماض وحاضر ومستقبل . إنها الأبوة والبنوة . . . إنها . . . لست أدرى . . . أشهد أنى حائرة . . . بل لعل حيرتى أكبر فلست شاعرة . . . إنها :

كلمات هى لا معنى لها غير أن تسمع منى أى شى

* * *

وإذا كان ديوانه [١] قد خلا من المدح والهجاء والسياسة فذلك لأنه كان يغنى لنفسه ويرسمها فى أحوال شتى .

وقد صور رامى نفسه فى حالتى صفوه والكدر وهو يشكر مصوراً صديقاً :

أريتنى البحر طاغى العبـــاب تحطم أمواجــه فى الصخر
وصورت لى البحر فى هـــدأة تجلت صحيفتــه كالغـــدر
كذلك حالات نفسى تـــرد د بين الصفاء وبين الكدر [٢]

ولم ينس عاشق الطبيعة أن يغرى صديقه بها فى هذه الهمسات :

تعـــال فقد سئمت نفسنـــا من العيش فى غمرات الحضر
نهيم مع الطـــير فى جـــوه نمجـــد مـــا خلق المقتـــدر [٣]

---

(١) الشاعر يصفى شعره مع كل طبعة . ومن الجائز أن يكون له شعر فى المدح والهجاء والسياسة أسقطه عند الطبعة التى بيدى .

(٢) قصيدة «إلى مصور» ص ٣٥ – ٣٦ .

(٣) فى هذا البيت قلقلة فى الموسيقى وخير من (ماخلق المقتدر) ، فى رأيى ، (ماأبدع المقتدر) .

أردد صـوت الطبيعة شـعراً   وتنقل عنها أجـل الأثر
منـاظر هـذى الطبيعة رسم   وذهنـك أنت إطار الصور [١]

إن الشاعر شارد النظرة لقيس النفس ، موزع الفكر ، تغشى وجهه سحابة داكنة . . .

. . . ما هذا الشحوب الذى نرى   بوجهك بل ما هذه النظرات [٢]

. . . لقد بعث السؤال شجنه وأيقظ لواعجه . . .

يقولون ما هذا الشحوب الذى نرى   بوجهك بل ما هذه النظرات
تشرد لحظى ثم غشته ترحـة   كما غشيت شمس الضحى المزنات
فلا تسألونى كيف حالى وما الذى   عرانى وحسبى هذه الصفحات
لقد جف من هذى الحياة ربيعها   فلا عجب أن تذبل الوجنات [٣]

وهو دائم التحنان إلى الماضى :

أحن إلى الماضى كما يذكر الحمى   طليح نوى ترمى به الفلوات
وأندب أيامى اللواتى تصرمت   بشعرى إذا ضمتنى الخلوات [٤]

دائماً شعره ! . . . كما يغالى بالفن الفنان . . . ولِمَ نعجب وفى الشعر هناؤه وفى الشعر عزاؤه :

وفى الشعر تأساء وفيه رفاهة   وفيه لقلب ياقظ نشـوات
أنيم به حزنى كما تبعث الكرى   إلى عين طفل صارخ نغمات [٥]

---

(١) قصيده « إلى مصور » .
(٢) البيت كاملا :
يقولون ماهذا الشحوب الذى نرى   بوجهك بل ما هذه النظرات
(٣) و (٤) قصيدة « شعر الدموع » ص ٣٧ — ٣٨ .
(٥) قصيدة « شعر الدموع » ص ٣٨ — ٣٩ .

حزنه ؟ من نكأ الجراح ؟ .

« لقد ألفت نفسي الشقاء » . . . إن الألفة هنا لا تكون إلا بعد مكابدة طويلة ورياضة أطول . . . لقد ألفَ الشقاء بل زاد فحمد له صنعه :

لقدألِفَتْ نفسي الشقاءَ وإن يكن ... أليمًا ففي آلامه الخطرات
وليس يجيد الشعرَ إلا معذب ... تضرّم في أحنائه الحرقات
ولو كان كلٌّ ناعمًا في حياته ... لما بهرتكم هذه النفحات
فأهلاً بأحزاني وأهلا بوحدتي ... إذا كثرت من نفسي اللهفات
فإنهما أرعى وأبقى مودة ... إذا فاتني أهل وعزَّ لدات[1]

وهكذا انتهى إلى قرار . . . ولو إلى حين ! . . .

* * *

وشاعرنا — ككل فنان — كله إحساس ، وهو يلمس ويدرك ويعيش بحسه هذا ، فلا غرو أن يغالي بقلبه موطن الإحساس ، فهو إذْ يعدد غواليه يقول :

وفؤادي أعزّ ما أقتنيه ... في حياة أعيش فيها بحسي[2]

وهو يقبس ألفاظه من شعلة إحساسه المتوهجة ؛ فحين نسمعه يقول للذي أهداه صورة الأمل . . . : « أهديت لي حقبًا من الأجل » نحس في « حقبًا من الأجل » شحنة من الإحساس .

ويصور الأمل فيقول :

كم مأمل بعث القرارَ إلى ... نفس من الأقدار في وجل
وجلا من الأيام ظلمتها ... فبدت وفيها متعة المقل

إن « متعة المقل » هذه لا تصدر إلا عن نفس غنية بمعاني الجمال الفني ، نفس تحسه بكل خالجة فيها ، إحساسًا عارمًا يلذها لذاذة

---

(١) قصيدة « شعر الدموع » ص ٣٨ — ٣٩ .

(٢) قصيدة « خاطرة » ص ٤٨ .

تجهد فى وصفها فيكون قصاراها أن تسميها « متعة » وهى لفظة رويّة من الشعور . . .

* * *

وأحيانًا تتأزم نفسه تأزمًا لا سرية فيه من أمل ولا شية من رجاء، وإنه لعلى هذه الحال إذ بصديق يهدى إليه صورة الأمل . . . وكان المأمول أن تنبسط نفسه لدلالة الهدية وإيحاء الصورة ، وقد خلته كذلك من استقباله للصورة الفنية التى يعدها « حقبًا من الأجل » ، ولكنه ما لبث أن تزاور عنها وهو يتمتم :

لا شيء فى الدنيا يحببنى فيهـا فأقطعها على مهـل
بعـدت عن نفسى مطامعها وشـقيت بالأعلى من المثـل
ولقـد غنيت عن الحياة بمـا فى خاطرى من مشهد حفـل
وسمعت من أملى ملاحنـه حتى سمعت مناحـة الأمل

* * *

أجد البكاء وراء مقـدرتى والدمع راحـة قلبى الثكل
ما زلت والأيـام ظالمـة أسـقى الأسى علاً على نهل
حتى إذا سـجعت مطوقة ألفيتهـا يومًا على طلـل

ولكنه شاعر . . . وهو فنان يحس دبيب الحياة فى كل شيء حتى فى الجامد ، ومن ثم انثنى إلى الصورة الجميلة يتأملها ويقول كأنه يعتذر إليها متوددًا :

بالله يا قيثـارة الأمـل ألا أنت يوقظ العلـل
ونديت بالألحـان تشربهـا نفس معطشـة إلى بلل
وملأت جو الصمت من نغم فالصمت شر بواعث الملل
لولا المنى وبعيد مطلبهـا كانت حياة الناس كالوشل

ورامى إذا ابتأس شاه لون المرئيات فى ناظريه ، وليس هذا بالشيء العجاب . فالإنسان فى الحقيقة لا يرى بعينيه فحسب ، ولكنه يرى أيضًا



بجوه النفسى الذى يلون الدنيا بلونه الخاص زاهيًا كان أم كابيًا . . . ألم تنكر ليلى بنت طريف على شجر الخابور إيراقه بعد موت أخيها[١] وكان الأخلق به — فى نظرها على الأقل — أن يحزن معها ويشاركها أساها ؟

ألم يقل رامى فى قصيدة نهر الحياة :

والنفس إنْ تصفُ أمانيها طمى عليها المنظر الممتع
وإن غدت مظلمة ما رأت فى ظلمة الأيام ما يسطع

ألم يعلل ابن الرومى المرور بكاء الوليد تعليلا كابيًا من وحى جوّه ؟

ألم يسأل رهين المحبسين :

أبكت تلكمُ الحمامة أم غنت على فرع غصنها الميّاد ؟

وكذلك فعل رامى مع البدر والنجم والطير والرعد[٢] :

كم أسأل البدر لِمْ تصفر صفحته اللزمان وما تجنى دواهيه
وأسأل النجم لم ترفضّ مقلته ألبكاء على آلامنا فيه
وأسأل الطير لم ناحت نوائحها ألعويل إذا غرّت أغانيه
وأسأل الرعد إما مد قهقهة أساخر بالذى بتنا نرجّيه
من عيشة غر هذا الناسَ ظاهرُها كما يغرّ سرابُ البيد رائيه

ولكن مما يعزينا أن شاعرنا كالنعمان لا يتصل بؤسه . وكذلك رامى لا تبدر جفونه فى مطلع قصيدة حتى يفترّ عن ابتسامة فى آخرها ، تغرى بالمرح وتدعو إليه كما تصفو السماء غبّ المطر . . . فبينما ينذر الشاعر بزوال الحياة :

إن الحياةَ فلاةٌ أنتَ قاطعُها وكلّ مرحلة يومٌ تقضّيه

إذ به يدعو إلى التمتع بها والاطمئنان فيها :

---

(١) تقول ليلى :

أيا شجر الخابور مالك مورقاً كأنك لم تحزن على ابن طريف

(٢) قصيدة « سر الحياة » ص ٣١ — ٣٢ .

فعاشر الناس بالحسنى وكن مرحاً   جذلان والقلبُ قد عزت أواسيه
وعزّ نفسك لا تحزنك نائبـة   ونم منام رخيّ البال هانيـه

ومرهفو الحس بعامة ، والشاعر بخاصة ، إنما مثلهم كمثل الروض ، فبينما هو يبكى بدموع الندى إنه به يضحك بأكمام الزهر ، ويغنّى بلسان الطير ويمرح فى انسياب الغدير.

ورامى إذا تألم زهد فى الحياة والأحياء، وهرب من دنياهم إلى عالم آخر، ولا يجد فى شىء لياذاً كالوحدة التى يخلو فيها إلى نفسه بماضيها وحاضرها وظنونها وخواطرها وأوهامها ومشاعرها وآرائها ومذاهبها . وتراه فى وحدته فتحسبه قد خلا وهو فى عاصف يموج من الأحلام والخيالات والرؤى ... وما الدليل ؟ ... إذن إليك هذه الأبيات من قصيدة « الوحدة »(1) :

رقد الساهدون حولى وعينى   ليس تقوى على انطباق الجفون
فإذا ما خلوت أسمع فى الوحدة   نفسى وأستجيش حنينى
وأرانى وقد غَنيت عن الناس   بنجوى خواطـرى وظنـونى
خلت أنى أعيش فى عالم الأرواح   لا فى سـلالة مـن طين
آنستنى نفوسُ من تركوا العيش   وهم منـه فى قرار مكين
من وفىّ أراق من خالص الروح   فسالت فى حب غير أمين
وشهيد فى مبدأ وقف العمر   عليه وكان غير ضنين

وإذا بلغ الضيق به مداه جأر وبه من سانح الغضب عارض :

مرحباً يا عوالم الروح إنى   ضقت ذرعاً بعـالم مأفون
آلمتنى الحياة فى هذه الدنيا   فهل لى إليك من يهدينى

ولكن صوت الشاعر يعمق وقعه حين يقول :

أنت أنقى نفساً وأطهر روحاً   فانتقينى من بينهم وخذينى

---

(1) ص ١١ – ١٢ .

ألِى هذا الحد برّح به الألم ؟ « فانتقيني من بينهم وخذيني » . . .
إن الاصطفاء لا يكون إلا للثمين المميز . ومن ثَم يوحى تعبيره بشعوره أنه غريب بين الناس ، وفى غير موضعه منهم ، غرابة النفيس يحسبه الجاهل بعض تراب المنجم وهو تبره المنشود . . .

وشاعرنا يعلم من نفسه أنه موهوب . وإنما الذى يرتجيه دائماً هو شاحذ للموهبة . وقد لمحت هذا فى شعره أكثر من مرة . فتارة يقول مهيباً بنهر الحياة أن يرويه وكل ظامئ ليهتز ويربو :

لو كنت تروى ظمئى ما غـدا ... شطك لا يزهو ولا يينع
فالنفس إنْ تصفُ أمانيّهـا ... طمَى عليهـا المنظر الممتع
وإن غدت مظلمة ما رأت ... فى ظلمة الأيام ما يسطع (١)

وآناً يقول . . .

شـعلة فى قلبه لوهاجهـا ... هائج يسطع فى الدنيا ضياها
وحياة ملؤها المحْلُ ولو ... كَرُمَ الناسُ قطفنا من جناها

وحين يظن أن الهاجرة ذرّت أوراقه وصوّحت أزهاره وأضاعت نشره ، يلوذ ببنات الشعر يبثها شكواه ، وحين يطول السرار ، يرق الهمس إلى آذاننا رويداً رويداً . . . حتى لتسمعه يقول لها :

بنات الشعر ما ألهاك عنى ... وماذا نفـر الأشـعار منى
دعينى يا بنـات الشعر أبكى ... على ما نالت الأيام منى
أمـانٍ متن فى قلبى صغاراً ... كما ذوت الكمائم فوق غصن
وزرع طاب لم أقطف جنـاه ... وكم بذرت يداى ولست أجنى
فكونى يا بنات الشـعر أهلى ... وأشياعى لدى البلوى وركنى
وغنى من أسـاك وألهمينى ... فبينك فى الهوى عهـد وبينى
أراك بخاطـرى وأود أنى ... أراك بنـاظرىّ وأن ترينى

---

(١) ص ٣٣ .

لقـــد تركتنى الأيام نضـــواً أود من الزمان دنوّ حينى
فبكّينى إذا همـــدت عظامى ونوحى حـــول مقبرتى بلحنى
عشقتك يا بنـــات الشعر حيًّا فلا تنسى عهـــودى بعد بينى (١)

وككل فنان يحس — مهما نال الشهرة والإعجاب — أنه مغبون . . . تفسر هذا قصيدة رامى « النبوغ المقبور » :

زهرة أهدت إلى الريح شـــذاها حين هبّت سَحَراً فوق رباها
أينعت إذ جادَها صوبُ الحيا وذوت من بعد أن جفّ نداها
وذرت أوراقَها هاجـــرةٌ فغدت مسلوبةً كلَّ حلاها
صوّحت لم يملأ النفسَ لها عبقٌ أو يسحر الطرفَ سناها
هذه حال الذى عزّ على نفسه الحرّةِ تحقيقُ مُناها

ويبدو شاعرنا متفائلاً أحيانا . . . أو هكذا تحدثنا طلائعُ ديوانه . . . فقد رسم للحى صورةً رمزية فى قصيدته « طيور الأمانى » تلك الطيور الحائرة الحائمة : تتشوف ولا تظفر ، وتهفو ولا تنال ، والحَبُّ كثير والماء دَفْق سائغ ، وهى فى هذا النعيم غرثى ظمأى تقتات الخيال والأمل حتى إذا دنت ، أقصاها عن الغصن المحمّل بالثمر ، حاصب ، وصدها عن الغدير المصقول الصفحة قاس منّاع . . . ويرصد الشاعر هذا كله فيُشبّه له ، وتنبعث أشجانه فيقارن بين الطيور والناس على هذا النحو :

هكذا نحن فى الحياة نريد الصفو فيهـــا والصفو نائى المجانى
ونريد النعيم فيها ومن دون مُنانا ســـدٌّ من الحرمـــان
ونشيد البنا من الأمل الســـامى وفأس الزمان فى الجـــدران
ونبث البذورَ فى الأرض والدهرُ ضنين بالعـــارض الهتّـــان
ومن الزرع باسق جفت الأثمار فيـــه وما جنتهـــا يدان

---

(١) قصيدة « بنات الشعر » ص ٢١ .

ومن الماء دافق جفَّ فوقَ الأرض ما مس قطره شفتان[1]

ولكنه ما لبث أن تعزى . . . بِمَ ؟ . . . بالأمل . . . وهل فى غيره عزاء وتأساء ؟

فلنعش بالمنى فكم صدع البدْر حجابَ السحابة المدجَّان
ولنعشْ بالمنى فكم جرت الأقدار بالعز بعد طول الهوان

وها هى ذى بسمةٌ ترف على الوجه المندّى بالدموع . . .

فارفعى الصوت بالغناء قليلا بدل النوح يا طيور الأمانى

« فارفعى الصوت بالغناء قليلا » . . . قليلا فحسب . . . إنه ليس خاليا ، ولكنه يستروح . . . علَّ فى الغناء عزاء . . .

وهو عند ما يضيق بحياة الأحياء يلوذ بحياة الخيال ويروض قلبه عليها :

أخلد اليوم للسكينة يا قلب فانعم بها ديار مقام
فانس برحَ الحياة من خيبة الحب ومن صحبة الرفاق اللئام
لك من رنة الخرير أغان ناديات بأعذب الأنغام
ومن البدر فى سكون الليالى سامر بالضياء والإلهام
ومن الوهم والخيال ابتداع من تصاوير فكرى الرسام
فاهجر الناس إنما لذةُ العيش حياةُ السكون والأحلام[2]

وكما يلوذ بالخيال من الناس ، يلوذ به من خيبة الحب الذى يسكب عليه هذه الدموع :

يا ريشة الوهم صورى لى فى صفحة الخاطر الحزين
ما جفَّ من يانع جنىِّ وغاض من سلسل معين
ويا طيور الخيال خفىِّ فى دولة الليل والسكون

---

(١) « طيور الأمانى » ص ٨ — ١٠
(٢) قصيدة « حياة الخيال » ص ٢٦ .

ورفـــرفى فى فضـــاء صدرى ورجّعى من صدى أنينى (١)

وتعتريه أحيانا سانحة يتأمل فيها نفسه وهواه ، وهمومه وشكواه ، فيبتسم فى سمت الحكيم الذى بلا الدنيا فآل به اختياره إلى التسليم بواقعها على علاته ، واهتبال فرص السرور والنهل من منابعها الصافية التى لا كدرةً فيها ترنق الصفاء . وأين هذه المنابع ؟ . . . فى حضن الطبيعة الوهوب :

هذه روضة وهذى الطيــور تتنــاغى وللغــدير خرير
وذكاء عند الأصيل طمى منها على الكون عسجد منشــور
فتمتع بما ترى من جمال الكون وانس الذى تُكنّ الصدور

إنه يذكرنا بأبى القاسم الشابى وشعراء المهجر بما فى شعرهم من روما نطيقية وحنين إلى الطبيعة. وكانت الروما نطيقية فى ذلك الوقت هى المذهب السائد فى الأدب شعره ونثره . وتستشعر نفسه الوحشة أحيانا :

العيش طال دجاه فهل أطالع فجــره
وهل أظــل غريبا كالطير هاجر وكره (٢)

وهو متفزز الأعصاب شأن كل الحساسين المرهفين . . . ومن ثَمّ تراه موزع النفس بين ماض أسوان ، وحاضر لهفان متطلع ، ومستقبل مجهول مرْجوّ ، متوهم لا يدرى أشر أريد به فيه أم خير يتهدّى . . .

قد تقول : إنه لا يستقر على حال . . . نعم ، وهل حياة الشاعر إلا قلق كلها ؟ . . . سمّه الضاحك الباكى إذا شئت :

كم أقضى النهار تضحك سنى راضيا بالحيــاة طلقا جليدا
فإذا ضمنى الفــراش تقلبت عليــه لا أستطيع هجودا
وتر مطرب الأغاريد يبــلى وهزار يرثى الربيع نشيــدا

---

(١) ص ٢٨ .
(٢) « أمنية » ص ١٤ .

كم دموع أرقتها فى ربى العيـ ـش فأنبتن فى ثراها ورودا
والذى يقطع الحياة فريراً يحسب التاعس الشقى سعيدا (١)

ويصمت أحياناً فتتكلم قصيدة الوحدة (٢) :

أقرأ الكون صفحة أستبين الرأى فيها وأستمد فنونى
تتوالى على خيالى مجاليه كأنى أراه نصب عيونى
خالصاً من تكلف القول بين الناس من جاهل ومن مفتون

وهو وفى . . . ولا يكشف رصيد الوفاء كالنائبات . . . وقد نظر رامى يوماً فإذا صديق له تتقاذفه الأمواج فى بحر الحياة لتطوح به على الشاطىء الآخر الذى لا يؤوب منه الذاهبون . فقال :

كيف أرثيك يا رفيق شبابى يا نجيى من شيعة الأحباب
أبدمعى ؟ الدمع أرخص ما يبكى به صاحب على الأصحاب
أنت أولى بأن يبلل مثواك بطل من الفؤاد المذاب
لهف نفسى كيف انطفأ ذاك النور بعينيك كانطفاء الشهاب
لهف نفسى على فؤادك قد قر بجنبيك بعد طول اضطراب
يا كبير الآمال هل هذه الرقدة غايات روحك الدآب
أكذا تنطوى معالمك الغر ويخبو سناك تحت التراب
ويروح الذكاء والمنطق العذب وحسن الأخلاق والآداب
فجعتنى فيك الليالى وقد كنت عقيدى وناصرى فى طلابى
وأخى فى مشاعرى لك نجواى وسرى فى مشهد وغياب
طار لبى لما نعيت وضاقت بى دنيا كثيرة الأسباب (٣)

وهو وفى إذا غدر المتوددون :

---

(١) « الوتر البالى » ص ١٩ .
(٢) قصيدة « الوحدة » ص ١١ .
(٣) « محمد تيمور » ص ٥١ .

إنْ يغب عنك معشرٌ عبدوا فيك قديمًا جمالَك الفتّانا
فأنا الصادقُ الوداد إذا حال محبٌ عن الوداد وخانا (١)

ويبدو أن شاعرنا من شيعة ابن المعتز الذى بلغ من رقته أنه كان يتلمس الجمال حتى فى القبح فيهواه . . . ورامى لم يكتف بالولاء للجمال الراحل بل وجد من مزهره وتراً يغنيه ويطب له بما يرقرق من غناء :

ولقد يذبل الندىُّ من الزهر ويبقى عبيره أحيانا
ولقد يخفت الرخيمُ من الصوت ويشجو رنينهُ الآذانا
ولقد تغرب المهاة وتكسو الأفقَ من بعدها ثيابا حسانا
ولقد ينضب الغديرُ ويبقى زهره فوق شطه ألوانا (٢)

وهو بعد هذا رفّاف النفس ، جيّاش الصدر ، زاخر القلب والروح بمعانى الجمال المبثوث فى الكون ، حتى إذا طمى عليه الأسى حينًا ضاق بالسكون وهو الشاعر ، فإذا بهذه الصرخة تندّ عن شفتيه وهو مجهود :

أين وحى الخيال والوجدان يستقى منه خاطرى ولسانى
أسكوت والكونُ جمّ المعانى وسكونٌ والنفسُ فى ثوران (٣)

إنه يريد أن يملأ الجو غناء وتطريبًا ، إنه يودّ أن يودعه أساه ، ويبثه شكواه ويُسمعه أناته رويّة شجية مسعدة على البكاء . . . هكذا يقول :

يا بنات الشعر انفحينى وغنينى وهاتى من شيقات المعانى
لا أريد الرحيل عن هذه الدنيا ولم تمتلىء ببث جنانى
إن صعبًا على المزاهر تبلى لا تناغى على أكف القيان

---

(١) « الجمال الراحل » ص ٢٥ .
(٢) « قصيدة الأنغام السجينة » ص ٥٣ .

وشديداً على النفوس مداراة أساها بالصبر والكتمان
فاجعلى أنتّى رويّاً فبعض النوح أشجى من مطربات الأغانى
والحداءُ الرخيمُ فى المهمه القفر عزاء للعيس فى الوخدان(١)

ولم يعلن مخاوفه فى قصيدة « الأنغام السجينة » وحدها ، بل إنه فى قصيدة « نبعة الشعر » يعود إلى حديثها فى كثير من الإشفاق :

إنى لأخشى أن تموت عواطفى ويجفّ ذاك النبع من أشعارى
وتقرّ نفسى بعد ثورتها فلا يهتاجها شىء سوى التذكار
وترى مجال الكون عينى خالياً من بهجة الآصال والأسحار
إنى ليحزننى بقائى صامتاً ولدىّ هذا الكنز من أفكارى
فى الشعر تأساتى وفيه رفاهتى وإليه أشكو قسوة الأقدار
فإذا سكت فقد حرمت شكايتى ولرب شكوى نفّست أكدارى(٢)

وهو يعرف دواءه :

ما أطلق الطير الشجى غناؤُه مثل ابتسام الزهر والنوار
أو نضر الزرع البهيجَ بساطُه كالشمس والماء النمير الجارى
أو أرقص البحرَ الخضمّ عبابُه كالبدر يشرق باهر الأنوار

إنه يدور حول المعنى ولا يصرح به . . . إن الشاعر يهمس فى خفوت كمن يحدّث نفسه :

الحبُّ نبعُ الشعر منه تفجرت عينُ المعانى والخيال السارى
الحبُّ لحنُ النفس وقّعه على وتر القلوب بنانُ موسيقار
الحبُّ يفسح فى الحياة مراحها ويحفّها ببدائع الآثار
ولربَّ ساعة خلوة هفّافة طالت عن الأجيال والأعمار
ولرب وجهٍ أبدعت قسماتُه أبهى من الجنات والأنهار

(١) قصيدة « الأنغام السجينة » ص ٥٣ .
(٢) قصيدة « نبعة الشعر » ص ٥٤ — ٥٥ .

ولرب ثغر باسم أحيـــا المنى   وأطارها فى النفس كلّ مطار (١)

إذن برح الخفاء . . . إنه الحب . . . هو الداء وهو الدواء . . . إنه عامر النفس بمعنى الحب حتى قبل أن يلقى الحبيب ويفتح عينه عليه . . . معطر الجو بعبير الهوى قبل أن يطالع روضه أو يقبّل ورده . . . إن الحب فى نفسه منذ شب عن الطفولة الساذجة معنى عائم ، وخاطرٌ حائم وشعور هائم وخيال صناع . . . حتى إذا التقى بالحبيب أول مرة لم ير غريباً . . . إن الشاخص أمامه المعنى بعد أن تحدد ، والخاطر بعد أن قَـرّ ، والشعور بعد أن استقر ، والخيال بعد أن تميز ، والظنون بعد أن تجسمت حقيقة ، وتمثلت واقعاً . . . هكذا ــ صور شعره . . . اللقاء الأول :

لست أنساه إذْ وفدت عليه   وهو ما بين خاطرى وظنونى
فإذا روحه تصـــافح روحى   قبل شدّ ى يمينــه بيمينى
وإذا الوجهُ ليس يغرب عنى   أنا شاهدته بعين يقينى
وإذا نحن قبل أن نبدأ القول   حبيبـــان من طوال السنين (٢)

وقلبه ليس للهوى وحده ، فهو يخفق مع كل خافق . . . يستقبل الطيار فيتراءى له القلوبُ الواجفةُ التى ترقب عودةَ النسر المحلّق ، وبها من الإشفاق أضعاف ما فيها من الفرح . ويحس الشاعر معها فلا يكاد يحييه حتى يذكرها :

أيها الطائر المحلّق فى الجو   سلام عليك فوق المطـــار
سهرت أعين ورفت قلوب   تســـأل الله رحمـــة الأقدار
تتمنى لك السلامةَ فى مسراك   ليـــلا وغـــاديًا بالنهـــار
تسأل الريح هل ألمّت خفافًا   بجناحيـــك أم أطافت ضوارى

(١) قصيدة « نبعة الشعر » ص ٥٤ — ٥٥ .
(٢) قصيدة « اللقاء الأول » ص ٥ .

تسأل البرقَ هل أضاء لك الأفق وأنجاك من مهاوى العثار
تسأل الفجر أين طالعك اليوم وأين السبيل فى الإبكار
تسأل الليل هل أصاخ لنجواك حنيناً إلى ربوع الديـار[1]

وهو ودود . . . له فى مصر أخلاء ، وفى الشام أعزاء ، وفى الشرق كله أحباء وأصفياء . . .

وهفا بى إلى الشآم حنين للقاء الأحبـاب والإخـوان
جمعتنى بهم ديارى فكانوا أنس روحى ومستسر جنـانى
ضمنا مجلس الغناء فأرسلت بكائى من الهوى والزمان
ثم ساقيتهم ودادى وخففت أساهم ورفهوا أحـزانى
هزنى الشوق للقاء فأرسلت خيالى فى مسبحٍ الوجدان
ثم ناجيتكم بشعرى على البعد وأودعتـه صفىّ بيـانى
وقضى الله أن أراكم وأروى ناظـرى من بهـاء تلك المجانى
فإذا الدار منزلى وإذا الأهل لداتى وإذا لغاكم لسانى
وإذا بى حللت فى إخـوانى وإذا بى نزلت فى أوطـانى[2].

ويزف التحايا إلى الإخوة فى الشرق . . . فيقول :

قل لهم ساكن على النيل يهدى شـوقه عن يمينـه والشمال
لأحبـاء شاق نفسى أمانيهم ورفت أحـلامهم فى خيالى
جمعتنى بهم على البعد آفاق من العمـر ماثلات حيالى
من قديم أضفى على الكونِ آيات من العلم والهدى والجمال
أو حديث ذقنـا رضاه سويـاً وسـهرنا على ضنـاه ليالى[3]

وإذا كان كل إنسان يحب وطنه ويتشوف إليه فى غربته ، فى تعلق

---

(١) قصيدة « عودة الطيار » ص ١٠٥ .

(٢) قصيدة « إلى سدرة الشام » ص ١١١ — ١١٢ .

(٣) قصيدة « نجوى » ص ٩٦ .

وحنين فإن الشاعر المحب . يبلغ من هذا الحب أوج تمامه بما هيأته له فطرته من صفاء وهفهفة ووقدة . . . لقد سافر رامى إلى باريس فلم تلهه مدينة النور عن مصر الحبيبة الأم. . . وكان أن خايلته الضفاف الخضر والعسجد المذاب وسوامق النخيل و بواسق الشجر وهتاف الكروان وهدأة الليل ولألاء البدر ، وألق السماء :

تلك مصر فكيف ينساك يا مصر فؤاد معـلـَّق الأوطـار (١)

ويرفرف قلبه فيهتف من أعماقه :

أينما كنتُ أنت كعبةُ آمالى ووقف عليك طول اذكارى
وشبابى ضحية لك يا مصر وعـزت ضحيـةُ الأعمار
إننى فى رباك فتحت عينىَّ فأبصـرت أولَ الأنـوار
وسقانى النميرُ من نيلك العذب فروّى تعطشى وأوارى
وغـذانى ثراك فاشتد غرسى وصفا موردى وطاب قـرارى
فيك أهلى وفيك مثوى أبى البرّ ومغدى الخلصان من سمارى
ونواحيك رددت ما أفاض الحزن فى خلوتى مـن الأسـرار
ومناحيك مسرح الفكر تجلو لخيالى ما آلف التـذكار
سمعت ضحكتى صبيًّا وأصغت لنواحى يجيش فى أشـعارى
أنت وكرى الذى أحـن إليـه بعد طول الطواف والأسفار
فى سوى أرضك الكريمة لا يحلو رواحى ولا يطيب ابتكارى
وإذا طال فى البلاد اغترابى فى سبيل العلا فأنت قصارى (٢)

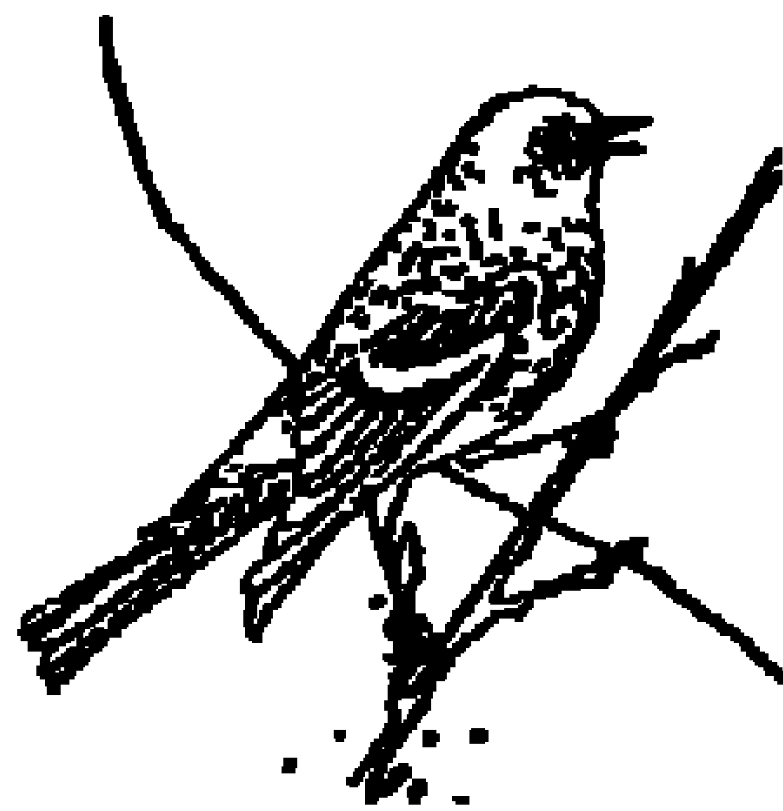
إذا تعاظمنا هذا القدر من شعره فى موضوع واحد يدور حول شخص الشاعر ، وإذا أضفنا إلى هذا أن القدر الباقى من ديوانه أو معظمه إن هو إلا ترانيم يغنى بها حبه ويبث هواه ، وقفنا على حقيقة من حقائق الدراسة وهى وضوح بل سفور ظاهرة « الأنا » فى شعره . . . فهو منكبّ على

(١) و (٢) قصيدة « حنين » ص ٦٠ – ٦٢ .

نفسه يستعرضها و يستجليها ويتسمعها ومن ثم أسرف فى الغناء لها . . . على أنك تستطيع أن تعتد هذه الظاهرة بعينها آية صدق الشاعر ، وشاهد فنيته ينبع من نفسه ، فهو إذن لا يداجى فى شعوره ، ولا يمالىء فيه أحداً من الناس . فرامى لم ينظم فى المدح أو الهجاء كما أشرت . وما ينبغى أن تكون الشاعرية إلا صدقاً فى الشعور والتعبير .

* * *

هذه استشفافات و إيحاءات شعره . . . قد تكون صادقة تمام الصدق تطابق الواقع وقد تزيد عليه . . . ولكن دارس الشعر لا يملك فيما يستعين به من أدوات إلا أن يعايش الشاعر ، ويصغى إلى ديوانه . ثم يمضى بعد هذا فى دراسته مستهدياً أضواء أخرى تكتمل بها الرؤية وترشد الأحكام .



رامى وأم كلثوم

رامى وأم كلثوم ، أو القصة التى عشنا نسمع فصولها موقعة على الأوتار ويرددها التخت بلسان صاحبتها ، فيردد الناس وراءها الألحان ، أو حوادث القصة . . .

طالما تساءل الكثيرون عن رامى وأم كلثوم . . . فإلى هؤلاء قصة (الشاعر والبلبل) . . .

حضر رامى من الخارج يوم الاثنين ٢١ يولية سنة ١٩٢٤ . . . وفى يوم الخميس الموافق ٢٤ يولية سنة ١٩٢٤ دعاه صديقه السيد محمد فاضل ليسهر معه ، وكانت السهرة فى حديقة الأزبكية ، وكان فيها كشك أمام مدخل تياترو حديقة الأزبكية يعزف فيه عبد الحميد على . . . وفى هذا الكشك سمع أم كلثوم أول مرة . وكان رسم الدخول عشرة قروش .

كانت تغنى بغير آلات . . . وأوعز إليه صديقه بعد أن أجلسه فى الصف الأول أن يطلب إليها قصيدته . . .

— مساء الخير يا ستى .

— مساء الخير .

— أنا حاضر من غربة ونفسى أسمع قصيدتى . . .

ففطنت إليه أم كلثوم وقالت « إزيك يا سى رامى »[1] وغنت :

الصب تفضحه عيـــونه وتنم عن وجـــد شجونه[2]

---

(١) هذه الواقعة بتواريخها وحوارها رواها رامى أكثر من مرة فى أحاديث إذاعية .

(٢) هذه القصيدة من بحر قصيدة شوقى « ياناعماً رقدت جفونه » =

دخلت القصيدة المرنمة أذنه ، ودخلت فى ركابها أم كلثوم . . . قلبه . . . وخرج من الحفلة هائماً يردد ما سمعه منها . . . فقابله فى ميدان عابدين الأستاذ عبدالله حبيب الذى كتب عن هذه المقابلة سنة١٩٢٧ (١) :

« فى الهزيع الثانى من إحدى ليالى الصيف المقمرة، منذ عامين وبعض عام ، فى ميدان عابدين الفسيح ، والليل ساهم سادر ، والقمر يغمر فضاء الله بنوره الوضاح ، والسكون ينشر ظله على الأفق ، فلا نأمة ولا حركة ، ولا روحة ولا غدوة . . . فى تلك الساعة — ولا أنساها — إذْ أنا عائد إلى منزلى مع بعض الرفاق بعد سهرة طال بنا سمرها ، سمعت صوتاً شجياً يرجع فى الفضاء لحناً خافتاً ، فتلفت أتبين موضع الصوت فإذا شبح فى ضوء القمر كالخيال السارى يتناوح بهذا اللحن الشجى . . . ويح نفسى ! . أهذا وحى شاعر ؟ . فقلت لرفيقى : أسمعت ؟ . قال : أجل . وكان الصوت خافتاً متواصل الترجيع ، لا تشك فى أن صاحبه إنما يرسله لشكواه وبثه . . . وأسرعنا الخطى ، فلم نكد نستبينه حتى صاح به صاحبى رامى ! ! رامى ! ! » .

ثم سافرت أم كلثوم فى اليوم التالى إلى رأس البر ، فأكد البعد حبه ، وأشعل خياله . وانتظرها أربعين يوماً حتى عادت . . . وأعلن عن حفلة لها فى البسفور فهرع إليه . . . فما إنْ رأته حتى غنّت للمرة الثانية . . « الصب تفضحه عيونه » كانت تحية ، وكانت عود ثقاب .

ثم زار رامى أم كلثوم ، وكانت مقبلة على ملء أسطوانات أوديون ،

—

= محاكاة له من إعجاب. وقد غنى قصيدة «الصب تفضحه عيونه» قبل أم كلثوم الشيخ أبو العلا محمد أول من غنى شعر رامى .

(١) من مقالة للأستاذ عبد الله حبيب فى صحيفة النواب بتاريخ ٩ يناير ١٩٢٧ .

فراجع لها الأغانى وهذّب بعض ألفاظ فيها . . .

كانت أم كلثوم التى شاهدها رامى سنة ١٩٢٤ لأول مرة فتاة ذات عقال تغنى وتبكى ، وكان شابًّا شاعراً دفاق المشاعر ، شجىّ الحس . . . وكطبع الحب دائمًا يبدأ بعطف من الرجل ، وينتهى بعطف من المرأة ، بدأ حب رامى لأم كلثوم . . . وبدأت أغانيه لها وللغناء المصرى الجديد فى الوقت نفسه :

تمرض الحبيبة فيقول الشاعر :

يا اللى جفاك المنام عليل أليف السهاد
النوم على حرام وانت طريح الوساد

وتسافر فيقول :

أيها الفلك على وشك الرحيل إن لى فى ركبك السارى خليل
رقرقت عيناى لما قال لى حان الوداع
وبكى قلبى مما ذاع فى الكون وشاع

ويشتاق فيرسل إليها عرض البحار :

اذكرينى كلما الفجر بدا ناشراً فى الأفق أعلام الضياء
يبعث الأطيار من أوكارها فتحييه بترديد الغناء
قد سهرت الليل وحدى بين آلامى وسهدى
وانجلى الصبح وهلا وانطوى الليل وولى

وتصله وتدعوه فيقول :

رق الحبيب وواعدنى يوم وكان له مدة غايب عنى
حرمت عينى الليل م النوم لا جل النهار ما يطمن

صعب على أنام أحسن أشوف فى المنام
غير اللى يتمناه قلبى

وتجدد العهد بادئة ، وتسخو فى البذل على غير انتظار فيقول :

جددت حبك ليه بعد الفؤاد ما ارتاح
حرام عليك خليه غافل عن اللى راح

ويسمع الكثيرون الأغانى معنى ولحناً وصوتاً فحسب ، ولكن العارفين يدركون ويبتسمون ، ثم يجمعون خيوط القصة الطريفة ويعرفون الجديد من أخبارها . . .

فتحت أم كلثوم عينها على حب شاعر ومعان جديدة لم يكن لها بها سابق عهد . . . كانت ذكية لم يغب عنها ما فى هذه المعانى ولا ما وراءها ، فلم تتردد فى هجر أغانيها الأولى التى كانت تحمل طابع العصر المغرم بالستائر والشاطر والقناطر ، وتلقفت الأغانى الرقيقة وراحت تترنم بها فى كل حفل . . . وتعلق الناس بالمغنية والشاعر .

إن من يقرأ شعره فيها يلمح أن أبرز المعانى وأكثرها وروداً معنى « الملهمة » الموحية فهى منه بمثابة النموذج من الرسام . . . نقرأ معاً من قصيدة « إلى سومة » :

صوتك هاج الشجو فى مسمعى وأرسل المكنون من أدمعى
سمعته فانساب فى خاطرى للشعر عينٌ ثرّةُ المنبع
سلوى من الدنيا تعزى بها قلب شديد الخفق فى أضلعى
كأنما لفظك فى شدوه منحدر من دمعى الطيّع
فيه صباباتى وفيه الضنى يشكو تباريح فؤادى معى
نظمت أشعارى وغنيتها منظومة الحبات من مدمعى
حسبى من الشعر ومن نظمه صوتك يسرى فى مدى مسمعى

غنّى وخلّى الدمعَ يرو الذى قــد جفّ من نفسى ولم ينبع (١)

ثم أحب الفنانُ الرسام، النموذج، وعشق الشاعرُ الحزينُ، الصوتَ المسعد، فهواه بعد أن استوحاه ومضى يهتف (٢) :

يا مــن شــدت بنسيب ناجيت فيــه حبيبى
ورددت مــن شكاتى ورجّعت مــن نحيبى
فجّــرت عينَ خيــالى من بعــد طول النضوب
أنمت حــزن فؤادى بصــوتك المحبــوب
وكنــت مــألف حسى وظل روحى الغــريب
شــاطرتنى ما ألاقى فى العيش من تعــذيب
وكنت فى البث عنى شــريكتى فى نصــيبى
فخف عــبء همومى وهــان حمل خطــوبى

ولما كان الفهم النفسى أسرع الطرق إلى الحب ، فلا غرو أن يقول الشاعر بعد هذا :

وآنس اليــوم قلبى نجيّــه فى القلوب (٣)

وهنا تبدأ القصة التى تسمر بها القاهرة والمدائن فى مطالع الشهور . . . لا . . . لست أنا التى أرويها لك . . . لقد تضمنها ديوانه . . . إن القصة ترويها قصيدته « يقظة القلب » (٤) :

أيقظت فىّ عواطفى وخيــالى وبعثت منى ميت الآمــال
واثرتِ نفسى بعد طول سكونها فى حين لم يخطر هواك ببــالى
وحسبتنى أصبحت جمراً هامداً وظننتنى أحيــا بقلب خال
فإذا بحبك .هاج ما عفّيته وأجدّ لى الوجد القديمَ البالى

(١) هذا البيت جاء على لسان ابن زيدون فى مسرحية رامى «غرام الشعراء» .

(٢) قصيدة « إليها » ص ٧٠ .

(٣) قصيدة « إليها » ص ٧٠ . (٤) ص ٧١ .

وغدوت أشقى ما أكون تنعماً بهواك لما دبّ فى أوصالى
أنسيتنى الماضى بما أودعته من حزن أيام وسهد ليال
ومحوت من فكرى الذى قاسيته فى هذه الدنيا من الأهوال
فرضيت ما قسم القضاء وما انطوت نفسى عليه من الأسى القتال
وغنيت عن نعمى الحياة وطيبها بشقاوتى فى الحب واسترسالى

والبيت الأخير الذى ميزت مقاطعه بخطوط يمثل بداية طور جديد فى حياته ، و بداية طور جديد فى فنه سنناقشه بعد قليل .

أما شقاوته فى هذا الحب فنها تمزقه « بين الشك واليقين » . . .

لقد بدأ يترنح فى دوامة تحكى عنها هذه الأبيات (١) :

قد أحاطت بك العيون فما أملك ألقى مكان عينى منك
وجرت حولك الأحاديث حتى كدت أنسى الذى أحدث عنك
وأطافت بك القلوب وقلبى ضاع فى غمرها ولما يضعْك
خبرينى أى القلوب تناجين فقد همت فى غيابة شك
أى نفس سبرت غور هواها وتحديت سرها بالمتك
فتغنيت كى تنيمى أساها نومة الطفل بعد طول التشكى
وتبادلتما الهوى بعيون تتلاقى بالغيب خوف التحكى
هى نفسى ؟ قولى أقرى شجاها وأبينى عن سر نفسك تلك

مرة أخرى تحس قلقاً فى موسيقاه ، وهو الذى يترقرق فى مواضع أخرى كماء الغدير . وسنلتقى بهذه الطبقة من الموسيقى فى الصفحة التالية من قصيدته « فى البعد والقرب »

أم نفوس حسبت فيها وفاءً وتوهمت حبها دون شرك

أو تحسبه قد استراح أو رقى إليه جواب ؟ لا . . . وإلا لما عاد ثانية

(١) قصيدة « بين الشك واليقين » ص ٧٢ .

يقول (١) :

أخاف عليك من نجوى العيون   وأخشى أنّة القلب الحزين
وأشفق أن تخادعك المعانى   بأعين ناظريك فتخدعينى
وأعلم ميل نفسك أن تكونى   هوى الدنيا ومنبعث الحنين (٢)
فأخشى قولة العذال مالت   لغيرك وانمحى كذب الظنون
وما أوليك من دمعى وسهدى   وأرسل فى غرامك من أنينى
أقدمه وبى خجل عسانى   أُظن ضننت بالشيء الثمين
وهل عزّتِ على نفسى حياة   أقدمها على قصر السنين

لقد لج به الهوى الآن فلم يعد العذاب يثنيه :

وقفت على هواك مطار فكرى   ومسرى خاطرى وهوى فنونى
ووحدتُ المعانى فيك حتى   رأيت الكونَ خِلواً من شجونى
فهل يرضيك ما ألقى فأرضى   نصيبى فيك من ذلّ وهون ؟
وأطلب فى الشقاء عزاءَ نفسى   بما قدمت من عطف ولين (٣)
أم الظن المريب أضلّ رشدى   وأرسل ليله يغشى يقينى
وأنت كما عهدتك فى غرامى   نجيّة قلبى الراعى الأمين

وصاحبة الصوت صاحبة دلال يتجنى ، فهى تتحكم وتستبد ،

(١) قصيدة « كذب الظنون » ص ٧٣ .
(٢) يقول رامى فى « غرام الشعراء » على لسان ابن زيدون لولادة :

تعالى نفن نفسينا غراما   ونخلد بين آلهة الفنون
أرتل فيك أشعارى وأصغى   إلى ترجيعك العذب الحنون
وأنظم فيك من حبات قلبى   معانى الوجد والحب الحزين
وأعلم ميل نفسك أن تكونى   هوى الدنيا ومنبعث الحنين
وهل تجدين صباً مستهاما   يحبك للهوى والشعر دونى ؟

(٣) ص ٧٣ .

وكأنها هند تستجيب لابن أبي ربيعة[1] ، وإلا فبماذا تفسر أبيات الشاعر هذه ؟ :

لو كنت نائية المزار بعيدة   عني لعشت على مُنى ورجاء
وحملت برحَ البعد حتى تنقضي   أيامه وأراك بعد تناء
فأنال من لقياك ما أحيا به   ويكون فيه عن الحياة غنائي
لكنني اعتدت اللقاءَ فأصبحت   أيامه موصولة ببقائي
فإذا التمستك ثم لم أظفر بما   أملت من قرب وطيب لقاء
أحسست فقدان المنى وحرمت في   عيشي سبيل تعللي وعزائي
وخطوت أيام الفراق لأنني   ما عشتها فأعد في الأحياء[2]

وهي تحاوره حوار من يستدرج عن قصد ، ويتخابث عن دلال ، لأنه يعلم ويوقن أنه محبوب معشوق :

شكت سهراً وفي عيني   دليل السهد والسهر
فقالت لم أنم ليلا   قطعت مداه بالسمر
وقلت سهدته حتى   نشقت نسيمة السحر
وحيداً بين سُمّار   من الآمال والذكر
قضيت الليل محروماً   متاع السمع والبصر[3]

هذا بعينه ما تود أن تسمعه وتبحث عنه . . .

وأنت قضيته مرحاً   وما تدرين ما خبري

هي تعلم هذا ، ولكنها تستمرئُ عذابه طبيعة المعشوق . . .

سهدتُ وكنت ساهرة   وليس السهدُ كالسهرِ

---

(١) الإشارة هنا إلى بيتي عمر بن أبي ربيعة .
ليت هنداً أنجزتنا ماتعد   وشفت أنفسنا مما تجد
واستبدت مرة واحدة   إنما العاجز من لايستبد
(٢) قصيدة « في البعد والقرب » ص ٧٥ .
(٣) قصيدة « بين السهد والسهر » ص ٧٦ .

ويل للشجيّ من الخليّ ! . . .

ولكن حب شاعرنا ليس من ذلك اللون الذى يولده نجل العيون و رشاقة القوام أو النظرة والابتسام ... إلخ قائمة المشهيات . . .

كلا . . . فمثل هذا حب دارج يتكرر فى كل يوم وليلة ، فى كل صقع وجبل ، لأنه وسيلة الحياة إلى الاستمرار . . . ولكن حب شاعرنا حب فنان . . . حب وراءه غاية أبعد من رغبات الحس أو شهوات الجسم ، إن همّ رامى كله أن يكون شاعراً موصول النغم . . . فهو يبحث بمصباح ديوجين عن موطن وحى ومبعث إلهام . . . وبالطبع ليس كالحب حافز للشاعرية ، وليس كالحب مرسل للشعر . . . إنه بنعيمه وشقائه « عين للشعر ثرة المنبع » ، كما يقول رامى . . . فما بالك إذا كان المحبوب صاحب فن ، والمحب شاعراً فناناً .. هنا تتراقص عرائس الشعر على عزف المزاهر وحنين العود . . . ويبدو أن الموسيقى أقرب الفنون إلى الأدب . . . لأن رامى من ديوانه، يعشق الصوت الجميل أيّاً كان صاحبه . . . من النساء أو الرجال . . .

أشاد بمطربنا عبد الوهاب فى أبيات لو أنها قيلت فى امرأة مغنية لقطعت بأنها غزل صريح ! ! فمن شعره فيه [1] :

هذه روحى أنا تصغى إليك ... وفؤادى خافق بين يديك
فاستمع تطريب نفسى واتخذ ... خفق قلبى ريشة فى أصبعيك
ثم رجع من أناشيد الأسى ... واشج من قبل سماعى مسمعيك
وأطل إن غناء ساريا ... بجناحى طرب من شفتيك
يحمل النفس إلى دنيا المنى ... حيث يسرى بك ساجى ناظريك

وصالح عبد الحى عنده :

صادح يبعث الشجون إلى القلب ... ويدعو الأرواح أن تستهاما
أرسلته الأيام طيراً شجيّاً ... يكسب الزهر نضرة وابتساما

(١) قصيدة « إلى محمد عبد الوهاب » ص ٧٥ .

شب فى بهجة الزمان وناجى ... بسمات الربيع عاماً فعاما
كلما شاقه الجمال تغنّى ... فسمعنا غنــاءه إلهامــا
وهو يسقى الأسماع سحراً حلالا ... يجعل النوم فى العيون حراما
مطرب الحى عاش للحى صوت ... قد حلا رقة وطاب انسجاما
فيه ذكرى الهوى وعهد التصابى ... وزمان ضم المنى والغــراما(١)

وهل زاد رامى عن هذا فى وصف صوت أم كلثوم . . . وليس هذا فحسب ، بل إن رثاءه لسيد درويش وأبى العلا محمد ومحمود صبح ، ووقوفه بالوصف المبدع عند ألحانهم وأصواتهم وأدائهم ، وأساه عليهم ، لينم عن هيام خاص بالصوت الجميل أيًّا كان صاحبه . . . وقد عاش رامى شبابه فى رفقة من طرازه يخفون إلى صاحب الصوت فى أى وقت ، ويسعون إليه فى أى مكان ، تتحلق منهم حوله الندوة ، وتتألف منهم لرامى السمار والندامى مما مد له فى بساط المتاع ، وأغراه بالسهر والاستماع . . . وهكذا عاش شبابه بل عمره كله . . . رجل فن ، وأنيس سمر ، وسمير حفل ، وعاشق صوت ، وصائغ شعر . . . وأنت لا تكاد تذكر له طرفاً من حديث هؤلاء حتى يتمم قائلا :

يوم كنا نهيم فى جنة الدنيا ... ونقضى شبابنــا أحلامــا
لا نرى العيش غير كاس وزهر ... حسنا منظراً وطابا شمــاما
فشربنا على سماع الأغانى ... سلســلا تترك الهموم يتامى
وسمونا على جناح الأمانى ... فاتخــذنا بين النجوم مقاما(٢)

إذن الصوت هو السبب أو البداية فى أم كلثوم . . . على أنه ليس وحده . . . يضاف إلى هذا رغبته الملحة الطاغية فى قول الشعر بل الفيض به ، والانتساب إليه ، والتفوق فيه . . .

أحبك كالطير الذى يستخفه ... إلى النوح والترجيع برد ظلال

---

(١) ، (٢) قصيدة « صالح عبد الحى » ص ١٠٧ — ١٠٨ .

أحبـــك كالآمال لاح بريقها فضاءت بها نفسى وأشرق بالى
أحبك كالبدر الذى فاض نوره على فيح جنات وخضر تلال
أحبك كالنسمات هبت عليلة فأدت إلى قلبي رسائل حالى[1]

إنه حب عارم ! . . . نعم ولكننا نبتسم حين يفضى إلينا بالسر :

أحبك لا ، بل أعبد الشعر والهوى جمعتهما معنى يشوق خيالى
ويعلى على فكرى الذى لا أقولـــه وقلبي من الوجد المبرّح خالى

منطق . . . ولكن المتنبى قال شعره ولم يحب حباً رومانطيقياً حتى غدا غزله أقل فنونه لجفاف عاطفته فى هذه الناحية[2] .

وأحسب أن « رامى » حين تعلق الصوت والشادى لم يرسم خطة ولم يخطر بباله هذا السبب الذى يقول به فيما بعد ، مدفوعاً بكرامة الحي أو عزة الفنان أو غضب عارض . . . إن الحب يولد كالشرارة ولا يوضع كالخطة ! .

هنا مزيد من تعليل :

هويتك لم أطلب مساجلة الهوى فأسمى الهوى ما كان غير سجال
صليني وإلا فاهجريني فإننى أحبك فى هجر وطيب وصـــال
جعلتك همى فى الحياة وشاغلى ويا شد ما ألقى ولست أبالى
إذا كان فى حبى سبيل إلى العلا إذن هان فيه من دموعى غـــال
وما ذروة المجد التى امتد دربها على حرّة حزْن ووعر جبال
سوى روضة الأشعار وشّع ظلها أفانين أفكارى وزهر خيـــالى
وأنت بذاك الروض بلبله الذى يرجع فى مغناه عذب مقالى
بعثت فنون الشعر فىّ فصغتها وغنيتها لحن الهوى فحلا لى[3]

---

(١) قصيدة « غرام الشاعر » ص ٧٧ .

(٢) إلا إذا كان الشاعر يقصد بالشعر ، الشعر الغزلى الدافىء فهذا لا ينبعث إلا من عاطفة مشبوبة .

(٣) قصيدة (غرام الشعراء) ص ٧٧ .

لم يبق موضع للشك الآن . . . أليس كذلك ؟

وهو لا يكتم عنها هذا المعنى ، بل يجهر أمامها به حتى حين المناجاة . . . فبينما هو يناشدها مُدلِّلاً :

تعالى نفن نفسينـــا غرامـــا ونخلد بين آلهـــة الفنـــون
أرتل فيك أشعارى وأصــغى إلى ترجيعك العذب الحنون
وأنظم فيك من حبات قلبى معانى الوجد والحب الحزين
حرمتُك هيكلا ونعمت وحدى بروحك أستبيه ويســتبينى
بعادك شـــاغلى عن كل فكر وقربك مُركبى بحر الظنون
وهجرك فيه تشويف الأمـــانى ووصالك باعث نور اليقين (١)

بينما يسترضيها بهذه الرقة إذا به يصارحها قائلا :

جلوت لناظرى روض المعـــانى فغرّد خاطرى بين الغصـــون
وردّد من غنائى فيك حتى سرت فى الجو رائحة الحنين
وهل أستاف أنفاس المغانى ولم أسمع بمسراهـــا أنينى
وهل تجدين صباً مستهـــاماً بحبك للهوى والشعر دونى
ويبعث فيك روح المجد طالت مناراته على شط السنين (٢)

روح المجد . . . دائماً المجد . . . المجد . . . هو الذى يستحثه ويعنيه . . .

لا ، بل إنه يذهب فى سبيل هدفه واقتناص شوارد المعانى لشعره إلى حد لا يرى معه بأساً أن يهواها بعض أصحابه !! ليتخذ من الغيرة والغضب والعتاب وسائر المشاعر التى تنجم عن مثل هذا الموقف وقوداً للنار المقدسة التى ينضج عليها شعره .. . ماذا تريد بعد هذا ؟ ماذا تريد أبعد من قوله :

إنى خلعت عليك ظل شبابى فإذا هواك منًى ولمع سراب

---

(١) و (٢) قصيدة « تعالى » ص ٧٨ . وقد سبقت الإشارة إلى ورود هذه الأبيات فى مسرحية « غرام الشعراء » .

أستمرئ الأحزان فيك وأستقى   من دمعى الهامى كئوس شرابى
هيمان أطلب من يهدئ سورتى   وأريغ من يهواك من أصحابى
فنظل نستبق الحديث عن الهوى   من غيرة وتغضب وعتاب[1]

لرامى فى الحب حالات قد يبدو بعضها غريباً ، فهو يتسمح إلى حد ينفض معه الغيرة وقليلها من لوازم الحب يؤكد معناه وينعش روحه . . . ولكنك تعجب حين تسمع « رامى » يناجى حبيبه :

كيف لا تنعم العيون بمرآك   وتشجى بصوتك الأذنان
أنت ضنّى ولا أضن على الناس   بمرأى جمالك الفتان
كل من يفهم الجمال حرىّ   بمتاع العيون والوجدان
وحرام علىّ أنى أذود الطير   أن تستظل بالأفنان[2]

وهو يلمح دهشتك ولا تخفى عليه فيبتسم قائلا :

غيرة النفس أصلها الخوف من ميل   حبيب إلى محب ثان
فإذا ما أيقنت إخلاص من   تهوى قطعت الشكوك بالإيمان

ثم يلتفت على عادة الشعراء ويقول :

فتركت الأنام فى طرب الإعجاب   بالذوق فيكما والمعانى
لك فخر أن حبها لك دون الناس   مهما حالت وجوه الزمان
وثناء الدنيا عليك لما اخترت   هوى دون فاتنات الحسان

على أى حال ينم الشعر عن أن ليلاه صاحبة صوت « تشجى با الأذنان » . . . وهو يعرف أن حجبها عن العيون محاولة غير ناجحة ، إذ كل ميسر لما خلق له . . . إذن يستعلى على الغيرة ! . . . ولما كان يحس فى قرارة نفسه قسوة موقفه فقد راح يدحض عن كرامته الحرج ، ويسوّغ موقفه بدعوى اليقين من إخلاص الحبيب والإيمان به . . .

---

(١) قصيدة « دمعة مكتومة » ص ٨٢ .
(٢) قصيدة « الغيرة » ص ٥٦ .

ماذا أقول ؟ قد يرزق المرء الحكمة برغم أنفه .. ولكن هذا ليس من طبائع النفوس ؛ ولا أدل على هذا من أنه عاد فوخزته الغيرة وخزة أطلقت هذه الآهة :

ساورتني الظنون فيها ولكني غالبت سوء ظني حينا
ثم ساءلتها أتحمل عني بعض ما ذقت في هواها فنونا
فثنت طرفها وقالت أما تبرح يا ظالمي تسيء الظنونا
كلنا سيئ الظنون وما أحسب إلا أن الأمانة فينا
إنما يغتلي ارتياب الذي يهوى إذا كان بالحبيب ضنينا
والذي خاف ضيعة الحب لا أحسبه في هواه إلا أمينا(١)

ورامي المحب لا بأس عنده من البعاد القصير المدى يجدد الحب ، ويوقظ رواقده :

غبت عني من قبل هذا ولكن كان لي رقبة اللقاء الداني
أتعزى بما تمنين من وعد وما أستطيب من نشدان
وأريغ القصد النبيل بما يبعثه الحب من بعيد الأماني
فإذا ما لقيت وجهك جددت طماحي إلى العلا واستناني
وتزودت ما أطيق به الصبر على ما حملت من أحزاني
هذه نعمة البعاد إذا خالطه القرب بين آن وآن
فإذا طال طال بي اليأس واليأس سبيل تفضي إلى النسيان(٢)

ولكنه وفيّ لا يتطرق إلى قلبه سلوان ، رقيق لا يقوى على نسيان :

وعزيز عليّ أني أنساك وأنسى الذي مضى من زماني
إنه صفوة الحياة وهل أقرب منها هوى إلى الإنسان
نرتضيها رنقًا فكيف تناسى الذي فات من زمان هان

---

(١) قصيدة « ظن المحبين » ص ٥٧ .
(٢) قصيدة « حيرة النسيان » ص ٥٨ .

صورته يد الخيال على الخاطر نقشاً منضر الألوان
وقعته أوتار قلبي بالشعر نشيداً مرجع الألحان
هاتفاً فى فضاء صدرى طوراً بالمراثى وتارة بالأغانى
ولهذه وتلك عندى شجو فى مدى مسمعى ولبّ جنانى

فإذا دب الملل بينه وبين الحبيب فلا يسلم به ، ولو من ناحيته على الأقل ، إذ يشي وصفه بحسرته ويؤكد حبه الصادق :

دبّ ما بيننا الملال وما أذهب هذا الملال بالأشواق
أصبح القرب والبعادُ سواء بعد أن كنت لا تطيق فراق
ثم جازيتنى على صدق حبى بقليل من الوداد الباقى
وقصارى الغرام فى قلب من تهواه أن ينتهى إلى الإشفاق

وهذا المعنى الأخير يروعه ويهوله حتى ليصرح بخوفه منه (١) .

وهو يتعزى بالوفاء عن كل شيء . . . عن اللقا والتدانى :

خبرينى على العهود تقيمين فأغنى عن اللقا والتدانى
وأرانا وقد تراسل روحانا بنجوى همس من الكتمان

وتعتريه أحياناً حيرة فيزفر :

آه لوأكشف المُخبّأ من أمرى وأدرى الخلاص مما أعانى
إننى إن قدرت عشت قرير النفس عمرى بنعمة الإيقان
فتناسيت إن نسيت وما كنت بقاس فى الحب أو خوّان
أو ظللت الأمين رغم تجافيك وكنت الوفىّ فى الهجران
غير أنى فى حيرة والذى يبقى لك الحب حيرة النسيان (٢)

ولشاعرنا حين ينسى ، أو يريد أن ينسى ، أو يزعم أنه سينسى ،

---

(١) أعنى أغنية رامى الشهيرة .
خايف يكون حبك فى شفقه علىّ
وانت اللى فى الدنيا لى ضى عنيه
(٢) ، (٣) قصيدة (حيرة النسيان) ص ٥٨

صورة طريفة تروقك، لأنها تضحكك وتبكيك معًا . . . يُضحك منها التحدى الذى يتطاول وهو لا يملك من أمر نفسه شيئًا ، وكيف وهو مسلوب القلب والإرادة ؟ ويضحكك منها المكابرة التى ترتدّ لساعتها مغلوبة وهى تحسب أنها قطعت فى النسيان شوطًا إلى الإمام. ويبكيك فى الصورة الطريفة مريض الهوى الذى يخال النسيان دواء فإذا به أنكى عليه من الداء « حتى غدا من فرط ذكراه همومه » . يبكيك العاشق الذى يريد أن يسلو فيهفو ، أو يقسو فيحنو ، ويكون قصاراه من مشروع النسيان أن يهدر ألفاظه فى صيغ شتى من مثل : أسلو فأنسى — التناسى — ناسيًا ونسيت — النسيان ؛ ليؤكد معنى النسيان فى نفسه ، ثم انتهى به المطاف إلى « الحنين للحب المقيم » ! :

هجرتك علّنى أسلو فأنسى ... وأطوى صفحة العهد القديم
وغالبت التناسى فيك حتى ... غدا من فرط ذكراه همومى
ذكرتك ناسيًا ونسيت أنى ... أريد البرء للقلب الكليم
وكنت أحاول النسيان جهدى ... فصرت أحن للحب المقيم(١)

ذكرتك ناسيًا ! . . . يريد أن ينسى فيتذكر ، ما أشبه قوله بالتدليل منه بالهجران . وغير ملوم فهو مسلوب الإرادة كما قلت . . . وما يفعل الهزار السجين ؟ لا حيلة له ولا مناص :

روحى جنيت عليها ... لكن بغير اختيارى
لو كنت أعلم أنى ... أشقى بهذا الإسار
إذن لأطلقت قلبى ... فطار كل مطار
وهام فى كل روض ... حال من الأزهار
وعبّ فى كل جار ... عذبٍ من الأنهار(٢)

---

(١) قصيدة « ذكرى النسيان » ص ١٧ .
(٢) قصيدة « الهزار السجين » ص ١٨ .



ولكن أنّى له هذا ؟ وهل يُرَجّى السلو مَن يقول :

مالى إذا غاب عن عيونى بكت على بعـده عيونى
وإن أردتُ البعـاد عنه أصبحت أدنى إلى الجنون
أقول من يا ترى روىّ يشرب حسن الحبيب دونى
وأى أذن إليـه تصغى تلقط من دره الثمين (١)

عجباً ! إن الشاعر الذى يقول : « عزة جمالك فين من غير ذليل يهواك » . . . يرعد ويبرق . . . وإن ثورته عاصفة . . .

من أنت حتى تستبيحى عزتى فأهين فيك كرامتى ودموعى
وأبيت حرّان الجوانح صادياً أصْلَى بنار الوجد بين ضلوعى
أعمى عن الحسن الذى هامت به نفسى وطال إلى سناه نزوعى (٢)

ترى أى حسن ؟

وأصم عن نغم عشقت سماعَه أيام كان القلب غير سميع

وهو فى ثورة الغضب يقول إنه أضفى عليها من شعره ، ورطب لسانها ببدائع الكلم ، وروائع المعنى ، وبوانع اللفظ ، ومنضد القصيد . . . مما حفز الملحن إلى الارتفاع وأغراه بالإبداع ليتساوق اللحن مع اللفظ التياه ، ويتواءم النغم مع توشيع الشعر وفن الشاعر . . .

إنى كسوتك من خيالى حلّة وشّعت صفحتها بزهرر بديع
ونشرت من روحى عليك غلالة كالليل آذن فجـره بطلوع
نديت جوانبـه ورقّ نسيمه وأرنّ فيه الطير بالترجيـع
وأجلت فيك طبائعى فشربتها ووردت منهل شـعرى المطبوع
وسمعت همسَ خواطرى فحكيته لحناً يشوق النفس بالتوقيع
ووصلت من عيشى بعيشك حقبةً شاركتنى فى ذكرها المرفوع

---

(١) قصيدة « الذكرى » ص ٢٨ .
(٢) قصيدة (ثورة نفس) ص ٧٩ .

« شاركتني » هنا توحي أنه الأصل [١] .

يا زهرة أنضرتهـــا ورعيتها وسقيت تربتها زكيّ نجيعي

ليست هذه مناجاة . . . إنها أنة جديدة . . . إن الشاعر يتحسر . . .

أو تحسبه بعد هذا كله قد سلا ؟ . . . كلا و إن كان يزعم أنه يحب الحب ذاته أكثر من شخص الحبيب ! .

أهواك ما دام الخيال يمدنى من وحى حبينا بكل بديع
وأطيلُ أرضَك ذوبَ قلبي راضياً ما دمت فى ظل الهوى ينبوعى

الإلهام ... مادة للشعر . . . رفد من الوحى . . . هذه هى المسألة .

فإذا ذَوَيْتُ مع الزمان وأقفرت نفسى وأقوت من شذاك ربوعى
هاجرت أطلب فى الرياض خميلة تندى علىّ بيانعات فروع
فتفيأت نفسى رطيب ظلالها ونسيتُ سالف ذلّى وخضوعى

أرأيت ؟ . . . إنه لا يبالى ، أو هكذا يزعم . . . إنه يلتمس الحب ابتغاء صوغ الشعر وتلوينه بألوان القلب الغنىّ بالألوان . . .

إن الشاعر حائر ، وإننا أيضًا حائرون من أمره ومعه ، تارة يتسمح ، وآونة يسلم بموقف صاحبه ، وآنًا يغضب . . . إنه « غرام الشعراء » .

لقد سلسل رامى قصته مرة أخرى فى مسرحية جعل بطلها هذه المرة الشاعر ابن زيدون ، والبطلة « ولادة » — بنت المستكفى بالله — التى لم يجر على لسانها روائع الأدب كما هو مشهور عنها ؛ بل أجرى رامى على لسانها الغناء ! ! وجعل ابن زيدون يسمعها تغنى فيتعلق قلبه بها . . . القصة نفسها .

---

(١) ولكن الشاعر اليوم فى مجالسه ينسب إليها ذيوع شعره فالذين يطالعون الدواوين المطبوعة آلاف ولكن الذين يرددون وراءها الأغانى ويسمعونها ملايين . . .

لقد كانت (ثورة نفس) . .

ويتساءل كثيرون : لماذا لم يكتب للمسرح الغنائى غيرا مسرحية «غرام الشعراء» ؟ وأقول إنه لم يكتب للمسرح ، ولكنه فى الحقيقة كتب لنفسه . . . كتب قصته هو من امتلائه بها . . .

ويؤكد هذا طبيعة الحب فى المسرحية وأسبابه وملابساته .

ويؤكده ورود كثير من أبياتها فى شعره لأم كلثوم .

حتى أوبريت «عايدة» التى اقتبسها من «فردى» كتبها من أجل أم كلثوم فى مرحلة تحمسها للسينما بعد أن كتب لها «وداد» ، و «دنانير» .

وبعد ؛ فأين الحقيقة فى هذا كله ؟ ولعل الشاعر صادف مثل هذا السؤال كثيراً فى طريقه ؛ فهو يقول :

أرادونى على أنى أبــوح ... وهل يتكلم القلب الجــريح
وماذا يبتغون وفى فؤادى ... جوى أفضى به الدمع الفصيح
نعم أهوى ولا أخفى غــرامى ... ومن شرف الهوى أنى صريح
وأما إنْ سُئلتُ هل اصطفتنى ... سكتّ فما استرحت وما أريح
ومن لى أن أقولَ تعلقتنى ... وقلب الغانيات مدى فسيح
تلاقينى فتخلص بى نجيّاً ... وألمس حبّهــا فيما يلوح
وتزدحم القلوبُ على هواهــا ... فتنكرنى ولى كبــدٌ قريح[(١)]

أرأيت كيف تداوره ، وتطوح به شدّاً وجذباً ، جزراً ومدّاً ؟ . كان الله للمحبين ! .

وهو يفهم صاحبته جيداً ، ويعرف أنها بطبيعة الأنثى المركبة فيها تهفو إلى الحب وتتمنى الحبيب ، ولكنها فى بلبال ، كيف تختاروه تستوثق ؟ ويزيد فى حيرتها ازدحام القلوب عليها ازدحاماً تضلّ فيه الحقائق ويسهل خداع الزيوف . . . كل هذا يمضى خفيفاً مسرعاً برغم

---

(١) قصيدة «بين الصراحة والكتمان» ص ٨١ .

ما يختلس من ريّق الشباب ونضارة الصبا . ويحسّ رامى ويدرك ويقول بالزجل والشعر :

فضــلت أعيش بقلوب الناس   وكل عاشق قلبي معــاه
شربوا الهوى وفاتوا لى الكاس   من غير نديم أشــرب وياه

* * *

أفنيت عمرك فى طلاب حبيب   ومضى الصبا وهواك غير قريب
حاولته فى كل نفس شاقهــا   من فيك لحن العشق والتشبيب
فهفت كما تهفو الحمائم شفّها   طول المطار إلى ظلال رطيب
حتّى إذا خفت إليك وحومت   وجدت ربيع القلب غير خصيب (١)

ويعود فيسائلها تحت ستار « هوى الغانيات » :

كيف مرت على هواك القلوب   فتحيرت من يكون الحبيب
كلما شــاق ناظريك جمال   أو هفــا فى سماك روح غريب
سكنت نفسك الحزينةُ وارتاحت   وميلُ النفوس حيث تطيب (٢)

وهى على هذا تضنّ وتسخو . . . أو هذا ما نفهمه من قول رامى :

ويخادع العشاق أنفسهم بمــا   قد أملوا من وعدك المكذوب
وزعت قلبك بينهم حتّى غدت   نفسى تســائل أين منه نصيبى
ثم انثنيت تجمعين شــتاته   هيهات من قوم بغير قلوب

خطوط كبيرة من تاريخ حياة . . .

ولقد أهنت مدامعى فسفحتهــا   وأطلت فيك تغزّلى ونسيبى
وتخذت منك لخاطرى أنشودةً   وقعتهــا بتنهــدى ونحيبى

(١) قصيدة « القلب الضائع » ص ٨٥ .
(٢) قصيدة « هوى الغانيات » ص ٨٦ .

فإذا بسمعك صمٌّ عن لحن الهوى ... وإذا بقلبكِ لا يحس وجيبى[١]

إنه لوم المحب وقسوة الحنان المهدور . . . ثم يصف الشاعر حالة كئيبها فأحسها ولمسها :

وإذا بقلبي بعد أن حمل الضنى ... لم تبق منه مضاضة التجريب

لقد انتهى به المطاف إلى اليأس ، وهو إحدى الراحتين . . . وأنا أعرف عن يقين أن « رامى » شاعر الشباب يسمعها فى شيخوخته ويطرب لصوتها وينتشى ، من إعجاب . . . أما الرفرفة وأما الغيرة وأما الغضب والثورة وسواها من تهاويل الشباب فقد استحالت إلى ذكرى هادئة اللون قد تخايله على إثر سؤال فتسوقه إلى الحديث ، وقد يبعث مراثيها فى النفس تودد عارض أو ندم أسوان ... وهو ، كما حدثتك عنه وحدثك شعره ، ولوع باقتناص مادة جديدة لشعره ، وهو فوق هذا كله إنسان عاطفى فيه حنّة وحنين ، ومن ثم لا يدع التودد أو الندم أو غيرهما يمران بدون أن يستلهمهما ويستلهم الماضى معهما . . . وقد يلهمه هذا كله فى حرارة ووقدة حس تسفر عن مثل قطعته « جددت حبك ليه » المتوهجة . . . ولكن ثق أن هذا كله إلهام ساعته ، ووحى لحظته . . . ثم يقف عند عتبة الشعر ولا يتخطاها . . . الزمن وحده هو الذى يخطو . . . ويسير . . . ويجرى ، ولكن أم كلثوم تظل على الأيام ، فى تاريخ الغناء ، كما هى فى شعر رامى :

فهى قمرية تغنت على الفرع ... ولمّا تهمّ بالطيران
قد براها الخلاق من خفة الظل ... ومن رقة النسيم الوانى
وتراً مطرب الحنين أغنا ... ولهاة كالخالص الرنان
ترسل الشعر منطقاً عربياً ... بيّن الآى واضح التبيان

---

(١) قصيدة « القلب الضائع » ص ٨٥ .

تتناغى الألفاظ فيه من النطق ... سليماً وتستبين المعانى
فإذا صورة تجلت إلى العين ... وغابت فى مستقر الجنان[١]

وبمثل هذا يصف كل منصف صوت أم كلثوم وأداءها بدون أن يلحق الوصف مبالغة أو إغراق . . . ويصفها رامى عند الغناء ، فيقول :

وقفت ترسل الغناء فأنَّت ... بلسانى ونوَّحت فى غناها
وشجاها ما رجعت من نسيبى ... وشجانى من صوتها ما شجاها
فاحتواها الشجا وراحت تغنى ... « يا هناه » فى هجرها ورضاها
يا هنائى شقيت بالهجر حتى ... وصلتنى وزال عنى جفاها
يا شقائى نعمتُ بالقربِ حتى ... حرمتنى الأيام طيبَ لقاها[٢]

طريف من الشاعر الالتفات فى البيت الرابع ودلالته على أنه إنما يغنى لنفسه دائماً فى شعر غنائها ، فهو إما يصفها أو يصف حاله ، والوصف فى الحالين متصل به . . .

وجميل من الشاعر المقابلة الرقيقة فى البيتين الأخيرين بين الهناء والشقاء ، والشقاء والنعيم . . . ومما يزيد فى نعومة هذه المقابلة وشجاها وقوعها بعد « يا هناه فى هجرها ورضاها » . . .

ولكن يبدو أن الطائر لا يقوى على التحليق دوامًا ، فإن اللفتات التى أشرت إليها لا تحجب عنا التهافت النفسى فى مثل قوله :

وما أوليك من دمعى وسهدى ... وأرسل فى غرامك من أنينى
أقدمه وبى خجل عسانى ... أظن ضننت بالشيء الثمين

هل الدمع والسهد والأنين شرط لازم فى الحب ؟ وبخاصة من شاعر ينشد « الإلهام » وحده من وراء هواه أو هكذا يقول ! . . .

---

(١) قصيدة « إلى أم كلثوم » ص ٩٣ .
(٢) قصيدة « إليها » ص ٩٥ .

وفيمَ الخجل بعد هذا كله ؟ وما الشيء الثمين إذا كان الدمع والسهد والأنين رخيصاً فى نظر الرجل ؟ وما كنه النفاسة فى رأى الرجولة المعتدة ؟ هل هان الرجل فى الشاعر ؟ وفيم التساؤل وهو نفسه يعترف بهذا المعنى :

فهل يرضيك ما ألقى فأرضى نصيبى فيك من ذل وهون
وأطلب فى الشقاء عزاء نفسى بما قسمت من عطف ولين

وليمَ الذل والهوان والليونة ؟ . . . لا أحسب أن هذا يرضى المرأة مهما لاقى الرجل من هذه الأحاسيس الناعمة المسرفة فى النعومة . . . إن المرأة خاصة إذا نشأت فى الريف تنشد الرجولة القوية المستبدة ، على تلك المتخاذلة المستضعفة إذا أعوز الأمر . إن القوة معبودة كالبطولة عند الناس وبخاصة المرأة القوية الشخصية .

ولست أدرى لماذا يحضرنى هنا خاطر . . . انصراف أم كلثوم عن الرجل فى الشاعر حين فرضت عليها مهنتها وذكاؤها معاً أن تشحذ شاعريته . . .

وبعد . . . ترى هل انتهت القصة ؟ وكيف يترك الناس قصة حب بدون أن يبدوا رأيهم فيها ويطوف فضولهم بها ؟ فهم مثلا يتساءلون من منهما رفع الآخر ؟

عندى أنهما متقاربان ؛ الشاعر سما بفنها على جناحى خياله ومعانيه ، رقرق لها اللفظ ووشّى لها القصيد . . . هو الذى هذب وصقل الأغانى . ولكنها أيضاً كانت وسيلته إلى الشهرة العريضة لا سيما بعد أن أصبحت سيدة الغناء ، وزينة المحافل . . .

حقاً عرفه الناس قبلها شاعراً طلع عليهم بدواوين ثلاثة من شعره . . . ولكن شهرته استفاضت بلا مراء منذ أخذ يؤلف الأغانى لها . . . حتى ليعزو ناقد إلى هذا التطور فى حياته ، صفاء شعره الحديث . بل إن

الدور المميز الذى أخذه فى الأغنية المصرية ودخل به تاريخها أكبر فى رأيى من دوره شاعراً ! . فيرى الأستاذ دريني خشبة أن شعره الأخير « أجدّ ديباجة وأرقّ نسجاً ، وأحفل بالموسيقا الداخلية من جميع شعره القديم الذى شملته دواوينه الثلاثة ، ونحن نعنى بالموسيقا الداخلية ذلك التوافق الصوتى الجميل الخلاب ، الذى يتاوج مع انفعالات الشاعر ، والذى اكتسبه رامى بلا شك من طول اختلاطه بالموسيقيين والملحنين والمطربين »[1] .

ويقول آخر : « إن رامى له فضل على " أم كلثوم " فقد نفخ فى صوتها من روحه وحلاوة شعره ما جعلها فى مقدمة اللواتى تزعمن الغناء فى أنحاء الشرق العربى كافة » .

ويقول ثالث : « ومما يؤخذ على شاعرنا رامى أنه قتل نفسه فى سبيل المرأة ؛ فهو شديد الحب لها ، ولذلك فهو كثير الشك والقلق ، وكان خيراً له وللشعر وللأدب أن يفارق وجه هذه المرأة وينطلق إلى غيرها فالحياة " سينما " فيها كثير من المواد التى تلهب خيال الأديب وتوسع أفق تصوره .[2] »

(١) السيد محمد أمين حسونة من مقال « أعلام المدرسة الحديثة » فى مجلة الحديث التى تصدر فى حلب ويقول الأستاذ يونس القاضى معاصر ظهور أم كلثوم : من قصائد رامى التى ملأت الصحف والمجلات عرف الناس أم كلثوم .. ومن طقطوقة رامى وأدواره التى كان ينظمها لها خصيصا اشتهرت أم كلثوم .

ومن تلحين الدكتور صبرى لكل هذه الأدوار والطقاطيق وغيرها صعدت أم كلثوم سلم الشهرة الواسعة والمكانة التى لاتدانيها فيها مغنية الآن .

من اليمين تتوكأ على شاعر مشهور ، ومن اليسار تستند على ملحن معروف . وفى هذا ومن هذا طارت أم كلثوم وحلقت فى سماء المجد الفنى بجناحين قويين من رامى وصبرى .

(العدد ٢٦ من المسرح الصادر فى ١٩٢٦/٥/١٧ ص ١٥)

(٢) عدد فلسطين الصادر فى ٢٣ أيلول سنة ١٩٣٤ .

وفى رأيى أن الشاعر عينه مفتوحة على الكون يتأمله ويستوحيه حتى ليخيل إليه أن كل شيء فيه يحدثه حديثاً أو يهمس فى أذنه سراً من أسراره ومعنى من معانيه . . . فهو يستلهم مجلى من مجالى الطبيعة أو يستشعر خلجة من خلجات النفس ، أو يستقرئ منظراً فى فيلم ، أو يسمع مغنياً فى شارع ، أو قصة من صديق لها من ذكرياته نظائر فتحرك شجنه .

قالت له زوجته[1] ذات مساء وهى ترنو إلى ابنهما محمد « النوم يلعب فى عينه » فبرقت فى ذهنه لساعته مطلع أغنية « النوم » وهو « النوم يداعب عيون حبيبى » ، ثم تطورت الأغنية والفكرة فيها ، وتسلسلت بما يبعد بها عن الحبيب الصغير البرىء . . . عن الطفل محمد إلى . . . الحبيب . . . حبيب الخيال أو حبيب الحب . . . من يتصور ؟

ومن الناس من يقول[2] : « . . . لو أن رامى لم يتجه إلى الأغانى ، ولم يعرف أم كلثوم ويكلف بها هذا الكلف كله ، لكان الشاعر المصرى فى هذا الجيل غير منازع ، ولتوالت دواوينه تعمر المكتبة العربية وتغمرها بنفحات تطغى على الكثير من نتاج الخالدين . . . ولكنه قدر » .

ولكن الشاعر إذ تناقشه فى هذا القول يقول لك : إنه لا يعتقد فى الإمارة . . . إن الشعراء كالفاكهة لكل واحد لون . ويمضى فى الدفاع فيقول : إنه على إعجابه البالغ بشوقى كان لا يعجبه غزله ، ويحكى أنه كان يقول له : « غزلك لا يحرق » ! .

ويتصل بهذا قول الأستاذ درينى خشبة : « وأول ما يلفت النظر فى حياة رامى وإنتاجه الأدبى هو انصرافه العجيب المفاجئ عن قرض الشعر ،

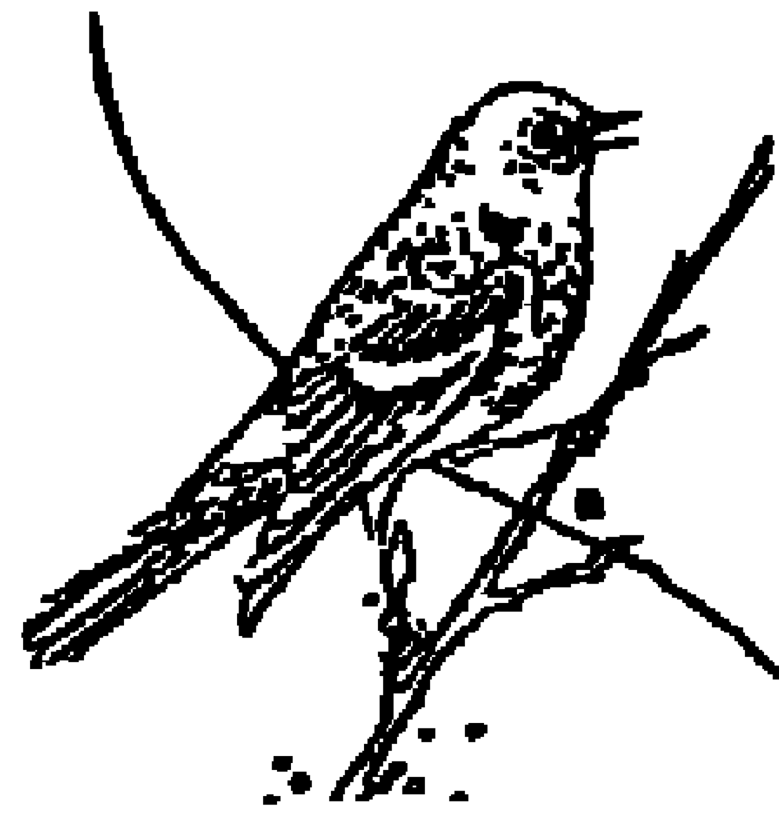
(١) تزوج رامى سنة ١٩٣٥ .

(٢) الأستاذ صالح جودت من مقال (شاعر الشباب أحمد رامى) — الهلال أبريل ١٩٥٣ .

واقتصاره على توشية أغانيه المصرية الساحرة ، وذلك منذ أن دخلت في حياته " الآنسة " أم كلثوم ! » .

* * *

وفى رأيى أن « رامى » أخذ دوراً محسوباً فى الأغنية لا يقل شأناً عن الشعر بعامة ، وشعره بخاصة ، بل لعله يزيد . . . فهو ، شاعراً ، يمتاز بالسلاسة لا بالفحولة . وهو ، شاعراً ، له نظراء ومنافسون كثيرون ، ولكنه فى الأغنية مميز متفرد الطابع والأسلوب ؛ لأن أغانيه — وسيتضح هذا عند دراستها فى الفصول القادمة — لم تكن جوفاء ، فقد وفر لها قيماً فنية من حيث الصورة والتعبير جعلتها نقطة تحول وعلامة طريق .



القسم الثالث

شاعر القوافي

- شاعر القوافي
- رأى النقد في شعره
ومكانه من عصره
- رباعيات عمر الخيام

شاعر القوافي

كتب الأستاذ علي أدهم إلى الشاعر أحمد رامي رسالة جاء فيها :

« . . . إن أكثر الناس لا يحسنون فهم الشعراء ، ويجهلون وظيفتهم ومركزهم في الحياة . وهم الصخرة التي لو لم يستند عليها الناس لسقطوا في مهواة المادية الحقيرة . وهم الذين ينبهون أحلام الكمال في الإنسان ، ويقربون المثل الأعلى من الذهن . وهم الذين يفتحون لنا من النوافذ والأبواب ما نطل به على الخلود والأبدية . وإن الشاعر يرى أشياء لا يراها الناس ويسمع ما لا يسمعون . ولقد قرأت عن الشاعر وردزورث أنه كان إذا سار على مقربة من البحر سمع كأن الأمواج تخاطبه وتوحي إليه بالخواطر الشعرية الصادقة ، فلم أستبعد ذلك ، ولم أستنكره لما قرأت « مناجاتك للبحر » . ومما يغيظني قول فقهاء القانون إن الإنسان يمكنه أن يعيش بدون شعر ، كأنهم يطلبون أن يتحول الشعر إلى أرغفة تتخطفها أفواههم حتى يشعروا بلذته وفائدته . وقد فات هؤلاء أن الإنسان قد يعيش أصم أو أعمى أو نصف مخلوق . . . فهل قرب الوقت الذي يفهم فيه الناس أن الشعراء هم المصابيح التي ترسل الضوء في دلج الحياة » ؟ .

الشعراء : هم الذين ينبهون أحلام الكمال في الإنسان ، ويقربون المثل الأعلى من الذهن . وهم الذين يفتحون لنا من النوافذ والأبواب ما نطل به على الخلود والأبدية . . . وإن الشاعر يرى أشياء لا يراها الناس ،.

---

* استشهدت في هذا الفصل من شعر الشاعر بما رأيته تعزيزاً للمعنى الذي قصدت إليه ، بغض النظر عن مستوى هذا الشعر من الناحية الفنية ، فهذا اعتبار أفردت له مكاناً آخر مجاله فصل « رأي النقد في شعره ومكانه من عصره »

ويسمع ما لا يسمعون . . .

أحقاً يفعل الشعراء هذا كله ؟ نحن نلتقى فى ديوان رامى بواحد منهم فهيَّا نلمح الديوان ونستقرئه علناً نظفر بأحلام الكمال ، وندرك المثل الأعلى ونطل من نوافذه وأبوابه على الخلود والأبدية ، ونرى ما لا تراه أعيننا ونسمع ما لا تسمعه منا الآذان . . .

ها هو ذا الشاعر أحمد رامى يرسم للإنسان الأعلى صورة فيها التطلع اللهفان . وفيها النظرة العبرى ، وفيها التعلق ، وفيها الوحدة والتفرد بين الجموع :

وطالب المثل الأعلى مشعَّبة ... آماله مشرئبات مراميه
يكلف النفس أمراً عزّ مطلبه ... ويسأل الدهر شيئاً ليس يعطيه
يرمى السهى بعيون حار ناظرها ... كأنها فكرة فى رأس مشدوه
غريبة بين أهليه طبائعه ... إن العظيم غريب بين أهليه
يقيم فيهم ولكن روحه اتصلت ... بعالم ليس يدرى ما أقاصيه (١)

وللحياة عنده قصة يرويها كما نسجتهانظراته الخاصة وتجاربه ، وكيفتها ظروفه وما مر به من أحداث . . .

خُلق الناس عاملين وقال الله ... سعياً إلى مراقى الكمال
فانبرى كلهم يَرُيغ سبيلَ المجد ... حُفت بالأمن والأوجال
وَحَدَّوا قصدهم وساروا بليداً ... من مجدّ فى السير أو مكسال
فقضى بعضهم ولم يبلغ الغاية ... منها ومطمح الآمال
وسرى اليأس فى قلوب ضعاف ... منهم فانثنوا عن الإيغال
بلغ القصدَ صابروهم وأمضاهم ... وضل الباقون فى التجوال (٢)

---

(١) قصيدة « سر الحياة » ص ٣١ .

(٢) قصيدة « سبيل المجد » ص ٦ .

ألمح عليك تشوقاً إلى مكان الشاعر وعمله فى الركب اللجب . . .
هل أدلك عليه ؟ . ها هو ذا :

شاعر يطلب السمو على أجنحـــة الشعـــر فى سماء الخيال
ويرى المجد فى الخلود بما غنّى فغنى به فم الأجيـــال
لا يبالى إذا تبسم ثغر العيش أم عبست وجـــوه الليـــالى
يستمد المعنى الجليل من الدنيا تراءت له بكل المجـــالى
ويحاكى صوت الطبيعة فى ألحانها من شـــدو ومـــن إعـــوال

والشاعر موكل بالقيم العليا يعلى منها ويشيد بها ولاء للصديق ، ووفاء للحبيب ، وحنيناً مذيباً إلى الوطن ، وتحية خاشعة دامعة للجندى المجهول الذى يرفع إليه هذه الصلاة :

يا مثالا يضم كل الضحايا فى ســـبيل الفخار والعليـــاء
كم يزور اليتيم قـــبرك ظنّاً أن تكون الأبر فى الآباء
وتطوف الثكلى بمثـــواك زعماً أن تكون الأعـــز فى الأبنـــاء
ويلوب الأخ الحزين رجـــاء أن تكون الأخ الحبيب النائى
وتراك الزوج التى رحت عنها بعلها الراحل المقيم الوفاء
وتخال العذراء أنك من كنت إلى نفسها أحب الرجـــاء
كلهم فاقد وأنت فقيـــد وحّد الحزن فى اختلاف الشقاء
أيهذا المجهول هل تنكر الأجيال مـــا قد حملت من أعبـــاء
بذلك النفس طائعاً وضاك الموت فى دارِ غُربة وتنـــاء
والتحـــاف الجواء قرّاً وحـــراً وافـــتراش القتـــاد والغبراء
قد تجردت من مناعم دنيـــاك وما فى ظلالهـــا من رخـــاء
وأبيت الظهور حيّاً وميتـــاً يا فخـــار الأمـــوات والأحياء
قد نضوت الحياة وهى زوال فكساك الممات ثوب البقاء(١)

---

(١) قصيدة « الجندى المجهول » ص ٦٧ .

أرأيت وليداً فى حجر أمه ترقرق له أغنية ينام عليها، وهى إذ تهدهده تلمسه بعينها، وتحنو عليه بكيانها كله، وتتضوأ كلما فتح عليها عينيا الصغيرتين وعبث بيديه الطفلتين . . . لا شك أنك رأيت أجمل مناظر الدنيا – هذا – ولو بعين خيالك، ولا شك أيضاً أنك تود أن ترى صورة له بالألوان، وهنا أدعك للشاعر الرسام .

غنته صوتاً من أغانيها ··· تبغى له بالنوم ترفيها
وحنت عليه كأنها غصن ··· يحنو على الأزهار يحميها
يصغى إلى ألحانها طرباً ··· كالعيس تشرب لحن حاديها
متأرجحاً فى حجرها جذلا ··· كالخيزرانة فى تثنيها
متوسداً أحضانها أمناً ··· متردد الأنفاس هاديها
والطفل إنْ يأمن إلى أحد ··· أغفى قريرَ العين هانيها(١)

وشاعرنا رقيق وهو أشف ما يكون صفاء حين يناجى الحبيب بمثل قوله :

يا ليتك الطيف فى منامى ··· وليتك النور فى هبوبى
وليتنا درتان نثوى ··· بالبحر فى جوفه الرهيب
وليتنا طائران نلهو ··· بالروض فى سرحه الخصيب
وليتنا زهرتان نهفو ··· على شفا جدول لعوب
تميلنى نحوك الخزامى ··· إذا سرتْ ساعةَ المَغيب(٢)

ومن شعره الحديث – أى بعد تصفية الديوان طبعة سنة ١٩٤٧ – قصيدة « اللقاء الخاطف » :

أو كلما عرضت بقربك خلوة ··· مرت على خوف أو استعجال
لم أدر ما طيب اللقاء وأنسه ··· ما دام قد خطر الفراق ببالى
نجواى ألفاظ تذوب على فمى ··· من غير أن أحظى بردّ سؤالى

---

(١) قصيدة « أم تنيم طفلها » ص٣٤ .
(٢) قصيدة « الأمانى » ص ١٣ .

وتطلعى لبهـــاء وجهك خلسة   أرضى بها خوفًا من العذال
تمضى الليالى فى غيابك لوعة   تطغى على صبرى ورقة حالى
وأبيت أجمع من شتات مواقفى   ذكرى أعيش بها على آمالى
حتى إذا سمح الزمان بلقية   سنحت سنوح الطيف عبر خيالى
ورأيتنى من قبل أنسى باللقـــا   فى وحشة غامت على بلبـــالى
ما بين ساعة قربنا وفراقنـــا   ماض من الغيب الخفى بدا لى
تترى علىّ الذكريات فبعضها   نائى المدى والبعض منذ ليال
وجميعهـــا فى خاطرى أنشودة   ذابت على صدر الفضاء حيالى

ومعنى اللقاء والخوف من الفراق يلحّ على رامى فهو يشيعه فى شعره وأغانيه على السواء مثل « يا طول عذابى — رق الحبيب — سهران لوحدى » إن هذا المعنى تجربة عاشها ويستعذب عذابها ، فهو إذا بعُد قليلا عن واقعها ارتد إليه سريعًا بالخيال والذكر . . . « كيف أنسى » .

ذكريات عـــبرت أفق خيالى   بارقًا يلمع فى جنح الليـــالى
نبهـــت قـــلبى من غفـــوته   وجلت لى ســـر أيامى الخوالى
كيف أنساها وقلبى   لم يزل يسكن جنبى
إنها قصة حبى
ذكريات داعبت فكرى وظنى   لست أدرى أيها أقرب منى
هى فى سمعى على طول المدى   نغم ينســـاب فى لحن أغـــن
بين شـــدو وحنين   وبكاء وأنين
كيف أنســـاهـــا وسمعى   لـــم يـــزل يذكر دمعى
وأنا أبكى مع اللحن الحزين
كيف أنسىَ ذكرياتى   وهى فى قلبى حنين
كيف أنسى ذكرياتى   وهى فى سمعى رنـــين
كيف أنسى ذكرياتى   وهى أحـــلام حيـــاتى
إنها صورة أيامى على مرآة ذاتى

عشت فيها بيقيني وهي قـــرب ووصال
ثم عاشت في ظنوني وهي وهم وخيـــال
وستبقى على مـــر السنين
وهي لي ماض من العمر وآت

ورامي في نفسه إحساس عميق بالغبن تعكسه قصيدته (طيور الأماني).

هتفت في الدجى طيور الأماني باكيات على النعيم الفـــاني
حائرات العيون رفافة الأجنح مطـــرودة عـــن الأفنـــان
كلمـــا أوشكت تقارب غصناً ذادهـــا حاصب عن الأفنان
أو أسفَّت تريد نقع ظمـــاها حلأتهـــا الأيدي عن الغدران
فهي العمرَ حائماتٌ ترى الأثمارَ والمـــاءَ نائيـــات دوان
ولو أن الرياضَ خلوٌ لعـــزت نفسَها بالقنـــوط والسـلوان
غير أن الغصون ناضجةُ الأثمار والنهـــر طـــافح الفيضـــان

« طافح » لقد استطاعت هذه اللفظة أن تخرجني من عالم رامي الوردي المفوف . . . ترى كيف مرت على حسه المرهف ؟ لعل السبب . . . أن قصيدة « طيور الأماني » كابية اللون كما ترى ، والشاعر فيها حزين يرى نفسه في غير مكانه . . . وهو ظامئ يتحرق ، متشوف يهفو إلى . . . شيء . . . وهذا الجو النفسي لا يترجمه إلا لفظة « طافح » ولو اختار غيرها من قاموسه الموشَّى لما اتضحت حالته النفسية هذا الوضوح ، ولـمـا لمسنا آلامه هذا اللمس الذي يعطفنا عليه ، وما عمل الشكوى إذا لم تعقب الصدى ؟ . وما جدواها إذا لم تبعث التجاوب المأمول ؟ . لتبق إذن كلمة « طافح » في مكانها ما دامت مطمئنة فيه . . .

وهو للطبيعة صديق به حـنَّة دائمة إليها ، ومن ترانيمه فيها :

ناج بدر السمـــاء بالأســـرار واشكه ما تحس من أكدار
غنـّه حزنك الدفينَ وسامرْه فريداً في غيبـــة السمَّار

وتطلع إلى سـناه وقد كلل بالدر هـامةَ الأشـجار
ونشـا ضوءه على صفحة النيل فأضحت من فضة فى نثار
وسرت نسمةٌ تأرج منهبـا عبقٌ من يوانعِ الأزهـار
وسرت وحشةُ السكونِ فلا تسمع إلا هـواتف الأطيـار
واصطفاق المجداف مثلَ جناح الطير آوى ليلا إلى الأوكار
هذه ساعةٌ تلذ بهـا الشكوى وتحلو مـرارةُ التـذكار (١)

هنا الشاعر جزء من الطبيعة ومن الكون الذى يتربع فيه البدر على عرشه المخملى الأزرق المرصع بلآلىء النجوم ، وهو طلق الوجه واليد يمنح وجهه البسمات العذاب وتمنح يده الوهوب، النور ، فإذا على صفحة النيل من لألائه فضة سائلة تجذب فضول مويجاته الصغيرات فتحبو إليها وتطفو عليها لتتعرف على البريق الأخاذ ... وإذا على هامات النخيل عصائب مزركشة من حبب النور تخال نفسها فيها أبهى فتنة وأروع سحراً من عُلَيَّة أخت الرشيد(٢) . . .

والأنسام تهفهف عاطرة فيها من الزهر روح ومن الورد عبير ، والمجاديف فى النيل مرحى تحاور الموج فتخفى رءوسها تحت الماء ثم تظهر عليه بين ضحكه وتصفيقه . . . والهواتف على الغصون كأنها شعراء الطبيعة مثلت لتحتفل بليلة القدر ، فأخذ كل غريد يرسل الشعر نشيداً يملأ الجو نغماً وتطريباً . . . والليل الحالم الساجى يحرس هـذا النعيم والملك الكبير ، ويغرى به عند ما تزيد ظلمته، النور ، صفاء وضياء ويزيد سكونه ، الهمس، حساً والغمغمة سحراً، والبغام تبياناً . . .

* * *

(١) قصيدة « موقف » ص ٤٣ .
(٢) تنسب العصائب المرصعة إلى الأميرة العباسية علية بنت المهدى ، وكان فى جبينها ما تحاول أن تخفيه ، فاخترعت العصائب ، وقلدتها الحسان بدون أن تدرى السر .

ويمضى إلى رأس البر فتأخذ عينه ونفسه ليلة البدر فى المصيف الهادئ فإذا به يرى بدر الدجى زاهياً يرصع أعطاف النهر بالبدر :

وفى الشاطئين حسان المغانى تجلت لأعيننا كالصور
سجا الليل إلا اصطفاق الشراع وأبلس إلا حفيف الشجر (١)

ويبصر التقاء النيل بالبحر فيهتف :

هنا البحر أمواجه أقبلت هنا النيل طالعه وانحدر
تلاقى الغريبان بعد النوى وضَنى الذى ارتجى ماحضر (٢)

ويصف الملاحة فيستعين على إطرائها بصور الطبيعة ومجالى الجمال فيها :

طالعتنى وكنت أخلس منها خطرة الطيف فى سنوح الخيال
ثم مرت كما يهب نسيم الروض عبر الغدير بين الظلال

نسيم معطر شيم هفاف . . . قبس من الروض وعبر الغدير وتفيأ الظلال . . .

وسمعت الحديث من فمها المفتر عن بسمة الندى فى اللوالى
فإذا خفّة القطاة إذا اختالت على الماء ساعة الآصال (٣)

عين فوتوغرافية لا تخطئ شيئاً . . . !

وإذا رقة النسيم إذا بث شكاة المهجور عند الوصال (٤)

وللطبيعة فى الفيوم منظر رائق حال بريفية الفيوم :

نشأت فى منابت التين والزيتون فى ظل هادلات الكروم
وسقاها من بحر يوسف عذب سلسبيل من مسكه المختوم
وخلونا على ضفاف غدير ريق الماء خافت الترنيم

---

(١) و(٢) قصيدة « ليلة البدر فى رأس البر » ص ١٠٠ .
(٣) و(٤) قصيدة « لقاء » ص ١٠٢ .

وسواق الهدير تبعث فى النفس أسى من أنينها المستديم[١]

وهو يهفو إلى الحبيب فيحن معه إلى الطبيعة التى شهدت مولد الحب وباركته . . .

يا حنينى إلى الليالى المواضى وشقائى من الليالى البواقى
واشتياقى إلى قديم من العهد نعمنا فيه بطيب التلاقى
حيث كنا والليل ساج وللنيل خرير كهمسة العشاق
ونسيم الصبا يهب على الأغصان يلهو بذيلها الخفاق[٢]

وهو يؤمن بالطبيعة إيمانًا لا يرى الفن إلا أصلا منها . . . فالألوان بفنونها والجمال بتصاويره إنْ هى إلا بعض عجائبها . والإنسان مدين لها بفنه إذ هو يقبس منها ويأخذ عنها. فحين يطرز الأزرق بالأبيض إنما يلمح السماء والسحاب ، وحين يجمع بين البنى والأخضر إنما يقلد الزرع والأرض ، وحين يفسر الأسود بالأحمر إنما يرى الفحم واللهب ، وتتجلى الطبيعة فى نقوش ذلك الإنسان الماهر الذى يضمن نقشه بدائع الطبيعة فى كل واد تقع عليه عينه وتعيه ذاكرته ، فيستمد منه خياله ، ويستلهمه عند الافتنان ، وجدانه .

ورامى على حق ، بل إنى أرى النبات أستاذ النفس الإنسانية الراقية . فالنبات لا يرد أذى . . . تجرحه فيداوى جرحه وينمو . . . تقطعه فينمو من جديد مستعليًا على المحنة . وليس مصادفة التقارب فى اللفظ والحرف بين كلمتى agriculture زراعة ، وكلمة culture ثقافة . . .

ومعرض الطبيعة عنده فيه صور أخرى أودعها أغانيه وقد آثرت أن أجلوها فى موضعها . . .

* * *

(١) قصيدة « ريفية الفيوم » ص ٤٥ .
(٢) قصيدة « عهد قديم » ص ٢٧ .

ولرامى رأى فى الشعر ، فهو عنده لا يختلف فى جوهره سواء أكان قديمًا أم حديثًا شرقيًّا أم غربيًّا . . . والاختلاف فى وسائل التعبير ونظام التأليف .

ويتصل بهذا جوابه عن سؤال وجهته إليه مرة عن حقيقة تطور شعر الشاعر ، وما زلت أذكر كلماته فى تلك الساعة حين قال لى :

« الشاعر شاعر والشعر كالشهية . . . والشاعر الموهوب يجيد ترجمة إحساسه فى أى سن ، فى أى حالة ، وإن ما يزيد مع الأيام إنما هو المحصول اللغوى ، المحصول التعبيرى بحكم القراءة . . . وكثيراً من المعانى لا يترجمها الشاعر إلا بعد إحساسه بها بشهور أو بسنين . . . وهناك من المعانى ما لا يقبل التطور لأن فى مادته الخلود فى الجوهر والخلود فى الصورة » . . .

هل تستطيع الأيام أن تزيد أو تنقص شيئًا على قول ذلك الأعرابى القديم :

أنـزلنى الدهرُ على حكمه ... من شاهق عال إلى خفض
أبكانى الـدهرُ ويا ربمـا ... أضحكنى الـدهرُ بما يرضى
وغالنى الدهرُ بوفر الغنى ... فليس لى مالٌ سوى عرضى
لولا بنيـات كزغب القطـا ... رُددن من بعض إلى بعض
لكان لى مضـطربٌ واسـعٌ ... فى الأرض ذات الطول والعرض
وإنمـا أولادُنـا بيننـا ... أكبـادنا تمشى عـلى الأرض
لو هبت الريحُ على بعضهم ... لامتنعت عينى من الغمض

وقول ذلك العربى القديم الآخر وقد رأى ابنه يتردى صريعًا :

هوى مـن صخرة صلد ... ففرت تحتهـا كبدُه
ولا أم فتبكيه ... ولا أخـت فتفتقـده
ألامُ عـلى تبكيـه ... وألمسـه فـلا أجـده

أحسب أن لا . . . لا تستطيع الأيام هنا أن تزيد شيئاً .

ومحك الجودة عنده بروز شخصية الفنان الشاعر بحيث إذا قرأت الأثر الفني أدركت لأول وهلة أنه هو ، وقلت « ها هو ذا » أو ما يسمونه Coup de Maître « دقة معلم » .

والشخصية الفنية ترتكز على دعامتين : الابتكار والأسلوب . . .

ومن هنا كان رامى يعرّف الشعر بأنه الصدق فى التصوير ، والحسن فى التعبير . . .

ومن هنا أيضاً استحدث معانيه فلم يسلبها من غيره من الشعراء على كثرة ما قرأ من الشعر الشرقى والغربى . وقد حدثنى رامى أنه يقرأ كثيراً وينسى ولا يزيد محفوظه على مائتى بيت وهى الممتازة الفريدة من كل شاعر[١] . . . .

ورامى يصفى شعره مع كل طبعة ، وينحى منه ويثبت الأصلح ، كما كان يفعل ألفريد دى موسيه .

ولا تستطيع أن تحدد أثر شاعر بعينه فيه حتى لو عرفت شعراءه المفضلين ... إن أحب شعراء العرب إليه كما يردد دائما ، الشريف ، وشوقى ، ومن الإنجليز بايرون وشيلى ، ومن الفرنسيين ألفريد دى موسيه ولا مارتين . وأحب الشعر الغربى إليه الشعر القصصى لاحتفاله بالتحليل النفسى . . . ومن الفرس الخيام وحافظ الشيرازى . . . فهل لأحد منهم أثر ظاهر السمات فيه ؟

---

(١) من محفوظات رامى قول الشريف الرضى :

قال لى صاحبى غداة التقينا ... نتشاكى حر القلوب الظماء
كنت خبرتنى بأنك فى الوجـــ ... ـد عقيدى وأن داءك دائى
ماترى النفر والتحمل للبيــ ... ـن فماذا انتظارنا للبكاء ؟
لم يقلها حتى انثنيت لما بى ... أتلقى دمعى بفضل ردائى

يعزو قوم صفاء خياله إلى مطالعاته فى الأدب الأوربى، ومن هؤلاء السيد محمد أمين حسونة الذى يرى أنه « . . . تولد فى نفس رامى الخيال الصافى من قراءة الأدب الأوربى، فقد شغف بلا مارتين فى " رفائيل " وبألفريد دى موسيه فى " الاعترافات " وبفرانسوا كوبيه فى " أقاصيصه " وبتوماس هاردى فى أشعاره، وبالأدب الروسى فى النوع القصصى منه»[1].

وأرى التفتح وتغذية الخيال بما يساعده على الانطلاق والتوثب، شيئاً غير المحاكاة أو التمثل أو التأثر الخاص فى فن الشعر وجوهره . . .

قد يلمح شاعراً هنا أو هناك فى معنى أو آخر، ولكن هذا لا تدحة عنه لمن له رصيد من محاسن الآخرين، فهو مثلا يلمح النواسى فى هذه الأبيات، أو لعله لاح له منه خيال :

سـألتنى وقد خلونا أتهوانى   وقد نالت التباريح منى
ورأتنى وجمت حزناً فقالت   ليس يخفى شديد حبك عنى
غير أنى أحب أسمع من فيـ   ـك حديث الغرام يطرب أذنى

ألا يذكرنا هذا بقول ابن هانئ :

ألا فاسقنى خمراً وقل لى هى الخمر   ولا تسقنى سراً إذا أمكن الجهر

وهذان بيتان يدوران حول تعلق الإنسان بما يهوى حتى بعد الحياة :

فابكينى إذا همدت عظامى   ونوحى حول مقبرتى بلحنى
عشقتك يا بنات الشعر حياً   فلا تنسى عهودى بعد بينى

بمن يذكرك هذا الشعر وإن اختلف المعشوق ؟ ألا يبعث فى نفسك قول أبى محجن الثقفى فى الخمر، وكانت هواه :

---

(١) الأستاذ محمد أمين حسونة فى مقال « أعلام المدرسة الحديثة » فى مجلة الحديث الحلبية .

إذا مت فادفنى إلى جنب كرمة   تروّى عظامى فى الممات عروقها
ولا تدفننّى فى الفــلاة فإننى   أخاف إذا ما مت ألاّ أذوقها

وإن كنت أرجح أن الذى كان يخايل شاعرنا هنا إنما هو صاحب الرباعيات أو صاحبه « الخيام » شاعر الحب والخمر ، وهو القائل :

هات اسقنيها أيهذا النــديم   أخضب من الوجه اصفرار الهموم
وإن أمت فاجعل غسولى الطلا   وقدّ نعشى من فروع الكروم

بل قد يلمح نفسه أحيانـًا ، فى أغنيته « جددت حبك ليه » قد سبق له هذا الخاطر على صورة ما ، يخايلك ولا تتبينه كاملا فى مطلع قصيدته « الذكرى »(١) .

يا صورة الغابر الدفين   أيقظت ما نام من شجونى
أوشكت أنسى الذى تولى   فجئتنى اليــوم تذكرينى

ولعل ما يجذب رامى إلى الشعر الغربى ، تمثيله للبيئة التى يعيش فيها ووحدة الموضوع . وقد رأينا القصيدة فى شعر رامى وحدة متكاملة ، فهو يعيب مذهب « بيت القصيد » قولا وعملا . . . وما جانب وجه الحق فإن القصيدة على ضوء علم النفس الحديث « تتألف من وثبات لا من أبيات . . . فالشاعر لا يبدع القصيدة بيتـًا بيتـًا ، بل يبدعها قسمـًا قسمـًا . . . فهو يمضى فى شكل وثبات ، فى كل وثبة تشرق عليه مجموعة من الأبيات دفعة واحدة ، أو تنساب هذه المجموعة بدون توقف الشاعر قليلا أو كثيراً .

وعلى هذا الأساس نستطيع أن نفسر ما يقوله بعض الشعراء فى استخباراتهم ومذكراتهم من أنهم يواجهون فى لحظات الإبداع مشكلة المسارعة إلى كتابة ما يشرق فى أذهانهم ولا يكادون يتابعونه »(٢) .

(١) ص ٢٨ من الديوان .
(٢) الأسس النفسية للإبداع الفنى للدكتور مصطفى سويف ص ٢٤٦ و ٢٤٧ .

يقول ساشفرل سيتول : « تلك هى المباهج التى لا تطرأ على الكاتب فى حياته الأدبية إلا نادراً ، عند ما تتوالى على ذهنه الصور العقلية ، كما لو كانت تتولد من سن القلم وهو يكتب ، بل إن القلم فى بعض الأحيان يكون أبطأ من أن يلاحقها تسجيلا »[١] .

ولكن الأدب العربى على علاته أثير عنده عزيز عليه . . . فحين جابهه قول القائل :

ليس فى مصر أدب : Egypt has no Literatnre.

ردّ وبه حدّة : هذا غير صحيح : إنما تقولون هذا من عجزكم عن قراءة ما نكتبه وجهلكم باللغة العربية .

Not true. It is merely your inability to read what we write becanse of your ignorance of Arab:c.[٢]

* * *

وهو يحب القافية العربية ، ويرى فيها عماد البناء فى الشعر ، وقد حافظ عليها ، فلم يعترف بالشعر المرسل أو المزدوج أو تقسيم القصيدة إلى قواف متعـددة وهو يعـدّ ذلك خروجاً على النظام المألوف . وهو يزهو بموسيقية الشعر العربى التى تعينه عليها بحوره الستة عشر وما يتفرع منها وهو حوالى ١٤ ، على حين تقتصر بحور الشعر الغربى على خمسة أبحر .

---

(١) مجلة الأدب والفن جـ ٣ السنة الثالثة – ١٩٤٥ . وهى تصدر فى لندن بالعربية عن كتاب (الأسس النفسية للإبداع الفنى) .

(٢) مجلة The A.U.C. Review
مجلة الكلية الأمريكية للآداب والعلوم فى ١٥ أبريل ١٩٣٢ (وهى مجلة يصدرها طلبة الجامعة الأمريكية) .

وأسلوب رامى صورة منه . . . ومن ثَـمّ فهو أسلوب حينًا ضاحك سعيد، وآنًا دامع حزين . . . وهو تارة هادئ راض وتارة يعلو نبضه ويشتد وجيبه . . . وهو فى كل حالاته سهل رَضىّ غير ألفاظ قليلة ليست سهلة وليست متقعرة . . . وقد حاولت استقصاءها فى الديوان كله فلم تأخذ عينى غير اثنى عشر لفظًا . . . لو أنعمنا النظر فيها تكشفت لنا عن سر . . . والألفاظ التى نتحدث عنها هى :

بديداً (١) حاصب (٢) حلأتها الأيدى (٣) المدجان (٤) ميود النقا (٥) سديم (٦) خضرم تيهور (٧) مهيع (٨) أكرى (٩) نثاضوءه (١٠)

---

(١) ص ٦ قصيدة « سبيل المجد » : بديدا : البديد = النظير . والبديد = الفلاة لاأحد فيها (المعجم الوسيط) .

(٢) ص ٨ قصيدة « طيور الأمانى » : حاصب : الريح الشديدة تحمل الحصباء .

(٣) ص ٨ قصيدة « طيور الأمانى » : حلأ : من معانيها ضرب، وقشر الجلد ، ولكنها هنا بمعنى أبعد .

(٤) ص ١٠ قصيدة « طيور الأمانى » : ليلة مدجان : أى مظلمة .

(٥) ص ١٣ قصيدة « أمانى » : ميود النقا : ميود أى كثيرة التحرك . النقا قطعة من الرمل المحدودبة .

(٦) ص ١٥ قصيدة « الماضى » : سديم : جمع سدم وهو الضباب أو الرقيق منه .

(٧) ص ٢٩ قصيدة « طرب الحياة » : خضرم تيهور : خضرم : البئر الكثيرة الماء . التيهور : ما انهار من الرمل ، ما اطمأن من الأرض .

(٨) ص ٣٤ قصيدة « نهر الحياة » : مهيع : هاع الشىء هيعاً : انبسط . تهيع مبالغة فى (هاع) . تهيع فلان تحير . جار . ظلم وإلى الشر : تسرع .

(٩) ص ٤٠ قصيدة « إلى روح أبى » : أكرى : سهر فى طاعة الله .

(١٠) ص ٤٣ قصيدة « موقف» : نثا ضوءه : نثا الخبر أفشاه ... وهى هنا بمعنى نشر الضوء وأشاعه .

سجوم(١) يلوب(٢).

فالألفاظ كما نرى دالة على معناها فى غير تقعر أو شذوذ فليس بينها مثل « بلهنية » أو « دردبيس » أو ما يشبه هذا . وإذا استقرأنا الألفاظ وجدنا مثلا أن« مدجان ، حاصب، بديداً » : اقتضاها تحكم القافية والتفاعيل وضرورة الأوزان . وربما كان لواذه إلى مثل هذه الكلمات الغريبة لإحداث الدهشة الجمالية . ؛

وهناك ألفاظ لا ندحة للفنان عنها لخاصية فيها فمثلا (نثا ضوءه) أى شعشعه ، ولكن اللفظة « نثا » أقل حرفًا وأكبر دلالة على المعنى ، وأوفى أداء للمراد .

ولفظة « يلوب » مقصودة لاستكمال الصورة . ونلاحظ أن قبلهايطوف ويزور . فلم يبق غيرها ... ثم إن اللفظة « يلوب» لها جوّ خاص تصوره، ومعنى خاص تعكسه ، معنى الشرود والقلق والحيرة الزائغة . . . أليست بعينها اللفظة الفصيحة من « لايد » ذات الوقع الخاص فى إحساسنا .

على أنى لاحظت أن الشاعر يحيط لفظه الغريب بحاشية مفسرة — لست أدرى عامداً أو عن غير قصد — ف « حاصب » تحيط به قرائن من مثل ذادها — عن الأفنان — فإذا كان الذود هو الدفاع والصدّ ، والأفنان هي الأغصان — فالحاصب لا بد أن يكون « رامى الحصى » . . . فإن لم يتكشف المعنى الحرفى للقارئ فإنه مقدّر معنى قريبًا يدخل تحت عنوان « الدفاع — الصد ».

---

(١) ص ٤٥ قصيدة « ريفية الفيوم » : سجوم : عين سجوم : تسيل الدمع .. ناقة سجوم : كثيرة الدر .

(٢) ص ٦٧ قصيدة « الجندى المجهول » : يلوب : عطش .. حام حول الماء وهو لايصل إليه .

واجهوه مرة بقول : يتهمونك بأنك تتخم أشعارك بالألفاظ الخلابة البراقة . . . فما السبب فى هذا ؟

فأجابهم : «الشعر كالتصوير ، إنْ لم تكن ألوانه فى غاية من الزهاء والبهاء فَقَدَ رونقه وعُمْق تأثيره ، ولا معنى للاستغناء عن بريق اللفظ وزينته ما دام لا يتعارض مع المعنى . . . على أن للشعر لغة ليست للنثر ، والشاعر كلف باختيار ألفاظ هذه اللغة وخاصة إذا كان يغنى شعره قبل أن يكتبه . ولعل هذا يرجع إلى كونى أنظم شعرى فى الظلام وأنا أتغنى به ولا أدونه إلا إذا فرغت منه . وقد أبيت به الليل ولا أكتبه إلا فى الصباح»[1] . . .

وألفاظه بعد هذا نابضة تتفجر حياة وتتوثب فى طلاقة ، ولقد يجمع لك فى لفظ واحد الصوت والحركة والمنظر كقوله فى وصف الجدول « جدول لعوب » .

ويعد رامى بين شعراء الرعيل الأول للرومانطيقية التى يحلو لها هذه الأوصاف : النور الضاحك ـ الزورق الحالم .

ولكن ألفاظه محدودة ، وهذه الظاهرة يفسرها قوم بقلة رصيده من مفردات اللغة حتى ليحلو لأحدهم أن يشبهه بلاعب الشطرنج أو (الدومينو) ليس عنده إلا قطع واحدة لا تتغير يجمعها وينثرها فى أشكال ومواضع مختلفة ولكنها . . . هى . . . هى . . .

وهى قضية تقف عندها الدراسة وقفة مستأنية .

. . . لننثر معاً غزل رامى ، وهو أهم فنون شعره . . . ننثره فى الشعر والأغانى ونجمع الألفاظ التى يتكون منها فى مجموعة بعد أن نسقط المكرر من اللفظ فماذا نرى ؟

إن الشاعر يدور فى فلك ١٨١ لفظاً يجمعها وينثر منها قليلا أو كثيراً

---

(١) من حديث له فى مجلة الإذاعة .

فى هذه القصيدة أو تلك ، وهذه الأغنية أو تلك على حسب طول كل منها :

أنين – إشفاق – أسى – الأيام – الزمان – الليالى – أوصاب – ألم – آهة – إخلاص – أنعى – الأسية – أقاسى – أحلام – أمانى – آمال[1] – انتظار – أوهام – اسأل – أليف – أوجاع – أسامح – أصون – أشوف – اجتماع – اختيار .

بكاء – بعاد – بال – بين أيديك – بوح .

تلدد – تباريح – تنهد – تبادليني – تمن – تجن .

جفون – جراح – جوى – جفاء – جمال – جفون – جنبى – جارى – جرى لى .

حنين – حطام – حزن – حسرة – حرمان – حيرة – حب – حرقات – حاسد – حنان – حبيب – حسن يفتن .

خطوب – خيال – خوف – خضوع – خيانة – خدود – خليل – خالى – خاطر .

دمع – دم – دلال .

ذل – ذوبان – ذكرى .

رضا – رقّ – رحمة – رحيل .

زفرات .

سهد – سهر – سلام – سعد – سلو – سارى – سقانى .

شجو – شقاء – شوق – شكوى – شاغل – شارد .

صبابة – صعبان على – صبر – صافانى – صدقينى – صد .

ضيع – ضنى – ضنك – ضم – ضن – ضلوع .

---

(١) يردد الشاعر لفظ « الأمل » .. فقصيدة يسميها « طيور الأمانى» وأخرى يدعوها « أمانى » وثالثة يرسلها تحت عنوان « أمنية » .. لعله يجد فيه استرواحاً من واقع نفسى ينوده .

طيف ــ طمنى ــ طوال الليالى .
ظلم ــ ظن .
عذاب ــ عيون ــ عهد ــ عتاب ــ عزاء ــ عذول ــ عطف ــ عليل .
غياب ــ غضب ــ غدر ــ غزل ــ غرام ــ غريب .
فؤاد ــ فرحة ــ فكر ــ فرج .
قلب ــ قرب ــ قاسيت ــ قسوة .
كبد قريح ــ كلام ــ كاس ــ كذب .
لوعة ــ لين ــ لهيب ــ لسان ــ لوم ــ لقاء ــ لاح ــ لاعب .
متيم ــ ميعاد ــ مرار ــ المحبوب ــ مداراة ــ المكتوب .
نحيب ــ نوح ــ نار ــ نوم ــ نسيان ــ نديم ــ نعيم ــ نصيب ــ نجوى ــ نداء ــ نغم ــ نظرة .
هوان ــ هم ــ هناء ــ هجر ــ هيام ــ هوى .
وجوم ــ وحدة ــ وحشة ــ وجيب ــ وجد ــ وصال ــ ولهان ــ وداد ــ وداع .
يأس ــ يا ويل ــ يا ريتنى ــ يا روحى .
ومن قاموس الطبيعة ٢٥ لفظًا :
طير ــ جناح ــ جو صافى ــ ليل ــ نسيم ــ ورد ــ شجر ــ الموج ــ الغمام ــ القمر ــ النيل ــ فجر ــ الميه ــ الأرض ــ الزهر ــ الشمس ــ الشفق ــ ياسمين ــ البدر ــ النهر ــ غدير ــ السحَر ــ النجوم ــ الكون ــ سحاب .

هذا هو قاموسه :

على أننا لا نريد أن نسرف فى اللوم ، فطبيعة الموضوع لها دخل

كبير فى هذا . وهل نستطيع أن نكلف العاشق أو المتغزل أن يتكلم فى الاجتماع أو يشك بقلمه اصطلاحات علم الاقتصاد ؟

إن دنياه كلها شوق وأحلام وأوهام وهجر ووصال ورضا وحرمان، وكل ما قاله رامى يقوله أصحاب التجارب المماثلة . . .

غير أننا لا نقره على شيوع مثل هذه الألفاظ اللينة المتهافتة فى أدبه وإن كان لها دلالة على انفعالاته : ذلة[١] هوان[٢] تلددى[٣] أحببت عزتى[٤] لوعة[٥] ذل الهوى[٦] حسرة[٧] خضوعى[٨] تنهد[٩] نحيب[١٠] حرقات[١١]

(١) قصيدة « الجمال الراحل » ص ٢٥ – قصيدة « الغرام الدفين » ص ٣٠ – قصيدة « كذب الظنون » ص ٧٣ – قصيدة « ثورة نفس » ص ٧٩ – قصيدة « حديث النفس » ص ٩٢ – قصيدة « نداء القلب » ص ١١٠ .

(٢) قصيدة « الجمال الراحل » ص ٢٥ – « خاطرة » ص ٤٨ – « كذب الظنون » ص ٧٣ – « غرام الشعراء » ص ٧٣ – « القلب الضائع » ص ٨٥ – حتى قصيدته « بين النفس والقلب » ص ٧٤ التى يغضب فيها لكرامته لاينغض فيها عن نفسه الهوان والذل بل يؤكده حين ينفيه، يؤكده بقوله :

وما هانت لغيرك فى هواها ولا ذلت لغيرك فى التصبى

إذن هانت نفسه وذلت للمخاطب .

(٣) و (٤) قصيدة « دمعة على حبيب » ص ٤١ .

(٥) قصيدة « ريفية الفيوم» ص ٤٥ (٦) « خاطرة » ص ٤٨ .

(٧) قصيدة « الغيرة » ص ٥٦ – ٥٧ – « حيرة النسيان » ص ٥٨ – « حديث النفس » ص ٩٢ .

(٨) « ثورة نفس » ص ٧٩ (٩) « القلب الضائع » ص ٨٥ .

(١٠) « أسعدينى » ص ١٧ – « إليها » ٧٠ « القلب الضائع » ص ٨٥ .

(١١) « حديث النفس » ص ٩٢ .

زفرات(١) آهات(٢) أنات(٣) الدموع(٤).

على أن المعانى التى تصورها هذه الألفاظ المحدودة ، ليست محدودة مثلها ، بل كثيرة منوعة فيها طرافة وتلوين . . . مما يدعو إلى التساؤل : هل يحسب له أو عليه صوغ معانيه وتلوين صوره من مجموعة صغيرة من الألفاظ ؟ أو حصره نفسه فى تلك المجموعة ؟ .

هل هى براعة مؤاتيه أو فقر لغوى ؟وهو ماأستبعده لسلاسة فيه لا يؤتاها فقير .

* * *

والمحسنات اللفظية عند الشاعر قليلة غير مقتسرة ولا مستكرهة فقد تلمحه أحياناً يجانس كقوله :

إنما العيش روضة أنا فيها　　زهرة لا تظل فوق الغصون
ضاع نشرى وضاع فى الجو لم　　ينشقه إلا لوافح تلوينى

ولكن مثل هذا فى حكم الشاذ الذى لا حكم له ولا يقاس عليه . . .

وعند الشاعر تقسيم أحياناً :

ومن الزرع باسق جفت الأثمار　　فيه وما جنتها يدان

(١) « الغرام الدفين » ص ٣٠ « حديث النفس » ص ٩٩ .

(٢) قصيدة « دمعة مكتومة » ص ٨٢ .

(٣) « المزار السجين » ص ١٨ — « الذكرى » ص ٢٨ — « ريفية الفيوم » ص ٤٥ « كذب الظنون » ص ٧٣ — « تعالى » ص ٧٨ — « دمعة مكتومة » ص ٨٢ — « سرى وسرك » ص ٨٨ — « حديث النفس » ص ٩٢— « إلى أم كلثوم » ص ٩٣ — « إليها » ص ٩٥ .

(٤) أما الدموع فقد تساقطت كثيراً فى قصائده :
المزار السجين — الذكرى — الغرام الدفين — دمعة على حبيب — هوى الغريب— مباراة الهوى .

ومن الماء دافق جف فوق الأرض ما مس قطره شفتان[1]

وشعره عليه طابع الغناء ، فكما يجعل رامى فى أغانيه بيت المطلع بيت الختام ، أو يطعم هذا من ذاك ، يجرى مثل هذا فى القصيد . فقصيدته « صفصافة على قبر غريب » استهلها بقوله :

نوحى بأنات النسيم إذا سرى وأرن فى أغصانك اللفاء

وانتهى منها بقوله :

وثوى وما من واقف بضريحه راع سوى صفصافة فرعاء
تبكى بأنات النسيم إذا سرى وأرن فى أغصانها اللفاء

لقد سألوه[2] مرة عن المهنة التى كان يفضلها على مهنته الحالية ؟ فقال : « لو لم أكن شاعراً لوددت أن أكون مغنياً ، فإن بين الغناء والشعر أسباباً متينة من ناحية الوزن ، والوحدة ، والقافية والقرار . . . ومن ناحية أن المغنى يحفظ الشعر ويردده ، وهو يعجب بما فيه من الأخيلة والمعانى . . .

وشعر رامى فى الغزل به ظاهرة جديرة بتسجيل ، فالغزل عنده لا يتعلق بالأوصاف الجسدية والحسية[3] ، ولكنه شوق وحرمان ولقاء وأحلام وحدة . . .

كما يخلو شعر رامى من الخمر على معاقرته لها أحياناً . . . ويمتاز رثاؤه بخاصيته فليس فيه المعانى العامة ، فهو لم يُسكت الطير ولم يحجر الشجر ، ولكن الرثاء عنده كالغزل : لوعة وحنين وافتقاد . . . إنه غزل

(١) « طيور الأمانى » ص ٨ .

(٢) مجلة الاثنين .

(٣) يستثنى من غزله العاطفى أبياته بعنوان « صورة » ص ١٦ من الديوان وهى حسية ، و « القبلة الأولى » ص ٣٦ من الديوان وهى حسية أيضاً . . .

فى الميت ، ولأمر ما كان الشريف مثلا أغزل شاعر وأرثى شاعر .

والمرثية عند رامى لا تصلح أن تقال فى غير صاحبها لخاصيتها . . . كما أشرت .

وأحب البحور إلى الشاعر فى القصيد « الخفيف»[١] الذى نظم منه نحو نصف ديوانه ، كقصيدة « رثاء شوقى » و « سبيل المجد » و « طيور الأمانى » و « كيف مرت على هواك القلوب»[٢] .

ويبدو أن السر فى إيثار الشاعر بحر « الخفيف » أنه يتفق مع طبيعته الرقراقة الغزلة إذ « الخفيف » بحر متهدر متحدر جميل على الرغم من أنه من أشق البحور — وبخاصة على المبتدئين لأن تفاعيله غير مرتبة . . .

وحروف الروىّ الغالبة على شعره : النون والهمزة والباء والراء .

* * *

وبعد ، فلعل « الاستخبار » الذى اتجه به الدكتور مصطفى سويف إلى الشاعر وسجله لنا فى كتابه القيم « الأسس النفسية للإبداع الفنى » ينقل لنا صورة طريفة للشاعر لعلها أروع صورة على الإطلاق ، لأنها تمثله فى أثناء عملية الإبداع . . . وهى فوق هذا تكمل مجموعة الصور التى حاولت رسمها له فى هذا الكتاب . . . تكملها وتضيف

(١) يقول الدكتور إبراهيم أنيس فى كتابه « موسيقى الشعر » عن رامى : « جاء بديوانه حوالى ١٢٠٠ بيت موزعة كالآتى : الخفيف ٥٨٪ والكامل ٢١٪ وكل من الوافر والرمل والبسيط ٥٪ والطويل ٤٪ وكل من المجتث والمتقارب ٣٪ والهزج ٢٪ (ص ٢٠٢) .

(٢) أحب قصائد الشاعر إلى نفسه « طيور الأمانى » ، « فى سبيل المجد » ، « نغمة الألم » ، « الوحدة » ، كما أن أحب أغانيه إليه « إن كنت أسامح » ، « سكت والدمع اتكلم » ، « ياماناديت » ، « سهران لوحدى » ، « النوم » ، « غلبت أصالح فى روحى » ، « جددت حبك ليه » .

إليها ظلالا هنا وهناك ، وتؤيد الخطوط العامة عندى بما يعلنه الشاعر نفسه من معلومات وحقائق .

وأنا هنا أسجل الاستخبار كاملا لأهميته واتصاله المباشر بموضوعى واحتفاء برأى العلم فى الفن ، واحتفالا . . بعملية الإبداع » .

والأسئلة التى وجهها الدكتور مصطفى سويف إلى الشاعر :

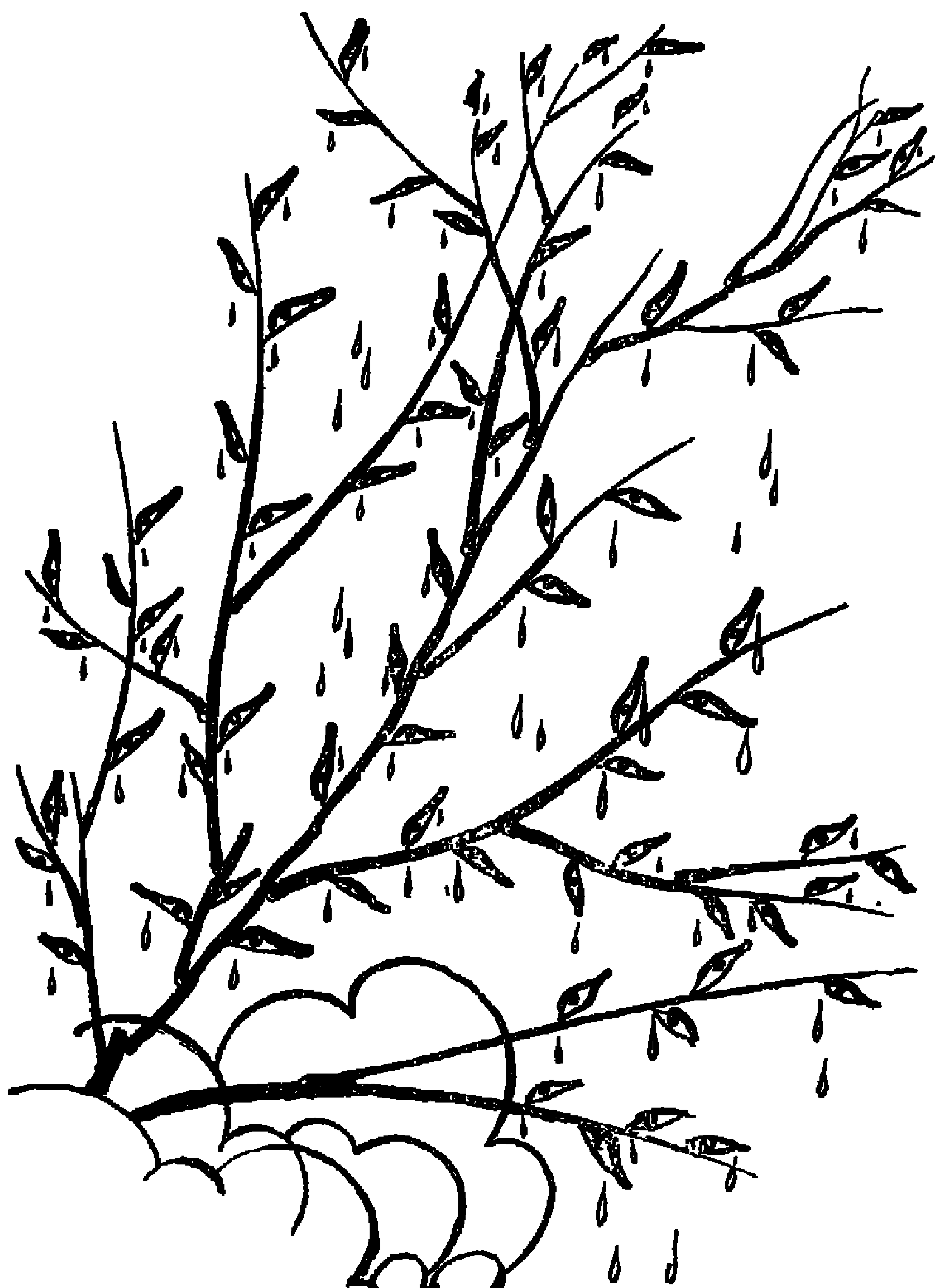
١ ــ إذا استطعت أن تتذكر عملية الإبداع كما جرت فى آخر قصيدة لك ، فالمرجو أن تتبع حياتها فى نفسك . هل عاشت فى نفسك صورها وأحداثها كاملة قبل النظم ؟ . أو هل بزغت وقت النظم فحسب ؟ وإذا كانت قد عاشت قبل النظم فهل عاشت حياة جامدة ، أى أنها ظهرت فجأة كاملة ، وظلت كما هى حتى انتهيت من كتابتها ، أو تطورت فى حياتها قبل الكتابة أو فى أثنائها ، وجعلت تمتلىء وتنضج فى بعض نواحيها وتتضاءل وتتلاشى فى نواح أخرى ؟ .

٢ ــ وإذا صح أنها تطورت وتغيرت ، فهل تمارس أنت عملية تغييرها ؟ أو تشعر بأن الأمور تجرى بعيدة عن متناول قدرتك ، وكل ما هنالك أنك تشهد آثار التغير ؟

٣ ــ ألك عادات تمارسها ساعة النظم أم لا (جو خاص ، حجرة خاصة ، قلم خاص ، حبر خاص . . . إلخ . . .) ؟

٤ ــ أتشعر بوجود صلة بين أحداث حياتك الواقعية وبين ما يرد فى قصائدك من أحداث وصور ؟ وإذا كانت هناك صلة يحسها الشاعر ، فليحدثنا إذن عما يشعر به إزاء ما يرد عليه من صور وأحداث يضمنها أعماله . أيشعر من أين تأتى وكيف ؟ .

٥ ــ أترى نهاية القصيدة قبل أن تبلغ هذه النهاية ؟ وإذا كان



الأمر كذلك فهل تراها واضحة أو لا ؟ وإذا لم تكن تراها فهل تنتهى القصيدة حيث كنت ترى [1] ؟

أسئلة فى حاجة إلى جواب . . . وجواب دراستنا فى حاجة إليه . . .

قرأ الشاعر صيغة السؤال الأول . . .

ـ إذا استطعت أن تتذكر عملية الإبداع كما جرت فى آخر قصيدة لك فالرجا أن تتبع حياتها فى نفسك . هل عاشت فى نفسك صورها وحوادثها كاملة قبل الكتابة أو هل بزغت وقت الكتابة فحسب ؟ . . . قال الشاعر ماذا تقصد بالكتابة ؟

الباحث ـ أعنى عند ما تجلس لتؤلفها ، فتكتب .

ـ أنا لا أكتب الشعر أبداً ، بل أغنيه ، أكون فى حجرة منفرداً ، وغالباً فى جو مظلم بعض الشىء ، وعندئذ أغنيه فى خلوتى هذه ، وبذلك يظهر الشعر .

أنا لا أفهم أن يقال إن القصيدة تبزغ وقت النظم فحسب ، بل على العكس من ذلك إن بعض القصائد تعيش معى فكرتها عدة سنوات قبل أن أنظمها . انظر مثلا : « رق الحبيب وواعدنى يوم » ، إن هذه القطعة ظلت فى نفسى فكرتها سبع سنوات ، وأخيراً نظمتها عند ما حانت فرصة معينة ، وهو أننى فى لحظة من اللحظات نلت من الفرح ما جعلنى أخاف أن تضيع حياتى ، أخاف أن أفقد هذه الحياة قبل أن أنال قمة هذا الفرح . هنا بالضبط أسرعت لأنظم هذه القصيدة ولأصور فيها أنى نلت سعادة عظمى كنت أنتظرها من زمن :

ولقيتنى طايل م الدنيـــا كل اللى أهواه
بس اللى كان فاضل لىّ أســعد بلقـــاه

---

(١) الأسئلة من كتاب « الأسس النفسية للإبداع الفنى » للدكتور مصطفى سويف ، ص ١٩٩ .

لما خطر دا على فكرى   حيرّ أمرى
والقرب سبب تعذيبى   . . . . . .

— فمعنى ذلك إذن أن هناك لحظة معينة تكون بمثابة فرصة لبزوغ أو لظهور هذه الفكرة التى ظلت مختمرة من زمن ؟

— هذا هو الذى يحدث فعلا .

— وإذن فإلى أى حد تتدخل هذه اللحظة ، أو ما يحيط بها من ظروف ؟

— فى الواقع أنه بالنسبة لهذه القصائد التى قضت فكرتها مدة طويلة وهى تختمر فى نفسى ، أقول لك إن هذه اللحظة لا تتدخل فى جوهر الفكرة المختمرة ، وإنما تتدخل فيما يشبه الهامش . على كل حال يحدث أحيانـًا أن تبزغ عندى قصيدة ، وأتجه إلى نظمها فى لحظة سريعة بدون أن تسبقها فكرة مختمرة[1] ، وفى هذه الحال تجد أن اللحظة تتحكم فى جوهر القصيدة إلى حد بعيد جداً . ويحدث أحيانـًا أن أكون بسبيل نظم قصيدة معينة ، وفيما أنا أنظمها إذا بى مثلا أسمع نعيق البوم عندئذ لا يمكن أن أترك هذه اللحظة بدون أن أدخلها فى القصيدة بطريقة ما . وقد حدث هذا ذات مرة ، وأدخلت هذه اللحظة فى القصيدة برغم

---

(١) يعلق الدكتور سويف على هذا عند تحليله إجابات الشعراء بقوله : « ويحدثنا رامى والغضبان بوضوح تام عن وجود نوعين من الإبداع ، نوع هو (ابن ساعته أو ابن ليلته) ويتمثل فى القصائد التى يفيض بها الخاطر على أثر حادث يهز النفس ، ونوع آخر تعيش فكرته فى نفس الشاعر فترة طويلة قد تبلغ بضع سنوات قبل أن يتمكن من أدائها أداء شعرياً .
ولكن هل هناك فعلا نوعان من الإبداع بمعنى أن لكل منهما أسساً دينامية تخالف ماللآخر ؟ كلا . فستتبين بعد قليل أن ماحسبه الشعراء فى شهادتهم (وهى صادقة كما يروونها) نوعين من التجارب الإبداعية ليس سوى نوع واحد ، وهذا الاختلاف ظاهرى فحسب » (كتاب الأسس النفسية للإبداع الفنى ص ٢٢٩) .

أنني كنت أكتب فى اتجاه معين يغلب عليه الفرح ، والشعور بالسعادة. على أنّ إدخال هذه اللحظة لم يُخل ّ أبداً بوحدة القصيدة .

ورامى هنا يشير إلى قصيدته : (فى سكون الليل)[١] .

— وهل تكون على وعى بوحدة القصيدة هذه التى تشير إليها ؟

— فعلا أكون على وعى بها ، وأقصد ألا أحيد عنها . وأنا فى العادة أبدأ القصيدة ببيت أو بعدد ضئيل من الأبيات : يركز كل تجربتى ، وبعد ذلك أقصد إلى تخريج كل ما يمكن من التخريجات من هذه التجربة المركزة فى البيت الأول ، أو بعبارة أخرى فى الـ Motto وقد يحدث أحياناً أن تبلغ البداية من التركيز درجة هائلة تمنعنى من أن أكتب أى شىء بعدها . وبذلك يتعذر على أن أكمل القصيدة فتظل عندى بدايتها فحسب. وقد حدث لى هذا بالفعل ذات مرة ، وأظن أنه يحدث لكثير من الشعراء . وأنت تعرف طبعاً أن الإنسان يمكن أن يكتب كثيراً فيقول مثلا إننى قضيت ليلا ساهراً بين آلامى ، وإن الليل طال جداً ، وإن كل شىء أمامى شمله الظلام ، وأن صحبى أحاطوا بى يواسوننى على محنتى وما إلى ذلك .

---

(١) من هذه القصيدة :

نفس الريح فى حفيف الغصون ... همسات من سرى المكنون
ونجوم السماء حيرى كعينى ... تذرع الأرض فى طلاب خدين
طال ياليل سهده وقيامى ... فتسلت عن ثوبك الماجون
ودع الفجر يملأ الكون نوراً ... وابتساماً بالمقدم الميمون
ودع الطير ترسل النغم الحلو ... وتورى من كامنات الشجون
إنما يجمل الصباح ويحلو ... بأنين من شجوها وحنين

وهنا نعبت البومة على نخيل بركة الفيل فقال :

أين سجع الهزار من صرخة البوم ... صراخاً يثير قلب السكون
نعبت فى الظلام تنذر عيشى ... بنصيب المضيع المغبون

إلى آخر القصيدة .

ويستطرد فى هذا السبيل ، ولكن طبعاً أنت تعرف أيضاً أن كل هذه المعانى جمعها بشار فى شطرة واحدة : « لم يطل ليلى ولكن لم أنم ! » .

من ذلك ترى أننى عند ما قلت إن كل شاعر لا بد أن يكون قد عانى مثل ما أعانى إنما قصدت الشاعر بالمعنى الدقيق ، أى The Born poet (الشاعر المطبوع) .

ثم قرأ الشاعر بقية السؤال الأول . . . وقال : أظنك تفهم أنه فى حالة الفكرة المختمرة التى حدثتك عنها ، تتطور طبعاً ويحدث فيها بعض التغييرات ، لكن مع ذلك أقول لك إن الجوهر لا يصيبه أى تغيير . على أن هذا التطور لا يكون واضحاً بالقدر الذى يتضح به التطور الحادث فى أثناء النظم . فبالنسبة للنظم تجد أن الخاطر والفكرة تجلب الفكرة[1] ، وإلا لكنا نجارين أو حدادين ، فأنا ليس عندى أنموذج معين أصفف له الألفاظ تصفيفاً معيناً ، ولكن قد تأتى هذه العبارة بعبارة أخرى . . . وقد تأتى هذه الفكرة بفكرة أخرى . . . وعلى كل حال نحن أبناء خواطر . وربما اتضح ذلك بشكل بارز جداً فى القصائد التى هى بنت لحظتها والتى لم تسبقها فكرة مختمرة[2] . . . ففى هذه القصائد يكون عندى ميل إلى قول الشعر ، ولكن ليس عندى فكرة بالذات لأقول فيها ، ومن هنا يكون للخواطر الواردة دور كبير .

---

(١) « الخاطر يجلب الخاطر والفكرة تجلب الفكرة » من هذه العبارة ونظائرها عند الشعراء الآخرين يستدل الدكتور مصطفى سويف على أن « الأنا » لا يسيطر على عملية الإبداع ، حتى فى هذا النوع الذى يبدو عليه فيه مظهر « الإرادية » — « كتاب الأسس النفسية للإبداع الفنى » ص ٢٢٩ .

(٢) يقول الدكتور سويف : « كل الإجابات التى بين أيدينا تكشف عن أنه ما من قصيدة أبدعها الشاعر إلا ولها (ماض) فى نفسه ، حتى القصائد التى اختلط أمرها على (رامى) و (الغضبان) قصائد اللحظة الحاضرة كما يسميانها يسرى عليها هذا الرأى أيضاً — ص ٢٥٩ .

ثم قرأ الشاعر السؤال الثانى ، وأجاب : إننى فى حالة الفكرة المختمرة أريد كل التغييرات التى تحدث .

ثم قرأ السؤال الثالث ، وأجاب : نعم لى عادات ، فمثلا هذا القلم (وأخرج من جيبه قلماً صغيراً) لا أنظم الشعر إلا وهو معى وبصحبته قطعة من الورق مستطيلة . . . ولا بد من أن أنظم فى حجرة خاصة [١] ، حجرتى التى يشيع فيها جو حزين ، وأحسن الأوقات التى أنظم فيها هو وقت الغسق ، وحينما أشعر أننى مستيقظ والناس نيام .

ثم قرأ السؤال الرابع ، وأجاب : You must diffuse yourself

لا بد أن تبث من نفسك ولا يمكن أن أتصور أننى أكتب من غير واقعى . أتعرف أننى على صلة وثيقة بالطبيعة . إننى أعشقها جداً ولا أتصور مثلا أن أوجد فى حجرة لا أرى من نافذتها جزءاً من السماء . وأنا ذو إحساس شديد بالطبيعة منذ طفولتى . أذكر أننى فى الثامنة من عمرى – وقد كان أبى طبيباً (للخديو عباس حلمى) – ذهبنا إلى جزر الأرخبيل الموجودة قرب سواحل تركيا ، تلك الجزر التى ذهب إليها فرجيل وهوميروس ومن إليهما من الشعراء ، وأذكر أننى أحسست بجمالها الطبيعى إحساساً مدهشاً لا يكاد يفارقنى ولهذا أثره فى شعرى ، فتجد أننى أصور حزنى ببعض مشاهد الطبيعة ، أكون مثلا فى موقف وداع فأتحدث عن أن الشمس تغرب :

لما بعدت عنه قليـــل حبيت أشوفه قبل الرحيل
بصيت وراى أبكى هـــواى

(١) يستدل الدكتور سويف من اتفاق الإجابات على انتحاء المكان الخالى فى أثناء ممارسة الإبداع ، على (استمرار بروز مجال الإبداع وسلبية الأنا) ص ٢٣٠ .

لقيت خيـاله من بين دموعى
جمال يغيب
والكون مرايـه فيها أسايـه
والشمس رايحـه تبـكى معايـه
ساعة الغروب

ـ وهل كنت تعرف أن فرجيل ومن إليه من الشعراء ذهبوا إلى تلك الجزر التى كنت فيها ، أقصد من ذلك طبعاً أن أقول هل كنت فى تلك السن تقرأ الأدب وتهتم بسير الأدباء ؟

ـ أبداً . كنت صبياً ، وكنت أجهل هذه الأمور كلها ، ولكن هناك أمثلة أخرى تدلك على كيفية تأثير واقع حياتى فى شعرى ، فمثلا أنا يغلب الحزن على شعرى ، ولا بد أن يكون لموت أبى وأنا صغير السن ، وابتعاد إخوتى عنى لانشغالهم بالأسفار ، ومرضى مدة طويلة فى أثناء هذه الوحدة بدون أن أشعر بأن هناك من يسأل عنى ويهتم بى ؛ لابد أن يكون لكل هذا تأثيره الذى يبدو بوضوح فى شعرى .

ـ وهل حدثت هذه الأمور فعلا فى حياتك أو أنها مجرد أمثلة ؟ .

ـ بل حدثت فعلا وحدث أن مرضت خمس سنوات متتالية .

ثم قرأ السؤال الخامس، وأجاب : بالنسبة للفكرة المختمرة أكون على وعى بالإطار العام للقصيدة ، وقد كان الشعراء قديماً يكتبون كثيراً ، ولكن كتابتهم كان يغلب عليها الاصطلاح ، فتبدأ مثلا بالغزل ثم بعد ذلك بالفخر وهكذا . . . ولكنى ، أقصد شعرنا الحديث ، شعرى الحاضر ، والواقع أن الشعر لا نهاية له ، ولكن أظن أن هذا لا يتحقق فى حالة الفكرة المختمرة ! [1] .

* * *

انتهت الجلسة الأولى .

(١) الجلسة الأولى فى ١٩٤٧/٩/٢١ .

* * *

عقد الباحث جلسة ثانية مع الشاعر ، وقد ذكر الشاعر فى هذه الجلسة ملحوظتين على جانب من الأهمية :

(ا) أنه يميل أحيانـًا إلى نظم الشعر بدون أن يستطيع تحقيق رغبته هذه ، فإذا هو ينفرد بنفسه ويظل يردد عدة أبيات لشاعر ما ، أو أبيات قالها هو نفسه فى قصيدة سابقة ويظل هكذا « يحنن نفسه » على حد تعبيره وأخيراً « يحن » وإذا به ينظم الشعر .

(ب) وقال أيضًا إنه إذا بدأ ينظم قصيدة فلا بد أن يمضى فيها إلى نهايتها فى نفس الجلسة (١) .

وفى جلسة ثالثة أبدى الشاعر ملحوظات أخرى ، فقال :

(ا) يعجبنى جداً الصوت المرجّع ، حتى ولو كان الترجيع بدون ألفاظ ، حتى ولو كان المرجع عابر طريق ، فإن هذا الترجيع كثيراً ما يدفعنى إلى أن أغنى وأنشئ شعراً . . .

(ب) لقد قرأت كثيراً ، كثيراً جداً ، قرأت حتى كدت أجن ، كنت أقرأ حتى أصاب بدوار ، ولقد تعلقت تعلقـًا شديداً ببايرون ولا مرتين وشوقى . لقد كنت أجلس فى قهوة بايرون لمجرد أن اسمها كذلك . لقد أحببت بايرون جداً ووقفت عنده طويلا ودفعنى ذلك لأن أقرأ عنه كتبـًا كثيرة . . .

(حـ) ولقد جن جنونى شغفـًا بقراءة رباعيات الخيام ، كنت أريد أن أقرأها بالفارسية ، فدفعنى ذلك إلى الذهاب إلى باريس والبقاء هناك سنتين ، أدرس فيهما اللغة الفارسية لا لشىء إلا لأنى أريد أن أتذوق من ذلك بترجمة الرباعيات إلى العربية . لم أكن أريد أن أتوظف مثلا . . .

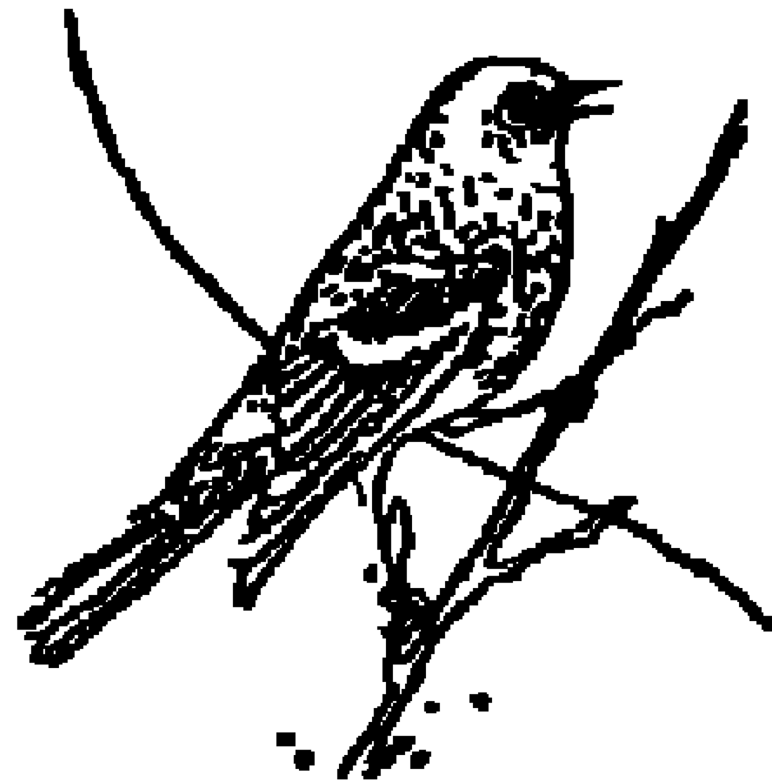
---

(١) الجلسة الثانية فى ١٩٤٧/١٢/٢٧ .

(د) يهمني طبعاً أن آتى فى شعري بشىء لم يأت به أحد من قبلى لم يأت به أحد قط ، هذا يهمني جداً . ويهمني كذلك أن أرضى نفسي أولا ، ومع ذلك فقد كنت أنشئ القصيدة فى منتصف الليل ، ولا أتوانى عن إيقاظ البواب لأسمعه إياها .

(هـ) ويسرّني جداً أن أقرأ شعرى فيبكى من يسمعني . . . إن الابتسامة أمرها يسير أما الدمع فأمره عسير كل العسر . إن ألذ شيء عندى أن أبكى . أحب البكاء دائماً (١) .

وبعد ، فلعل صورة الشاعر الآن تكون قد اكتملت أو كادت وتميزت فيها الخطوط والألوان والأضواء والظلال . . .



(١) الجلسة الثالثة فى ١٩٤٧/١٢/٢٨ .

رأى النقد فى شعره
ومكانه من عصره

كتب عنه المغفور له الشيخ مصطفى عبد الرازق : « . . . وفى صوت رامى همسة ذات حنين خلقت لترجيع ذلك الشعر القصير البحور الخفيف النغم . . .

أما رامى فبلبل جيله الصدّاح يغنى على توقيع عواطفنا الغرامية المتحمسة القصيرة وينوح على نبض آلامنا الوجيعة السريعة بنغماته العذبة فى الغناء وفى النواح .

كل شعر رامى — إلا قليلا — من الأبحر القصيرة التى تلذ رناتها لذوقنا العام وتغلب على موشحات عصرنا وأغانيه . . .

وديوان رامى جميعه ديوان حب وألم ، ولا غرو فهو لحن نهضتنا الشابة التى يحدوها فى سبيل الحياة الحب والألم . . . » . (١)

ورأى فيه شاعر النيل حافظ إبراهيم « شاعراً كثير الاعتماد على نفسه فى شعره ، فلا يتسلق على كلام غيره . . . وأثر ذلك بيّن فى غزله ووصفه ؛ فقد نحا فيهما منحى عصرياً جديداً »(٢) .

ويشايعه فى هذا المعنى الأستاذ محمد طاهر راشد الذى يرى أن ميزة رامى « هى عدم انتحاله شيئاً من معانى الغربيين على كثرة إدمانه النظر

---

(١) عدد السفور الصادر فى ١٩١٧/١١/٢ .

(٢) عدد عكاظ الصادر فى ٢ يناير ١٩٢١ .

فى أشعارهم»[١] .

ورامى عند الأستاذ محمد عبد المجيد حلمى[٢] : «شاب طروب لعوب لا تراه إلا ضاحكًا مازحًا خفيف الروح ، ولا تقرأ شعره إلا مناحة وعويلا وأسى قتالا . . . ومن هنا يقول قوم إن «رامى» صناع ماهر ينتزع البكاءَ من الضحك، ويصور الألم من مادة الطرب والسرور! وإلا فكيف تجد قيثارة نفسه صافية مازحة لا تركن إلا إلى طرب ولذة، ثم تنشد ألحان تلك القيثارة فإذا هى صورة أخرى لنفس غير نفس رامى ؟!» .

أما الأستاذ عثمان حلمى فعنده : «شعر رامى أول شعر فى عصرنا ينبهنا إلى شعر الأندلس . شعر منغوم موسيقى إلا أنه ليس بالعميق التفكير . فرامى يفهم القارئَ كل ما يريد أن يقول بسهولة ولكنه لا يهيجه أو يثيره ، ولعل هذا هو السر الوحيد فى ميل الكثيرين له»[٣] .

ويقول الأستاذ محمود عماد : «ولقد رأيت رامى وقرأت له، فرأيت شاعراً وقرأت شعراً . . . ولو أنى لم يتح لى شخصه فى يوم أتيح لى قوله ، وأردت فراستى على أن تجمعه من شعره فتجرد لى من كل بيت له عضواً ، لاستوى أمامى شبح ضئيل متهدم ، للدمع فى خديه أخاديد ، لا يتكلم إلا همساً ، ولا يهمس إلا أنيناً . أما وقد رأيته وحققته فلا أكاد أوقن أن شخصه هو الموزع فى شعره لأنى أعرفه شاباً ممتلئاً صحة ونشاطاً وإن لم يمتلئ لحماً وشحماً . لا تفترق شفتاه إلا عن ضحكة ولا تلتقيان إلا على بسمة»[٤] .

وكتب عنه الأستاذ مصطفى الدباغ «أحمد رامى شاعر الحب والدموع أو «ألفريد دى موسيه العرب» .

---

(١) عدد السفور ١٩٢٠/١/٢٧ .
(٢) عدد كوكب الشرق ١٩٢٦/٧/٢٦ .
(٣) عدد السفور ١٩١٨/٨/١٥ .
(٤) عدد الحال ١٩١٧/١١/١٥ .

والأستاذ تلاميذ كثيرون فى مصر وفى سوريا والعراق وفى فلسطين ينسجون على منواله ويستمدون من روحه وعاطفته ، وأخص بالذكر منهم الشاعر الفاضل إبراهيم طوقان ، والشاعر الرقيق أبو سلمى ، وأخونا الكاتب والشاعر المقل أكرم الخالدى (ابن الوليد) .

ومن طرائف ما كتب حول رأى تلك الأبيات التى نظمها فيه صديقه الأستاذ أمين عزت الهجين :

لو كنت غانيـــة لكنـ ت عشقت روحك والمعانى
وجلست بين يديك أسـ مع فى الدجى عذب الأغانى
وتخذت خفق فؤادك الحسا س فى النجوى لسانى
وشممت ورد رباك فيا ح الشذا حلو المجـــانى
حسبى فخـــاراً أن تكو ن عشقتنى دون الغـــوانى
ووهبتنى عـــرش الخيـــا ل وجئتنى بالصولجـــان
وأرى الحسان يقلن عنى هذه فخر الحســـان
كل تـــروم لنفسهـــا قدرى وتحسدنى مكانى
وتبيت طـــائرة الفـــؤا د وراء أســـراب الأمانى
أنا من شربت رحيـــق إخلاصى وذقت جنى دنانى
وكرعت من صفوى وشمت وجيعى ممـــا أعـــانى
ولمست آلامى وكيف طوى ابتساماتى زمانى
فاصدح بشعرك لى لعل الشعر يذهب ما شجانى
وتعال أحمل ما عنـــاك وأنت تحمل ما عنـــانى
ونبيع للكأس الهمـــوم ونشـــترى منهما الأمانى

ويشبه الأستاذ على أدهم فى الشعر التصويرى بالشاعر مور صديق الشاعر بيرون ومع هذا فإنى أرى الشعر التصويرى الذى تتجمع فيه لوحة بألوانها وظلالها داخل إطار خاص ، لا يوجد عند رامى إلا قليلا . . . فى حين نجد عنده وبخاصة فى أغانيه الناحية التحليلية أو وحدة الموضوع . . .

ويقول الأستاذ الهراوى : « ولا عيب فى رامى إلا أنه ناظم در مصقول وغير مصقول ، ولعل ذلك راجع إلى أن شاعرنا العزيز يندفع وراء معانيه غير متريث فى اختيار عباراته على الأسلوب المصفّى . . .

نرى له عيباً آخر وهو ضيق ألفاظه عن معانيه حتى ليكاد المعنى يختنق من طوق اللفظ . ومع ذلك فقد نرى أن ديوان رامى أشبه (بخريطة الجغرافية) تمثل الدنيا العريضة على صفحة محدودة . . .

وأكثر ما تظهر مواهبه إذا حدثك عما فى طيات نفسه من الشجون ، أو نقل إلى سمعك حنينه ونجواه ، أو وصف إلى عينيك مجالى الطبيعة فى الطير الصداح أو الزهر الفياح أو الغمام السارى أو النهر الجارى ، أو السماء ذات النجوم ، أو الرياض ذات الكروم ، أو الأغصان يميل بها النسيم ، أو المهاة بين عود وقينة ونديم . . . »(١) .

ويرى الأستاذ إبراهيم زكى(٢) أن : « . . . رامى يميل فى وصفه دائماً أن يُلبس الشىء الموصوف لباساً من نفسه الحزينة ، ولا يكاد يرى شيئاً إلا ويجد له مشابهاً فى نفسه . ومن ذلك قصيدته فى وصف قصر مهجور بعد أن فرغ من وصفه وصفاً دقيقاً قال :

وسرت فيك وحشة مثلما خيـ ـم حزنى على فؤادى الكسير
نحن صنوان فى التعاسة يا قصـ ـر كلانا أشقاه عسف الدهور

ولعل هذا الأنين الموصول الذى لمسه الناقد هو الذى حدا بناقد أصيل كالأستاذ السحرتى إلى أن يسلكه بين شعراء « اللهفات الغرامية الذليلة . . . كأنما حلا له أن يغنى حبه الضائع الذليل فى قفص حديدى »(٣) .

فتقول مجلة البيان : « رامى شاعر غزل مطبوع عذب الروح يأبى إلا

(١) عدد النظام الصادر فى ١٤ /١٢/١٩٢٠ .
(٢) عدد السفور الصادر فى ٢٤/١٢/١٩٢٠ .
(٣) كتاب « الشعر المعاصر على ضوء النقد الحديث » للأستاذ مصطفى عبد اللطيف السحرتى ص ٢٣٠ .

أن يكون شاعراً من جميع نواحيه كأنه يجارى العباس بن الأحنف الشاعر الغزل الذى كان كله شعراً وظرفاً وطبعاً يتدفق ، وقلباً من قلوب الطبيعة يخفق» (١) .

تقول صحيفة عكاظ : «ومن الهراء قوله يعنى جذوة حبه المعنوية :

جذوة فى قلبه لو هاجهـا   هائج يسطع فى الصبح ضياها

فلم قال الصبح ، ومعنى البيت كلما هاجها هائج سواء كان ذلك فى الظهيرة أو الضحى أو المساء . . . فهل هى لا تسطع فى الظهيرة إذا هاجها هائج . . . »

لقد غاب على الناقد اللمحة الفنية فى لفظة «الصبح» من حيث موضعها فى البيت ، وحسبها حشواً يتلقفه عيباً يغمز به الشاعر . . . ولو نفذ حسه إلى بلاغتها للدلالة على شدة وهج الجذوة حتى إن نور الصبح الغامر لا يغطيها فهى تظهر فيه ... لا بل تسطع وتضىء . . . ولو استبدل الشاعر بلفظة «الصبح» لفظة المساء كما أراد الناقد لخبت بلاغتها لأن الظلام يظهر ضوء الشمعة ، فلا ميزة للجذوة تظهر فيه . ويبدو أن الناقد نسى نقد الخنساء بيت حسان :

---

(١) مجلة البيان العدد الصادر فى يناير ١٩١٨ .
وقد عقدت السفور عدة مقارنات بين رامى ومعاصريه من الشعراء
كما تناولت شعره صحف : الاتحاد ، الجامعة ، فلسطين ، الصاعقة ، فى العشرينات ، ولم تخل كتابتها من إسراف فى المدح أو الذم .
فى عددها الصادر فى ١٩١٨/٣/٢٨ مقارنة بين المازنى ورامى
وفى عددها الصادر ١٩١٨/٤/٢٥ مقارنة بين شكرى ورامى
وفى عددها الصادر ١٩١٨/٥/٢٣ مقارنة بين شكرى ورامى
وفى عددها الصادر فى ١٩١٨/٥/٣٠ مقارنة بين شكرى ورامى
فى عددها الصادر فى ١٩١٨/٧/١٨ مقارنة بين شكرى ورامى

لنا الجفنات الغرّ يلمعن فى الدجى وأسيافنا يقطرن من نجدة دما

وكيف ودت له الشاعرة البصيرة بالنقد ، الراسخة فى الفن أن يقول :

لنا الجفان الغرّ يضئن فى الضحى وسيوفنا يسلن من نجدة دما

لقد أرادت له أن يغير فيما يغير من ألفاظ البيت لفظتى « يلمعن » و « الدجى » وأن يضع مكانهما « يضئن » فى « الضحى » ليكون المدح أبلغ وأوفى وأدل على عظمة صاحبه وكرمه وشجاعته [1].

* * *

هذا رأى النقاد العرب والصحافة العربية فى شعر رامى . . . ترى ما هو رأى الأقلام الأجنبية فى شعر الشاعر ؟

كتبت الإجبشيان ميل [2] :

« His style is terse. Every verse contains a thought expressed in delicate and fitting language, and the whole is a work of art» .

وكتبت الإجبشيان ميل فى موضع آخر :

« Ramy Effendi dees not model his art on that of other poet, he appreaches all, he describes from his own original standpoint whether it be beauty, or the mourning of Nature, childhood or early old age. »

كما كتبت الإجبشيان جازيت تقول [3] :

---

(١) واضح أيضاً أن الخنساء أرادت بلفظتى (الجفان) ، (يسلن) الدلالة على الكثرة .

(٢) الإجبشيان ميل فى عددها الصادر فى ١٩١٧/١١/١٧ والترجمة العربية : « أسلوبه محكم ، وكل مقطوعة تشتمل على فكرة يبرزها فى لغة رقيقة موائمة ، وشعره فى مجموعه يحمل طابع الفن » .

(٣) الإجبشيان ميل فى ١٩٢١/١/٢٩ والترجمة العربية : « ورامى (أفندى) لاينظم شعره على منوال غيره من الشعراء . وهو حين يصف يصدر عن عالمه الخاص =

«Rami Effendi seems to write only when the spirit moves him, when he is touched by a beautiful piece of natural scenery, by a lovely face, by the memory of a a great loss-like that of his father».

وتقول الإجبشيان جازيت فى المقال نفسه : (١)

«The prevailing vein in these poems is melancholy, as Rami seems to look only at the dark side of things, for even in describing nature, he turns to a sad memory which to him, agrees with the view befere him». (٢)

وقد ترجمت The Egyptian Gazette فى عددها الصادر فى ٢٠ أغسطس سنة ١٩٣٦ قصيدته «الجندى المجهول» بعد أن حيث ظهور الجزء الثالث من ديوانه .

وترجمت مجلة The Sphinx إلى الإنجليزية قصيدته بنات (٣) الشعر .

ومطلعها

To the Muses

OH Mu:es Why

have you my

side fersaken

= سواء أكان الموصوف الجمال أم أنين الطبيعة أم عهد الطفولة أم المشيب المبكر .

(١) الإجبشيان جازيت فى فبراير ١٩٢١ والترجمة العربية : « ويبدو أن "رامى" إنما يكتب حين تخايله عرائس الشعر ، وحين تهتز شاعريته لمشهد جميل من مجالى الطبيعة أو وجه رائق الحسن أوذكرى أليمة كفاجعته فى أبيه . . .

(٢) والترجمة العربية : « والعنصر الغالب فى شعره هو الحزن ، لأنه فيما يبدو ينظر إلى الأشياء من ناحيتها القاتمة حتى ليكاد ، وهو يصف الطبيعة ، يرتد إلى ذكرى حزينة تلائم المنظر الذى يراه أمامه » . . . .

(٣) مجلة أبو الهول فى أول يناير ١٩٢١ والترجمة العربية :

بنات الشعر ماألهاك عنى وماذا نفر الأشعار منى

وقصيدته : عهد قديم — To an o'd Love

ومطلعها [١] — Ah, my yearing for
past day is
everlasting

كما ترجمت لرامى صحيفة Le Journa' des Poetes البلجيكية
واختارت له قطعته [٢] ذكرى النسيان Oublier, C'est Encore Se Souvenir.
ومطلعها :

هجرتك علنى أسلو وأنسى — Je me suis éloiné de toi,
وأطوى صفحة العهد القديم — dans l'espoir de t,oublier,
et de fermer pour tour toujours,
le livre du passé.

وهى مكونة من أربع قطع .

وترجم له Gaston Brthey فى كتابه Stages et Peetes D'Egypte
قصيدة « الجندى المجهول » ص ٧٥ — ٧٦ ، كما نوه بمسرحياته
وترجمته « لرباعيات الخيام » وعده ألفريد دى موسيه مصر . . .

كما ترجم له قصيدته « الوحدة » التى مطلعها :

رقد الساهدون حولى وعينى ليس تقوى على انطباق الجفون

وقد ترجم رامى نفسه بعض شعره إلى الإنجليزية سنة ١٩٣٦ . . .
مثل أغنيته : « يا غائبًا عن عيونى » :

---

(١) والترجمة العربية :

ياحنينى إلى الليالى المواضى وشقائى من الليالى البواقى

(٢) Le Journal des Poetes فى ١٩٣٢/٥/٢١ ، وقد ترجمت الصحيفة مختارات من شعر المازنى والعقاد وأحمد شوقى وحافظ إبراهيم .

On the banks of the Nile among the flowers,

In the glimmer of the moon under the trees,

On board a beat, to drift together,

Chanting me lays of love and hope,

Till the bowers of heaven resound your song,

and the world listens, while I weep.

ويقابل هذا من القصيدة فى العربية :

« يا غائبا عن عيونى » :

على ضفاف النيل بين الزهر   وفى ضياء البدر تحت الشجر
أو فاهبط الزورق يسبح بنا   وغنى لحن الهوى والمنى

واجعـــل سماء المغـــانى
تدوى بعـــذب الأغـــانى
تصغى لك الدنيا وأبكى أنا

أما فارس فقد كتبت صحيفتها جهره نما فى العدد الثامن سنة ١٩٣٢ ص ١٩ تقول : ١

« أشعار شرا در محافل أنس وطرب بانغمات فرح أفزا ، ولحنهاى غم ربا ، لوليان صاحب غنا ، بمسامع أصحاب دوق وإدراك ميرسانند ، وفرح بر فرح ، ونشاط بر نشاط حاضرين ميفزابند واين جوان فاضل را مصريان (شاعر شباب) بخوانند وازاسنيد فن شعر عصر داتند » .

والترجمة العربية :

« وأشعاره فى محافل الأنس والطرب بنغماتها المنعشة وألحانها الشجية تصل إلى مسامع أهل الذوق والإدراك وتزيد فى فرح الحاضرين ومرحهم . وهذا الشاب الفاضل يدعونه فى مصر شاعر الشباب ويضعونه بين أساتذة فن الشعر فى هذا العصر » .

* * *

وبعد عرض رأى النقد والصحافة الأدبية . . . عربية وأجنبية فى شعره ، فإن من واجب الدراسة أن تلمح بعين النقد مثل هذا البيت :

قل لهم ساكن على النيل يهدى　　شوقه عن يمينه والشمال (١)

يمينه والشمال كلام مرصوص إلا إذا كان الشاعر يعدّ الشرق كله محراب صلاة فهو يسلم تسليماً .

ومثل هذا قوله من قصيدة « حنين » (٢) :

وشبابى ضحية لك يا مصر　　وعـزت ضحية الأعمار

كلام يفتقد حرارة الروح الوطنية المتأججة . . . إنه كلام فحسب أليس فيه لفظة « ضحية » وهى من ألفاظ الشعر الوطنى ؟

وتخذله شاعريته أحياناً فيقول (٣) :

غيرة النفس أصلها الخوف من ميل　　حبيب إلى محب ثـان

فإذا ما أيقنت إخـلاص من　　تهوى قطعت الشكوك بالإيمان

كما تقول العامة يقطع الشك باليقين . وكثيراً ما تعذب العامية وتقرّب الفصحى إلى الحياة بنبضها . والمثل حى فى شعر البهاء زهير ولكن بلقطات معينة لها نكهة خاصة .

* * *

وإن تصفية شعره مع كل طبعة لا شك أنها أخفت أخطاء وسمات موضوعية وفنية . وما معنى التصفية غير طرح القشور استغناء باللباب . . .

* * *

---

(١) قصيدة « نجوى » — ص ٩٦ من الديوان .
وهذا المعنى الذى أنقده هنا فى موضع النقد قد استشهدت به على معنى شخصى ص ٤٤ لاعلاقة له بالفنية .

(٢) قصيدة « حنين » — ص ٦٠ — ٦٢ من الديوان .

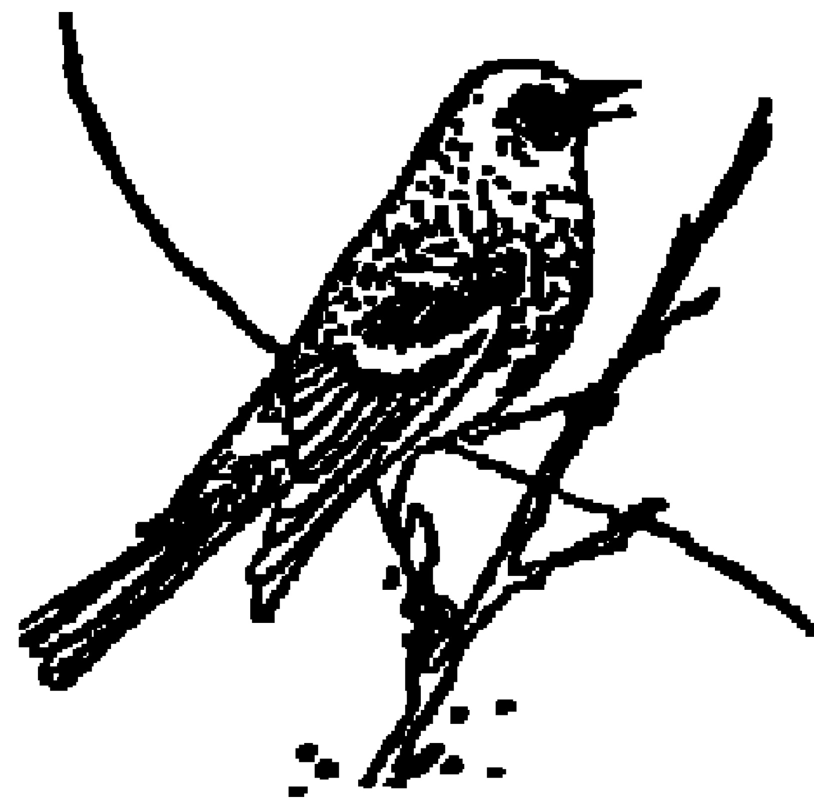
(٣) من قصيدة « الغيرة » — ص ٥٦ من الديوان .

١٢٠ .

وبعد ؛ فلقد شغل الشاعر عصره : كتابه وصحفه .

ولكن متى كان حكم الناس — مدحوا أم قدحوا — مقياساً دقيقاً يعتمد عليه فى اطمئنان ، الناقد أو المؤرخ . . . إنهم ليسوا بمنجاة من المنازع البشرية التى جبلت عليها نفوسهم ، تلك المنازع التى ترجح معها كفة الميزان أو تشيل وما بها عامل نقصان أو رجحان . . . والناس منهم العدو والصديق . . . والمنافس والقرين . . . والنافس والقرير . . . فحكمهم لا يبرأ — وأنّى له — من الهوى ؛ ولا يسلم من الغرض فهو مدخول من هذه الناحية ، مأفون لهذا السبب . . .

ولكنه مع هذا كله ، له — على عيوبه — دلالته ومعناه . . . وهو بعامته يمثل — على الأقل — ظلال الشخصية المدروسة فى عصرنا — وفى الظلال من المعانى والإيحاءات ما يكمل الصورة المعروضة ويبرزها . . . أو يبرز وجها للحقيقة فيها .



رباعيات عمر الخيّام

. . . ووقع فى يد أحمد تلميذ السنة الأولى الثانوية ترجمة البستانى لرباعيات الخيام فبهرته وتهللت نفسه للطائف المعانى فيها . . . وبعد سنتين قرأ ترجمة محمد السباعى عن الإنجليزية .

ثم دخل المعلمين وأتقن الإنجليزية فقرأ الرباعيات فى الإنجليزية عن فتز جيرالد ، ولكنه أحس إحساساً خفياً أنها فى لغتها الأصيلة لا بد أن تكون أسمى من هذا . . . لقد تفتحت نفسه الآن وتيقظ طموحها ، فلم تعد تقف عند السطور ، بل تتطلع إلى ما وراءها ، ولم تعد تقنع بالميسر لها بل تنشد الكمال الممكن . . . وطوى طالب المعلمين جوانحه على أمنية . . .

تخرج أحمد من دار المعلمين ، واشتغل بالتدريس ، ثم التحق بدار الكتب . . . وكأن الله أراد به خيراً فهيأ له أسبابه . . . لقد بدا للدار أن ترسل مبعوثاً لدراسة فن المكتبات واللغات الشرقية فوقع الاختيار عليه . . .

وما أسرع ما سعى الحالم بالخيام إلى باريس . . . وسأل مدير البعثة شاعرنا عن اللغة الشرقية التى يروم دراستها فقال له على الفور : الفارسية . . . وهنا سأله الرجل مستطلعاً : لماذا ؟ فقال رامى : إن فى دار الكتب ألف مخطوط بالفارسية ، واللغة العربية ملأى بالألفاظ الفارسية ! .. وما زاد . . . وما حاد ؛ وإن كان الجواب الصحيح أو أهم ما فيه ،

مكنونًا فى نفسه لا يُبديه . . . لعله قدر أن من اللياقة أن يقول ما قال ليخلع على مهمته طابع الجد ، ويضفى على رغبته صفة الرسمية .

على كل حال لقد كان له ما أراد ، ودرس اللغة الفارسية ليقرأ فيها رباعيات الخيام . . .

وانصرم عام على طالب البعثة ، ولكنه لم يضع هباءً ، فقد أصبح يفهم عن الفارسية . . . ووقعت له فى هذه الأثناء نسخة من الرباعيات بالفارسية مترجمة فى باريس إلى الفرنسية نثراً فحدثت به إلى الاطلاع على غيرها . . . حتى إذا أنس إلى الفارسية ترجم لنفسه الرباعيات على هامش كتاب المسيو نيقولا (نسخة طهران) .

ثم قابل أحمد رامى، الأستاذ إدوارد براون فى كمبردج ، وذهب إلى برلين وغيرها من العواصم ، والرباعيات أبداً تخايله . . . كان يتغنى بها بينه وبين نفسه حتى رضى واطمأن إلى أن يخرجها سنة ١٩٢٤ ، فكان بهذا أول شاعر شرقى عربى يترجم رباعيات الخيام شعراً عن الفارسية(١) . . .

* * *

وحين ظهرت رباعيات الخيام فى ثوب عربى من نسج رامى اختلفت الآراء إزاءها اختلافها إزاء شعره . . . فبينما يقول الأستاذ محمد فريد أبو حديد : « وإنا لمغتبطون بأن فى مصر مثل رامى من يذيقنا بمثل هذا اللفظ السهل الممتنع شيئاً من اللذات المعنوية التى يشعر بها قارئ

---

(١) عندما ترجم رامى الرباعيات لم يلبث أن تحمس لها الأستاذ سليم حسن فطبعها له فى المعارف وهو لايزال فى باريس .. وبعد أن ترجم رامى ، لأول مرة فى الشرق ، الرباعيات عن الفارسية شعراً تلاه الزهاوى والصافى النجفى وجامد الصراف وعبد الحق فاضل من العراق ؛

كما ترجمها عن الإنجليزية محمد السباعى ووديع البستانى .

وقد طبعت ترجمة رامى للرباعيات سنة ١٩٢٤ ، ١٩٣٢ ، ١٩٥٠ ، ١٩٥٢ .

رباعيات الخيام»[١] ، إذ بالأستاذ سلامه موسى يقول : « كلا البستانى والسباعى ترجم عن الإنجليزية ، أما الترجمة الثالثة فهى لأحمد رامى وقد ترجمها عن الفارسية . . .

وبعد المقابلة والمراجعة أقول إن السباعى قد فاز بمراحل على غيره فى ترجمة الرباعيات . وليس ذلك بغريب . فالتبريز فى الترجمة هو على الدوام لمن كان أكثر تضلعاً فى اللغة وأتقن صنعة . . . والسباعى لا يُزاحم فى كلتا الخاصتين » [٢].

على حين يقول الأستاذ صدقى عن رامى : « وتمتاز ترجمته على سابقتيها بأنها أقرب مأخذاً وأرق حاشية وأجمل تصويراً لولا أن بعض رباعيتها أدنى إلى النثر منها إلى الشعر فيحس القارئ عند قراءتها بافتقار إلى النغم الموسيقى والنشوة الروحية»[٣] . كما أحب الناقد : « لو راعى المترجم الأديب تنسيق الرباعيات حسب تداعى معانيها وتسلسل روحها على قدر المستطاع حتى يبلغ المعنى إلى الصميم من نفس القارئ ويشيع فى أجزائها ، لا أن تعبر الرباعية فى أثر رباعية من نوع آخر ، فيتوزع التأثير ويقل فعله فى النفس . على أننا نعلم أن النسخ أو النسخة التى نقل عنها المترجم الأديب غير متسقة هذا الاتساق الذى نقول به » [٤].

ومن حق رامى على التاريخ هنا أن نسجل أيضًا له شهادة الأستاذ ك . هوار [٥] الذى يقول : « ويظهر لى أن الترجمة تشابه الأصل بقدر ما يتمكن

---

(١) عدد اللواء فى ١٩٢٤/٩/١١

(٢) عدد البلاغ فى ١٩٢٤/٨/٣ . وإنى لأعجب كيف ند هذا الرأى عن الأستاذ سلامة موسى الذى يؤثر السهولة على الجزالة

(٣) عدد السياسة الصادر فى ١٩٢٤/٨/٢٢ .

(٤) عدد السياسة الصادر فى ١٩٢٤/٨/٢٢ .

(٥) الأستاذ كليمانت هوار Huart أستاذ اللغة الفارسية بمدرسة اللغات الشرقية بباريس وقد تتلمذ رامى عليه سنتين هناك .. ويتصل بهذا =

الاصطلاح السامى على نقل الأصل الآرى» .

ومن نقد الرباعيات الأستاذ إبراهيم عبد القادر المازنى فقد عدّ ترجمة فتزجرالد « أشعر صورة » مع إقراره بأنها قد لا تكون أصدق صورة « أما ترجمة رامى أفندى فقد تكون دقيقة ولكن الروح الشعرية فيها ضعيفة ، وحسبك أن تقرأ له :

يا دهر هذا العبد ما ذا جنى فتبتليه بصنوف العنا
والقوت لا يجنيه من غير أن يريق ماء الوجه فى الاقتنا

لتتوهم أنك تقرأ أوراداً لا شعراً . . . أو قوله[١] :

عيشى من غير الطلا مستحيل لأنها تطرد همى الطويل
ما أعذب الساقى إذا قال لى تناول الكأس ، ورأسى يميل

أو قوله :

لا الوصل ميسور ولا مهجتى تطيق حمل الهجر والفرقة
وليس فى وسعى أشكو فما أعجب فى هذا الهوى شقوتى

لتكره الشعر كله والخيام قبل سواه ! على أن له رباعيات وُفق فى

= ما كتبه S. Spiro Bey رئيس القسم الأدبى بالإجبشيان جازيت

«He uses an easy simple language as adopted by Omar, so that the reader finds no difficulty in following the sense the Persian poet desired to convey» .

والترجمة العربية :

لقد استخدم لغة بسيطة سهلة كلغة عمر حتى إن القارئ لايجد صعوبة فى متابعة الروح التى أحب الشاعر الفارسى أن يشيعها .

(١) عنيت بتفاصيل نقد المازنى لأن أدب المازنى موضوع دراسة لى فى كتاب آخر ، فحديثى عنه حلقة متصلة لما كتبته هناك لولا أنه أشد اتصالا بموضوع رامى وأمس به ، إذ الرباعيات تقع من نشاطه الأدبى فى الصميم فى حين أنها عند المازنى لون من الألوان . . .

نظمها بعض التوفيق مثل قوله :

لم يجن شيئًا من مجيئى الوجــود ولن يضير الكون أنى أبيــد
واحــيرتى ما قال لى قائــل ماذا اشتعال الروح ماذا الخمود

ولكننا بعد الفراغ من تصفح الكتاب رأينا أنفسنا نقول ما أشد افتقارنا إلى ترجمة للخيام » .

وفى معرض النقد وقف المازنى عند ترجمة الرباعية :

وإنما نحن رخــاخ القضاء ينثرنا فى اللوح أنّى يشاء
وكل من يفرغ من دوره يلقى به فى مستقر الفناء

وقارنها بترجمته عن فتزجرالد :

هذه رقعة شطرنج القضـــاء ولها لونان : صبح ومساء
ننقل الخطو بها كيف يشاء ثم تطوينا صنادق الفناء

« والصورة هنا أتم والتعبير عن المعنى أدق : والفرق ظاهر بين القول بأن القضاء (ينثرنا) على رقعة الشطرنج . . . والقول بأنه ينقلنا من هنا إلى ههنا كما يشاء هو أصح التعبيرين . وتأمل هذه لرامى أفندى :

لن يرجع المقدار فيما حكم وحملك الهم يزيد الألم
ولو حزنت العمر لن ينمحى ما خطه فى اللوح ذاك القلم

وضع إلى جانبها هذه الترجمة لقول فتزجرالد وهو أسمى وأشعر وأقوى :

أبداً يسطر ما شــاء القلم ثم يمضى ! نافذ الحكم أصم
ليس يمحو نصف سطر ورع لا ولا يغسله دمع سجم

وهذه أيضًا لرامى أفندى :

---

(١) كما نقد ترجمة رامى لهذه الرباعية الأستاذ عبدالله حبيب فى عدد الضياء الصادر فى ١٩٣١/٢/٢٧ .

سمعت صوتًا هاتفًا فى السحر — نادى من القبو (غفاة البشر)
هبوا املأوا كأس الطلى قبل أن — تفعم كأس العمر كف القدر

ويقابلها من ترجمة فتزجرالد :

بينا أحلم والفجـــر رطيب — طرق السمع من الحان مهيب
كأسكم من قبـــل أن تؤذنكم — كأس محياكم بمحتـــوم النضوب

وواضح أن إفعام القدر لكأس العمر — وهو تعبير غريب — دون إيذان كاس الحياة بالنضوب الذى لا مفر منه. . . »[1] .

كما أخذ المازنى على رامى أنه لم يتقيد بالبحر الذى أجرى فيه الخيام هذه الرباعيات . . .

على أننى بالرجوع إلى الفارسية — ومن حظى أنى درستها — وجدت لفظة « پركننذ » ومعناها اللفظى (يجعل ملآن) ، ومن هنا تكون ترجمة رامى ملتزمة النص الأصلى .

* * *

سمع الشاعر هذا كله وانفعل به فكان جوابه على الناقد المترجم الأستاذ المازنى :

« يأخذ المازنى أفندى علىّ — بعد ذلك[2]— أنى لم أتقيد بالبحر الذى أجرى فيه الخيام هذه الرباعيات وهو بحر معدوم فى اللغة العربية فهل أخذ المترجمون قبلى على أنفسهم أن ينزلوا على حكم بحر الذى ترجموه للشعراء .

أما مقارنة حضرة الكاتب ترجمة (فتزجرالد) أو بالأحرى ترجمته له — بترجمتى فشىء لا أرضاه بعد أن وضح للمتأدبين أن فتزجرالد كان

---

(١) عدد الأخبار فى ١٩٢٤/٨/٢ . وقد عاد المازنى فنقح هذا النقد عندما جمعه فى كتابه حصاد الهشيم ص ٩٢ — ٩٨ .

(٢) اكتفيت بهذا من الرد لأهميته .

يترجم الرباعية إلى نثر ثم يحيل هذا النثر شعراً ينظر فيه إلى أذواق القارئين وتمشى المعانى مع اللغة الإنجليزية ، وبعد أن قال ناشر ترجمته لرباعيات الخيام فى نسخة (توختنز) إنه أباح لنفسه حرية شديدة فى عدم التقيد بالأصل . . .

ولئن راق المازنى أفندى (فتزجرالد) نقلا عن الفارسية فلن يروقنا ما ترجم هو نفسه من الرباعيات الإنجليزية . ولن يعطينا صورة عن الخيام الذى شوهت رباعياته فى ترجمتين متتابعتين . . . أما أخذ المازنى أفندى علىّ قولى (تفعم كأس العمر كف القدر) . وعده ذلك تعبيراً غريباً فشىء يُلام عليه الخيام نفسه — إذا صح لحضرة الكاتب أن يلومه . لأنه هكذا تصور وهكذا قال . . . وما ترجمة (فتزجرالد) لهذه الرباعية إلا تغيير تراءى له وفضله على الأصل .

بقى علىّ أن أقول للمازنى أفندى إن (فتزجرالد) أهمل قسماً كبيراً من رباعيات الخيام وهو قسم المناجاة . وفى هذا القسم ، الرباعيات التى لم ترق لحضرته فسماها أوراداً لأنه لم يتعود هذا النوع فيما قرأ من ترجمة (فتزجرالد) . . . أما إنزاله القراء على كراهية الشعر والخيام عند قراءتهم ماترجمت من رباعياته فشىء يطالب به نفسه ، لأن الأذواق تختلف والآراء تتضارب ، والأمزجة تتباين ، ورحم الله امرأ عرف قدر نفسه ولم يبخس الناس أشياءهم . . . » (١) .

لقد لاح الغضب على وجه رامى ، ولكن تساوق رده واتزانه يوحى أنه غضب الطموح الذى تمنى ، فاجتهد ، فأدرك ، ثم غُبِـن أو ظن أنه مغبون . . .

على أن ترجمة رامى للرباعيات مهما تباعدت الآراء فيها أو تلاقت فإن فيها نفحة من روح الخيام ، وظلا منها من طول معايشته ،

---

(١) عدد الأخبار الصادر فى ١٩٢٤/٨/٦ .

واهتمامه به، وحبه له . ولعل رامى كَلِف بالخيام لأن فيه منه أشباها فشاعر الفرس قدرى مثله ، طروب مثله ، غنائى مثله . . . فلا غرو أن يتلاقيا عبر الأجيال . . .

أنا لا أحكم بهذا لترجمة رامى للرباعيات ، فما بهذه السهولة تصدر الأحكام ، ولكنى أيضًا لا أريد أن أتناولها بتفصيل وتحليل ، لأن الترجمة مهما بلغت لا تبلغ عند صاحبها نفسه بله الناس مكان التأليف الأصيل . وكم بين من يترجم عن نفسه بعد مكابدة وإحساس ، ومن ينقل عن غيره مهما كان إعجابه والتفضيل . . . وأنا فى هذا الكتاب أرى الشاعر فى ديوانه . . أرى صورته الحقيقية . . . .

هذا فضلا عن أن الرباعيات ترجمها الكثيرون ودرسها آخرون دراسة وافية[1] يستطيع من يشاء أن يرجع إليها فى تلك المصادر ، فهى فى ذاتها موضوع يُفرد له البحث والتأليف . . . فهى من هذه الناحية ليست خطًّا من موضوع بل هى موضوع كبير شائك أجهد البحث وشعب الآراء بين محو وإثبات فلم ترق فيه حجة بعد ، إلى فصل الخطاب . . .



---

(١) ممن عنوا بدراسة الرباعيات : الأستاذان الصراف وعبدالحق فاضل .



القسم الثالث

شاعر الأغانى

- رامى وفن الغناء
- أغانى رامى

رامى وفن الغناء

عاد رامى من باريس سنة ١٩٢٤ ، أى فى أعقاب الحرب العالمية الأولى(١) . . . . فوجد الإباحية منتشرة فى الغناء المصرى . . . وسمع أختيه وكانتا فى ذلك الوقت دون الخامسة عشرة — سمعهما تغنيان الأغانى المنتشرة التى ترخى الستارة أو تفتحها فكبر عليه — وهو الذى غنى له أبو العلا فى أيام سفره . . « الصب تفضحه عيونه » . . فحاول أن يحدث انقلاباً . وكانت أسبابه ميسرة له حين عرف أم كلثوم وصاغ لها أول أغانيه(٢) :

خايف يكون حبك لى   شفقة على

وهنا بدأ تطور حاسم فى حياته . . . إذ منذ هذا التاريخ خلف الشعر — إلا قليلا — إلى الزجل .

ولم يكن معروفاً فى ذلك الوقت من شعراء الأغانى إلا « بديع

---

(١) كانت الحرب العالمية الأولى من أسباب تدهور الغناء ، فالحرب يتبعها انهيار القيم وانحلال الخلق ، ولاأدل على هذا من انتكاس الأغانى بعد الحرب العالمية الثانية مما اضطر الشاعر ونظراءه إلى معاودة الكرة من جديد كما سنرى .

(٢) هذه الأغنية تعد أول أغانيه لها ، لأن قصيدة « الصب تفضحه عيونه » غناها قبل أم كلثوم الشيخ أبو العلا محمد ، وقد أخذتها عنه لتأثرها به . وتتلمذها عليه . فضلا عن الشائع فى ذلك الوقت أن اللحن يستطيع أكثر من مغن أن يؤديه .
والأغنية أيضاً أول أغانيه الزجلية .

خيرى » و « يونس القاضى » و « أمين صدقى » ، ولكن « رامى » لم يتأثر بهم ، وإنما كان متأثراً بقصائد أبى العلا محمد والأدوار القديمة لعبده الحامولى ومحمد عثمان . وكان يسمعها من أبى العلا محمد وإبراهيم عثمان وصالح عبد الحى .

والواقع أنه لم يفكر فى نظم الأغانى إلا بعد معرفته أم كلثوم . نزل رامى الميدان فإذا « الحسية » شائعة متغلغلة فكان رد الفعل الطبيعى تلك الروما نطيقية التى انتهجها رامى . كانت هناك طبقة متوسطة مثقفة أو فى حكم المثقفة . وهذه الطبقة لم يصل بها المال إلى التمتع بالأوبريتات الأجنبية التى كانت تجلب إلى مصر بين الحين والحين من أجل فئة قليلة مترفة . . . ولكنها أيضاً كانت تنفر ، لتميز تحس به ، من الفن الرخيص الحسى لو جاز أن يسمى هذا الدرك فناً ، فلم يكن بد من مقام وسط تمثل عندها فى أغانى رامى الرومانطيقية فى عاطفتها وصورها وألفاظها . . . .

وقد مكن لهذه الرومانطيقية فى الغناء رومانطيقية أخرى فى الأدب على يد خليل مطران فى الشعر ، وجبران فى القصة ، ومصطفى لطفى المنفلوطى فى المقالة . فسلكت الرومانطيقية طريقها إلى النفوس والعقول من هذين السبيلين حتى أصبحت مدرسة شايعها فى الأدب الأستاذ أحمد حسن الزيات مترجم « روفائيل » و « آلام فرتر » ، والدكتور أحمد زكى مترجم « مرجريت » أو غادة الكاميليا ، والأستاذ على أدهم مترجم « رينيه » لشاتو بريان .

وتابعها فى الغناء — بعد حين — أمين الهجين وحسين السيد ومأمون الشناوى ومصطفى عبد الرحمن وهم من تلاميذ مدرسة رامى الغنائية الرومانطيقية ، كما تبعه آخرون لم يرتفع تقليدهم إلى المنافسة ، فلم يلبثوا طويلا حتى تواروا . .

إن الذين ألفوا الأغانى بعد ١٩٢٤ ، وبعد تأثر الشعراء بأغانى شوقى لعبد الوهاب ، وأغانى رامى لأم كلثوم ، كثيرون .

ومن هنا يلقى قوم وزر النواح الشائع فى أغانينا على رامى بحكم تأثر مؤلفى الأغانى به حين عز عليهم تقليد « اون » بيرم وهو مصور فنان لا عاشق محروم . . .

وأحسب أن هذا اللوم سينقشع أو يتناساه أصحابه بعد ظهور اللون الجديد الذى طلع به عبد الرحمن الأبنودى وأحمد حمزة . وأغانيهما لا تتزايل فيها العاطفة أو تتسايل بل تقتصد على وقدتها ودفئها وتعبر بألفاظ صادقة عميقة وحميمة . وهى على بساطتها الطبيعية ، حارة ، كشمس الصعيد . . . وهى تنبعث من العاطفة العامة . . . ولهذا يدور كثير من هذه الأغانى حول وجدان البسطاء ومشاعرهم واهتماماتهم اليومية بألفاظهم البسيطة . . . ألفاظ كل يوم . . . الفراق فيها فراق الأم لا بنها المجند . والحنين ، حنينها إلى عودته كحنين الوطن إلى النصر . . . حتى الحبيب يكنى عنه بلغة البسطاء « أيام كان لى حمام يعشيج الغيه . أيامها كنت ما أشبع كلام ولا ملاغيه » .

وقد ارتاد طريقهما آخرون من الشباب . . . وتحضرنى هنا ، للمقارنة ، أغنية « الموانى » وأغنية « أيها الفلك » لرامى . فأغنية رامى ذاتية يحددها مطلعها :

أيها الفلك على وشك الرحيل   إن لى فى ركبك السارى خليل

أما أغنية « الموانى » فعين مفتوحة على شتى الأحاسيس . . . أحاسيس الناس كلهم ؛ فناديل تلوح للى قضى غيبه . وانتظار طويل لوعته مواويل ولهفه بتنور فى القلوب قناديل ، ولقا الغريب وشوق المسافر ، ودموع وابتسامة وقولة بالسلامة واهو كله فى الموانى . . .

مذاق آخر . . .

كما يمثل مرسى جميل عزيز لوناً مختلفاً . . . فاكهة جديدة . . . لوناً بلدياً فيه طعم أولاد البلد و « طعامتهم » . . .

ورامى القاهرى تختلف أغانيه فى قاهريتها عن أغانى صلاح جاهين ، فرامى ابن بلد مترف (رايق) . . . أما صلاح جاهين فابن بلد لوحته الشمس « كالرجال السمر فوق السفينة » إنه يترجم عن المصرى ع الدفة وعن الفلاح والعامل والطفلة أم ضفاير . . . الأغنية عند صلاح جاهين موكب زاخر . . . . زفة تستهوى العين المصرية . . .

لم يحتفظ بالرومانسية الحالمة وسط ضجيج العصر إلا شفيق كامل ، فأغانيه ناعمة الملمس كالحرير والحبيب عنده كائن أسطورى أحلى من الناس وأشعارهم ولم لا ؟ أليس أمل حياته ؟ (ياريت زمانه مايصحهوش) كما يشتهى ! . . .

* * *

شبت الحرب الكبرى الثانية ، وانتقل المال بل تدفق نحو الطبقة الدنيا ، فخرج من بينها من اصطنع فناً يسرها على طريقته فعادت الحسية تطل برأسها من جديد . وكان تيارها جارفاً طاغياً هذه المرة . ووجدت أم كلثوم – أن من مصلحتها ألا تقاوم التيار وتعترض سبيله بل تجاوزت هذا إلى مسايرته فى ذكاء حين طلبت من بيرم الفنان الشعبى أن يؤلف لها . . . ولم نلبث طويلا حتى سمعناها تغنى من تأليف بيرم التونسى « الآهات – الانتظار – الليالى – الأمل – كل الأحبه اتنين اتين – حبيبى يسعد أوقاته » وغيرها من الأغانى الجميلة الشعبية بل صنع لها بيرم الموال وغنت له « الأوله فى الغرام والحب شبكونى » .

وكأن المؤلف والملحن كانا على ميعاد ، أوكأن طبائع الأشياء ارتضت أمراً ، فقام بتلحين هذه الأغانى الموسيقى الفنان زكريا أحمد

ذو الطابع المصرى الأصيل ، فجاءت الألحان راقصة تارة ، حزينة شجية تارة أخرى . . . واللونان هما طرفا الطابع المصرى فى الموسيقى والغناء . . .

وراجت أغانى بيرم لأم كلثوم رواجا كبيراً زكّى الفن الشعبى الذى ساد تلك الفترة من تاريخ الغناء ، وأخذ يزحزح الرومانطيقية شيئاً فشيئاً حتى ردها إلى الوراء تنتظر انجلاء الغمرة التى لم تنحسر إلا بعد أن انصرمت سنو الحرب ، فشرعت الرومانطيقية تكافح من جديد ، وهنا ألف رامى « سهران لوحدى » و « جددت حبك ليه » و « ياظالمنى ».

* * *

وإذا كان الفن الشعبى يقابل مدرسة رامى فإن بيرم — وهو عميده — لا يعدّ رأساً لمدرسة ، لأنه طراز وحده ليس لأسلوبه بطابعه المعين مقلدون كما هو الشأن عند رامى رأس المدرسة الرومانطيقية فى الغناء . . . على أن اللونين : الرومانطيقية والشعبية كثيراً ما يلتقيان فى الصور ، وإنْ كان بيرم ينفرد بصور شعبية لا يشائيه فيها أحد . نقف ملياً عند لوحته « الليالى » فهناك أهل الهوى :

فيهم كسير القلب والمتألم — واللى كتم شكواه ولم يتكلم
واللى قعد بعد الحبايب وحده — و بات حزين يشكى هيامه و وجده

وفيهم

خل انعطف على خله — يقول له لحن الشوق وخله يقوله
ياليل . . . . . ياليل . . . — ياليل . . . . ياليل . . . .

وفيهم

ناس من قلوبها تقول ياليل — وناس على الأرغول تقول ياليل

وفيهم الشاعر يهتف

احنــا معانا بــــدر   طالع فى ليـلة القدر
فيها حبيب القلـــب   وافى ووفى النـــدر
هوه يقول ياليل ياليل   واحنا نقول ياليل ياليل
وكلنـا بنقـــول   ياليـل . . . . ياليل

على أن هذه الريشة المصورة البارعة فى التلوين لم تصطنع مثلا هذه الصورة من صور العاطفة :

ياللى رضاك أوهـام   والسهد فيك أحـلام
حتى الجفا محروم منه

إذ الطبيعتان مختلفتان ، فرامى يقف نفسه على هوى يسهده ويستنفده ثم لا ينال ، ولكنه يستعذبه حتى ليعد الجفا نعمة يتمناها ويأسى لفواتها . . . « حتى الجفا محروم منه »

هذا فى حين ينشغل بيرم بصحبة أهل الهوى . . . لا الهوى نفسه . يتلمس مشاعرهم . . . ويتقرى أحاسيسهم ويتمايل مع الأرغول . . . يقول . . . ياليل . . . ياليل . .

ولكن أظهر ما يكون التعارض بين « الرومانطيقية » و « الشعبية » إنما هو فى الألفاظ . . . فحين يقول بيرم التونسى :

الأوله فى الغرام والحب شبكونى   بنظرة عين قادت لهيبى
والتانية بالامتثال والصبر أمرونى   واجيبه منين احتار طبيبى
والتالتة من غير ميعاد راحوا وفاتونى   قولوا لى فين سافر حبيبى

يقول الشاعر أحمد رامى مصوراً اللقاء الأول :

لست أنساه إذ وفدت عليه   وهو ما بين خاطرى وظنونى
فإذا روحه تصافح روحـى   قبل شدى يمينه بيمينى
وإذا الوجه ليس يغرب عنى   أنا شاهدته بعين يقينى

وإذا نحن قبل أن نبدأ القول حبيبان من طوال السنين (١)

فإذا استحال الشعر إلى أغنية « أول ما شفتك » قال :

عينيك قالت ايه لقلبي لما رئيتك
أمال يا روحي ليه من نظرة واحدة هويتك
أول ما شفتك لقيت جمالك بهر عيوني
ومر طيفك على خيالى نادم شجوني (٢)

فالأول عمد عمداً إلى « الأوله » و « شبكوني » لأن الشعب الذى فرض ذوقه فى تلك الآونة يعبر عن غزو الهوى للفؤاد « بالشبلك » فى حين اختار الثانى ألفاظه مضمنة الطيف والخيال مما يعجب أشياعه من المثقفين . . .

سار رامى فى طريق الغناء فألف المونولوج الغنائى وهو قطعة فردية تصويرية (عاطفية) ، وسمعنا من صنعه فى هذا المضمار « هلت ليالى القمر » و « غنى الربيع » و « النوم » وغيرها كثير . كما أذاع رامى الديالوج الغنائى على لسان عبد الوهاب وأسمهان وغيرهما . . .

وهو يفضل فى الأغانى بحر « المجتث » منه معظم مطالعه كقوله :

وقفت أودع حبيبى
غلبت أصالح فى روحى
هلت ليالى القمر
جددت حبك ليه

كما أن الشاعر يحب مُخَلَّع « البسيط » ومن هذا قوله :

النوم يداعب عيون حبيبى

وحين كانت الأغنية قديماً من بحر واحد ترى رامى يمزج البحور

---

(١) ديوان رامى ص ٥ .
(٢) ديوان رامى ص ١٨٤ .

فى الأغنية الواحدة كما يمزج الفنان الأكبر ألوان الشفق فلا تدرى متى بدأ اللون أحمر ومتى انتهى قرمزيًّا ؛ فأغنية «غلبت أصالح فى روحى» مطلعها من «المجتث» ووسطها من مخلع «البسيط» كقوله «صبحت اشكى منك لروحى وفضلت أخبى عنك جروحى» بحيث يحلو تسلسل هذه القطعة من بحر إلى بحر فى غير اعتساف ، فبحور الشعر كالأنغام لا يسهل التنقل بينها إلا بحساب معلوم؛ وهو كشاعر وسميع يحس النشاز من بحر إلى بحر فلا يحمل نفسه عليه، فإن عمل الفنان يتجلى فى توافق الأبحر أو التوافق الموسيقى، وتتضح «النقلات» فى الأغانى حيث يمكن تغيير التفعيلة أو البحر حين يحكم القصيدة بحر واحد ، فالنقلة فيها سبيلها الوحيد ، المعنى .

ولعل مزجه البحور وتسلسله فى النظم من حيث هو بناء ، من حيث هو تفاعيل ، من حيث هو قواف ، يغرى الملحن بالتسلسل فى الأنغام . . تلك الأنغام التى ينصت إليها رامى ويتلمس مضاهاتها لمعانيه . . . وقد سمعته يقارن بين معناه الحزين فى أغنيته «أنت الحب» واللحن المسرور الذى وضع له[1] . . . وكثيرون أولئك الذين سمعوا المعنى ولحنه ثم فاتتهم — فى نشوة الطرب — المقارنة . . .

وعنصر الزمن عند رامى جدير بالملاحظة ، فالوقت عامة بطىء بحكم وقوعه غالبًا على البحر الخفيف (فاعلاتن مستفعلن فاعلات) وهو ليس من البحور المتلاحقة الصوت والمسافات . . . .

ولعله يؤثر البحر الخفيف لأنه بحر مائى بعيد عن الرتابة monotony . . . بحر متصل يعين على تعدد الصور ، والإيقاع فيه مستريح ذو موجات دائرة .

(١) جزء الأغنية المقصود هو الذى تقول فيه .

تجرى دموعى وانت هاجرنى ولا ناسينى ولا فاكرنى

والتغليب هنا يفسح للمقابلة . فمثلا أغنية « جفنه علم الغزل » الوقت فيها سريع لأن الحركة قوية والانفعال حار .

وقد دخل رامى على الزجل شاعراً فهو لم يأخذ فيه إلا بعد أن أصدر دواوينه الثلاثة ، ومن ثم أدخل بحور الشعر وأوزانه فى زجله ، بل لقد استعمل فى أزجاله جميع بحور الشعر وتفاعيله . . . بل خلق تفاعيل جديدة لتتساوق مع اللحن مثل :

شاكى ومين بيسمع منى   باكى ومين بيسأل عنى

وقوله   انس همومك وخلى قلبك خالى
واحبس دمعك دا دمع عينك غالى

وهو من بحر الدوبيت

كما تلمح التصريع والتثنية والتثليث فى : « هلت ليالى القمر » و « رق الحبيب » و « سهران لوحدى » و « فاكر » .

والأبحر إذا اختلفت يكون بينها جامع خفى مثل مزج الألوان عند الرسام . . . وهكذا الشأن عند رامى . والمونولوج بصوره وألوانه إذا صيغ من بحر واحد ، يمل . . . لهذا ينوع ليطرف .

وهو فى أغانيه يؤمن بالوحدة ، فالأغنية عنده فكرة مطردة ونتيجة فى الآخر مثل أغنية « أبات أصالح فى روحى » التى آخرها « وابات أصالح فى روحى » . وأغنية « الشك يحيى الغرام » .

وكأن الدكتور مصطفى سويف يعنى « رامى » حين يقول : « والواقع أننا نستطيع أن نتخذ من التوتر عند الشاعر أساسا ديناميًا لوحدة القصيدة ، فهو يساهم بنصيب كبير فى تحديد الهدف والطريق إليه . والظاهر أن نهاية القصيدة تكون على الدوام ذات صلة واضحة ببدايتها ، وبذلك يتم للشاعر تحقيق فعل متكامل فى صميمه ، ينتهى فى موضع

شبيه بموضع بدئه وإنْ لم يكن هو بالضبط . لأنه عَوْد إلى هذا الموضع بعد رحلة أكسبت الشاعر خبرات جديدة »[١] .

فالوحدة عند رامى لازمة للأغنية لزومها للوحة . كتب الأستاذ إبراهيم المصرى يقول : « ... هذه الوحدة الأساسية المترابطة بها أجزاء المقطوعة بحيث لا يمكن انتزاع أى بيت منها دون أن يهوى البناء كله أمر نادر للغاية عند شعرائنا ، وهو الدليل الحى على هجمة العاطفة المباغتة على الشاعر رامى دفعة واحدة»[٢] .

كما تمتاز أغنيته بالتسلسل حتى لو أنك رفعت منها بيتًا أو بيتين لانهارت ولا كذلك الذى رئى فتغزل أولا . . .

وهو لا يطيل بتأثير العصر وبتأثير روحه هو وجوّه . . .

ولما كان رامى يغنى شعره ساعة نظمه فقد أكسبه هذه ليونة وطراوة وانسجامًا فى الألفاظ . . . ألفاظ الشعر وألفاظ الغناء . ومن أثر تغنيه بالشعر إكثاره من حروف المد vowels وهى غالبة عنده على حروف القصر . . وتفضيل الحروف المتحركة ... الحروف اللينة أى حروف المد يشيع النغم . وهو فى التلحين معين وفى الإلقاء يعطى خطابة وفخامة .

وأغانى رامى الدارجة إنْ هى إلا عربية غير مضبوطة ، وهذا يمدها بالبقاء . . . وهو لهذا محبوب فى تونس والجزائر والحجاز ومن ثمّ وجد الكل نفوسهم فيه . لأنه يكتب بلغة مشتركة نتكلمها جميعا ونتفهمها جميعا وهى العربية الدارجة فوق ما فيها من مصريته ، الروح والعذوبة .

* * * .

(١) كتاب (الأسس النفسية للإبداع الفنى) للدكتور مصطفى سويف ص ٢٨٣ .

(٢) السياسة — العدد الصادر فى ١ / ٨ / ١٩٢٦ .

وأغانيه فيها من المعانى ما لم يسبق إليه . ولا يهون منها أنها انساقت إلى زجل ، فإن الزجل أو الشعر المقفى ليس إلا أداة تعبير ، والمعول الأكبر على الصورة ... على الإحساس الدافع الموحى ... على الحياة المبثوثة فى القطعة كائنة ما كانت هذه القطعة قصيدة أو طقطوقة . . . سواء .

ومن النقاد من يعده إماما فى شعر الغناء . . . كتب الأستاذ محمد أمين حسونة : « وإذا كان لأحد فضل على الغناء العصرى ، فلرامى وحده ، فقد أعاد إلى الغناء العربى المعانى التى كانت شائعة فى غناء عبده الحامولى ومحمد عثمان ، وخلع عليه مسحة طلية من الأخيلة السامية والتشابيه العالية ، بما يوقظ فى النفس شتى الأحاسيس . وقد أوجد لشعره الغنائى « مدرسة » إذ حذا حذوه أكثر الشباب من الشعراء الناشئين ، وملأوا أشعارهم الغنائية بذكر الأنين والحنين والأيك والشدو وما إلى ذلك من الألفاظ التى نسجوا فيها على منواله . وما شعر شوقى الغنائى إلا تقليد لرامى ، ولم يعرف عن شوقى أنه نظم الشعر الغنائى قبل ذلك »[1] .

وفى رأى الناقد أن (أغانى رامى تمثل فى بساطتها وروعتها الروح المصرية أصدق تمثيل ، وإن قالوا إن « رامى » اضطر فى شعره الغنائى إلى النزول للغة العامية حتى يتفهمها الجمهور أو تتفهمها أم كلثوم فإنها ولا شك ثروة نفسية فى الأدب القومى المصرى ، يضمها السمو والإبداع والخيال المنسجم الراقى)[2] .

وهناك ناقد آخر هو الأستاذ درينى خشبة الذى قال : « إن أغانى رامى من حيث اللغة نوعان : نوع التزم فيه اللغة الفصحى . . . واختار له الديباجة المشرقة الناعمة السهلة والألفاظ الموسيقية التى لا تتضمن

---

(١) من مقال أعلام المدرسة الحديثة للأستاذ محمد أمين حسونة .
(٢) من مقال أعلام المدرسة الحديثة للأستاذ محمد أمين حسونة :

لفظة واحدة يصعب فهمها على الشخص العادى . . . ونوع التزم فيه العامية المصرية القاهرية الساحرة التى يفهمها العالم العربى كله ، ويستملحها لحسن الحظ .

وأغانيه من حيث الكيف — أو من حيث الروح — نوعان كذلك : نوع نلمس فيه قلب رامى ، ونحس فيه داءه القديم ، وحزنه الممض المقيم ، ومعظمه مما نظم للآنسة أم كلثوم . . .

ونوع تلحظ فيه بيان رامى ، وفنه ، ومقدرته الكبيرة المأثورة على التلوين والتظليل والتخطيط ، وإن لم نحس فيه نبضة واحدة من نبضات قلبه المحترق ، ولا طرفة مفردة من طرفات جفنه المؤرق ، ومعظمه مما نظم لسائر المطربين غير الآنسة أم كلثوم . . .[1] .

وسمى الناقد النوع الأول « أغانى الطبع » والنوع الثانى « أغانى الصنعة »[2] .

ويدخل فى النوع الثانى عند الناقد تصوير الشاعر « الطبيعة المصرية الفاتنة الساكنة ، والتعبير عنها ذلك التعبير الحين اللين الذى تنعكس فيه أروع لوحات تلك الطبيعة الممتازة المليئة بالمفاتن . وليس معنى هذا أنه قصر تصوير تلك اللوحات على غير أغانى أم كلثوم ، ولكن معناه أنه خص الكثرة الغالبة من أغانى غيرها بأروع تلك اللوحات وإن أودع بعض أغانيها شيئاً ثميناً قميناً بالملاحظة من تلك اللوحات»[3] .

كما أخذ الناقد على الشاعر « جنايته على الغناء المصرى ، أو الغناء العربى الحديث ، بتركه تلك الفرصة الذهبية النادرة التى أتاحها الله له ليجدد لنا غناءنا تجديداً كاملا شاملا ، ولتوسيع آفاق أغانينا بإدخال الأوبرا والأوبريت ، اللتين لا بد أنه يعرفهما معرفة جيدة ، ويزن الفائدة الجليلة البعيدة الأثر التى كانت تعود على الموسيقى العربية

---

(١) و(٢) العدد ٥٨١ ص ٦٨٨ من مجلة الرسالة .

(٣) العدد ٥٨١ ص ٦٨٨ من مجلة الرسالة .

— أقصد المصرية — والغناء المصرى ، لو أنه استغل هذا التخت العظيم ، كما أساء استغلال دخول أم كلثوم — فى حياته ، فلم — يوجه فيها أغانينا التوجيه الصالح الواسع الأفق الذى يخرج بتلك الأغانى من دنيا التخت إلى دنيا المسرح ، وإلى دنيا الأوركسترا الراقصة الطروب . .

« . . . .إننا محرومون إلى اليوم من الرواية التمثيلية الغنائية الكاملة أو التى يصل أغانيها وكثيراً من حوارها النثر الخفيف . . . وهذه الرواية التمثيلية الغنائية شئ عظيم بارع فى آداب أوربا ووسيقاها وهو غير موجود إطلاقاً فى أدبنا أو فى موسيقانا . . »(١) .

كما يعيب الناقد على الشاعر « عدم انتفاعه بأحد ممن ثقفوا الموسيقى الغربية ومرنوا فيها ، بل برزوا فى التأليف بها . . . والمؤلم أنه يعرف الكثيرين منهم ، وأن الكثيرين منهم يعرفونه »(٢) .

وإذْ يحمد له سموه بأغانينا عن الابتذال القديم ، يعتب عليه وقوفه بالتجديد عند هذا الحد فلم يحاول مثلا « نظم الأغانى القصصية البارعة » Ballads التى حرم منها الشعر المصرى الحديث ذلك الحرمان المزرى المعيب . . . »(٣) .

وهنا ينضم إليه ناقد آخر قد استولى عليه العجب من الشاعر أحمد رامى « الذى حبس نفسه باختياره على هذه الأغانى المطلقة ، وقد كان فى بدايته الشعرية سباقاً إلى الشعر الاجتماعى والوجدانى والطبيعى »(٤) .

وقد انساق الأستاذ درينى خشبة وهو فى مقام الإحصاء إلى عد « أناشيد » رامى كلها غنائية يصعب على الجماعة أداؤها . وليس ذلك لطبيعة تلحينها كما يتبادر إلى الذهن أول الأمر ، ولكن لطبيعة

---

(١) و(٢) و(٣) العدد ٥٨٢ ص ٧٠٤ — ٧٠٦ من مجلة الرسالة .

(٤) كتاب « الشعر المعاصر على ضوء النقد الحديث » . ص ٢٣٠ — للأستاذ مصطفى السحرتى .

تأليفها دخل كبير فى ذلك[١] . حتى ليرى أن « من السخف أن نطالب رامى بنشيد قومى . . . » .

ولكنى لا أرى صفة « الغنائية » التى خلعها الناقد على أناشيد رامى كلها بلا استثناء تنطبق على نشيد « الجامعة » ونشيد « الشباب » ؛ فإنى أراهما من النماذج الحية الباقية فى إذكاء العزائم وإثارة الهمم . وقد مضى على نشيد الجامعة سنون طوال لم تنطفىء له شعلة ، ولم تخب له حمية .

لقد فات النقد والنقاد أن شاعرنا (ابن الخطرات) . .. والمسرح والأوبريت يحتاجان إلى صبر طويل . ولعل هذا سر عدم تكملته أوبريت (غرام الشعراء) فاقتصرت على مسرحية شعرية .

وفات النقد أن (رامى) يهمه فى المقام الأول أن يقدم أم كلثوم ويقدم لها ما تهوى حتى (لا يُظن أنه ضن بالشىء الثمين) . . .

* * *

وقد اشترك رامى فى ٣٠ فيلماً ؛ سواء بالتأليف أم الأغانى أم الحوار ، منها « الوردة البيضاء » و« دموع الحب » و« يحيا الحب » و « رصاصة فى القلب » و « ونشيد الأمل » و« عايدة » و« فاطمة » .

وقد كتب رامى مايربو على ثلثمائة أغنية وهو بالطبع ، حكم فى لجنة النصوص بالإذاعة المصرية . حيث تبنى أكثر من موهبة ناشئة[٢] .

---

(١) مقال « نقد رامى » للأستاذ دريني خشبة — الرسالة العدد ٥٨٢ ص ٧٠٦ .

(٢) حدث مرة أن استبعد باب اللجنة شابا يلبس جلباباً وقبقاباً فطلب مقابلة رامى الذى خرج إليه . ولما سمع شعره ، دخل إلى لجنة الامتحان وزكاه فسمحت بدخوله ونجح بعد هذا . وتواصلت على الطريق خطاه . . . طريق الأغانى . . وطريق الأناقة أيضاً . . .

وترجم رامى أوبريت عايدة عن الأوبريت الأصلية . . .

كما كتب أوبريت (انتصار الشباب) واوبريت (أحلام الشباب) .

وقدم رامى للمسرح أول عهده به مسرحية « النسر الصغير » التى انفصلت بعدها فاطمة رشدى عن يوسف وهبى . . . وهى مترجمة عن الشاعر الفرنسى روستان .

ثم ترجم « فى سبيل التاج عن فرنسو اكوپيه و « سميراميس » عن بلادان ، وترجم ١٥ تمثيلية . . وقد مثلت كلها، ولكن لم يطبع منها غير « سميراميس » التى يمتاز فيها بقدرته على إعطاء صورة حلوة بجمل قصيرة مكتنزة .

كما ترجم « شارلوت كورداى » لپونسار ، و « جان دارك »لبارييه ، و « يهوديت » لبرنشتين ، و« أرنانى وماريون دى لورم » لهوجو .

وترجم عن شكسبير « هاملت » و « يوليوس قيصر» و « العاصفة » .

وترجم لبيرون قطعة Darkness نثراً ، كما ألف للمسرح قطعة شعرية هى « غرام الشعراء » . وهى ليست رواية كاملة بل هى فصل من ثلاثة مناظر أهم ما فيها الحوار . والشاعر هنا يجلو صفحة خفيفة من حب بين شاعر وشاعرة كان لها صنعة فى الغناء . . . أى أن الشاعر كان يدمج نفسه فيها كما أشرت سابقاً ، حتى لإخاله يصف موقفاً له مع أم كلثوم . فولادة تصف ابن زيدون بما ينطبق على رامى تمام الانطباق وهل هو إلا كما قالت :

شاعر كل أمانيه التغنى بالغرام يعشق الحب ويهوى الهجر فيه والخصام

وألف رامى للسينما روايته « وداد » التى استوحاها من ألف ليلة وليلة . وحين كانت روايته الأخرى « دنانير » تعد للشاشة كان رامى يعطى المخرج بدرخان صفة الملابس والأثاث والجو التاريخى .

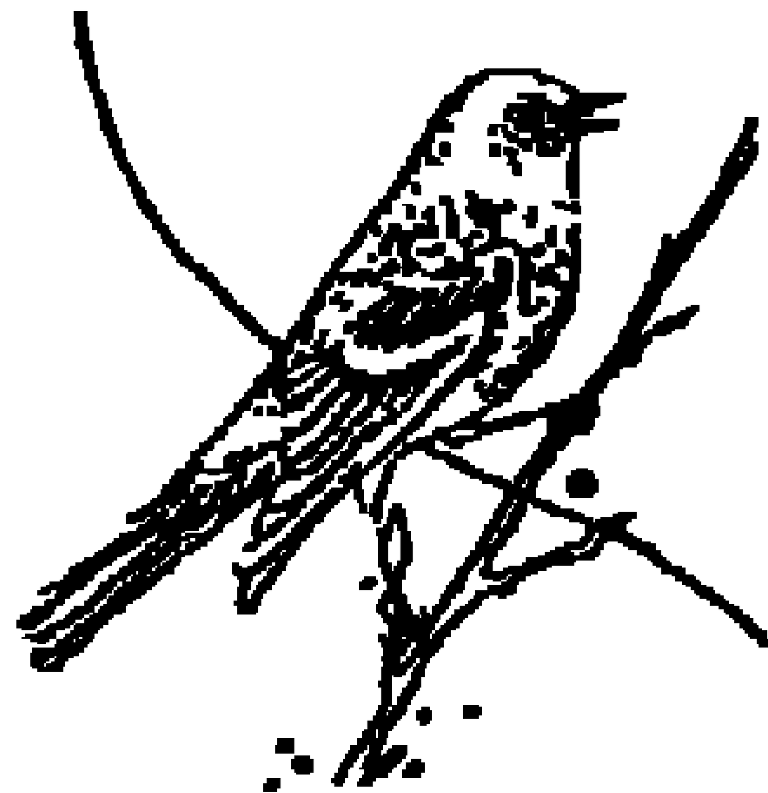
كل هذا فعله رامى فى أثناء نهضته بالغناء عن طريق محمد عبدالوهاب

وأم كلثوم . . . فإن شئت التحديد فإن فترة المسرحيات تستغرق من تاريخه من ١٩٢٤ إلى ١٩٣٢ .

وقد عاش رامى يتمنى – يتمنى فحسب – أن يكتب أوبرا يغنيها مشهورون – إنه يعشق الألوان والأضواء والملابس والموسيقى والصوت . . . يعشق المسرح . . . وهو يحتال لأمنيته بالسينما حتى ليفصل أم كلثوم فى القصر المهجور على أم كلثوم وسط التخت . . . ومع هذا ليس له صبر الكتابة للمسرح . . إنه كما قلت (ابن الخواطر) . . .

* * *

ورامى قاهرى صميم ، عرف الأزقة والحارات ، ومن ثمّ صور الحب ومشاعر الشعب بمصريته ودمه . . وزجله زجل « بلدى » صميم ، وهو مع هذا أقرب ما يكون إلى العربية الفصحى كما سبقت الإشارة . . . وعلى معرفته المتوسعة بالإنجليزية والفرنسية والفارسية فإن أدبه لم تشبه لوثة أجنبية . .



أغاني رامي

قبل أن ندرس هذه الأغاني [1] أو نحللها أسجل بين يديها هذه الملاحظة ، وهي أنها صورة مبسطة من شعره الرصين الذي تعمد توفير الجزالة والصنعة البلاغية له . . . لقد قبسها كثيراً من معاني شعره وأخيلته وهواجسه وأحلامه وصوره أحياناً .

شيء آخر نحس به ونحن نقرأ الأغاني . نحس أن الشاعر دائم التملي من الطبيعة ، دائم التأمل فيها ، دائم الاستجلاء لها ، شديد الافتتان بها في عمق إحساس . . . . . وطبيعي بعد هذا أن يخلع ألوانها على أغانيه بعد أن لوّن بها شعره ، وأن يجمل بصورها معانيه ، وأن يضمن ألحانها أصواته . . .

والأغنية عند رامي لها شخصية ، وهي أثر فني كامل من حيث إشباع المعنى واستكمال الصورة ، وتحديد الخطوط ، وانسجام الألوان . وتأخذ العين عند رامي أن الأغنية معنى واحد يشيعه ويرويه في مقاطع الأغنية حتى إذا انتهى منها يكون قد استنفد كل ما يتعلق به من خيال وتصوير .... وهبْ أن معنى جديداً حول الفكرة ، جدَّ ، له

(١) إن الأغنية في دراستي إنما أنظر إليها من زاوية واحدة هي « التأليف الأدبي » وحده مستقلا عن اللحن الموسيقي، والأداء الصوتي . حقاً إن الأغنية لاتتكامل في سمعنا إلا بهذه العناصر الثلاثة ، ولكني في مقام المؤرخ أو الكاتب لايعنيني منها إلا معناها ومبناها فحسب ، فإذا تعرضت لأغان لم يتكافأ اللحن فيها أو الأداء مع فن الشعر فا إلى اللحن أو الصوت قصدت . . .

بعد وقت فما أسرع ما يستوعبه . في أغنية أخرى . . . . وأمثلة هذا توافينا بعد قليل . . . .

والأغنية عند رامي قد تنهض برسم لوحة عامرة ، فكم رسم صوراً للوداع لعل أروعها ما أودعه أغنيته « أيها الفلك على وشك الرحيل » ، وكم رسم صوراً للسهاد . . . وقد تستقصي الأغنية عاطفة من العواطف الإنسانية فترضيها تصويراً وبياناً وإن تسمح اللفظ وآثر السهولة المطلقة القريبة من كل إنسان .

وأغاني رامي فيها تحرق وظمأ وحرمان سعيد لو صح هذا التعبير ، فإن الشاعر يصرح في أكثر من موضع بأنه (راضي) بالظمأ قانع بالجفاء ما دام ذاك الظمأ وهذا الجفاء يلهمانه ولا يعجزان . .

وأغاني رامي بعد هذا فيها رقرقة سيالة وعذوبة آسرة ، ولا تخلو من شجاً ونواح . . . . وهو في أغانيه لا يكف عن الرفرفة والهفهفة والحنين والوجيب ، ومن ثمّ لا تفتقد فيها أبداً النبض والحس والصدق والحرارة . . . وهذا كله نتيجة طبيعية لصدورها عن ذات نفسه ، واتصالها بقلبه في أرق مواضعه . . . فهو لا يضعها ، ولا يتكلفها ولا يملى عليه مناسبتها أو موضوعها[1] ... ولكنها سبحات تقتبس من ماضيه وحاضره ، من قلبه ونفسه ، من ذكرياته وهواتفه وواقعه وأحلامه . . . . ومن ثم تحس أن الأغنية بضعة منه ، وقطعة من قلبه ، وفصل من تاريخه ، وذكرى من ماضيه وحلم لحاضره ، وأمل لآت من أيامه قريب .

هو دمعي نظمته في معـان   وأنيني رددتـه في أغان
صغته خالياً أهيم مع الفكر   وأسرى على جناح الأماني

هذه إلماعة مجملة إلى أغاني رامي حريّة بتفصيل . . وما كان بي حاجة إلى هذا وليس فينا من لم يسمع أغاني رامي كلها أو بعضها ؛ لولا

---

(١) يستثنى من ذلك أغاني الأفلام .

أن الاستماع يوزع انتباه المستمع بين اللفظ واللحن والصوت والأداء . . . هذا إذا كان منتبهـًا . . . . وفى تمام صفوه . . . أما إذا كان المستمع يريم التسلى أو التلهى أو استشعار الطرب بالعيش لحظات فى جو أغنية أى أغنية . . وهذه حال كثير من المستمعين — مثل هذا الاستماع يفوته — وما له حيلة — كثير من الجمال الفنى الذى يوفره الشاعر والملحن للأغنية . والشاعر أكثر غبنـًا هنا لأن بثه وخلجاته أجمل ما تكون همسـًا فلا تسرى إلى الأذن الشاردة . . . أما اللحن فأجهر صوتـًا بحكم الأداء ومن ثم فهمته أسهل ، ووصوله أسرع . . .

لهذا كله . . . سأقف عند أغانى رامى[1] وقفات قد تطول وقد تقصر.

* * *

إن الشاعر فى أغنية « ياغائبـًا عن عيونى » ينادى الغائب ليوافيه . . ولكن أين . .

على ضفاف النيل بين الزهر   وفى ضياء البدر تحت الشجر
أو فاهبط الزورق يسبح بنا   وغنى لحن الهوى والمنى
واجعـــل سماء المغــانى   تدوى بعـــذب الأغانى
تصغى لك الدنيا وأبكى أنا

تعال فى مسرى النسيم العليل   بين المروج الخضر عند الأصيل
حتى إذا الشمس دنت للمغيب   وآوت الأطيار بعد الغروب
راعيت سرب النجـــــوم   وبت أشكـــــو همومى
وبت تولينى حنان الحبيب

عفـَت أغانى الستارة والجيران . . . هنا غزل ورغائب ولكن . . . . هنا أيضـًا صقل وشاعرية . . . .

---

(١) اقتصرت الدراسة على الأغانى التى ضمها الديوان مجارية الشاعر فى التجاوز عن الباقى .

وفى « هلت ليالى القمر » يترنم . .

ما احلى القمر على شط النيل والجو رايق وهـــــادى
تعال نسهر طول الليــــــل وافرح واهنى فـــــؤادى
وانعم بقربك والبدر هايم واسعد بحبك والورد نايم
والمــــوج يناغى النسيم يحكى له قصة هوانــــا
واحنــــا فى ظل النعيم والكون يـــردد لغانــــا

إنه مفتون بالنهر الخالد ، يشرب منه فمه وعينه وروحه . . . . الزلال والجمال والشعر !

« والبدر هايم » . . . . أى فسحة فى الخيال . . وأى رحبة فى الحس وأى راحة تضفيها لفظة « هايم » . . . . البدر « هايم » . . . . عبثاً تلحق ملك النور . . . . إنه هايم يسرى . . .

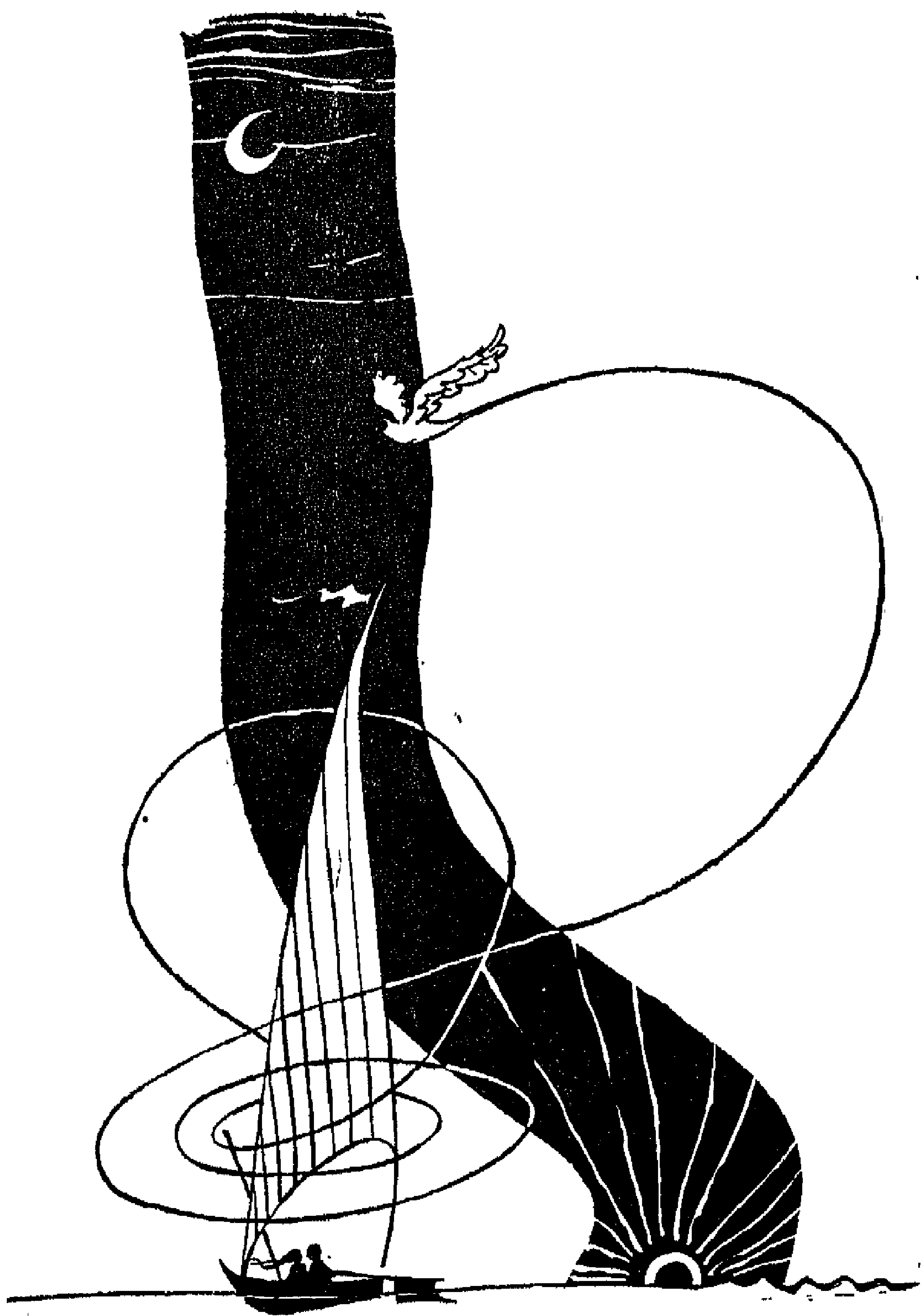
زرقة فى السماء . . . وزرقة فى الماء . . . وبدر هايم . . . وورد نايم . . . حنانك لا توقظه . . . . يكفيك نفح شذاه . . . . . وأنفاس رباه . . . . أليس الجو فاغما حواليك ؟

« والموج يناغى النسيم » إن الطبيعة ليست جماداً لا يعى كما يتوهم البسطاء . . وكيف والبدر هايم ، والورد نايم . . . والموج يناغى النسيم . . . نبض وروح وحياة صافية ووسن ، ومناغاة ، وعذوبة وصوفية ، وجمال وحنان ، وتفاؤل ورجاء وشدو رقيق . .

« والموج يناغى النسيم » هل أطربك هذا الصوت . . . . ولتناغى الموج من النسيم هسيس يسلم النفس إلى دنيا أخرى من الأحلام والرؤى . . . .

أعرفت نصيب الشاعر من الأغنية التى تطربك . . . كم وفرّ لها من الأصوات والألوان والصور . . .

« يحكى له قصة هوانا »



واحنا فى ظل النعيم . . . والكون يردد لغانا

لقد تصادق الشاعر مع الطبيعة وامتزج بها ، فهو يسمع أصواتها حتى مناغاة الموج للنسيم . . . وهى تعرف قصته وتهتم بها وترويها بلسان النيل ، والكون كله يردد معه ما يتناجى به ! . . . إن الشاعر والطبيعة متصلان . . .

ويشتاق فيسائل . . . من ؟ . . . . نسيم الفجر . . . .

يا نسيم الفجر ريّان الندى — ما الذى تحمل من دار الحبيب
يا نسيم الفجـــر — ناديًا بالزهـــر
رنّم الدوح ورنّ الجـــدول — وسرت فى الجو أنفاس العبير
وبدا النور فصاح البلبـــل — داعيًا للشدو أسراب الطيور
والنجوم فى الغيـــوم — لبست منها نقـــاب
والشفق فى الأفـــق — لونـــه ورد مذاب
كل ما فى الكون بشر وهنا وأنـــا ؟
أنا مازلت غريبًا مفـــردا — فى ديار عزنى فيهـــا الحبيب

عجبًا للأشواق ! . . . . ترهف سمع المشتاق . . . فيسمع ترنيم الدوح ، ورنين الجدول . . . وترهف حواسه كلها فيستاف أنفاس العبير السارى فى الجو ، ويلمح إشارة البلبل . . . « ما يسترو » الطيور . . . ويدعوها إلى الغناء . . . أن تبتدئ ، والنجوم النثيرة فى الغيوم ، وقد « لبست منها نقاب »

والشفق فى الأفـــق — لونه ورد مذاب

هل سمعت أغنية « اذكرينى » ورأيت أعلام الضياء المنشورة فى الأفق عند الفجر وهو يبعث الأطيار من أوكارها فتحييه الجوقة المصفقة الجناح بترديد الغناء . . .

هذا مطلع اذكرينى :

اذكريني كلما الطير شدا مرسلا فى الدوح ألحان الصفاء
ينصت الزهر إلى أنغامــه فيحييه ببشر وانحنــاء

زه ! على رأى كسرى وقد أعجبه كلام الفلاح الشيخ زارع الزيتون !
إذن إليك مقطعًا آخر :

اذكريني كلما الليل سجا باعثًا فى النفس ذكرى الأوفياء
يعرض الماضى ويجلو صفحة أشرق الإخلاص فيها والولاء

ويعرض له الماضى فيتذكر :

أين نجوى الحب والليل سكون ونسيم الليل شكوى وحنين
والنجوم خافقات مثلما تهفو القلوب
والغيوم مهجة كادت من الوجد تذوب

ويستمر موكب الماضى فى العرض فيذكر صاحبه هذه المرة . .

فاكر لما كنت جنــبى والنسيم لا عب غصون الشجر
والغصن مال ع الغصن قال ما احلى الوصال للى انتظر
فاكر لمـــا كنت جنبى والغمام داعب جبين القمر
والنيـــل جـــارى والليـــل ســـارى
والموجه تجرى ورا الموجه عايزه تطولها تضمها وتشتكى حالهـــا
من بعد ما طال السفـــر

جه النسيم وفق بينها، وكل موجة فى أحضانها، حبيب بعيد قرّب منها :

والفرحة تمت للأحبـــــاب الموج وشبع من حبيبـــه
وأنا اللى قلبى فى حسبك داب من غير ما يبلغ نصيبه
وياريتنى زى الموج فى النيل
صبر ونال وارتاح وقـــــال ما احلى الوصال للى انتظر

لقد رأى وسمع هذا كله ! وفى حضرة الحبيب وهو مستغرق فى الوصال ! . . . وهل حدث هذا حقًا فى الطبيعة أو هو الذى بث فيها

هذا الحشد من الأصوات والحركات والخلجات ؟

هل سمع الغصن وهو يهمس فى أذن الغصن ؟ وهل تبين أن الهمسة المياسة كان مؤداها « ما أحلى الوصال للى انتظر » ؟

ربما يرقى إليك الجواب لو قدر لك أن تمتزج بالطبيعة مثل امتزاجه، وتصافيها بهذا القدر من التدانى . . .

والموجه تجرى ورا الموجه عايزه تطولها تضمها وتشتكى حالها
من بعد ما طال السفر

شاعر ممراح ، يكاد من الخفة يطير . . . ويسبق الموجه وهى تجرى ورا الموجة . . .

« والموج شبع من حبيبه » !

نفس روية من معانى الحسن ... ثم لا تنال... فتحقق أمانيها ، وتقرّ لهفتها فى دنيا أخرى . . . . دنيا من صنعها فى الواقع . . . .يتدانى الموج بدون أن يقصد فتحسبه بجوعها العاطفى شبع من حبيبه . . واللفظة « شبع » كما ترى فيها امتلاء يبلغ حد الرضا . وهكذا تسرى عن نفسها . —. تلك النفس . . . كم تشجينى ! . . . .

ويسمع السامعون هذه الأغنية الغنية الدافئة ولها لحن فى مقام معناها . . . . ثم لا يذكر الكثير منهم الشاعر والملحن فى زفة الصوت الصداح المستوى على عرش القلوب !

ويخرج الشاعر فى مهرجان الربيع وفى يده قيثارة ليوقع ألحانه . . . قيثارة فقط ؟ وريشة أيضًا ليصور ألوانه . . . وريشة فحسب ؟ وقلب خفاق لا ينى عن إمداده بالحرارة ،وأذن رهيفة لا يفوتها صوت أو ركز . . .

إذن عمله فى مهرجان الربيع أكبر من الاستعراض والمشاهدة اللاهية

غنى الربيع بلسان الطير رد النسيم بين الأغصان
والفجر قال يا صباح الخير يا صحبة الورد النعسان

فرح بروحه الكون نادى وغـنى
وكل لحن بلـون معنى ومغـنى

وهكذا يقبل الربيع إلى الدنيا فى زفة طروب كل لحن فيها بلون معنى ومغنى . . . حتى إذا كان آخر يوم من أيام المهرجان رأيت :

الميه فى الأرض جفت والزهر ع الغصن نادى
والشمس فى الغرب راحت وآدى الشفق لسه بادى
والطير سكت بعد ما غنى وآدى صداه رايح وغادى

أصيل موشى يميز فيه الشاعر صوت الصدى فى مغداه والرواح . . . والحبيب يخايله فى هذا كله لا يلهيه عنه التجاوب بينه وبين الطبيعة . وحلمها الذى تمثل حقيقة واقعة ، وحلمه الذى ما زال سرًّا فى ضمير الغيب . . . . ومن ثَم جعل القرار بعد كل مقطع :

وانت يا غايب عن الحبايب ساكت عن القلب الحيران

إن شدو الطير يحضر إلى ذاكرته صوت الحبيب . . .

* * *

وهو من عمق إحساسه بالطبيعة غدا يعتقد أنها تجاوبه وتبادله عطفًا بعطف . واهتمامًا باهتمام . . . فلا يتردد أن يتساءل وقد قرح أجفانه السهر :

هو القمر ، عنده خبر عن طول سهدى
هو البلبل ، لمـا يرتل يعرف وجـدى

لا ، بل إنه قد استوثق منها إلى درجة يخال معها أنه عندما ينادى حبيبه يناديه الكون كله معه . . . وقد صاغ الشاعر من ندائه ورجع صداه صورة بارعة تتودد إليك كلما أطلت فيها النظر ، فلا تملك إلا أن تحنو على ذلك المسكين التائه الذاهل عن نفسه وهو يجمع أشتات ندائه من بين الأشجار وشط الأنهار وجو الأطيار . . . . .

وظل ينادي (فى كل وادى ولا مجيب . . .)

ياما ناديت من أســاى   فى وحدتى يا حبيبى
مــاردّ إلا صــداى   يقول معــاى حبيبى
سمعت من بين الأشجار   وسمعت من شط الأنهار
وسمعت من جو الأطيار   ترديد نداى حبيبى
عطف علىّ الكون كله   نادى عليــــك
ما فيش فى دول حد تميل له   يصعب عليــــك
لما يناديك يا حبيبى

طال النــدا ولا ردّ حبيب   ولا الخيال عن عينى يغيب
فضلت انــادى   فى كل وادى
ويطول نــــداى   أســأل فــؤادى
يا هل ترى يرد الحبيب   والاّ المنادى هوّ المجيب

* * *

وعندما يرى على غصون البان عصفورتين تتناجيان يستخفه الفرح بهما وينبعث يغنى معهما . . . إنه جذلان ينشد :

على غصون البان   عصفورتان
تتناجيان
بأعذب الألحان   أغانى الوجــدان
على ضفاف الغــدير   عذب الخرير
تتساقيان
على بساط الزهــور   خمر الرضــا والحنان
طر يافؤادى وغــنّ   ثم ابك عنى
واشك الزمان
وانشد حبيب التمنى   فالحب أحــلى الأمانى

إنه ولوع ، كالشاعر كيتس ، بالعصافير ! . . .

وينعطف إلى الورد ويقاربه يشاكيه الهوى ، ويساقيه الوداد ويجاذبه الحديث ويهمس فى كمه فى صوت النجى :

يا ورد ياللى النسيم   لا عبك فى ظل الشجر
إيه اللى بعد النعيم   رايح يجيبـــه القدر

أيضا يتوجس . . . . حتى فى صحبة الورد النعسان !

عمال تميل على أغصانك   بين الأزهـــــار
وكل من شاف ألوانـــك   فى بهـــاك احتـــار
لا حـــد عـــارف   إيه فى ضميرك
ولاحـــد شايف   فى الغيب مصيرك
ياهل ترى قاطف غصنك   ح يصون حسنك
والا يضمـــــك   بعد ما شمـــك
ويدبلك بـــين إيديـــه   من غير ما تصعب عليه

إنه مشغول معنًّى بأمر الورد يغالى بحسنه ألا يصان . . .

إنه لا يزال يتنقل بين أغصان الورد فى زيارة عاطفة . . .. وفى يده كأس من رحيق يسقى كلا منها رشفات :

فيك ورده ضامه شفايفها   تتمنى تحكى سرّ الضمير
ناعسه ولو حد لا طفها   تصحى وتسقى كاس العبير
وفيك يا ورد اللى جمالها   ظهر ولونها صبح زاهى
كل العيون بتبص لهـــا   من شوقها للحسن الباهى

ما زالت فى الكأس بقية مسعدة ادخرها لقلب كسير بين الورود :

وانت يا ورده يادبلانـــه   يا اللى جمالك راح
قضيت عمرك حيرانـــــه   والقلب كله جراح

وفى الليل يتفقد الكروان كما تفعل مع طفلك لتطمئن على فراشه

وغطائه . . . إنه هو الآخر يتفقد هذه اللطائف : الورد والغدير والموج والكروان :

كروان حيران سابح فى نور القمر
والصوت رنان ملا الفضا وانحدر
والكون نعسان حتى الطيور ع الشجر
هايم ينادى حبيبه من غير ما يعرف فين
وإن كان ح يسمع نجيبه تحتار تشوفه العين
نادى وغنى من طول أساه وكان حبيبه سامع نداه
رق قلبه ومال إليه رد من شوقه عليه

* * *

وهو يتعزى بالطبيعة . . . وله منها سلوى مثل برد الظلال . . . فعندما يعز عليه لقاء الحبيب يتمتم :

إن كنت أشوف البدر أخوك يلعب بنوره فى الميه
أقول لو العذال حجبوك يبان خيالك لعينى
أسهر معاك واسمع لغناك
فى همسة الغصن الميال وفى رنة النهر السيال
لا عليه من العذال ! . . —
وإن كان نسيم الليل سارى عاطر بأنفاس الياسمين
يفضل يشاغل أفكارى والتى هواه أشواق وحنين
أسبح معاك واشتاق لقاك
وقت السحر والليل أوهام ساعة القمر والنور أحلام

الليل أوهام ! . . . حائل . . . زائل . . . متبدد كالوهم . . . حائر مثله محير . . . . لست أدرى . . . . ولعل هذا الغموض فى الصورة

الحالمة هو سر فتنتها . والنور أحلام! خفيف اللمح يميس أبيض فى وناء وبطء كحلم السعيد ! أو أنه فى رأى العين خيال واعد كالأحلام ! أو أنه يترسل من القمر فى شاعرية كما تصنع الأحلام ! أو أن بشائره تبدو للنائم ولما يزل يحلم ، أحلاماً جديدة ؟ أو . . . أو ماذا ؟

ويح هذا الغموض الفنى . . . . يفتن لأنه يستسر ولا يبين . . .

* * *

ولا يعد الشاعر بأفانين القول وبدائع التصوير كمواقف الوداع . . . هنا تسخو شاعريته ويجود خياله وتبذل نفسه ، ويهب أكرم مشاعره :

ودعته من غير ما اتكلم وفتـــه والروح بتسلم
لما بعدت عنه قليـــــل حبيت أشوفه قبل الرحيل
بصيت وراى ، أبكى هواى
لقيت خياله من بين دموعى عمال يغيب
والكون مرايه ، فيها أســـاى
والشمس رايحه تبكى معاى وقت الغروب
صعبان عليها فراق الكون ساعة ما ودعت حبيبى
هى حزينة وقلبى حزين فايت من الدنيا نصيبى

دائم التلفت ، موصول الشوق ، يحن ولـمّا يبعد غير قليل ، ويهفو ولـمّا يبدأ الرحيل ، فإذا بدأ تلهف وتابع الخيال خلال الدمع مبهور الأنفاس . . . حتى لقد أشاع فى الكون كله أساه فإذا هو مرآة تعكس صورته . . . إنه أحنى عليه منه على ليلى . . التى لم يشاطرها أحد . . حتى شجر الخابور ظل مورقاً ولم يحزن على ابن طريف . . .

ولكن « رامى » جاوبه الكون ، وبكت معه الشمس الغاربة . . .

يا طير ياسارى ساعة المغيب رايح تلاقى أنس وحبيب
تقابله بـــين الغصـــون والليل نسيمه عليل

وتزيد عليك الشجـون تنعم بنجوى الخليل
تناغيه ، تداديـه وأنت مهـنى
وأنا روحى فيـه وبعيد عـنى

دائماً . . . . دائماً . . . يقرن بينه وبين الطبيعة كأنه أحد أفرادها .

وهذه صورة أخرى جميلة من صور الوداع تشف فيها النفس الإنسانية وترق حتى تكاد تذوب !

أسرع . . . . أسرع . . . لنبلغ الميناء قبل تحرك الفلك حتى لا يفوتنا وداع الشاعر . إن صوته متهدج خفيض مبلل بالدمع فادن منه لتتبين نجواه :

أيها الفلك على وشك الرحيل إنّ لى فى ركبك السارى خليل
رقرقت عينـاى لمـا قال لى حان الوداع
وبكـى قلـبى ممـا ذاع فى الكون وشـاع

يبكى قلبه لهول الفراق قبل أن يقع . . . . يبكى لما ذاع فى الكون وشاع !

إنه مستطار . . لهيف . . .

غابت الشمس وراء الأفـق ثم ذابت فى مسيل الشفق
لهف نفسى كاد يخبو رمقـى
حين حيانى حبيبى وتبادلنـا الـوداع
وانطوى منه نصيبى عنـد تصفيق الشراع

ما لهذا الشراع لا قلب له ؟ ! . . . هل انطوى منه نصيبه ؟ إنه لا يصدق أو لا يريد أن يصدق . إنه يجأر فى ضراعة تبكى :

أيها الفلك على وشك المغيب قف تمهل إن لى فيك حبيب

ويله من أوهامه ! . . . هل حسب أن الفلك سيصيخ إليه ؟ أنسى أنه شاعر ؟ ليتعزّ بالخيال والأحلام عن الواقع . . . . عسى

أن يتحقق الحلم ويصدق الخيال . .

لقد عمل بالنصيحة . . . ولعل وراء هذه السهمة وتلك التهويمة طيف خيال أو برد عزاء . . . أي تهويمة ؟

لا أذوق النوم حتى نلتـــقى   والضحى يغمر وجه المشرق
فأحييه بقلب شيق
شارحـاً وجدى   شاكياً سهدى   فى الدجى وحـــدى
وأناجيه بحـــــبى   بين ضم واعتناق
ناسيـاً آلام قلبى   طول أيـــام الفراق

لقد قرر ألا يذوق النوم حتى يحين لقاء . . . ويمضى به السهاد والأحلام . . . . فيقول :

يا طول عذابى واشتياقى   ما بين بعادك والتلاقى
ياما غالبت النوم وشكيت   من طول غيابك عن عينى
أقول لقلبى الوجد ده ليه   ما دام ح يعطف ويجينى
اصبر مع الأيام   تتحقق الأحلام
وتشوف حبيب الروح جانى   وجاد بقربه وهنانى
ساعتها تنسى ليالى النوح   واخاف لوقتى يروح منى
من غيرما اقول له ع اللى قاسيت   أيام ما كان غايب عنى
وقتهـــا تختار   أى الضنى تختار
بعد الحبيب ولو انه يطول   وانت ياقلبى كلك أمانى
والا لقاه والصبر قليـــل   والعمر يجرى ساعة التدانى

حلم لقاء ! . . . ولعل أجمل ما فيه ذلك الخاطر الذى سنح فى البيتين الأخيرين . . . إن العذاب الذى شفه ساعة التوديع لم يضع عبثاً . فقد جدت فيه للقلب (أمانى) تغرى بالانتظار . . . إذ فى انتظار المتعة متعة كما يقولون... ولكن أيهما خير ؟ الانتظار الواعد أم اللقاء العجلان

والعمر يجرى كأوقات الصفاء ؟ أحسبه يخشى أن يجرى العمر ساعة التدانى !

* * *

حلم جديد :

يا نجم مالك حـــيران	بين الغمام والليل داجى
فضلت ويـــاك سهران	والروح على البعد تناجى
يجى عليك الليل تسرى	هايم فى سحـــاب
واسهر معاك يسبح فكرى	فى هـــوى الأحباب
إن لاح جبينك لعينىّ	جدد آمالى ، وهنى بالى
وقلت يصفى لى زمانى	وأشوف حبيب الروح تانى
وان غبت عن عينى شويه	ظلمت حالى ، مع الليالى
وقلت طيف الويل جانى	وطال علىّ الليل تانى
بين الأمانى والظنون	الفجــر لاح
واللى رحمنى م الشجون	نور الصباح

متى يعود صاحبه ؟ لقد برته الأشجان . . . وما درى النجم به ولا رثى لشكواه هذه المرة !

* * *

الورد فتح . . . بشرى هانئة . . . لا بد أن هناك حدثاً جديداً . . . ألا ترى الشاعر ؟ لقد انبلج وجهه وأشرق محياه ، وإن فى عينيه قصة طويلة تلمعان بها ! . . . . هيا نسائله :

الـــورد فتح والياسمـــين	لما الحبيب هل هلاله
واحترت اقول الشوق ده لمين	حتى بهر عينى جماله
كان روح يسرى	يملا الوجود بهجة وإيناس
وخيـــال يجرى	زى الحبب على وش الكاس

هذه هى المسألة ! . . . أما قلت لك إن فى الأمر سرا ؟ . ماذا

صنع ساعة أن رآه ؟

خطر على دقـــة قلبى ساعة ماجت عينه فى عينى
وتجمعت أيـــام حـــبى فى خطوتين بينه وبينى

أراك تبتسم . . . . بربك دعه يسترسل . .

واحترت افكر فى الأيام اللى قاسيتها وأنا وحدى
والا أصور فى الأحلام اللى رسمها لى وجدى
نسيت زمانـــى مع العذاب اللى قاسيته
ونسيت مكانـــى ساعة ما جانى وضميته

ثم ماذا . . . لقد شاقنا أن نعرف . . .

وقلت أصور لـــه هناى ساعة ما اشوفه ويّـــاى

ماذا قلت له ؟

جيت اتكلم ، قلبى اتألم لما عرض طيف البعاد قدام عينى
لا قدرت أقول بعده ضنانى ولا قلت قربه هنانى
وفضلت من شدة حبي حاير ذليل أسأل قلبى
بعد الحبيب ولو أنـــه يطول وأنت يا قلبى كلك أمانى
وإلا لقاه والصبر قليـــل والعمر يجرى ساعة التدانى

والآن ما رأيك أنت فى مثل هذا الشاعر ؟ أما أنا فلم أعد أشفق عليه من الفراق والحرمان ما دام يلهمه مثل هذه المعانى ، ويطربنا بمثل هذا الغناء ! . . .

* * *

ولعل هذه الوقفة المستأنية عند أغانى رامى تكون قد أيدت ما ذهبت إليه فى مستهل الكلام عن الأغانى من وجود سمات بعينها تميز أغانيه . . .

وإذا كنا فى الصفحات السابقة قد فرغنا من العرض المتذوق

لها المستشف ، فما ذلك إلا لكى نفرغ فى الصفحات الآتية للعرض الدارس . . .

* * *

وهنا أبدأ بالموضوعية التى تميز أغانى رامى . . . وأعنى أن الأغنية عنده لها موضوع . . .

مثال هذا « أيها الفلك على وشك الرحيل » و « هلت ليالى القمر» كلاهما تقوم من أولها إلى نهايتها على فكرة واحدة يتفنن الشاعر فى بسطها حتى يستوفيها تصويراً وبياناً ، ويستوفى ما بنفسه منها من معان وأحاسيس . . .

و« ياغائبا عن عيونى » و « هلت ليالى القمر » و « غنى الربيع » دعوة لقاء تصور كل منها نعيمه الموعود . .

و « خاصمتنى » و « غلبت اصالح فى روحى» و « سكت ليه » و « سكت والدمع تكلم » و« عينى فيها الدموع » و « مشغول بغيرى » شكوى أسوانة مبللة بالدموع . . .

و« « يانسيم الفجر » و « ياللى جفاك المنام » حنين مبثوث و«فاكر» و « ذكرى الغرام » من ذكرياته . . .

و « على غصون البان » و« حظ الورود » و « كروان » من سبحاته فى الطبيعة !

و « أيها الفلك » و «وداع » من مواقف وداعه . .

و « سهران » و « يانجم » ليلتان ساهدتان . . .

و « اذكرينى » و « انظرى » رجاءان . . .

و « رق الحبيب » وعد لقاء .

و« يا طول عذابى » حلم لقاء . . .

و« الورد فتح » لقاء ماثل .

و « حرمتنى منْ نار حبك » و « ياناديم فكرى » من صور العتاب . .

و « ياللى ودادى صفالك » و « الشك يحيي الغرام » و « إن كنت اسامح » و « ياللى أنت جنبى » ألوان من الاستعطاف . .

و « شجانى نوحى » و « ياما ناديت » لوعتان . .

ومن أغانى رامى ما يصلح أن يكون قصة أو موجز قصة بتعبير أدق ... قصة حياة قلب ، أوقصة إخفاق حب ، أو قصة حيران اهتدى وقر ، كأغنيته « الماضى المجهول » . وأغانى هذا النوع : « تنكر ليه » و « مشغول بغيرى » و « أول ما شفتك » و « الماضى المجهول » و « دموعك كانت ليه »[١] . . .

وسمة أخرى هى رغبته الملحة فى إشباع المعنى من معانيه . . . ويفسر هذا دوران المعنى فى أكثر من أغنية فى « رق الحبيب » :

من كتر شوقى سبقت عمرى   وشفت بكره والوقت بدرى

ويماثل هذا فى « ياللى انت جنبى » :

من شوقى اقدم يوم عن يوم   عشان اطول قربك منى

ومع أن الأغنية كما ذكرت تتناول موضوعاً بعينه لا تتجاوزه حتى ليسهل عليك أن تطلق عليها عنواناً فى كلمة أو كلمتين . . . فإنه يحدث أحياناً أن يختص الشاعر معنى بعينه من معانى موضوعه ويلمسه مرة ثانية فى الأغنية الواحدة . . . وأحسب أن هذا لشدة تعلقه بهذا المعنى لطرافة فيه ، أوقد يكون لتنفيسه عن رغبة عزيزة . . . أو كنايته عن معنى بعيد قد يستتر علينا نحن الغرباء ولكن الصاحب يدرى . . . وهو المطلوب . . . ففى (سهران) راعنا هذا المعنى الرقيق المتفانى :

(١) أغانى رامى موضوع هذه الدراسة تضمنها ديوانه من ص ١٣٥ — ١٨٧ .

يالى رضاك أوهام والسهد فيك أحلام
حتى الجفا محروم منه ياريتها دامت أيامه

وقبل أن تشارف الأغنية على النهاية نلمحه ثانية فى قوله :

لا يوم وصالك هنانى ولاهجر منك بكانى
يا طول عــذابى وحرمانى

وقد لمحنا فى أغانيه معانى طالعناها أول مرة فى القسم الأول من الديوان . . . . ذلك القسم الذى تضمن شعره . . . . فى أغنيته « أخذت صوتك من روحى » :

أخذت صوتك من روحى وحزن لحنك من نوحى
وكل معنى ف الفاظــــك من نظمى فيك يا روحى
أنا ورده تدبل فى ايديك وشمع منقاد حواليك
يوم تغضبى لى ويوم ترضى وكله فى حبك يرضى
وفاكهتك حلــوه ومــره أنا اللى زارعها فى أرضى
سقيتها من دمــع عيــنىّ وشوكها جرح لى ايدىّ

أليس هذا بعينه صورة مبسطة من تلك الأبيات[1] :

بكيتك شجوى .وصوّرتــه على صفحات خيالى الحزين
وغنيته قطعــه من دمــى تكلم فيها لسان الأنين
فياريتنى فى شكاة الهوى بقدر البيان الذى تلهمين

أو من تلك الأبيات[2] :

إنى كسوتك من خيالى حلة وشّعت صفحتها بزهر ربيعى
ونشرت من روحى عليك غلالة كالليل آذن فجره بطلوع
وسمعت همس خواطرى فحكيته لحناً يشوق النفس بالتوقيع

---

(١) قصيدة « مباراة الهوى» ص ٦٨ .
(٢) قصيدة « ثورة نفس » ص ٧٩ .

يا زهرة أنضرتها ورعيتها وسقيت تربتها زكيّ نجيعي

أو تلك الأبيات[1] :

إني خلعت عليك ظل شبابي فإذا هواك منىً ولمع سراب
وسفحت أسراب المدامع من دمي والدمع والدم منحة الأحباب
أستمرئ الأحزان فيك وأستقي من دمعي الهامي كئوس شرابي

وأغاني رامي لا تسلم من رواسبنا . . . نحن نؤمن بالحسد فلا نصرح بالنعمة (داري شمعتك تئيد) وظلال هذا قول رامي :

من فرحتي بدى اتكلم واقول حبيبي مواعدني
لكن أخاف ليكون منهم مظلوم فى حبه يحسدني

ويستقر فى باطننا خوف راسخ من الغيب . . . . يضحك المسرور منا فيقول : « اللهم اجعله خيرا » ، كأن الشر فى أعقاب الخير دائماً ، ومن هذا قول رامي :

ولما القرب يجمعنا أنا وانت وانسى زمان بُعدك
أخاف يرجع يفرقنا واقاسي الوجد من بَعدك
وبين بُعدك وشوقي إليك وبين قربك وخوفي عليك
دليلي احتار وحيرني

أيهما أهنأ له البعد على الشوق أم القرب مع الخوف ؟ حار الشاعر وحرنا قبله . . . لا جزى الله الترك والانكشارية خيراً فقد أورثنا عهودهم وانقضاضهم المفاجئ على الخيرات والأرزاق ، بل البيوت والحرمات ، الخوف من اللحظة القادمة حتى لنتوقع الشر ، والسرور غامر !! .

ولما القاك قريب مني وأقول البعد تاه عني

---

(١) قصيدة « دمعة مكتومة » ص ٨٢ .

إنه يتنفس الصعداء فى فرحة ونشوة وانتصار . . . . . إن البعد موكل به ، وكان يظنه لا يخطئه أبداً فها هو ذ اقد اختفى . . . . وضل طريقه . . .تاه عنه .

ولما ألقاك قريب منى　　　واقول البعد تاه عنى
أشوف عينك تراعينى　　　وقلبى من لقاك فرحان
واشوف بينك وبين عينى　　　خيال البعد والحرمان

تانى !

إنها حالة نفسية تشوب صفاءنا دائماً فسرورنا عارض ولقاؤنا (خاطف) كما يقول رامى .

وهذا المعنى أشاعه أيضاً فى مسرحيته « غرام الشعراء » ، فابن زيدون فى نعيم الوصال يلتفت فجأة ليقول :

غمرتنى نعمة الحب ولا　　　آمن الغيب ولا ريب الزمن

ومرة أخرى يدور حوار :

ابن زيدون:

مازلت أطلب أن أراك فلم أكد　　　ألقاك حتى خفت من أيامى

ولادة : ماذا تخاف ؟

ابن زيدون :

أخاف تشتيت النوى　　　وأخاف طول تلددى وهيامى

وتحار ولادة فى أمره ويبدو عليها الألم وتقول فى صوت لا يخلو من ضيق عاتب :

أنت روعتنى وحيرت لبى　　　وأثرت الكمين من أشجانى
لم تكد تبسم الحياة بقربى　　　منك حتى لوحت بالحرمان

ويترضاها ابن زيدون :

ساعفينى ، جادت علىّ الليالى . بالذى أرتضى وطاب زمانى
وإذا تمت الأمانى لنفس خشيت عندها ضياع الأمانى

وعند رامى « إطلاقية » لا تحدد . وهذا عيب الشعر المصرى أيضًا .

كثير من أغانينا تجارب عامة ، لأننا كنا إلى وقت قريب مجتمعًا انفصاليًّا ، فاللقاء نهابه ، وإذا تلاقينا أنكرنا وأخفينا ، فكيف نسجله تجربة ذاتية ؟ ومن أصداء هذا قول رامى :

هجرت كل خليـــل لىّ وفضلت عايش مع روحى
أحسن بيان شىء فى عنيا من كتر خوفى على روحى !

لا بد من وجود « الخصوصيات » فى الشعر أو الأغنية . . . نحن نطالب الشاعر بتجارب ذاتية . . . وعلى قدر صدقها وقوتها نصل إلى تجربة عامة .

ومن الأغانى الذاتية عند رامى أغنية « جددت حبك ليه » وهى قمة من قمم رامى والسنباطى معًا :

جددت حبـــك ليـــه بعد الفؤاد ما ارتـــاح
حرام عليـــك خليـــه غافل عن اللى راح
يا هلترى قبلـــك مشتاق يحس لوعة قلبى عليك
ويشعلل النار والأشواق اللى طفيتها انت بإيديك
إنت النعيم والهنـــــا إنت العـــذاب والضنى

والعمر إيه غير دول

إن فات عـــلى حبنـــا سنه وراهـــــا سنة

حبك شباب على طول

أنا لو نسيت اللى كان وهـــان عـــلىّ الهـــوان
أقدر أجيب العمر منين وأرجع العهـــد الماضى

أيام ما كنا احنا الاتنين إنت ظالمني وأنا راضى
إنت النعيم والهنـــا إنت العذاب والضنى

والعمر إيه غير دول

إن فـات عـلى حبنـا سنه وراهـا سنه

حبك شباب على طول

يصعب علىّ اقول لك كان والحب زى ما كان واكتر
وافكرك بليالى زمـان واوصف فى جنتها وأصور
إنت النعـيم والهنـــا إنت العـــذاب والضنى

والعمر إيه غير دول

إن فات على حبنـا سنه وراءها سنــه

حبك شباب على طول

ياللى هواك فى الفؤاد عايش فى ظل الوداد
انت الخيال والروح وانت سمير الأمل
ييجى الزمان ويـروح وانت حبيب الأجـل
وازاى أقول لك كنا زمان والماضى كان فى الغيب بكره
واللى احنا فيه دلوقت كان هيفوت علينا ولا ندرى
ولما أكون ويـاك هايم فى بحـر هواك
ما اعرفش إيه فات من عمرى إن كان رضا أو كان حرمان
وافضل وبس انت فى فكرى ياللى با حبك زى زمان
إنت النعـيم والهنـــا إنت العـــذاب والضنى

والعمر إيه غير دول

إن فات على حبنـا سنه وراهـا سنــه

حبك شباب على طول

* * *

هذه تجربة ذاتية[١] ... إنسان طال به الجفاء ثم نعم وأنعم عليه ... — وغالبًا فجأة — بالوصال . والسؤال فى « جددت حبك ليه » ليس للإنكار . . . إنه للاستزادة . . . . سؤال يخفى سعادة لا تخفى . هل ارتاح الفؤاد أو حمل نفسه على الراحة ، ولو راحة اليأس ؟ . . . . إنه يحب بلا حدود « اللى راح » ، ولأنه بغير حدود فهو يخشى يقظته وإن كان يريدها . . . . وهل نام الحب أوسلا القلب ؟ كلا إنه غافل فقط .

وانثنى الشاعر المحب الذى طلب السكون منذ قليل (ينكش) الماضى بنفسه ، ويخطب وده ، لا بل يريد (شعللة النار) :

يا هل ترى قلبـــك مشتاق يحس لوعة قلبى عليـــك
ويشعلل النار والأشـــواق اللى طفيتها إنت بإيديك

إنه هو المشتاق وفى قلبه لوعة كأمير بنى حمدان . . . نار وأشواق لم تنطفئ بعد الهجر كله والجفا كله والتجنى كله بل الهوان . . . .

أنا لو نسيت اللـــى كان وهـــان عـــلى الهـــوان
أقدر أجيب العمر منين وارجع العهـــد المـــاضى
أيام ماكنا احنا الاتنين إنت ظالمنى وانا راضى

ليس فى الأمر جديد . لقد تعود أن يكون مظلومًا ، ويرضى ظلم حبيبه :

من لم يذق ظُلْمَ الحبيب كظلْمه حلواً فقد جهل المحبة وادّعى

إنه يأسى على الزمن وحده . . على العمر أو ما تسرب منه ، ولو أن حبهما إن فات عليه سنة وراها سنة ، شباب على طول ! . . .

---

(١) ومن أغانى التجارب الذاتية فى حياة رامى فى هذه الفترة (١٩٥٢ — ١٩٧٢) « ذكريات » ، « عودت عينى » ، « دليلى احتار » ، « هجرتك » « حيرت قلبى معاك » .

حتى الزمن لا يهم . . لا يهمه هو على الأقل ، فحبه « زى ما كان واكتر » . ماض كان « مستقبلا » ، وحاضر سيغدو « ماضيا » ، والكل سواء . . . إنه غارق فى بحر الهوى لا يدرى كم مضى من العمر ؟ وكم بقى ؟ . . وهل كان رضا أو حرمانا ؟ . . . . ليس فى فكره الآن غير الحبيب عَذْبُه وعَذَابه . . . . حبيب زمان والآن . . . فلا الماضى (كان) ولا الحاضر (آن) ! إن حبهما شباب على طول . . . .

حب عايش فى الفؤاد والروح والكيان كله . . . حب يسمر معه وهو صامت . . . يؤنس الأمل ويسامره . . . . حب الأجل . . . . حب لا يموت ما دام فيه نفس يتردد . . . إنه النعيم والهنا . . . وهو أيضاً العذاب والضنى ، ولكن لا ضير ، فما قيمة العمر بغير هما ؟

العمر إيه غير دول يا كافرين بالحب والأحلام والشعر ؟!

إن هذه الأغنية ليست تجربة ذاتية فحسب ، ولكنها معرض للصور الجميلة ذات الألوان الدافئة . . . صور فيها حركة وصوت ونبض وموسيقى من تجانس الحروف والكلمات وتخديم حروف المد وهى لينة رخية . . . والقمة فيها تأتى بعد كل مقطع يسلم إليها سياق القصة أو تصاعد الحركة النفسية أو الشعرية . . .

* * *

وبعد ؛ فإنى فى ختام هذه السطور لا أجد إلا سطراً . . .

لقد أدّى رامى . . . .

وحسب المرء أن يصير جزءاً من تاريخ وطنه ليبقى . . . . .

ستتغير الأغنية المصرية وفقاً لمتطلبات كل عصر وجيل ، ولكن تاريخها لن يخلو من ذكر رامى ، علماً من أعلامها مهما تعددت أسماء !

تواريخ فى حياة رامى

الميلاد : أغسطس	:	سنة ١٨٩٢
سفر إلى اليونان	:	سنة ١٨٩٩
ديوانه الأول صدر	:	سنة ١٩١٧
الشهادة الابتدائية	:	سنة ١٩٠٧
ديوانه الثانى صدر	:	سنة ١٩٢٠
البكالوريا	:	سنة ١٩١١
ديوانه الثالث صدر	:	سنة ١٩٢٥
دبلوم المعلمين العليا	:	سنة ١٩١٤
رباعيات الخيام صدر	:	سنة ١٩٢٤
مدرس بالمدارس الأميرية	:	سنة ١٩١٦
النسر الصغير صدر	:	سنة ١٩٢٧
بعثه إلى فرنسا	:	سنة ١٩٢٢
غرام الشعراء صدر	:	سنة ١٩٣٤
التحاقه بدار الكتب	:	سنة ١٩٢٤

قام بتصفية دواوينه الثلاثةوجمعها
فى ديوان واحد باسم : « ديوان رامى » : سنة ١٩٤٧
معرفة أم كلثوم : سنة ١٩٢٤
زواجه : سنة ١٩٣٥
إعارته لمكتبة عصبة الأمم : سنة ١٩٣٨
خروجه فى المعاش : سنة ١٩٥٤
التحاقه بالإذاعه : سنة ١٩٥٤
حصوله على جائزة الدولة
التقديرية : سنة ١٩٦٥

محتويات الكتاب

تم إيداع هذا المصنف بدار الكتب والوثائق القومية
تحت رقم ١٩١١ / ١٩٧٣

مطابع دار المعارف بمصر
سنة ١٩٧٣

م
١٠



صوفي عبد الله

اقرأ

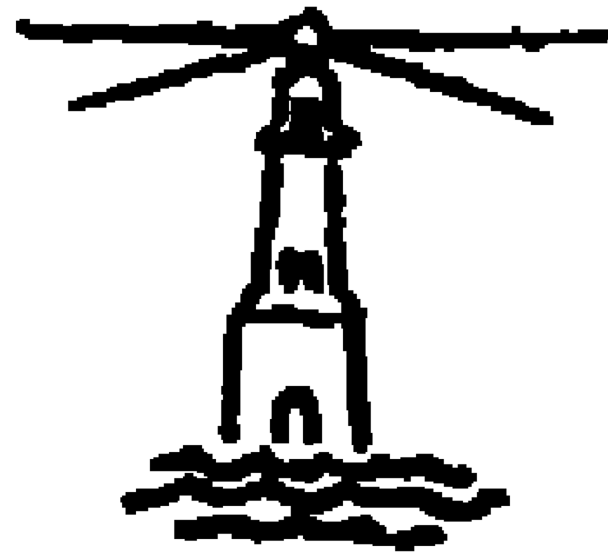
عاصفة في قلب





تصدر فى أول كل شهر

رئيس التحرير : السيد أبو النجا



دار المعارف بمصر



صوفي عبد الله

عاصفة في قلب

اقرأ ٣٦٩

دار المعارف بمصر

اقرأ ٣٦٩ - يوليو سنة ١٩٧٣

الناشر : دار المعارف بمصر - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج.م.ع .

الإهداء

إلى يد الزمن . . . .

التى تجرح وتأسو . . . . .

إلى عجلة الزمن :

التى تلهب . ثم تخمد . . ثم تنسى . . .

إلينا . نحن المساكين من البشر . . . .

أبناء حواء . . .

صوفى عبد الله

١

جلس إلى مائدة الإفطار فى هدوء يكاد يبلغ حد التباطؤ والتراخى وفى يده صحف الصباح الثلاثة ، وقال وهو يفتح إحداها من غير أن ينظر إلىّ بصوت لا يشى بشىء على الإطلاق :

ــ كيف أصبحت؟

وتشاغلت بترتيب الآنية على المائدة دون أن ألتفت إليه. فمن العبث أن تواجه عيناى نظرة الأسى الذى يكبحه كبرياء مترفع ، فيبدو الوميض المنطلق من عينيه وكأنه أسلاك شائكة تحمى سريرته الجريحة من فضول الغرباء . . . وعرفت مكانى خارج السياج الشائك منذ زمن . وانقضت لحظة طويلة من الصمت قبل أن أجيبه وأنا أضع أمامه طبقه المفضل من الفول المزوج بدقة السمسم وسلطة الطحينة ، وإلى جوار الطبق كوب القهوة الساخن :

ــ الحمد لله . . .

وكان فى وسعى أن أدع للخادم كل هذه المهام . وكان ذلك خليقاً أن يوفر على نفسى عناء ذلك الموقف الشاق الذى أواجهه كل صباح . وكان ذلك خليقاً أيضاً أن يترك للقرحة فرصة الاندمال . فهذا النبش المتكرر يجدد الالتهاب . وتتدفق أحماض جديدة إلى حلقى . ومع هذا كنت أنتظر هذه الدقائق من العذاب الصامت فى لهفة مرضية كأنها

الجنون . وأتصدى لنظراته التى أحس وقعها وإن لم يوجهها بحيث تسقط على وجهى مطلقاً .بل قصاراه أن يتتبع حركات يدى. . . . . وحتى هذا لم يكن يحدث إلا فى لحظات نادرة عابرة ، حينما أسوى بأناملى غطاء المائدة أو أقرب منه وعاء الملح.

هل كنت أستعذب هذا العذاب ؟ هل كنت أعتبره قصاصاً يجب أن أتحمله كى أفوز بالتكفير الذى لا راحة لى بدونه ؟ لا أظن شيئاً من ذلك صحيحاً . فلم أكن فى يوم من الأيام امرأة خرعة نهباً للصراع وأمراض الأعصاب . و إنى أدرك تمام الإدراك أن فى استطاعتى الإقامة بمفردى . فلى مواردى الخاصة التى تكفل لى معيشة معقولة . ولكنى لم أذهب بعيداً عن هذا المسرح المشحون بالتوتر والعذاب ، لا لشىء إلا لأنى لا أريد الذهاب . . . .

ولماذا لا أريد ؟

للسبب نفسه الذى من أجله لم يشأ هو أن يذهب ويترك الدار . لم يكن هناك ما يمسكه عن الذهاب سوى أنه لا يريد .. فليس لنا أولاد .

هو لم يرد وأنا لا أريد . وهكذا بقينا وصمدنا فى مسرح التوتر والعذاب .

لم يكن لأحدنا غنى عن الآخر . فكان لابد لنا أن نبقى معاً . ولو لم يبق بيننا من فردوس حبنا القديم إلا هذه الشجرات الشائكة من نبات الصبار ، كتلك التى تنمو فى القرافة على شواهد القبور فى جوف الصحراء . . .

٩

لم يكن أمامى ما أعمله وأنا ملازمة البيت لا أغادره سوى أن أفكر تفكيراً متواصلا مضنياً . وأجوب فى رحلات وعرة المسالك جوانب نفسى . . . . كلا ! ليس التفكير ما أرمى إليه . لأن الغفران لم يخطر ببالى. فماذا عساى أصنع بذلك الشىء المسمى غفراناً ؟ ما معناه وأى قيمة له؟ إنه عاطفة تافهة بلهاء . فزمام المسألة عند الإنسان القوى المفتوح العينين فى يده وحده . إذا فهم نفسه فلا قيمة بعد هذا لغفران الآخرين .

ومصيبتى أن مأساتى كانت أكبر من كل غفران . لأنى كنت دائماً امرأة مفتوحة العينين . فليس لى عذر الغفلة . . . تلك الغفلة التى تنهض على الدوام عنصراً مخففاً ومبرراً للرحمة عند صدور الأحكام وأنا قاضية نفسى . . . وأعلم أننى كنت دائماً مفتوحة العينين . لم أغمضهما لحظة واحدة . . . بل جاءت زلتى من هذا الطريق ، طريق عينى المفتوحتين على الدوام . . . .

ولكن هل كنت أنا المذنبة وحدى ؟

هذا هو السؤال الذى كان يضنينى التفكير فيه فى أيام وحدتى الطويلة .

ألم يكن له ضلع فيما انتهت إليه الأمور ؟ لماذا كان سمحاً كريماً معى أكثر مما يمكن أن تتوقع زوجة السماحة والكرم من الرجل الذى تزوجها ؟ لماذا كان يلمح كأنه يقرأ صفحة الغيب ما يدور فى أعماق من إحساسات كان يسميها « مغامرات عاطفية عابرة » ، فيصارحنى بها وهو يهون على أمرها ، فأعترف له وأنا مبهورة بهدوئه المطمئن وذكائه

اللماح . وعندئذ يهدهدنى كالأب الرحيم ، ويزعم أن « السم الذى لا يقتلنا يزيدنا قوة » ، وأن التجارب الواعية هى التى تنمى الشخصية وتصقلها لأنها تفتح أمامى آفاقاً جديدة لمعرفة الحياة معرفة تمرس واختبار . ويؤكد لى أن المعرفة السطحية عن طريق الاستماع والاعتبار إن هى إلا قشور . أما لباب نفوسنا وشخصياتنا فلا يتكون فى داخلنا إلا حينما تواتينا الشجاعة على النفاذ إلى اللباب ، عن طريق التجربة . وكنت أرفع رأسى عن صدره أحياناً وهو يهمس فى أذنى بكلامه فى صوت هادئ بطىء أجش ، وأتطلع إلى عينيه العسليتين الصافيتين كأنهما بحيرتان من شهد مصفى ، بنظرات تفيض دعابة وعبثاً ، وأقول له فى خبث :

— التجربة ؟ . . . ألسنا ندعو الله حين نصلى ألا يدخلنا فى تجربة ؟

فتومض عيناه سروراً بذلك التحدى لبديهته الوقادة ويربت بأصابعه الشديدة الوطأة على وجنتى كأننى طفلة صغيرة ساذجة تدعى الحذق ويقول :

— التجربة التى يدخلنا فيها سوانا محنة نطلب دفعها بالصلاة . أما التجربة التى ندخلها نحن بعيون مفتوحة . فهذه هى الحياة . هذا هو الخبز اليومى الذى بغيره لا يمكن أن يعيش ذوو الألباب . . . !

ثم يضغط بأطراف أصابعه القوية على جانب رأسى ليعيدها إلى موضعها المستكين فوق صدره، وعندئذ أشعر بالطمأنينة السابغة والهدوء

الآمن يشملنا . وأجد فى نفسى الشجاعة على مواجهة كل شىء مفتوحة العينين . . . لأنى أعلم أنه سيكون دائماً هاهنا ، ليفهم ، ويؤازر ، ويمسح بيده العرق والدموع . . . .

كان يعلم أنى قوية الطبع ، أمينة السريرة . لا أغالط نفسى . ولا أتورط فيما لا أريد . وكان يحس المناعة التى عندى ، مناعة العبادة التى أحملها له ، فتحمينى . من كل ما يصيب مكانه العزيز فى حياتى وقلبى . ولهذا أنفض يدى من أية مغامرة متى وجدتها تنقلب من المزل العابث إلى الجد الجاد . . .

وهو . . . . سعادته كانت تنبع من مصدر واحد : حبه لى .

حبه كان شيئاً مختلفاً تماماً عن الرغبة أو الإعجاب أو إشباع غريزة الاقتناء . . . كان يحبنى لى ، لا له . كان هو لى . فهو يتلمس سعادتى . وأينما كانت هذه السعادة كان يسعده أن أحصل عليها . ويزيد إعزازه لى أنى أمينة بريئة فيما يسميه مغامراتى. يلمحها بإحساسه الداخلى ولا يظهر على وجهه الساكن المستدير أثر مما يلمح . حتى إذا أنس منى جنوحاً إلى المغالاة أو التهور أجلسنى بجواره وحدثنى بصوت هادئ ، وبأسلوب غير مباشر عن أبطال وهميين من أصحابنا . فأدرك أنه يعنينى . وأدرك أنه يعلم . وأستمع إلى تعليقه الفاهم الواعى الذى يقدر العذر ويضع الحد المناسب لكل سلوك . وعندئذ أصارحه بكل شىء و « كل شىء » لم يكن يتجاوز مطلقاً نوبات من التطلع العاطفى . . . كأنى حشرة لها قرون استشعار تستخدمها فى استكشاف

الجنس الآخر ، وتغرى بالنماذج الطريفة منه . . . . وكان يهز رأسه فى هدوء ويبتسم بتسامة خفيفة للغاية ويقول :

ــ لا عليك . إنك تعرفين دائماً أين ومتى ينبغى الوقوف والانسحاب بقرون الاستشعار . . .

وذات مرة ركبنى حب العبث فسألته :

ــ وأين ومتى بالضبط ينبغى سحب تلك القرون ؟

فانداحت الابتسامة فى وجهه فزادته استدارة ولمعت عيناه ، فهو لا يفلت فرصة لدعابة ولو على حسابه وقال :

ــ حينما يكون التقدم بتلك القرون . . . معناه أن ينبت لى أنا قرنان . . . . !

... فضحكت ولكنى أدركت فى أعماق أنه كعادته لا يكون جاداً مثل جده الذى يخفيه وراء نكاته ومزاحه . وعلمت أنه يعنى ما يقول بحروفه . . .

ولم يكذب ظنى فبعد هنيهة تلاشى كل أثر للضحك من وجهه ، وواجهنى بنظرة صريحة هادئة ولكنها حاسمة وقال :

ــ المهم أن تكونى مفتوحة العينين . فلا تتورطى فيما لا تعنينه عن إدراك كامل . وبعد ذلك فمسئوليتك فى عنقك . لأنها حياتك وليست حياتى . عزيزة هى على . هذا صحيح . ولكنها حياتك أنت . لك أن تفعلى بها ما تشاءين ، ولكن بالله عليك لا تمتهنيها بالتورط فيما تتبينين بعد فوات الأوان أنه لا يليق بك ! وأنت بعد هذا على بصيرتك .

فتناولت يده ورفعتها إلى فمي وقبلتها فى عرفان . لأنه لا يرى لنفسه سلطاناً على حياتى بل يريد لى أن تكون قيمة حياتى مستمدة من بصيرتى وأمانتى لكرامتى . . . . قبل أن تكون مستمدة من ولائى له ، أو لأسرة ، أو لمجتمع . . . .

ألم يكن مسئولا عما تمخضت عنه هذه الحرية التى منحنى ؟

هذا ما فكرت فيه طويلا . ولم أستطع أن أحقد عليه . لأنه هو الذى خلق قيمتى بتلك الحرية . فزللت وأنا إنسان . وظللت إنسان برغم زلتى . لأنه أتاح لى أن أكون شيئاً ، لا ملك يمين . . . .

لماذا يحنق علىّ إذن ؟

هذا سؤال لم يستغرق لحظة واحدة من تفكيرى. لأنى كنت أعرف جوابه من غير تفكير : لقد خنت الأمانة . أمانتى لا أمانته . لم اكن عند المستوى الذى أهلنى له : مستوى احترامى لبشريتى الحرة الواعية . . . التى لها عينان مفتوحتان .

٢

كان حبنا مضرب الأمثال ، برغم مرور سبعة عشر عاماً على زواجنا حتى ذلك الحين ، وكنا حريصين على إنماء هذا الحب ، فما إن يحدث سوء تفاهم بيننا حتى يكون أحدنا على استعداد لإنهائه أى شكل . لم نكن نشعر أن البادئ بالظلم أظلم ، وأن عليه أن يطلب

العفو ، بل كان يقبل أحدنا على الآخر فيعانقه عناقاً مشبوباً ، فننسى كل شيء تحت حرارة العناق .

كانت أيامنا غراماً متجدداً تزيده الأيام شبوباً ، برغم ما تمتحن به من أحداث ، وأصبح من المحال علينا أن نتصور الحياة لأحدنا بدون الآخر . وعندما فقدنا طفلنا الوحيد ، البالغ من العمر ست سنوات ، بعد زواجنا بسبعة أعوام ، اعتقدنا أن معين الحب قد نضب بيننا لشدة الصدمة التى منينا بها ، بيد أننا كنا واهمين ، إذ زادتنا مصيبتنا التصاقاً وشعوراً بأن لا غنى لأحدنا عن الآخر ، حتى إن عشر سنوات مضت بعد ذلك ونحن لا نزال فى نشوة حبنا الأول . . .

فماذا حدث؟ أى محنة ألمت بحياتنا وتركت ندوباً لا يستطيع الزمن محوها ؟

كان الصباح دافئاً مشمساً فى ذلك اليوم من أيام الخريف ، منذ خمسة أعوام على وجه التحديد . ولم يكن فى البيت ما يشغلنى . ولم أجد بى رغبة فى الذهاب إلى المنتدى . فأنا فى الحقيقة لم أحبب غشيانه ، فكنت لا ألم به إلا فى فترات متباعدة جداً . لمجرد تبرير قيمة الاشتراك السنوى . وكنا قد اشتركنا فيه عقب ولادة طفلنا . لأننا قدرنا أن حديقة المنتدى الواسعة الفناء خير مكان يقضى فيه ساعات الصباح نائماً فى عربته ، ثم دارجاً على قدميه الصغيرتين ، ثم متسلقاً فى عبث جميل وحيوية دافقة أشجارها الباسقة . وأنا أرقبه وفى يدى كتاب . لأنى كنت أكره ذلك الوباء المتفشى بين مرتادات المنتدى . وباء تحريك اليدين بلا انقطاع بإبرتى حبك الصوف ، واللسان يتحرك بلا انقطاع فى فرى

سير الغائبين والغائبات .

وقدر لحديقة المنتدى أن ترى رفقى نائماً لاغياً ، ودارجاً لاعباً لاهياً . ولكنها من أسف لم يقدر لها أن تشهده رائحاً جائياً وفى يده المضرب إلى أرض ملعب التنس أو إلى حمام السباحة ، شأن لداته اليافعين الذين لم تهصر يد المنون أعوادهم الخضراء كما هصرته .

ومنذ سنوات ، على أثر وفاة رفقى ، لم يعد المنتدى مكاناً حبيباً لنفسى إلا حين تهجم علىّ الذكريات السود . وأنا امرأة تحب نفض الأحزان لا تجميعها . حتى إن زوجى كان يقول لى أحياناً :

ـ إن الآلهة التى صنعتك جعلت فى جسدك الأنثوى أعصاب رجل . لك إيجابية الرجل . و إقدامه وقوته وثقته . . . ونفوره من الألم . . .

فكنت أجيبه على طريقتى فى المعابثة الجريئة .

ـ لابد أننى رجل شاذ . . . يحب فرداً من جنسه ! . . .

رفضت إذن فى شىء من الحدة والإباء المترفع فكرة قضاء الصباح فى المنتدى . لأن نفسى كانت متفتحة منذ صحوت لصداح العصافير فى حديقتنا الخلفية الصغيرة ، وللسحب الخفيفة المتقطعة فى السماء . كنت متعطشة للحياة . فلا يمكن أن أتجه إلى الجانب القاتم من دنياى . وبدت صبغة مزاجى فى الثوب البرتقالى البسيط والحذاء المنخفض البرتقالى اللون أيضاً ، وتسريحة شعرى المنسدلة على كتفى وكأنى أريد أن أترك خصلاته الكستنائية الناعمة نهباً للأنسام الدافئة ولثمات الشمس الضحوك . ومررت من أمام باب الجراج من غير أن ألقى عليه نظرة واحدة

وانطلقت أجوب الضاحية فى خفة وفراغ نحو محل للمثلجات فى الطرف القصى منها فليس أحبّ إلىّ صيفاً وشتاء من قرطاس من الجيلاتى الجيد الذى يتفنن ذلك المحل فى صنعه . ولم يكن غروراً من صاحبه أن يطلق على حانوته اسم « الساحر » .

ولم يكن من المنتظر أن يلم أحد بالدكان فى ساعة مبكرة من الصباح . فوجدت العمال متفرغين للتنظيف وصناعة المرطبات . ورحبوا بعميلتهم المواظبة وملأوا لى قرطاساً بالألوان التى أحبها جعلوا له قبة. ولم أنصرف على الفور كما أفعل حين آتى فى المساء ويكون الدكان مكتظاً ، بل وقفت أمام الواجهة أجيل نظرى فى أناة ولسانى يلعق القبة الثلجية فى تلمظ وتلذذ . وشاقنى أن أكتشف تفاصيل المكان . وإذا بى كنت أجهلها برغم ترددى منذ سنوات عليه كل يوم . فزحام الناس دائماً يربكنى فلا أملأ عينى من شىء . وهو إحساس قريب جداً من الإحساس بالعرى تحت وقع النظرات التى يخيل إلىّ لسبب أجهله أنها لا شغل لها إلا أن تنهبنى .

وتنقلت عينى من اللافتة التى تحمل لفظ الساحر ، إلى صورة ساحر له طرطور فى يده عصاً صغيرة لابد أنها الأداة التى يستخدمها فى سحره ، وداعبت شفتى من الداخل فقط ابتسامة . ثم تسللت الابتسامة من داخل شفتىّ إلى خارجهما عندما وقعت عينى على قفص أخضر فيه ببغاء كان ينظر إلىّ شذراً . فتخيلت أنه يتأهب لإبلاغى أن أبى السقا مات . . . . ورمقته بنظرة عتاب ممزوجة بالاستفزاز والاستزادة

وقد وضعت على طرف لساني :

– يا قبيح . . . .

ردّاً على سبابه المنتظر . ولكنه لم يفتح منقاره . فلم أفتح فمي . تذكرت عصفوراً ملوناً كان عند زوجة خالي رحمها الله، وكان ابنها الصغير قد أوهمها أنه ببغاء فصيح . فصدقته وهي في خرف الشيخوخة وكانت تقضي ساعات النهار كلها في تعليمه الكلام القبيح منه والمليح من غير جدوى . . . وأخيراً اشتركت في خداع نفسها فكانت تقول لي :

– هذا ببغاء استرالي ليس كالببغاوات البلدي . إنه لا يفهم كلامنا العربي . وعندما يعود ابني من أمريكا بانتهاء بعثته ، سيعلمه النطق بلغة بلاده . . . بالإنجليزي . . . .

وعندئذ كانت تعترض حلقي غصة . لأن ابنها ذاك مات في غربته منذ سنتين ، وكتموا عنها الخبر رحمة بشيخوختها . وهكذا ظلت متلهفة على عودته تلتمس له المعاذير بالجد والاجتهاد عن الكتابة إليها إلى إلى أن ماتت ، واسمه آخر من ودعتهم في الدنيا من الأسماء ، وهي لاتدري أنه أول من تستقبله في أخراها . . . وحولت نظري عن ذلك الببغاء وقد وقفت الجيلاتي اللذيذة في حلقي وكدت أشرق بها ، وحولت وجهي إلى الناحية الأخرى وقد أسخطني على الببغاء أنه ذكرني بما لا أريد من ظلال وادي الأحزان .

ولعل الرغبة في التخلص من هذا الشجن قد أسهمت إلى حد كبير في تلقف أول بادرة للسرور والتهليل لها . فقد وقعت عيني في الجانب

الآخر على دمية آلية غريبة الشكل تمثل قزماً له رأس ضخم مستدير ووجه كالبطيخة له وجنتان حمراوان وعينان مستديرتان متحركتان فى عبث ومجون . والرأس كله يتحرك على إيقاع بصورة مضحكة ، وكان للمفاجأة أثرها فأعقبت الغصة الموجعة انفجارة من الضحك انطلق بها رشاش الجيلاتى من فمى فى حركة طفلية يعهدها فى من يعرفونى . ونظرت إلى صاحب الدكان الذى شاركنى الضحك مسروراً بغزوات دميته وما تحرزه من انتصارات فى عالم التهريج . وقلت له : « من أين اشتريت هذا الألعبان ؟ »

فأجابنى الرجل وفى لهجته شعور شديد بالأهمية : « إنه يعمل بالكهربا .. صناعة أوربا » . فظننته يروغ من السؤال ويطنب فى مزايا السلعة لأنه يريد أن يبيعنى إياها طامعاً فى ثمن باهظ . ولم يظهر على وجهى أنى أدركت خطته — فقلما تظهر ملامحى شيئاً مما يدور فى أعماق سريرتى أو فى رأسى — وكنت فى الوقت نفسه مستعدة لدفع أى ثمن يطلبه من غير مناقشة . فالثمن مسألة لا أهمية لها متى استولت علىّ الرغبة فى الحصول على شىء . وهى دائماً رغبات مفاجئة ولكنها شديدة مثل ثورات البراكين . . .

— جميل جميل . من أين اشتريته ؟ أريد أن أقتنى واحداً مثله :

فخيب الرجل ظنى وهز رأسه أسفاً وهو يقول :

— الخواجة الذى أسس المحل أتى به من إيطاليا . كان يهودياً إيطالياً . ولما رحل أبناؤه المجانين إلى إسرائيل باعنى الدكان بما فيه

وعاد إلى إيطاليا . وأوصانى ألا أفرط فى هذا التمثال المتحرك . لأنه تعويذة تجلب السعد . وفعلا ياست ! كأنه مغناطيس يجذب الزبائن . . . .

وأدركت على الفور ما يعنيه : « السلعة ليست للبيع . إن كنت تحبين رؤيته تعالى كلما شئت واشترى من عندنا وانظرى إليه » .

وهززت كتفى مغيظة وانصرفت حانقة . فى داخل نفسى طبعاً . ولكنى كنت حريصة أن أحتفظ بابتسامتى التى يصفونها بأنها عجيبة . وأنظر بهيام إلى التمثال المضحك وأنا أقول له :

ــ إنه فعلا لذيذ جداً . . .

وكأننى أقول له عن طفل من أبنائه « ربنا يخلى » .

إن التمثال كان هناك طول هذه السنوات . فأنا عميلة المحل منذ أيام صاحبه الخواجة . ولكن هذه أول مرة أراه . ولا أظن أنى سأشعر بهذه المتعة حين أعود لأنظر إليه فى زحمة الناس . أكبر الظن أنى سألقى عليه نظرة عابرة وأنا ساخطة . فالأشياء التى أحبها أريدها دائماً لنفسى . ولا أذكر مرة أنى زرت متحفاً مع شدة حبى للتصوير . فما أريده أريده لنفسى . لى وحدى كى أتعلق به كما أشاء من غير استئذان ومن غير حقوق للآخرين عليه . . .

وركبت الترام وأنا أتذكر مئات الأشياء الصغيرة التى تعلقت بها . وكان لى أب يعشقنى ولا يرد لى طلباً . حتى إن أمى كانت تتهمه بالسفاهة لضعفه أمام أتفه رغباتى وأحمقها . ولن أنسى هياجها ــ رحمها الله ــ عندما قام فى شيخوخته من الفراش وهو فى دور النقاهة من حمى

ليذهب معي إلى السوق وأنا فى العاشرة فيشترى لى طربوشاً أحمر منقوشاً بالقصب و« الترتر» و«خرج النجف» من خان الخليلى . ولم ألبسه بعد ذلك إلا ربع ساعة أمام المرآة ثم وضعته فى الخزانة مع بقية اللعب والطرائف التى أشتهيها بقوة فأقتنيها . ثم أزهدها فجأة . . .

ولم أشعر بالترام وهو يجتاز بى عشر محطات ، لأنى كنت مستغرقة فى أحضان أبى الدافئة وكيف كان يدللنى . ثم جاء زوجى امتداداً لذلك الأب فى التدليل . لم يسألنى يوماً عن نقود أنفقتها . كنت أشترى الغرائب والطرائف ولا أذكر له شيئاً فى الغالب عنها . أنفرد بها وأداعبها بأناملى وقد أضغطها على خدى ، ثم أنسى ما كان من أمرها ، وحسبى أنها هناك أستطيع أن أصل إليها كلما خطر لى ذلك . لألقى عليها نظرة ثم أطرحها من يدى وذهنى . . . ولم تكن لى وجهة معلومة . ولكنى رأيت أمامى محلا تجاريًّا من المحلات الكبرى . فقلت فى نفسى أهبط وأتسكع أمام معروضاته فقد يستهوينى منها شىء .

وهبطت من الترام وتأملت الواجهة التى تمتد على ناصية شارعين ثم دخلت أستعرض ما فى الأقسام المختلفة وقد أطبقت أسنانى كمن تبحث عن شىء لا تدرى ما هو . ووقع نظرى على سوار من الفضة الرخيصة أشبه بأساور الفلاحات . ثمن الواحد خمسة عشر قرشاً ! . ووجدتنى أحملق فيه وقد ملت برأسى إلى كتفى الأيمن . وجربته فى معصمى ، ثم خلعته وقلت للبائعة بلهجة السرور والعزم ، لأنى وجدت شيئاً يشوقنى أن أشتريه :

— اكتبى من فضلك قسيمة بثمن هذا السوار . . . .

وتناولت القسيمة فى يدى وانطلقت بخطى واسعة نحو الخزينة وقد شعرت بارتياح لأننى وجدت شيئاً أرضانى الحصول عليه . . . . فوجدت أمام الخزينة أربع سيدات منهن عجوز فى المقدمة سدت الكوة أمام عاملة الخزينة وقضت وقتاً طويلا فى مراجعة الحساب وعد النقود الباقية. فتملكنى الضيق . وجعلت أدق الأرض بقدمى اليمنى . وفجأة خطر برأسى أن صندوق مجوهراتى حافل بالأساور الذهبية والماسية التى أرفض التزين بها إلا بعد إلحاح شديد . فما فراغة العين هذه ؟ووجدتنى أمزق القسيمة وأنصرف خارجة إلى الشارع ولم يعد لى فى السوار أرب !

إن كثيراً من الأشياء التى أقتنيها لايستغرق تعلقى بها بعد اقتنائها أكثر من دقيقتين . ولكنى أكون استرحت باقتنائها فألقيها جانباً غير نادمة . ومن سوء حظ السوار الفضى العريض أن نصيبه المقسوم من تعلقى انقضى قبل أن أصل إلى كوة الخزينة ، فانطفأت كل رغبة لى فيه وانتهى من حياتى قبل أن يدخل فى حوزتى .

ونظرت فى ساعة معصمى فوجدت أنها لم تجاوز العاشرة إلا قليلا . فرحت أتمشى بتباطؤ فوق الطوار وأنا أتسلى بالنظر إلى الطبقات العليا من البيوت التى تحتل أسفلها المتاجر الكبيرة : عيادات أطباء ومكاتب محامين ومساكن . وامتلأ فمى بطعم كريه عند ما وقعت عينى على لافتة طبيب أسنان ، لأنى تذكرت حظى العاثر مع خائب منهم ترك جذراً من ضرس العقل فأحدث لى خراجاً وكاد يودى بحياتى . . . وركبنى

حب العبث ففكرت أن « أمتلك » طبيباً . لاأعنى أن أقتنى شخصه ، بل أقتنى خدماته ومعلوماته الطبية على سبيل التسلية والهزء . أصعد وأدفع الأجر للممرض وأدخل فأقضى نصف ساعة فى وصف أعراض . أى أعراض تخطر ببالى حيثما اتفق . وأرقب علامات الحيرة وهى ترتسم على محياه . وأكاد أرى أصابعه وهى تنبش تحت شعره — أو صلعته — جميع ما فى ذاكرته من معلومات عن تشخيص الأمراض . وطبعاً لا بد أن يكتب لى وصفة للعلاج حتى لا يفضح جهله بتشخيص الحالة العجيبة التى أمامه . ولن يفوتنى أن أظهر له منتهى الامتنان وأذكر له أسماء وهمية لأصدقاء مزعومين حدثونى عن مهارته التى ليس لها نظير ، وأكدوا لى أن على يده سيكون الشفاء العاجل بعد طول تنقلى بين الأطباء عبثاً !

وفعلا دخلت الباب وصعدت الدرج وطرقت باب طبيب تخيرته . ففتحت لى الباب سيدة شقراء مستديرة الوجه بدينة ، قالت لى باقتضاب وفى يدها ملعقة لاشك أنها كانت تذوق بها الطعام الذى تطهوه

— دكتور حسين بك ؟ . . . حياتك الباقية يابنى ! ألم تسمعى أنه مات منذ أسبوعين ؟

وغمغمت بكلمة أسف واعتذار ونزلت وقد اشتد غيظى وعنادى . وازداد تصميمى على اقتناء أى إنسان — أعنى مواهبه — لمدة ساعة فى هذا الصباح على سبيل التغيير . ما دامت التماثيل المتحركة غير ميسورة فى السوق . والأساور الفضية العريضة فشلت فى الاحتفاظ باهتمامى .

وأمام الباب . فى مواجهتى على الرصيف الآخر فوق المتجر الكبير الذى خرجت منه منذ قليل رأيت لافتة كبيرة تحمل هذا الاسم .

– المعهد الموسيقى الراقى . دروس خصوصية ومجموعات للبيانو والكمان والعود والقانون وسائر آلات الموسيقى الشرقية والغربية !

وقطبت حاجبى . . . . إلا الموسيقى !

لا أستطيع أن أجعل من الموسيقى مادة للعبث. لأنها تقترن فى نفسى بأحب ذكرياتى العزيزة مع أبى فى أواخر أيامه . حينما أجبره المرض فى شيخوخته على ملازمة البيت معظم الوقت. ولم يكن له من سلوة إلا آخر العنقود . وكنت كأخواتى الكبيرات قد تعلمت العزف سماعياً على البيانو . وبدأت أصابعى تمر على المعزف بتلك الأدوار الشائعة فى تلك الأيام : أفراح القبة . وزقزق العصفور صحانى يانينه . والعين عزيزة والقلب غالى . فلم تكن تتم تربية الفتاة يومئذ من بنات الطبقة الوسطى إلا بهذه المعزوفات « تشنف » بها أسماع الزائرات، تمهيداً لاستهواء العرسان . . . ولما لزم أبى البيت وكانت أخواتى قد تزوجن جميعاً ، كنت أعزف له بعض ما أسمعه من المذياع . وأتقن عزفه إلى حد لا بأس به على السماع بعد مرة واحدة .

ولم يكن يضا يقنى أن أعزف لأبى طول الوقت، فأنا لا أحب الاختلاط بالناس منذ صغرى . وإذ أراجع الآن حياتى يخيل إلىّ أن حاستى الجنسية تفتحت وأنا فى سن مبكرة جداً . ولكنى لم أدرك ذلك فى حينه . وكانت التربية المقفلة سبباً فى شعورى بالتأثم من مجرد وقوع نظر الناس

على جسمي . ويخيل إلى أنهم يعرونني من ثيابي فأنطوي وأصدف عن مجلسهم . وفي الوقت نفسه أشعر بجيشان يكاد يغلبني على أمري كلما وقع نظري – في تلك السن المبكرة – على رجل من الجنس الآخر . قد يكون في سن أبي أو دون العشرين . سيان ! فيخيل إلى أن الناس يشعرون بهذا الانفعال الغلاب الذي يمور في داخلي فأسرع بالابتعاد كالغزال النافر ، أو الأرنب الجبان ! وفي وحدتي وانطوائي لم يكن لإحساساتي الفوارة العارمة متنفس سوى البيانو وتشنج أصابعي بالعزف . وانتشائي بضمات أبي حين يستخفه الإعجاب ببراعتي وحماستي واندماجي في النغم حتى تتساقط الدموع من عيني . حتى إذا احتواني أبي بين ذراعيه وقبل شعري وجبيني أغمضت عيني وأخلدت إلى صدره وتمنيت لو أن عناقه لي لا ينتهي .

وقرر أبي أن يستحضر معلماً يلقنني العزف على النوتة بحسب الأصول الفنية الراسخة . ولكن الموت عاجل أبي . وحال الحداد دون هذا الأمر ، الذي كانت تسميه أمي جنوناً . وقد وجد تدينها الشديد فرصة مواتية بعد موت أبي لوضع حد لانطلاقاتي وصغاري ، على حد تعبيرها . . . ولما تزوجت انتقل معي إلى بيتي ذلك البيانو العتيق . وفي السنتين الأوليين كانت أعصابي تتشنج وأنا أعزف . . . ثم وصلت الألفة بيني وبين زوجي إلى ذروتها الكاملة في غضون السنتين . فلم تعد أصابعي تتشنج وأنا أعزف . ثم أهملت البيانو . وصار زوجي هو متنفس حياتي التي كانت مكبوتة ، واستطاع في سنتين أن يحطم القشرة الصلدة التي

كانت انفعالاتى محبوسة داخلها ، وعرفت طعم الحياة على سجيتى وبغير وجل . . . والآن ما المانع؟ لماذا لا أحقق رغبة أبى ويكون تعلمى تحية لطيفة لذكرى رجل لطيف؟ ليكن إذن جداً لا هزلا ما يدفعنى إلى ارتقاء الدرج نحو أبواب المعهد الراقى للموسيقى . . .

واختفى الشيطان الماجن الذى ركبنى فى اللحظات الأخيرة ، وعبرت الشارع ألتمس الباب الجانبى وأدخل دهليزاً معتماً يفضى إلى السلم العتيق ، صاعدة نحو مشغلتى الجديدة .

٣

كان الباب مفتوحاً على مصراعيه ووجدت فى مواجهته عينين زرقاوين كبيرتين جداً تحدجانى بنظرة ترحيب باسمة من خلف منظار سميك عتيق . ينحدر على أرنبة أنف معقوف قليلا . ومن فوقهما حاجبان كثيفان شعرهما الأبيض مشعث . فاستراحت نفسى إلى هذا البوهيمى الشيخ. إنه صورة مطابقة تماماً لما فى ذهنى عن الفنانين العجائز ذوى العيون اللطيفة والشيب الوقور والنظرة الشابة المتفتحة للحياة . وقبل أن أفتح فمى بالتحية رأيته يدس مسماعاً صغيراً فى داخل أذنه . فازداد سرورى . وكدت أصفق بيدى جذلا وأقفز وأنط . « ومثل بتهوفن العظيم أيضاً » فنان أصم؟ ما أشد استمتاعى بدروسه التى سأتلقنها على يديه ! »

ولكنى طبعاً لم أقفز ولم أنط ولم أصفق . بل استعنت بكل رصيدى من الوقار والرزانة وأنا أحاول أن أستولى عليه بسحر ابتسامتى المشهورة بصفائها الآسر :

ــ أريد أن أتلقى عليك درساً منفرداً فى البيانو .

فومضت عيناه الزرقاوان اللتان تستمدان حجمهما الكبير من سمك نظارته ، وأطلت منهما نظرة تواطؤ صريحة وهو يقول لى :

ــ درس بيانو منفرد ؟ هه ؟

ماذا يقصد هذا الرجل بنظرة التواطؤ هذه مع الإلحاح على كلمة منفرد ؟

ــ هذا ما أريده . وأفضل أن يكون ذلك فى ساعات الصباح من كل يوم .

فأطلت نظرة التواطؤ من عينيه مرة أخرى : «تريدينه فى الصباح؟ هه ؟»

كأن وراء رغبتى فى تعلم البيانو على انفراد وفى الصباح سرًّا، وهذا السر مفروغ من أنه متفق عليه بينى وبينه . أو مكشوف له على الأقل . وأردت أن أضع حدًّا لهذا التساؤل المحرج ، فحولت وجهى عنه وتصفحت الساعة المثبتة فى الحائط ، والأريكة الخشبية المعدة لجلوس المنتظرين والخزانة الخشبية التى تحفظ بها الملفات . وفجأة رن صوت جرس ، أقبل شخص ، فنظرت ورائى أتصفح وجه القادم فإذا فراش نوبى أعرج . ولا أدرى لماذا خيل إلىّ على الفور أن كل شىء فى

هذ المعهد أعرج . وتوقعت عندما أدخل الحجرة المعدة للدرس أن أجد البيانو مائلا من إحدى جهاته الأربع .

ــ دفتر المواعيد يا محمد .

ولمحت نظرة التواطؤ تتجه هذه المرة بوضوح تام إلى الفراش الأعرج . الذى أطبق فمه فى جد كامل ومشى يحجل نحو خزانة الملفات . وتوقعت من نظرة التواطؤ أن يكون دفتر المواعيد شيئاً غريباً . يكتنفه سر متفق عليه بين هذا العجوز وفراشه الأعرج . لكن الدفتر كان كراسة عادية . ولم يستغرق الاتفاق على الأجر والمواعيد أكثر من دقيقتين حرر فيهما الإيصال عن دروس الشهر الأول .وحددنا الساعة العاشرة من كل يوم لدرس البيانو مدة ساعة . ثم عادت عينه للغمز اللعين وهو يشير برأسه نحو باب دهليز طويل تصطف الحجرات على جانبيه، وتقدمنى نحو القاعة لأتلقى الدرس الأول . فمشيت وراءه وأنا متوجسة مستثارة بعض الشىء . ترى كيف سيكون سلوك هذا الشيخ الغمازحين تضمنى معه حجرة واحدة والبيانو ثالثنا ؟

وقفزت إلى ذهنى جميع معلوماتى والحكايات التى سمعتها عن الشيوخ وما فى كثير ين منهم من شذوذ مذهل . ولكنى وضعت يدى خلف ظهرى ومددت ذقنى إلى الأمام وقد أطبقت أسنانى . لأنى مقبلة على تجربة من نوع فريد لم يصادفنى مثلها من قبل ، ولم أكن أحلم بمثلها . سنرى ماذا يفعل هذ الشائب العائب . سنرى .

وقف أمام باب ثم انحنى وهو يفتحه وغمز بعينه قائلا : « تفضلى ! »

وتوقعت من نظرته أنني سأدخل مكاناً بعيداً كل البعد عن قاعة درس ! ودخلت حجرة صغيرة مستطيلة فى مواجهة بابها شرفة وعن يمينها بيانو وفى وسطها مائدة صغيرة مستديرة . وتنحنح الشيخ فظهر فى باب الشرفة شاب فارع العود ممتلئ الجسم يرتدى قميصاً كحلياً شمر كميه إلى ما فوق الكوع وبنطلوناً رمادياً . وقبل أن أستكمل استطلاع أوصافه كلها وأرفع عينى إلى وجهه سمعت العجوز يقول :

— مدام أميرة . درس منفرد فى البيانو الساعة العاشرة صباحاً يومياً . الأستاذ خورشيد . . .

ولم أشعر إلا وباب الحجرة يقفل من خلفى وقد اختفى العجوز . ولكن من المستحيل أن يكون هذا الحفيد هو مدرس الموسيقى بأى حال من الأحوال . فقامته تنبئ عن جسم رياضى لبطل من أبطال المصارعة. هذا هو الحفيد الرياضى لمدرس موسيقى ضامر العود مرهف الحس متقدم فى السن . أما هذا . . . إن وجهه المستدير الأملس الأبيض المشرب بحمرة يخالطها النمش ، لايمكن أن تزيد سنه على العشرين . واستوقفنى وجهه . إنه وجه طفل كتلك الوجوه التى تطالعنا فى إعلانات الألبان الصناعية . فكيف يمكن أن يخلق هذا الوجه البرىء الناضر الجميل على هذا الجسم الممتلىء الضخم الذى ينبئ عن قوة ومقاومة وتجربة . . . وتكاد تفوح منه رائحة الرجال لتملأ الأنف . . .

محال ! محال لو صادفنى هذا الشاب فى مكان ما بعيداً عن هذا المعهد أن يخطر ببالى أنه مدرس موسيقى. من هواياتى تخمين صناعات الناس

وأوضاعهم من أشكالهم عندما يقع نظرى على الغرباء فى الأماكن والمواصلات العامة . أما هذا فلم يكن يتبادر لذهنى لو رأيته فى الترام سوى أنه طفل فى الرابعة عشرة استعار جسم أبيه ليتباهى به أمام الفتيات . وها هوذا يصطنع الجد الذى لا تساعده عليه استدارة وجهه الطفلى . وما كنت لأتورع عن تكوير تذكرة الترام وقذفه بها فى أنفه المفرطح بعض الشىء كأنوف الأطفال فى شهورهم الأولى . أو أربت على ظهره وأنا أغبط فى سرى المرأة التى هو ابنها . إن عينيه جميلتان كعيون الأطفال . ففيهما بريق الصدق والصراحة والثقة والإقدام . وعلى جبينه تتهدل خصلة شعر ذهبية ، لم يصطنعها . إنى واثقة من ذلك ! فلابد أنها اختلت ونفرت من مكانها عندما كان منهمكاً فى العزف . . . .

ولعلنى أطلت النظر إلى وجهه أكثر مما ينبغى دون أن أفطن إلى ما فى مسلكى هذا من إحراج للمسكين . وقد رأيت وجهه يكتسى بحمرة قانية وهو يتقدم منى ويصافحنى مرحباً بقدومى فى لهجة مهذبة جداً . ولم يترك لى مهلة لأى تعليق ، بل نظر فى جد وحزم نحو البيانو وطلب منى أن أعزف أى مقطوعة أعرفها كى يقدر مستواى الفنى . فجلست إلى البيانو ومرت أصابعى عليه وأنا أفكر فى اختيار مقطوعة . وخطرت لى فكرة طردتها بسرعة . فقد كانت نفسى الخبيثة أشارت على بعزف « كنت فين يا على وامك بتدور عليك ! » وبسرعة قطعت على نفسى خط الرجعة وبدأت أعزف أفراح القبة فى تصميم ومضاء برغم كثرة ما ارتكبته من أخطاء .

ومن عادتى أن أتطلع إلى وجه محدثى وأتفرس فى عينيه دون موار بة . مهما كانت الأفكار التى تراودنى خبيثة ماكرة . ولما كنت أريد أن أقرأ صدى عزفى على ملامح وجهه . فقد رفعت وجهى إليه وهو واقف بجانبى يتطلع إلى أصابعى فى صمت . وهمدت أصابعى فوق مفاتيح البيانو وأنا مشرئبة أتفرس فى وجهه الشاهق باستطلاع غريب . . .

إن هذا الوجه المستدير الطفلى لا يمكن أن يكون غريباً عنى . ليس من المستبعد أن أكون داعبت هاتين الوجنتين الناضرتين بأصابعى منذ بضع سنوات حينما كان غلاماً يلتصق بركبة أمه فى حجرة الحريم فى الترام . . . وأجهدت ذاكرتى برغم وجهى الباسم وجعلت أنقب بإصرار . وفجأة انشقت حجب الماضى عن عشر سنوات غبرت . وتجلى لى وجه ناضر لطفل فى السادسة من عمره ؛ ووجه مستدير جميل التقاطيع يكاد يضىء صحة وصفاء . . . إنه صورة طبق الأصل من هذا الوجه الماثل أمامى . أو لعل الأصح أن أقول الماثل من فوق . وعبرت أمام ناظرى سحابة قاتمة . . .

ترى لو أن طفلى عاش حتى اليوم أكنت أراه فى وضاءة هذا الشاب؟ إنه يشبهه إلى حد كبير . إلى حد يدفع بى إلى احتضانه والتربيت على رأسه وهدهدته !

واختلجت أهدابه عدة مرات أمام إصرارى على التطلع إلى وجهه . وومضت عيناه بابتسامة حائرة وهو يطلب منى فى احترام أن أتخلى له عن مكانى . فقمت متثاقلة لأقف خلفه وهو يتخذ مكانه أمام البيانو

ثم شرع يعزف عزفاً بديعاً بالنسبة لمعلوماتى المتواضعة . وركزت عينى على أصابعه . إنها أصابع طويلة متناسقة . ويده ليست كأيدى الرجال الخشنة المغطاة بالشعر ، بل هى تكاد تخلو من الشعر تماماً . . . ناعمة بضة ممتلئة . . . كأيدى الأطفال . ولكن فى ضخامة ، وفى قوة يد العازف المتمرس . . .

طفلى أيضاً كانت له أصابع طويلة بالنسبة لأيدى الأطفال . وكم تنبأت له وتنبأ معارفنا بمستقبل حافل فى الجراحة . والآن فقط تذكرت أنه كان خليقاً أيضاً أن يغدو عازفاً ماهراً . . .

ولا أدرى ما الذى خامره بشأنى . لأنى شعرت بأصابع الرجل الطفل ترتجف على المعزف . ولعل السبب أنى تماديت فى النظر إليه فأحس أننى امرأة خطرة . أو لعل وقوفى خلفه ضايقه أو زعزع ثقته بنفسه . فمن الأمور المقلقة لنفس شاب فى العشرين أو دونها غض الإهاب مفرط الحياء أن يصير موضع اختبار فاحص من امرأة مكتملة الأنوثة تخطت الثانية والثلاثين من عمرها . . وأحسست بالإشفاق عليه يخالط شعورى بالزهو لما أراه من تأثيرى فيه . ولكن هذه اللحظة لم تدم. فقد خيل إلىّ أن الطفل الذى يعزف على البيانو رفع إلىّ عينين ضاحكتين مذهواً بتقليده للكبار من العازفين . ثم قفز واقفاً على الأرض وانطلق إلى الشرفة ليركب دراجته الصغيرة ذات العجلات الثلاث وينطلق بها رائحاً غادياً . . . وأحسست غصة تعترض حلقى، ورأيت ابنى وقد تعرض فى يفاعته لامرأة مجربة تعبث بعواطفه ، فوخزنى قلبى وحقدت على نفسى

وتراجعت عن العبث واتخذت سمت الجد حينما رأيته يتململ فى مكانه وإصبعه ينقر بإصرار على أحد مفاتيح البيانو . ثم قام متبرماً وهو يقول :

— كم من مرة طلبت من الخواجة إلياس شد هذا البيانو وإصلاح أمر هذا المفتاح . ولكنه لايستخدم السماعة حين تخاطبه فى موضوع يحتاج إلى إنفاق . ويحرص على استعمالها جيداً حينما يتعلق الحديث بالإيراد ! والظاهر أن الإنسان لا يمكنه أن يعتمد على غيره ، بل يجب أن يقوم بنفسه بكل ما يحتاج إليه . . . .

وكان يتكلم برزانة شديدة . شأن الكهل المثقل بتجربة العمر . فكدت أدفعه فى صدره وأدغدغ عنقه بأصابعى لشدة ما أشبه بوجهه طفلا يتشبث بسمت الرجال بدون طائل . ولكن الفرصة فاتت لأنه استدار خلف المعزف بسرعة وجعل يفحص الأوتار ثم يمد إصبعه وينقر على المفتاح المعطوب ، فتبخرت من رأسى كل فكرة عن طفولته أمام ذلك الانهماك الجدى . وسألته بفضول :

— هل لك خبرة بإصلاح المعازف أيضاً ؟

فرفع رأسه بسرعة اهتزت لها خصلته الذهبية وثبت عينيه فى وجهى وقال فى ثقة : « خبرة تمتد إلى نحو عشر سنوات بالعزف ينبغى أن يكون وراءها محصول من معرفة بأدق دقائق هذه الآلة . وإلا لما كنت أهلا لحمل أمانة هذا الفن ! »

ويبدو أننى فغرت فى برهة قبل أن أقول له : « عشر سنوات ؟



(٢)

أنت إذن بدأت العزف وأنت طفل صغير! »

ولم يجبني على الفور، بل نقر على المفتاح نقرتين وهو مائل بجسمه فوقه، ثم التفت نحوي وقال ببساطة تحمل كل أمارات الصدق: « بدأت العزف وأنا في السادسة من عمري. وفي الحادية عشرة كنت أعزف في الحفلات. حتى إنهم أطلقوا علي لقب الطفل المعجزة. وبدأت أعطي دروساً للفتيات الصغيرات. حتى بلغت السابعة عشرة جئت إلى هذا المعهد وبدأت أمارس المهنة. مهنة تعليم البيانو للكبار أيضاً. وإلى هنا زهاء خمس سنوات ».

فقلت بجد: « أنت في الثانية والعشرين؟ يا إلهي! إن من يراك لا يقدر لك أكثر من تسعة عشر ربيعاً. لم تخطئ نظرتي فيك كثيراً على كل حال. فأنت في سن ولدي تقريبا ».

قلت هذه الكلمة لأرى ماذا سيكون من تأثيرها عليه. ولم أر للدهشة أثراً على محياه الطفلي: بل انحنى بكل رزانة وقال بتؤدة شديدة « شد ما يسعدني ذلك يا سيدتي ».

وانتهى درس ذلك اليوم. ولما مد يده ليصافحني رأيته ينفخ صدره ويلقي رأسه إلى الوراء ليضفي على شخصه جلالا كجلال الرجولة. وليدخل في روعي أنه وإن كان صغير السن إلا أنه يستطيع أن يقف على قدم المساواة — على الأقل! — مع أي رجل في الأربعين. وإذا كنت أكبره كثيراً في السن فهو ليس كطفلي. وإنما أستاذي وأنا تلميذته! وابتسمت في أعماقي ابتسامة مشوبة بالأسى. فطفلي أيضاً كان يقلد

أباه فى حركاته وطريقة مشيه . ويختال أمامى بالمسبحة وهو يقول : «لماذا تأخر الخادم فى الخارج ؟ لابد من تأديب هؤلاء المناكيد وإلا ظنوا أن الحبل على الغارب ! »

أى حبيبى المسكين ! لقد اختطفك الموت منى ولم يمهلك حتى تسعدنى وتسعد بالمزدهر الواعد من أيامك . . .

وهاجتنى الذكرى . ووخزنى ألم فى أعماقى فاربد وجهى وأسرعت بالخروج قبل أن تفضحنى عيناى اللتان تخضلتا بالعبرات

٤

خرجت من عتمة السلم إلى وضح الطريق وأنا لا أكاد أرى ما أمامى . وغشيتنى سحابة من الكآبة المصحوبة بالزهد فى الحياة كلها . وكثيراً ما كانت تصيبنى هذه الحالات كلما ركدت حياتى واطردت على وتيرة واحدة لا يتخللها جديد يوقظ مشاعرى وينبهنى إلى جمال الطبيعة والأشياء من حولى . فعلى قدر حبى للحياة وتمسكى بها كانت تنتابنى نوبات من السأم تسلمنى إلى الهمود وعدم الرغبة فى رؤية أى مخلوق . وتطلعت إلى وهج الشمس الذى ينصب على الكائنات كلها من حولى بعين حانقة مستهينة : ما الحياة ؟ ولماذا نعيش ؟ وأى شىء يمكن أن نحصل عليه مهما طال بنا الأمد ؟ ما أعقم الحياة ! إنى لست أرى فيها ما تفضل به الموت ! ثم ضبطت نفسى وأنا أعبر الطريق من طوار إلى طوار أتلفت

بانتباه شديد يمنة ويسرة حرصاً على حياتى الزهيدة العقيم من سيارة تدهمها.

لاحقنى بائع عاديات متجول يلح على فى استعراض بضاعته. ووقفت أقلب الأساور الفضية والعقود الزجاجية. وهى عادة تستهوينى على فساد ذوقها، فلا أتزين بما أقتنيه منها على كثرته وإن كنت أحتفظ به، ولا أهب منه شيئاً لأحد. فى ذهنى دائماً أننى قد يهفنى الشوق للتزين منها يوما ما قلبت ما عرضه على الرجل فى زهادة. ثم ألقيته من يدى. وعندئذ لفت نظرى خاتم عادى الشكل جداً له فص كبير من الزجاج الملون. وكان الخاتم كالمنبوذ ناحية ولم يفكر الرجل فى عرضه على لسخافة شكله وعدم تميزه بشىء سوى تلك الضخامة المفرطة. ولعله لم يخطر بباله أن سيدة فى رقتى يمكن أن يروق لها شىء ضخم مثل هذا . . وتناولت الخاتم الزجاجى الأخضر وقلبته أمام عينى، وقد مططت شفتى السفلى إلى الأمام فى حركة امتعاض. ثم وضعته فى خنصرى بعد أن خلعت خاتماً من السفير الثمين، كان زوجى قد أهداه لى منذ بضعة أيام. وبدا الخاتم الجديد رخيصاً مبتذلا بصورة واضحة. ولكن العناد استولى على رأسى. فرغباتى هى المصدر الوحيد لمنح القيمة والأهمية لأى شىء، لتكن إرادتى وكفى. فالشىء مرغوب فيه عندى بمحض رغبتى، لا لمزية فيه!

ورفعت عينى من تحت حاجبى من غير أن أرفع وجهى عن النظر إلى الخاتم وقلت بهدوء للبائع الأقصرى الحصيف: «كم ثمنه»؟ وببرود أشد قال الرجل: «سبعون قرشاً». وأدركت أنه يستغلنى

فخلعت الخاتم من يدى ووضعته مكانه وقلت : « إنه لا يساوى أكثر من عشرين . فهل تأخذ ربع جنيه أو دعنى أمضى لحال سبيلى ! . . . ». وتحركت فعلا نحو محطة الترام فأسرع يدس الخاتم فى يدى . ودسست فى يده ربع جنيه . ولكنى لم أركب الترام . بل اجتزت الشارع مرة أخرى إلى محل الصائغ الأرمنى الذى نتعامل معه منذ سنوات وقدمت إليه الخاتم فرفع الرجل إلىّ عينيه فى دهشة ثم ضحك قائلا : « هل تمارسين الآن هواية جمع الزجاج الملون ؟ » فابتسمت وهززت كتفى وأشرت إلى خاتم كبير فى دكانه وقلت : « أريد خاتماً ذهبياً بهذه الصياغة لهذا الفص ! »

— ولكن الفص ثمنه قرشان والخاتم سيكلفك تسعة جنيهات ! فهززت كتفى الأيسر فقط هذه المرة وأنا أفتح كيسى وأعطيه خمسة جنيهات عربوناً تناولها الرجل ولم يفتح فه . وقد أحس أنه أبرأ ذمته بما فيه الكفاية وعليه أن يرحب بالرزق الذى سعى إليه . وحدد لى ثلاثة أيام موعداً لتسلم الخاتم المأمول . . .

ودخلت البيت . وكان عونى قد وصل قبلى . وما إن رآنى حتى أقبل هاشاً بوجهه الطيب يحتضننى كعادته ويقبلنى . ثم أبعدنى عنه قليلا وأمسكنى من كتفى بيديه وصوب إلىّ نظرة حانية لمعت بها عيناه وسألنى : « أين كانت أميرتى ؟ » فأقفلت إحدى عينى وصوبت إليه نظرة ماكرة عابثة وقلت له : « بعدما شاب بعثوه إلى الكتاب ! » فمد يده وهز يدى بحرارة شديدة وقال : « ألف مبروك ! العلم نور !

على كل حال » .

ثم مال بعنقه إلى كتفه الأيسر وسألنى بصوت خافت : « وأى مدرسة انتسبت إليها أميرتى إن شاء الله ؟ » . فحدثته بولعى القديم بالموسيقى . وكيف أن تعلمها سيملأ حياتى ووقتى . وذكرت له عنوان المعهد ومواعيد الدروس . وكيف أننى بدأت اليوم .

وجذبنى من معصمى إلى أريكته القرمزية المفضلة فى حجرة نومنا الواسعة وجلس وأجلسنى بجواره وقال من غير أن ينظر نحوى ، بل انهمك فى خلع حذائه وهو يتكلم بلهجة عادية جداً كأنه يسألنى عن ألوان الطعام التى ستقدم إليه على مائدة الغداء : « ومدرسك هذا . . . . ما شكله إن شاء الله ؟ »

يا إلهى ! ألا يتخلى هذا الرجل يوماً عن جده الهازل ؟ لماذا يسألنى الآن هذا السؤال ؟ هل كان بحاجة إلى إلقائه لو أنه رأى ذلك الطفل الكبير ؟ إنه يقدر لهفتى على الأطفال . وأنا أعلم مبلغ لهفته وإن كان لا يشير مطلقاً إلى هذا الموضوع . ولو أشرت الآن إلى هذه المسألة لحز الأمر فى نفسه . وإن كان لا ذنب له ، فأنا التى يستحيل عليها أن تنجب على أثر تلك الجراحة المشئومة بعد ولادة طفلنا الوحيد الفقيد بثلاثة أعوام . فهل أتركه يعتقد أنها مغامرة جديدة ستبدأ فى حياتى ، أم أطلعه على الحقيقة ؟ إنه لن يأبه للمغامرة . فكم من مرة وقد رآنى راكدة آسنة لا أجد للحياة طعماً قال لى وهو يداعبنى : « أنا أعرف الناس بداائك ودوائك أيتها العزيزة ! إنك كالشعلة التى تزداد اندلاعاً

كلما وجدت ما يغذيها . فهل نضب معين حياتك يا عزيزتى من الفحم أو الحطب أو البوتاجاز ؟ لماذا أرى شعلتك تكاد تخبو؟ هل أقفرت الدنيا من الرجال . . . حتى ولو من رجل نصف عمر ؟ » فأضحك من قلب صديع . لأنه يقرأ ما فى أعماقى ثم لا يكتفى بالرقة الحالى . ما أكبر قلبه ! ثم أقسم بينى وبين نفسى ألا أتورط فى شىء يؤلمه . ولكن ماذا أصنع والحرص على الحياة غريزة . وحياتى لا تقبل الهمود . وطبيعتى النارية إما أن تندلع كألسنة اللهب وإما أن تموت !

ويظهر أنه طال به الانتظار لجواب سؤاله وهو يخلع حذاءه عن شكل مدرسى الجديد ؛ فرفع وجهه إلىّ وسألنى وقد أجفل للأسى المرتسم على صفحة وجهى من أثر ما طاف بذهنى من الخواطر هاتفاً : « ماذا بك يا أميرة ؟ هل حدث شىء » وعلى الفور عادت الابتسامة المشرقة إلى محياى وداعبت صفحة خده بفمى من غير أن ألتصق به وقلت وأنا أنهض واقفة : « لم يحدث شىء . ولكنك لو رأيت مدرسى لما صدقت أن هذا الفتى اليافع . أن هذا الطفل أستاذ بارع فى الموسيقى » . فقال بجد : « كيف ؟ أهو صغير إلى هذا الحد ؟ » فقلت : « يزعم أنه بدأ عامه الثانى والعشرين. ولكننى لا أظنه يزيد على التاسعة عشرة يوماً واحداً . إن براءة الطفولة تنبع من عينيه الصافيتين البريئتين المستديرتين . . . ووجهه . . . !» وضممت قبضتى فى حركة يعهدها من يعرفوننى كلما راوغتنى الكلمات التى أريد التعبير بها عن شىء خارق للعادة . فاكتسى وجه عونى بسحابة من الأسى

ووضع يده على ذراعى وقد انتصب واقفاً بجوارى وسألنى برقة يغالبها حتى لا تبدو فى صوته الأجش : « هل حرك فيك عاطفة الأمومة إلى هذا الحد ؟ » فقلت : « بشكل جبار . حتى إننى لم أستطع مغالبة جيشان عواطفى ». فجذبنى من ذراعى وهو يتقدمنى قائلا : « ألم تجوعى ؟ هيابنا نتغدى . . . »

وعلى المائدة جلس قبالتى .

وظننته سينصرف إلى الأكل . ولكنه بعد أن وضع أول لقمة فى فمه وهو مطرق رفع عينيه إلىّ من غير أن يحرك رأسه وقال بلهجة عادية : « لا تستسلمى للأنغام التى تصدر عن أوتار الأمومة فى قلبك كلما وقعت عيناك على هذا الغلام الأستاذ . . . فكم تسلل كيوبيد من خلال هذه العاطفة البريئة . . . »

فنظرت إليه نظرة عتاب ولم أقل شيئاً . . . فرمقنى بنظرة إعجاب تفيض غزلا . فازدادا خداى تورداً . ولم أعد أشعر فى الحياة إلا بهذا الزوج الطيب الذى لا يرى جمالا فى الدنيا إلا فىّ أنا ؛ ومددت يدى عبر المائدة وضغطت على يده ضغطة حملت كل معانى الامتنان وتأكيد الطمأنينة والثبات على العهد والميثاق . . فانحنى على أصابعى المتشنجة وقبلها . واستأنفنا تناول الطعام فى هدوء سابغ وأمن وثقة وسلام . . .

وبعد ضجعة القيلولة شغلنا باستقبال ضيوف من الأصدقاء. ولم يخطر ببالى كل ما جرى فى فترة الصباح ودرس الموسيقى ، وما أعقبه من

أسى . وكنت فى أوج مرحى وبشاشتى . . . .

وكان مساء وكان صباح يوماً ثانياً .

٥

وقفت أمام مرآة مائدة الزينة أتجمل كعادتى . . . ولم يكن من طبعى الإفراط فى وضع المساحيق . فغالباً ما كنت أخرج فى الصباح دون أن أضع شيئاً على بشرتى . أما ما كنت أبرزه فى التجميل إبرازاً خاصًّا فهو حدود الشفتين والحاجبين ... وتحسست بشرتى بأطراف أصابعى . إنها ناعمة كالمخمل من أثر الحمام البارد الذى درجت عليه منذ كنت طفلة صغيرة . فقد كان والدى إلى أن تجاوز الستين من عمره لا يفوته كل صباح صائفاً وشاتياً أن يقف تحت رذاذ الرشاش البارد . وأنا بنت أبى، تعودت أن أقلده فى كل شىء . ويقينى أن ذلك الحمام البارد يجلب الصحة والنضارة وينشط الدورة الدموية . . . .

أجل كان وجهى ناضراً . ولكن بعض معالم السن بدأت تزحف على مواضع حساسة من بشرتى . ولم أكن آبه لها كثيراً أو أجتهد فى مداراتها . فهى أقل الأعراض التى يمكن أن تظهر على امرأة بلغت سنى . فما بالى اليوم لا أستطيع منع عينى من التفرس فيها ؟ !ولم تكفنى مرآة الزينة العادية لأتبين المواضع التى يجب أن أعمل على إخفائها . فهذه المرآة لا يسقط عليها الضوء . فأسرعت إلى الحمام ووقفت والشمس تنصب على

مرآته وجعلت أتفرس فى وجهى بإمعان !

ـ عجباً ! ما كل هذا الاهتمام يا أميرة وأنت ذاهبة إلى درسك الثانى فى الموسيقى ؟ إن هذا الطفل فى سن ابنك!

ـ ابنى ؟ كيف ؟ أيكون لى ابن فى الثانية والعشرين ـ وهذا ما يعترف به من عمره ! ـ وأنا لم أتجاوز الثانية والثلاثين . . . ووجهى لا يعترف بأكثر من الثامنة والعشرين ؟

ـ إنه يحترمك ويقدرك فلا ترتكبى حماقة توقفك منه موقف الصغار . وتذكرى أن شاباً مثله كان محط الأنظار منذ الثالثة عشرة لابد أن تكون له مغامرات مبتذلة مع المتصابيات من النساء . . . ولابد أن يكون على علم بتكوين المرأة ودقائق طبعها وأسرار سلوكها الخفية .

ـ هراء ! هو خبير بالنساء ؟ مستحيل . . إن أصابعه كانت ترتجف حينما أحس بمراقبتى له من وراء ظهره . فهل من مارس النساء يرتجف تحت وقع نظرات امرأة غريبة عنه ؟

ـ أميرة ! لا تتناسى أنك نمط مختلف من النساء . نمط متفرد . فاللواتى له معهن مغامرات من نوع شائع متداول ، نساء شائعات مبتذلات لا يشعرن مثله بالتهيب أو التأثم . أما أنت . . .

ـ أنا ؟ وهل تستطيعين أن تخبرينى من أنا من فضلك وإن لم أكن امرأة ؟

ـ أنت مكانتك فى المجتمع مرموق . وزوجك له شهرة فى الأوساط الاجتماعية . ولك شخصية قوية . هل غاب عن فطنتك مبلغ الاحترام

الذى قدمك به المدير إلى هذا الغلام . ومبلغ ما استولى عليه من تهيب ؟

— أوه ! وماذا تريننى فعلت ؟ هل فى عنايتى بمظهرى انحراف عن سواء السبيل إلى مهاوى الرذيلة ؟ !

— لا تضحكى على نفسك ! لا تغررى بنفسك ! أنت اليوم غيرك بالأمس . وهذا وحده علامة كافية على التغير فى البواعث والنيات . وهذا لا يليق ! ثوبى إلى نفسك واطرحى من ذهنك كل تفكير فى المناورات الصغيرة التى تعبثين فيها بكبار السن لكى تشعرى بالزهو والخيلاء وتستمرئى سطوتك . ولكن هذا الفتى اليافع لا يجوز لك أن تجعليه هدفاً لإشباع غرورك !

وكان عقلى على العهد به لا يمكن أن يهدأ . فهو فى صراع دائم . ولكن على حين تكون رحى ذلك الصراع دائرة على أشدها فى أعماقى ، تظل أسارير وجهى ساكنة هادئة كأنى لا أفكر فى شىء أو كأن عقلى صحيفة بيضاء وليس به هذا الموج المتلاطم من الانفعالات ! كانت نفسى تمور ويدى دائبة على الحركة ، حركة التزين والتجمل وتصفيف الشعر . ثم اختيار الثوب الملائم للصباح . ثم اختيار الحذاء وحقيبة اليد . وحتى منديل يدى عنيت باختياره كى يلائم ملابسى . . . وأخيراً وقفت طويلا عند اختيار العطر المناسب .

ونزلت فى آخر دقيقة مسرعة نحو موعدى . وإن كنت أفضل الوصول متأخرة قليلا حتى أتأكد من انصراف من قبلى وتتاح فرصة

الراحة والاستعداد للدرس التالى . ولست أحب أن أذهب فى زحمة الخروج والدخول . بل أفضل أن يكون المكان خالياً تماماً حتى يكون المسرح كله متفرغاً لإبراز دخولى وحركاتى . فلا تتلاشى شخصيتى المتفردة فى هرج الزحام .

وصعدت السلم المعتم مثنى مثنى . وطالعنى وجه المدير جالساً فى مكانه . فأومأت إليه محيية برأسى بإشارة عابرة غير ملتفتة إليه كأنما أقول له لا تبرح مكانك . فليست بى رغبة فى أن تتبعنى . . .

ووجدت حجرة الموسيقى خالية .

الأستاذ خورشيد لم يحضر بعد . . . فوقفت أتفقد الحجرة بعينى فوجدت كراسة بها نوتة موسيقية وإلى جوارها صورة لطفل صغير . . . إنه النابغة موتسار وهو يقود الأركسترا .وأظنه يومئذ كان فى التاسعة من عمره . ولكن وجهه شديد الشبه بوجه الأستاذ خورشيد فى عمره الراهن . إن وجه خورشيد لو فصلناه عن جسمه النامى لهو وجه فتى فى العاشرة أو نحوها ، ليس فيه أثر للخشونة أو النضوج الانفعالى أو التجربة . . .

ولم أفطن لدخوله إلا عندما سمعت صوت الباب من خلفى يقفل ببطء شديد . فاستدرت فوراً على عقبى . . .

يا إلهى ! إنه اليوم أنضر من أمس وأصغر منظراً فى هذا القميص الأبيض الناصع . وعيناه تضحكان دائماً . حتى وهو جاد لا تخلو نظرته من حنان ضاحك .

ولا أدرى لماذا استشعرت له قلباً كبيراً حانياً. ربما لأنه دمث جدًّا فى

معاملته . أو ربما لأن حركاته تفيض بالحنان الذى تحسه فى كل لفتة منه . فتلك الطيبة المرتسمة بوضوح على ملامحه الطفلية تجعل من العسير جداً أن أقاوم رغبة التربيت على وجهه وضم رأسه إلى صدرى فى حنان الأمومة الفياض الدافق . . .

وسألنى فى رقة متناهية :

ــ كيف حال الموسيقى معك منذ أمس ؟

فقلت وأنا أثبت عينى فى وجهه كعادتى كلما خاطبت إنساناً :

ــ لا بأس . ولو أننى لا أميل كثيراً للانحصار داخل إطار مرسوم . بل أفضل ترك نفسى على سجيتها . ولذا وجدت مشقة كبيرة وأنا أتتبع النوتة .

فهز وجهه المستدير الأملس هزة العليم الخبير وقال : « لا عليك . ستتعودين ذلك متى أخذت نفسك بالشدة فى أول الأمر . أما إذا تراخيت فلن تحصلى على نتيجة سريعة ».

ثم سدد نظرته الضاحكة إلى وجهى فى تساؤل وقال : « أليس كذلك؟ لنبدأ الآن درسنا لأرى مبلغ تقدمك . . . »

عجيب هذا ! إنه يكلمنى كما يكلم الرجل الكبير طفلة على قدر عقلها ! ماذا دهاه ؟ لم يكن هذا حاله بالأمس . ألعله يريد أن يثبت لى رجولته وشدة بأسه بعد الذى قلته له بالأمس عن سنى . وأنه فى عمر ولدى؟ إن الشاب فى هذه السن يزعجه أن تعده امرأة ناضجة طفلا إذا كانت هذه المرأة تعجبه أو يريد أن يحوز رضاها . فهل أعجبته ؟

أم تراه يريد أن يختبرنى ليعرف إن كنت امرأة فاضلة حقًّا . لأنه يعتقد أن كل النساء سواء فى أعماقهن ، لا فرق بين من تدعى الفضيلة والشرف وبين من تمارس الدعارة إلا فى المظهر الخارجى ، ومتى أمنت الفاضلة المتصونة الرقباء خلعت العذار وغدت أشد دعارة من الساقطات المحترفات ؟

وأحنقنى هذا الخاطر فاحتقرت نفسى وسخطت عليها سخطاً شديداً . أبلغ بى التهور أن أسمح لطفل أن تراوده مثل هذه الفكرة عنى ؟ أى ابتذال وامتهان لكرامتى ؟ أى حمأة أضع نفسى فيها مختارة واعية مفتوحة العينين ! ؟ يالضيعة السن ! زوجى إذن على حق حينما يقول لى كلما رآنى أمارس مناوشاتى الصغيرة عابثة بخلق الله من الرجال :

— ستعيشين مائة عام يا امرأة . حتى وأنت فى عامك الواحد بعد المائة لن تفلتى رجلا يمر بحياتك متى كان فيه شىء يستهويك !

فهل أنا حقًّا كما يقول؟ كم من الرجال حاولت أن أوقعهم فى شباكى حتى اليوم ؟

وأخذت أستعرض فى مخيلتى القائمة . فأحسست إحساساً عميقاً صادقاً أننى لم أكن أعنى أى رجل منهم لذاته ، بل كان الدافع الأكبر لى استمراء اللعبة . بدليل أننى كنت أتراجع بصورة حاسمة فى اللحظة التى كنت أحس فيها بالخطر . ولم تكن المسألة تترك فى أعماقى أى صدى من اللوعة . وإنما صداها الوحيد كان فى إحساسى بالحنق الشديد

على نفسى لأننى تورطت تورطاً قد يشعر هذا الشخص أنه شىء ذو بال وهو فى الحقيقة لاشىء على الإطلاق . . .

ونبهنى من شرودى الطويل صوت الأستاذ خورشيد الرصين العميق الذى لا يتفق مطلقاً مع وجهه الناعم الأملس : « ماذا جرى يامدام أميرة ؟ أهناك شىء يضايقك ؟ » فالتفت إليه مذعورة كأنى خفت أن يكون قرأ أفكارى وسألته وأنا أرفع عينى إلى وجهه : « هل أخطأت فى العزف ؟ »

فهز رأسه عدة مرات متواليات ، ثم قال وهو يبتسم بعينيه ويضم شفتيه . وكانت هذه لازمة من لازماته : « إن من يسمعك يقول إنك لم تتمرنى فى البيت دقيقة واحدة . . . اسمعى يا مدام أميرة . . . إن البيانو يحتاج إلى تركيز الذهن لا إلى شتاته . وأنا أريدك هذه الساعة أن تطرحى جميع أفكارك الشخصية من ذهنك وتجعلى كل همك فى الدرس والعزف ! »

كيف تجرأ على أن يكلمنى بهذه اللهجة ؟ ما هذه السلطة التى يخولها لنفسه فى أثناء الحديث ؟ أيعتقد أننى تلميذة فعلا وأن له الحق فى إملاء أوامره وفرض إرادته على ؟ ولكنى سكت . ولم أظهر أى تأفف بل على العكس اعتذرت له بأنى لم أتمرن فعلا دقيقة واحدة . وكنت كاذبة ! ولكن لأن أدخل فى روعه أنى لم أتمرن إطلاقاً خير ألف مرة من أن أكون قد تمرنت وارتكب هذه الأخطاء . وحاولت فى بقية الدرس أن أحصر ذهنى ولا أشرد لحظة واحدة . وأن أتجاهل شخصه تمام التجاهل كأنى

أتلقى التعليمات من آلة صماء . واتخذت سمت الجد والوقار حتى إننى كرهته فعلا وكرهت البيانو . وعولت فى نفسى على ألا أعود .فأنا لا أحب أى مناسبة تفرض على الشعور بالضآلة . . . .

٦

ركبت سيارتى التى كانت تنتظر حيث تركتها أمام باب المعهد وكلى عزم وإصرار على عدم العودة إلى درس الموسيقى . فقد ركبنى الحنق لهزيمتى أمام هذا الغلام بعد أن كان زمام الموقف فى يدى . واندفعت بالسيارة فى طريق خلفى طويل خال تقريباً من السيارات وأنا ألعن الساعة التى رأيت فيها اللافتة واليوم الذى دخلت فيه باب المعهد . وهذه الشطحات التى تركب دماغى وتستولى على بدون مقدمات .

وضرب الهواء وجهى فأعاد إلى نفسى بعض هدوئها وانبلجت أمام ناظرى حقيقة كنت أحاول التملص منها .

لماذا إذن تذهبين إلى هذا المعهد إن لم يكن للتعلم والجلوس مجلس التلميذة ؟ إذا كنت تعتقدين أنه ملهاة لتزجية فراغك ، فقد غاب عن ذهنك وفطنتك أنه يأخذ الدرس مأخذ الجد الجاد . وأنه خبزه اليومى الذى يتعيش منه . وهل خطر ببالك أن يترك العمل ليطرى جمالك ويركع تحت قدميك ؟ كلا يا أميرة إن عيبه أنه جاد معك أكثر مما يجب .



فكم من رجل فى سن أبيه له عقلية طفل . أما هذا الغلام فله عقلية رجل ناضج .

ــ أتستهويك إذن عقلية الأطفال أم نضوج الرجال ؟

ــ لا أدرى ! أحياناً هذه وأحياناً تلك . وأنا لا أستطيع فهم نفسى . زوجى يفهمنى أكثر منى ؛ سأقص عليه ما حدث وأطلب منه المشورة !

واندفعت أسابق الريح إلى البيت . ولم يكن قد حضر بعد وجلست أنتظره وأنا على أحر من الجمر ولكنه تأخر على غير عادته . عندئذ تملكتنى رجفة مخيفة . وجزع شديد . وكان هذا ديدنى كلما أحسست غيبته . فأنا أحتاج إليه حاجتى إلى الهواء والطعام والماء . أمرح وأجوب الحياة طولا وعرضاً وأنا مطمئنة إلى أنه خلفى يؤازرنى ، ولا يمكن أن يخذلنى أو يتخلى عنى مهما حدث . ويدفع عنى السوء ويحنو على ويمسك يمينى ليقودنى فى ساعة الخطر إلى شاطئ الأمان .

وسمعت على درج السلم وقع قدميه فأسرعت أفتح الباب قبل أن يصل إليه الخادم . واحتوانى بين ذراعيه وهو يلهث قليلا . فتخلصت منه وجذبته إلى الداخل . إلى حجرة النوم . . . وشرعت أساعده على خلع ملابسه . فقال وهو يزوم دون أن يلتفت إلى : « م م . . . . ماذا وراءك من جديد ؟ كيف حال بتهوفن اليوم ؟ » . ولم أدر لماذا أجبت على الفور وبغير تفكير : « لن أذهب بعد اليوم ! » فاستدار حتى واجهنى وقال فى عجب : « هكذا مرة واحدة ؟ هل حدث شىء ؟ » فقلت بقلة اكتراث : « لم يحدث شىء ولكن صدق من قال إن من تخرج من

دارها تقلل من مقدارها . والمسألة من البداية كانت رعونة لا معنى لها » .

— هوه هوه ! ما المسألة بالضبط ؟

— هذا الغلام يعتقد أنه يستطيع إملاء أوامره على من فوق وكأنه صدق أننى تلميذة حقًّا . . . !

ولم يتكلم فوراً بل تشاغل بخلع بقية ملابسه وارتداء ملابس البيت . ثم استدار إلىّ وعلى وجهه مسحة من التفكير الجاد ووضع يده على كتفى وقادنى بجواره إلى آخر الحجرة حيث الأريكة القرمزية الكبيرة . وجلس وأجلسنى بجواره ثم أمسك يدى بين يديه وجعل يربت عليها تربيتاً رتيباً ويعد أصابعى واحداً واحداً . . . وكانت هذه عادته كلما حز به أمر ، وكنت أعلم أن وراء هذا المظهر الهادئ الحانى عقلا جباراً يرتب الأمور ويحللها ويعطيها حقها الطبيعى . فتأهبت لتلقى كلماته وأنا ألعن اللحظة التى أفلتت فيها الألفاظ من فمى دون أن أعنيها . واللوم فى ذلك على التدليل الذى أخذنى به طوال حياتى ، فأنا أتكلم دون تقدير لعاقبة كلماتى التى أفوه بها عفواً فتسبب له أرقاً وهمًّا كان فى غنى عنهما . وأتانى صوته الأجش الهادئ :

— تعلمين جيداً يا أميرة أننى لا يمكن أن أحجر على حريتك أو أضع قيوداً أو تحفظات على انطلاقاتك الطبيعية فى الحياة . وتأكيد ذلك لك الآن من نافلة القول. وأنا أعلم أن هناك نماذج من البشر تستهويك طرافتها وتدفعك دون روية أو تبصر إلى معرفة كنهها أو العبث بها .

كأنهم لعب أو كلاب وقطط تربينها للتلهى بها في أى وقت يخطر لك ذلك . وهذا ما يغضبنى . لا من أجلك بل من أجلهم هم أولا . فالآدمية يا أميرة شيء ينبغى أن يكون له احترامه . إنهم بشر وليسوا جمادات أو عجماوات . فهذا التلهى بالآدميين إهدار لكرامة الآدمية منهم . ولئن كنت قد تزوجتك طفلة فتركتك تختبرين الحياة بنفسك دون أن أتدخل فى أمر من أمورك مباشرة . فذلك كان عن قصد لكى أترك لك حرية اختبار الحياة اختباراً عملياً . وأعتقد أنك قد فهمت الآن كل شيء وصار لك من رجاحة العقل وسلامة الفهم ما ينأى بك عن التورط فى عمل من شأنه أن يهدم حياتك وأنت امرأة محترمة ناضجة . وقل بين النساء من تضارعك فى حصافتك وفهمك . . . .

ورفعت يديه المسكتين بيدى ومرغت فوقهما خدى فى امتنان . واستطرد هو من غير أن تتغير طبقة صوته :

ــ إن أخطر ما فى الموضوع أن الشبان فى سن ذلك الفتى منهم من يأخذون الحياة مأخذ الجد الخالص . أما الرجال المتمرسون الذين يأخذون الحياة كما هى ولا يطالبونها بأكثر مما تعطيهم فلا يأخذونها مأخذ الجد الصارم كالشبان . فالشباب دائماً متطرفون . وتجربة السن هى التى تعلمهم التسليم بالأمر الواقع وتلقنهم فلسفته . فإذا كان قد راود نفسك أمر بخصوص هذا الشاب اليافع ــ وأنا أعرف أن ذلك ليس بمستحيل ــ فإنى أحذرك وأنا أشعر لأول مرة أننى مسئول عن ضرورة تحذيرك . إن هذا الشاب لن يتراجع خطوة واحدة إذا أوقعت فى روعه

أنك تميلين إليه . سيعتبرك على الفور ملكاً خالصاً له . فالشباب لا يعرف الوسط . . . فإن كنت آنست من نفسك ذلك الاتجاه فأنت على صواب فى وجوب قطع الدرس قبل أن يستفحل الأمر .

وخلص يديه من يدى ونهض إيذاناً بانتهاء كلامه . وكأنه يقول ها إنى قد بلغت اللهم فاشهد !

وانتابتنى رعشة لكلماته القاطعة . ولكنى أفلحت فى مداراتها وواجهته بنظراتى فى تحد سافر قائلة : « ما هذا الذى تقول ياعونى ؟ وهل جننت أنا حتى يخطر مثل هذا الخاطر بعقلى ؟ إنه مجرد استياء المرأة الكبيرة حينما تجد غلاماً فى سن ابنها تقريباً يحاول أن يملى عليها أوامره . وهذا كل ما فى الموضوع » .

وكنت صادقة فيما أقول كل الصدق . فتصرفاتى لا تحدث بتدبير سابق . بل هى بنت ساعتها . ولا أعلم بعد ذلك ما سيكون . وكل أمورى متروكة لوحى اللحظة . . .

وهدأت نفسه قليلا ثم قال يؤنبنى فى ترفق :

— يجب أن تقدرى يا أميرة ظروف كل إنسان . ومن أدراك أن هذا الشاب لم يلاق عنتاً من تلميذاته اللواتى ينظرن إليه على أنه طفل . فهو يتصرف على هذا النحو ليملأ مركزه ، مركز الأستاذ . . . فكونى رفيقة به ما دمت تقدرين أنه فى سن طفلك . . .

ووضع يده على كتفى . يستحثنى على النهوض للغداء . ولكنى لم أتحرك وظلت ملامحى جامدة حادة وإن كانت خالية من العبوس

الواضح . فأنبه إحساسه الفطرى الرقيق على قسوته التى لم يكن لها موجب كما خيل إليه ، ولام نفسه على تسرعه إلى إساءة الظن ، فانقلب حانياً حنو الأب الرحيم وجعل يقبلنى فى كل موضع من وجهى كأنه يريد أن يمحو الصفعات المعنوية التى كالها لى منذ حين . وقد تعودت منه هذا الانقلاب من النقيض إلى النقيض . وتذكرت أيام كان لنا طفل . كان يشتد عليه أحياناً فيضربه . ثم يدخل حجرة نومنا وعضلات وجهه ترتجف وتدمع عيناه . ولا يهنأ حتى يهجم على الطفل الباكى فيحتويه بين ذراعيه ويغرقه بقبلاته ودموعه . . .

وغاص قلبى بين جوانحى لتلك الذكرى ، فعانقته وأخذت ألوم نفسى . ألست أنا التى تحرك كوامن شكه وهواجسه ؟

* * *

وفى المساء تحريت أن أجلس إلى البيانو وقتاً طويلا حتى أتقنت درسى إتقاناً تامًّا . فى حين جلس زوجى يطالع فى كتاب . ولم أكف لحظة واحدة عن تأنيب نفسى تارة واختلاق الأعذار لتصرفى تارة أخرى . لماذا قلت له أى شىء عن أزمتى ؟ ألكى أستثير الشك والريبة فى نفسه ؟ ألا أتعلم قط من تجاربى السابقة ؟ سيظل يراقب حركاتى على طريقته الساكنة وهو يظن أنى لا أفطن إليها . لقد خلقت لنفسى متاعب كنت فى غنى عنها .

وكان علىّ أن أثبت له سلامة نيتى تجاه هذا الشاب . وأننى لا أنظر إليه سوى نظرتى إلى طفل يافع . فقلت ونحن على مائدة العشاء حينما

تطرق بنا الحديث إلى المعهد بعد أن وصفت له المدير العجوز وحركاته العصبية العجيبة :

– إن رأيت يا عونى أنه لا داعى لهذه الدروس فأنا مستعدة لقطعها فوراً !

فقال بلهجة عتاب :

– أأنت بلهاء ؟ ومتى حرمتك من متعة تصبو نفسك إليها ، فما بالك وهذه المتعة هى الموسيقى أجمل الفنون وأجلها ؟ إنما أردت فقط أن أنبهك وأنا أدرى الناس بفرط حساسيتك ورهافة تكوينك حتى لا تؤذى نفسك ولا تؤذى الناس . . .

٧

كان الدرس الثالث فاتحة عهد جديد بينى وبين الأستاذ خورشيد . فقد تطرق بنا الحديث دون أن ندرى إلى مضايقات المهنة التى صادفته فى مطلع صباه . وأعتقد أنه أراد أن يعتذر بهذا الحديث عن طريقة معاملته لى فى المرة السابقة بدون أن يشعرنى بذلك . . . وكنت أؤدى مقطوعة صغيرة على النوتة . وارتكبت فى الأداء عدة أخطاء متوالية مما أدى به إلى مراجعتى مرة بعد مرة حتى شعرت بالسأم . فضحك ضحكة طفلية مرحة وقال وكأنه يدعونى للعبة الاستخفاء بين حوارى الحى : « دعينا من العزف الآن مادمت تشعرين بالملل . ولنتحدث

بضع دقائق فى شىء آخر . سأقص عليك قصة صغيرة إلى أن تستعيدى إقبالك على العزف » . . . فقلت وأنا أستدير بمقعدى اللولبى كى أواجهه ووضعت يدى فى حجرى : « يسعدنى أن أستمع إلى قصتك ». فلمعت عيناه المستديرتان وسط وجهه المستدير وقال : « حينما أتيت إلى هذا المعهد لأدرس فيه كنت صغير السن جداً . لم أتم عامى السابع عشر . ولا تنظرى لضخامة جسمى الآن ، فقد كنت حينئذ ضامر العود جداً لم أمارس بعد الألعاب الرياضية وتمرينات الحديد . ولما كان منظرى يغرى التلاميذ باستصغار شأنى فقد عولت على أن أتخذ الجد والوقار طابعاً مميزاً لشخصيتى حتى لا أفقد ثقة تلاميذى . . . . وأفلحت فعلا فى حملهم على احترامى . . . وذات يوم دخل على المدير بتلميذة من نوع جديد : ما إن رأيتها حتى كدت أصعق فى مكانى . وكانت على ما أظن سيدة فى نحو الخامسة والثلاثين ذات قامة فارهة وجمال أخاذ . وشعرها الأسود مسترسل على كتفيها العاجيتين . وبشرتها بيضاء صافية وعيناها سوداوان واسعتان . وقد أخذت حينما وقع بصرها على . بيد أنها لم تتكلم ، بل نظرت إلى شذراً وجلست دون أن تنبس بكلمة . أما المدير فظل يطنب فى الثناء على ويعدد مآثرى وأنا كالغريق يبغى النجاة من هذا المأزق الذى وجدت نفسى غارقاً فيه حتى أذنى . . »

وكان يتكلم وأنا أتتبع نظراته وحركات شفتيه . وكان رائعاً فى سرده لطيفاً كالأطفال فى ضحكاته الصافية . وإذا كان وهو فى الثانية والعشرين وله هذا الجسم الضخم الناضج يوحى بأنه غلام لم

يتجاوز دور الطفولة بوجهه المستدير الأملس . فما بالك عندما كان في السابعة عشرة ؟

واستطرد خورشيد يقول : « واتخذت أمامها مظهر الجد والصرامة في شيء من المبالغة لأدارى الرجفة التي انتابتني لأواجه الموقف . ولسوء حظي كانت السيدة تنتمي إلى أصل تركي . فهي ممن ينظرن إلى المصريين نظرة التعالى . فما إن نبهتها في حزم إلى بعض ما ارتكبته من أخطاء في عزفها حتى انتفضت من مكانها مستشاطة وتركتني وتركت الحجرة إلى مكتب المدير . ومن هناك سمعت صوتها يجلجل في أرجاء المعهد وهي تصيح : « إن لم يكن لديكم غير هؤلاء الأطفال للتدريس فالأولى بكم أن تغلقوا هذا الذى تسمونه معهداً » . ولا أدرى ما الذى أصابني في تلك اللحظة — مع أنه مشهود لى ببرود الطبع — فقد أسرعت نحوها . ودون أن ألقي نظرة على المدير وجهت إليها كلماتي قائلا : « إذا كنت تعدينني طفلا في السن فلى عقل رجل وإلمام شيخ بجميع دقائق الموسيقى . وأنا ، وإن كنت لا تعلمين ، ذو شهرة في العزف يتطلع إليها كثير من المخضرمين . فالمسألة ليست في الفن مسألة سن ، بل مسألة دراية وإتقان ! » . . . فلم ألبث أن رأيت هذه المتألهة تنكس رأسها ولا تحير جواباً ، ثم مشت أمامي ساكتة إلى حجرة الموسيقى . ومنذ ذلك اليوم صرنا صديقين إلى أن رحلت عن البلاد نهائياً . . . »

وكنت أعلم أن القصة كلها من تأليفه وتلحينه . ولكنى تظاهرت بتصديقها حتى لا أجرح شعوره . وظللت أرقبه باستمتاع خفي وهو

يضحك ملء شدقيه لتغلبه الموهوم على ربة الحسن والجمال. وقد أيقنت أنه يريد بذلك أن يدخل فى روعى أنه ليس طفلا وإنما هو رجل مكتمل الرجولة تخضع لسيطرته ومهابته أعتى النساء! وإياك أعنى فاسمعى يا جاره بطبيعة الحال!

وانتفخت أوداجه وهو يتمشى فى الحجرة جيئة وذهاباً ثم قال: «والفتيات الصغيرات حالهن أدهى وأمر. إننى أضيق بعقولهن الفارغة. فأفكارهن فى منتهى التفاهة. وما إن يظهر الإنسان لهن بادرة عطف واحدة أو يوجه إليهن كلمة رقيقة حتى يعتقدن أنه متدله فى حبهن... فيأخذن فى القيام بحركات تضيق لها نفسى وتزهدنى فى مجرد مجاذبتهن الحديث...»

فقلت وأنا أتفحصه بعينى فى هدوء تام دون أن يبدو على وجهى شىء مطلقاً مما يعتمل فى أعماقى، وكأننى أسأله عن حالة الجو اليوم: «أى نوع إذن من النساء يعجبك ويملأ نفسك بالرضى؟» فقال بغير اكتراث: «لم أقابل حتى الآن فتاة أو امرأة — على كثرة من قابلت وعاشرت من هؤلاء وهؤلاء — يمكن أن أعدها شخصية كاملة يعتد برأيها أولها طابعها الخاص المميز. فحتى من يقال عنهن فضليات ممن عرفتهن من النساء علمتنى الخبرة أنه ما إن تزال القشرة الخارجية التى يغلفن بها أنفسهن أمام الناس ويظهرن على حقيقتهن حتى تصدمى بما يتكشفن عنه من تفاهة وضيق أفق وصغر عقل. فلا فرق هناك بين فتاة السابعة عشرة وامرأة الخامسة والثلاثين. فالاثنتان لا مشغلة لهما

فى الحياة وراء الثياب . . . والحب طبعاً ! ولكن الحب نفسه عندهما مسألة خلع ثياب أيضاً وكل الفرق بين هذه وتلك إنما هو فى طريقة الكلام والتفكير المائع عند فتاة السابعة عشرة وفى المناورات الخافية منها والمفضوحة عند امرأة الخامسة والثلاثين ! »

وأفزعتنى كلماته ! فهذا الشاب الذى كنت أعتقده غرًّا ساذجاً إذا به ملم بأدق دقائق المرأة . خبر كل شىء فلم تعد تستهويه فى سنه هذا فتاة السابعة عشرة الفارغة . ولا امرأة الخامسة والثلاثين اللاهية .

٨

حينما توجهت للدرس الرابع كانت شخصية الأستاذ خورشيد قد تغيرت فى نظرى تغيراً كليًّا . وقد وطنت نفسى على اتخاذ سمت الجد والوقار . وعلى أن أتكلم بحساب ولا أفلت حركة تنم عن تهاونى . . . . ولا أدرى ما الذى جعلنى أقرر فى صوت رصين هادئ النبرات حينما أتى ذكر أمه فى معرض الحديث وقال إنها سيدة ليست صغيرة السن ، فهى فى الخامسة والأربعين . . . . قررت وأنا أرفع حاجبى دهشة : « عجباً ! فى الخامسة والأربعين ؟ إذن هى فى مثل سنى تماماً ! » فرمانى بنظرة ضاحكة وهو يقول : « أنت يامدام أميرة فى الخامسة والأربعين ؟ لا يمكن أن أصدق هذا ؟ فن يراك لا يمكن أن يقدر لك أكثر من ثلاثين . . أو على أقصى تقدير خمسة وثلاثين سنة . . . . »

فقلت وأنا أطوح رأسي فى أناة شديدة : « إنها الحقيقة يابنى . ولكنى سعيدة لأنى أبدو أصغر من سنى بهذا العدد العديد من السنوات...» فقال : « ولكن المرأة حين تبلغ الخامسة والأربعين تبدو السن واضحة على مواضع معينة من وجهها وجسمها . . . » فقلت أستزيد إيضاحاً وأنا أعلم سلفاً ما يقول : « وكيف ؟ » فأجاب وهو يتفحص وجهى جيداً بعينيه المستديرتين : « كأن يكون لها مثلا ذقن آخر تحت ذقنها ، ذقن مترهل . وأنت لا أثر عندك لهذا الذقن . وأن يكون حول فمها خطان غائران . أما أنت فأعتقد أن الخطين اللذين حول فمى أنا غائران أكثر مما عندك أنت . ثم هذا الجسم لا يمكن أن يكون لامرأة فى الخامسة والأربعين . . . »

وكانت لهجته وإشارة يديه وهو يقول عبارته الأخيرة تدل على خبرة رجل له باع طويل فى تقليب أجسام النساء . . . وشعرت بالزهو وهو يطريني بهذا الشكل الساذج . ولكنى فى الوقت نفسه تأثرت لأنه قدر لى لغاية سن الخامسة والثلاثين . أى أنه تجاوز عمرى الحقيقى . ولكن له عذره إذ لا يمكن أن يقول إننى فى الثامنة والعشرين على حين أشهد أنا على نفسى بملء فمى أننى فى الخامسة والأربعين .

وتحريت أن أناديه يابنى كلما ناقشنى فى شيء فى أثناء الدرس . وقد غاظه جداً هذا النداء ، بيد أنه كان من اللباقة وخفة الدم بحيث يضم كفيه خاشعاً ويقول فى احترام زائد وهو يسبل عينيه : « حسناً يا والدتى . أنا طوع أمرك » .

وبدأ الدرس يأخذ لوناً لطيفاً من المناقشات الفكرية ، ثم من العزف. وسألني بجد بعد مرور نصف ساعة من الوقت المحدد للدرس : « وما رأيك في الحب يا مدام أميرة ؟ أترين أنه يوجد شيء اسمه حب مستقلا عن الرغبة ؟! »

فقلت وكأني ألقي عليه درساً : « إذا كنت لا تؤمن بوجود الحب مستقلا عن الرغبة كما يظهر لي ذلك من طريقة سؤالك فلا سبيل إلى المناقشة لإقناعك برأيي» فقال : « إذن أستطيع أن أفهم من كلامك أنك — كسائر النساء — تؤمنين بما يسمونه الحب دون إحساس بالرغبة؟ » فأجبته : « كلا. لا تفهم ردي على غير حقيقته . فالحب مقترن دائماً بالرغبة . وإنما الرغبة في نظر النساء غيرها في نظر الرجال » . فسألني : « وكيف ذلك يا مدام أميرة ؟ »

— الرجل مثلا يريد أن يستمتع بالحب حتى آخر قطرة ، ولهذا لا يكفيه أن يكون حبه أفلاطونياً لأن ذلك يضنيه .. يضني جسده على الأقل . فإذا لم يجد المرأة التي يحبها وتهبه نفسها عن طيب خاطر هبطت حرارة حبه ، ولا يلبث أن يتلاشى تماماً متى وجد امرأة أخرى ترضيه قلباً وجسداً . . .

— والمرأة يا مدام أميرة ؟

— المرأة تحب بقلبها وكيانها كله . ولكنها لا تستسلم للرجل إلا إذا أحست أنه لها بكيانه كله . ولخوفها من غدر الرجل بها بعد قضاء غرضه تكتفي في إشباع رغبتها بالقبلة والحنان الدافق . وتجد في ذلك إشباعاً

كلياً دون أن تلجأ إلى العلاقة الجنسية الكاملة . وها أنت ترى مدى اختلاف عنصر الرغبة والدور الذى يؤديه فى الحب عند الرجل والمرأة .

فنظر إلىّ بإكبار صادق وقال : « لأول مرة فى حياتى ألتقى بامرأة تتكلم بطلاقة وفهم دون مواربة أو تصنع للخجل . فما من امرأة ذكر أمامها الجنس فى مجلس يضم الجنسين إلا وأغضت خجلا وتورعاً كأنها لا تمارسه مع كل من هب ودب . » فقلت معاتبة : « لا تكن متجنياً على المرأة إلى هذا الحد يا أستاذ خورشيد . أم هل يرضيك إذن أن تخوض المرأة فى الجنس وملحقاته بوجه صفيق وإقدام كإقدام الرجل ؟ أعتقد أن ذلك حرى أن يحدث عندك صدمة نفسية دون أن تشعر » .

فأجاب بحماسة : « كلا بالعكس . فها هى المسائل بعينها تفحص فيما بيننا ونناقشها بكل بساطة لأننا نحن الاثنين نتناولها من الناحية السيكولوجية البحت ولا ننظر إليها على أنها مجرد فاتحة شهية كل الغرض منها التمهيد لفعل يرتكب فى التو واللحظة ، كما تعدها غالبية النساء ؛ ولذا يصيبهن الخجل [illegible] لمجرد الإشارة إليها !

ــ لا تنس من فضلك يا أستاذ خورشيد أننا هنا اثنان لا ثالث معنا . وأن كلاً منا يفهم مقصد الآخر على وجهه الصحيح . ولذلك نتكلم بصراحة وصدق دون خجل أو مواربة . أما فى المجتمعات العادية فإذا وجدت رجلا أو رجلين يناقشان هذه المسألة مناقشة سيكولوجية خالصة . فستجد الغالبية العظمى لا يرمون من وراء الخوض فى هذه المسائل إلا أموراً تدفع الدم حاراً إلى وجوه النساء اللواتى لم يتعودن مثل هذه الجلسات المشتركة . فعهدهن بها قريب . . .

فأجابنى وهو يهز رأسه هزة غير الموافق : « كلا يا مدام أميرة !

قد أفهم أن تصدم الفتاة العذراء بهذه المناقشات . وإن كانت الفتيات الآن لا تقل خبرتهن بالموضوع عن أمهاتهن . أما المرأة التي مارست هذه الأمور وتمارسها كل يوم فلا أفهم إطلاقاً سر احمرارها وخزيها . . . »

وأفزعني للمرة الثانية حكمه القاسي السافر القاطع على النساء . ولا سيما الفتيات. وأردت أن أعرف مدى علاقاته بهن . فسألته في بساطة : « هل لك علاقات كثيرة بالنساء والفتيات ؟ » فقال كأنما يقرر أمراً واقعاً هو به مزهو : « منذ السادسة عشرة وأنا منغمس في تلك العلاقات . وأما الفتيات فأنا لا أميل إليهن كثيراً لأنهن يدفعن بي إلى الملل والسأم . فالفتاة تريد من الرجل الذي يدعوها إلى الرقص أو إلى نزهة أن يظل يردد على مسامعها طول الوقت كلمة « أحبك » أو تضم هي فمها في كل لحظة وتهمس في ضراعة مبتذلة « أتحبني حقًّا كما أحبك ؟ » . . . وهذه أشياء تزهدني جدًّا في الفتيات وأفضل عليهن النساء الناضجات لأنهن — وإن كن كالفتيات في قلة الإدراك والتفاهة — يستطيع الإنسان أن يأخذ راحته معهن سواء في المناقشة أو السلوك ! » فقلت بجد : « ألم تحب قط ؟ » فقال بتؤدة كأنما يقرر أمراً لاسبيل إلى الرجوع فيه : « قلت لك يا سيدتي إنه لا يوجد شيء اسمه الحب . وحتى إن وجد فأنا لاأعترف به ولن يكون له دور في حياتي » .

فأجبته بصدق وإخلاص : « إذن لافائدة من الكلام الآن في هذا الموضوع . فعندما تحب ستذوب جميع هذه المعتقدات التي تملأ رأسك . وستجد نفسك إنساناً آخر يؤمن بأشياء ويقدسها ، مع أنه كان يكفر بهذه الأشياء عينها ويلعنها منذ حين . . »

فنظر إلي في صمت دون أن يجيب .

٩

قال وهو يقترب بمقعده حتى واجهنى تماماً : « حدثينى يا مدام أميرة عن حياتك . كم أتوق لمعرفة كل شىء عنك » .

فأجبته وأنا أهز رأسى بأسى : « إن حياتى ملآنة بالأعاصير ولا أرى داعياً لإزعاجك بالخوض فيها » .

فزادته كلماتى إصراراً على التشبث بما يريد . وكان من عادته إذا طلب شيئاً وأحجمت عن تلبية رغبته أن يحمر وجهه وتومض عيناه ويلح فى الطلب ، حتى إذا رأى منى تشبثاً سكت على مضض . ولكنه لا يلبث بعد برهة أن يكرر الطلب فى صورة أخرى ظناً منه أننى سأنزل تحت ضغط الإلحاح على رغبته . بيد أنى كنت أتعمد مراوغته متخذة فى عدم الفهم سبيلا للتخلص من إلحاحه . وكانت هذه المناورات تثيره فيعمد إلى المشى جيئة و ذهاباً فى الحجرة طالباً منى أن أسمعه الدرس ، ثم يكثر من إبداء الملاحظات ليشفى غليله وهو حريص على إغاظتى . ولكنه كان فى إصراره هذه المرة لطيفاً كالأطفال المدللين ، دمثاً كالكبار المهذبين ، فلم ألبث أن بدأت أقص عليه قصة حياتى . منذ مات أبى . وكيف تزوجت فى سن صغيرة . وكيف عشت أنا وزوجى قصة حب تخطو الآن نحو عامها السابع عشر . وقصصت عليه أمر طفلى الوحيد الذى مات فجأة . . .

وكنت أتكلم وهو يتابعنى بعينيه، وذهنه كله منصرف إلى كلماتى كلمة كلمة حتّى وصلت إلى قصة طفلى فلم أتمالك صوتى من التهدج والحشرجة وأنا أقول : « أتذكر حينما رأيتك أول مرة وكيف تشبثت عيناى بوجهك ولم أفلح فى رفعهما عنك إلا بجهد جهيد ؟ » فهز رأسه موافقاً بدون أن يجيب واحتقنت عيناه حتّى أصبحتا فى لون الكرز : « إن وجهك يا أستاذ خورشيد يشبه إلى حد كبير وجه طفلى . لذا أخذت بوجهك الطفلى المستدير الأملس ولم أستطع أن أمنع نفسى من التحديق فيه . وأعتقد أنك عجبت لموقفى ذاك فى أول مقابلة بيننا » .

وحتّى هذه اللحظة كنت أغالب نفسى بمشقة حتّى لا تتسرب الدموع المحتبسة فى حلقى إلى عينى . ولكن الذكرى كانت أشد وطأة على قلبى الصديع فلم أستطع حبس قطرات من الدموع طفرت إلى وجنتى . وأسرعت أضع يدى على عينى معتمدة بمرفقى على مفاتيح البيانو فندت عنها نغمة حادة كصرخة وليد تبددت فى الهواء وأعجزه أن يتبعها بأخرى . وأسرع الأستاذ خورشيد يحضر لى كوب ماء ولمس كتفى بطرف أنامله لمسة يسيرة جدًّا ، ثم رفع يده . فتناولت الكوب وابتسمت ابتسامة أمر من البكاء لأهون عليه ضغط الموقف ، فتركنى وتحول عنى ليقف أمام باب الشرفة يتطلع إلى الفضاء هنيهة .

ومددت يدى فداعبت أوتار البيانو ثم انسقت فى العزف وقد تسمرت الابتسامة على وجهى . وكان هذا شأنى كلما حزبنى أمر . . . . ألجأ إلى الابتسام المفتعل إلى أن ينجلى الموقف الأليم . . . وأحسست

به وارنى فرفعت عينى وتطلعت إلى وجهه باسمة . ورأيته آسياً حزيناً ، فاتسعت ابتسامتى وأنا أقول له : « أعتقد أن عزفى لم يرقك ! » فأجابنى بدون أن يبتسم : « إنما أردت فقط أن أقول لك إن الحياة مملوءة بالمآسى . وإن كل بيت لا يخلو من شقاء وتعاسة . فإذا كان الموت نهاية طبيعية لكل إنسان . فإن آلام المرض المستمرة هى الشوكة التى تظل تخز الإنسان حتى ينزل القبر . وآلام فرد من العائلة — خصوصاً إذا كان هذا الفرد طفلا عزيزاً — هى آلام العائلة كلها ، لا آلام ذلك الفرد وحده » .

فقلت وأنا أرمقه بحنان وأكاد أضع يدى على ذراعه : « من يسمعك يظن أنك تعانى من مرض عزيز لديك » . فأجابنى دون أن يحول عينيه عن وجهى : لى شقيقة وحيدة فى العاشرة من عمرها ؛ كالملائكة طيبة وصفاء نفس وقلب . وهذه الشقيقة الوحيدة مصابة بضيق مزمن فى الجهاز التنفسى . وبالأمس حينما كنت راقداً فى فراشى بعد الغداء وقد أغلقت باب حجرتى ، حدث مالا يحدث عادة ، إذ سمعت بعد ربع ساعة طرقاً خفيفاً على بابى . فتنبهت من نعاسى متعجباً منزعجاً وصحت « ادخل » وإذا بى أفاجأ بأختى تدخل على استحياء شديد تقدم رجلا وتؤخر أخرى . فعجبت لمنظرها ونهضت فأدنيتها منى واحتضنتها وسألتها عما حدث حتى أتت لتوقظنى فى هذا الوقت . فقالت بخجل شديد وعيناها مسمرتان فى الأرض : « لقد نسيت جهاز تنفسى فى حجرتك عندما كنت ألعب أثناءها فى الصباح . ولم أفطن إلى ذلك إلا حينما حاولت النوم عبثاً . فأحسست بالاختناق يزحف إلى صدرى » . . . فبكى قلبى

يا مدام أميرة ألماً وحسرة على هذه الصغيرة المسكينة التى لا تستطيع التنفس من دون جهاز طبى . وإلى متى ستستمر على هذه الوتيرة ؟ ألم يكن الموت أهون علىّ من رؤيتى إياها تتعذب بهذا الشكل الموجع ؟! . . . وليت عذابها وقف عند هذا الحد . فكثيراً ما تصاب بالإغماء حتى نظن أن نهايتها دنت. وتنقلب الحياة غمًّا ونكداً إلى أن تثوب إلى وعيها ...»

وكان علىّ فى هذه المرة أن أقوم بدور المواسية . ولكن هذه القصة المؤلمة فتتت البقية من أعصابى فألجم لسانى عن الكلام وامتلأ فمى بالمرارة وفاض قلبى بالحسرة .

وشعرت أن هذا الطفل الكبير ليس غرًّا كما كنت أعتقد . بل إن آلام الحياة قد صهرته فى بوتقتها وأخرجت منه فى سنه الصغيرة هذه رجلا مرهف الحس قوى المشاعر عميق الإدراك لأغوار النفس البشرية وما يصيبها من محن وحز فى نفسى أن يكون هذا الفتى اليافع عائلا منذ صغره لعائلة كبيرة العدد بين أفرادها طفلة بائسة تعانى المرض والألم . وينفق هو كل قرش ليسعدها ويرى فى وجهها نضارة الأطفال ، وهو يعلم جيداً أنه لا طائل يرجى من وراء ذلك .

١٠

كان الألم يعتصر قلبى وأنا أخطر داخل البيت كأنما أحمل فوق كاهلى عبء البشرية جمعاء . وقابلنى الخادم النوبى فى الدهليز يزف

إلى همساً بشرى ترقية زوجى ويشير بسبابته فوق شفتيه حتّى لا أفضحه ، لأن عونى أوصاه أن ينكر وجوده فى البيت كى يفاجئنى بالخبر السار . . .

وكان علىّ أن ألقى بمتاعبى وأحزانى على السلم خارج باب المسكن لأدخل خفيفة مرحة حتّى لا أصدم صديق عمرى . رآى حزينة مكتئبة فى يوم فرحه . وعلى الفور أخذت أصفر بفمى لحناً مرحاً . حتّى إذا توسطت حجرة النوم إذا به يخرج من خلف الباب ويندفع نحوى معانقاً مقبلا وهو يصيح فى حبور :

ــ خمنى ماذا ورائى من أخبار ؟

فجعلت أحاوره وأداوره وأتكهن بجميع الأشياء التى تخطر بالبال إلا الشىء الذى أعرفه جيداً . . . وأخيراً « فاجأنى » بالخبر الذى لم يحرك ساكناً فى أعماقى لأنى فى الحقيقة كنت راضية بوضعه لاأفكر فى المزيد. فحياتنا رخية . ونحن اثنان . وما عندنا يكفينا لنعيش فى بحبوحة ناعمة . ثم إن الخبر جاء فى ظرف أنا أبعد ما أكون فيه عن البهجة . وزاد فى تحريك كوامن أشجانى أننى تذكرت طفلنا . فلو عاش لأمكن أن يسرنى مثل هذا الخبر ، لأنه سيزيد مواردنا فنزيد فى الإغداق على الحبيب الصغير . . . ومع ذلك كله سارعت أعانق زوجى وأنا أهتف فى حبور مصطنع : « ألف مبروك ! » وما إن هدأت فرحة الخبر حتّى التفت إلىّ وقد ضاقت عيناه وقال : « ماذا حدث ؟ لست كعهدى بك.» فلم يخف على عينيه أننى لست على طبيعتى المرحة برغم كل ما تجشمته من عناء لإخفاء ثورة نفسى . بيد أننى عولت على ألا أخبره بالحقيقة .

فليس هذا وقت الأشجان . وقلت وأنا أرفع قدمى وأقذف بالحذاء إلى الحجرة ، ثم أدلك قدمى تدليكاً دائرياً وأنا أتأوه : « لعنة الله على الأحذية وعلى اليوم الذى اخترعوها فيه ! لماذا لا تمشى النساء حافيات ؟ ليس لمثلى أن تلبس حذاء أبداً ! » فاستدار نحوى يعاتبنى : « إنك أنت التى تكبلين نفسك بهذه الأشياء . ولو استمعت إلى كلامى لما أصابك هذا العناء . ولكنك ككل النساء قاصرة العقل والإرادة . تزهقين أنفاسك فى سبيل الموضة . . . ماذا لو لبست ما يريحك وليذهب العالم إلى الجحيم ؟ ماذا يحدث؟ هل يقولون امرأة متأخرة لا تفهم أصول الموضة ؟ وهل هذا يساوى شيئاً بالقياس إلى ما تتكبدينه من عناء الكالو والكعب الذى يشبه المسمار ؟ »

وتركته يتكلم على سجيته بدون أن أقاطعه . فهو شخصياً من ذلك الصنف من الرجال الذين لا يهمهم آراء الناس فيهم ما داموا مقتنعين أنهم على حق فيما يعملون . . . . لذلك كان يخرج أحياناً إلى سهرة بلباس النهار . ويرتدى فى الأيام الصائفة صندلا أو خفاً وقميصاً . وربما خرج فى المصيف بالجلباب غير مبال بشىء؛ أما أنا فامرأة أقدس المظهر الحسن ولا يمكن أن أخلط بين لبس النهار والليل . وأظهر دائماً بأحسن مظهر ، حتى ولو كان ذلك على حساب صحتى . وهذا التباين بيننا كثيراً مادى إلى التشاحن العابر ، لذا كنت أخفى عنه غالباً ما أعانيه من متاعب الهندام .

وأفلحت فى تغيير دفة الحديث ونحن على مائدة الغداء بدون أن أشير

إلى خورشيد من قريب أو بعيد . ونسى هو أن يسألنى عن درس اليوم وما جرى فيه بيننا من حديث . . . وفى المساء خرجنا كعادتنا إلى نزهتنا الليلية . وما إن أخذنا مكاننا فى المشرب المعهود حتى رأيت أستاذى يمر من أمامنا فى خطوات بطيئة رزينه وعيناه تتطلعان إلى الأمام كأنما يحملق بهما فى الأفق البعيد ، وقد ارتسمت على وجهه ملامح طمأنينة هادئة شأن من لا يعنيه من الصخب الذى حوله شىء . أو كأنما هو فى عالم آخر غير عالم الأحياء . . . وأشرت بيدى أنبه زوجى لمرور أستاذى . وأعتقد أن حركتى وصوتى نبها الأستاذ فالتفت نحونا لفتة سريعة . وما إن وقع بصره علىّ حتى أخذ ، لكنه استدرك بسرعة وأحنى رأسه إحناءة مهذبة للسلام . فأشرت بيدى أدعوه لمشاركتنا . ونهض زوجى يرحب به ترحيباً جميلا وقدم له كرسيًّا . وقمت بتقديم كل منهما للآخر . وقال زوجى : « إن زوجتى أميرة تثنى عليك كثيراً . وقد كلمتنى فى مناسبات عدة عنك حتى بت مشوقاً إلى التعرف إليك . فهذه فعلا مناسبة سعيدة وفرصة موفقة . . . »

فضحك خورشيد فى خجل كخجل العذارى وازداد خداه احمراراً فوق احمرارهما المعهود وقال : « سماعك بالمعيدى خير من أن تراه ! كان الأفضل ألا ترانى إطلاقاً حتى تحتفظ بالصورة الطيبة التى تفضلت بإسباغها علىّ مدام أميرة » .

وكان فى طريقة كلامه وحركاته صورة جميلة للطفولة البريئة . فشاقنى التطلع إليه وأحسست بالفخر كأنى أرى ابنى أمام عينى . . .

وتباحثنا فى موضوعات شتى . وكان زوجى قابضاً على زمام الموقف كعادته فى كل مجلس . فهو ملم بكل ما يستطيع إنسان مثقف واع أن يختزنه فى جعبته من قراءاته المتعددة الجوانب واللغات الشتى التى يتقنها . واكتفيت أنا بالإصغاء ، اللهم إلا بعض تعليقات قصدت بها أن أثبت وجودى . وأما الأستاذ خورشيد فلم يرفع عينيه عن وجه زوجى إلا فى لحظات نادرة جداً حينما كان يرانى أناقش بعض مواضع الحديث . . . . وشعرت أنه محرج وغير مستريح فى جلسته . فالإنسان حينما يكون على سجيته تحس بملامحه منبسطة . أما هو فكان متوتر الملامح بادى التيقظ كأنه تعاطى منبهاً قوياً قبل حضوره مباشرة . فالابتسامة لم تفارق شفتيه كأنها كليشيه مطبوع على فمه . أما يداه فكانت دائبتى الحركة فى تقطيع علبة سجائر انتهى من تدخين ما كان فيها سيجارة تلو الأخرى فى مدة تقل عن ساعة من الزمن !

١١

ضم خورشيد فمه بمجرد أن صافحنى حين دخلت عليه ثم أسبل عينيه وقال : « إن زوجك يا مدام أميرة رجل جاد جداً . حتى إننى شعرت برغم تبسطه ومراحه أننى بين يدى أستاذ كبير . وأحسست بالحرج وأنا معكما ، لأنك أنت نفسك بدوت لى وأنت بجواره مختلفة تماماً عن مدام أميرة التى أعرفها هنا فى ساعات الدرس » .

فقلت أعاتبه : « أما زوجى فلا يذهبن بك الظن إلى أنك أنت

وحدك الذى تشعر بالرهبة فى وجوده . لأننى وأنا زوجته التى تخالطه طيلة هذه السنوات كثيراً ما تنتابنى مثل هذه الرهبة منه . وأشبهها برهبة سكان السهول أمام شم الجبال الراسية المتوجة على مدى العام بالثلوج . . . وأما أننى بدوت لك مختلفة عن أميرة التى تراها هنا فى أثناء الدروس ، فما هو وجه هذا الاختلاف ياترى ؟ »

فاحمر وجهه حتى حاكى الأرجوان ، وازداد النمش الذى يغطى وجهه الأملس ظهوراً . ومال برأسه ميلا شديداً إلى الأمام حتى اختفى وجهه فى صدره وانكشف قميصه الأبيض من خلف عن جزء من ظهره فلمحت عينى شعرات طويلة نابتة فى ظهره . وأخذت بمنظر هذا الجسم الفتى الذى يدل على عنفوان رجل مكتمل الرجولة . وتحولت عيناى بسرعة إلى ساعديه القويتين المفتولتين المكسوتين بشعر كثيف أصفر اللون . فتحركت فى أعماقى ثورة رغبة حارة دفعت الدم قانياً إلى وجنتى ولمعت عيناى ببريق ثاقب . . . . ثم رفع وجهه فجأة من إطراقه فإذا وجه طفل ضاحك لا يمت بصلة إلى ذلك الجسد الناضج .وكأنما كان هناك تمثال رجل فحل مقطوع الرأس . وكان طفل مختبئاً وراء التمثال ثم برز لى برأسه من فوق كتفيه . فهذا الرأس ذو الوجه الأملس والعينين المستديرتين الصريحتين لا يمت بصلة إطلاقاً إلى ذلك لجسم الفاره . . .

ويظهر أن عينى كانتا تلمعان بصورة لم يألفها عندى ، فقد رأيت عينيه تتسعان فى نظرة دهشة طفلية ممتزجة بالرهبة والخوف والتطلع . ثم صاح يسألنى : « لماذا بالله تنظرين إلى هكذا يامدام أميرة ؟ »

فغضضت من بصرى ثم قلت والابتسامة المشرقة الطيبة تحل محل الرغبة العارمة : وهل لاحظت اختلافاً أيضاً بين نظرتى الآن ونظرتى المألوفة ؟ فأجابنى بصراحة تامة : « كان فى نظرتك الأولى نوع من الافتراس! أما الآن فقد عادت إليك ابتسامتك المشرقة التى أعهدها فيك . فعدت مدام أميرة التى أعرفها » . فقلت وأنا أتضاحك خزياً : « وقبل ذلك ماذا كنت ؟ » فأجابنى : « لا أدرى . . . كنت مدام أميرة التى لا أعرفها ... لقد أخفتنى حقاً وإن كان هذا الكلام لايليق أن يصدر عن رجل مثلى » .

فقلت أستزيده إيضاحاً :

— لا عليك ! أعتقد أننا أصبحنا الآن أصدقاء . فقل لى لماذا أخافتك نظرتى يا أستاذ خورشيد ؟

— لا أستطيع أن أحدد بالضبط الإحساس الذى خالجنى بمجرد أن لمحت هذه النظرة على وجهك . وأعتقد أنها نظرة تختلف تماماً عن نظرتك الصريحة المشرقة . الأمر الذى سبب لى رعدة خفيفة لم تلبث إلا لحظة واحدة ثم عدت إلى طمأنينتى المعتادة حينما أكون معك .

فتضاحكت بدون أن يبدو على وجهى ما أعانيه من خجل فى أعماق : « إذن لنترك ما فات ولنعد إلى حديثنا الأول . ما هو وجه الخلاف بينى فى جلسة الأمس فى المقصف ، وبينى الآن فى أثناء الدرس ؟ »

— أعتقد أن جلستك مع زوجك ، وطريقة المناقشة التى دارت بيننا أضفت عليك فى نظرى هيبة وسناً أكبر من سنك . أما هنا فأنا

أشعر أنك تلميذتى . وأحس بسيطرتى عليك لأننى ألقنك شيئاً لا تعرفينه .
وأين هذا الشعور من إحساسى بالأمس بأن شخصيتك تطغى على شخصيتى
وتكاد تمحوها تماماً ، فقلت وأنا أرفع عينى دهشة : سناً أكبر من
سنى ؟ ماذا تعنى ؟ هل كنت أبدو أكبر سناً من الخمسة والأربعين
عاماً ؟ »

فضحكت عيناه ثم استلقى برأسه إلى الخلف راجعاً بكرسيه إلى
الوراء فوق قائمتيه الخلفيتين وفتح فمه الصغير على سعته فى ضحكة رنانة
أحسست بها صادرة من أعمق أعماقه . ثم عاد إلى جلسته الطبيعية ،
وقال والضحكة ما زالت تملأ وجهه : « لن تستطيعى تضليلى بعد اليوم .
فمن ثنايا الحديث أمس عرفت من فم زوجك بضعة تواريخ . وبمعاوماتى
المحدودة فى علم الحساب عرفت عمرك الحقيقى . أنت فى الثانية والثلاثين
ولم تخطئ نظرتى فى التكهن بسنك منذ اللحظة الأولى . وإن كنت
قد قدرت لك أكثر قليلا من حقيقتك فلكى أدفعك إلى الاعتراف
بالحقيقة. فالمرأة لايثيرها شيء قدر مايثيرها موضوع السن . إلا أننى
أخفقت حين استعملت هذه الحيلة معك فأنت فعلا غير النساء
جميعاً » .

فقلت وأنا أرسم الدهشة بوضوح على معالم وجهى : « من قال
لك ذلك ؟ أنا فعلا فى الخامسة والأربعين . فلايغرنك ما سمعته
بالأمس . . . . »

فأجابنى وهو يهز سبابته فى وجهى كطفل يعابث أمه : لا تتشبثى

بهذا القول وإلا صدقتك فعلا ! »

فقلت وأنا أعاتبه بنظراتى : « ومن قال لك إننى أكذب ؟ »

فصاح يقاطعنى : « حاشالله ! لم يقل أحد إنك تكذبين . فأنت امرأة فاضلة لم أر فى حياتى نظيراً لها . ولكنى لا أدرى لماذا أنت على عكس النساء جميعاً مصممة على إضافة عمر آخر إلى عمرك ؟ »

لماذا حقاً ؟ ولماذا تخيرت الخامسة والأربعين بالذات ، ولماذا أتبع هذه السياسة معه دون سواه مع أننى مع الناس جميعاً أشعر بالزهو الشديد حينما يقدرون لى أقل من سنى ؟ ثم أنا مثل سائر النساء ميالة إلى تنقيص شىء من عمرى الحقيقى ... هل أنا حقاً أختلف عن بقية النساء ؟ ربما . . . هذا ما يردده المحيطون بى . وزوجى نفسه أول من ينادى بذلك . . . . وها هو ذا الأستاذ خورشيد قد قرره حتى الآن مرات . . . . فليكن رأيهم ما يكون على كل حال . . . المهم الآن ما هى هذه الرغبة العجيبة التى دفعتنى إلى تكبير سنى ؟ ألكى أقف فى وجه الرغبة الخفية الخبيثة فى الإقدام على المناورات والمناوشات مع فتى غر ؟

ربما ! . . . فنحن نتصرف أحياناً عن غير قصد تصرفات تأتى عفو الساعة ولكن يتضح لنا فيما بعد أنها لم تكن خالية من حكمة خفية فى أعماقنا .وتصرفاتى أنا على الخصوص لا ضابط لها . ولم أفلح فى تغيير هذا الطبع ، برغم كل ما بذله زوجى من جهود فى ذلك السبيل . فكان يقول لى أحيانا: « إنك تعيشين بطبيعة المرأة الفطرية

التى لم تتعلم من العقل أو المنطق شيئاً . . . إنك كالحيوان الآبد ! »

وحينما يرانى أغضى وأسكت يداعبنى بقوله : « لا تأبهى يا أميرة . فهذه شخصيتك وطابعك الخاص . إنك على فطرتك أجمل بكثير مما لو كنت متحفظة . ومن أجل هذا الجمال الحى مغفورة لك جميع خطاياك ! »

وكثيراً ما كنت أجد نفسى حيرى عاجزة عن فهم ما يريده منى هذا الزوج ، فهو أحياناً يطرينى لهذه الصفة وأحياناً أخرى يكيل لى الاتهامات ! ولو أننى استطعت أن أفهم نفسى لكان من الجائز أن أتغلب على اندفاعاتى وأقمعها . ولكن من ذا الذى فهم نفسه كل الفهم ؟

إنى أخاف أحياناً من نفسى خوفى من شخص قاصر الإدراك لا يفقه مغبة أفعاله الخطرة ، فألجأ إلى الله فى خلوتى وأتجه إليه ضارعة فى حرارة كى يخلصنى من اندفاعات هذه النفس المتمردة . وما أكثر ما كنت أبكى وأنا أتوسل إليه أن يرد هذه النفس الخرقاء عن ارتكاب الحماقات ، وقد صمت أذنيها عن كل مراجعة . . . .

ناقش ذهنى هذه الأمور فى سرعة متناهية . واستغرقنى ذلك حتى لقد أجفلت إجفالة يسيرة حين سمعت صوت الأستاذ خورشيد يأتينى كأنما هو صادر من واد سحيق ، يلقى على سؤاله العجيب : « لماذا يا مدام أميرة تزيدين فى عمرك بهذه الصورة المفرطة ؟ ! »

وابتسمت ابتسامة تعمدت أن تحمل كل معانى الغموض والمراوغة ،

وأشرت بهزة من رأسي نحو البيانو وقلت : « ألا ترى أن صديقنا هذا قد أضجره طول الانتظار ؟ »

فمد رأسه إلى الأمام بحركة تدل على الإذعان والتسليم ، وبدأت أناملى تجرى على مفاتيح البيانو .

١٢

أنا امرأة شكاكة . شكاكة إلى أبعد حدود الشك . ما إن يداعبنى إنسان بكلمة . و يلقى شخص على مسمعى عبارات من أى نوع حتى يبدأ عقلى فى استنباط مغزى هذه المناورات ، وماذا عساه يكون وراءها من نوايا صاحبها ؟ وإلى أى هدف يسعى ؟ . . . وقد يكون هذا الشخص لا يرمى من وراء ما يقول إلا إلى الدعابة السليمة . ومع ذلك لا أصدق إلا أن له غاية يريد أن يصل إليها . ولكنى أستمر فى التبسط معه باسمة كأننى أشد الناس ثقة به واطمئناناً إليه . ولكنى فى الوقت نفسه أتعذب بما أعانيه من شك وحيرة وارتياب فى الناس. . . .

وكانت لى حتى ذلك العهد ــ أى منذ خمس سنوات تقريباً ــ رائحة عطر مميز لا تخطئها الأنف بين عشرات الروائح . وذات يوم كنت أتلقى درسى . فإذا به يسألنى فجأة : « ما نوع هذا العطر الذى تستخدمينه يا مدام أميرة ؟ »

فرفعت عينى إلى وجهه وقلت :

— أهو لطيف ؟

— إنى أحب أنواعاً معينة من العطر . أما هذا النوع فلم أشمه على سيدة من قبل .

فقلت بشىء من الدلال : « إنه لحنى المميز ! »

فابتسم فى مكر وقال : « وما اسمه ؟ »

فسألته فى مكر أشد : « لماذا ؟ »

فاكتسى وجهه بطابع الجد وقال : « لقد اقترب عيد ميلاد أختى . وإنى أعد زجاجة من هذا العطر هدية مناسبة لها . . . »

وكنت أذكر جيداً أن أخته الوحيدة سنها تناهز العشر سنوات . فلا يمكن أن يصلح لها هذا العطر . ولكنى تغابيت تماماً وقلت : « إنى أصنع هذا العطر بنفسى . فإن شئت صنعت لها زجاجة . . . » فقال باعتراض شديد : « كلا كلا . قولى لى فقط كيف تصنعينه وأنا أقوم بصنعه » .

فتضاحكت وأنا أهز رأسى ذات اليمين وذات اليسار وقلت : « كلا يا سيدى الفاضل ! أتريد أن تسلبنى سر الصنعة التى أحتفظ بها لنفسى فقط . يفتح الله ! إما أن أصنعه لك أنا أو فاذهب وفتش بنفسك عنه فى المتاجر . فى الحوارى والأزقة لعلك تعثر عليه ! »

وشاركنى الضحك وهو يقول : « وهو كذلك ! أعطنى اسمه وعلىّ أنا البحث عنه ولو فى تحت الربع » ! » فقلت : « ولا هذا أيضاً ! احمل أنفك إن شئت أمامك وسر فى الطرقات تتشمم الدكاكين !

هذا عطرى الخاص بى يا أستاذ . لن يكون لسواى » :

وإنى لأنانية فى كل شىء بطريقة لاتقبل المناقشة . فإذا أحببت شخصاً مثلا فلابد أن يكون خالصاً لى وحدى. لا يجد للحياة طعماً إلا فى جوارى . ولا يهمه أمر أحد فى الوجود سوى أمرى، وعليه أن يدأب على التفكير فىّ ليل نهار بحيث أرى الحب والولع يطلان من نظرات عينيه على الدوام . فأعبده وأفديه بحياتى . أما إذا رأيت منه إشارة عابرة إلى امرأة أو غزلا مكشوفاً ولو لم يقصد به سوى الدعابة ، فالويل له ثم الويل له ! إنى لا أتوانى فى إسقاطه من حياتى تماماً . أتجهم له وأبتعد عنه مهما حلف لى بكل محرجة من الأيمان أنه لم يكن يقصد شيئاً . وتزهد فيه نفسى كأن لم يكن يوماً محور حياتى . ولهذا السبب كنت أحب زوجى وأعده الشمعة المضيئة فى حياتى التى بدونها أغدو كالعمياء لا أبصر موطئ قدمى . وأما ما يعترض حياتى من علاقات فهى أمور عابرة لا محالة إلى زوال طال الأمد أو قصر . . . .

ولكن هل لو أقدم زوجى على مداعبة امرأة أو إظهار الإعجاب لها أمامى كنت أسقطه من حياتى وأبتعد عنه ؟

لست أدرى . فإن الأعوام الطويلة التى انقضت على زواجنا حتى تلك اللحظة لم أضبطه فى خلالها مرة واحده متلبساً بمحاولة الإقدام على مغازلة امرأة . . .

ولكن لماذا أبيح لنفسى ما أحرمه على زوجى؟ إن المرأة فى العادة لا تكون البادئة بالغزل . وإذا كان الرجال يحاولون مغازلتى بعيداً

عن عين زوجي فإنني أقص عليه كل شيء . وفى ذلك أوضح دليل على خلوص نيتى ! . ولكنى فى أحوال أخرى لم أكن كباقى النساء أنتظر الرجل حتى يتحرك للمغازلة . بل كنت أعمد للمبادأة . مندفعة بحرص شديد إلى حض من يعجبنى من الرجال على التمادى فى الحديث معى . أما من لا يروقنى فلا أسمح له بالتمادى مهما كان صفيقاً !

ولم أكن أرمى إلى جرح شعور الأستاذ خورشيد حين حرصت على كتمان اسم عطرى عنه . بل أحسست إحساس المرأة المجربة أنه ربما فكر فى إهدائه لامرأة أخرى يعجب بها أو له بها علاقة . فآلمنى هذا الخاطر . كأنما خورشيد قد أصبح ملكاً لى على نحو ما ، بحيث يحرم عليه أن يفكر فى امرأة أخرى .

وعولت على أن أستدرجه حتى أعرف لمن يريد هذا العطر . فقلت له وأنا أتصنع عدم المبالاة : « إن قلت لى لمن تريده حقاً ذكرت لك اسمه . . . » .

ولكن الماكر كان خبيراً حقاً بمناورات النساء فأدرك غرضى . وأراد أن يدخل فى روعى أنه « دون جوان » عريق له مغامرات مع نساء يطاردنه ويتهافتن عليه . ولماذا لا يكون ذلك صحيحاً ؟ فهو شاب حديث السن جميل الشكل له شهرة فى فنه . فماذا يمنع أن تجرى وراءه النساء قاصرات العقل ؟ واندفع من أعماق صوت حانق يقول لى فى تهكم : « ولماذا هن قاصرات العقل ؟ ألست أنت أيضاً تنصبين حوله شباكك يا امرأة ؟ »

فأجبته فى غضب واستنكار : « يالك من ضمير ظالم مفتر ! أأنصب شباكى حول طفل ؟ »

وكان قد أتانى صوت الأستاذ خورشيد عريضاً خشناً يسألنى فى خبث : «وهل يزعجك أن تستعمل عطرك امرأة تروقنى » ؟

ولاأدرى لماذا أحسست رائحة الرجولة تفوح من صوته الخشن فرحت أعجم عود قامته عضواً عضواً من غير أن أرفع عينى إلى وجهه . وغاظنى أن يظن نفسه مستطيعاً أن يستثير نى بهذه الكلمات . والحقيقة أننى كنت مستثارة النفس فعلا ولكن ليس للدرجة التى تدفعنى للاستيلاء عليه استيلاء صريحاً . ولم يخطر ببالى أن أنشىء معه علاقة من أى نوع سوى الصداقة البريئة التى تتأرجح بين الأخوة والأمومة . ولكنى أحسست إهداراً لقدرى فى إعطاء عطرى المفضل لامرأة لا أدرى ما هو معدنها وما هو مستواها . . .

ولما رأى إطراقى هتف قائلا : « أنا متأسف جداً يا مدام أميرة فأنا لم أقصد إزعاجك أو إحراجك . فأنت حرة طبعاً فى الاحتفاظ بعطرك لنفسك خاصة . فمن حكم فى ماله ما ظلم . . . »

ياله من ألعبان ! لقد قصد أن يؤكد لى أن هناك امرأة فى حياته . بيد أنه لا داعى لأن تكون موضع بحث بيننا . . . .

ماذا جرى لعقلك يا أميرة ؟ شاب فى مثل حيويته وفحولة جسمه الفاره ، أتخالينه يحبس نفسه فى قمقم ليرضى غرورك السقيم ؟

وهل قلت أنا شيئاً من هذا ؟ ما شأنى أنا بأحواله الخاصة ؟ إنى

والله لا أرجو له إلا كل سعادة . ولكنى حرة طبعاً فى عطرى . ومادمت لا أحب أن تستعمله امرأة أخرى فهذا شأنى وحدى . وهذا كل ما فى المسألة !

١٣

كان الأستاذ خورشيد يدخن سيجارة فى الردهة الخارجية وهو يتجاذب أطراف الحديث مع المدير الشيخ حينما دخلت من باب المعهد . ومال المدير وهما يقتربان منى ، وقد صار يرمقنى بعينيه الواسعتين من فوق إطار النظارة ونظرة التواطؤ لا تفارقه : « كيف حال الدروس يا مدام أميرة ؟ »

فأجبته وأنا أبتسم ابتسامة رزينة « على خير حال » .

فوضع يده على ظهر الأستاذ خورشيد . مربتاً . فكان منظره بقامته القصيرة وكرشه المتكور واستدارة رأسه الأصلع ، وهو ملتصق بقامة خورشيد المفرطة فى الطول الجميلة التكوين صورة هزلية جعلت تدغدغ أمعائى من الداخل وتستثيرنى للضحك . وخفت أن أنفجر فى وجهه فينتثر الرذاذ على سحنته وصلعته اللامعة ، فأسبلت جفونى على غير عادتى مطرقة إلى الأرض . فإذا به يقول : «الأستاذ خورشيد ابنى . صنعته على عينى . فإذا ضايقك منه شىء أو لاحظت منه تقصيراً فلا تترددى فى إبلاغى . فأنا أعرف كيف أسوسه » .

ولم تعجبني هذه اللغة برغم اللهجة الضاحكة والمزاح . فأنا أكره أن يوجه صاحب عمل ملاحظاته إلى إنسان يعمل عنده فى مواجهة العملاء . وشعرت بما فى موقفى من إحراج لأستاذى ، وإن كان فى سن والدى . فأردت فى التو واللحظة أن أرد إليه اعتباره فقلت جادة : « أنا التى أرجو أن يكون الأستاذ خورشيد راضياً عنى . أما من جهتى فأنا ممتنة له جداً لما يضيعه من وقته الثمين فى تعليمى . . . . »

فربت الشيخ بيده الصغيرة الممتلئة تربيتاً متوالياً على ظهر خورشيد ثم قال له : « ما كل هذا الإقبال السامى! عسى أن تحتفظ به دواماً ... »

ولم أنتظر تمام الحديث بل هززت رأسى محيية ثم اتجهت نحو حجرة الموسيقى وتبعنى خورشيد . وما إن أغلق باب الحجرة من خلفه حتى سألنى فى دهشة بالغة : « هل آلمتك كلمات المدير يا مدام أميرة ؟ »

فسكت قليلا وأنا أعبث بالخاتم فى خنصرى . وكنت قد أحضرته منذ دقائق من عند الصائغ وأنا أتساءل فى سرى هل يستحق فعلا ما بذلته فى سبيله من اهتمام ومال ؟ إنه زجاج ملون ولكنه لم يزل يعجبنى !

ووجدت صمتى طال ففكرت فى مفاجأة أغير بها اتجاه الحديث مفاجأة خبيثة تستغرق اهتمامى وتسليتى . فإذا بى أقول بغير تفكير : « لى صديقة عزيزة علىّ جداً عندما عرفت أننى أتلقى دروساً فى الموسيقى فى هذا المعهد طلبت منى أن تتلقى هى أيضاً دروساً مماثلة . فهل يلائمك أن أحضرها معى ؟ »

فقال وهو يرفع حاجبيه مرحباً : « أهلا وسهلا ! فأنا هنا لاستقبال

كل من يرغب فى تلقى الدروس » .

فقلت بخبث وقد بدأ شيطانى يبرجس فى أعماقى : « إنها تريد أن تلازمنى فى أثناء درسى . وأن ألازمها فى أثناء درسها ! »

وكنت طبعاً أريد بهذه الكلمات أن أعرف إلى أى مدى يرغب فى الانفراد بى. ورأيته سكت قليلا وغض من بصره ثم رفع عينيه إلى وجهى وقد كست الحمرة وجهه وقال: « إننى أفضل يامدام أميرة أن يكون درسك بمفردك . فإن المناقشات الطريفة التى تدور بيننا ربما لاتستسيغها سيدة أخرى . أو قد تفهمها على غير حقيقتها . ألست معى فى ذلك ؟ »

ورقص قلبى فرحاً لهذا الاعتراف الصريح الذى جاء عفو الخاطر . إن خورشيد يريد أن يختلى بى ولا يرحب بوجود تلميذة أخرى معنا . ولو كان أمرى لا يعنيه لما رفض وجود ثالثة . وأنا أراه يعلم التلميذتين والثلاث معاً . ولم تكن هناك تلميذة طبعاً أو شبه تلميذة وإنما هى حكاية اخترعتها ارتجالا كى أختبره،واستمرأت كذبتى فمضيت أستمتع بحيرته: « كلا لست معك . فصاحبتى مثلى تماماً فى كل شىء . إنها سيدة مثقفة واعية محبة للمرح وسيعجبك حديثها كثيراً » .

فتململ خورشيد فى مكانه كفأر أطبقت عليه المصيدة . بيد أنه كان لبقاً حاضر البديهة إذ أسرع يقول مستنكراً بحماسة :

« مثلك أنت ؟ مستحيل ! فأنا أعتقد اعتقاداً جازماً أنه لاتوجد فى الدنيا امرأة مثلك ! »

وأحسست بفطرتى المتشككة أنه يطرينى ليرضى غرورى كى يكسب المعركة . فصممت على مراوغته كى أهزمه . وكم من مرة كسب هو منى الجولة بلباقته .

— لولا أنى صديقتها الحميمة منذ عشر سنوات لما قلت لك هذا . فأنا لا أومن بصداقات النساء . ولم يكن لى يوماً صديقة إلا هذه . . .

وسكت عند هذا الحد لأنى خفت أن ينزل عند رغبتى فى آخر الأمر ، فماذا يكون موقفى حين يتضح كذبى وتزويرى ؟ والحقيقة أنى لم أفكر قبل هذه اللحظة فيما عساى أصنعه لو أنه وافق على اقتراحى . فتفكيرى دائماً مرتجل ولا يتجاوز اللحظة التى أنا فيها .

وهز خورشيد رأسه بجد ثم قال معقباً على كلامى : « وأنا أيضاً أقول لك يا مدام أميرة لا تثقى بأى امرأة وتأتمنيها على سرك قط . فليس أقسى من المرأة على امرأة مثلها . لأن الغيرة بينهما تكون على أشدها . وأعتقد أن أى امرأة مهما كانت ستغار منك لأنك نوع نادر غير مألوف من النساء ! »

وعرفت مكانتى عنده ومبلغ تأثيرى فيه . فهو صريح إلى أبعد حدود الصراحة . وهذه الكلمات صادرة من قلبه وليست شقشقة لسان . . .

وأحسست أنى أتعبت أعصابه أكثر مما ينبغى . فأخذتنى الشفقة به وقررت أن أتراجع بلباقة فقلت : « ما دام هذا رأيك فسأصرف

نظارها عن هذه الفكرة . لأنها فى الواقع مصممة على أن تلازنى وألازمها فى الدروس ».

فأسرع خورشيد يقول : « طبعاً طبعاً . وإذا سألتك عن هذا الموضوع مرة أخرى أظهرى لها تأففك من الدرس ومن المدرس . وأنك غالباً لن تستمرى . . . »

وابتسمت فى أعماقى !

حقاً لابد من هنات يقع فيها كل إنسان مهما بلغ من الحصافة وبعد النظر . وهأنذا قد استطعت أن أسبر غور خورشيد وأعرف كل ما أريد أن أعرفه بدون أن يساوره أدنى شك فى صدق كلماتى . . .

وعندما أوليته ظهرى لأبدأ العزف كنت أحس أن كلا منا أقرب إلى صاحبه من أى وقت مضى . . .

١٤

وبعد بضعة أيام قال خورشيد مطرياً أناقتى : « إذا كانت أناقة الرجل تبدو فى ربطة عنقه ومنديله ، فأناقة المرأة تبدو فى عطرها . وعطرك ليس له نظير . ولك حق فى أن تبخلى بسره على جميع الناس . ثم إن لك ذوقاً جميلا فى اختيار ثيابك . وقلما توجد بين سيداتنا من تحسن ارتداء ثيابها على الوجه الصحيح ! »

وتقبلت كلماته فى هدوء تام وعدم اكتراث . كأنما هو يقرر

حقيقة لم تكن لتغيب عن نظرى. ولكن باطنى كان يمور بشتى التكهنات: إنه يطرى ملابس اليوم وطريقة زينتى . وغداً سيطرى وجهى . وبعد غد جسمى . . . ثم يقع المحظور ! ومن يدرى ؟ ربما كانت هذه طريقته فى خلب عقول النساء ! ألم يقل مراراً إنهن ناقصات عقل . وأن أى كلمة إطراء كافية أن تجعل منهن مطايا طيعة إذ يعتقدن أن الإطراء معناه التدله فيهن . فيستسلمن بدون قيد أو شرط . . .

وأحسنى أن يستعمل معى الطريقة نفسها التى يستعملها مع « ناقصات العقل » وقررت أن أوقفه عند حده وأظهر له أن كلماته أتت بعكس ما كان يظن . فانهمكت فى العزف بدون أن أعيره التفاتاً . وكان من الحصافة بحيث أدرك على الفور أن أسلوبه فى الحديث اليوم لم يرقنى فقام يتمشى فى الحجرة . حتى إذا انتهيت من عزف المقطوعة صفق طرباً وهو يصيح :

— مرحى يا مدام أميرة ! عفارم ! لم أسمعك تعزفين بهذه المهارة من قبل . وأعتقد أنك تأخذين الآن نفسك بالشدة والحزم فى أثناء تمريناتك اليومية ! وقد أثمرت جهودك ثمراً يانعاً .

فالتفت نحوه لأرى هل يقول حقًّا أم هو يريد التمويه على ليصانعنى بعد ما رأى انصرافى عنه . فقلت : « أتقول حقًّا ؟ »

فقال بجد : « ولماذا أكذب ؟ » فأجبته : « لكى تشجعنى ! »

فوضع يديه خلف ظهره وقال : « كلا يا مدام أميرة . ليس هذا من طبعى خصوصاً إذا كان الأمر يتعلق بالموسيقى . فهى عندى شىء

مقدس لا يمكن أن أغالط نفسى فيه حتى ولو كانت المسألة تتعلق بحياتى! »

فقلت بدهشة مصطنعة : « آه ؟ إلى هذا الحد ؟ »

فإذا به ينقلب إلى رجل جاد جداً وهو يقول : « أيدهشك أن تسمعى ذلك منى حقاً ؟ عجباً ! وهل يمكن أن تعتقدى فى غير هذا ؟ »

— إذن أنا قد أجدت العزف ؟

— جداً ! بصورة لم أكن أتوقعها . ولذا فأنا أستميحك الآن عذراً فى أن أصارحك بشىء أرجو ألا يغضبك !

— يغضبنى ؟ ولماذا ؟

— لأن الإنسان أحياناً ما يبنى أحكامه لأول وهلة قبل أن يكتشف شخصية من يصدر عليه هذه الأحكام . حتى إذا عرف الشخصية جيداً بعد ذلك تكشفت له عن عكس ما كان يظن .

ففهمت غرضه فوراً ولكنى أردت أن أسمع الاعتراف كاملا من فمه :

— وماذا يا ترى كان حكمك علىّ ؟

فقال برقة وعيناه تضحكان فى اعتذار واضح :

— إنها يا مدام أميرة تكهنات لم تلبث أن تلاشت تماماً ، فأرجو ألا يغضبك قولى !

فهززت رأسى معاتبة وقلت :

— إطلاقاً . ولماذا أغضب ؟ إنك لم تكن تعرفنى ، فهل كان فى وسعك أن تنصفنى قبل أن تلم بحقيقتى ؟ لن يتسنى لك ذلك إلا إذا عرفتنى تمام المعرفة .

فقال وهو يستقر على كرسيه قبالتى :

لقد اعتقدت فى أول الأمر أنك أتيت لا لتتعلمى الموسيقى حقاً بنية جادة ، بل لتزجية وقت فراغ كنت حائرة لا تدرين كيف تقضينه بغير ملل . والحق أننى شقيت بذلك الخاطر وتألمت . ولعلك قد لاحظت أننى كنت فى بعض الأوقات آخذك بشىء من العنف . وكان ذلك يحدث دائماً كلما طاف بذهنى أننى أداة للتسلية فقط . وهذا إحساس موجع ينتاب كل إنسان يقدر فنه بل يقدسه ويضعه فى المكان الأول من حياته . ولكن بمرور الوقت تلاشت من عندى هذه الفكرة وحل محلها إكبار لشخصيتك وإعزاز لما تتصفين به من سجايا . . .

وكنت أستمع إليه وعيناى ترمقانه أحياناً ، وأحياناً أخرى تشرد نظراتى وراء مغزى كلماته لأعرف نصيبها من الحقيقة .

وأحسست أن لهذا الشاب نفساً بريئة طاهرة ، فعولت على ألا أجرحه بأى شكل ، حتى ولو اضطررت فى هذا السبيل إلى الكذب والتمويه . وأنا أعرف بالخبرة أن الكذب فى بعض الأحيان يكون شفاء للنفس على حين تقضى الحقائق عليها .

وطال سكوتى وأنا أقلب كلماته فى رأسى . فاعتقد أنى غاضبة وأحنى رأسه قليلا حتى استطاع أن يواجه عينى وقال : «أغاضبة أنت منى ؟»

فأجبته وأنا ألتفت إليه بجسمى كله : « كلا بالعكس . لست غاضبة إطلاقاً . بل إن كلماتك هذه أعادت إلى ذاكرتى حادثة مرت بحياتى ، وكان لها أثر كبير فى نفسى . حتى إننى حاولت بعدها أن أغير الكثير من طباعى . . . »

وكالطفل حينما تقول له جدته : « تعال احكى لك حكاية » رأيته يتحول فى لحظة واحدة من رجل جاد يتكلم برزانة وفهم إلى طفل صغير . وشعرت أنه يود لو قفز إلى حجرى واستوى جالساً على ركبتى ، ليستمع إلى القصة وهو يلتقط الكلمات من فمى . فقلت له وقلبى يبتسم ونظرة الجد تلمع فى عينى :

— حدث ذلك منذ عشر سنوات تقريباً . بعد موت طفلى بشهور قلائل . وكان الحزن قد خيم على البيت وأحاله إلى سجن رهيب يفتت أعصابى كلما خلوت بنفسى . ولم يكن هناك مفر من ذلك لأن أعمال زوجى كثيرة وغالباً ما تبعده عن البيت . فأشار علىّ بعض الأصدقاء أن أعمل فى الصحافة .ولم يبد زوجى اعتراضاً . ولما كنت أتقن لغة أجنبية ولى من المظهر ما يؤهلنى لأن أكون مخبرة صحفية ناجحة فقد التحقت بغير صعوبة بالعمل فى إحدى الصحف . وأنا لا أدرى عن جو المهنة شيئاً . ولما كانت طبيعتى منبسطة ، لم يمض على شهر حتى اندمجت فى الجو الجديد وأحببت عملى لما فيه من طرائف وحركة وتجديد . وعاد إلىّ بعض مرحى القديم . وطبعاً انتشر كالبرق فى الوسط الذى أعمل فيه أننى امرأة ثرية لست بحاجة إلى هذا العمل وإنما هو للتسلية وإزجاء

الفراغ — وكانت هذه هي الحقيقة فعلا فى أول الأمر إلا أنى لم ألبث أن أحببت العمل وأفنيت فيه نفسى . والظاهر أن طبيعتى المرحة أغرت بعض الزملاء بالتودد إلىّ ، لا كزميلة محترمة . بل كصيد سهل يقتنص . وبدأت المناوشات تدور من حولى وأنا أحاول أن أكذب عينى وأتغاضى أحياناً . وأحياناً أخرى أتغابى . حتى وصل الأمر بزميل معروف بالوقاحة وسوء الأدب ، وكنت أصانعه مداراة لسفاهته، أن تصدى لى يوماً وأنا أسير فى الدهليز إلى حجرة مكتبى ووقف يجاذبنى أطراف الحديث . وكان من المألوف أن يطرى الزملاء أناقتى وأنا أتقبل هذه الكلمات منهم على سبيل المجاملة . وإذا بهذا العتل يقول لى فى صفاقة :

« امرأة فى مثل جمالك لا يمكن ألا تكون لها مغامرات ! »

فتصنعت عدم المبالاة مع أن كلماته صدمتنى فى أعماق وقلت :

« وما الذى يدعوك إلى هذا القول ؟ »

فقال متشجعاً متمادياً :

« أناقتك . عنايتك الشديدة بزينتك ومظهرك . فالمرأة متى تزوجت تترك هذا كله . أما أنت فلا يمكن لإنسان أن يصدق من مظهرك أنك متزوجة . ثم إن عملك هذا ما هو إلا تسلية . والمغامرات أعظم تسلية ! »

وركبنى شيطانى وأنا أستمع إلى الكلمات الوقحة وهى تخرج من فمه بصفاقة لم أرها على رجل من قبله . فأردت أن أستدرجه حتى أعرف

مرمى حديثه وما هى الغاية التى يرمى إليها . فقلت بهدوء :

« وبعد ؟ »

فتضاحك بخبث وقال :

« وأنا أعرف طبيعتك المحبة للضحك والسرور . وأنا بحكم اتصالى بجميع الأوساط أعرف النوع الذى يناسبك من الندوات والسهرات ، بحيث تكونين واسطة العقد ومحط أنظار المعجبين»

ونظر بعينه نظرة تواطؤ ، شبيهة بنظرة صاحبنا مدير المعهد . فمنعت يدى بجهد جهيد عن صفعه صفعة تفقأعينه . وقلت متبالهة :

« وأين يا ترى تعقد هذه الندوات؟ »

فقال ووجهه يطفح بشراً لأن الصيد وقع فى الشرك :

« فى دار كبير من الأثرياء . والجميع هناك من أصحاب الملايين ينفقون الذهب بلا حساب ويطرحونه تحت أقدام الحسن والخفة والظرف! »

وعندئذ لم يعد فى قوس صبرى منزع . فانقلبت سحنتى انقلاباً مروعاً . وقلت وكأنى أبصق كلماتى فى وجهه :

« أنت حيوان سافل طمست الرذيلة بصيرتك حتى فقدت التمييز بين معادن الناس أيها القواد المنحل ! »

وشأن كل جبان رعديد خبيث الطوية انفلت مولياً من أمامى كأنما فى أعقابه الشيطان . ولم أسكت وأدع المسألة تمر . بل انتهزت أول فرصة جمعت بينى وبين الزملاء وكان هذا الحيوان جالساً معنا ، وانطلقت

أروى لهم ما كان من حديثه معى حرفاً حرفاً ! وإذا بالكل وقد انقلبوا إلى شرفاء يغارون على الفضيلة وتباروا أيهم يقذفه بالكلمة الجارحة . حتّى صار وجهه فى لون الطين . وبعدها تركت الصحافة غير آسفة .

وسكت خورشيد برهة ثم قال فى ارتياع :

– كم أنت قاسية يا مدام أميرة ! ألم يكفك ما ناله على يدك على انفراد ؟ إن قسوتك تفوق كل حد ولو كنت مكانه لأصابنى الفالج من هول اللطمة . الحقيقة أنى لم أكن أعرفك مخيفة إلى هذا الحد . . .!

فأجبته وأنا أتفرس فى وجهه :

– وهل كنت تفعل فعله وتقول قوله؟

فصاح على الفور :

– أعوذ بالله ! كلا بالطبع !

– ألا يستحق إذن ما أنزلته به ؟

– بل يستحق ما هو أكثر . وإنما ارتعت لتصرفك لأنه ذكرنى بقصة وقعت لى وأنا لم أتم بعد السابعة عشرة من عمرى . . . .

وعندئذ رن جرس انتهاء الدرس .

١٥

قال خورشيد حينما رآنى ألقى عليه تحية الصباح وأتجه فوراً نحو البيانو : – « كيف حالك اليوم يا مدام أميرة ؟ »

فأجبته وأنا أمر بأصابعى على المعزف : « بخير والحمد لله »

فتجاهل العزف وقال : « أين قضيت سهرة الأمس ؟ »

فنظرت إليه متسائلة..فاحمر وجهه واستطرد يقول: « لقد مررت بالصدفة على مشربكما المفضل فلم أجدكما هناك . . . »

بالصدفة ؟ ولماذا الكذب ؟. . . . كان به حنين إلى رؤيتى . . .

لا بأس . . . إنه إنسان لطيف جداً . . . وأنا أرتاح لرؤيته . . .

وقلت وقد رفعت يدى من فوق مفاتيح البيانو ووضعتهما خلف ظهرى ثم درت فواجهته . وجعلت أنقر بإصبع واحدة على مفتاح بعينه:

ـــ كان أمس يا أستاذ خورشيد عيد زواجنا . فأقمنا فى البيت حفلة صغيرة للأصدقاء .

فرفع حاجبيه دهشة وقال :

ـــ ولكنك لم تذكرى لى شيئاً عن هذه المناسبة بالأمس . . .

وأجبته بصوت يدل على عدم الاكتراث :

ـــ لم تأت مناسبة . وأعتقد أن ذهنى بالأمس كان منصرفاً إلى الحديث عن أمور أخرى . . . .

وكان من اللباقة بحيث أحس فى صوتى أننى لا أريد الخوض فى هذا الموضوع . فقال والابتسامة الطفلية تشع من وجهه :

ـــ وهل أستطيع الآن أن أقول لك مبروك ؟

فالتفت إليه متصنعة الدهشة وقلت :

ـــ طبعاً . كأنك قلتها . شكراً لك !

وأحسست أن به بعض الضيق . ولا أدرى لماذا استشعرت حناناً دافقاً نحوه . ولمت نفسى على أنى أخبرته بأمر الحفلة . فلم يكن هناك مبرر لإخباره بأمرها ما دمت لم أشر إليها أمس . . . واجتهدت أن أحول دفة الحديث لأعيد الابتسامة المرحة إلى وجهه اللطيف البرىء الذى يعكس انفعالاته بشكل صريح . فقلت وقد أشرقت ابتسامة الحنان على وجهى وثبتُّ عينى فى عينيه :

— لقد وعدتنى بالأمس أن تقص علىّ ذلك المأزق الذى حدث لك وأنت فى السابعة عشرة من عمرك ، ولكن انتهاء الدرس حال دون ذلك ، فهل لك يا سيدى الأستاذ أن تسمعنى قصتك ؟

فهز الأستاذ رأسه وقد عاد الإشراق يملأ وجهه كأنما كان الضيق قناعاً خلعه فى لحظة وقال وهو يحنى رأسه باحترام وإجلال :

— سمعاً وطاعة يا سيدتى الأميرة !

وضحكنا معاً فى حبور طفلى. وكأننى عدت إلى الوراء عشر سنوات وأصبحت من أترابه نلهو معاً. وتأهبت لسماع قصته وكأنما خلت الحياة من كل إنسان عدانا . وكان من صفاتى حسن الإصغاء فرأيته يغض من بصره فى تفكير كأنما يستعيد الماضى ثم رفع رأسه وقال :

— كنت فى ذلك الحين على أبواب السابعة عشرة من عمرى . وكنت فى خجولا جداً حتى إن رجلىّ كانتا تتخاذلان وتلتف إحداهما بالأخرى ويحمر وجهى كقطعة الجمر ويلجم لسانى عن الكلام لمجرد إحساسى أن فتاة تنظر إلىّ . ولهذا السبب كنت أكره المجتمعات

وأتحاشى الوجود فى حفلة من الجنسين حتى لا أشعر بالاختناق من شدة الخجل . وذات يوم أقام صديق لى حفلة فى بيته بمناسبة نجاحه وألح علىّ إلحاحاً شديداً فقبلت الدعوة . وكم كان خجلى حين قدمنى للمدعوين وأطنب فى مدحى ودعانى لافتتاح الحفل بعزف مقطوعة على البيانو . وجلست إلى العزف ألوذ به من ارتباكى . ولكن ارتباكى زاد عندما وجدت الفتيات يلتففن حولى بعد العزف ويتطلعن إلىّ بعيونهن النجل ونظراتهن الجريئة ، وأحسست أننى سيغمى علىّ فعلا إن لم أخرج من هذا الحصار الناعم . وشعر الصديق بسوء حالى ففرقهن عنى وأخذنى إلى مائدة ووضع أمامى شراباً وطعاماً . ورأيت الجميع يرقصون على نغمات الحاكى . ولكنى اندفعت فى الشرب لأتغلب على خجلى الذى ضايقنى جداً لأنه يبعدنى عن مظهر الرجولة . وكانت هذه أول مرة تقريباً أشرب فيها الخمر بصورة جدية . فدار رأسى وأحسست أننى أستطيع أن أعمل كل ما أريد . وفى هذه اللحظة كان الهرج والمرج على أشده ، ورأيت فتاة تجلس فى ركن قريب وحدها وهى ترمقنى بنظرات مختلسة فأقبلت عليها وأنا أترنح وطلبت منها أن تراقصنى . فقامت فوراً وقد بدا السرور على وجهها مما ملأنى زهواً وغروراً . وفى أثناء الرقص ملت على وجهها — أنا الخجول الحيي — وطبعت قبلة شرهة ضمنتها كل ما يعتمل فى نفسى من اشتهاء مجنون . ولم ألبث حتى أحسست صفعة قوية ترن على خدى الأسيل ! وكانت الصفعة من الشدة بحيث أدارت رأسى إلى الجهة الأخرى . ودفعتنى الفتاة فى



صدرى بعنف ثم، جرت تاركة إياى وقد طارت الخمر من رأسى وتمنيت فى تلك اللحظة لو أن الأرض انشقت وابتلعتنى . . . واندفعت إلى الخارج كالمجنون لا ألوى على شىء إلى أن صرت فى عرض الطريق . . . ومنذ ذلك اليوم أقسمت ألا أقرب فتاة أو امرأة إلا إذا خطت هى نحوى أولا وأعربت عن رغبتها فى ذلك . . .

وسكت قليلا وهو يحملق فى عينى فلم أطرف . واستطرد يقول :

ـ أتدرين ؟ إن هذه الفتاة بعينها كانت تلاحقنى بعد بضعة أسابيع ملاحقة فظيعة . ولكنى لم أستطع أن أغتفر لها الصدمة التى أنزلتها بى . أما هى فكانت تترضانى قائلة : « لو أنك فعلت ذلك معى بعيداً عن الأنظار لما اضطررت إلى هذا التصرف معك . ولكنك تعمدت أن تقبلنى أمام الناس وأنا معروفة بينهم بالاستقامة التامة وحسن السلوك » .

وسكت مرة أخرى وهو يحدق فى عينى ثم قال : أرأيت منطق النساء يا مدام أميرة ؟

فقلت وقد أحنقتنى كلماته : « أكنت تريدها إذن أن تدعك تقبلها أمام الملأ بدون أن تفعل شيئاً ؟ ألعلك كنت تنتظر منها أن تخر ساجدة أمامك تطلب منك المزيد ! ؟ »

فقال فى عجب : « كلا . وهل قلت أنا ذلك ؟ » فسألته : « ماذا قلت إذن ؟ ماذا تعيب عليها ؟ » فأجابنى : « كان ينبغى ألا تتصنع الفضيلة إلى الحد الذى ترتكب فيه هذا الموقف المسرحى على

حسابى وهى تعلم كما يعلم الجميع أنى كنت مخموراً لا أدرى ماذا أفعل ».

فقلت أعابثه :

ـ لعلها سلكت معك هذا المسلك لشعورها أنك لم تقبلها عن رغبة بل كنت غير شاعر بها إطلاقاً . فثارت لكرامتها !

فانفرجت أساريره وضحك قائلا :

ـ وهل تدرك هى مثل هذه الأمور ؟ على رسلك يا مدام أميرة ! إنما فعلت ما فعلت لكى تظهر لمن حولها مبلغ ما تتحلى به من فضيلة مزيفة . بيد أنها قدمت لى بفعلتها تلك خدمة جليلة عن غير قصد إذ جعلتنى أفهم النساء على حقيقتهن . ولا أغتر بمظهرهن مهما أسرفن فى تصنع الفضيلة !

ـ أما زلت على رأيك هذا فى النساء ؟ ألم تصادفك حتى الآن من استطاعت أن تغير من هذا الرأى؟

فجعل يعبث بكراسة النوتة الموسيقية ، يطويها ويبسطها ثم قال :

ـ لقد ظللت على اعتقادى هذا إلى أن وضع القدر فى طريقى منذ عهد قريب جداً من غيرت عقيدتى هذه تماماً وقدمت إلى صورة فريدة للمرأة الفاضلة . للمرأة الكاملة . . . .

وتمهل قليلا ثم تنهد وقال من غير أن يرفع بصره نحوى .

ـ ولكننى أعتقد أنه لا توجد على وجه الأرض امرأة أخرى على منوالها .

فقلت وأنا أتصنع الدهشة وأراوغ فى الحديث :

ـــ عجبا ! إنك إلى وقت قريب جداً كنت حانقاً عليهن . فلابد أن هذه الفتاة فى مستوى عال جداً من حسن الفهم واللباقة واحترام النفس . بحيث أثرت فيك هذا التأثير الحاسم وغيرت معتقداتك فجأة من النقيض إلى النقيض !

فقال وهو يتنهد ويرفع عينيه إلى وجهى :

ـــ من أسف يا مدام أميرة أنها ليست فتاة كما تظنين . . . بل هى سيدة متزوجة . . . ولولا هذا ما توانيت فى الزواج بها !

فقلت أستزيده :

ـــ وهل تعلم هى هذا ؟

فأجابنى وقد عاد إلى الإطراق :

ـــ لست أدرى . لعلها تعلم ، فهى ذكية جداً . أو لعلها لا تعلم لأنها مشغولة عنى فى أعماقها بحياتها الحافلة السعيدة . . .

فقلت بدون أن أرفع عينى عن وجهه حتى لا أدخل فى روعه أننى أدركت حقيقة مقصده :

ـــ وهبها علمت ، ماذا سيكون فى وسعها أن تفعل ؟

فقال بحزن ظاهر :

ـــ لا أدرى . . . ولكنى أعتقد أنها تحب زوجها جداً !

فقلت له بصوت حاسم :

ـــ إذن يا أخى من الخير أن تدعها لا تعلم !

وخفت أن يتطرق الحديث بنا إلى أمور رأيت من واجبي ألا أمهد لها ، فالتفت إلى البيانو وعبثت أصابعي بسرعة بجميع مفاتيحه فأحدثت رنيناً شق جو الحجرة الساكن . فحرك خورشيد رأسه بسرعة كمن ينفض منه شيئاً ثقيلا ، وقال فى أسى واستسلام انقبض لهما فؤادى :

— أنت على حق . . . فلنبدأ فى العزف .

ثم ابتسم إحدى ابتساماته الثابتة ، التى كأنها قناع تقتضيه أحكام المهنة ، ويتوارى خلفه الإنسان وعالمه الخصوصى كله من سرور أو أمل أو شجو . . .

١٦

وحينما حضر عونى فى هذا اليوم من عمله كان منطلق الوجه بادى البشر . فاستبشرت خيراً ، لأنى قلما كنت أراه على هذه الحالة من السرور . فسروره هادئ وحزنه أهدأ وأساريره لا تفشى ما يعتمل فى داخله . إلا إذا كان الانفعال فوق طاقته .

واقترب منى وعيناه تلمعان ببريق أخاذ . فصحت وأنا أتعلق بعنقه : « ماذا وراءك ؟ »

فأجابنى وهو يطبع على فمى قبلة : « سنسافر فوراً . . إلى طنطا ! »

— طنطا ؟ ولماذا ؟

فأخرج من جيبه بطاقة دعوة دفعها إلى يدى وهو يقول :

— تصوري بنت أنور تتزوج غدا !

فصحت بدهشة : « غير معقول ! منى ؟! »

وظل فمي مفتوحاً برهة . فمنى فى السابعة عشرة . أكبر من رفقى ببضعة شهور . وكنا نمزح أنا وأمها ونقول إنهما خطيبان .

وأطبقت فمي وغضضت بصري وقلت من حلق جاف : « ما أسرع مرور الأيام ! »

وأعتقد أن عونى أدرك ارتباط منى فى ذهنى بفقيدنا رفقى . ولكنه تجاهل وصاح فى صوت ينبض بالتهريج : « أهكذا يا امرأة ؟ »

ووضع سبابته تحت ذقنى ثم استطرد : « كل ما يذكركن بالتقدم فى السن مكروه عندكن ولو كان من المفرحات ! منى يا امرأة بنت أعز صديقاتك لا تستحق عندك إلا هذا التعليق الفاتر ؟ »

وأدركت مراده فى تناسى ذلك الجانب المعتم من حياتنا الذى لا خير فى تذكره . وارتسمت على وجهى بسرعة ابتسامة تهلل عندما داعبت أنامله خاصرتى ووضعت يدى وراء عنقه وسألته :

— ومتى نسافر ؟

— بعد ساعة على الأكثر . فيجب أن نصل إلى طنطا فى ساعة مبكرة . فنى الريف لابد من حفلة ضخمة عشية العرس . أنسيت ليلة الحناء يا امرأة ؟

ثم أنشأ يغنى بصوته الأجش وهو يرقص حاجبيه :

— جوزى اتجوز عليه . . . وأنالسه الحنه فى إيديه !

فقبلت خده . ووجدت لحيته شائكة فدفعته فى صدره إلى الحمام كى يحلقها ريثما أعد المائدة . وانتهزت الفرصة وسألته وأنا واقفة بجوار التليفون :

– كم يوماً سنمكث فى طنطا ؟

– نبيت الليلة هناك والليلة القادمة ونعود بعد غد .

– فى أى ساعة بعد غد ؟ صباحاً ؟

– هل نسيت يا امرأة تقاليد الزواج لطول عهدك به ؟ إن بعد غد هو يوم الصباحية . لا بد فيه من زيارة للعروسين فى الضحى . ولن يتركونا طبعاً قبل أن نتناول طعام الغداء .

ووضعت يدى على السماعة وطلبت المعهد لأعتذر عن دروس غد وبعد غد . وظل رنين التليفون فى الطرف الآخر بغير جواب . وتذكرت أن المعهد يغلق أبوابه حتى الساعة الرابعة فوضعت المسماع ومضيت إلى حجرة المائدة .

ومر الغداء فى لجة شديدة ثم قمنا نعد الحقائب وعونى لا يكف عن الكلام دقيقة واحدة . وهى حالة تستولى عليه حين يتحمس لشىء أو تستثار نفسه استثارة شديدة . فصديقه أنور عزيز عليه جداً حتى إنه ينسى العالم كله حينما يكون معه .

ولم يكف عونى عن الكلام إلى أن خرجت بنا السيارة إلى الطريق الزراعى . وعندئذ أخلدنا كلانا إلى الصمت ، كأنما حدث ذلك باتفاق سابق . وأسلمنا جسدينا لأشعة الشمس التى أخذت تنصب علينا .

وأرسلت بصرى فى المزروعات التى تمتد إلى نهاية الأفق . .

وقبيل قليوب انتصب أمام عينى فجأة ذلك البرج الأبيض اللون الذى يطير منه وإليه مئات من الحمائم البيضاء . . . وكأنما ضغطت يد مخفية على زر سحرى . فانتفضت انتفاضة غامت بها المرئيات وارتددت نيفاً وعشر سنين إلى الوراء . . . وارتفع من المقعد الخلفى ورائى صوت ناعم يهلل للحمائم البيضاء ويصفق . . . ولم أنظر خلفى لأنى كنت أخشى أن أواجه المقعد الخلفى خالياً إلا من حقيبة زرقاء اللون وضعتها بيدى قبل أن أستقل السيارة وتشبثت بالنظر أمامى . وقلت من غير أن تتحرك شفتاى إلا بابتسامة مرتعشة أسوانة :

– أجل أيها الحبيب ! إنها أسراب الحمام . وهذا بيتها . . .

ومرة أخرى شددت عزيمتى حتى لا ألتفت ورائى لأواجه المقعد خالياً ، حينما أحسست على كتفى وقع أنامل تستحثنى على النظر إلى الوجه الصغير الأبيض المتلهف على كل شائق جميل من مناظر الطريق وطرائف الحياة

– نعم أيها الحبيب . تكلم قل ماذا تريد فإنى مصغية إليك . . . .

وأحسست بالأنفاس الصغيرة الحارة تتخلل شعرى وتداعب أذنى ، فارتجفت أوصالى ، وارتكضت أحشائى وأوشكت أن أنقلب بجسدى كله إلى الخلف لأعانق الرأس الصغير الجميل . وأرى مرة أخيرة العينين الواسعتين وكأن كلا منهما سماء كاملة لانهاية لأغوارها الشفافة . ولكنى عصرت صدرى بذراعي المعقودين وتشبثت بمكانى حتى لا أواجه الفراغ .

ـ أريد برجاً كهذا فى بيتنا أربى فيه الحمائم البيضاء . .

وترقرقت فى عينى دمعة تركتها تتسرب فى صمت وتنزلق على وجنتى وأنا أقول من غير أن تتحرك شفتاى إلا بابتسامة باهتة مرتعشة:

ـ سيكون لك يا حبيبى برج أبيض فيه حمامات بيضاء . . .

واشترينا له بعد أن عدنا ست حمامات صار يربيها ويغذيها ويلاعبها .وأحبها وأحبته . ولم يقبل بعدها أبداً أن يأكل لحم الحمام كلما طهوناه. فكان ينظر إلينا فى عتاب وألم . وكنا لبلاهتنا نسخر منه ونأكل ما نشترى من السوق ونذبح . . . .

ـ لا تحزن يا حبيبى . فمن ذلك اليوم . . . منذ فارقتنا ونحن لم نذق لحم الطائر الذى أحببت . لعلك طبت الآن بهذا نفساً . . .

ومن غير أن ألتفت رأيت كأنما أنظر فى مرآة لمعان الغبطة والسرور فى عينيه وقد مال بظهره إلى الوراء فوق المقعد . فاستروحت نفسى السعادة والأمن . لأنه علم . ولأنه رضى وصفح . . . وتبللت بدموع ليس فيها حسرة ولا أسى ابتسامتى التى ارتعشت بها فى وجد صامت شفتاى .

ولا بد أنه رأى دموعى . فأراد فى حكمة الأبد التى اكتسبها فى كيانه الجديد أن يسرى عنى ويشغلنى ببعض أمرى .

ـ هذه سيارة جديدة يا أماه . . . .

ورأيته من خلال دموعى المتأرجحة وأنا أنظر فى نقطة ثابتة أمامى ، وقد أخذ يتحسس بيديه المقعد الذى يجلس عليه . فأجبته بإيماءة من جفنى . فانفرطت حبات الدمع من بينهما ، ولكنى لم أتحرك ونظر

نظرة عتاب . نظرة رجاء خاب . وأحزنته دموعى التى أراد أن يشغلنى عنها ويبددها ، فإذا حنانه وترفقه وقد فجرا ينابيعها الفائرة . . .

ولم أعد أراه . . . وتنهدت فى زفرة عميقة .

ومن جوارى فى هذه المرة لا من خلفى سمعت الصوت يخاطبنى :

ـ ليت هذه الشمس التى تزيغ بصرى غائبة . والقمر طالع . . . حتى كنت أخرجك من هذا الصمت بوقفة على جانب الطريق وشىء من الغزل والعناق . . . لا ينتهى إلا على ضرب النبابيت من الفلاحين الذين يحرسون الحقل المجاور . . .

ورفت على فمى ابتسامة ونظرت إليه بطرف عينى فوجدته يكلمنى وهو يقود السيارة من غير أن ينظر إلى جهتى . فأدركت أنه يعلم . وأنه يقاوم ولهذا أخذ يتكلم . . . وهز رأسه وقال :

ـ هل يفتحون دماغى ؟ ليكن ! وهل تريد يا عونى أن تذوق صبوات العشق بعد المشيب من غير علقة ؟ من طلب الحسناء . . . أستغفر الله ! الأميرة الحسناء . . . لم يغله المهر !

ولم ينظر وهو يرقص حاجبيه بهذه الكلمات إلى جهتى . ولمحت وجهه مكفهراً . وصفحة خده اليمنى تختلج . فأدركت أنه يصانع وأنه لو نظر إلى وجهى لسقط القناع الراقص عن حاجبيه ، وألقى رأسه على كتفى منتحباً كما فعل أكثر من مرة من قبل ، بعد أن يكون قضى السهرة بين ضيوف هازلا معربداً . ويودعهم معى عند الباب . ويغلق بيده الباب ويلتفت ليواجهنى فى البهو الساطع بالأنوار حيث آثار المرح

والقصف . وفجأة يلقى برأسه على كتفى ويبكى لحظة من غير أن يتكلم . ثم يجرر قدميه ويختفى فى حجرة مكتبه فلا أطرقها عليه . ويظل نورها موقداً حتى الصباح . وأفتح بابها لأجد رأسه بين يديه فوق صفحة كتاب . . .

واهتزت بى السيارة ثم وقفت . عند مركز من مراكز المرور وفى جواره بائع مثلجات ناداه عونى وقدم لى زجاجة وهو يقول ونظرة الحنان تداعب صفحة خدى :

ــ اشربى يا امرأة . .

١٧

قبلات حارة وصخب ولغط . وابتسامة عريضة على شفتى . وفراغ بارد فى أعماقى . وأسئلة منها وأسئلة منى . والإجابات فى الحالتين معروفة سلفاً وحتى غير المعروف منها لم يكن مهماً جداً أن أعرفه أو لا أعرفه إطلاقاً . . .

والعروس . . .

بنية ناضرة . وجهها ناعم . وقلبها مثل وجهها أملس لم يكتب عليه القدر شيئاً من سطوره بعد . واختلج جفناى وأنا أقول فى نفسى :

ــ لا بد مما ليس منه بد . كل آت قريب . وهذا الانبهار سيختفى

وتبدأ الرحلة فى الخضم الواسع . وتنتابها الأشواق إلى الشاطئ . وهى اليوم تفارقه لهفانة لا تريد أن تلقى نظرة واحدة إلى الوراء، والزورق يقلع بها فوق بحر هادئ تحت أضواء الفجر الوردية . وغداً يوم جديد مجهول . . .

وتحيات أخرى . وسيدات غريبات ووجوه جديدة . وأنا أصافح وأبتسم .وأضع أحياناً الخد على الخد وتجذبنى خيرية (أم منى) من معصمى إلى مخدعها لتريني فى فرح شبكة ابنتها . وتناولتها وقلبتها . وقلت الذى كنت أعرف أنى سأقوله قبل أن تقع عينى على الساعة المرصعة بالألماس . قلتما كنت أعرف أنى سأقوله حتى لو كانت قرطاً أوسواراً أو عقداً أو زوج خلاخيل . والبسمة العريضة تفتر بها شفتاى . ولسانى يقطر عسلا منقوشاً فى كلمات . والفراغ البارد فى أعماق . . . والظلمة تزحف. وأنا أكرهها، تلك العتمة بين المغرب وسواد الليل الحالك . وامتدت كف . وتلألأت الأنوار . وتنهد صدرى . واختلست لحظة أمام المرآة . وطلوت بصباغى الأحمر سطح فمى . وضعت عليه من فوق الصبغة بسمات الفرحة . وأهازيج سرور ودعاء . وخرجت أوزعها . والساقى يتنقل بين القوم بكئوس من شراب الورد ، قانى اللون . . . كصباغ الأحمر فوق فمى . رشفة من كوب واحد . كمذاق الأكواب جميعاً . شيء معسول . نغسله من فمنا بعد قليل. . . .

ورحت وجئت . وصديقة عمرى خيرية تدعونى فى اللحظة بعد اللحظة لتشاورنى فيما تفعل . ومحياها محتقن . بسرور فائر . أتلقاه من عينيها بهدوء يتوارى مزدرياً خلف بشاشة بسماتى . وأجيب بما عندى من

فتوى . وأضغط بأناملى على يدها فى مواساة لا تتبينها . فهى ترى صفحة يوم . وأنا أقرأ فى طى الغيب صحائف أيام تأتى . . . . لا بد . . . . لا حيلة فى أيام ستطالعها فى أفق الغد . بحديث غير حديث الشبكة ، والسهرة ، وأفانين الزينة ، وجلاء العرس . . .

وازداد فراغى البارد فى أعماق حتى غطى كل كيانى . وتهددت السآمة تلك البسمة الملتصقة فوق صباغى الأحمر . وتملكتنى رغبة لا حيلة فيها أن أدخن سيجارة ؛ ومضيت أنقب فى شوق عن عونى . وشققت إليه زحام الناس . حيث تصدر فى الصف الأول . وقطعت عليه انصراف النظر إلى راقصة تتلوى . وأشرت إليه فأتانى فى فرجة باب مفض إلى حجرة فيها أثاث مكوم . وقلت بصوت خافت ساهم :

— أعطنى سيجارة يا رجل !

فتطلعت عيناه إلى عينى بقلق وهو يقدم إلىّ السيجارة ويشعلها . وتركت عضلات وجهى تستريح تحت ضوء الشعلة ليبدو فى وأنا أنفخ الدخان مختلجاً سأمان . وبدا القلق على وجهه الطيب . فقلت كأننى أجيبه عن سؤاله الصامت : « ما قيمة هذا ؟ ألا بد أن يتزوج الناس ؟ »

فمط شفته السفلى ولمع فى عينيه بريق ساخر : «يبدو أنه لا بد ! »

فقلت بضيق مخنوق : « ولماذا الضجة ؟ لماذا لا يتواارون ويتزوجون ؟ »

فنظر إلىّ برهة طويلة ، نظرة تفيض فهماً . وتشنجت أصابعه على كتفى . فأحسست ندماً لأننى عبت الزواج أمام هذا الزوج

الحنون الطيب . فغضضت بصرى ثم اختطفت قبلة من طرف أنفه ودفعته فى صدره متضاحكة وأنا أقول : « عد بسرعة إلى موضعك . قبل أن يتحطم قلب الراقصة لا نصرافك عنها » .

وأخذت سيجارتى وتواريت بها فى ركن من القاعة المظلمة التى تكدس فيها الأثاث كى تخلو حجرات البيت لإعداد الحفل .ووجدت حشية مطوية فرقدت عليها وأغمضت عينى ورجوت صادقة لو لم أكن أفتحهما بعد ذلك أبداً . فلا أرى ولا أسمع ولا أحس . . . وينتهى وأنا فى غيبوبتى كل شىء . . .

ودخنت سيجارتى حتى نهايتها،ثم ظللت مستلقية لا أجد همة للقيام والخروج إلى الناس . ثم سمعت اسمى يتردد . يردده صوت خيرية المشحون بالانفعال : « أميرة . . . أين مدام أميرة ؟ . . . ليتها تعزف لنا مقطوعة . . »

واستبدبى الضيق . فالعزف آخر شىء كنت أصلح له ويصلح لى فى هذه اللحظة التى استولى فيها الفراغ البارد على أعماقى كلها وفاض على وجهى . . . .

ولكنى سمعت صوت عونى عند الباب ينادينى . ورأيت من خلفه خيرية وفى ظلام الحجرة وظلال الأثاث المكوم دسست الفراغ وكومته فى أعماقى وأخليت وجهى لمعالم الاحتفال . . . للنظرة ذات البريق . والابتسامة ذات الرنين . وخرجت لأستجيب للرجاء، وتمر أناملى على المعزف ، لسامعين مخمورين أو بلهاء . . . يرتدى الفن الجليل لإمتاعهم

مباذل المهرجين !

وكان ظهرى وأنا أعزف إلى الجالسين . وتهيبت أصابعى المفاتيح . لا عن جهل . لا عن خوف . بل عن إحجام وعزوف . ورأيت أمامى على سطح البيانو اللامع بريقاً . وخيل إلىّ أنه يعكس فى تشويه غامض قامة خورشيد وهو واقف خلفى ينظر إلى أصابعى ويشجعنى بابتسامة صامتة كأنه يقول لى :

ــ تشجعى . ألم أحدثك أننى كم ابتلعت مرارة فى وأنا أستخدم الموسيقى ملهاة للتافهين : يدنسون جمالها المهيب بمشاعرهم الغليظة التى تسندها موازين مجتمع يزن كل شىء بالفضة ويبيح كل شىء لمن يملك الثمن ؟ اعزفى !

وأحسست أننى معه فى عالم وحدنا . فوق هؤلاء الذين أسمع ضجة أنفاسهم من خلفى فيملكنى الاشمئزاز . وفى شجاعة وتحد ــ لأنه معى ــ مرت أصابعى على مفاتيح البيانو فى ترفع وازدراء . . .

وواجهت عاصفة التصفيق . وأوليت البيانو ظهرى وأنا أعلم أن عينى لن تقعا عليه حيث أحسسته واقفاً خلفى، يلازمنى فى معية مقفلة . فقد آن له أن يذهب وأن أواجه الناس وأرد على التحية . وأواجه نظرات عونى وهى تفيض بالإعزاز والاعتزاز . . .

وتسللت إلى حجرة فى أقصى الدار وضع فيها الطباخ جانباً من أدواته ، وجلست بعد أن أحضرت من المطبخ كوباً فيه قليل من الشاى المركز وفى كفى قرص من الأسبيرين . ثم أغمضت عينى قليلا وأنا

جالسة فى الركن يواريني عن الباب دولاب لا أدرى لماذا وضعوه هكذا فى وسط الحجرة . ولعله ثقل على الحمالين والخدم وهم ينقلونه من حجرة أخرى أخلوها للمدعوين .

وفى هذا المجلس المنزوى عن الأنظار طاب لى أن أخلو بأعصابى وأغمض عينى على المقعد العتيق الوثير . وأنسحب بوجدانى من ضجة الاحتفال . . .

١٨

لم أفتح عينى إلا وقد افترشت الشمس حجرة النوم المنعزلة المخصصة للضيافة فى الطابق العلوى من الفيلا . وكانت السهرة قد امتدت إلى الساعة الأولى من الصباح. ولكنى لم أجد فى جسمى أثراً للتعب والإرهاق وأنا أتمطى بعد نوم عميق وأحلام لا أذكر منها شيئاً إلا ذلك الأثر الباقى فى نفسى من التفتح والانشراح . . .

ونظرت إلى جانبى فى الفراش وأنا أتهيأ لإلقاء تحية الصباح . فوجدت المكان فى جانبى خالياً . وأحسست فى أعماقى بالارتياح لأننى استيقظت فوجدت نفسى وحيدة ، بمفردى ، فى الفراش الواسع . وسجلتها فى نفسى مأثرة أخرى لعونى . . . إنه كان من اللباقة عن قصد أو عن غير قصد إذ تركنى للنوم حين أوينا إلى الفراش . ثم ها هوذا يتركنى لخواطرى حين فتحت عينى . . . .

وكأنما أردت أن أتأكد من أن الفراش كله لى لا يشركنى فيه أحد ، فمددت رجلى ويدى فى مساحة الفراش كلها ، وأخرجت صوتاً عميقاً يجمع بين التأوه والتثاؤب . ونظرت بعدها إلى ساعتى .

إنها تجاوزت التاسعة . لو كنت فى القاهرة لتأهبت الآن للذهاب إلى درس الموسيقى . ولكن المسكين سينتظرنى عبثاً . . .

وقفزت من الفراش فى مرح ونشاط فوجدتنى فى مواجهة شابة لامعة العينين ناضرة الوجه فى قميص نوم واسع تطل علىّ فى تطلع ودود من صفحة مرآة كبيرة معدة للتزين . فسرنى أن أجد الصباحة فى محيا الشابة وابتسمت فابتسمت . ثم رفعت يدى إلى مفرق رأسى بالتحية وقلت :

— بإذنك . كنت أريد أن أجلس إليك . ولكن لابد لى أن أدخل الحمام أولا . ثم نلتقى هاهنا بعد عشر دقائق على الأكثر . فأنا أستحم على عجل برشاش الماء البارد . . .

ودخلت الحمام بمخدع النوم وأنا أصفر مسرورة للطلعة الناضرة التى واجهتنى بها المرآة منذ قليل . فمن ذا يقدر لهذه الطلعة حقيقة سنى ؟

وانساب الماء البارد على جسمى العارى وأنا أتطلع مسرورة مزهوة فليس فى هذا الجسم أوقية واحدة من فضول الشحم . وبشرتى مشدودة ريانة . . . .

والتقيت مع صورتى العارية فى المرآة . ووقفت أتأمل فى زهو تناسق أعضائى حتى لم أكد أجد فيها عيباً .

وفى هذه اللحظة انفتح الباب فصرخت . ولم يفرخ فى روعى إلا حينما تبينت عونى وقد وقف مفتوح الفم يحملق بعينيه فى دهشة مصطنعة وقد أدرك الموقف بذكائه اللماح :

— رحماك يا سيدتى ! صونى جمالك عنا إننا بشر من التراب وهذا الحسن ربانى !

وضحكت وفتحت ذراعى . فعانقنى وأخذ يتشمم معاطفى ثم رفع حاجبيه بدهشة ونظر نحوى شزراً ويده تداعب الشعر وراء أذنى.

— روحانى ؟ كلام فارغ ! ماذا يكون الجسمانى إذن أيها الشاعر المعتوه ؟ وماذا كنت تقول لو شممت هذا العطر المتضوع يا مسكين ؟

وتخلصت من يده بلباقة وأخذت أرتدى ثيابى .

فنهض عن الفراش وأخذ يقبلنى إلى أن دفعته فى صدره وطلبت منه أن يخرج كى لا يعطلنى عن ارتداء ثيابى .

وخرج عونى وجلست إلى المرآة أتم زينتى وأنا مزهوة . وأخذت أسأل نفسى وأنا أضع الصباغ الأحمر على شفتى :

— لو لم أقل له إننى فى الخامسة والأربعين على سبيل المزل . ولو لم يعرف طرفاً من تاريخ حياتى . لو كان أول لقاء بيننا فى هذا الحفل . كان مدعواً للعزف مثلا ورآنى لأول مرة . هل كان يقدر لى عمرى الحقيقى ؟

وحين انتقلت يدى إلى تخطيط الحاجبين وجدت نفسى أسأل :

— قد لا أكون متمتعة ببلاهة الصبا الباكر مثل منى وصاحباتها .

ولكنى قطعاً أبدو أصغر وأنضر بكثير من أم منى . إن الفرق بينى وبين خيرية ضخم .

وتصورت عينيه اللتين تحسنان وزن مزايا الجمال وقد دارتا فى أرجاء المكان ثم وقفتا أخيراً عند قامتى المشوقة وبشرتى الناعمة وابتسامتى الوضيئة . وكنت طبعاً سأدعى للعزف . فيزداد تعلق نظراته بى وقد زاد التقاؤنا فى الموسيقى عمقاً ومغزى . . .

ونظرت إلى ساعتى مرة أخرى لأراها تزحف إلى العاشرة . إلى الموعد . موعد اللقاء الذى لن يتم اليوم ولا غداً . . .

إن الفتى ذواقة . حساس للجمال . وأنا لم أقدر أنه معذور حتى رأيت نفسى وسط هذا الجمع من النساء والفتيات اللواتى لا معنى لأشكالهن وشخصياتهن . . .

وهل كان من الممكن لفنان مثله أن يعبر بى من غير أن يقف عندى بإحساسه وتفكيره ؟

ودقت ساعة فى برج مدرسة أجنبية عشر دقات . فلمعت عيناى وأنا أتخيله يتوقع دخولى .

وفى هذه اللحظة سمعت نقراً على الباب ثم دخلت خيرية تحيينى وتدعونى إلى مائدة الإفطار. وودعت صورتى فى المرآة بنظرة سريعة فيها اعتذار وفيها تواطؤ . ونزلت مع خيرية إلى الطابق الأسفل . ولم آكل شيئاً كثيراً كعادتى فى الإقلال من طعام الإفطار . ثم نهضت فى طريقى إلى المغسل فاخترقت البهو . وهناك لفت نظرى البيانو القائم

فى الصدر . حيث عزفت عليه بالأمس . فاتجهت نحوه بخطوات متراخية . وفتحته . ثم لمست أصابعى مفاتيحه فى رفق فخرجت منه نغمات السلم . كأنها همسة هامس بتحية الصباح فى لغة سرية . ثم أغلقت البيانو ومسحت بيدى على غطائه كأنى أودعه معتذرة وأعده أن أعود إليه وأننى لن أهجره . . لولا أنها الظروف القاهرة . . .

وكأنما أصرت الظروف القاهرة أن تعبر عن نفسها فدخل فوج وصيفات الشرف ليأخذن العروس ووالدتها ويأخذننى إلى الحلاق . وهو تقليد لابد منه فى يوم كل عرس .

وحانت منى التفاته وأنا أولى البيانو ظهرى لأتجه نحو مجموعة الوصيفات . فرأيت عونى من خلفهن ينظر نحوى وأنا منفردة بالبيانو فى الطرف البعيد من البهو نظرة ذات وميض خاص . فيه من الذكاء وفيه من الخبث الضاحك ومن التوقع والإغضاء . . .

١٩

الطريق طويل ممتد لا يريد أن ينتهى . والشمس تجنح للمغيب . وفى رأسى دوار خفيف . الحذر يسرى فى أعصابى من دوامة اليومين الماضيين بين الضجة المتصلة والحديث المستمر الذى لا يقول شيئاً . والتشابك مع الناس تشابكاً لم يترك لى خلوة إلى نفسى . فكدت أستسلم للنعاس على حركة السيارة التى تنساب ناعمة نحو القاهرة . . . لولا أن

قلقاً فى داخلى لا يريد أن يتركنى لأغفو .

كيف سيستقبلنى ؟ إلى أى حد استبد به اليأس من عودتى إلى استئناف الدرس ؟ كم مرة راودته يده أن تمتد إلى التليفون ؟ وكم مرة امتدت يده فعلا ثم ردها ؟ . . . . ومن يدرى؟ لعله أدار القرص بالرقم على مضاضة ثم أخذ وجهه يحمر فازداد النمش ظهوراً وهو يصغى لرنين التليفون .وقد ازدادت دقات قلبه . ولكن الرنين لم يجد سميعاً ولا مجيباً !

وغمرتنى الفرحة فعقدت ذراعى فوق صدرى وشددت وثاقهما وتركت صفحة وجهى لقبلات الشمس الغاربة وأغمضت عينى باستمتاع وأنا أتمثله حائراً لهفان ثم يائساً تلاشى من وجهه الأمل وألقى المسماع من يده على مضض .

وعند هذه الصورة هدأت نفسى وغفوت قليلا . . . .

واهتزت السيارة هزة قوية ثم وقفت ففتحت عينى لأجدنا عند مدخل الضاحية وقد أوقفتنا أول إشارة مرور . ونظر عونى إلىّ وابتسم فى رقة وقال : « لا بد أنك متعبة . أوشكنا أن نصل » .

ويبدو أننى كنت متعبة أكثر مما قدرت . فلم أدر كيف استغرقت فى النوم ولم أستيقظ إلا ونحن أمام البيت . وما كدت أصعد حتى دخلت الحمام وخرجت وأنا أشعر بشىء من الانتعاش . وكان عونى قد خرج ليأتينا بشىء من الطعام . فوجدت فى نفسى خفة غير عادية حتى كدت أرقص وأنا أتنقل بين الحجرات وحدى . كأن العودة إليها متعة من وراء التصور .

واتجهت إلى البيانو فجلست إليه برفق وبدأت أعزف التمرين الأخير . ثم خطر ببالى ما عزفته فى طنطا . وكيف كان ماثلا طوال الوقت خلفى . وتمثلته جالساً فى هذه اللحظة على الأريكة الكبيرة التى ورائى . والتى تستغرق جدار الحجرة بأكمله . تمثلته جالساً هناك وقد وضع ساقاً على ساق وفى يده فنجان قهوة والصمت شامل وأنا أعزف له وحده . حتى إذا فرغت مط شفته السفلى واتسعت حدقتاه . دليلا على الإعجاب :

« برافو مدام أميرة ! »

وعزفت . عزفت له وحده . ولكن الصمت لم يستمر طويلا . إذ انفتح الباب وهرول خادمنا النوبى يصيح بلهجته الطريفة مرحباً بعودتنا . فلم أفكر فى النظر إلى الأريكة لأعتذر ، لأنى وثقت أنه اختفى منذ تعكر الصمت ولم نعد وحدنا .

وتمطيت . وتأهبت للاشتباك فى أحاديث وحركات مع حسن فى المطبخ ومع عونى على المائدة ثم فى حجرة النوم . اشتباكات أشبه بالمناوشات تخرجنى من أمنى ومن ذاتى .

وأسرع إلىّ النوم بعد العشاء فغفوت وتركت مصباح عونى موقداً لأنه كان يقرأ . ولا أدرى متى أطفأ مصباحه . لأنى لم أفتح عينى إلا على ضوء الشمس . وترامى إلىّ خرير الماء فى الحمام حيث كان عونى . فأرسلت بصرى إلى الساعة الصغيرة التى تحتل وسط الشيفونير ثم تمطيت . .

« لم تزل الساعة مبكرة . باق من الزمن ثلاث ساعات . . . . »

وانقطع خرير الماء . ولم يلبث أن دخل عونى كما توقعته أن يدخل :

مبتل الشعر حافى القدمين ضاحك الوجه . وانحنى على وجهى كما توقعت أن ينحنى . وقبلنى على صفحة خدى كما توقعت أن يقبلنى . . . . والبشر يتألق فى محياه كتألق الشمس فى الضحى : فيه حرارة . ولكن لا يكاد يلتفت إليه السائر فيه ، لأنه تألق معاد كتألق كل يوم . . . .

ونهضت فعاونته على ارتداء ثيابه كشأنى فى كل يوم . ولكن فى كسل يكاد يعزف بى عن كل حركة إلا الاستلقاء انتظاراً لحركة عقارب الساعة.

وعلى مائدة الإفطار حمدت له عادته فى التهام الصحف وهو يلتهم الفول . ولا أدرى ماذا قلت له وماذا قال لى . فقد جرى بيننا حديث متقطع انتهى بقبلة وأنا واقفة على رأس السلم . ورفع وجهه عند المنحنى . ثم ابتسم ابتسامته المتألقة تألق الضحى المعهود . ثم دخلت وأغلقت الباب واتجهت بخطى ثقيلة نحو الحمام .

وتحت رشاش الماء البارد بدأت أتحرك . ثم تذكرت كلباً صغيراً كان فى بيت أبى وأنا صغيرة كنت أصر على أن آخذه معى تحت الرشاش فى كل يوم، وكان المسكين يتلوى ويئن وأنا أضحك. . .تذكرته فأخذت أضحك وأنا وحدى فى الحمام . وظللت أضحك وأنا خارجه . ولمحت آثار الضحك المكتوم على وجه حسن الأسمر الداكن وهو يحاول أن يخفيه عنى . وتصورته يقول فى باله :

— لا بد أنها ممسوسة !

وزادنى ذلك الخاطر ضحكاً على ضحك . وأنا أتهيأ فى حجرتى لزينة الخروج . وتمهلت ما استطعت . راجعت كل منبت شعرة . واخترت الثياب وارتديتها ثم خلعتها ثم ارتديت سواها . فلم تعجبنى وعدت إلى الأولى .

وعندما بدأت أعالج عينى بشىء من المسحوق الأزرق تذكرت أغنية شائعة فضحكت حتى انبثق الرذاذ من فى وغطى المرآة . وكانت الأغنية :

— حاغسل عينيه واحط قطره . . . حأبله بكره . . . حاشوفه بكره !

ومسحت صفحة المرآة وأنا أغالب بقية الضحك وانتهيت من زينتى ورمقت الساعة لأضبط ساعة معصمى .

— بكره ؟ بل بعد أقل من ساعتين . . .

وأين سأذهب الآن ؟

على باب الله . أتسكع فى الشمس . وآكل جيلاتى ، كثيراً من الجيلاتى . فالصباح جميل . والحياة حلوة .

٢٠

السنا يضحك فى كل مكان وأنا فى طريقى إلى محل المثلجات فى طرف الضاحية . . . ونظرى يتنقل بسرعة بين الأشياء التى يجلوها نور

الضحى المتألق ، يتنقل فى نشوة سكر . . . كنشوة الفراشة التى تتنقل بين الأزهار ، لا تستقر . . .

وأمام محل « الساحر » وقفت أداعب بلسانى قبة قرطاس الجيلاتى البيضاء ، وأنا أدور بعينى فى أرجاء الواجهات من حولى . وكأنى أتحاشى النظر إلى تمثال البهلوان المتحرك . . . وأخيراً تعبت من تجاهله فحولت نظرى إليه . ورأيته يرقص حاجبيه ، فأومأت إليه بحركة من طرف أنفى تقلصت لها شفتى العليا ، ولم يلمحها أحد — إلا أنا وهو طبعاً ! . . . لأنى كنت منهمكة فى لعق الجيلاتى واستمراء برودته فى حلقى . . .

ودرت على عقبى . . . ومضيت فى شارع خلفى واسع ، مقفر من المارة . . ليس فيه إلا السنا المتألق على الأبنية البيضاء الساكنة على الجانبين . .

ما أجمل إشراق الشمس فى الضحى ! من ذا يعيش بدونه أو يمكنه أن يسعد ؟ ورفعت وجهى لتغمره الأشعة الدافئة . . . ولكنى اضطررت أن أغمض عينى . . . . وتنهدت كتنهد القاطرة حين يزدحم باطنها بالبخار المتولد من حرارة الأتون . واستولت على رغبة فى عمل أى شىء : أقفز . . . أنط . . . . أجرى . . . . .

ونظرت فى ساعة معصمى .

باق من الزمن أقل من ساعة . . .

وخطرت لى فكرة : الباتيناج ! وكدت أصفق فى الشارع طرباً بالفكرة البديعة . ياله من إلهام !

ومررت بالبيت فركبت سيارتى وأسرعت إلى ملعب الباتيناج فى أول الضاحية . . . فهناك يسعنى أن أقضى نصف ساعة زاخرة بالحياة .

ودخلت الميدان الفسيح . وكأنى أدخل عالماً آخر : فهنا كل شىء طافر ، متحرك ، لا يستقر . . . وهنا كلهم وكلهن فى عمر الورد أو فى البراعم لم تتفتح أكمامها بعد . . سن العشرين ها هنا هى الحد الأقصى . . . وانزلقت بين الأسراب ، من أول الميدان إلى آخره ، بلا توقف .فنحن حينما نتحرك لا تكون لنا أعمار ثابتة. . . وطال انزلاقى . . . . ولكن شيئاً فى أعماقى ظل ثابتاً لا ينزلق ولا يجرى معى . . . كالنقطة الباردة ، التى لا تكترث لما أفعل ، ولاتقيم له وزناً . . . . شىء أشعرنى أننى لست كالآخرين هاهنا . . .

أوه . . . إنه الاندماج . هذا الاندماج الذى ينقصنى ، أشعرنى بالغربة . . . الكل هنا يتقاربون ثم يتباعدون ويتنادون بالأصوات ، وبالحركات . . . كل شىء فى كل واحد وكل واحدة منهم يحس بالآخرين ، ويتفاعل معهم . . . وأنا وحدى بمعزل . . . .

وأحسست بألم فى أحشائى . ألم كالهزيمة .

ومددت يدى لأول صبى اقترب منى . . . . لاتتجاوز سنه الثانية عشرة ، نحيف ضاحك . . . كالجميع !

ومد يده فتلقى يدى وهو يضحك فى وجهى . . . وانزلقنا معاً على مدى ذراعينا المتشابكتين نحو عشرة أمتار ، ثم أفلت يدى واندفعَ يصيح كصيحة الحرب فى الأحراش ، واندمج مع الآخرين ، وبقيت

وحدى. واتجهت إلى أريكة ، وجلست أسترد أنفاسى المبهورة وأحتسى كوباً من عصير الليمون المثلوج .

— إنه ما كان يشعر بالعزلة والغربة هاهنا. . . . هو منهم . . . . كالورد فى الأكمام ، أو كالورد المتفتح تحت شعاع الشمس فى الضحى . . . أما أنا . . . فأتقلب مثلهم فى الشمس وأنتشى بدفئها. . ولكننى لست وردة . . . لم أعد وردة . . . وإن كانت فى النضارة . . . . نضارة الثمر !

ودارت عيناى ترمقان شباناً فى مثل سنه وهيئته ، مندمجين فى المجموعة ، يتمايل عليهم الفتيات الكواعب ، ومن دونهن ممن لم يتفتحن بعد ، وإن تعجلن التفتح ، ولو بلمسات الأصابع الشابة العابثة . . . هو هنا . مكانه هاهنا . . . أما أنا ، فعابرة بالمكان . زائرة طال مقامها أو قصر . . .

ورفعت وجهى للشمس أغرقه فى سناها الحار ، وأغمضت عينى . لقدبقى لى هذا على الأقل : الاستمتاع بدفء الشمس فى ضحاها . . . وتراءت لى وأنا مغمضة العينين ابتسامة عونى المتألقة كتألق الضحى فى اليوم الصافى . وتمثلت رفقه الدافئ كدفء الضحى فى اليوم الصافى . وتمثلت حبه المطمئن الذى لا يتخلف عن أوانه ، كطمأنينة الضحى الموافى لا يخلف ميعاداً . . .

وشاعت الطمأنينة فى نفسى . . . ولكن بقى جسمى متوثباً للحركة والمراح ، وإن عاف هذا الميدان الذى ركز فيه إحساس العزلة ،

كالثمرة المفردة وسط ربيع كله أزهار . . . .

الضحى على الأقل بقى لى . وعونى على الأقل بقى لى . . .

الضحى لا حياة بدونه . لا حرارة بدونه . لا نشاط للحركة الجائشة بدونه . . . ولكن ما انتفاعى بالضحى وحرارته وجيشانه ، إن لم أجد ميداناً لحركتى الجائشة . . . أقفز هنا ، وهناك . . . وأغنى وأرقص .وأعبر عن الحياة التى أمدنى بها الضحى . . . ؟

أحب عونى . أحبه . . . لا أحيا بدونه . ولكن لابد لى أن أحيا وأمارس الحياة التى وهبنى . . .

لابد لى . . . لابد . . . ولو اقتضى الأمر أن تتزيا الثمرة بزى الأزهار ، لتشترك فى مهرجان الورد . . . مهرجان الربيع . . . .

ونبض الربيع الساكن فى أعماقى . . . ونظرت إلى ساعة معصمى ، وقفزت واقفة . . . فوقعت على الأرض ! لأنى كنت قد نسيت فى لهفة اللحظة أننى لم أخلع قبقاب الانزلاق . . . وقمت أنفض التراب عن كفى ، وأنا أتضاحك لأدارى خجلى من ضحك مراهقتين أبصرتا وقوعى . . . وشعرت بنقمة شديدة . وأيدت من كل قلبى رأى خورشيد فيهن : مقصوفات رقبة . . . تافهات . . .

٢١

تمهلت وأنا أصعد السلم المظلم . لأن شدة الضوء فى الخارج جعلت عينى عاجزتين تماما عن مواقع قدمى فى أول الأمر . وخيراً صنعنا ، فلابد لى من التمهل حتى أصل إلى فوق هادئة الأنفاس والأسارير . . . .

ولم يكن خورشيد فى الردهة الخارجية مع المدير الذى سلط علىّ نظراته المتألقة المتواطئة . فأومأت إليه برأسى واتجهت نحو حجرة الموسيقى ، فقفز من مكانه واعترض طريقى فى لهفة : « صباح الخير يا مدام أميرة ... ماذا حجبك عنا هذين اليومين ؟ » فأجبته وأنا أتبسط معه فى الحديث ، ولكن فى إشفاق من تشعبه : « كنت غائبة عن القاهرة لأداء واجب . » .

فاستعرض زينتى بنظرة خاطفة وابتسم قائلا : « أرجو ألا يكون واجباً مضنياً . . . وأن تكونى استمتعت برحلتك . . . » فقلت بسرعة لأضع حداًّ للمحادثة : « كانت رحلة ممتعة. . . »

فأطلت نظرة التواطؤ من عينيه . ومع أننى بت على يقين من أنها حركة عصبية لا تعنى شيئاً بالذات ، إلا أننى شعرت بضيق منها وهو يقول : « أعتقد أن الأستاذ خورشيد فى حجرة الموسيقى الآن . . . » ثم أردف يقول : « لقد اتصلنا بك مراراً فى التليفون لنستفسر عن سبب انقطاعك عنا » .

عنا ؟ من يعنى بهذا ؟ هل يعنى نفسه ؟ أم يعنى كليهما ؟ أم يعنى خورشيد ؟

— . . . ولكن التليفون لم يرد . . . وفى يقينى أنه قطع الأمل من حضورك اليوم أيضاً لأنك تأخرت دقائق عن موعدك . فقد كان هنا معى منذ دقيقتين فقط وكنا نتكلم عنك.

هو إذن كان قلقاً . وكان يحدثه عنى . . . .

ودون أن أجيب نظرت إلى ساعة الحائط الكبيرة ثم أحنيت له رأسى ويممت فوراً حجرة الموسيقى ، وتركته واقفاً ينظر نظرة التواطؤ المعهودة ويبتسم . . .

وكان الباب مغلقاً . ولكن صكت سمعى ألحان حادة ، عصبية ، من معزوفة لفاجنر تعبر عن عذاب العمالقة . . . . وفتحت الباب ببطء ثم دلفت إلى الداخل فى سكون ، وأغلقته خلفى ووقفت وظهرى إليه . . . لأنه كان يعزف بحماسة شديدة ، وعيناه مرفوعتان إلى السقف . . . . ولعله كان يلتمس فيه منفذاً إلى السماء . . . وهذا طبعاً مستحيل ! . . .

ولا أدرى كم وقفت هكذا كالمأخوذة بانهماكه فى العزف ، والتماسه اليائس للسماء فى بنيان السقف الأبيض الناصل الأصم . . . ثم اعتصرت قلبى قبضة قوية من تلك الأنغام الشاكية وتلك النظرة اليائسة ، فنقرت بأصابعى من خلف ظهرى على الباب ، لأحول نظره المتلمس عن السقف . . . إلى الأرض ، إلى مكان من خلفه إلى اليسار . . . . أقف فيه . . .

وتحولت عيناه عن السقف ، واتجهت نحوى . ثم صمت المعزف ،

وندت من فمه صرخة دهشة ، وتألقت عيناه ، ثم احمر وجهه ووضح النمش فيه وقام من مقعده الحلزونى قيام من يلجم حركاته حتى لا تأخذ مداها الطافر ، ومد يده فى ثبات وهز يدى فى رزانة لا تتفق مع أول بادرة وقال فى حبور مكظوم : « أهلا بمدام أميرة . . . لقد هبطت علينا من السماء » . فضحكت وأنا أضع حقيبة يدى على المائدة الصغيرة وأتهيأ للجلوس : « الأولى بك أن تقول : إنى هبطت بك من السماء التى كنت فيها . . . »

فغض بصره وسكت قليلا . وتشاغلت عنه قليلا بتسوية ثوبى ـ وما كانت به حاجة إلى تسوية ـ ورفع بصره وقال كالحالم : « اثنتان وسبعون ساعة لم نرك فيها يا مدام أميرة . . . »

لقد أحصاها بالساعات ! ولكنه يقولها بلغة المجاملة . مثل المدير . . . بضمير الجمع . ومع هذا فاللهجة التى نطقها بها لا محل للخطأ فى تأويلها .

ولم أجد منفذاً لى إلا الضحك ، فتضاحكت وقلت :

ـ كان لابد من السفر فجأة ظهر آخر يوم كنت فيه هنا . ولم أتمكن من الاعتذار لأن المعهد يغلق أبوابه فى فترة بعد الظهر إلى الساعة الخامسة .

ـ الرابعة يا مدام أميرة .

ـ سافرنا فى الثالثة على كل حال . وغالطت نفسى مع هذا وطلبت المعهد بالتليفون عسى أن يكون الساعى هنا فيبلغك اعتذارى . إنى جد

آسفة لتغيبي بغير اعتذار مما سبب لكم قلقاً لا موجب له . . .

ولم يقل شيئاً . رأيت العتاب واضحاً فى نظراته . عتاباً ليس له سبب ظاهر بعد أن يبنت ظروف الانقطاع . ورنت فى سمعى تحت وقع تلك النظرات كلماته العجيبة الزاخرة بالحسرة : « اثنتان وسبعون ساعة . . . . »

وأغضيت كالمذنبة . وقلت بصوت الصبية المراهقة لمدرستها العجوز : « لن أتغيب بعد اليوم » .

ولم أردف اعتذار التلميذة الصغيرة بكلمة « يا أبله » بل رفعت عينى إليه لأكتشف صدى كلماتى على وجهه فوجدته منحنياً فوق المائدة الصغيرة وقد وضع قبضتيه إحداهما فوق الأخرى ووضع ذقنه فوقهما وظهرت الحيرة واضحة على محياه الطفلى . ولكنها حيرة يمازجها الحبور والاغتباط . ويبدو أن مشاعره كانت أقوى من أن يسيطر معها على تعبيرات لسانه فلم يتكلم . بل اعتدل فى جلسته ثم بسط يده نحوى لأتناول من صندوقه سيجارة . ورأيت يده ترتجف وهو يشعل سيجارتى . فحولت عينى عنه ثم رفعتهما إليه بعد قليل لأرى يده ترتجف أيضاً وهو يرفعها بالسيجارة إلى فمه . وعيناه زائغتان لا تنظران إلى شىء فأدركت أن من واجبى أن أخرجه من المأزق لأزيل الحرج الذى خيم على جو الحجرة . فقلت وأنا أتقدم نحو البيانو فى تؤدة : « أتدرى أننا كنا فى طنطا لنشهد قران شاب فى مثل سنك ؟ »

وتدافعت الكلمات من فمى ، وأنا أقص عليه مشاهد من ذلك

العرس وجوه الصاخب .

وكنت أرقب الحبور وهو يعود إلى قسمات وجهه ، ثم انفجر آخر الأمر ضاحكاً من أعماق قلبه . ونسيت نفسي وأنا أشرب بعيني من هذا البشر الطفلي المتألق على وجنتيه وفي عينيه. فصاح يستزيدني:

ــ وبعد ؟ ماذا حدث أيضاً ؟

وبلعت ريقي . فقد كان في هذه اللحظة أقرب ما يكون إلى الطفولة . وهو يستزيد أمه أو مربيته من قصص السحرة وحواديت الجن . وداعب رأسي سؤال قاس . طرحته جانباً ونظرت إليه في دعابة :

ــ أتدرى ماذا كان يجول بفكرى وأنا أرى هذين العروسين الصغيرين ؟

فنظر إلىّ نظرة ماكرة وسألني بخبث:

ــ ماذا جال بخاطرك يا مدام أميرة ؟

فجمعت أطراف عزيمتي وقلت بأقصى ما استطعت من هدوء :

ــ كنت أقول متى أرى الأستاذ خورشيد في هذا الإطار الجميل . متى ؟

فقطب حاجبيه واحمر وجهه . وأسرعت أنا أقول ضاحكة قبل أن يتكلم :

ــ بشرط أن أكون حاضرة . فأنا أم العريس .

فقال بلهجة جد شأن من فكر في المسألة طويلا من قبل :

ــ لن أتزوج يا مدام أميرة .

فتصنعت الدهشة . وإن كان شىء فى أعماقى قد انتفض انتفاضة السرور ، وملت إلى الأمام قليلا وسألته وأنا أتفحصه بعينى :

ــ ولماذا هذا التصميم يا أستاذ خورشيد ؟ . . . إننى أوافقك طبعاً على أن الوقت لم يحن بعد . ولكن متى وجدت الفتاة التى تسعدك . فلماذا تقفل على نفسك أبواب الفردوس ؟

فهز كتفيه ثم قال بأسى :

ــ إن وجدت ! ولكنى متأكد أننى لن أجد هذه المرأة .

فقلت بدهشة أدارى بها اللهفة : « ولماذا هذا اليأس ؟ » قال بتؤدة : « لا يأس . ولكن المسألة أن قلبى لم يعد فيه متسع لفتاة . . . . » وبلهفة أشد موهتها بالتباله : « إننى أعلم أن الفن قد استولى على قلبك كله ولم يترك فيه متسعاً لأحد . ولكن لا بأس ! فالفنان دائماً مستعد لتلقى لمسات الحب الحانية . وسيأتى اليوم الذى يتسلل فيه الحب إلى قلبك بدون أن تدرى » .

ولم أستطع أن أغفل الهيام الذى ومض فى نظرات عينيه الصافيتين مشوباً بالأسى الصامت . فارتعدت سريرتى وتقلصت أحشائى وأحسست باندفاع قوى نحوه . ولكنى تمالكت نفسى حتى لقد شعرت بأوجاع تسرى فى كيانى كله ، ثم سمعته يقول : « كان الفن إلى عهد قريب هو كل شىء فى حياتى إلى أن أتت من استطاعت أن تجعله شيئاً ثانوياً ، واستولت على قلبى وكيانى كله » .

فقلت وكأنما الأمر لا يعنينى : « يالها من فتاة محظوظة ! »

فأجابنى وعيناه لا تطرفان ولا تتحولان عن وجهى : « أهذا هو إحساسك حقًّا ؟ »

فقلت بلهجة التأكيد : « بالطبع ! وهل تطمع فتاة مهما كانت فى شاب أفضل منك ؟ »

فقال وهو يجول بنظراته فى عينى : « إذن لماذا لا تشعر بوجودى ؟ »

فقلت معاتبة : « أتريدها أن تبدأك هى بالاعتراف يا أستاذ خورشيد ؟ ومن يدريك ؟ لماذا لا تكون متصونة لا تفصح عن عواطفها قبل أن تتأكد من عاطفتك . . . »

فقال فى توسل كاد يفلت زمامى من يدى :

– أهذا رأيك حقًّا ؟ أتنصحيننى أن أكاشفها ؟

– طبعاً ! وأنا ضامنة أنها ستطير فرحاً !

– وإذا لطمتنى على وجهى ؟

– كيف ؟ أهى لا تحبك ؟

فأشاح بوجهه فى قلق متوتر وقال : « هذه هى مأساتى . أنا لا أدرى. لا أستطيع أن أجزم . أهى تترفق بى عن عطف أم عن عاطفة . هذه هى المشكلة . أسوأ ما فى الأمر . . . . »

وسكت . فاستفسرته بنظراتى . فأطرق وقال بصوت خافت : « متزوجة » .

فصحت بدهشة مصطنعة : « متزوجة ؟ ! وما الذى جعلك تتعلق بهذه المرأة المتزوجة ؟ هل خلت الدنيا من الأوانس يا أستاذ خورشيد

حتى تترك قلبك يهيم بمتزوجة ؟ »

فقال وهو يضرب بسبابته على حرف المائدة وعيناه ذاهلتان : « وهل الأمر بيدى ؟ لو كان بيدى ما توانيت لحظة فى انتزاع هذا القلب والتخلص من عناء تشبثه العنيد بهذا الحب . ولكن من ذا أمره بيده ؟ »

ورن السؤال فى أعماقى : من ذا أمره بيده ؟

أنا أيضاً . ماذا يريد بى قلبى وماذا يبيت لى ؟

ـ وماذا أنت صانع الآن ؟ هل ستبوح لها بحبك ؟

فأطرق إلى الأرض لحظة ثم قال : « مستحيل . ما لم أجد منها تشجيعاً كافياً . وهل نسيت يا مدام أميرة ؟ »

وانتفضت توجساً مما يريد أن يذكرنى به مع أننى كنت لا أدرى ما هو .

ـ . . . هل نسيت أننى قلت لك منذ أسابيع شيئاً عن هذا الموضوع جاء فى حديثنا عرضاً . فقلت لى بلسانك : ماذا تستطيع هى لك إن صارحتها بحبك وهى سعيدة فى زواجها ؟ دعها لا تعلم فذلك خير لها ولك . . . .

وعضضت على لسانى وشردت ببصرى أتصنع التذكر . ولكنه استطرد :

ـ إنى أفزع من التفكير فى عاقبة التصريح . لن أتحمل الصدمة ولن أستطيع أن أستجدى عطفاً ورثاء . سأترك كل شىء وأرحل إلى أقصى

العالم حتى لا يقع بصرها على بعد ذلك . . .

وأحسست بمقاومتى تكاد تنهار . فتشبثت بيدى فى جوانب المقعد ، مقعد البيانو المتحرك خوفاً من أن تنم حركة يدى على ما فى أعماقى . واستدرت بسرعة لأواجه المعزف ومرت أصابعى على مفاتيحه ثم قلت بعد برهة بصوت يكاد من شدة هدوئه أن يكون فاتراً :

— الشباب دائماً يبالغون فى الاهتمام بهذه المسائل . ثق يا أستاذ خورشيد أنه لم تخلق المرأة التى تستحق منك كل هذا العناء فى حبها . الحياة فى مرحلة الشباب سهلة فلا تدعها تتعقد وتشق عليك ، واغنم متاع الشباب قبل أن يفوت الأوان . . .

ولما رآنى أنصرف عنه إلى المعزف قطع الحديث على الفور . وقد ظن أننى لا أكترث لإحساساته العنيفة المضطربة . ولم يخطر بباله أننى أحتمى منه حتى لا تذكى نيرانه أوار نيرانى .

وكان له من الكبرياء ما اعتصم به وهو يصفر صفيراً خافتاً . ثم لم يلبث أن سكت وسمعت صوته خافتاً جداً وهو يتمشى خلفى فى الحجرة : « معك حق يا مدام أميرة . . . » وسكت قليلا ثم أعقب وهو يقف متكئاً إلى المائدة الصغيرة : « . . . إن الحياة فعلا سهلة كما تقولين . . . لمن لا يعانيها ! »

وسقطت الكلمة الأخيرة كاللطمة على وجهى . ليته يدرى !

ثم بصوت أعلى قليلا . بصوت أجش رصين واضح : « أسمعينى يا مدام أميرة آخر تمرين وصلنا إليه ، فإننى فى شوق إلى سماعك . . . »

٢٢

كم كنت قاسية فى الأسابيع الأخيرة . قاسية على نفسى .

لم يكن خورشيد أول رجل رأيته يتعلق بى . فالمغامرات الصغيرة — على حد تعبير عونى — عنصر جوهرى فى حياتى . له حيز صغير جداً حقاً ولكنه جوهرى . يرضى غرورى ويجدد إقبالى على الحياة كلما استشعرت الملالة من رتابتها . ولكن ما إن أرى هذا العنصر يتضخم ويهم أن يسيطر على حتى أقلب له ظهر المجن لأنى لا أتصور لإنسان سيطرة على شخصى . ولم يكن يكلفنى التحكم فى الموقف شيئاً من العنف . لأن كل لذتى التى أجنيها من المغامرة هى الشعور بأن الفريسة وقعت فى الشرك . أما الافتراس والالتهام فلم يكونا من همى . حسبى أن أشعر أنى مرغوبة مطلوبة . أما أنا فلا رغبة عندى فى أحد وبذلك تنتهى اللعبة من حيث بدأت . وأتربص لألعوبة جديدة والشيطان الخبيث العابث البرىء من الآثام يرقص ويصفق طرباً فى أعماقى .

أما خورشيد فكان الأمر معه على العكس . تفجرت له فى قلبى ينابيع الرقة والرحمة والأمومة .

ولماذا أكذب ؟ لقد أحببته حبًّا ممتزجاً بشعور الأمومة . ولأول مرة فى حياتى أحسست حبًّا من هذا النوع ، هو مزيج غريب مثير من الحب ومن الحنان ومن اللوعة لمرأى طفل كبير يتألم . . .

ولعلنى لو لم أكن جربت الأمومة وفقدت طفلى ما كان شعورى الدافق حيال خورشيد ليخلو تماماً من الأنانية وحب التسلط والكبرياء ، وهى الصفات التى كانت تلون إحساساتى دائماً حيال أى رجل .

ووطنت نفسى على ترويض تلك العاطفة التى لم يستثرها فى نفسى شيطانى العابث . كان الأمر جداً لا هزل فيه ولا عبث . كان أقوى منى . سيطر علىّ ولم تعد لى عليه سيطرة . واضطررت أن أقسو على نفسى كى أخنق صوت تلك العاطفة حتى لا أتسبب فى تعاسته وقد صار عزيزاً جداً على نفسى .

وزاد من إعزازى وتلهف قلبى عليه أنه لم يشر فى تلك الأسابيع التالية إلى موضوع حبه من قريب أو بعيد . وازداد رجولة فى نظرى . وتألمت قليلا لنفسى . ولكنى سررت له لأنه أسقط من حياته ما كنت أخافه عليه وخنق عاطفة لن تعقب له إلا مرارة الفشل والحسرة .

وهكذا انقضت أيام تقرب من خمسة أسابيع . وفى ذات يوم قال وهو يقلب عينيه بين المعزف ووجهى . وأصابعه تتحسس المفاتيح البيضاء فى لمسات متتابعة وابتسامة خفيفة تتأرجح بين شفتيه : « كم فى الحياة حقاً من أعاجيب . . . ! »

والتفت إليه أستفسره فاستطرد : « لست أدرى لماذا تصر والدتى فى هذه الأيام على تزويجى . . . »

فكأنما ألقى بحجر ضخم فوق صدرى . وضاقت أنفاسى ، كأنما تقلصت قصبتى الهوائية تقلصاً شديداً مفاجئاً . ولكننى قلت وأنا أرسم

ابتسامة مغتصبة بلهاء على شفتى « هكذا ؟ عجيب حقاً ! »

فأجابنى وهو يهز رأسه ضاحكاً : وتصر أيضاً على أن أتزوج العروس التى اختارتهالى بنفسها كأن الزمن يرجع بنا إلى الوراء، وتقدمنا تحصيل حاصل .

فقلت أستزيده : « ألم ترها قط ؟ » فقال :

— أن يتزوج الشاب هكذا بمجرد أن يعجبه مظهر فتاة . لو كان الأمر كذلك لكان من الواجب أن أتزوج كل نساء العالم . فالنساء أحب ما خلقه الله على الأرض . وأنا أغتفر للدنيا كل شىء فى مقابل ذلك الكائن الجميل : المرأة !

فأزعجتنى كلماته وقلت أستوضحه : « هل كل النساء لديك سواء ؟ »

فقال ونظراته لا تخلو من خبث : « كلهن ! ولو كان الأمر بيدى لحصلت عليهن جميعاً » .

وشعرت بما فى كلماته من تحد يريد به إثارتى فاعتصمت بكبر يائى وقلت :

— ولماذا تتزوج إذن وتشقى بنات الناس ؟ عش كما تريد ولا ضرورة لهذا القيد الذى تغل به إلى عنقك فتاة من عشرات أو مئات كلهن لديك سواء .

فقال بلهجة الجد شأن من يصدر فى قراره عن روية : « وهذا ما قررته بينى وبين نفسى فعلا . أما والدتى فهى ككل أم تريد أن تفرح بابنها . والحقيقة أننى لا أدرى ما سر فرح الأم بزواج ابنها مع

أنها تصبح بعد الزواج هي وامرأته عدوتين لدودتين » .

فقلت متضاحكة : « ليس الأمر إلى هذا الحد . فهناك من الأمهات من تعد زوجة ابنها كابنتها تماماً . ولا تقتضى المسألة سوى أن تتنازل كل منهما عن بعض حريتها وحقوقها للأخرى » .

وفطن إلى وطأة الحديث على نفسي فكان من اللباقة بحيث حول دفته على الفور قائلا : « أتدرين يا مدام أميرة أن هذه الفتاة ثرية جداً وأنها على أتم استعداد كي تؤسس لى معهداً خاصاً بى . وتؤثث لى بيتاً كاملا وتضع تحت تصرفى كل ما تملكه من عقار؟ »

فقلت أجاريه : « مرحى مرحى ... ومن الذى يرفض هذه النعمة السابغة التى هبطت عليه جزافاً إلا إنسان جحود ؟ »

فقال بخبث : « ومن قال لك إننى لست جحوداً ؟ »

فقلت متصنعة الجد : « لست أدرى . ولكن يخيل إلىّ أنك إنسان على خلق . له مبادئ » فنظر إلىّ باهتمام وقال : « وهل تتعارض المبادئ مع رفض هذه النعمة — على حد قولك — أم أنها تحتم ذلك الرفض ؟ »

فقلت وقد أحسست أننى أخطأت الحكم عليه : « ولكن لماذا تظلمها؟ لعلها رأتك وأحبتك وأنت لا تدرى . ولذا فهى مستعدة للتنازل عن كل شيء فى سبيل الزواج منك ؟ »

فهز كتفيه فى استهانة ثم قال : « تحبنى ؟ وما الفائدة من ذلك وأنا لا أشعر بوجودها . ثم أنا لا أومن بأن الوجد والهيام يهبطان على الإنسان

بمجرد أن يرى الشخص مرة أو مرتين . فهذا أمر يستدعى التفكير الطويل » .

فقلت بجد تام : « ولم لا ؟ كثيراً ما يحدث للإنسان أن يخر صريعاً بضربة حب مفاجئة من أول نظرة . . . » .

فشرد بصره طويلا ثم قال بتؤدة : « أنا لا أومن مطلقاً بهذا النوع من الحب » .

فقلت أستحثه : « بأى نوع من الحب تؤمن أنت إذن ؟ »

فأجابنى وعيناه تنظران إلى ركن الغرفة البعيد : « أومن بهذا الحب الذى يأتى بعد تفاهم فكرى وعقلى واختبار كل من الطرفين لصاحبه إلى أن يستولى على النفس إحساس طاغ بأن لا غنى لأحدهما عن الآخر » .

فقلت فى يأس : « وكيف يكون هذا الاختلاط وتقاليدنا لاتسمح به ؟ » .

فأجابنى فى تصميم أعرفه جيداً فى نبرات صوته : « لا أدرى ! . . . . وأنا لن أتزوج إلا على هذا الأساس . . . لن أتزوج فتاة أشعر أنها أغنى منى وتعتقد أنها تملك أن تشترينى بمالها . فهذا مسلك معيب لن أستطيع أن أغتفره لنفسى » .

وأحسست بالزهو يملأ نفسى لكلمات هذا الفتى التى تفيض نضوجاً ورجولة . وغمرنى شعور سعيد بالراحة لأنه رفض ذلك الزواج المغرى . فهو يأبى أن يكون ضئيلا . وخلوه من سيطرة امرأة أخرى عليه

يملؤنى طمأنينة وأمناً ، كأنما هو ملك خالص لى لا أريد أن تشاركنى فيه امرأة . وهو شعور ينتابنى دائماً كلما أعجبت بشخص حتى إننى أغار من مجرد نظرته إلى غيرى .

٢٣

ومرت الأيام متباطئة لا يتخللها جديد . ولم يعد خورشيد يشير إلى أى شيء مما يعتمل فى أعماقه . وإنما هو الدرس فقط . ولا بأس ببعض كلمات أو نكات تعترض السكون بين كل مقطوعة وأخرى كنا نضحك على أثرها ضحكاً متكلفاً فاتراً كأنما أسدل نقاب شفاف بيننا فقصل كلامنا عن صاحبه ووضعه فى مكان معين ليس له أن يعدوه .

وبدأ السأم يتسلل إلى نفسى . فأنا لا أستطيع الركون إلى الهدوء ، والحياة الرتيبة تقتل حساسيتى وتسلمنى إلى الضجر والهمود . . .

وعدت إلى التطلع إلى بائع العاديات . وقد لقيته فى بعض الطريق فتهلل وجه الرجل بشراً يسألنى لماذا أعرضت عنه طويلا . وجعلت يداه تعرضان بضاعته على ولسانه لا يكف عن إطرائها . ثم عبثت أصابعه بمنديل أخرجه من قب ثوبه وأخذ يعالج فتحه فى تباطؤ ليستخرج من طياته سواراً من الفضة الرخيصة المنقوشة على الطريقة الهندية ، مدخلا فى روعى أنه كان يحتفظ لى به فى حرز حريز برغم شدة الإقبال على طرازه . فقلت له فى مكر : « ولماذا أتعبت نفسك بإخفائه

ولم تعرضه عليّ ؟ »

فنظر لى نظرة حصيف يعرف خفايا النفوس وقال :

ــ كنت أراك معرضة عنى . قرأت ذلك فى وجهك . ولكن لم يكن فى وسعى أن أتخطاك إلى عميلة أخرى إلا إذا تأكدت تماماً من زهدك فى بضاعتى زهداً نهائياً . . .

وكنت أنظر إلى السوار بعين ملول ، وأصابعى تعبث بالأقراط الزجاجية والخواتم الفضية والعقود الملونة . ورنت كلمات البائع فى وجدانى السأمان .

إنه لا يمكن أن يتخطانى إلا إذا أيقن من زهدى فى بضاعته .

هل أحس خورشيد منى زهداً فيه فتخطانى إلى أخرى تقدره قدره؟

ومن ذا قال إننى لا أقدره ؟ أليس حسبه ما بيننا من وشائج الألفة والصفاء فيتطلع أيضاً إلى الوجه الآخر من الحياة ؟

ويحى من متحكمة أنانية ! أأريد له أن ينقطع لى وحدى وهو لا يدرى من شعورى نحوه إلا أنه شخص عادى ليس له فى قاموس حياتى إلا النظرة اللطيفة والبسمة العابرة ؟ وأنا أمرح كما يحلو لى بين زوج يعشقنى ويهيئ لى كل ما تصبو إليه نفس امرأة ،وأصدقاء يخطبون ودى . . . . فهل وصل بى الجشع إلى الحد الذى أربط معه شاباً كهذا فى باكورة شبابه إلى عجلة حياتى وأطالبه بالعزوف عن كل مباهج الحياة متناسياً حيويته فى سبيل نظرة تعطف أسبغها عليه كلما

عنّ لى ذلك ؟ ولكن ماذنبى أنا ، وأنا لا أستطيع أن أعطيه من نفسى أكثر من الحنين المشفوع بالإقبال والتودد والمشاركة الوجدانية فى كل ما يتصل به من أمور الحياة ؟

ومع هذا فهل يمكن أن يقنع بذلك الحنين الودود شاب مثله يرى فىّ مناط آماله وأحلامه ؟ إذا كنت وأنا المرأة المتزوجة التى تنعم بكل ما تصبو إليه امرأة فى كنف زوج أريده خالصاً لى بدون ارتباط من جهتى وبدون مقابل ، فكيف أعيب عليه وهو الوحيد فى الحياة أن يملأ فراغ عمره بسناء أخريات ولو ليشبع غريزة رجولته المعطلة ؟ أم هل سيتنسك فى محرابى وينسى العالم وما فيه مكتفياً بالتطلع إلى محياى ؟ . . .

. . . وأحنقتنى هذه المجادلات العقيمة الناشبة فى أعماقى ، وأيقظت كوامن الغيرة فى نفسى فجعلت أعبث فى غل بالعاديات ثم كومت منها كومة من الأقراط الزجاجية والأساور والعقود كنت أعلم جيداً أننى لن ألبسها ؛ ثم نقدت الرجل المذهول الثمن الذى طلبه بغير مساومة ووضعتها فى حقيبتى وانصرفت .

وكأنما كانت نفسى اللوامة لى بالمرصاد :

— لك أن تمتلكى من هذه الجمادات ما شئت . فلن يضيرها أن تهمليها أو تستخدميها . . . . أما البشر فشىء آخر . إنهم لايصلحون أدوات تسلية ومطايا للأهواء والنزوات . . . هذا ما يجب أن تتورع عنه على الأقل امرأة مثلك تزعم أن لها قلباً حانياً . . .

وتطلعت إلى ساعتى فى غيظ . فإذا الساعة قد قاربت الواحدة .

واليوم الأحد يوم عطلة المعهد . وزوجي سيحضر بعد ساعة تقريباً لملاقاتي في المشرب القريب لنتناول طعام الغداء هناك مع صديق .

وشعرت بملل شديد جعلني أضيق بمرأى كل إنسان . . . حتى زوجي . وكنت قد سمعت يوماً ما من أحد الأصدقاء أن رغبة الإنسان تتحقق فوراً إذا ما أحس في أعماقه بالتعطش لرؤية إنسان وتمنى مخلصاً لورآه . فهل يصدق هذا الزعم وتتحقق رغبتي الآن فأرى خورشيد أمامي . . . ليتها تتحقق !

ومرت دقائق ولم تتحقق رغبتي . ولم أر خورشيد بقامته الفارهة ووجهه الطفلي مقبلا على حيث جلست واجمة في ركن المطعم ، وأمامي زوجي يتحدث بلا انقطاع ولا يفطن إلى الصديق وهو ينظر إلى بعينيه المنبعجتين نظرات هيام صريح . . .

وبدأت أنظر إليه في فضول ممزوج بالدهشة كأنما أراه لأول مرة على حقيقته . فإذا ملامح غريبة التكوين سوقية في مجموعها أقرب ما تكون إلى ملامح حمال في محطة من محطات الأرياف !

يا إلهي : أكان حقًّا هذا الصديق في يوم من الأيام صاحب حظوة عندي حتى اتخذته بطلا لإحدى مغامراتي القديمة ؟ ما الذي استهواني فيه حتى صنعت منه بطلا ؟ إن زوجي على حق فعلا إذ كان يقول لي كلما فطن لاهتمامي بالاستيلاء على شخص من هؤلاء : « كم لك من غرائب يا امرأة ! لك غرام بجميع الطرائف من الأشياء والأشخاص. ولكن ما الذي يعجبك في هذا الشخص ؟ أنا أفهم اهتمامك بجمع التماثيل

ولكن هذا يا امرأة ليس تمثالا . إنه قالب طوب متخلف من أنقاض بيت ! »

ثم كان يراجع نفسه ويقول فى هدوء كأنه يحاضر فى فلسفة التاريخ عن امرأة كانت تعيش فى العصر البيزنطى مثلا وليس له بها أدنى علاقة شخصية : « . . . ولكن لابد يا امرأة أنك أنست فى هذا المخلوق شيئاً غريباً . فأنت لا تهتمين بالمنظر بل بما فى الداخل وتقفين عنده لتنبشيه وتتشمميه ! ومتى وجدته خاوياً كالعدم زهدت فيه وطرحته وراء ظهرك بغير مبالاة ! إنهم فى نظرك ليسوا بشراً ، بل ولا ذكوراً ... مجرد حفريات ! ».

وأخشى أن يكون على حق كل الحق . فأنا لم أجد فى حفرياتى حتى الآن المخلوق الذى يستهوينى ويقنع وجدانى بأنه رجل . فلم أصادف فى حياتى من آمنت برجولته واطمأننت إليها سوى عونى . كأنه صنع خصيصاً لى . وكأن الله الذى سوانى كان يعرف سلفاً مبلغ حاجتى إليه كى أعيش فحرص على أن يخلقه على صورته المعينة هذه قبل أن يخلقنى بسنوات ، وقال له كن لأميرة فكان ! إنه زوج « مريح » للغاية . . .

ونظرت إليه وهو يتكلم فى ذلاقة وذكاء ثم شعرت بالملل . . . ملالة البطر . فقرصنى الرقيب الرابض فى داخلى قرصة موجعة :

— أنت امرأة كلها متناقضات ! كيف تؤكدين أنه الرجل الوحيد فى حياتك ثم تسلكين هذا المسلك المعيب مع كل من تأنسين فيه لمحة

أو بارقة تستهويك ؟ أفلا تقدرين مبلغ ما فى سلوكك هذا من غبن وإيذاء للرجل الذى أحبك وترك لك حريتك كاملة ؟

وهزت نفسى الخبيثة كتفيها وقالت بتأفف :

— كفى اتزاناً أبله ! إنه زوج مريح جداً . ولكن أمالك عينان تبصرين بهما أنه مامن امرأة تقتنى زوجاً مريحاً للغاية حين تشترى أحذيتها! أين هى المرأة التى تستطيب الراحة الكاملة ؟ إنها لن تحس بوجودها إلا حينما يكبلها شىء من الأشياء ، فتثبت نفسها بأن تتحدى القيد وتنطلق به كأنه غير موجود ! المرأة — أيها الحصيف — تجد نفسها فى هذه المعاناة ، وتفقد نفسها حين تخلو حياتها من شىء تعانيه .

— أتريدين أن تستبدلى به إذن ؟

— يا أحمق ؟ لابد لقميص النوم والخف أن يكونا مريحين . هذان فقط تستحب فيهما الراحة . ولا غناء عنهما . . ولكن المرأة لابد لها أن تتبرج . ولا غناء لها حين تتبرج . . .

— مفهوم ! . . . لابد لها أن تقتحم المتاعب ، ولا تتحرج !

٢٤

قال خورشيد وقد أوشك الدرس على الانتهاء وعيناه تحملقان فى ساعة معصمه : « يا إلهى ! كيف انتهى الدرس بهذه السرعة دون أن ندرى ؟ من لى بالهرب الآن من المعهد مختلقاً أى عذر كى أتخلص

من الشيكولاتة ! »

فنظرت إليه بدهشة وما زالت كلماته المختلطة ترن فى أذنى عن دهشته لانتهاء درسى بسرعة ، وقلت : « وهل يهرب الناس من الشيكولاتة ؟ اللهم إلا إذا كانت شيكولاتة مسهلة ! »

ولم يضحك بل غطت وجهه سحابة من الضيق وأشار بيده قائلا :

« ألعن والله من المسهل إنها محنة وعسر لا سهولة فيها ! »

فتعجبت لكلماته وقلت أستوضحه : « وكيف ذلك ؟ »

فتنهد وقال : « الدرس الذى يتلو درسك مباشرة مخصص منذ مدة وجيزة لفتاة فى التاسعة عشرة أو العشرين . لا أدرى بالضبط . ولم أشعر فى حياتى بثقل ظل إنسان كما شعرت بثقل ظل هذه الفتاة . ومع أننى شديد الولع بالنساء ، إلا أن هذه الفتاة تضجرنى بحيث أشعر أننى مقبل على سجن .

ما من مرة تأتى هذه الفتاة إلا وتحضر لى معها قطعة كبيرة جدًّا من الشيكولاتة . وفى كل مرة أحاول أن أرفض فتطرق برأسها إلى الأرض وتتساقط الدموع من عينيها . فأحس بغيظ ممزوج بالشفقة . ثم لا تلبث الشفقة أن تتغلب على الغيظ فآخذ منها الشيكولاتة لأضع حدًّا لهذا الموقف المائع !

فأيقنت أنه من ذلك الصنف من الرجال الذى ترغب نفسه عن المرأة المتدلهة فى حبه . وحمدت الله فى سرى لأننى وقفت منه باستمرار موقفاً جادًّا . فحتى لو أيقنت من حبى له لما أفصحت له عن هذا

الحب إلا بعد أن أتأكد من تدلهه فى حبى !

وطردت هذه الأفكار المتسللة وابتسمت ابتسامة ماكرة وأنا أقول :

— تباً لكم أيها الرجال ! إذا أشعرتكم المرأة أنها تفنى فى حبكم أغضيتم عنها وتهكمتم بها واحتقرتموها وبذلتم كل ما فى وسعكم للهرب منها وأذقتموها مرارة الصد والهجر . أما المترفعة المتدللة التى تشقيكم بحبها فلها عندكم المكانة والحظوة . . .

فنظر إلىّ نظرة ذات مغزى وقال : « لا تكونى قاسية إلى هذا الحد يا مدام أميرة . ما الحب إن لم يكن تقارباً فى المشارب والأهواء قبل كل شىء ؟ »

فسألته متباهلة : وما قولك فى أن الحب لا يمكن أن يكون من طرف واحد . ولابد أن يستثير الحب الحب ! »

فأشرقت أساريره وقال : « إذا كان الأمر كما تقولين ، فيالها من بشارة تبعث الأمل وتضىء ظلمات حياتى ! »

فخفق قلبى وقلت متضاحكة بخبث : « أتعنى أنه سيأتى اليوم الذى تبادلها فيه عاطفتها وتتخلص من هذا الحرج المضنى الذى تعانيه الآن أمام كل قطعة شيكولاتة ؟ »

فأجابنى متخابثا كذلك : « ربما . ولم لا ؟ »

وعادت الحياة المشرقة من جديد إلى درس البيانو . وأحسست رغبة غلابة فى إيقاظ الوتر النائم . وقد زادتنى قصة الشيكولاتة تشبثاً بالتيقن من مكانتى عنده . وتحركت عوامل الغيرة تنهش قلبى من

مجرد إحساسى أن هناك من يمكن — ولو على احتمال ضعيف — أن تنتزعه منى : « إن معظم النار تأتى من مستصغر الشرر . وقد يكون شعورك نحوها الآن شعور الضيق والسأم . ثم ينقلب ذلك إلى حب قوى . . . »

فثبت عينيه فى عينى وقال : « وكيف يكون ذلك وأنا أكرهها ؟ »

فقلت بتؤدة :

— ستألفها بعد أن تتعود وجودها كل يوم . ثم تفتقد درسها وتدللها وشيكولاتتها إن غابت أو تخلفت يوماً . . . ثم يقع المحظور !

فزفر زفرة طويلة وقال : « لك منطق عجيب فى تكييف العواطف يا مدام أميرة . منطق أنا على يقين من أنك لا تؤمنين به بل تلقينه هكذا جزافاً . . . »

فثبت عينى فى عينيه وقلت فى تحد : « وما الذى يجبرك على أخذ الشيكولاتة منها إن كنت حقًّا لا تميل إليها » ؟

فقال بيأس زاد وجهه طفولة : « قلت لك مراراً إن فىّ ضعفاً شديداً من جهة النساء . وإن قلبى لا يطاوعنى على إيلامها . بيد أنى فى الوقت نفسه أريد أن أفهمها بجلاء أننى لا أشعر بأدنى ميل إليها . ولكن بطريقة لا تجرح شعورها . فهى على كل حال فتاة مسكينة . . . »

فهززت رأسى وقلت : « أرأيت ؟ إن الحنان هو الباب الذى يتسرب منه الحب . والفتاة تعلم أنك ذو قلب طيب . ولهذا تتصنع الحزن والألم والبكاء إلى أن ترق لها فتسيطر عليك ثم تتحكم فيك ! »

وشعرت بوخز وأنا أتصوره فى شباك فتاة أحبها وصرفته عنى :

وصاح ذلك المتربص فى أعماقى :

— وما الذى يضيرك أيتها البلهاء؟ أليس الأفضل له أن يحب فتاة طيبة تسعده وتعفيه من التمرغ كل ليلة فى أحضان نساء مبتذلات ؟

— ومن قال إنه يتمرغ فى أحضان النساء المبتذلات أو غير المبتذلات ؟إنه عف النفس لا يمكن أن يفكر فى السقوط !

— أخيل إليك حقاً أنه يعيش داخل إطار من صورتك الموهومة؟

— كلا بالطبع . ولكنى أعتقد أنه يتصرف بحكمة ولاينغمس فى الموبقات . . . .

— وماذا لو أحب وترك كل هذا العناء ؟

— كلا . إننى أفضل أن يعيش كما هو ولا يحب أحداً . لأن صورتى ستظل مسيطرة على حياته ما دامت حياته خالية من امرأة معينة تشغل باله . . .

وسمعت صوت خورشيد كأنما ينبعث من أعماقى : « ولو فرضنا أن رأيك كان صحيحاً . فأنا لن أتورط فى عاطفة لا أريدها باختيارى . فسوف أطلب إلى المدير أن يعفينى من درسها بعد أن أوضح له الموقف . . . »

وشعرت بخدر لذيذ يسرى فى أوصالى ، كذلك الذى يستشعره الإنسان بعد شوط طويل من العدو . وقلت من غير أن تنفرج شفتاى عن شىء سوى ابتسامة غامضة : « خورشيد لم يزل خالصاً لى وحدى . . . لم تشغل قلبه امرأة أخرى » .

٢٥

ـــ مدام أميرة . مدام أميرة !

وتلفت إلى الخلف وأنا أخطو إلى حجرة الموسيقى فرأيت المدير يقفز من مكانه ويتدحرج على الأرض بقامته المفرطة فى القصر وصلعته اللامعة ، ثم يقف قبالتى وينحنى مسلماً فى أدب شديد ويقول :

ـــ لا أدرى ما الذى أخر الأستاذ خورشيد اليوم . هذه أول مرة فى حياته يتخلف فيها عن الحضور من غير اعتذار ولو عن طريق التليفون . وكان المفروض أن يكون هنا منذ ساعة على الأقل لأن لديه درساً قبل درسك .

وكان هذا الرجل الضاحك الذى لم أره عابساً قط فى حالة من الكرب لم أرلها نظيراً . فسحنته مربدة وعينه تغمز بلا انقطاع . وهو غير مستقر فى وقفته ، وبين لحظة وأخرى ينظر إلى السلم فى قلق ظاهر .

وكأنما سرت منه إلى عدوى القلق فسألته : « ألم تتصل به تليفونياً » .

فقال ووجهه يزداد توتراً : « اتصلت ببيته منذ نصف الساعة فأخبرتنى والدته أنه خرج فى موعده المعتاد كل صباح . وسألتنى بدهشة ولهفة كيف لم يصل بعد ، فطمأنتها طبعاً وقلت لها لعل المواصلات

حالت بينه وبين الوصول فى موعده . وطلبت منى المسكينة أن أجعله يتصل بها بمجرد وصوله . ولا أدرى ماذا أفعل الآن ؟ »

فأجبته لأخفف عنه وطأة القلق : « لعل المواصلات فعلا هى التى عاقته . فكثيراً ما يقف الترام فى مكان لا يوجد به تليفون » .

فصاح الرجل فى ضيق واضح : كيف ذلك يا مدام أميرة وله الآن ساعتان فى الطريق وهو يخرج قبل موعد الدرس بساعة على الأقل ليضمن الوصول فى الوقت المناسب » . فبدأ شعور الأمومة يندلع فى كيانى حتى غطى على كل اعتبار آخر : « وما العمل الآن يا مسيو إلياس ؟ »

فعبثت أصابعه بالسماعة الدقيقة التى يستعين بها على عاهته وقال : « أخوف ما أخافه أن تتصل بى والدته الآن مرة ثانية فلا أدرى بماذا أجيبها ؟ أخشى أن تموت المسكينة من القلق والفزع .لا أدرى كيف أتصرف يامدام أميرة . لم يحدث من قبل أن تركنى فى مأزق كهذا منذ عمل معى ، لماذا فعلت ذلك يا خورشيد ؟ ! »

وتفرست فى وجه الرجل فإذا وجه أب ملتاع . وتحركت عواطفى نحو هذا الإنسان الذى كنت أهزأ به وأتجنبه فإذا هو قلب كبير ونفس صافية . وأكبرت فيه هذا الشعور الحانى .

وفجأة شق السكون الذى خيم علينا رنين جرس التليفون فانتفض المسيو إلياس من مكانه وهو يصيح :

— ماذا أصنع ؟ وبماذا أجيبها ؟

وتسمرت رجلاى فى الأرض والتصق لسانى بحلقى . فالموقف لا يسمح بالمغالطة . والأم تريد أن تعرف مصير ابنها . وهو لا يدرى من أمره شيئاً . . . وسمعته يجيب بآخر ما كان يخطر ببالى من كلمات :

— كيف ؟ . . . أين ؟ . . . وكيف حاله الآن ؟

يا إلهى ! هل أصابه مكروه ؟

وغامت الدنيا فى عينى وأحسست بالكائنات تدور من حولى ورجلى لا تقويان على حملى . هل إصابته خطيرة ؟ كلا يارب ! لا تدعه يموت ! واستندت إلى الحائط وأنا أحملق فى ظهر المدير الذى كأنما أحس بما أعانيه فالتفت ناحيتى وأشار بيده ليطمئننى وسمعته يقول : « دعيه يكلمنى من فضلك . . . »

وأخرجنى من اضطرابى صوت المدير : « الحمد لله على سلامتك . . . خذ حظك الكامل من الراحة وعد إلينا بخير وصحة وعافية . . . »

ووضع الرجل المسماع ثم استدار نحوى : « لقد أغمى على المسكين وهو فى الأتوبيس فأخذوه إلى أقرب صيدلية . وتطوع طبيب فأعطاه حقنة مقوية ولبث هناك فترة ثم ركب سيارة أجرة إلى البيت . . . وقد أعرب عن أسفه الشديد لتجشمك الحضور اليوم على غير طائل » .

فقلت فى دهشة شديدة :

— وهل من المعتاد أن يحدث له هذا الإغماء ؟

— كلا . لم يقع له مثل هذا الحادث من قبل وأعتقد أن سببه شدة الإرهاق . فهو يرهق نفسه بالعمل كثيراً فى هذه الأيام . وكلما حذرته

هز كتفيه مستهيناً كأنه يعتقد أن صحته من حديد . . .

وهز الشيخ كتفيه ثم ومضت فى عينه نظرة التواطؤ وقال :

ـ شباب يا هانم . . . شباب يا مدام أميرة !

وافتر فمه عن أسنان صفراء نخرها السوس . . .

ولم يبق أمامى إلا الانصراف . وبعد أن خطوت خطوتين نحو السلم عدت فجأة لأسأله : « هل من المنتظر أن يتمكن الأستاذ خورشيد من الحضور غداً ؟ »

فتفرس فى وجهى قليلا . ولا أدرى لماذا شعرت بالخجل تحت وقع نظراته . لعله الشوق الذى كنت أكابده وتلهفى على رؤية خورشيد بأسرع وقت . بيد أنى استطعت أن أسدل على وجهى القناع المعهود من عدم المبالاة ، وأخيراً قال المدير فى شرود : « الحق أننى لا أدرى يا مداد أميرة . ولكنى سأذهب على كل حال لزيارته فى المساء وسأتصل بك غداً صباحاً فى نحو الساعة التاسعة . . . »

فهززت رأسى وقلت وأنا فى طريقى إلى السلم :

ـ أرجو أن تبلغه سلامى وتمنياتى له بالشفاء العاجل . . .

وكانت سيارتى فى ذلك اليوم عند الميكانيكى فتوجهت إلى البيت سيراً على قدمى . والأفكار السوداء تناوشنى من كل جانب . وكأننى أمشى فى صحراء قاحلة ليس بها إنسان :

ماذا دهى هذا العملاق الصغير الذى كان يشع صحة وحيوية وبهاء ؟ وما إرهاق العمل بالنسبة لشاب مثله فى ريعان شبابه ؟ وهل التعب هو

الذى هد كيانه بهذه الصورة ؟ مستحيل ! . . .

إننى مجرمة . آثمة أستحق كل عذاب . أستحق الجلد بالسياط . أستحق كل إهانة وازدراء ! لماذا عبثت بهذا القلب البكر؟ لماذا أظهرت له حنانى ولم أدفنه فى أعماقى ؟ لماذا تركت الأمل يتسلل إلى قلبه الغض بدون شفقة أو رحمة ؟ !

يا إلهى ! ماذا أفعل الآن ؟ كيف أتصرف لأعيد إلى عينيه الجميلتين جمال الحياة وأزيل عن قلبه وطأة هذا الشعور المضنى ؟

وارتفع صوت من أعماقى يهدهد أعصابى المتوترة :

— ولماذا تقحمين نفسك فيما أصابه ؟ أليس من الجائز أن يكون الإرهاق هو الذى أدى به فعلا إلى الإغماء ؟ وماذنبك أنت إذا أحبك شاب أو أحبك شباب العالم أجمع ما دام فيك ما يجذبهم إليك ؟

— ليس يعنينى أن يحبنى شباب العالم أجمع أو لا يحبونى . إن الذى يعنينى فقط أن أرى خورشيد سعيداً لا يعذبه شىء . كم يؤلمنى ويحز فى نفسى أنى لم أعد أرى تلك الابتسامة المشرقة والضحكة الرنانة التى كان يطلقها فى مرح وسعادة يوم بدأت الدروس على يديه . إن الموت أهون عندى من أن أراه معذباً بسببى . . .

— أتفضلين أن تريه معذباً بسبب غيرك إذن ؟

— كلا ! لا بسببى ولا بسبب أى إنسان !

— تعنين ولا بسبب أى امرأة . أليس كذلك ؟

— وأين هى التى تستحقه أو تستحق أن يتعذب بسببها ؟ إننى

أريده مرحاً طلقاً متفتحاً للحياة . . .

وقضيت يوماً حزيناً حاولت أن أدارى فيه آلامى عن عونى . ولكن أنّى لى ذلك وعينه اللماحة لا يفوتها شىء .

وسألنى وهو يربت على ظهرى ويرفع ذقنى بإصبعه « لست اليوم على عادتك . ماذا بك ؟ »

فأجبته وأنا أضع يدى على جانبى رأسى : « ليس بى شىء . صداع » .

فظهر على وجهه الاهتمام الشديد شأنه كلما شعر بأى عارض ينتابنى .

– ولماذا خرجت اليوم يا عزيزتى ؟ كان الأفضل أن تلزمى الفراش . أو لعل درس اليوم هو الذى أتعبك ؟

فقلت وأنا أجاهد باستماتة حتى لا يبدو على صوتى أثر من الانفعال الدائر فى أعماقى : « لم أتلق الدرس اليوم . فقد أصيب خورشيد بإغماء وهو فى طريقه إلى المعهد وعاد إلى البيت . . . »

فارتفع حاجباه ارتفاعاً يسيراً جداً وسألنى : « إغماء ؟ لشاب فى سنه ؟ »

وحملق فى وجهى برهة ثم هز رأسه وذهب فجاءنى بقرص من الأسبيرين وكوب ماء . وبعد أن ابتلعت القرص وأفرغت الكوب فى جوفى عاد إلى هز رأسه وقال : « شفاه الله . وشفى كل مريض . . . »

وأحسست وراء كلماته مغزى خفياً ولكنى تغابيت . وسمعته بعد

قليل يتمثل ببيت من الشعر كعادته كلما أثار اهتمامه موقف :

لكل داء دواء يستطب له إلا الحماقة أعيت من يداويها !

فنظرت إليه كالمتسائلة وأنا واثقة مما يعنيه ، فقطب حاجبيه قليلا وهو يمسح على شعرى فى رفق بالغ وقال بصوت لا يبدو فيه أدنى أثر للاكتراث :

ــ إنه شاب عاقل على حداثة سنه . ولا ريب أن شبابه سيتغلب على ما أصابه من علة . فالشباب تعوض قوته كل شىء . إلا الحماقة يا امرأة !

ونظر نظرة تجمع بين التحذير والهزل ، ثم قبل طرف أنفى واحتضننى :

ــ يا أحكم حمقاء ! ما أجملك وأنت تعانين من الصداع !

وقضينا السهرة فى البيت . عونى يقرأ وأنا أحاول أن أقرأ ولكن ذهنى لا يستوعب الكلمات . وأخيراً وضعت حدا لهواجسى وشرودى وتناولت حبة منومة ثم نمت نوماً عميقاً تعكره الأحلام المزعجة المضطربة التى لم أميز منها حرفاً .

وفتحت عينى فى الصباح على تسع دقات من ساعتنا الكبيرة . لابد أن عونى توجه إلى عمله . ودق قلبى دقات متوالية ، فهذا موعدى مع المدير .

ترى هل يحضر اليوم ؟ كيف أصبح ؟

وشق الصمت الرنين الذى انتظره . وتحشرج صوتى وأنا أتكلم فى المسماع . وأتانى صوت المدير :

ــ صباح الخير يا مدام أميرة . . . يؤسفنى أن الأستاذ خورشيد

سيتخلف عن الحضور اليوم أيضاً، فقد أصرت والدته على أن يستجم هذا النهار . ولكنه يؤكد لى أنه سيكون فى المعهد غداً . فنرجو أن نراك .

ووضعت المسماع وتركت يدى مستقرة فوقه فى همود .

يوم آخر سوف لا أراه فيه .

وشعرت بحنين قاهر إلى وجهه . كيف يبدو وقد شاب المرض نضرته ؟ ولماذا لا أطلبه فى بيته وأستفسر عن صحته ؟ . . ورفعت المسماع ولكن يدى جمدت فوق القرص : ماذا عساه يقول ؟ وعلى أى محمل سيأخذ سؤالى عنه ؟ وما الذى سيترتب على هذا السؤال ؟

ووجدتنى على غير عادتى فى ارتجال أفعالى بغير روية . ورحت أفند الموقف وأتخليني أنبش جرحاً فى قلبه كاد يندمل وأحيي أملا كاد يموت. وثارت كبريائى وقد تخيلته يحسبنى أترضاه وقد رأيت انصرافه عنى !

وأخيراً رفعت يدى عن المسماع وكأنها تحمل لثقل المقاومة طناً من الحديد . ودلفت إلى الحمام قبل أن أتراجع عن عزمى وأخضع للحنين المشبوب فى أعماقى ، وتركت للماء البارد أن يهدئ من ثوران دماغى وتأجج دمى . . . .

٢٦

صعدت السلم فى قفزات ثم وقفت برهة قرب نهايته لأسترد أنفاسى وأتمالك جيشان نفسى . وألقيت تحية الصباح على المدير الذى كان

يتصدر البهو وراء المكتب فوقف وأومأ برأسه وأشار بيده إشارة تدل على أنه فى حجرة الموسيقى . . .

ووجدت الباب « مواربا » فدفعته برفق ، وأجلت عينى فى الحجرة ولكنه لم يكن هناك . كان البيانو مفتوحاً وفوقه النوتة التى أتلقن فيها درسى . والحجرة يخيم عليها السكون . وباب الشرفة مقفل . . .

وأفلت منى زمام دقات قلبى . . . . أين هو؟ أين تراه ذهب وأنا أشوق ما أكون للتطلع إلى وجهه . . .

وسمعت الباب يغلق من خلفى برفق فاستدرت بلهفة لم أفطن للسيطرة عليها فكدت أصطدم به . . .

ووجدت يده ممدودة فتلقفتها بيدى الممدودتين معاً ورفعت عينى إلى وجهه فتلاقت أعيننا . وتشابكت كذلك التشابك الوثيق بين أكفنا حتى كادت الأنامل أن تتوشج . وارتجف قلبى للشحوب البادى على جبينه ، لم تذهب به نضرة الابتسامة وتألق السعادة الطاغية فى وميض عينيه .

ــ أنت هنا . . . ؟

خرجت من فمى فى تنهد وفرح . كأنما الكلمات تلقى برأسها على صدره وتمرغ صفحة خديها فى كتفه ونحره لتستيقن من أنه عاد . وأنه . . . هنا . . .

واحمر وجهه احمراراً شديداً . فتنبهت إلى أن الحاجز الشفاف

الذى كان دائماً بيننا قد سقط . انهار. تبخر تحت حرارة لهفتنا على اللقاء .

وجذبت فى رفق يدى من يده . فأطلقهما وتراجعت إلى الخلف فكنت أكثر تمكناً من ملء عينى من قامته ومحياه . ورفت نظراتى على خديه الطفليين اللذين زاد الخجل نمشهما وضوحاً : « الحمد لله على السلامة . . . كيف أنت الآن ؟ »

فجمع قبضتيه وحركهما أمام صدره وقال فى مرح يدارى به خجله اللطيف: « بخير حال . ألف شكر لك » .

ورأيت شفتيه ترتجفان ارتجافاً واضحاً . وتحرك قلبى : أهو ارتجاف الوهن أم ارتجاف الانفعال والجيشان الذى يعانى من كبحه والسيطرة عليه ؟

وبدأت يداى ترتجفان . إلى أين توشك أن تقودنا عزائمنا المنهارة ؟

وحولت نظراتى إلى البيانو . ثم تحركت بسرعة وجلست إليه . وتحرك ببطء وأصابعه تتخلل شعره . وسمعت صوته وهو يحاول أن يدخل فى الإطار الجديد ليقيم سداً أمام دفعات عواطفه المتراقصة على شفتيه :

« طال بنا هجر هذا الصديق . ولكننا سنعوض ما فات . . . »

ورفعت وجهى إليه بابتسامة تجمع بين الموافقة والإعجاب بصموده ولباقته فى تحويل مجرى المشاعر والحديث .

ثم رددت وجهى إلى المفاتيح البيضاء والسوداء . واندفعت أصابعى تعصف بها فى عزف سريع جامح محموم . وكلما زأرت الأنغام العالية المتداخلة

ترددت الذبذبات فى خلايا جسمى الذى أجد مشقة فى إبقائه مستقراً على المقعد الدائرى . . .

وأحسست بيده تلمس كتفى فى رفق فارتجفت كل خلية فى جسمى وتوقفت عن الحركة فى لحظة انتظار وتطلع . والتفت برأسى أواجهه . فإذا ابتسامة هادئة تطل من عينيه فيها تهم وإدراك ومواساة . وفيها أمل وفرح وتطلع :

— رويدك قليلا . . . المعزف يئن تحت أصابعك . خففى عن المسكين . . .

فأحسست إحساس من ضبطت متلبسة . وضحكت لأدارى ارتباكى ، ولكنى فى الوقت نفسه لم أشعر بضيق لأنه أدرك السر ، بل شعرت بارتياح أتاح لى أن أكون أوفى حظاً من الهدوء وأنا أستأنف العزف .

ولاحظت أن أحد المفاتيح لا يعطى النغمة جيداً فاندفع إلى ذهنى على الفور ذلك الوتر الذى سكت تماماً فى معزفى . فرفعت عينى إلى وجهه وقلت : تذكرت الآن شيئاً كنت أنساه فى كل مرة ولا أتذكره إلا بعد أن أعود إلى البيت . . . . أرجو أن تدلنى على رجل تثق به كى يصلح لى مفتاحاً أصابه العطب فى معزفى بالمنزل » .

فنظر إلىّ بجد كمن يستعرض فى ذاكرته من يعرفهم من الصناع ثم قال :

— أتجدين بأساً فى أن أراه أنا أولا . . . . فقد يكون العطب يسيراً أستطيع أن أصلحه بنفسى ؟

— لا أجد بأسا طبعاً . . .

فهز رأسه بأسف وقال :

— ولكن ليس اليوم . فاليوم لدى درس بعد درسك . ولا أظن أنك تستطيعين الانتظار ساعة . أما غداً ، فليس عندى فى الصباح سوى درسك .

فقلت بعدم اكتراث :

— كلا . لا تتعب نفسك اليوم . وأنت لم تزل مجهداً . وغداً لناظره قريب .

فهز رأسه كمن يقول إنك على حق .

وعدت إلى العزف وأنا أهدأ ما أكون نفساً . كان السلام والأمن يشملانى ويشملاه وأنا أعزف وهو يصغى . لا نفكر فى الوقت ولانتمنى شيئاً وراء ذلك الهدوء . أحسست فى تلك اللحظة أنى وصلت إلى ذروة رغائبى ولم تبق لنفسى حاجة تطلبها وراء تلك الطمأنينة المتشحة بأفواف المودة .

وقطع رنين الانتهاء تلك اللحظة المختلسة من صفاء الأبد . فنهضت وأنا أتنهد ومددت له يدى فى استسلام تشوبه حسرة فضغط عليها ضغطة حانية وقال فى صوت واثق مطمئن مستبشر : « إلى غد . . . »

وأجبته وأنا أهز رأسى بصوت أشد استبشاراً « إلى غد . . . »

وهبطت السلم المعتم وأنا أجد مشقة فى تبين موطئ قدمى .



٢٧

وأمام عجلة القيادة وجدت فى نفسى ميلا إلى القفز والنط وعدم الاستقرار والانشغال بهذه الآلة التى تحتاج إلى كل انتباهى . وكدت أنزل . وإن كنت لا أدرى ماذا أصنع وأين أتجه . وحانت منى نظرة إلى مرآة السيارة ، وتطلعت إلى وجهى وعينى . . . ولم أر نفسى بمثل هذا الجمال من قبل . كأننى العروس الصاعدة من البرية مغلفة بأشعة الفجر فى نشيد إنشاد ذلك العاشق الكبير . . . سليمان !

هل كان جميلا هكذا . . سليمان ؟

وأحسست بوجهى يحمر . وضغطت على زر المحرك ، وانطلقت وفى عزمى أن أجوب أطراف الضاحية طويلا قبل أن أعود إلى البيت .

ولم أسر أكثر من مائتى متر ، وعند مفرق الطرق اضطررت للتمهل كى أنحرف إلى اليسار ، فإذا بالسيارة ترتفع فى الهواء من الخلف ، ثم تستقر وكأنها هبطت عن مستواها ولم تعد لها إطارات تخف بها عن سطح الأرض الصلد الذى ارتطمت به . . . وأوقفت المحرك ، وأسرعت فنزلت من السيارة وتلفت أتفحص جانبيها ومؤخرها ، فلم أر بها شيئاً ، ورأيت خلفى سيارة سوداء كبيرة ، وقد نزل منها شابان جعلا ينظران إلى دهشتى ويضحكان فى رقاعة . . . فخطر ببالى أن سيارتهما ارتطمت بسيارتى من الخلف . وصدق حدسى : فقد وجدت المصباحين الخلفيين

الحمراوين مكسورين . . . فصحت أسأل الشابين : لماذا فعلتما ذلك . . . . ؟

فأجاب أحدهما ببرود : « حصل . . . »

وأحسست بدمى يغلى . . . ورأيت الناس يتكاثرون حولنا فى فضول : حادث وفيه سيدة تسوق سيارة ... ورأيت بين المتفرجين قرداتيًّا ، ترك صناعة الاستعراض ووقف مع الناس يستعرضنى . . . وأقبل شرطى المرور يسألنى : « لقد رأيت كل شىء بنفسى ياسيدتى . . . فماذا تطلبين أن أصنع ؟ . . »

وكأنى أدرى ماذا أريده أن يصنع وأنا فى ذلك الموقف مشتتة الذهن . . .

وقطع الشرطى الصمت فطلب من سائق السيارة السوداء رخصة القيادة . وأخذ رخصتى . . وبدأت أفكر بشىء من الترتيب الذهنى : ما نتيجة الذهاب إلى مركز الشرطة سوى استمرار الموقف السخيف والاحتكاك بمزيد من السخافات فى هذا النهار الجميل . . .

فليذهبا إلى الشيطان وليتركا لى يومى السعيد . . .

وقلت للشرطى إننى أريد الانصراف ، « أستعيض » الله فى التلف . وجلست أمام عجلة القيادة ، وضغطت على زر المحرك ، ولكنه أبى أن يتحرك . وبدأ « شياطين الشارع » يتنادون : « زقة للنبى يا جدعان » . . . . !

فاستشاط غضبى وصرخت أنهاهم عن « الزق » . فما أسخف

هذا، وتقدم شاب يعرض على فحص السيارة. وأوشكت أن أنهاه أيضاً فى غيظ شديد، وأنا أحاول تذكر رقم تليفون الميكانيكى . . . ، وإذا صوت ينادى اسمى : ماذا حدث يا مدام أميرة ؟ . . . .

ونظرت وأنا أكذب أذنى . . . . إنه خورشيد !

وشرحت له الموقف فى كلمات . فطلب منى أن أتنحى عن عجلة القيادة . . ثم جلس مكانى . وفى براعة استطاع أن يدير المحرك الذى كان البنزين قد « هرب » منه لوقوفى المفاجئ ، فلما ضغط على المضخة بقدمه جملة مرات ، انسابت السيارة وسط تهليل « شياطين الشارع » .

وهز خورشيد رأسه ، وهو ينظر نحوى باسماً : « أولاد حرام . . . »

ورأى الاضطراب الشديد من أثر الموقف مرتسماً على وجهى ، وأصابعى ترتعد من الغيظ . . . وانطلق السباب من فمى . . . . فابتسم ابتسامة مهونة رفهت عنى ، وقلت له : « لا أدرى ماذا كنت صانعة لولاك . . . ولكن كيف رأيتنى ؟ . . . »

فمد يده وربت على ركبتى . . . ولم أتنبه لتلك الحركة فى حينها . لأنها بدرت منه بصورة طبيعية جداً ، وهو يقول بصوت دافق بالحنان الصادق : « اهدئى . لقد انتهى كل شىء بسلام . . . لم تحضر صاحبتنا فتاة الشيكولاتة . . ظنتنى مريضاً ، فنزلت لأركب الترام من المحطة عند مفرق الطرق . . . ورأيت الزحام ، فجئت أستطلع الأمر ، ورأيتك يا مدام أميرة . . . »

وتمهل فى قيادته قليلا، ثم استطرد ويده على ركبتى برفق شديد:

« أراك مضطربة . لا أظن من المستحسن أن تقودى بنفسك . دليني على الطريق وأنا أذهب بك إلى البيت ، وننتهز الفرصة فأصلح البيانو . . أظنه بيانو صاحب كرامات ، صنع كل هذا كى لا يبقى يوماً آخر بغير إصلاح ! »

فضحكت من كل قلبى وقلت وأنا أتطلع إلى وجهه الطلق :

« أمصمم أنت على إصلاحه اليوم ؟ . . ألا تشعر بتعب ؟ »

فضحكت عيناه وهو يكسر جفنيه فى نظرة عتاب وقال : « لم أعد أشعر بأدنى تعب يا مدام أميرة . . . »

وضحكت . . . واحمر وجهى قليلا ولم أستطع أن أتكلم . . كنت فرحانة . . . وأشرت إلى الطريق ، وانطلقنا نحو البيت .

ودخلت البيت وهو فى إثرى ، وناديت « حسن » ، ولكن عاد الصدى إلىّ بغير جواب ، فقلت بغيظ : هذا الوغد ! داؤه هذا المعسل الذى لا يسلوه ساعة . كلما وجد فرصة ذهب إلى المقهى ليدخنه !

فصاح من خلفى : « وما حاجتنا إلى حسن يا مدام أميرة . أرنى المعزف. . . »

وأدخلته حجرة الموسيقى ، ودعوته للجلوس على الأريكة العريضة الوثيرة ريثما أحضر له شراباً مثلجاً . . .

ووجدت الثلاجة فارغة من الأشربة ، فأسرعت أحضر من الصالون صندوق الشيكولاتة . . .

وحينما دخلت عليه الحجرة لم أجده على الأريكة ، فتلفت ورأيته قد خلع سترته وشمر كمى قميصه واختفى وراء البيانو يفحصه ، وأخذت أعتذر له وأنا أنظر ضاحكة إلى وجهه المنهمك فى العمل ، لأنى لم أجد شراباً مثلجاً . . .

وعجبت للتغير الذى صنعه خلع السترة فى هيئته . . . ما أقربه الآن إلى الطفولة ! . . .

وقدمت إليه صندوق الشيكولاتة ، وأنا أقول له وأنظر إليه نظرة عابثة : « أرجو ألا تكره هذه الشيكولاتة أيضاً ! . . . »

فنظر إلىّ بعتاب ، واحمر وجهه ، وامتد الارتباك إلى أصابعه وهو يتناول قطعة من الصندوق ، فوقعت منه على الأرض وتدحرجت تحت البيانو . . . وإذا به يأتى بدون روية حركة من حركات الطفولة الصميمة : ركع على الأرض وراح يتحسس بيده تحت المعزف ، وهو يكاد ينبطح كى ينظر بعينه أين ذهبت الحلوى الهاربة . . . .

وصحت أنهاه ويدى على كتفه لأستنهضه :

— دعها وخذ سواها . . . ما هذا الذى تصنع ؟ . . .

— وجدتها ! . . . .

هتف بها فى فرحة طفلية منطلقة ، كأنه فى الخامسة لم يتخطها يوماً واحداً ، ورفع وجهه نحوى بالنظرة الجذلانة وهو يرينى القطعة الغالية فى يده . . .

ولم أتمالك نفسى . ولعل قصره وهو راكع جعله صورة كاملة

لقامة الطفولة الضاحكة ، فهجمت على هذا الرجه الضاحك البرىء ، وأمسكت بعارضيه وأنا أجذب فى رفق خصلة من شعره الأشقر .

وانتصبت واقفة وقد استراحت أمومتى المستثارة . ولم يخطر ببالى شىء سوى هذا . . .

ولكن الطفل نهض فاستوى أمامى فوق جسم عملاق ، وتطلعت إلى عيناه اللامعتان بالفرح المجنون . . . وانطلقت الدهشة الذاهلة من ملامح وجهه وفمه المفتوح . . . كل شىء فيه كان يصيح من غير أن يتكلم :

ــ هل حقـًا ؟ . . . أنا لم أكن أصدق . . .

وبدا صورة كاملة للطفل الذى طال نهى أمه له عن كعكة شهية ، فطوى اشتياقه لما وقطع كل أمل وتفكير فى الحصول عليها . . . وإذا بها فجأة تضعها بتمامها بين يديه . . . .

ومن بين ضباب الدموع رأيت ما رأيته ذات يوم فى حديقة عامة ، فى عصر يوم صائف : طفل يصيح جوعاً ، ويدير فمه بحثاً عن ثدى ليس له وجود ، وهو يتوسد ذراعى خادمة سمراء تضيق به . . . . وسيدة تقف بها فى ملاءة سوداء وتنظر وتتوجع ، والخادمة تفضى إليها بشىء لم أسمعه من مكانى البعيد . . . وجلست السيدة عابرة السبيل على الأرض ، وتناولت الطفل الجائع ، وألقمته ثدياً . والطفل الجائع اللهفان يدور بفمه لا يدرى الموضع أين هو . . . ومدت السيدة يدها

ووضعت الحلمة فى الفم الوردى الصغير المتلهف وسرت القشعريرة فى جسدى ، وهممت أن أنهض وأقبل رأس الأم المجهولة . . .

. . . وكان رقيقاً . . . فطناً . . . لم يتكلم ، ولم يستأذن . . . بل تسلل فى سكون ، وأغلق الباب من خلفه . . .

وعلى صوت الباب الخارجى وهو يغلقه فتحت عينى ، وأصغيت لوقع أقدامه وهو يهبط السلم . . . إلى أن تلاشت فى الصمت الرائن على البيت .

٢٨

ودرت بنظراتى فى أرجاء الحجرة . . . ورأيت البيانو مفتوحاً كما تركه . ورائحة خفيفة فى هواء الحجرة تذكرنى بأنه كان هنا منذ هنيهة . . .

سؤال يجب أن يسأل فعلا : هل حدث هذا حقًّا . . ؟ . . . أو هو حلم . . ؟

سؤال لا جواب حاسم عليه . . . فليس فيما حدث كله دليل واحد على أنه شىء معقول أن يحدث !

ولكن كان هناك البيانو المفتوح : شاهداً لا يمكن تكذيبه . . .

وسمعت صوت الباب الخارجى يفتح . . . باب المطبخ ، وبحركة لا إرادية جلست وأخذت أسوى ثيابى وشعرى ، فى لهفة فازعة ، وقد أخذ قلبي يدق . . . لأن عيناً ستقع على محياى . . . .

كنت أعلم يقيناً أنه ليس سوى حسن ، طباخنا النوبي الوفي الغبي الكسول . ومع هذا فزعت . . . وكان شعور الخوف من نظرات أى إنسان شعوراً جديداً علىّ كل الجدة . . .

ولكن حسن ليس وحده الذى كان سيعود من الخارج . . .

« هو » أيضاً سيعود ... لابد عائد . . . وله نظرات ليست كنظرات حسن التى لا ترى شيئاً .

واعتصرت يد خفية قلبى . وشل تفكيرى إلا من مسألة واحدة : نظرات عونى . كيف يرانى ؟ ماذا يظن ؟ ماذا يجول بخاطره ؟

وأحسست بانكماش . وانقبضت جميع عضلاتى ، كأنها تريد أن تلفظ كل لمسة وقعت عليها . . .

وفجأة كاد الصداع يقصم دماغى ويفلقه نصفين .

ولم أناد حسن . بل ذهبت بنفسى وتناولت قرصاً من الأسبيرين فى حجرة النوم . . . وحانت منى نظرة إلى وجهى فى مرآة مائدة الزينة ، فرأيت الشرود واضحاً فى عينى وملامح وجهى . . . يكاد يقرأ الناظر فيه لأول وهلة سطور القصة كاملة . . .

لم يكن ندماً . كلا . كان حيرة . كان فزعاً . كان ذهولا . . . كان عدم تصديق ! كأننى أمام عزيز مات بالسكتة وهو فى أوج الصحة والشباب . . .

وتخطى نظرى صفحة وجهى فى المرآة إلى الفراش المزدوج من خلفه ... وغطيت وجهى بيدى . . . وأحسست أن الدم ترك جسمى كله وصعد إلى

دماغي حتى أوشك أن ينفجر . . .

وارتميت . . . ارتميت على الفراش المزدوج ، ودفنت وجهى فى الوسائد . ولكن المكان نبا بى... أحسست ناراً تأكل كل أنملة فى جسدى. أحسست أن أحشائى تحترق . . .

واندفعت نحو الحمام . . .

وخلعت ثيابى بسرعة ، ودخلت تحت الرشاش . . .

ولم أطق النظر إلى جسمى العارى الذى كنت لا أمل النظر إليه وهو يتثنى فى حيوية ورشاقة تحت حبات الماء التى تتجمع كحبات اللؤلؤ فوقه، ثم تتلاشى لتحل حبات أخرى من اللؤلؤ مكانها . . . .

وأغمضت عينى ، وتركت نفسى لإحساس الماء المتدفق فى الظلام برهة طويلة . . . طويلة جداً . كان أطول حمام أخذته فى حياتى . . . إلى أن تعبت عضلاتى من الوقوف تحت الماء ، فجففت جسمي وأنا لا أنظر إليه ، ثم أسرعت فى معطف الحمام إلى حجرتى ، وارتديت ثياباً نظيفة . . . لم تلمسها إلا صفحة المكواة . . .

وجلست أمام المرآة ، وبملامح قاسية أخذت أضع الكريم والمساحيق على وجهى ، وكأنى أنظر إلى تمثال عهد إلىّ بإعداده للعرض . . .

ونهضت إلى الثلاجة لأشرب ماء بارداً ، لأن حلقى كان جافاً ، فيه مرارة . . .

ولكن المرارة لم تذهب . والجفاف لم يلبث أن عاد . والصداع

مرابط متشبث بموقعه الخطير . . .

ورقدت على الفراش ، وثبت نظراتى فى السقف الأبيض ، من غير أن أتبين شيئاً سوى صفحته الناصعة المتشابهة . . . كنت أحملق فى الفراغ ، لا فى شىء معين . . .

وزفرت بعد حين زفرة لا أظنها خرجت من أعماق وجدانى ، بل من أعماق رئتين ثقل عليهما التوتر العصبى إلى حد الإرهاق ، وتعبت عينى من التحديق فى مكان واحد ، فتقلبت على جنبى الأيسر ، ونظرت إلى الركن . إلى المصباح الصغير الساهر فوق الباب . . .

وعند ركن السقف الأبيض رأيت شيئاً رمادياً داكناً يتحرك : رأيت عنكبوتاً صغيراً يدب بخفة ، ويرسل أول خيوطه لينسج هناك بيتاً له . . .

وتملكتنى الدهشة والغضب . ما أشد إهمال حسن ! عنكبوت فى سقف حجرة النوم ، يشوب بياضه الناصع بخيوط بيته القاتمة ؟ . . . يالها من مهزلة !

وهممت أن أناديه ليقتله . . . ثم لفت نظرى حجمه الصغير . . . . إنه يستقبل الحياة . . . ويطلبها فى قوة وثقة حيثما وجدها . . . فى سقفى أو سقف سواى . فلابد أن يعيش ، لأن الحياة تضج فى أعماقه وتستحثه . . .

وتقلص شىء فى أحشائى . . . . ووخزنى وخزة واضحة . . . ولكنى قمت . . . وناديت حسن فى غيظ ، ووقفت فى ثبات حازم

أرقبه وهو يقضى على الحيوان الصغير ويحمله بعيداً عن سقف حجرة نومى الناصع البياض . . .

وعندما أغلق حسن الباب ، وعدت للرقاد ، وجدت وطأة الصداع قد خفت قليلا . . . وسمح لى — من غير أن أشعر — بلحظة إغفاء . . .

. . . . وشعرت بيد على جبينى ، وفتحت عينى مذعورة . . . فقد كنت أحلم بالعنكبوت الصغير . . .

ورأيت أمامى عونى ، منحنياً فوقى ، ويده تجس جبهتى فى حنان وقلق . . .

وهاله الذعر الذى ارتسم فى عينى المحملقتين . . . ولم ير الشحوب فى وجنتى . . . . لأن النوم كان قد ضرجهما بحمرة قانية :

— لا تفزعى هكذا . . . هذا أنا يا حبيبتى . . . . ماذا بك ؟ . . .

— . . . . كنت أحلم . . . !

وطوقت عنقه بذراعى . . . . وأنا راقدة ، فضمنى إليه وراح يهدهدنى كالطفلة . . . كما هدهدنى كل يوم من أيام أعوامنا السبعة عشر . . . . وقلت وفمى مدفون فى صدره :

— أف . . . أف . . . من الصداع !

فتخلص من عناقى وحدق فى وجهى بقلق :

— ماذا بك يا حبيبتى . . . ؟

— أظنها أعصابى . . .

وقطب حاجبيه فى تساؤل صامت . لأنه لم يدر ماذا يقول . . .

فقلت له وأنا أثبت عيني في وجهه بكل مظاهر البراءة المستقيمة التي مارست بها نظراتي إلى وجهه منذ عرفته ، وقصصت عليه قصة الحادث الهين الذي وقع لسيارتي . . . وكيف لم يتمخض إلا عن كسر مصباحها الخلفي . . .

ـ الحمد لله يا حبيبتي أن المسألة لم تتجاوز هذا الحد . . .

وقبل جبيني ، ومسح على شعري . . . ولكني قلت له وأنا أنظر إلى رباط عنقه وقد جلست على الفراش ، ورحت أداعب عقدته بأصابعي :

ـ يبدو أن الحادث جاء نتيجة اضطراب أعصابي ، ولم يأت اضطراب أعصابي نتيجة الحادث . . .

ولم أدر في تلك اللحظة لماذا قلت ذلك . كنت أسمعه وكأن أحداً غيري هو الذي يفكر ويتكلم حسب خطة موضوعة لا علم لي بها . . . .

وصمت عوني صمته حين يدخر كلماته إلى أن يسمع كل عناصر القضية . وسمعت المتكلمة بلساني تقول . وأصابعي تعبث بعقدة رباط عنقه :

ـ الحقيقة أني منذ مدة يا عوني وأنا أشعر بتوتر أعصابي . أشعر بسأم شديد يزهدني في الحياة كلها . . . يزهدني في كل شيء . . .

وابتسمت الماكرة ، ورفعت نظراتها من خلال عيني إلى وجهه وقالت :

— فى كل شىء عداك أنت طبعاً . . .

وابتسم عونى ابتسامته الهادئة التى أعرفها وقال بسخرية رزينة :

— نحن حين نسأم الحياة . . . نسأم كل شىء . . . حتى ذات أنفسنا . . .

مرحى ! إنها تستحق هذا الزجر الخفى لما حاولته من الهزؤ بذكائه . . . ولكن الشيطانة لم ترتدع وقالت بخبث . إنها تعرف متى يجب أن تتراجع ومتى يجب أن تسلم . ما أبرعها !

— ربما . . . لا أدرى على كل حال . أنت أعرف منى بخبايا النفوس . . . المهم أنك فهمتنى . . .

وربت الرجل الطيب على رأسى وقال برفق :

— طبعاً يا حبيبتى طبعاً . . .

وثبتت نظراتها — من خلال عينى — فى عينيه وقالت بهدوء وثبات تامين من غير أن تفكر فى الرجوع إلى رأيى فى المسألة :

— ليتنى أغير الهواء قليلا . . .

فرفع عونى حاجبيه وقال :

— أين ؟ . . . .

وخفضت الملعونة نظراتها وأخذت تعبث بأزرار صداره وقالت :

— لست أدرى تماماً . . . ولكن ليتنا نسكن على الشاطئ . . .

— فى الروضة ؟ فى الزمالك؟ . . .

واستمرت أصابعها تعبث بأزرار الصدار وقالت بتخاذل :

— مثلا . . . لا أدرى . . . ربما . . . أو ربما الأوفق أن نستأجر

مسكناً ثانياً . . .

ــ مسكناً ثانياً ؟ . . . بالإضافة إلى هذا . . . ؟

ــ نعم . . . مسكن نحتفظ به طول العام مثل الكثيرين جداً من الناس . . . على شاطئ البحر فى الإسكندرية . . .

وصمت عونى لا يدرى بماذا يجيب ، فأدركت أن ذهنه لم ينضج بعد للموافقة ، فأسرعت « ترفع الجلسة » وتؤجل النظر فى الموضوع :

ــ هى فكرة . . . لا أدرى . ربما كان إرهاقى الذى حيرنى أمره هذه الأسابيع الأخيرة هو الذى دفعنى لهذا التفكير وقد عجزت عن إيجاد مخرج آخر . . . هيا نتغدى . . . وربما غيرت رأيى بعد سهرة جميلة مثلا هذه الليلة . . . نزهة أو تغيير وقتى من أى نوع . . . .

وقبل عونى جبينى ولم يتكلم . . . كانت قبلته تعبيراً كافياً عن استعداده لكل شىء ، ولأى شىء . . . فى سبيل التسرية عنى . . . .

٢٩

شعرت بارتياح لاكتشاف تلك المثلة الفطرية التى تكمن فى أعماقى . . . وانتهيت بأن أسلمتها قيادى. لأننى فكرت وأنا أقطع اللحم قطعاً صغيرة جداً فى طبقى على مائدة الغداء ، أننى مهما قلبت المسألة على وجوهها فما كنت حرية أن أجد حلاً لها خيراً من هذا الحل الموفق السعيد. .الفرار من الميدان إلى جو جديد. بعيداً عن كل شىء .. عن الاثنين

كليهما . وأين يتيسر ذلك إلا فى الإسكندرية ؟

هناك ، أمام البحر المتجدد سأحس أن كل شىء يمكن أن يغرق أو يذوب . . . أعد ذلك الذى حدث فى لحظة حنان شيئاً لم يكن له وجود حقيقى . . . شيئاً من قبيل الأحلام التى تنسى فى تيار اليقظة .

ذلك وحده ، أو الجنون !

هذا هو الحل الوحيد أمام ما لا يمكن تصديقه . . . أمام الكوارث التى تكذب كيان حياة كاملة وتهدم منطق عمر كامل . . .

لم يكن وفائى كذباً . لم تكن استقامة خلقى كذباً . . . الازدواج أمر غير ممكن لامرأة مثلى تمقت الأكذوبة وتحتقر الرياء . . . .

يجب أن تسقط من حياتى هذه اللحظة الغريبة . أو تسقط بها كل حياتى كقلعة من الرمال . . .

هناك على الشاطئ سأبنى البيوت من الرمال الندية ، ثم أترك الموج يأتى عليها ويجرفها . أما هنا . فى قلبى . فيجب أن يكون لى كيان أجدر بالاحترام من هذا البناء المنهار . . .

هذا إذن أو الجنون . . .

ما حدث لم يكن ، لأنه ما كان ليعقل أن يكون . . .

ما حدث لم يحدث لى . . . بل لأخرى ، أعرفها . ولكنها يستحيل أن تكون أنا ! . . . وقطع الصمت صوت عونى الذى احترم سكوتى طويلا وأنا لا أشعر بالوقت ومروره :

ــ أين تريدين أن نسهر الليلة ؟ . .

فرفعت إليه عينين باسمتين فى إعياء وقلت :

ــ نسهر ؟ . . . ولماذا لا نخرج الآن ؟ نذهب إلى النادى مثلا، ونتناول الشاى هناك ، ثم نذهب إلى ملهى من ملاهى شارع الهرم . . . ؟

ورحب عونى بالفكرة ، على تعلقه الشديد بضجعة القيلولة ، وأظهر تلهفه على الخروج . . . كعادته كلما فطن إلى رغبة لى . ولا شك أنه أدرك ضيقى بالبيت. . . .

وفى الطريق إلى النادى بدا علىّ الضجر ، وقد تمثلت الحديقة ، والوجوه المألوفة . . . واضطرارى إلى تبادل التحيات والابتسامات . . . والأدهى من هذا كله اللواتى يصررن على التحية بالقبلات . . . وليست بى اليوم طاقة لقبلات . . .

ووضعت يدى على ذراعه الأيمن وهو يقود السيارة وقلت :

ــ إننا لم نذهب إلى السينما منذ أجيال . . . ما رأيك ؟ . . .

فنظر إلى بتساؤل وقال :

ــ الآن ؟. . .

ــ ولم لا . . .

وتناسيت أنى طالما ضقت ذرعاً بحفلات الماتينيه (من الثالثة إلى السادسة). وتناسى هو أيضاً أنه يعرف مبدئى هذا . وحول الاتجاه إلى الشارع الذى به دور السينما فى الضاحية ، ولكنى وضعت يدى مرة أخرى على مرفقه وقلت :

ـــ ليس هنا يا عونى . . .

ـــ أين ؟ أتريدين مشاهدة فيلم معين ؟

ـــ كلا . . . ولكنى لم أشاهد منذ مدة فيلماً فى سينما كبيرة . حفلات الساعة الثالثة هنا كلها تلاميذ صاخبون . . .

ولم يحاول أن يذكرنى أن حفلات سينما المدينة على نفس المستوى . . . بل اتجه فى صمت إلى المدينة . . وأدار الراديو فى الطريق الواسع ، ثم وضع يمناه على كتفى وضمنى إليه . . . ولم أقاوم طبعاً ، ولكن شيئاً فى التصاق كتفى بكتفه كان يحمل معنى الانكماش . . .

وأيقنت أنه فطن . ولم يظهر لى شيئاً . . . ولكن بعد قليل ، عندما احتاج إلى يمناه كى يغير السرعة ، لم يعدها إلى كتفى . وظللت أنا ملتصقة به ذلك الالتصاق الظاهرى الذى ينطوى على انكماش وتباعد . . .

هناك فى ظلام السينما لن أضطر لمواجهة عينيه ، ولا عيون أى إنسان . . . سيكون الظلام سائداً . ويتسنى لى أن أندمج فى المناظر الغريبة عن عناصر وجودى . . . .

ولكن لاشىء غريب عن عناصر وجودنا حين تكون نفوسنا مسرحاً لمأساة ! أعفانى الظلام من العيون . ولكنه لم يعفنى من الصور التى تزدحم بها الشاشة المضيئة . . . حيث كانت جوان كراوفورد ، فى نضوج السن واستواء العمر ، تتوله فى حب فتى غض الأهاب .

وبدأت أتململ ، وأنظر فيما حولى . . ولكن الصرخات العاطفية التى

تشبه نداء الغاب جعلت تطاردنى . . . . وتطرق جوانب دماغى بلا رحمة . . .

وملت على عونى وقلت له همساً : « يظهر أن هذه النظارة لم تعد تصلح لى ... أصابنى منها صداع فظيع .. » .

وكأنما كان ينتظر هذه الإشارة ، فنهض واقفاً ، ونهضت وسرت خلفه إلى ضوء النهار . . . وركبت السيارة إلى جواره من غير أن أرفع عينى إليه . وقبل أن يدير المحرك تطلع إلى وجهى فى قلق وقال وهو يدفع بالابتسام إلى شفتيه دفعاً : « إلى أين تريد أميرتى أن أذهب بها ؟ . . »

وابتسمت فى تخاذل وإعياء ، ثم قلت : « حيث تريد . . . » فسألنى : « ألا نشرب الشاى فى حديقة جروبى ؟ »

أف! بين كل هؤلاء المتكلفين والمتكلفات وأرباب المعاشات المتأنقين؟

ـــ مكان مزدحم يا عونى . . . . أفضل أن نذهب إلى لوك . . . فالعدد هناك محدود ، وفى المكان ما يوحى بأن الإنسان فى بيته . .

ولم يتكلم . أدار المحرك وانطلق . . .

وشربنا هناك الشاى فى صمت . . . إلى أن حركت الموضوع المؤجل منذ الظهر . وضعت على فمى أرق ابتسامة وقلت :

ـــ أتذكر ساعة الشاى فى أتنيوس ، والشمس تهم بالغروب فى البحر ؟ . . . ما أجمل هذه المدينة . وما أجمل لحظات تقضى فيها . . . .

وومضت عيناه وميض من فطن إلى شىء يدبر ، وقال وهو يثبت

نظره فى حركة يده وهى تدور بالملعقة فى الفنجان الأخضر لتذيب السكر :

ــ مكان جميل فعلا . . . ولكن هل تعتقدين أنى أطمئن إلى سفرك الآن وحدك ، وأنت بهذه الدرجة من الضيق والتوتر ؟ . . . وحالة العمل فى الوزارة لا تسمح لى الآن بإجازة . اصبرى قليلا . . . أسبوعاً آخر مثلا ، وعندئذ أدبر إجازة يومين أو ثلاثة ، أو أسبوعاً ، ونذهب معاً لنشرب الشاى قدر ما تشائين فى شرفة أتنيوس ، والشمس تهم بالغروب فى البحر ، وراء القلعة الصفراء . .

ولم أجب . جعلت أنا الأخرى أقلب السكر الذى ذاب منذ مدة ولم يعد بحاجة إلى مزيد من التقليب . لأنى لم أستطع أن أقول له ما كان يدور فى حلقى ولهاتى : « دعنى أذهب وحدى . . . فأنت أيضاً أحتاج إلى أن أفتح عينى فلا أراك أمامى برزانتك وثباتك الذى لايتزعزع . أريد أن أهرب من نفسى يا رجل ، ولا أحد يذكرنى بنفسى كما تذكرنى أنت . . . »

لم أستطع أن أقول له شيئاً من هذا . وضايقنى أن ذكاءه قصر على إدراك الموقف . ولكن لايكلف الله نفساً إلا وسعها . وهل باستطاعتى أن أحمله فوق ما يطيق وأطالبه بأكثر مما يستطيع ؟

إن لم يكن ما أريد ، فلأرد ما يكون . . .

ورسمت على وجهى كل أمارات الامتنان حتى بدا أنى أهم بعناقه على الملأ ، وقلت له :

– صحيح ؟ . . . كم أنا سعيدة . . . !

– فى استطاعتك طبعاً أن تصبرى هذا الأسبوع . . .

– طبعاً . . بل يخيل إلىّ أن مجرد الوعد خفف من ضيقى . . . هيا بنا . . . لنذهب إلى شارع الهرم . فلنطف بالشوارع . . . ثم لنسهر هناك فى ملهى . . . لنشرب ونضحك ونهرج ... هيا.. هيابنا .

وارتسمت على محياه عدوى البشر والحبور ونهضنا ، وأنا أقول فى نفسى لم يبق إلا أن أعالج الأمر علاجاً مؤقتاً . سأمتنع عن الذهاب إلى المعهد ... سأقضى هذه الأيام على أى صورة . سأخرج طول النهار وأهيم فى المنازه والدكاكين . . لن يعجزنى وضع حد مؤقت للموقف . . .

وشربت تلك الليلة ، وضحكت من أعماقى ، ورقصت وأنا ثملة مع عونى ، وقذفت جميع الراقصين من حولنا بكرات الورق ولباب الخبز...

ولما عدنا قبيل الفجر إلى الضاحية ، كنت قد نمت فى السيارة على كتف عونى. وأيقظنى أمام البيت . وما وصلت إلى الفراش حتى انطرحت فوقه . وبصعوبة خلعت ثيابى ولبست قميص النوم . وهو يساعدنى . . . كأنه أم تبدل ثياب وليدها المغلوب على حواسه بالنعاس . . .

ولم أفتح عينى إلا وقد طلعت الشمس منذ ساعات طويلة . كانت الساعة قد تجاوزت التاسعة . وعونى الآن فى مكتبه بالوزارة . وحسن كالعادة يؤدى عمله فى تباطؤ وينتظر يقظتى ليسألنى ماذا يطبخ لنا فى هذا اليوم الجديد . .

٣٠

تمطيت ثم نهضت إلى الحمام . وقد بدا الموقف فى نظرى أدعى للثقة . . .

ومن ثنايا الخدر الذى تبقى من سهرة أمس جعلت أستجمع شتات ذهنى ، والماء البارد يتناثر كاللؤلؤ على جسمى ونظرت إلى تجمعه وتناثره ، فعلمت أن الحلم الذى كان ، يوشك أن يذوب فى تيار اليقظة الجارف . . . وارتديت معطف الحمام إلى حجرتى ، وجلست إلى مرآة الزينة وقد ارتد إلىّ مع التنبه الكامل الذى أحدثه الحمام البارد شىء من الانقباض والتخاذل . . .

أف للذاكرة . لماذا لا نستطيع أن ننسى كل ما نريد أن ننساه ؟

وواجهت عينى فى المرآة الفراش المزدوج الذى قضيت فيه لياتى وتحريت أن أحدق فيه طويلا ، كانت الصعوبة فى الليلة الأولى ، وقد مرت بسلام . . . فى سكر !

ـ ستجدنى كما عهدتنى دائماً . . . لا شىء فىّ تغير . . . . يجب . بأى شكل . وبأى ثمن . . .

وخطر لى أن أزيد من استعدادى وتحصنى . وقمت تحت وحى اللحظة إلى التليفون وطلبت المعهد ، وسمعت صوت المسيو إلياس الودود :

ــ أهلا أهلا سيدتى . . . الحمد لله على سلامتك . . . طبعاً .

طبعاً ، عندى علم بأنك سوف لا تستطيعين الحضور اليوم . . . أخبرنى الأستاذ خورشيد بكل شيء . وسلامة قدمك ألف سلامة ! . . . . معك حق فى وجوب فحصها بالأشعة . . إن شاء الله سليمة ، ونراك فى أقرب وقت عندنا فى أتم صحة . . .

ووضعت السماعة وأنا أتعجب . ما حكاية قدمى التى أصيبت فى الحادث ؟ لابد أنه اختراع من مبتكرات خورشيد كى يبرر عدم حضورى . ولكن كيف كان يعلم أننى سوف لا أحضر ؟ وماذا كان يضحى موقفه لو أننى دخلت المعهد اليوم فى موعدى . . .

وتخيلته يسرع لتلافى المأزق قائلا :

— الحمد لله . . لابد أن الأشعة أكدت خلو قدمك من كل إصابة . . .

وبذلك يحيطنى علماً بما قاله للمدير حتى لا أكشف موقفه ولكن لماذا قال له ذلك ؟ . . .

ما أحصفه ! فطن بحساسيته الدقيقة إلى أنه يصعب علىّ أن أذهب بعد الذى حدث . . . وهذا فى حد ذاته علامة طيبة . علامة على أنه يقدر صعوبة موقفى وما تؤدى إليه هذه العلاقة من اضطراب فى حياتى لا تحتمله . . . هو إذن ليس الطفل الذى يصعب عليه إدراك الأمور ، وهو مسلم مقدماً بأن « هذا » كان أمراً عارضاً لا يمكن له دوام .

وتنهدت بارتياح . ولكن جرس الباب رن فى هذه اللحظة ،

وأرهفت أذنى عندما سمعت حسن يفتح الباب . . . وما كانت أذنى لتخطئ تلك النبرات الشابة التى أميزها من بين أصوات الناس كافة .

ومن غير تفكير ضممت قب ثوبى ، وأحكمت أزرار الثوب المنزلى الذى كنت قد ارتديته فوق قميص النوم وخرجت إلى البهو وأنا فى شدة الدهشة ، لأرى رجلا يسلم حسن سلة من الأزهار القرمزية اليانعة ، وخورشيد فى فرجة الباب يحيينى بانحناء شديد، ويمد يده ليصافحنى ، ثم يقول لحسن وهو يقدم إليه ورقة من ذات الجنيهات العشرة :

ــ اذهب مع الأسطى يا حسن . فليس معه بقية هذه الورقة ، فاشتر لى علبة سجائر « ألف ليلة » تخين ، واصرف الورقة وأعطه أجره الذى سجله العداد . . .

واستوقفت حسن قائلة :

ــ عندى أنا « فكة » . . . كم أجرك يا أسطى ؟ . .

فنظر إلىّ خورشيد نظرة توسل ضارعة وهو يقول :

ــ دعيه يذهب من أجل خاطرى . . . . فأنا أريد السجائر ،

ــ عندى سجائر .

ــ أنا لا أشرب إلا هذا الصنف . . . أرجوك !

ولم أتذكر إلا بعد أن توارى حسن وراء الباب وهمّ أن يغلقه ليهبط السلم أن خورشيد يدخن سجائر البحار التى توجد فى كل مكان . . فما هذا الصنف الغريب الذى قد لا يتيسر إلا فى مكان بعيد . . . .

وعلى سرعة تفكيرى لم أتم هذا الخاطر ؛ لأن قبلة متدلهة طبعت على معصمى . . . . وتجمعت كى أعيد ترتيب خطتى التى فوجئت بهذا الانقلاب ، توطئة لإيقافه عند حده ، وصرفه من غير ضجة ، ومن غير جرح لإحساسه الرفيق . . . فلا لزوم لشىء من العنف ما لم تقتض الضرورة منتهى الحزم . . .

ولكن الترتيب لم يلبث أن اختل ، وهو يقطع القبلة ويصيح :

— ما أخس بنى آدم ! كدت أنسى الأمانة !

ولم أتمالك نفسى من الابتسام وأنا أراه يضرب جبينه بيده ، ثم يفتش فى جيوبه باهتمام مبالغ فيه ، إلى أن أخرج بطاقة كبيرة مثل بطاقات الدعوة إلى الأفراح ، وقدمها إلىّ بصورة رسمية فكاهية :

— تفضلى يا مدام أميرة ! السلام أمانة ! تحية بخط فارسى جميل بيد البروفسير الخواجه إلياس. . . يبثك فيها لواعج أسفه لما حدث لك ، ويدعو لك بالشفاء العاجل . . .

ثم قلب عينيه وغمز بهما مقلداً إلياس ، فانفجرت ضاحكة . . . . ثم أخذ يهمس بصوت به بحة كصوته :

— الأستاذ خورشيد أبلغنى الخبر المحزن . . . سلامة رجلك . فداها رقبة إلياس. . . يقصف عمرى ... يحميك لشبابك الله ... يحمى ها الجمال والرقة والرشاقة . . .

ثم بصوته الطبيعى : الخواجه إلياس شاعر . . . عاشق . . . يعبد الجمال . . .

وقطعت الضحك وقد تذكرت اللغز فجأة . . . « ما حكاية قدمى ؟ . . . »

فقال بلهجة خطيرة :

— وهل تظنين المسألة هينة . . . لا يمكن طبعاً المجازفة بالحضور إلى المعهد إلا بعد الفحص بالأشعة . . . ومن يدرى ماذا تقول الأشعة . . علم هذا عند الله . . . سلامة قدمك . فداها رقبة الخواجه إلياس وأهله جميعاً . .

ثم بصوته الطبيعى ، وهو يرفع كفى إلى فمه ويقبل باطن راحتى :

— ليس عندى اليوم سوى درسك . وهكذا أعفيت اليوم من العمل ، وأوحيت إلى الأب إلياس أن اللياقة تقضى بالسؤال عنك وحمل سلة ورد هدية من المعهد إليك مع أطيب التمنيات . . . التى لا يليق أن يحملها إليك سوى أستاذك الهمام . . .

وقبل أن أقول شيئاً . . كان قد تقدمنى إلى حجرة البيانو ثم وقف عند بابها وصاح : « أتمشين . . . ؟ أتجازفين بالمشى ؟ . . . هذا تهور يا مدام أميرة . . . يجب أن تمدى رجلك أمامك . . . هنا على الأريكة . . . »

وجذبنى من يدى . . . فتبعته وقد استجمعت إرادتى كاملة لأوقفه عند حده . لأذهب إلى الأريكة . . . أريكة الأمس . ولكن هل يظن أن هذا كاف ؟ سيرى أن الأريكة لا تغنيه شيئاً . .

وعند الأريكة وقفت وقد اختفى من وجهى كل أثر للمرح والضحك ،

وقلت له : « أنت تعلم جيداً أن ساقى كالجن . . . ليس بها شىء . . . »

وتطلع الطفل إلى وجهى مبهوتاً . . . ثم ارتسم الألم على وجهه ، وأطرق إلى الأرض وسكت . . . فاعتصر الألم قلبى ، وتناولت يده وقلت له :

— اجلس يا خورشيد . . . هنا إلى جوارى . . .

وجلس إلى جوارى على طرف الأريكة كالطفل المذنب الذليل ، ويده بين يدى ، فوضعت إصبعى تحت ذقنه — كعادة عونى معى حين يسرى عنى — ورفعت وجهه ، فواجهنى نظرة حزينة كسيرة ، فشاعت الرقة فى نظرتى . فألقى وجهه على رقبتى وتشبث بعنقى .

ماذا عساى أصنع الآن بهذا الطفل الحزين الذى لا يريد أن يفطم؟

وبلعت ريقى وخاطبت وجهه المدفون فى عنقى :

— اسمع يا خورشيد . .

فصاح من ملاذه :

— أرجوك . . . اسكتى . . . أنا مدرك كل شىء . . .

ثم رفع رأسه فجأة ووضع يديه على كتفى وواجه عينى بنظرات ثابتة على ما ترقرق فى مقلتيه من دمع :

— لماذا تفعلين ذلك . . . لى . . . وبك ؟

وانكفأ على صدرى وقد تقلصت أصابعه على كتفى وجعل يهتز ببكاء جاف لا أثر فيه للدموع ، فتمزق قلبى وأدركت أن هذا الفتى هو قدرى . . .

وهبطت ذراعاه على ذراعى ، إلى أن تناول كفى وقبلهما معاً ، وفى عينيه امتنان لا يوصف . . .

وأشار بعينه إلى ناحية باب المسكن وقال باسماً فى أسى :

ـ حسن لن يلبث أن يأتى . . . . وقد مهدت بحكايتى للخواجة إلياس ألا تحضرى لبضعة أيام . . . وغداً على الأكثر أكون قد أعددت كل شىء . . . ولن نفترق بعدها . . . سيكون أمامنا كل العمر . . .

وسمعنا وقع الأقدام على السلم ، فأسرع يفتح البيانو ، ثم خلع سترته ، واختفى خلفه . . . فلما فتح حسن الباب الآخر بمفتاحه ، وأقبل علينا بالسجائر والنقود ، شكره خورشيد شكراً وافراً ، بصورة طبيعية للغاية ، زادتنى إعجاباً به . . . ثم طلبت فنجانين من القهوة . . . .

وخرجت معه إلى الباب ، وكان حسن عند مدخل الدهليز المفضى إلى المطبخ ، فهتف به خورشيد يداعبه :

ـ ها نحن قد أصلحنا البيانو يا حسن . . . إياك أن تخربه مرة أخرى . . . . أنا أعلم أنك تداعب مفاتيحه فى غياب الهانم . . .

ـ أنا . . ؟

ـ من إذن . . . المفتاح المعطوب كان أسود يا صاحبى . . . مثل بعض الناس !

وضحك حسن مسروراً للدعابة فبانت أسنانه البيضاء ، وخرجت مع خورشيد إلى السلم ، وتواريت عن فرجة الباب وتأهبنا لعناق محموم . . وإذا حسن ينادى وهو مقبل من الداخل :

ــ يا أستاذ . .. صندوق السجائر يا أستاذ . . . !

وأطل برأسه الضاحك ، وتناول خورشيد السجائر وهو ينظر إلىّ في أسى زاده طفولة وعذوبة . . وزادني حسرة وأنا أراه يبتعد

٣١

قال حسن وأنا أغلق الباب وراء ظهري في تباطؤ :

ــ ماذا أطبخ اليوم يا سيدتي ؟ . . .

ولم أجبه في أول الأمر ، فاضطر إلى تكرار السؤال بصوت أعلى ، فقلت « هه ؟ . . . آه ! أي شيء . . اذهب الآن . . »

وتسلل حسن إلى المطبخ . ودخلت أنا حجرة البيانو ، ويدي على جبيني .

وتهالكت على مقعد البيانو ، وأخذت أنقر بإصبعي على المفتاح الذي كان أخرس ، وأصبح له الآن رنين واضح ينفرد به في أذني . .

وعضضت على شفتي السفلى . .

كان هنا منذ لحظة . ولكنه ذهب . ذهب وترك كل شيء فيّ يدعوه ألا يذهب .

وتحولت ببصري إلى خلفي . . . ونظرت من باب الحجرة المفتوح . . . نحو باب المسكن . وقع بصري في الركن على سلة الورد . تركها الكسول حسن حيث هي . . .

وتعلقت نظراتى بالسلة القرمزية اليانعة. . .

وأخذ عرق فى عارضى يدق دقًّا عنيفاً . . . وبدأ الصداع يطرق جوانب رأسى جميعها فى وقت واحد . ويل لبنى آدم حقًّا من أشواقهم الموءودة . . .

منذ نصف ساعة فقط دخل بهذه السلة . وكنت على حذر . كنت متأهبة لكل مقاومة . كنت مصممة على أن الأمر انتهى . . . .

هل أحب رجل امرأة كما أحبنى خورشيد ؟

هل عبدت امرأة كما يعبدنى هو فى محراب هذا الحب ؟

ناداه كل شىء فىّ . . . وتمناه . . ولكنه أحجم إحجام الفارس النبيل . . . تذكر حسن ، وتذكر البيت الذى له رب .

وأبى إلا أن يكون لعبادته محراب لا تشركها فيه أصنام أخرى ! . .

يالى من خيالىّ !

وصرخ شىء فى أعماقى ، وغطيت عينى . . وقف شعر رأسى . وتوقفت حركة التفكير والتنفس وضربات القلب لحظة . . .

هل هذا ممكن ؟. . .

هل هذا ما تمخضت عنه السماء التى ارتفعت ورفعته إليها ؟ . . .

وجذبت شعر رأسى فى يأس وأنا أشدد إغماض عينى .

ليس هذا هو الذى صورته لى أشواقى وحنانى المتدفق . صورت لى شيئاً آخر . قبلة حنان . همسة حب وأمومة. . .

كانت حناناً محضاً تلك القبلة التى طبعتها على فم طفل جميل لطيف ،

كالأم العابرة التى ألقمت ثديها الوليد اليتيم الساغب الباكى . . .

لكن لماذا أكذب ؟ لماذا أهذى ؟

فردية حنانى أوقعت فى نفسى أن الذى جرى بيننا شىء فريد ، ليس له شبيه بين البشر . . .

ولكن ويلى من تفاهة البشر . هذا قدرهم . . . حتى حين يصعدون إلى سماء الآلهة بعواطفهم ، يكون ذلك على جناح وقوده حرارة الأجساد ...

وأطرقت أكاد أتميز من الغيظ .

ثم رفعت رأسى ونظرت إلى الأريكة فى تحد حانق . . .

ونهضت ملقية رأسى إلى الوراء ، وخرجت من الحجرة إلى حجرة نومى ، وارتديت ثوباً للخروج . . . أبسط ثوب وقع تحت يدى ، ولم أنظر فى المرآة إلا لأمشط شعرى .

ونظرت إلى خف عونى الذى عثرت به فى طريقى ، ثم رفسته فنحيته ، وأنا أبرجم ساخطة عليه . . .

أليست هذه جنايته . . .

أليس هو الذى أصر على ألا يفهم حالتى النفسية أمس ، فاستبقانى أسبوعاً . . . والأسبوع مدة قصيرة يا أميرة تستطعين الصبر عليها ؟ أسبوع مدة قصيرة !

بل ربع ساعة كانت أكثر مما ينبغى !

ما أغبى الرجال . . مهما بلغ مبلغهم من الذكاء والفطنة . . . ويتعجبون لماذا لا يفهمون المرأة !

كنت أدرى منه بدخيلة نفسى . ولكنه تناول الحقيقة المتفجرة ببرود العقل . . . كأنما اللغم شىء يخضع للمنطق والعقل . . .

هراء . . . وبلاهة !

هو الذى جعلنى أسقط . . التمست النجاة فأمسكنى ، حتى واجهت الهزيمة السافرة . . . ولم يعد فى استطاعتى أن أغالط فيها نفسى . . . . تبًّا له !

وصفقت الباب بعنف ، وهبطت الدرج كالمجنونة وأنا أبرجم بالسباب ، وخرجت بالسيارة من الجراج ، وانطلقت أجوب أطراف القاهرة من أقصى ضواحيها إلى أدانيها . . . من المقطم إلى الهرم . ومن حلوان إلى طريق السويس . . . .

وعلى شاطئ النيل ، بعيد الساعة الثالثة ، جلست وأنا أتصبب عرقاً إلى غداء خفيف فوق إحدى البواخر التى أعدت لاستقبال السائحين .

كانوا جميعاً غرباء يتكلمون ألسنة غريبة ، فلم أستوحش بينهم وأنست إلى غربتهم . وأكلت ، وأنا أنظر إلى النيل يجرى من تحتى فى هدوء ، يحمل فى تياره الأسمر بلا اكتراث وبلا تمييز نفايات قصب ، وجيف حيوانات نافقة ، وأوراق أزهار ذبلت ، وأغصاناً مورقة وسفناً ذات أشرعة بيضاء . يجرفها كلها ويحملها ، وهو هو بهدوئه الذى لا يتغير . . .

وبدأت نفسى تهدأ . . .

وتذكرت عونى الذى لا ريب فى أنه الآن قلق لا يدرى أين ذهبت...

وهممت أن أنهض لأكلمه فى البيت بالتليفون . ولكن شيئاً فى داخلى استمرأ عذابه وقلقه فى تشف وضيع . فجلست ولم أذهب إلى التليفون .

وفى نحو الساعة الخامسة ، نهضت وركبت سيارتى إلى البيت ، فى الضاحية البعيدة . . .

ووجدت نفسى أصعد السلم فى ثبات ، ولا أفكر أدنى تفكير فى الغضب الذى سيواجهنى به . . .

كان فى خاطرى مذنباً استوجب ما نزل به من عقاب . . . هو الذى دفعنى إلى اكتشاف ضعفى . . . هو الذى أرغمنى على مواجهة المزيمة وقبولها . .. هو . هو .

وفتحت الباب . . .

ووجدته جالساً فى البهو ، وفى فمه سيجارة . وعيناه تتطلعان إلى فى تحفظ يخفى تحفزاً . . .

ودخلت ولم أقل شيئاً . ودخلت مباشرة إلى حجرة النوم فألقيت حقيبة يدى ، ثم عدت وجلست قبالته ونظرت إليه وانتظرت أن يتكلم، فسألنى بعد برهة بصوت هادئ :

ـــ هل تغديت . . . ؟

ـــ أكلت . . . وهل من المعقول أن أنتظر إلى هذه الساعة بدون طعام ؟

وأطفأ السيجارة ثم سألنى بهدوء أشد :

— وهل شربت قهوة العصر . . . ؟

وتحطم شيء من غضبي . انكسرت حدته ، وقلت بصوت أرق :

— ليس بعد . . . .

— القهوة يا حسن ! . . . لقد أفزعتني — جازاك الله يا شيخة !

فلويت بوزي قليلا وقلت :

— ألم أقل لك من الأمس إني سأمانة . . . أريد تغيير الجو . . . .

فقال في دماثة وملاينة :

— مفهوم . . . ولا اعتراض لي على أي شيء ولكن كان الأجدر بك أن تتركي لي خبراً مع حسن . أو أن تتكلمي بالتليفون . . .

وسكت قليلا ثم قلت :

— لم يخطر لي ذلك . . . كنت مشغولة بضيق أنفاسي عن كل شيء . . .

فقال وكأنه يغير مجرى الحديث : جميل هذا الورد الذي أرسله المعهد تحية لك . . .

فلاحت على وجهي ابتسامة شاحبة وقد أدركت ما يرمي إليه :

« كان الحادث قريباً من المعهد ، ولما اعتذرت اليوم عن الذهاب ، ظنوا أن السبب هو تأثير الحادث ، فأرسلوا الورد . . . وانتهز الأستاذ خورشيد الفرصة وأصلح المفتاح المعطوب . . . »

فهز رأسه ببطء وقال بلا اكتراث في الظاهر : « حسن قال لي كل شيء » .

ولم أدر ماذا وراء « كل شيء » هذه . . . هل قال له عن قصة السجائر التي غاب نحو عشرين دقيقة للبحث عنها فى دكاكين الحى ؟ ربما . . . . لم يوضح عونى على كل حال ماذا يعنى . . . وأنا لم أستفسر . . . . كنت غير مكترثة . . . وعادت إلىّ حدة الغيظ منه . . . وإحساسى بأنه السبب فى كل ما حدث لى من انهيار . . . .

وظللت مطرقة إلى أن دخل حسن بالقهوة ، فأشعل عونى سيجارتين ، ووضع واحدة فى فمى ، ثم جلس بجوارى ، وأدنى رأسى منه وقبل صفحة خدى ، فنظرت فى عينيه متسائلة ، ثم أغضيت أمام رقة نظراته . فقال لى ، وهو يتناول يدى ، ويعد أصابعى إصبعاً إصبعاً كعادته حين يدللنى ويهم بإجابة مطالبى : « هل تسافرين الليلة . . . أم أحجز لك تذكرة فى ديزل الصباح الباكر . . . ؟ اسبقينى أنت ، واستأجرى المسكن ، واهتمى بتأثيثه ربما أحضر إليك بعد أسبوع . . . لنقضى هناك إجازة طيبة هادئة . ستفيدك حركة البحث ، والتسويق . . . وانزلى كالعادة فى فندق لا توريل . فموقعه جميل ، وخدمته حسنة ، والطعام لا بأس به » .

ليته قال ذلك بالأمس . . .

لا بأس على كل حال . . لم تزل هناك فرصة لإنقاذ ما يمكن إنقاذه .

— غداً . . . فى أول ديزل . . .

٣٢

كل شيء صاف ، مشرق ، على الشاطئ المهجور . . . وعلى الرمال ، حيث انحسر المد ، بقايا أعشاب قاتمة ذات رائحة نفاذة ، طرحها البحر عند انكسار حدته وانسحاب أمواجه . . .

ورنت فى أذنى كلمة عتيقة ، طالما وعتها طفولتى ، عن يوم الدينونة ، حين تنشق القبور ، ويجرر المقبورون أكفانهم . . . والبحر أيضاً يلفظ موتاه . .

ومددت يدى إلى شعرى ، أسوى خصلة منه عبث بها النسيم المالح ، ثم دخلت من شرفة حجرتى الصغيرة بالفندق المطل على خليج استانلى ، وقد بعث رسمه المستدير فى نفسى الرهبة والانقباض ، كمعبد رومانى قديم هجره العابدون ، وطارت عن مدارجه الآلهة ، وتركتها ملعباً للريح . . . .

ودخلت فى شرود إلى الحمام الصغير الملحق بالحجرة ، وبدأت أغسل وجهى ، وروحى حائرة ... وشيء فى داخلى يزهدنى فى البحر الهادئ والشاطئ المهجور ... حتى لقد بدا لى سطوع الشمس ودفء الجو نقيصة تعاب . والحق أننى لم أكن أدرى ماذا أريد . لقد بدأت أندم على حضورى . فالمعركة ليست مكاناً . ليست مدينة . المعركة ميدانها أنا . فمن ماذا هربت ، وها هى نفسى تصحبنى ، وتنازعنى أن أعود . . . ولا يرضيها أيضاً لو أننى عدت ! أين حزمى ؟ لماذا أكذب على نفسى !

إنه لم يكن منذ البداية حزماً خالصاً غير مشوب ! فهناك . فى حقيبة يدى برعم قرمزى اللون ، قطفته يدى وأنا فى أوج حماسى للحسم الباتر ، وأنا متأهبة للنزول فى الصباح كى يوصلنى عونى إلى المحطة . تركته على السلم وصعدت كأنى سأقضى حاجة ، ريثما يخرج السيارة ، وذهبت إلى الركن ، حيث سلة الأزهار الحمراء ، وربت عليها بنظراتى ، ثم قطعت منها هذا البرعم ودسسته فى حقيبة يدى . . . وعدت للحماسة ، والحزم والتجهم . . كأن يسراى لا تدرى ما فعلت يمناى !

المعركة ها هنا . فى داخلى ! هل أريد أولا أريد ؟ هذا هو السؤال . . . وأنا يارب لا أدرى . . . . أنت وحدك الذى تدرى ماذا أريد . . . فهل تطلعنى على ذات نفسى ؟ . . .

ونزلت ، واستقبلت طريق الكورنيش ، وطفقت أمشى ، وأتطلع إلى البحر . . . وكل شىء فى نفسى قاتم ، مكفهر . . . . لا يشبه فى شىء إشراق الشمس وهدوء البحر وصحو الجو . . . .

ونزلت إلى الرمال . . . أثيرها بقدمى الحافيتين بعد أن خلعت حذائى المنخفض الذى ارتديته للمشى الطويل . . . وقلت أبللهما بالماء الملح ، وأتلقى لمساته على كعبى ... فليست لى للاستحمام الآن رغبة . ولا أدرى متى تواتينى على شدة ولوعى بالسباحة فى ذلك البحر كلما وقع نظرى عليه ...

وعن كثب وقفت حاسرة الثياب عن ساقى ونظرت إلى ماء البحر المخضر . . . ثم بصقت فيه . . . ولم يتعكر ماؤه قليلا ولا كثيراً . . . . .

وتذكرت أياماً له على غير ذلك الصفاء . . . يرغى ويزبد . . . وأوليته

ظهري عائدة من حيث أتيت ، فعلقت بأصابع قدمي أعشاب مختلطة بقواقع وأسماك صغيرة ميتة . . .

أتراه هكذا لأنه لفظ موتاه هؤلاء ؟ وهل تهدأ أعماقي عندما يتاح لها أن تلفظ موتاها ؟ولكن متى ؟ . . . متى يارب تخرج نفسي موتاها؟ . . . . ماذا يكونون حين يخرجون من أعماقي ويطرحون على الرمال الساخنة ؟ هل يكونون واحداً ؟ أو اثنين ؟ أو ثلاثة ؟

وغسلت قدمي في الرشاش ، ولبست حذائي ، وأنا أتساءل ترى ماذا يصنع الآن ؟ وتراءى لي وجهه حين يجيبه حسن في التليفون أني سافرت ، ولا يدري متى سأعود . . . تراءت لي ملامحه واضحة . وجمدت حركة يدي . وجف ريقي ، وكدت أتعثر في سيري صاعدة السلم إلى الشارع الخالي من العابرين . . .

وحاولت أن أطرد الجني بتعويذة لا تخيب . حاولت استحضار صورة عوني في ثباته الراسي كالطود ، أو كالبحر المترامي الذي لا تعكره بصقات الباصقين . . . ولكن مخيلتي عجزت عن استحضار ملامح عوني ! وألححت عليها ، ولكن الملعونة أصرت على العصيان . . . ؟ أهذه خاتمة سبعة عشر عاماً لا افتراق فيها بالجسم أو الوجدان ؟ أهذا نذير صادق بمن سيكون المطروح على الشاطئ الساخن حين تخرج أعماقي المضطربة موتاها . . .؟

وتمنيت أن يكون هذا . . . ! تمنيته لا عن كراهة . كلا ! ولا عن تفضيل واختيار . كلا ! تمنيته لأن الجواب الحاسم — أي جواب حاسم —

هو الذى أنشده كى أستريح . . .

ليكن هو إذن . أو الآخر . سيان ! أو كلاهما . . . سيان أيضاً . . . . أريد أن أستريح . . . وأن تخرج أعماقى موتاها . . . .

وتعلقت بهذا النذير ، وقلت أجلس فى شرفة « بترو » ، وأتناول طبقاً من « الإسباجتى » الذى يجيد صنعه ، وسمكاً مشويًّا ، وأتعزى بالطعام . . .

وركبت سيارة أجرة . . وفى ركنها عكرت علىّ طمأنينتى نفسى المتمردة التى لا تريد أن تهدأ :

— غير معقول أن تكون ملامح عونى قد أصبحت نسياً منسيًّا ! أنت تخدعين نفسك يا امرأة . . وتنساقين وراء هواك . . . اسألى نفسك الآن ، كيف كانت ملامح رفقى ؟ . . . كم مرة فى السنوات الأخيرة حاولت أن تتخيلى ملامحه بوضوح فاستعصت عليك ، حتى كنت تعودين إلى صورته الشمسية ؟ . . . .

— ولكن رفقى انقضى عليه أمد طويل . وعونى لم أفارقه إلا منذ ساعات . . . .

— أنت تغالطين نفسك . عونى لم ينته من حياتك ... أنت واهمة ... ماذا تظنين ؟ أتظنين أنك لوكان الأمر بيدك ، كنت تسعدين مع خورشيد . تتزوجينه مثلا . . أو تكونين فى حكم زوجته . . وتنفضى يدك من عونى نهائيًّا ؟ . . .

وشعرت بغيظ من نفسى . وبرغبة فى تحطيم شىء . . . لأن جانباً من

جوانب حياتى يجب أن يزول ويتلاشى . . أحد الحوادين اللذين شدهما القدر إلى كيانى يجب أن يصعق ، أو يقطع الحبل الذى يربطه بى ، لأن كلا منهما يندفع فى اتجاه . . وأنا أعرف أيهما الذى أستطيع أن أتخلى عنه . . .

ليست المسألة من منهما يجب أن أقصيه ، أو أقتله فى أعماق ، بل المسألة من منهما الذى « أستطيع » أن أعيش بدونه الآن . . . بهما معاً ؟ مستحيل !

وناديت الساقى ، وطلبت زجاجة نبيذ . لابد أن أسكر . . . . فهذه حالة لا يحتمل فيها الصحو . . . وعند السكر يسكت العقل ، وتتكلم الأعماق المظلمة المتوارية عن العيان . . . وشربت . . . وعدت أسأل نفسى : « لماذا لا أعيش بهما معاً ؟ . . . »

ولم تستطع حرارة النبيذ المتصاعدة أبخرته إلى دماغى أن تجعلنى أستسيغ هذا الازدواج . . .

تباً لى ! يبدو أننى امرأة فاضلة بالفطرة ! وهذه أحياناً مشكلة ... ! ما أسعد القادرين على ازدواج الحياة ، فهم أصح تكويناً . . . هم أكثر مطابقة لمنطق الطبيعة ، ما دامت الطبيعة قد خلقت فيهم ازدواج الشعور . . .

وعقدت جبينى بيدى ، ثم طلبت قدحاً من القهوة السادة ، كى أقاوم سورة النبيذ . . . النبيذ الذى لم يسعفنى ، وزادنى دواراً على دوار . . . طلبت القهوة ، وأنا أصب لنفسى القدح الأخير من النبيذ !

لماذا لم ألتق به منذ البداية ؟ لماذا تصر المقادير على هذه التعقيدات ؟ لماذا لم أكن فى مثل سنه ، كى ألتقى به وأنا فتاة . . . وأحبه عندئذ بلا احتجاز ، وبلا تردد ، وبلا ندم . . . .

أف لهذا الساقى ! لماذا لا يسعفنى بالقهوة ؟ . . .

ها هو ذا أخيراً . . . !

ـ قدح آخر من القهوة من فضلك ! . . .

ومن خلال دخان القهوة الساخنة ، وطعمها المر ، حاولت أن أتخيل نفسى عروساً شابة لخورشيد الشاب . . . وتوقف ذهنى عن التفكير فجأة فى تلك الصورة . وجد أمامه سداً . سداً من الواقع . ومن المنطق :

أميرة التى أحبها خورشيد ليست الفتاة الساذجة التى تشبه كراسة بيضاء تشترى مثلها بقروش ، لأنها خالية من كل كتابة . . . أميرة التى هام بها خورشيد وعبدها عبادة ليست كراسة بيضاء . . . هى مخطوطة كتب معظم سطورها رجل ضخم العقل كبير القلب ، فى سبعة عشر عاماً ، وكتب بقية السطور زمن رزقها بطفل ، ثم سلبها الطفل ، بعد أن سلبها القدرة على الأمومة . . . أميرة هذه بعضها أم . وبعضها امرأة واثقة من أنوثتها وبشريتها ، لأنها تقف كالتمثال المرتفع ، فوق قاعدة شاهقة اسمها عونى ! إنه يحب عونى الذى فى داخلى ، الذى صاغ طبعى الشامخ ، وثقتى الراسخة ! عونى الذى أرتكز على صخرته الصلدة العالية . . .

أميرة بغير هذه القاعدة الشاهقة ، قزم أو شبه قزم . . أميرة بغير هذه الصياغة الفذة ، فتاة عادية ، كالكراسة البيضاء ، يخرج المصنع مثيلاتها بالملايين . . . أما المخطوطة فشيء نادر فريد . . .

كان من الممكن أن يخلقني الله فى سنه . وأن نلتقى ولست مرتبطة بإنسان . . ولكن كان قصارى أمرنا عندئذ — وياللسخرية ! « عابر يرنو لعابرة تروح وتغتدى . . . » ! أف لهذه المصائر المعقدة !

وجاء الساقى بقدح القهوة الآخر . . . .

ولم يزدنى ذلك القدح الثانى قدرة على حل عقدة مصيرى . . . وعدت إلى التعلق بالحيلة السابقة : محاولة تذكر ملامح عونى . ولم أستطع أن أتمثلها . . . وإن استطعت أن أتمثل نظراته الحانية ، ولمسة أصابعه فى شعرى ، تزيدنى هدوءاً . . . وقارنتها بلمسة أخرى . . . .

ما أفظع الفارق !

لمسة كالتيار الصاعق ، تتلاشى أمامها الإرادة ! ويعصر قلبى الحنين ، وتبعد عنى الهدوء والطمأنينة بعد قطب الشمال عن قطب الجنوب !

أين أنا يارب فى هذا الموج المتلاطم ؟

ما أحوجنى إلى طوق النجاة كى لا أغرق . . . لو أننى كنت راغبة فى النجاة ! ولكن هذه هى المسألة ! أن تطلب نفسى النجاة . . . وعندئذ يكون ما أقربها . . . !

ولكن نفسى لا تريد أن تطلب النجاة . لا تريد ... لا تريد !

الفراشة تترامى على النار . . . فراشة لها عقل يدرك أن النار تحرقها ، ولكن العقل عاجز . . . والفراشة تتهافت على النار !

هل يمكن أن تخرج أعماق موتاها بعد هذا الثوران الهائج ؟

لابد ! لابد من يوم يخرج فيه البحر موتاه . . . !

ولكن ستكون على الشاطئ الساخن يومئذ أكثر من جثة : وستكون بين الجثث أشلاء فراشة تتهافت فى إصرار على ألسنة النار . . . .

— قدح قهوة ثالث من فضلك . . . !

وألصقت جبينى بزجاج الحاجز الذى يحجب هواء البحر البارد عن الجالسين . . . .

ألهذا السبب لا أستطيع أن أتبين ملامحه . وأتبين ملامح خورشيد ؟

ألأنه مصدر الطمأنينة والهدوء ؟ ألأنه اندمج فى نفسى . . . . فصار قطعة منى . . . لم أعد أراه شيئاً خارج كيانى ، مستقلا عنه . . . هو كله هنا ، فى عروقى وأعصابى . . . لم أعد أفكر إلا به . . . وحتى حين أتعثر ، أتعثر به ، وهو جزء منى ؟ وحين أضل وأحار ، يكون معى فى ضلالى وحيرتى ؟ . . . فكيف أطلب ما هو منى ؟

أما الآخر . . . فأطلبه ، لأنه ليس منى بعد . . . أريده ليكون فىّ ، ومنى . . . أريد أن أستوعبه وأضمه لكينونتى . . . .

وعلى بخار القدح الثالث من القهوة المرة ، تراءت لى عيناه الضاحكتان، وخداه المتوردان ، وقد زادت الحمرة نمشهما وضوحاً .

محال ! محال أن أحترق بهذا الضياء الصافى الرقيق . . . !

كلا ! إنه لا يحرق . ولكنه كتيار الكهرباء اللطيف : يصعق !

إنه يشل إرادتى . . . . يجعلنى أتخاذل وأستسلم بلا اختيار . يلغى ذاتى وأنا أطلبه . . . كالخمر المسكر الذى يدب فى الأعضاء . . . ولا يستطيع إنسان يحترم نفسه أن يعيش مخموراً على الدوام ، أو يرتب حياته على أن يظل مخموراً . . .

إنسان محترم !

هذه هى المسألة أخيراً : أحترم نفسى أو لا أحترمها ؟ ... أما معه، فالمسألة : أعيش أو لا أعيش ؟ . . .

يجب أن اختار . . . يجب أن أستجمع عزيمتى . . .

هل أختار العبودية . . . أم أدفع ثمن حريتى ، ليكون زمام أمرى فى يدى لا أستجيب للمسة من أصبع فتى جميل عزيز ؟

وثمن حريتى : أن تخرج أعماقى موتاها . . . موتى أعزاء . . . . يقتلهم التيار العاتى ، ثم يلقى الأشلاء الجميلة على الشاطئ الساخن . . . الثكل مرة أخرى ، بعد عشر سنين !

هذه هى المسألة . . . .هذا هو ثمن الاحترام . . .

وانتصبت واقفة وناديت الساقى ، ودفعت ثمن الطعام والشراب ، ولم يفتنى أن أمنحه هبة سخية . . ثمن احترام !

٣٣

الأوركسترا من ورائى يعزف لحناً لا أعرفه . البخار الحار يتصاعد من فنجان الشاى . وأمامى من خلال النافذة قرص الشمس الأرجوانى وقدهم بالغوص فى اليم . . .

ــ هو الذى حطم مناعتى . . . وضعنى وجهاً لوجه أمام ضعفى ورغبتى . . . مزق الستار الذى كان يخفى حقيقة أعماقى عنى . . . حتى صارت المسألة الآن مسألة كرامة . مسألة انتصار شاق يحمل كل خسائر الهزيمة . معركة أنا الغالبة فيها وأنا المغلوبة . كل هذا جناه علىّ . . . لأنه لم يدعنى آتى إلى هنا قبل أربع وعشرين ساعة . .

ــ هيه . . . وماذا كان قبل أربع وعشرين ساعة ؟

ــ كفى غباء ! أنت تعلمين أن العبرة ليست بالأفعال ، بل ببواعثها ، الأفعال رموز لعواطفنا وأفكارنا . . . وذلك فعل نبع عن قوة وغنى وبذل . كان إعطاء ولم يكن استسلاماً . كان حناناً ورأفة ولم يكن رغبة واحتياجاً . لم أكن فيه الطالبة . . . المنادية . . . التى يعذبها الحرمان . . . أى غباء وأى غفلة فى التعلق بالظاهر المادى للأفعال ؟! . . . فى ذلك اليوم الأول كنت هاربة كى أحميه هو من نفسه ، واليوم أنا الهاربة لأحمى نفسى من نفسى بلا جدوى إ شد ما أكره عونى لهذا . . . لهذا وحده ! لقد هدنى ، وهو الذى شاد كيانى !

– أهي رغبة حس ؟ ألم تكوني راضية مرضية فى كنف عوني !

– هراء . ليس رغبة حس ما بى ! أنت أول من تعلم أننى لم أجد بين ذراعى خورشيد شبع حواس . . . . ذلك الذى كنت أجده دواماً بين ذراعى عونى . . . لست الحلوك الجائعة إلى اللذة يا امرأة . . . أنت تعلمين هذا ! وإنما هى رغبة النفس . رغبة القلب . لذة الشعور بأننى كل شىء عند إنسان ما . . . إننى صرت لدى هذا الإنسان حاجة جوهرية لم يعد فى استطاعته أن يعيش بدونها . . . أنا الشمس التى بغيرها يذوى عوده الناضر . أنا الهواء الذى بدونه يختنق . . . أما الآخر ، فإنه البحر الذى أنا السمكة الذهبية فى لجته . . . أنا التى أعيش به . . . ولكنه من غيرى يظل هو البحر فى مده وجزره . . . مامات فى أعماقه يلفظه على الشاطئ ثم ينحسر إلى آفاقه لا يغيره شىء!.. شد ما أنفس عليه هدوءه ، واكتفاءه ، وقوته . . . وأنه ليس محتاجاً لى – مثل حاجة خورشيد – كى يرفع رأسه ويتنفس ويعيش ! . . .

– مرحى مرحى ! لقد بدأت المسألة باحتياج الفتى إليك كى يعيش ولا يذوى عوده الناضر – واحسرتاه ! . . . ثم انتقلت فى أقل من ليلة ونهار إلى احتياجك أنت إليه . . . احتياج الصنم إلى المؤمن به المتعبد إليه . . .

– بالضبط ! وإلا انقلب الصنم من شىء قدسى إلى حجارة تربط إليها الدواب ، أو يبول عليها كلب عابر ، أو – على الأكثر – توضع للزينة فى حديقة . . أو صالون !

ـ شيء جميل . . . خذ كل هذا جسدى كى تكون لك به حياة ، وتكون بالتهامك إياه لى قداسة وألوهية . . . إذ أمنحك الحياة ! مبارك اسمك بين العاشقات ، أيتها المضطجعة باسم الحب ! . . . .

ـ السخرية تمسخ ، وتقتل . . . ولكنها لا تستطيع أن تغير الحقائق . . . أنت تعلمين هذا . وتعلمين أن الذى قلته حقيقة . . .

ـ لا شك عندى فى هذا ! المسألة هى أن فتى رفعك من مصاف البشر إلى سماء الآلهة ، إذ اعترف لك أنك رددت إليه إنسانيته وانتشلته من مدارك الحيوان . وأنت الآن تجدين غضاضة فى التنازل عن عرش الآلهة ، والارتداد إلى مصاف البشر . . . .

ـ غضاضة ؟ كلا ! بل ليتنى أستطيع . . . المسألة أنى لا أستطيع ، فهناك إنسان يتحطم بهذا التحول . . .

ـ جراح الشباب سرعان ما تلتئم . . . لاتبالغى فى القلق عليه . . . المسألة أنك تحبينه . . . حباً أقوى من الجنس . أقوى من الجسد . . .

وضعت رأسى بين يدى . . . . والمطارق التى لا ترحم تدق جوانبه ، والكلمة التى مرت بخاطرى وأنا على مائدة الغداء فى مطعم بتروترن فى أذنى :

ـ هو الثكل مرة أخرى . . . . بعد سنوات عشر !

وأحسست بالرغبة تعاودنى فى الشراب . ففزعت . . . إنه الطريق المفتوح إلى الإدمان . إلى طلب العزاء بالهروب إلى دنيا من الوهم والتحسر .

ــ وليس هذا طبعاً ما يتفق وعزة الآلهة . . . !

ــ كانت الآلهة تشرب رحيقها المشهور ، النكتار . . . .

ــ كان ذلك للمرح والقصف والسرور ، ولم يكن للعزاء والتحسر . . . .

ــ لن أشرب على كل حال . . . لن أشرب !

وأشعلت سيجارة ، وحاولت أن أصغى إلى الأوركسترا التى كانت تعزف الآن ألحاناً راقصة ، يرقص على أنغامها نفر من الشبان .

وأشحت بوجهى عنهم ، ثم غادرت أتنيوس بعد قليل . . . فوجدت الهواء على طريق الكورنيش أمسى بارداً ينفذ إلى العظم ، فركبت سيارة أجرة . فى الطريق تذكرت أنه لم تبق معى سجائر . فاستوقفت السيارة عند محل بقال ، ونزلت أشترى سجائر . وأنواعاً من الجبن والزيتون . فربما جعت والليل طويل مع الوحدة والبرد . . . ثم داعبت نظرى زجاجة تقف مزهوة وسط الواجهة الزجاجية . . . فأشحت عن الرقابة المتربصة فى أعماقى تنبهنى إلى قرارى منذ دقائق . واشتريت الزجاجة أيضاً ، واستأنفت طريقى إلى الفندق وأنا أشعر بسرور مريض لأننى أطلقت لرغبتى العنان ، ولم أتقيد بشىء فى مواجهة الوحدة والليل . . .

وفى الحجرة الضيقة التى تساعد على الدفء وتقلل من وحشة الوحدة ، جلست فى قميص النوم على الفراش ، وزجاج الشرفة مقفل ، وأشعلت سيجارة ، ورحت أنظر للبحر فى تشف . وأمامى الكأس أمد إليها يداً . ولكنى أعلم أنى أستطيع فى أى لحظة أن أتناولها فلا يردنى عنها راد . . .

وبدأ القمر يطلع . . . وبدأت أنوار مراكب الصيد التى تبحث عن سمك المياس تنتشر على صفحة البحر . . . البحر الذى ارتفع له مع الغروب موج ، وخربر جياش . . . .

وشربت أول كأس . . . وأشعلت سيجارة ثانية . . . وبعد الكأس الثانية سألت نفسى والابتسامة الخبيثة تتلاعب على فمى :

ـ أيهما كنت أتمناه أنيساً فى ليلتى هذه البيضاء ؟ . . . .

واحتجت إلى كأسى الثالثة . . . وتلمظت معجبة بجودة الشراب ، قبل أن أجيب : « مع أحدهما ، كنت أسكن مخلدة إلى صدره ، وأنام . . . وهو يرمقنى بنظرة تدليل . . . وقد سكن فىّ كل جائش ، ولم يعد لى فى شىء أرب . . . والآخر . . . »

وصببت لنفسى كأساً رابعة ، وأخذت أنظر إلى لونها الذهبى الصافى فى ضوء المصباح ، ثم مددت ساقى كالمسترخية . . . .

ـ لم أكن لأنام . . . أنفاسه كانت ستهدأ فوق صدرى ، ثم ترنق عيناه للنعاس ، وأنا أداعب بأناملى شعره الأشقر المبتل بالعرق . . . ينام ورأسه فوق كتفى ، وأظل أنا ساهرة ، أنظر إلى القمر . . . ولا أشتهى النوم . . . فمن أعطى ليلة كهذه لا يبذلها للنعاس . . . بل يحتشد لها صحوه كله . . . حتى لا تفوته فيها همسة .

وجعلت أصابعى تداعب الوسادة . . . ثم قبلتها . . . وأخذت أضحك من نفسى وأضحك . . . وأضحك . . ثم نمت منكفئة على وجهى ، ولم أتنبه إلا وقد لسعنى البرد فى ساقى العاريتين ، فقمت وبى

صداع شديد ، وجذبت الغطاء على جسمى ، ثم استغرقت فى نوم تمزقه الأحلام المختلطة ، حتى الصباح . . .

ومع أولى أشعة الشمس ، دخلت الحمام، ووقفت تحت الرشاش أنظر إلى جسمى ، وفى ذهنى سخرية شديدة من ليلتى : « صباح الخير أيتها المراهقة ! . . . »

ولم أحر جواباً . . . فقد تراءت لى تلك الليلة غريبة على . كأنها حدثت لامرأة أخرى . أعرفها . ولكنها ليست أنا . . . وقطبت حاجبى . أهذا شأنى كلما أنكرت على نفسى أمراً أقدمت عليه ثم وجدته لا يليق باحترامى لنفسى ؟ . . . ألم يكن هذا إحساسى أيضاً بعد تلك اللحظة المنطلقة على الأريكة فى حجرة البيانو ؟

ولكن تلك أنا . . . لا حيلة فى ذلك . ولاجدوى من التمنيات . ولاحيلة أيضاً فى الإنكار أننى اليوم غير تلك التى قضت ليلتها فى الشراب . . . أنا الآن امرأة عارية تحت الرشاش فى حلقها طعم الرماد ، وفى رأسها صداع . وليس فى نفسها رغبة فى شىء . تريد أن تكون وحيدة . مع الشمس وعيون الناس .

خورشيد ؟

إنى على الأقل لا أدرى بالضبط ماذا كنت أقول له وكيف كنت أتصرف معه لو ظهر أمامى الآن فجأة . . . أكبر ظنى أننى كنت أسدل الستار « الكريتون » وأقول له بلهجة طبيعية :

— انتظرنى فى البهو . سأنزل إليك بعد خمس دقائق . . . .

ولم أستطع أن أتصور شيئاً وراء ذلك . ليس فى نفسى شىء معين أريد أن أقوله له ، أو أسلوب معين أقضى به معه النهار . . . . آه ! ربما طلبت منه أن يأتينى بقرص من الأسبيرين أتناوله مع القهوة ، ثم أقول له فى مرارة :

ــ أترى ؟ ليلة واحدة من السهر والانفعال والاستجابة لدعوة القمر والكأس تركت هذه الحلقات السوداء تحت عينى . . . لا تضيع يوم إجازتك عبثاً . . . اذهب وامرح مع فتاة من سنك !

مجرد كلام . . . فهذا هو الغيظ يتملكنى لتصور ذلك الخاطر . . .

ولبست ثيابى ، وعالجت ما استطعت السواد الذى تحت عينى ، ثم نزلت وفى عزمى أن أقضى اليوم مع سمسار للبحث عن المسكن المطلوب .

٣٤

مر يومان وأنا أبحث . صممت على المشى طول الوقت. لبست الحذاء المنخفض لهذا الغرض ، وظللت أصعد السلالم وأهبطها ، وأركب المصاعد وأتفقد دورات المياه من الصباح إلى الغروب ، بلا توقف ، إلا ساعة أتناول فيها الطعام . . . وفى بترو دائماً . لأنى كنت مصممة على السكنى فى المنطقة التى تبدأ بسان استيفانو وتنتهى بالمنتزه . . .

وفى الليل ؛ لم أكن أجد متسعاً للتفكير فى شىء سوى النوم .

والنوم كان يواتيني بلا تفكير . . . وفي صباح اليوم الثالث عثرت على ضالتي . واستأجرت المسكن وبدأت أفكر في شراء الأثاث له . . .

وبدأت الطواف بمحال الأثاث المستعمل وصالات المزاد ؛ كي أشتري ما أستطيع بالممارسة ، أو عن طريق المزايدة . . .

كان قوتي الأساسي في هذه الدوامة هو السجائر . . . ولم أكن أعود إلى الفندق إلا في الليل . . . وأنظر إلى الزجاجة التي بقي فيها ثلثها ولا أجد فيها أدنى إغراء . . .

وذهني كأنما قد تبلد ، وخلا من كل شيء عدا الأثاث ، والألوان ، والأقمشة . . . أجد في التفكير في هذه الجمادات راحة كاملة . أما البشر فلم تعد بي حاجة إلى التفكير فيهم . . . حسبي الآن الجمادات . . . . ، والحمام الساخن في الليل ، ثم النوم العميق إلى الصباح . نوم بلا أحلام . وحتى إن كنت أحلم ، لم أكن أذكر عند يقظتي من الأحلام شيئاً . . . .

وجاء يومي السادس في الإسكندرية دافئاً ، وقد تم إعداد البيت ، ونقلت إليه حقيبتي ، بعد أن أخطرت عوني بالعنوان . . .وكنت قد فكرت في اليوم السابق أن أكلمه في التليفون لأحدثه عن المسكن . ولكني لم أجد في نفسي رغبة لذلك الاتصال الشخصي بأحد . . . لم أكن واثقة من اللهجة التي أكلمه بها . ولم أجد في نفسي ميلا للتفكير فيما يناسب من اللهجة والكلمات ، وما لا يناسب . . . فأرسلت برقية بالتفاصيل . . . .

وفى ذلك اليوم السادس – يوم الخميس – حملت منشفتى وذهبت إلى الشاطئ ، ونزلت البحر ، وأنا فى حالة سكون نفسى لا أدرى مدى عمقه ، ولكن كان حسبى ظاهره المسالم . . . وسبحت ، وتركت جسمى للماء . . . ثم تركته على الرمل للشمس والهواء . . . وقد غطيت وجهى بصحيفة الصباح التى لم أجد عندى رغبة فى قراءة أكثر من عنوانها . . . .

وفى الساعة الثانية عدت إلى البيت ، ولم أزل أستغرب جدته . حتى لقد وجدت فى نفسى خجلا من العرى فيه أول مرة ذلك الصباح . وأرسلت البواب فجاءنى من الفرن بالسمك الذى كنت أعددته للشى . . . وجاءنى يتحلب له ريقى . . . ونظرت إلى الزجاجة التى بقى فيها ثلثها . . . ثم صببت لنفسى كأساً . وقبل أن أرفعها إلى شفتى ، رن الجرس .

ونهضت لأفتح الباب وقد وثب قلبى بين ضلوعى : « عونى ! »

صحت هاتفة باسمه وتعلقت بعنقه . وشعرت وقد وقع بصرى عليه أننى كنت أفتقده حقًّا وصدقاً . . . مع أننى بالأمس فقط تحاشيت أن أسمع صوته فى التليفون !

حقيقة أخرى لاحيلة فيها !

ووضع يديه حول وجهى وجعل يتفحصنى فى هيام . . . نعم فى هيام لا فى حنان فقط . . . ثم طبع على فمى قبلة . . . وأغمضت عينى . . . وقلت اخلع ثيابك . . . واغسل وجهك لنأكل . . .

ونظر إلى الكأس والسمك المشوى الشهى ، ثم نظر إلى وجهى بإعجاب

وقال : « خلقت وثنية يا امرأة . . . تقدرين مناعم الحس . . صاحبة مزاج ! »

واحمر وجهى . . . واحتضنى . ما أشد حلقة ذراعيه حول كتفى ، وخصرى . ما أحر قبلته الطويلة على أصل عنقى . . .

وهمست وأنا ألهث : « كم افتقدتك يا عونى » . . .

ولم يتكلم . . . كان فمه يجوب صفحة وجهى ، وعينى . . . وأصابعه تجوب معاطفى وكأنها لاتصدق أننى بين يديه . . .

وازداد خفقان قلبى ، وتخاذلت ساقاى ، وقلت فى ضعف وعدم اقتناع « الطعام يا عونى . . . كل السمك قبل أن يبرد . . . »

فنظر فى عينى نظرة عتاب عابثة :

وسكت . . . .

ولما رفع الكأس إلى شفته ، وقد صار السمك بارداً كالثلج ، قال فى تهكمه اللذيذ :

— برد السمك . . .

ونظرت إليه معاتبة . . . .

— سآتى بكأس ، مادمت أخذت كأس . . .

ونهضت ، فجذبنى من ذراعى عنوة ، وأجلسنى .

ونظرت إليه فى عتاب مر . . . . وألقيت رأسى على كتفه وعانقته ، ولم أعد أطلب من الدنيا شيئاً . . . حتى ولا الطعام . . . كنت أريد فقط أن أظل هناك ... مكتفية ... راضية ... مخلدة إلى صدره ...

وإلى النوم الذى أخذ يدب إلى أوصالى المسترخية . . .

وصحوت من ضجعة القيلولة ، وبى أثر من سكر معنوى لا يصحبه صداع . ووجدته بجوارى مفتوح العينين ، ملتصقاً بى ، وذراعه تحت رأسى . . . وابتسم: « ألم تجدى أوسع من هذا السرير ؟ كأنك أردت أن تنامى فيه وحدك ؟ . . . »

وقبلت فمه حتى لا أتكلم . . . لأننى لم أفكر أن ينام فيه سواى حين اشتريته . . . وضربنى على خدى ضربة خفيفة وقال : « عسى ألا تكونى نسيت شراء البن للبيت الجديد يا امرأة . . . »

ووضعت يدى على فمى . فقد نسيت ذلك فعلا . . . وما العمل فى قهوة العصر ، ولها عنده قيمة عظيمة . . .

وضحك ، وقال وهو يضربنى على خدى ضربة أخرى : « وهل كنت سأدخل عليك البيت الجديد ويدى فارغة ؟ هل أقل من نصف كيلو بن مطحون يا امرأة . . »

— أيها الأنانى : لم تفكر إلا فى نفسك !

— بل لم أفكر إلا فى نسيانك . . . ألم أزل قائماً بوظيفة الذاكرة لك ؟ !

وشربنا القهوة . . . ثم قال وهو ينهض ليرتدى ثيابه : « أين نسهر هذا المساء ؟ »

فقلت وأنا أتطلع إليه ، أتفحص ملامحه حتى لا تروغ منى حين أحاول تذكرها :

— حيث تريد !

— الشاى فى أتنيوس ؟

— كلا من فضلك ! إلا هذا !

فقهقه وقال :

— إلى داخل المدينة إذن . إلى . . .

— لاتقل لى . . اجعلها مفاجأة . . . أنا صديقتك وقد التقيت بى هنا فى الغربة . . . لقاء مختلساً . .

وقرصنى فى خدى ، ثم انطلق إلى الحمام ليحلق لحيته ويستعد للخروج . وانصرفت أنا أيضاً إلى الحمام بعد قليل . وكان يهم بمغادرته ، فوجدت عناء فى إقناعه إلا يعود إلى الحمام . . . .

ووقفت تحت الماء . . . فلم يسمح لى صوته بالتنبه إلى باب الحمام الذى فتح ، ووقف فى فرجته عونى يلتهمنى بعينيه . . . وفاضت نفسى بالرضا . . .

وفى السهرة شربت . وثملت . ورقصت . . . ورفعت عقيرتى بالغناء . . . والناس من حولنا يضحكون . ومعظمهم من الأجانب فى ذلك الملهى الليلى . . .

ومع تباشير الفجر عدنا إلى البيت . وقد ظللت نائمة فى السيارة على كتفه . فلما صعدنا إلى المسكن ، كانت عيناى مفتوحتين .

وفى الضحى ، وقف أمامى يوقظنى . . . ودهشت لما رأيته ، فقال مترنماً .

– جرح الغرام على خديك مندمل . . .!

واحمر وجهى ، فجذبنى من ذراعى وقال :

– أمامنا اليوم فقط يا امرأة تقضيه معاً ، قبل أن أعود إلى مكتبى فلا تضيعى الوقت فى النوم . . .

وانطلقنا قبيل الظهر نتشمس ، ثم أخذت حماماً طويلا فى البحر ، وعونى جالس يحرس الملابس على الشاطئ وهو ينظر إلىّ وفى فمه سيجارة . . .

وفى المساء سألنى : « أين نسهر الليلة ؟ . . . » فقلت له : « لارغبة لى فى الخروج . . . لماذا لا نقضى السهرة هنا ؟ تقرأ لى ، أو نسمع الإذاعة ، أو أى شىء . . . » فهز رأسه وقال وهو يرمينى بنظرة نهمة : « أنا أفضل فى الواقع (أى شىء) على القراءة . والإذاعة. . . »

وعلى أريكة من الطراز الأسيوطى جلسنا إلى جنب ، ورأسى فوق ذراعه اليسرى ، وفى يمناه ديوان « أبى ماضى » يقرأ لى ، ونشرب من كأس واحدة ، ويقبلنى . . . قبلات معظمها فى مفرق الشعر ، وصفحة الخد . . . وكان ذلك حسبى ، لأنى كنت قانعة بجواره ، لا أريد وراء طمأنينة صدره شيئاً . . . ودقت الساعة منتصف الليل ، ونهضنا إلى النوم . . . « اضبطى هذا المنبه الصغير الجميل ، كى ألحق قطار الصباح الباكر . » . فنظرت إليه معاتبة : « لماذا لم تأخذ إجازة أسبوعاً كما وعدتنى ؟ »

فمد أصبعيه وداعب بينهما طرف أنفى وقال : « إن أميرتى لم تكلمنى

مرة واحدة بالتليفون . فكيف أفرض نفسي عليها ؟ »

فمددت شفتي متغاضبة ، فجذبني بين ذراعيه . . .

ودقت الساعة الواحدة صباحاً ، قبل أن نستسلم للنوم . . . .

ورن المنبه في السادسة ، وصحونا وفي الرأس بقية كبيرة من النعاس . وبدأ يعد حقيبته على عجل . . .

وتخيلت نفسي وحدي بعد رحيله . . .

لقد عاد . . . عاد ملء نفسي ووجداني ، لم أفكر في شيء سواه وأنا معه فهل أعود إلى القلق ، والحيرة ؟ . .

لقد تعلقت بطوق النجاة . فهل أفلته لأصارع الموج وحدي ؟ ولأستحث ذاكرتي أن تبرز لي ملامحه فتأبى . . . .

لن أبقى . . .

وتراءى لي وجه خورشيد بعيداً ، واضحاً ، وسط ضباب . . . . يشمل جسمه كله . . .

ـ جراح الشباب سريعة الالتئام . . ! لن أفلت طوق النجاة. . .

وعاد من دورة المياه ليجدني أعد حقيبتي بسرعة ، ففتح عينيه محملقاً ، فقلت بهدوء : « سأعود معك . . . »

وانفرجت أساريره بالرضا ، ولم يتكلم . . . ولكني كنت أحس أن فرحه بقراري هذا كان فوق كل تعبير . . . .

وفي القطار جلسنا متلاصقين ، ولم نتكلم إلا قليلا . كلاماً عابراً . والصحف تشغل معظم انتباهنا . ولكني كنت في حالة بين اليقظة

والنوم . . . وكلما اقترب القطار السريع بى من القاهرة ، زاد إحساسى بأن هناك مشكلة أصعب مما كان يخيل إلى حين قررت العودة . . .

وبدأت أستنجد عزيمتى . لارجوع مهما اقتضى الأمر !

وقبيل محطة القاهرة دسست ذراعى فى ذراعه وقلت برجاء :

« عونى ! . . . »

فنظر نحوى وعلى وجهه تساؤل . . .وقد أحس فى صوتى الاهتمام . . .

« أريد منك شيئاً . . . »

— مرى . . .

— اعتذر تليفونيًّا عن العمل اليوم . . .

فظهرت عليه الحيرة . . .

— أريدك أن تبقى معى اليوم . لنحتفل وحدنا بعودتى .. . بتجدد إقبالى على الحياة . ألايستحق ذلك أن يكون يوم احتفال . . .

ونظر إلى من حولنا ، كأنه يعتذر لى عن عدم تقبيلى فوق جبينى ، ولكنه استعاض عن ذلك بتشديد ضغط ذراعه على ساعدى ، فأجبته بضغط شديد من أصابعى على عضلات ذراعه . . .

— ليكن !

٣٥

الساعة بعد العاشرة . . . وأنا أدخل بيتى كأنما أتيت من رحلة بعيدة . والشمس تزركش من خلال نقوش الستار أرض البهو . . . وابتسامة

حسن تلمع . وهو يمد يده ليحمل الحقيبتين من البواب الذى صعد بهما . . .

ـ أسرع يا حسن . أسرع . الأستاذ ينتظرك فى السيارة لتمضى معه إلى السوق . . .

وومضت عيناه . لأنه شم فى الجو رائحة وليمة من النوع الممتاز . . . . هل يكون عدد الضيوف كبيراً ؟ . . .

فقلت بلهجة غامضة :

ـ لا أظن . . . اثنان فقط فى الغالب . . .

وظهرت الحيرة على وجه حسن . . . وقبل أن يفتح فمه ليسأل عن شخصية الضيفين ، كان نفير السيارة يدعوه بإلحاح ، فحمل سلته الكبيرة ، وأسرع يهبط السلالم فى ضجة . . .

وتهاديت إلى حجرة النوم ، فخلعت حذائى ، ووقفت أنظر فى المرآة ، كأنى أتعرف على وجه قديم لأرى ما أصابه من تغير ، ومططت شفتى فى شىء من السأم المختلط بالحيرة والقلق . . . ثم شغلت بالسمرة البادية على بشرتى . وارتميت بعد ذلك بملابسى على الأريكة الكبيرة الحمراء المواجهة للفراش ، ونظرت إلى السقف . هذا السقف الذى طالما تطلعت إليه فى سنوات طويلة ، من غير أن يتغير وجهه الأبيض الشاحب . . وفى آخر مرة طلينا البيت ، خطر لى أن أغير لونه إلى لون العاج ، أو اللون الوردى ، ولكن عونى رفض بحدة ، وحملق فى وجهى متعجباً :

ـ لقد ألفت هذا اللون الأبيض . . . وسأشعر بالغربة إن تغير هذا

اللون ... سأستحى أن أتعرى أمامه وأنا أخلع ثيابى ...

وكتمت الضحك يومئذ من هذا الرجل الكبير الذى يشعر أنه تزوج لون السقف أيضاً . . . لايستحى أن يتعرى أمامه ويستحى أن يتعرى أمام لون آخر . . . . !

ورن جرس التليفون . ودق قلبى . ترى من المتكلم ؟ . . . .

وأسرعت أرفع المسماع . ولم أسمع صوتاً . فقلت :

آلو . . . آلو . . .

إلا أن الاتصال انقطع قبل أن أسمع رداً، فوضعت المسماع وأنا أهز كتفى فى غير مبالاة . . . . ولكنى فى الواقع أحسست قلقاً . وبدأ ذهنى يعمل بسرعة فى الاتجاه الذى كنت أروغ منه منذ وصلت : فى اتجاه خورشيد .

حيلة مألوفة من حيل العاشقين .

لاشك أنه استخدمها عشرات المرات . وكلما سمع صوت حسن ، أسرع بوضع المسماع . ولكن لماذا وضعه الآن إذن وقد سمع صوتى ؟ . . . مسألة محيرة ! . . .

هل خانه صوته أمام المفاجأة ؟ هل أراد أن يعرف وجودى ، ثم بعد ذلك يرتب أمره ؟ هل ظننى مريضة ؟

محال ! لابد أنه أحس بعنصر التغير فى الموقف بالنسبة له . لابد أنه شعر برغبتى فى البعد عنه . لابد أنه . . .

ورن جرس الباب . . .

ووضعت يدى على شعرى أسويه . إن عونى له مفتاحه . . . وحسن

له مفتاح الباب الآخر . . . لعله الكواء وأنا أزعج نفسي بغير طائل . . .

وفتحت الباب ، لأرى وجهه مكفهراً ، وعينيه غائرتين ، فيهما اتهام صامت ويكاد جمرهما يبعث الشرر . . .

وكان واضعا ذراعه على الجدار ، وذراعه الآخر وراء ظهره . . . وتنحيت عن الباب . ودخل من غير أن يتكلم . . .

وأشرت بيدى إلى أريكة فى البهو فجلس وشبك أصابعه بين فخذيه ومال بجسمه إلى الأمام ، وحدق فى وجهى وهو صامت .

واضطربت. أدركت أن مستقبل حياتى كلها متوقف على صمودى أمام هذه النظرات . إن ضعفت الآن ، فلن أملك زمام نفسى بعدها أبداً . . .

ويئس أخيراً من أن أبدأ بالكلام ، فقال بصوت أجش من حلق جاف : « أين كنت . . . ؟ »

وبدت نبراته حادة ، ذات أسنة كالحراب . نبرة رجل يحاسب ويتحفز فى اللحظة التالية أن يصفع . لهجة مالك، صاحب أمر وسلطان! وتجمعت إرادتى كلها فى لحظة واحدة. تجمعت بغير مجهود . كأنها كانت مغلولة مقيدة ثم تحررت فجأة من عقالها . . .ووجدتنى أبتسم ،وأتكلم وأتحرك بلا حرج ، وبلا اضطراب كأنى ممثلة عريقة فوق خشبة مسرح ، تحفظ دورها عن ظهر قلب . كنت أقوم بدور ربة البيت . دور المضيفة المجاملة . . .

ـــ فى الإسكندرية. . . ليتك تنتهز فرصة وتذهب إلى الشاطئ

فتمضى هناك بضعة أيام . . . سيجدى ذلك على أعصابك بصورة لا تتخيلها . . .

وحملق فى وجهى كأنه لا يصدق عينيه وأذنيه . أهذه أميرة حقاً. . . ولكن ابتسامة ربة البيت المجاملة لم تتغير ، وفى براءة تامة قلت له :

— عن إذنك. . .

وتوجهت إلى حجرة المائدة ، وفتحت الثلاجة ، فوجدت فيها تفاحاً فأتيته بثلاث تفاحات فى طبق وأحضرت معها سكيناً . ووضعتها بكل هدوء ، ونظرت فى عينيه باسمة وقلت له : « تفضل . . . . »

ثم حولت عينى عنه وهو لم يزل ذاهلا يحملق فىّ ، واتجهت إلى ركن البهو ، ورحت أعيد ترتيب المقاعد ، وهى بغير حاجة إلى ترتيب . . .

— أميرة . . .

والتفت نحوه فى دهشة طبيعية للغاية ولم أتكلم . . . .

فأخذ يدق الطبق بالسكين فى إيقاع منتظم مع مقاطع كلماته :

— لماذا فعلت بى هذا ؟ . . .

فابتسمت وهززت رأسى كمن تذكرت شيئاً كنت نسيته تماماً وقلت :

— آه . . . هل تعنى . . . . ؟

ولم أتم كلامى . . . بل استدرت إلى ناحيته ونظرت إليه قائلة :

— كل تفاحة . . . التفاح فاكهة جميلة . . . أحرص دائماً على وجودها فى البيت . مفيدة جداً للأعصاب. . . تصور . . .

وضحكت وأنا أضع يدى على عينى وأندمج فى تذكر الأمر العجيب ، وأنساق فى روايته غير ناظرة إليه وكأنه ليس هناك سؤال معلق لم أجبه عنه :

— عونى حين يأرق فى الليل يكفى أن أنهض وآتيه بتفاحة أقشرها وأقطعها ، وأضع القطعة فى فى ، ليأكل نصفها من بين شفتى . . . فلا يلبث أن يذهب عنه الأرق ، وينام . . .

وكأنما هذه الذكرى شىء مضحك للغاية ، فاستلقيت أضحك فى قسوة بالغة وقد أغمضت عينى ، ووضعت يدى تحت ذقنى . . . كأنه موقف تمثيلى ختامى يصلح أن يسدل عليه الستار . . .

ونزلت الضربة على وجهى . . .

لم تكن طعنة . . . كانت ضربة كما يضرب المعلم التلاميذ بحد المسطرة . ولكن الحد كان من الصلب . كان حد سكين الفاكهة ذات المقبض الفضى المزخرف . . .

— اضحكى ! اضحكى الآن ! اضحكى !

ثلاث ضربات . . .

وماتت الضحكات المتقنة القاسية فى حلقى ، وأخذ الدم يتدفق من ثلاثة شقوق فى صدغى الأيسر . . . .

وشهقت ، واتسعت حدقتاى فى حملقة مجنونة ... فى الشرر الذى يتطاير من عينيه . . . ثم أغمضت عينى فى فزع ، وارتميت على الأريكة ، ويداى على وجهى . . .



وانقض على صارخاً :

ارفعى يديك عن الجراح ! . .

ووضع منديله على الدم المنبثق .... ثم تلفت حوله مذعوراً ، كأنه ينشد شيئاً . . . لا يدرى ما هو . . . .

ــ صبغة يود . . . أليس لديك هنا صبغة يود ؟ . . .

وانفتح الباب . فاستدار ناحيته ووقف وذراعاه مسترخيان إلى جانبيه فى ذهول . . . وحملقت أنا أيضاً ، ويداى على المنديل الذى أخذ الدم يفيض عنه . . . .

وفى فرجة الباب وقف عونى . . . .

لم يتحرك . لم تضطرب فيه عضلة . جمدت ملامحه فى جد صارم ، وبإيماءة بطيئة مهيبة من يده ، أشار إلى خورشيد نحو الباب المفتوح . . . فتحرك خورشيد على الفور ، كالمنوم . . . وابتلعه فراغ الباب ، من غير أن يلتفت يميناً أو يساراً . . . أو يفكر فى النظر إلى الوراء . . .

وأقفل عونى الباب بهوادة ، ثم تقدم نحوى ، ورفع المنديل عن الجراح ، وأنا مستسلمة ، من غير أن ينظر فى عينى . كانت نظراته كلها مركزة على خدى الجريح . . . .

وابتعد من غير أن يتكلم ، واتجه إلى التليفون . . . وسمعته يحدث صديقاً حميماً من الأطباء . . . ثم عاد إلىّ ، وأخذ بيدى فنهضت معه إلى الحمام ، فوضع خدى تحت الماء البارد . . .

ولم نلبث أن سمعنا خطوات تصعد السلم فى سرعة فائقة . وفتح عونى الباب للصديق الطبيب أيوب .

وفحص الجراح الثلاثة ، ثم نظر إلى عونى متسائلا : فغض عونى بصره ولم يتكلم . . . واختلجت أجفان الطبيب قبل أن يقول :

– إنها لحسن الحظ غير غائرة . . . ولكن لابد من غرزتين لكل جرح . . . مع تخدير موضعى . . .

والتفت نحوى قائلا :

– كيف حدث لك هذا ؟ . . .

وكان قد يئس من الحصول على تفسير من عونى ، ولم أدر بماذا أجيب . . . وأعفانى من الإجابة صوت باب المطبخ يفتح ، وقد حضر حسن يحمل ديكا روميًّا يهدر صوته . . . ديك المأدبة احتفالا بعودتى . . . !

ونظر عونى إلىّ نظرة خيل إلىّ أنى لمحت فيها الزراية والعتاب معاً . . . ثم صاح :

– أوقد البوتاجاز يا حسن ، وأعد ماء مغليًّا للدكتور . . . .

وعاد الدكتور للسؤال :

– يجب أن أعرف كيف حدث هذا . . . ألا يمكن أن أعرف ؟

وانحنى عونى على الأرض ، والتقط السكين الصغير الملوث بالدم. ولم يتكلم . . .

وفغر الطبيب فاه دهشة وصاح :

– ولكن لماذا . . . ؟

وجعل ينقل بصره بيننا ، وعونى مغض إلى الأرض . لا أدرى أحرجاً من نظرات الطبيب ، أم عمداً كى يوقع فى روعه أنه الجانى ؟ . . .

ــ أنت تفعل بها هذا ؟ . . . بعد كل هذا العمر من الحب والوفاق ؟ أنتما مضرب المثل . الكل يحسدونكما . . . ماذا جرى لعقلك ؟ . . .

وظل عونى مطرقاً لا يتكلم ، وطرف حذائه يعبث بنقوش البساط

وقطع الصمت الشاق صوت حسن عند الباب :

ــ الماء يغلى يا سيدى . . .

ونهض الطبيب وهو يهز رأسه ، وفى يده أدواته ليعقمها ، وعونى لم يزل مطرقاً . . .

٣٦

سكوت . سكوت . سكوت مطبق لا يشوب توتره القاسى شىء : لا نظرة . لا كلمة . لا ابتسامة . لا لمسة .

ميت فى الحجرة جثمانه مسجى بيننا . نتحاشاه فى حذر ، حتى لا تقع نظراتنا عليه ، ولا يجرى ذكره على ألسنتنا . سكوتنا عنه يؤكد وجوده . وليس سوى ذلك السكوت دليل على أنه هناك . . . بيننا .

عونى يتحرك فى هدوء وأناة . بحساب شديد . وكأنه يؤدى عملا رسمياً عادياً ليست له أى صبغة شخصية . يضع يده على جبينى ليتأكد أن الحرارة غير مرتفعة . وإذا لم يستطع التثبت من ذلك بلمس يده فتح

الدولاب بهدوء وأخرج مقياس الحرارة وهزه بعناية ثم دسه تحت لسانى ، وركز عليه نظراته ، بحيث لا تنزلق إلى عينى المسلطتين على وجهه ، كأنهما تتوسلان إلى عينيه أن تلتقيا بهما . . .

وينظر فى المقياس بعناية أيضاً ثم يقول بصوت هادئ ناعم الملمس :

— لا ارتفاع فى الحرارة . . .

ثم يسجل ذلك فى المذكرة التى أوصى الطبيب بها . ويجلس فى الردهة الخارجية ، بحيث أراه وأنا راقدة فى الفراش . ويدس وجهه فى كتاب ساعات متوالية ، وهو يدخن بلا انقطاع . . . .

وفى المساء حين يحمل إلىّ حسن خوان الطعام وأنا راقدة ، أراه يقبل من خلف حسن ، ويقف عند الباب ، وعيناه على الطعام . . . ليتأكد أنه كاف ، وأنه لاشىء ينقصنى . ثم يعود أدراجه وهو ينظر فى ساعة معصمه ، فبعد الطعام بربع ساعة يجب أن أتناول قرصاً من أقراص الدواء . . . . وبعده بساعتين أتناول حبة منومة ، لم تكن تجدى معى كثيراً . . .

وبعد موهن من الليل أسمعه ينتقل إلى حجرة مكتبه ، حيث أريكة عريضة يتوسدها ، وقد أعدها لتكون فراشاً له . . .

وكانت نظراتى الموجهة إليه تتحطم على السور الصخرى الذى أقامه حول نفسه ، وهو يتحرك داخل نطاقه بكل طمأنينة وارتياح . . .

وفى اليوم السابع نزع الطبيب الخيوط الجراحية . . . وأسرعت يدى

المرتعدة إلى مرآة لأرى وجهى الجديد . . وفغرت فمى ، وتطلعت مذعورة إلى الطبيب .

ثلاثة خطوط واضحة على الخد الأيسر . . .

وهز الطبيب وجهه فى أسف ، وأشاح بوجهه نحو عونى . وأغضى عونى مطأطئاً إلى الأرض . . .

وقال الطبيب بحدة يدارى بها انفعاله الساخط :

ـ ستذهب كل هذه الآثار مع الوقت . . . مسألة وقت لا أكثر . .

ثم خطر له ـ لقلة حيلته ـ أن يقلب المسألة إلى مزاح :

ـ لا يلومن زوجكِ إلا نفسه ! هو الذى أفسد متعته بيده ! لم يضر إلا نفسه بهذا التهور الذى لم يكن مظنوناً به . . .

وظل عونى مطرقاً . . . وجمد لسانى فى حلقى فلم أتكلم ، ويدى تتحسس الندوب الثلاثة التى لن يتمكن الشعر من إخفائها ، لأنها تصل إلى الفم والأنف . . .

مسألة زمن . . .

والندوب الأخرى ؟ . . . والجدار الصخرى ؟

مسألة زمن أيضاً . . . أم هل أخرج بجره موتاه . . . ؟

وبدأت أتحرك فى البيت . وأتولى شئونه الخاصة . أرفو جواربه ، وأغير له قمصانه ؛ كلما خلع واحداً وضعت آخر مكوياً على المشجب . . . .

والسكوت . . . السكوت المتوتر القاسى . . . السكوت البارد كالثلج لا يبشر بانفجار ، يسود بيننا .

وينقضى النهار . ويأتى المساء . . . والسكون شامل ، والجبل فى مكانه لا يتحرك ، إلا ليمد يده إلى الصحف على مائدة الإفطار ، أو يمد نظراته إلى سلة الخبز ، وأحياناً إلى يدى وهما تقدمان منه طبق الفول . وتنفرج شفتاه فى شرود :

ـ كيف أصبحت ؟ . . .

وأنا فى وحدتى لا أتكلم . أنتظر فى قلق . . . أهو انتقام ؟ أهو تعذيب ؟ أهو احتقار وهوان . . . ؟

وبدأ السكوت يتمزق من حولى .

رنات تليفون . وأصوات صديقات أو شبه صديقات يسألن عن صحتى . ويستفسرن فى شماتة مكتومة :

ـ صحيح يا ريرى ؟ . . . لم أصدق والنبى . . . عونى يفعل بك هذا ؟ . . . لم أصدق . . .

ـ صحيح يا ريرى ؟ حقًا الرجال ليس لهم أمان . . . فتشى عن المرأة يا حبيبتى !

وأمرت حسن أن يقول لكل من تسأل عنى أنى غير موجودة . . .

وعدت للانتظار . . .

إنه يحبنى . إنه ليس جبلا . ليس بحراً لا تعكره البصقات . . . . لونه تغير ، طعم حياته كله تغير . حبى متغلغل فى أعماقه . وسيأتى يوم ينهار فيه الجدار الصخرى ، ويتفجر الماء المتجمع وراءه كالسيل . . .

وبدأ ذهنى الخبيث يطمئننى . أنا أعرف عونى . لن يطول صبره

على هذه القطيعة . . . وها قد طالت زهاء شهر . . . لابد أن يفلت الزمام منه ذات مساء . . . فلأكن دائماً على استعداد . حتى لا يفتقدنى حين يمد يده نحوى فى صمت . لأنى لن أكلفه حرج الكلام . . .

سيعرف الجسد طريقه . وسيتبعه القلب. وسيذعن لهما العقل فى النهاية . . . لأن الجسد أداة الحياة الطيعة . وعونى يضج كيانه بالحياة . . .

وانتظرت :

وفى لحظات قصيرة من ساعات الصمت والوحدة ، حين يحمل إلىّ الهواء من بيوت الجيران أصداء موسيقى مما يذاع على الأثير ، كنت أتذكره . . . وأرى عينيه المتقدتين كالجمر ، وأسمع صوته الأجش الجاف . . .

— اضحكى ! اضحكى !

ويقشعر بدنى ، وأتحسس الندوب ، وأنهض لأسلى نفسى بالمعاونة فى إعداد الطعام . . .

ولم يجد عونى فى حياته كلها عناية بطعامه وثيابه كما وجدها فى هذه الأسابيع الصامتة صمت القبر ، الباردة برد الصحراء فى ليالى الشتاء . . .

وابتدأ عونى يخرج بعد الظهر . لم يعد يقضى وقته بعد ضجعة القيلولة فى القراءة بحجرة المكتب أو فى البهو . . .

كانت لديه قدرة قاتلة على افتراض عدم وجودى . يجلس فى البهو معى ساعات لا يكلمنى ، ويتحرك ويفتح المذياع لسماع الأخبار أو

المحاضرات الثقافية وكأنى لست جالسة أمامه . . .

وتحرك الأمل فى صدرى . لقد بدأ يضعف أمام جيشان أعماقه . لم تعد له طاقة على الصمود . أخذ يبتعد عن جوارى ، ويسهر فى الخارج .

وكان يرى عند عودته النور فى حجرتى . ويعلم أنى يقظانة ، وأسمعه يدخل حجرة المائدة ليجد طعام عشائه فى انتظاره . وقد يصيب منه أو لا يصيب . ثم تسكن كل حركة . ويأوى إلى فراشه بحجرة مكتبه .

ويكون مساء . ويكون صباح . يوماً آخر . . . .

وكيف أصبحت ؟ . . .

والأسلاك الشائكة واضحة فى نظراته تحمى سريرته الجريحة من فضول الغرباء . . .

وتضع يدى طبق الفول المزوج بعناية بدقة السمسم وسلطة الطحينة ، وإلى جوار الطبق كوب القهوة الساخن . . . و . . . .

. . . . والحمد لله . . .

وينصفق الباب . ويرين الصمت على البيت . وأنا أنتظر . . . وأنتظر . . . والساعة الكبيرة تقسم الانتظار بدقاتها فى غير تحيز . . . . ولا رحمة !

بدأ يتزعزع . . . الابتعاد علامة المقاومة . . .مقاومة الالتصاق . . .

وذات ليلة تأخر كثيراً . عاد فى نحو الساعة الثالثة صباحاً . وبابى مقفل ، والنور يشع من زجاجه . . . ليعلم أنى يقظانة . . .

. . . . ثم انتقلت خطواته إلى الحمام . . . وهو ملاصق لجدار مخدعى . .

مخدعنا القديم . . .

وسمعت وأنا راقدة فى الفراش الواسع أصوات قىء . . .

ونهضت مسرعة .

دنت لحظتى . . . هو فى حاجة إلىّ . .

ووقفت خلفه ، أضع يدى على جبينه ، وهو متهالك على الحوض . ولم يرفض جبينه يدى . ولم يرفض كتفه يدى الأخرى ، وأنا أعينه على الوقوف ، ورائحة الحموضة المتخمرة تنبعث من الحوض . . .

لم يكن من عادته أن يشرب . وفى الحوض آثار إفراط . وفى وجهه المكفهر وجسده المترنح آثار إفراط . . . .

ووضعت ذراعه على كتفى ، وأحطت خصره بيدى ، وسرت به نحو الحجرة . حجرتنا . .

وأجلسته على الفراش ، وجثوت فخلعت حذاءه من قدميه ، ونهضت لأجده ارتمى على الوسادة ، فأقمته وشرعت أخلع عنه ثيابه . ثم مسحت له وجهه وعنقه وصدره بماء الكولونيا ، وألبسته جلبابه . وارتمى على الفراش ، وقد ذهب عنه بعض الدوار . .

وحدق فى وجهى بشرود وأنا منحنية فوقه ، ثم أجال نظراته فى الحجرة . وهم أن يقوم ...

ودفعته بيدى فى صدره برفق ، وأنا أنتصب قائمة :

ــ سأنام أنا هناك . . .

فجذب طرف أصبعى بقوة ليمنعنى من الحركة ، فنظرت إليه

بضراعة . وتراخت أصابعه ، وتركني أمضى . . . .

وتقلبت على أريكة مكتبه ، ولم يغمض لى جفن . . .

ونهضت بعد نصف ساعة ، ووجدته غارقاً فى النوم . فعدت أدراجى على أطراف أصابعى وحاولت أن أنام . . .

ترى أين يشرب ؟ أفى بيوت أصحابه ؟ أفى الحانات العامة ؟ أفى بيوت الريبة ؟ . . .

ورفض كل شيء فىّ الافتراض الأخير . . .

ورفض النوم أيضاً أن يوافينى . . . .

ودقت الساعة ست دقات ، ونهضت إلى الحمام . . . وخرجت منه فأيقظت حسن ، وبدأت دورة النهار فى ساعة مبكرة ذلك اليوم . . .

ودخلت عليه فأيقظته . . .

وما إن تنبه إلى مكانه ، حتى نهض بسرعة . . . كالغاضب ، ودخل الحمام من غير أن يتكلم . . .

وعلى مائدة الإفطار فى ذلك اليوم ، لم يقل لى :

ـ كيف أصبحت ؟ . . .

وكنت أنا التى قالت له ، وأنا أضع تحت عينيه طبق الفول إلى جوار كوب القهوة :

ـ لماذا تشرب فى الخارج . . . ؟

وتطلع إلىّ متسائلا فى فتور . . .

– إشرب فى البيت . ذلك أصون لك !

فنظر إلىّ نظرة استخفاف . . . كأنى لا أفقه ما أخوض فيه ، ثم خفض عينيه إلى الصحيفة وقلبها . وساد الصمت فترة ، ثم مد يده إلى الطعام وقال ، وعيناه مثبتتان فى الطبق :

– وفيم التصون ؟ . . . لم يبق ثمة ما يصان !

ووقعت كلماته كالطعنة المصمية .

وبلعت ريقى ، وتجمعت شجاعتى فى لحظة واحدة . . . . وفتحت فى للتكلم . . . وليس فى ذهنى أى فكرة عما سأقول . ولكنى كنت واثقة أنى سأتكلم . وسيكون كلامى حاسماً . باتراً كحد السيف . لا كحد سكين الفاكهة . . . ، ولكن الكلام لم يخرج من فى . . .

إعصار هب عن يمينى ، فأطاح بالطبق إلى ركن الحجرة حيث ارتطم بالحائط . وأطاح بكوب القهوة ، فارتطم بالركن الآخر . . . وارتفعت قبضته فى تشنج وارتطمت بخده وأنفه . . . وانبجس الدم من خياشيمه قانيا فلوث يديه . . . وبسط أصابعه أمام عينيه كالمذعور ، ثم جذب بهما شعره فتاوث . . . .

وأسرعت بالمنشفة البيضاء أحبس الدم ، وأمسكت برأسه كى يميل به إلى الخلف . . . وصرخت أنادى حسن كى يسعفنى بالثلج . . .

وجاءنى حسن بالثلج ، وهو ينظر إلىّ فى رثاء . . . متحسراً على ما أصاب سيده من انقلاب غير مفهوم . . . منذ ذلك اليوم المشئوم ، يوم العودة من الإسكندرية . . .

ورقد على الأريكة فى حجرة مكتبه ، وحضر أيوب ، وحقنه .
ثم اختلى بى يصبرنى ، ويعرب لى عن إعجابه بتجلدى ووفائى . . .

وخرج أيوب . . . .

ودخلت على أطراف أصابعى . . أجازف مقامرة بكل شىء . . .

وجلست على الأرض وتناولت يده فى يدى وهو راقد . وتريده فى يدى ، بلا مقاومة . . .

ونهضت قليلا ؛ ووضعت فمى على خده .

ورفعت يده إلى شفتى وقبلتها . . . بلا مقاومة . . .

واستدار نحوى ، والتقت عيناه بعينى طويلا . . . وأنا أمسك قلبى بيدى ، وأوجس مما سيقول . . !

ولم يقل شيئاً . . .

أشاح بوجهه ، وثبت نظره فى السقف الأبيض . . .

ونهضت واقفة وخرجت — كما دخلت — على أطراف أصابعى ، وأغلقت الباب بهدوء . . .

ومرت بعدها الشهور .

ومرت بعدها السنوات .

وأنا فى سكون . . . أنتظر . أنتظر فعل الزمن فى الجدار الصخرى ، وفى سور الأسلاك الشائكة المنبعثة من نظراته ، وهو يسألنى فى غير اكتراث :

— كيف أصبحت ؟ . . .

. . . والصديقات . . . . وأشباه الصديقات يرثين لى حين يزرنني ، ويتحسرن على العين التى أصابتنى . . . ومنهن من تسأل متعجبة :

ــ لماذا لا تتركينه . . . ولك من الثراء ما يغنيك عن هذا الذل ؟ . . .

وأسكت ولا أجيب . لأنهن لن يفهمن .

أسكت ولا أجيب ، لأنى أعرف الجواب ولست فيه بحاجة إلى تأييد أى إنسان.

إنه لم يعد جبلا . لم يعد بحراً أخرج موتاه ولم يتغير . . . .

إنه إنسان . إنسان ضعيف . مطعون . وطعنته لم تمر عليها يد الزمن الآسية . . .

لهذا أبقى . لأنه بحاجة إلىّ كى يعيش ، بحاجة إلىّ كى يعذبنى ويستمد من عذابى الصامد عزاء يواجه به بنيان حياته الذى انهار . . . ، وهو لا يستطيع أن ينسى . لا يستطيع أن يغفر . . .

كان يغفر لو أننى خنته . . .

ولكننى خنت نفسى . لم أعد أنا . . .

هل كان يصدقنى لو قلت له الحقيقة ؟

لا أظن . . .

لأنه لو صدقنى لطالب نفسه بالغفران . وهو عاجز عن الغفران . سيحتقر نفسه حين يكف عن احتقارى . . .

وهو رجل مسكين . . . لا يحتمل احتقار نفسه طرفة عين . . .

والآخر . . .

لا أذكره كل عام مرة . . .

ومنذ سنة تقريباً التقيت فى عيادة طبيب الأسنان بالمسيو إلياس . وحدثنى حديثاً طويلا وأنا شاردة الذهن عن خيبة أمله فى خورشيد . وكيف ضبطه مع تلميذة فى الخامسة عشرة يحتضنها فى حمام المعهد ، وقد خلع بعض أجزاء من ثيابه . .

ولم يجد كلامه فى صدرى صدى . . . وشرد ذهنى قليلا ، ثم سمعته يقول :

— . . . من كان يتصور أن فتى ذا مبادئ مثله ينقلب إلى النقيض . صار أفاقاً . . . باع نفسه لامرأة صاحبة صالة رقص ، حيزبون أكبر من أمه . يعاشرها ، ويدير لها معهداً لتعليم الرقص فى ظاهر الأمر. أما الحقيقة . . .

ونادانى الممرض لأدخل ، فبادرت مسرورة بالخلاص من غمرات عينيه ، وصوته الأخنف . . . . .

ونسيت تحت آلام خلع الضرس المعطوب حديث إلياس عن خورشيد . . . . . .

لقد فعل الزمن بعض فعله فى الندوب . . .

لم يكد يبقى منها أثر . . .

لم يبق منها إلا جدار صخرى ، وسور من الأسلاك الشائكة وفراش مزدوج نصفه خاو بارد . . .

والحياة طويلة . . . . والانتظار أطول . . . والصبر يبدو أنه بغير نهاية . . .

وأنا دائماً هناك . . . ولولا أنني هناك ، لا أحاول إخفاء عذابي ، لانهار الجبل ، وجف البحر ، ورفرف العدم على كل شيء . . .

وكان مساء . وكان صباح يوماً آخر . . .

وفي غير اكتراث سائل يسأل :

ـــ كيف أصبحت ؟

(تمت)

تم إيداع هذا المصنف بدار الكتب والوثائق القومية
تحت رقم ١٩٧٢/٢٥٣٦

مطابع دار المعارف بمصر
سنة ١٩٧٢

١٥

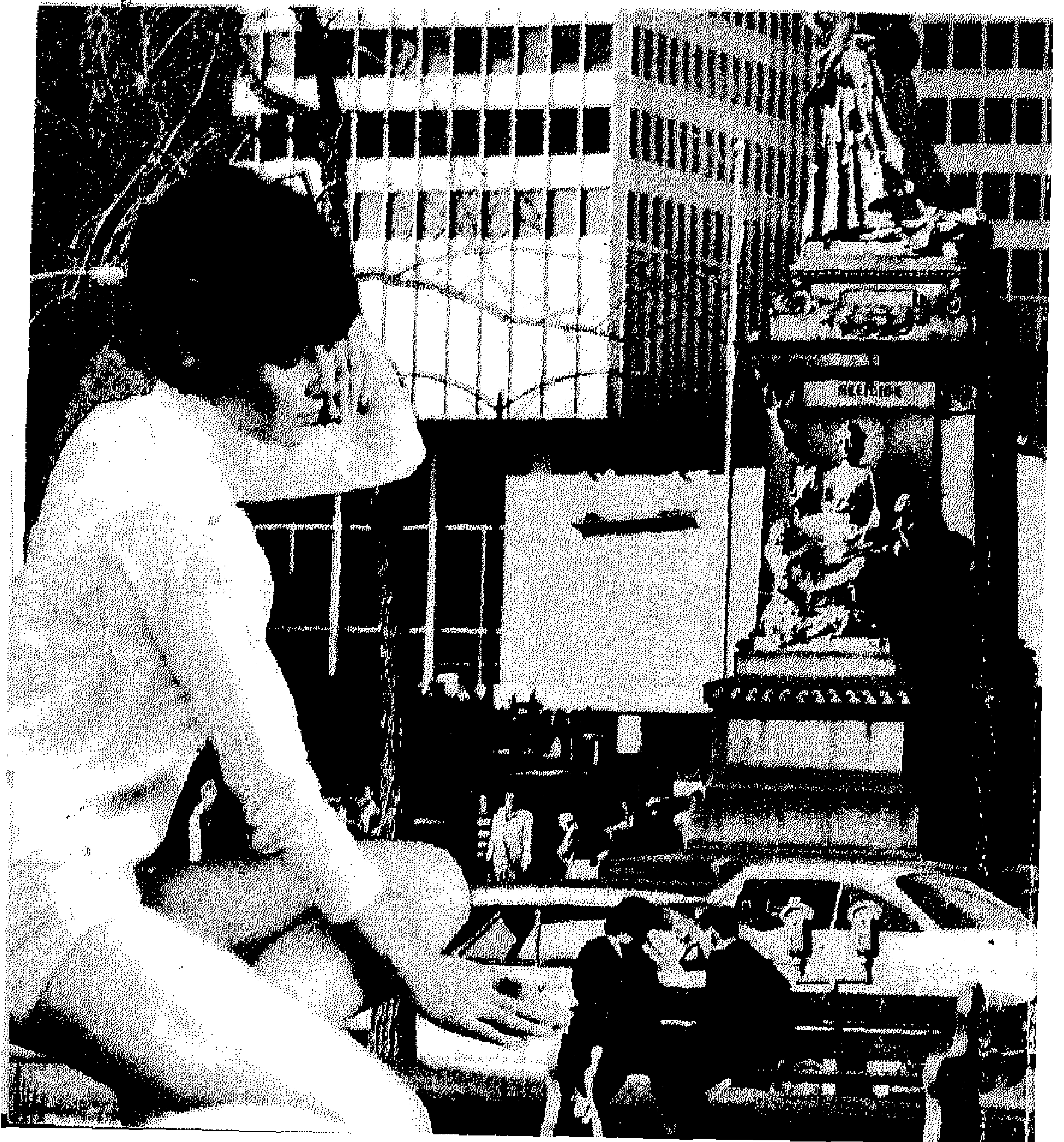


اقرأ

مفيد فوزي

كندا

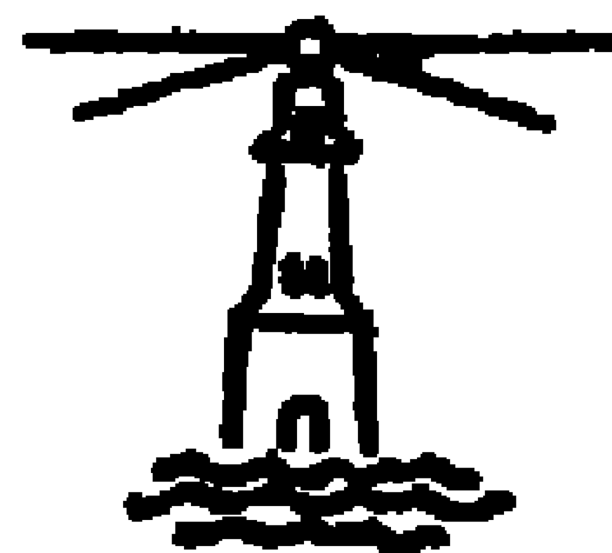
حلم المهاجرين





تصدر في أول كل شهر

رئيس التحرير: السيد أبو النجا



دار المعارف بمصر



مفيد فوزى

كندا

حلم المهاجرين

اقرأ ٣٧٠

دار المعارف بمصر

اقرأ ٣٧٠ – أغسطس سنة ١٩٧٣

الإهداء

إلى أسرة مصرية هاجر ابنها إلى كندا ليحقق ذاته ، وتعيش الأسرة على رسائله القليلة .

وربما إلى شاب يحلم بالنجاح والثراء وغزو هذه الأرض يوماً ما .

أو إلى قارئ تهفو روحه لرؤية هذا الجزء من العالم ذات يوم !

الناشر : دار المعارف بمصر – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج.م.ع.

كلمة

ليست عندى مقدمات طويلة أو تفصيلات عريضة تسبق رحلتى !

ما عندى هو « معايشة » بلد جديد ، بعيد ، أضيف إلى جواز سفرى ، وقضيت بين أرجائه الفسيحة شهرين ، كان نهارى أطول بكثير من ليلى !

ومعايشة بلد جديد ، كالتعرف إلى صديق جديد ؛ كلما اقتربت منه وزاد توغلك فيه ، عرفته بشكل أعمق !

وهأنذا أضع محاولتى أمامكم بشكل عصرى مباشر يجعلنى أجتر متعة السفر مرة أخرى . ذلك أنى مؤمن بحكمة تقول : « أنا أسافر ، إذاً أنا موجود » !

الفصل الأول

كندا حلم المهاجرين

« اتجه شمالا أيها الشاب

بدلا من : اتجه غرباً ! »

لماذا كندا بالذات ؟

لقد كنت أبدى دهشتى حينما أرى العشرات والمئات من الشباب والأسر المصرية تحج أكثر أيام الأسبوع إلى السفارة الكندية فى القاهرة . وكنت أقابل الكثير من الأصدقاء فى مصلحة « الجوازات والجنسية » وهم يقومون بإجراءات الهجرة إلى كندا . . وكان يدهشنى فعلا هذا السيل الجارف من الرغبات فى الهجرة إلى هذه البلاد . وربما استطعت أن أعرف السر حين وطئت قدماى أرض كندا . . إن كندا من عمالقة دول العالم من حيث المساحة . لو جمعنا مساحات مصر والسودان وليبيا وتونس والجزائر والمغرب ، فإننا لا نصل إلى مساحة كندا . وإذا أضفنا أسبانيا وفرنسا نكاد نقترب من مساحة كندا ، ولا يضارع كندا فى المساحة سوى الاتحاد السوفيتى والصين . . فالاتحاد السوفيتى يضم ٢٤٠ مليوناً ، والولايات المتحدة تضم حوالى ٢٠٠ مليون ، والصين يعيش فيها ٨٠٠ مليون

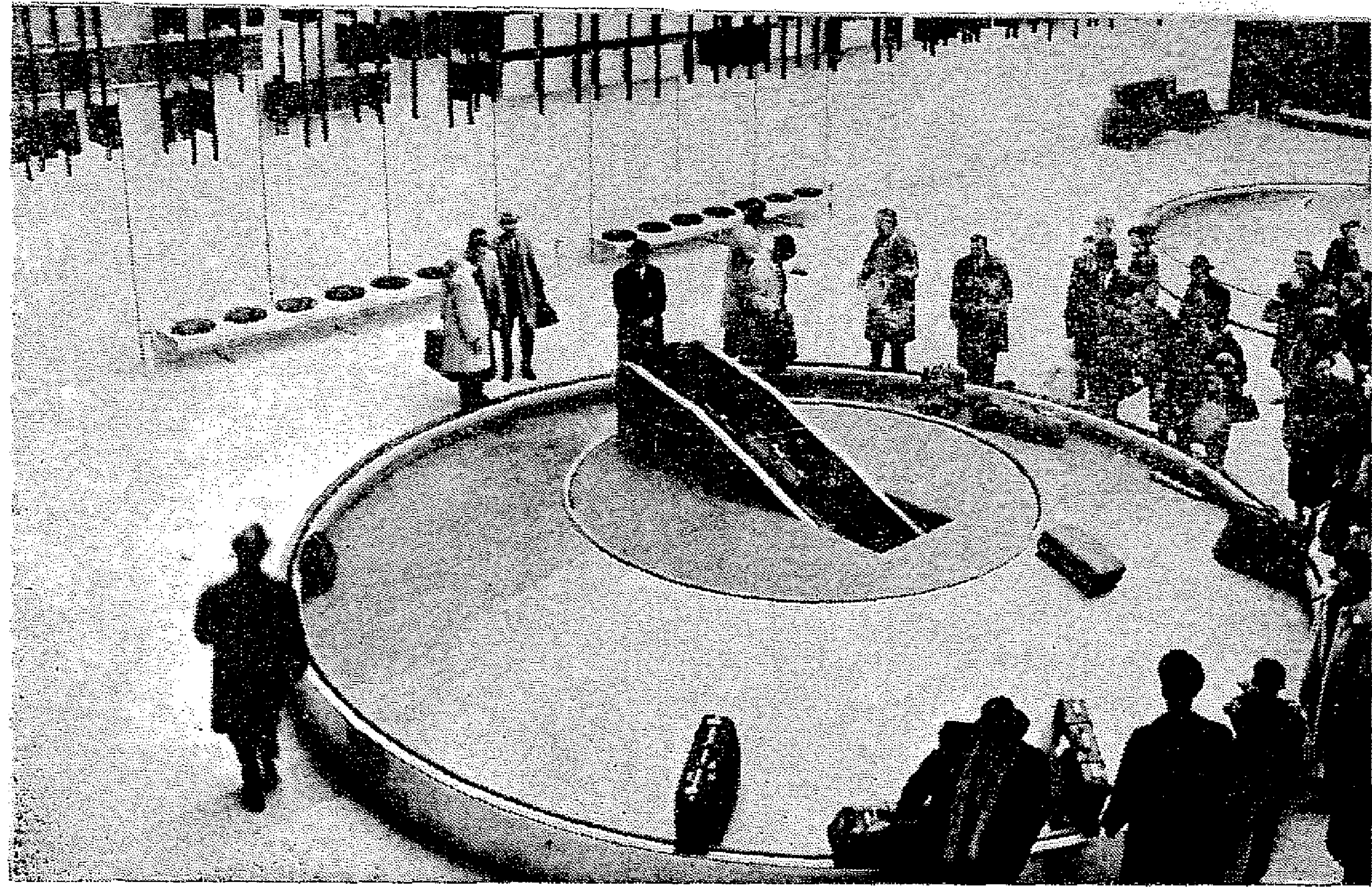
نسمة ، وكندا — ويااللدهشة الشديدة — تعدادها لا يزيد على ٢٢ مليوناً !

إن كندا — ولديها تربة غنية — يتطور اقتصادها من عام إلى عام . . وأدركت البلاد الغنية بثرواتها الطبيعية أن الاستمرار فى التطور يحتاج إلى « ثروة بشرية » . . يحتاج إلى عدد من السكان أكبر من الزيادة الطبيعية فى عدد المواليد . . ومن هنا بدأت كندا تفتح ذراعيها للمهاجرين من كل أرض ، وأصبحت حلم الشباب . . وأصبحت إمكانيات كندا الاقتصادية من الضخامة بحيث يمكننا — والكلام هنا لميشيل برنارد ، وهو ناشر كندى كبير — « أن ندخل تعديلا على نصيحة " هوراس جريلى" للشباب فى منتصف القرن التاسع عشر لتصبح فى منتصف القرن العشرين "اتجه شمالا ، أيها الشاب" بدلا من "اتجه غرباً" .

على أن الحكومة الكندية تحاول الآن اجتذاب ما « تحتاج إليه » فقط ، بعد أن كانت منذ سنوات ترحب بأى مهاجر . وربما اضطرت كندا إلى هذا التصرف بعد أن ارتفعت نسبة البطالة عام ١٩٧٠ ، وفى البرلمان الكندى ، سئل مستر بيير ترودو رئيس الوزراء عن تضخم البطالة فى البلاد وكيف أن البطالة انتقلت من أمريكا إلى كندا لأن الاقتصاد الكندى مربوط إلى حد كبير بعجلة الاقتصاد الأمريكى ، فقال ترودو بثقة :

— إن جزءاً من هذه البطالة متعمد .

وخرجت صحف المعارضة تقول إن « ترودو » يعارض الإسهال



حقائبك – فى مطار مونتريال – تدور أمامك على صينية ضخمة ، ومطلوب منك التقاطها ! هذه أحدث وسيلة لإفراغ حقائب المسافرين .

بغرض الإمساك » ! ومازالت المعارضة تندد بموقف ترودو من البطالة؛ وإن كان المغزى العميق وراء القفشة أن كندا تتصرف « كالتلميذ البليد » فى حضرة أستاذته أمريكا التى تخنق الاقتصاد الكندى وتجلب له عار البطالة .

* كيف ترى كندا العالم ؟ وكيف ينظر إليها العالم ؟

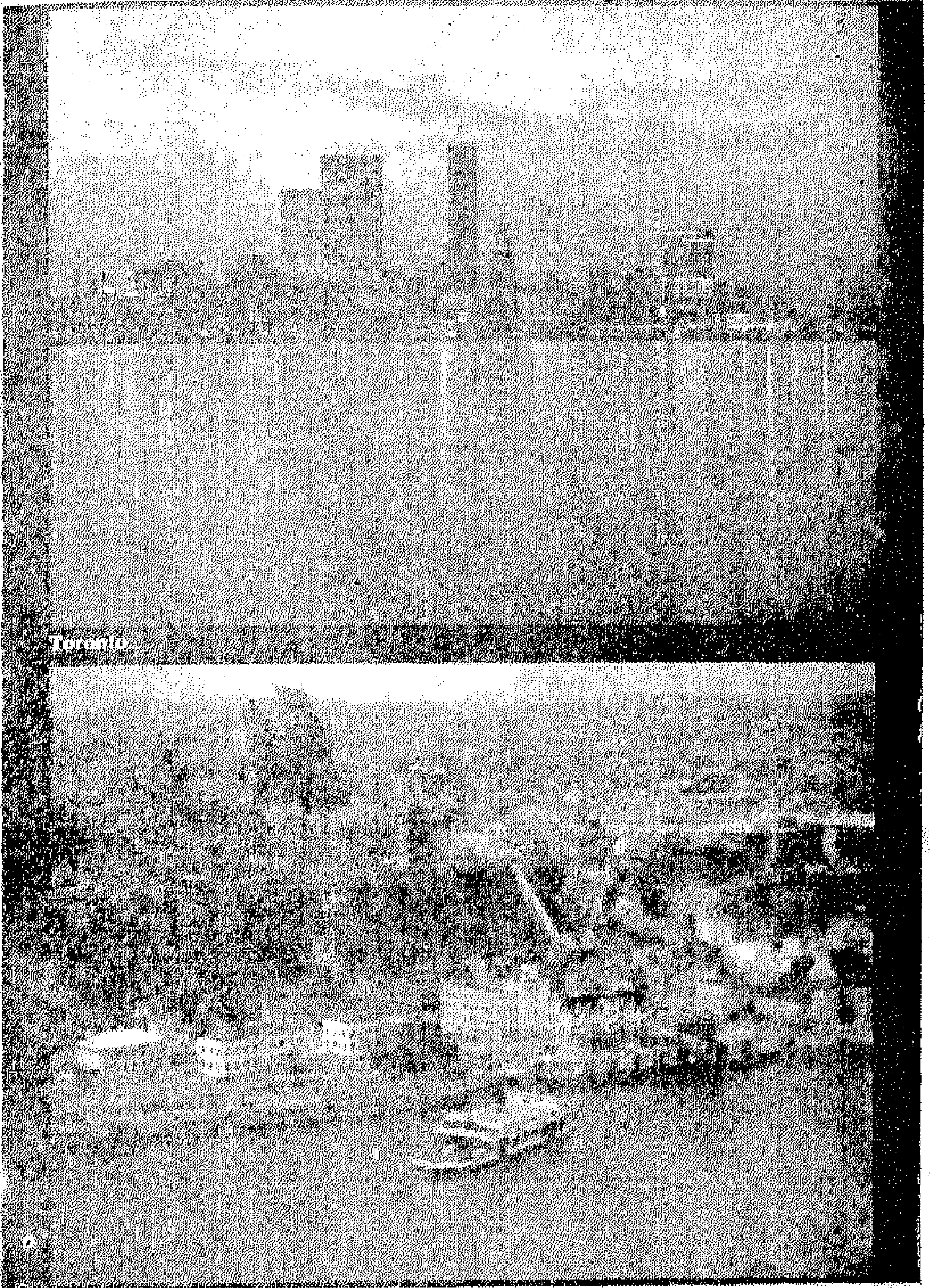
إن كندا ترى العالم بعينى أمريكا . وتتوقف نظرة العالم إلى كندا على علاقة العالم بأمريكا الشمالية .

* فالكتلة الشرقية ترى كندا « سوقاً » لمنتجاتها من البضائع البولندية والتشيكية ، تنافس بها البضائع اليابانية !

* والاتحاد السوفييتى يرى كندا « بيتاً حنوناً » على آلاف الفلاحين المهاجرين من أوكرانيا ، ليزرعوا القمح فى برارى كندا ، ولهذا فكثير من الشعب الكندى — بحكم الصلة والجوار — يجيد اللغة الروسية .

* والصين ترى كندا « باباً » إلى أمريكا الشمالية . . تدق عليه عند اللزوم .

* وفرنسا تنظر إلى كندا نظرة فيها بعض الريبة ، لأن فى كندا ٦ ملايين فرنسى يعيشون فى مقاطعة « الكويبك » التى تتركز فى مونتريال ، وهؤلاء فرنسيون كنديون علاقتهم بفرنسا أعمق ، وولاؤهم لفرنسا أوثق ، ولا يتكلمون سوى الفرنسية ، ويسببون للحكومة الكندية مشاكل كثيرة ، ويحلمون بالاستقلال ليكونوا ذات يوم أرضاً فرنسية . .



الفرق بين كندا وأمريكا : الهدوء . الحياة الكندية كمياه . بحيرة . الحياة الأمريكية كأمواج محيط هادر . وتبقى العمارات الشاهقة فى القارة الأمريكية كإحدى سماتها الرئيسية !

وفى مدارس الكويبك ، تدرس اللغة الإنجليزية على أنها « لغة أجنبية». وقد عاش الفرنسيون فى أرجاء البلاد الكندية مدة أطول من أى شعب آخر ، وأحبوها ، ولكنهم لايتخلون أبداً عن مسراتهم وهمومهم التى تدور حول المسكن والأرض والكنيسة .

* وبريطانيا تنظر إلى كندا نظرتها إلى إحدى المستعمرات — السابقة — مع أن كندا أصبحت ندا وأصبحت أقوى اقتصاديا . . وفى كندا يوجد الكنديون الإنجليز . . وهؤلاء ذابوا فى القومية الكندية الحديثة التكوين ، وإن ظلوا متحمسين لتطوير بلادهم ، فإذا حدثت فى إنجلترا كارثة فى منجم ، كان الكندى الإنجليزى أول جامع للتبرعات يساعد بها ضحايا الكارثة .

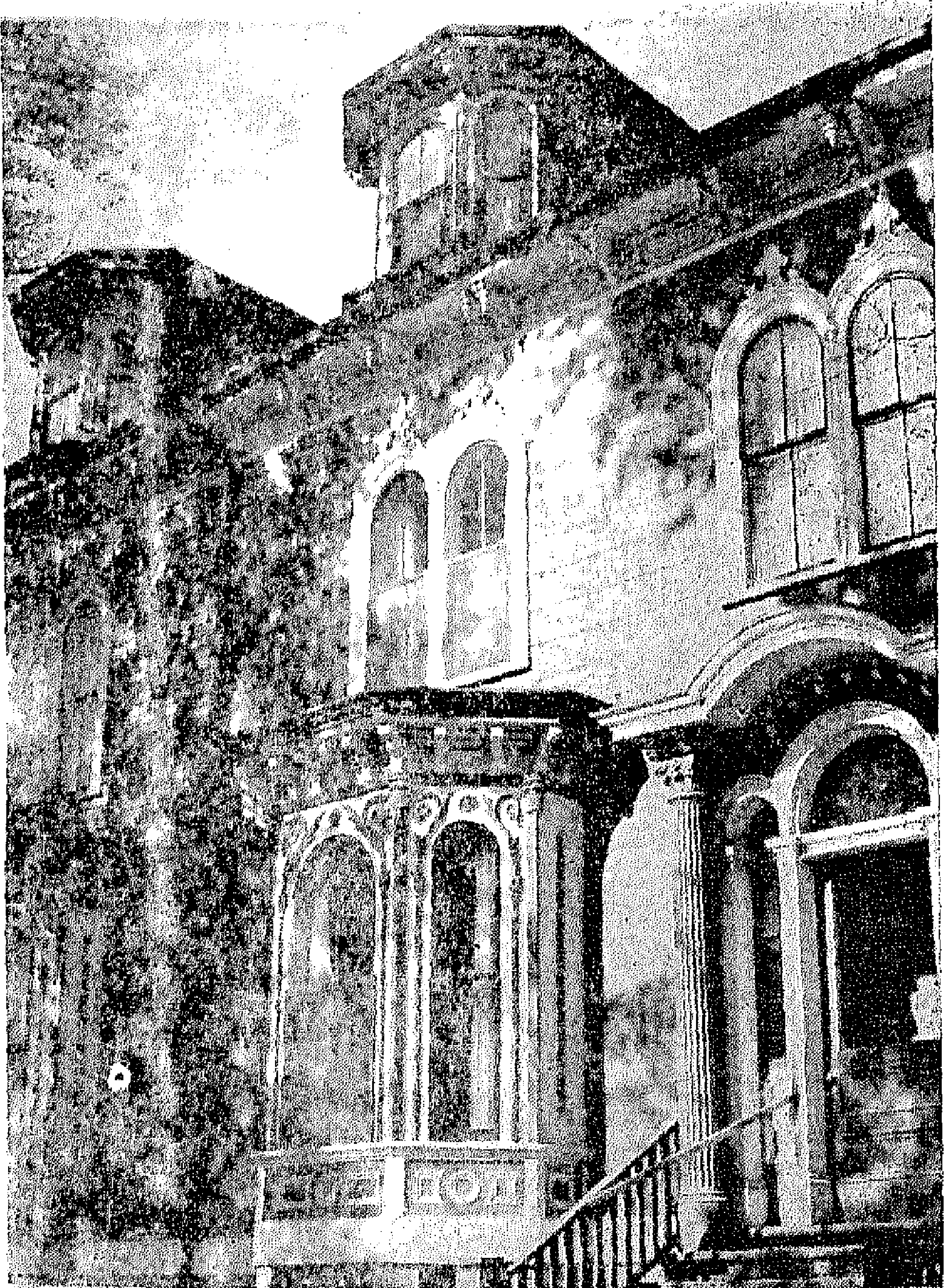
* والولايات المتحدة هى الجار المجاور لكندا ، وكندا — بالنسبة لأمريكا — مجرد «سوق ضخمة» ترتع فيها المنتجات الأمريكية . . وكندا هى البلد الوحيد الذى يمكن أن يدخله المواطن الأمريكى ويخرج منه بلا جواز سفر . . وفى كندا ٢٥ ألف شاب أمريكى هربوا من التجنيد، وهؤلاء يمثلون عبئاً على الاقتصاد الكندى . . ولكن كندا تهمس بهذه الحقيقة فقط ، على حين يجاهر بها — وبغيرها من الحقائق — الشباب الكندى المثقف الثورى الذى يزعجه وجود ٨٠ ٪ من أساتذة الجامعات الكندية . . أمريكان ! وتعرف أمريكا هذا « التيار » ولا تقصر مطلقاً فى إضعافه . . كيف عرفت هذا ؟ لقد التقيت بعشرات من

طلبة جامعة واترلو ، وحكوا لى كيف ترصد أمريكا للشبان الثائرين وكيف تخرس ألسنتهم « الطويلة » !

* ما سر ورقة الشجرة التى تحتل كل مساحة العلم الكندى ؟

هذه الشجرة بالذات ليس لها مثيل فى العالم . . إنها لا تنبت إلا فى أرض كندا على وجه التحديد . إنهم يعدونها شجرة شعبية اسمها شجرة « الميبل » . وبالبحث اللغوى الدقيق أفادنى الأستاذ يحيى أبو بكر — مدير مكتب الجامعة العربية فى كندا — أنها معروفة باسم شجرة « القيقب أو الاسفندان » ، وهى شجرة يؤخذ منها السكر . . يشق الجذع فتنزل منه قطرات العسل الذى يتحول بعمليات كيمائية إلى سكر الميبل وله شهرته الخاصة . . وعندما تورق أشجار الميبل فى الربيع ، يقام احتفال بهذه المناسبة . ولأن ورقة من شجرة الميبل اختيرت لتكون « علم كندا » بعد أن كان العلم البريطانى ، أصبحت هذه الورقة « نموذجاً » لأشياء كثيرة . . ميداليات ذهبية وفضية . . عقود وخواتم غالية . . طقاطيق سجاير وأطباق . . مئات السلع التى تجتذب السياح فى المطارات والقرى السياحية ، على شكل ورقة شجرة الميبل .

وكندا بلاد شابة . لقد احتفلت عام ٦٧ بمرور ١٠٠ عام على استقلالها ، وهو العام الذى عرف فيه العالم خبر معرض كندا فى مونتريال والذى ما زال يذهب إليه كل من زاروا كندا . . وقد زرته ، وأذهلنى أكثر من محتواه . . الطريق إليه . إن كندا سيدة



الطابع الإنجليزى فى العمارة . ربما تتصور أنك فى لندن . الحقيقة أن المهاجرين الإنجليز إلى كندا نقلوا معهم العادات والتقاليد واللغة وخطوط العمارة !

العالم فى الطرق ، وإذا كانت حضارة الدول أو تقدمها تقاس بطرقها، فكندا من أوائل دول العالم — بعد ألمانيا — فى الاهتمام بروعة الطرق . وهناك أغان يشدو بها الشباب تدور حول شجرة الميبل وكيف أنها شهدت حبًّا مات قبل الأوان . . وإلى وقت قريب . . سمعت أن الفلاح الكندى يتفاءل إذا وضع غصناً من شجرة ميبل فى بيته ، ويقول «إن الخير يرفرف على الحجرات» . . واسم كندا — كما تحريت عنه — له قصة . . فهناك على بعد عشرة أميال من العاصمة « أتاوا » قرية هندية اسمها « كاناتا » من أقدم قرى هذه الأرض، حرفت وأخذت نطقاً أوربيًّا أصبح « كندا » . ولا تزال القرية الهندية القديمة مزاراً للسياح . . وتفخر بأنها قدمت اسمها للبلاد بلامقابل إلا ذكر قصة الاسم . . هكذا يقول لى عمدة كاناتا وهو يطلب منى عملة من نقود بلادى فأعطيته «عشرة صاغ» فرح بها وأرضى هوايته .

* ما الأصول الجنسية للشعب الكندى ؟

لو سألت أمريكيًّا هذا السؤال لقال: «إن الشعب الكندى ينحدر من أصل إنجليزى أو فرنسى» وهذه إجابة صحيحة ، ولكن إلى حد ما ، فهناك مواطنو دول أوربية ينتمون لثلاثين قومية يعيشون تحت سماء كندا ، ولكنك لا تحس بهم ، لأن التفوق العددى للإنجليز والفرنسيين يغمرهم تماماً، ولكن بعض المدن فى « أونتاريو » أكبر مقاطعات كندا الاثنى عشرة تبدو فيها الملامح السلافية والألمانية ، فالجرائد المحلية تهتم بذوق الألمان

واللغة المنتشرة هى الألمانية ، وقد عشت فى مدينة كتشنر وتبعد عن العاصمة ٨ ساعات بالسيارة واكتشفت أن اسمها القديم « برلين » . . ومعظم سكانها من الألمان النازحين إلى كندا . يحتفلون بالأعياد الألمانية ، وتتميز بيوتهم الخشبية بأنها غارقة فى الزهور و بالنظافة الشديدة ، وهناك مدن متطرفة ، قامت فيها تجمعات حول كنيسة شرقية ذات قبة مميزة . . تذكرنا أن حوالى خمس السكان الذين يطلق عليهم كنديون اليوم قد جاءوا ذات يوم من ألمانيا وتشيكوسلوفاكيا وبولندا . .

ولقد ظلت كندا لا تشجع هجرة الأوربيين من بلاد البحر المتوسط ، فقد رأوا أنه من الأحكم أن يعمر كندا من يألفون الجو البارد . وللجو فى كندا قصة أخرى يطول شرحها !

* مفكرتك . ماذا دونت فيها من ملاحظات ؟

* سيارات « مونتريال » التى تقع فى مقاطعة « الكويبك » الفرنسية مكتوب على لوحة أرقامها : « البلاد الجميلة » ، تعصباً من الفرنسيين الكنديين لمقاطعتهم الفرنسية الروح والذوق .

* فى كويبك ، غير مسموح للصيدلى « اليهودى » أن يعمل فى المقاطعة . . يفضل الفرنسى على أية جنسية .

* فى أثناء اجتماعات البرلمان فى « أتاوا » العاصمة تضاء القبة ، وقبل انتهاء الجلسة تدق الموسيقى تعلن قرب الانتهاء !

* وأمام البرلمان « شعلة مضاءة » فوق قناة صناعية ، لا تكف

عن الخفقان . . دلالتها أن الحياة غير الحاملة ، جديرة بالإنسان . .

• وقفت نصف ساعة أمام إشارة مرور حمراء احتراماً مبالغاً منى لقواعد المرور . . ثم اكتشفت بعد نصف ساعة من الملل أن هناك « زراً » يجب أن يضغط عليه المشاة أمثالى ، فتصبح الإشارة خضراء ، وتتوقف السيارات ، وأعبر فى أمان . واحترمت هذه « الرعاية » للمشاة . واحترمت احتراماً أكثر استخدام الآلة فى سلامة الإنسان . . . و . . لعنت غبائى !

* * *



العلم الكندى عليه صورة ورقة « الميبل » ، وهى شجرة مشهورة جداً فى كندا ويقولون إنها شجرة السخاء والعطاء .

الفصل الثانى

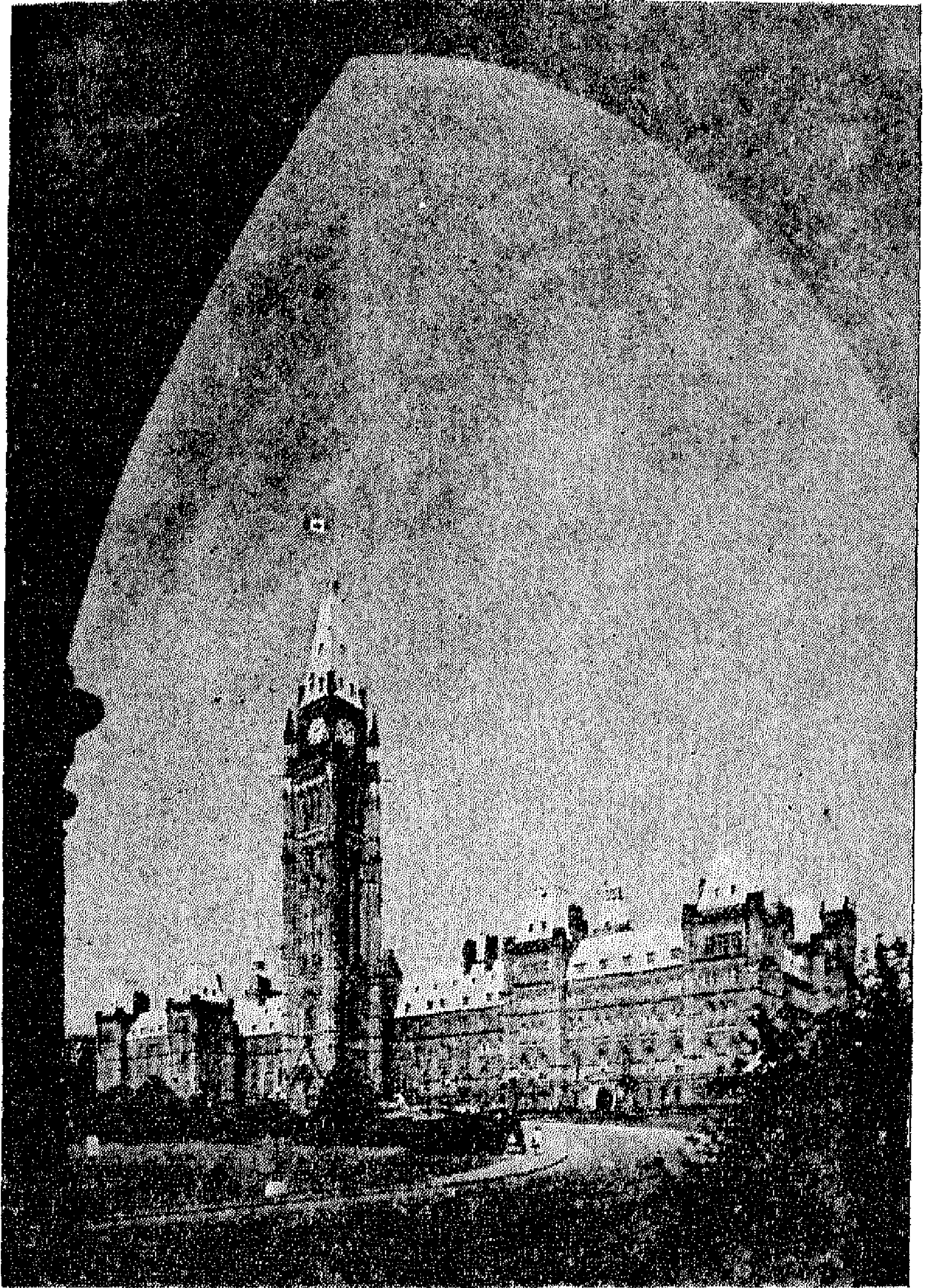
شبابها يغرى الرجال دائماً

«إن كل شىء فى كندا بالتقسيط المريح. باستطاعتك أن تشترى أى شىء وتدفع مبلغاً تافهاً، والباقى يكون أقساطاً مدى الحياة!» .

لو رأيتها منذ سنوات لوقعت فى هواها! أيامها كان الإحساس بكراً، وكان القلب خالياً. ولكنى عرفت «اليابان» قبل أن أرى «كندا». وأحببت اليابان وإن كنت أحبئ فى قلبى «إعجاباً» — لم يرتق إلى مرحلة الحب — بكندا! لقد ودعت طوكيو بدموعى، وودعت كندا بابتسامة فراق اللقاء الأول!

إن اليابان أرض عريقة وحضارة قديمة وطعم محدد ومذاق متميز وشعب متجانس له آلام واحدة وآمال واحدة. أما كندا فهى محيرة الشخصية. إنها ترطن بالإنجليزية، وتحب على الطريقة الفرنسية وتتصرف بغطرسة الألمانية، وفى كيس نقودها دولارات أمريكية!

وإذا كانت اليابان ذات وجه واحد فإن كندا باثنى عشر وجهاً. بعدد مقاطعاتها.. وكل مقاطعة لها ملامح وتقاليد خاصة بها.



عمارة لها طابع شرقى .. فى كندا ترى كل الأنماط ، ذلك أنها بلاد فسيحة اجتذبت البشر والخبرات من كل بقعة فى العالم وانصهرت تحت العلم الكندى !

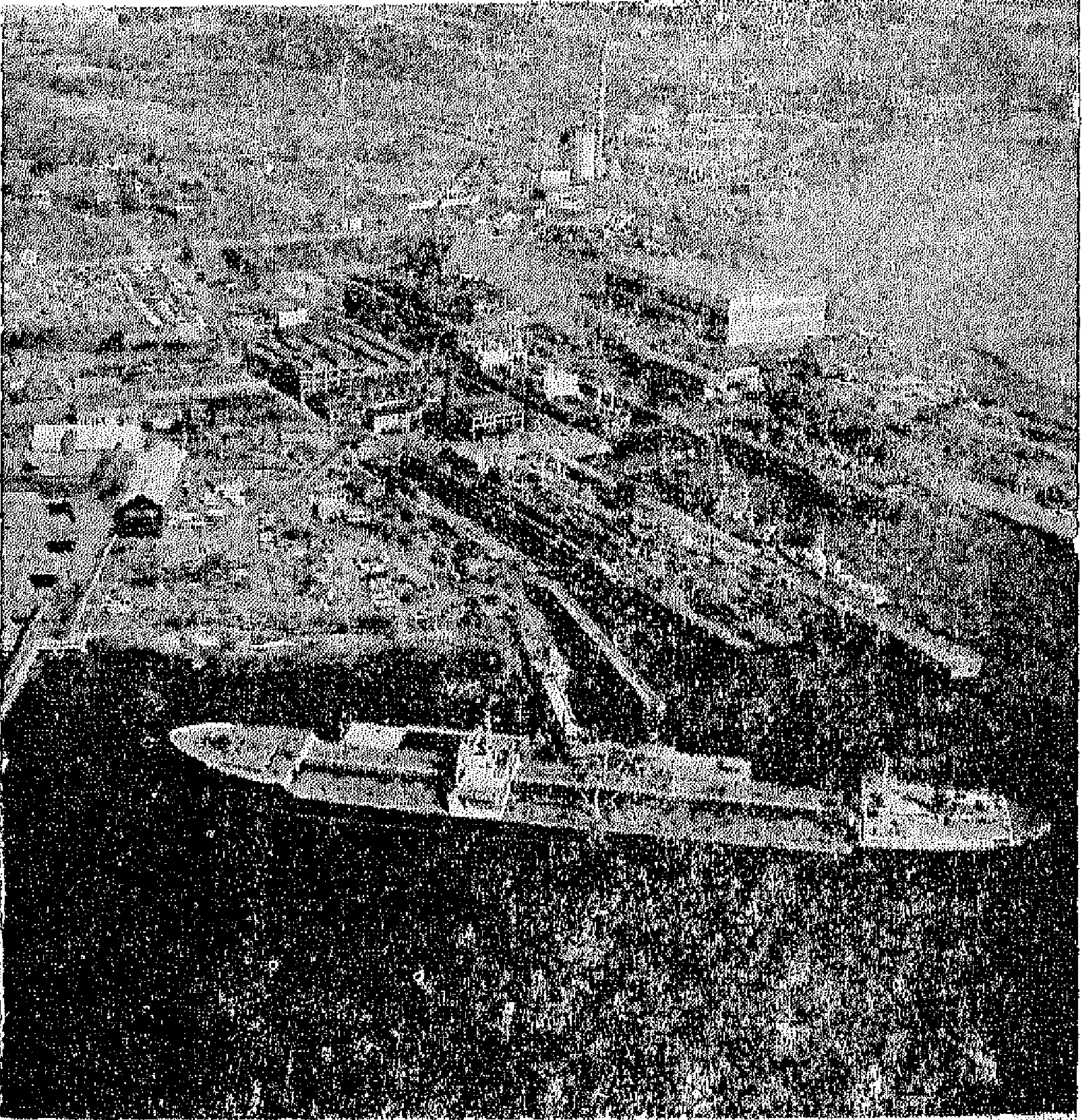
فى « مونتريال » حيث مقاطعة « الكويبك » ، كان يصدمنى التعصب الفرنسى والعقلية الكاثوليكية . . وفى « تورنتو » قلب مقاطعة « أونتاريو » كان الهدوء الإنجليزى يأسرنى . . وفى « مانيتوبا » حيث سنابل القمح الصفراء تتوهج أمام قرص الشمس وتتماوج فوق سطح الأرض ، قابلت فلاحين من أوكرانيا يتكلمون الروسية ، يزرعون القمح فى البرارى. وما استطعت أن أجد إجابة محددة لسؤال واحد وأنا أطرحه فى المقاطعات ، إن الجميع متفقون على أن « مستر بيير ترودو » ، هو رئيس وزراء كندا ، وأن العاصمة فى «أتاوا » ، وأن الدولار الكندى يحمل صورة ملكة إنجلترا ، أما الاختلاف فى الرأى فكبير بحجم المساحات الشاسعة التى تفصل كل مقاطعة عن الأخرى .

إن كندا بلاد شابة . تحتاج إلى آلاف السواعد . . إنها أشبه بمعسكر عمل .

إن كندا هى « سلة خبز العالم » . إن كل أنواع الخبز موجود : الإنجليزى والفرنسى والألمانى والإيطالى ، حتى خبز « الشرق الأوسط » وهو المعروف « بالعيش الشامى » . فالقمح وفير جداً و ٨٠ ٪ من قمح العالم تزرعه كندا . والمخابز بعدد شعر الرأس . والفران مهنة لها احترامها بالتبعية . وهناك ثمانون نوعاً من الدقيق الفاخر . . والقمح يزرع بالأشعة النووية ، وللقمح هيئة تكافئ الفلاحين ، وتسوق المحصول ، وتحفظه من الصقيع المفاجئ . والقمح يأتى ترتيبه بعد المعادن فى الاقتصاد الكندى ، وسفن كندا العائمة فوق مياه المحيط تحمل ، فى أغلب الأحيان ، قمحاً ودقيقاً .

لمعلوماتك

- كمهاجر لك الحق في الحصول على إعانة شهرية قدرها ٦ دولارات عن كل طفل سنه أقل من عشر سنوات و ٨ دولارات عن كل طفل ما بين عشرة وستة عشر عاماً خلال العام الأول من إقامتك في كندا ، وتسمى هذه الإعانة « مساعدة عائلية » ، وبعد العام الأول تتحول إلى « بدل الأبناء » .
- يدفع لكل شاب بدل يبلغ ١٠ دولارات شهرياً في حدود سن ١٦ و ١٧ بشرط أن يظل في دراسته أو يكون غير قادر على الدراسة لنقص في نموه الذهني وتخلفه « المبتسرين » .
- هناك أنواع متعددة من التأمينات التي توفر للكنديين الرعاية الطبية اللازمة .
- إذا بلغت سن ٥٦ وكنت مقيماً في كندا العشر السنوات السابقة فإن لك الحق في الحصول على معاش شهري قدره ٨٠ دولاراً حتى لو لم تكن كندي الجنسية ، وهذا المبلغ يدفع سواء كنت تعمل أم لا بغض النظر عن أي إيراد آخر يدخل جيبك .
- إذا لم يكن لك إيراد آخر سوى معاش الشيخوخة البالغ ٨٠ دولاراً ، فإن الحكومة الكندية تدفع تكملة قدرها ٣٢ دولاراً شهرياً قابلة للزيادة حسب مستوى الطالب .



موانىء كندا ، صورة من الجو.. الإنسان الكندى يعرف كيف يشق طريقاً فى البر أو البحر. علمته الطبيعة أن ينتصر عليها وإلا غلبته!

وربما لجأت كندا إلى إنتاج خبز الدول ، وهو ما تتميز به كندا وحدها من دون العالم ، لأنها تعرف أن القادمين إليها يعيشون تحت سمائها ولا ينسون سماء بلادهم البعيدة ، لعل رغيف خبز يذكرهم بإفطار الصباح ذات يوم فتجدهم يسقطون فى لحظة شجن ويدندنون بأغنية ، طالما تمتمتها الشفاه ذات نهار بهيج .

* إن كندا بلاد مريحة

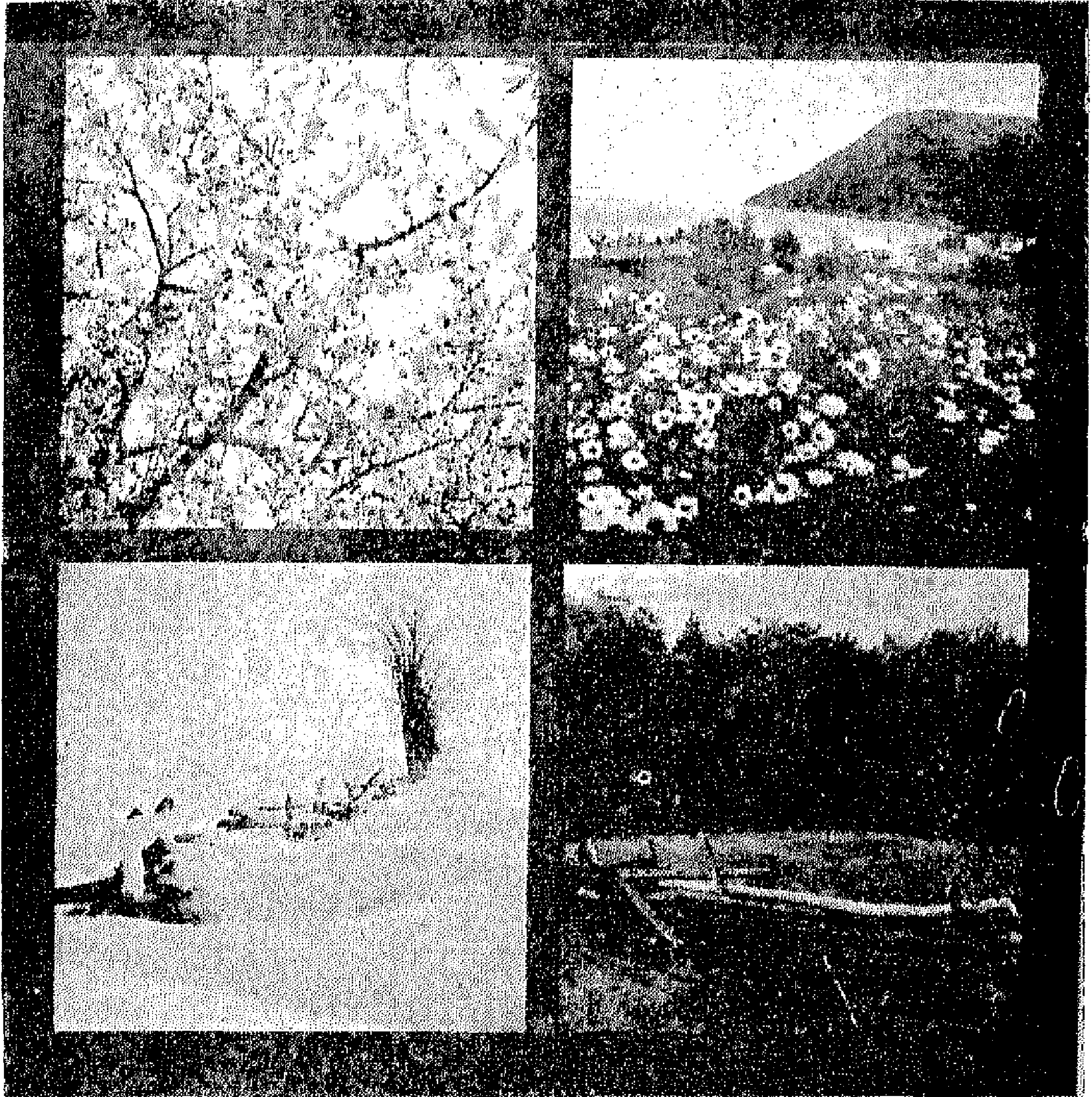
إنها أشبه « بفوتيل » عريض ، يغوص الإنسان فيه ويسترخى . لقد كنت أتصور أن المساحات الخضراء التى رأيتها فى تونس أو المغرب ، لا نظير لها فى العالم . فلما رأيت غابات كندا وهذه « الخضرة » الكثيفة . تراجعت عن رأيى . . إن الأغصان . . أغصان الأشجار ، فى عناق لاينتهى . والثمار تتدلى كأنها « نهدان أفلتا من قميص » والعبارة لنزار قبانى . والحشائش الخضراء الموغلة فى الاخضرار تبدو كسجادة بحجم العالم ، مفروشة فوق أرض كندا ، والزهور تتسلق البيوت وتتناثر على جوانب الطرق وترصع جبين الحدائق ، وتجعلنى أشعر برائحة الياسمين تملأ الجو وتتحد مع الهواء وتكاد عيناى فى النهاية تتلونان باللون الأخضر .

إن كندا بلاد مريحة .

إن وجه « الراحة » يتركز فى الدور الاجتماعى الذى يقوم به أى بناء ! فالبناء ليس معماراً هائلا أو ذا أناقة تلفت النظر . .

لمعلوماتك

- فى كندا وزير مسئول عن شئون المرأة وأحوالها اسمه برايس ماكاسى .
- المرأة فى كندا حرة فى أن تعمل أو لا تعمل خارج منزلها .
- إن العناية بالأطفال هى مسئولية الأم والأب والمجتمع .
- يتحمل المجتمع مسئولية خاصة نحو المرأة فى أثناء مدة الحمل والولادة ، وبالتالى يجب أن تعامل معاملة خاصة .
- بلغ عدد النساء العاملات فى كندا عام ١٩٧٠ ما يقرب من ٢,٧ مليون عاملة أى ٣٢,١٪ من مجموع القوى العاملة .
- بلغ عدد النساء المتزوجات العاملات ٥٦,٦ ٪ من مجموع القوى العاملة النسائية وكان هذا الرقم ٤٥ ٪ فى عام ١٩٦٠ .
- بقوة القانون ليس هناك تفرقة فى المعاملة بين المرأة العاملة والرجل العامل ،وقد نص القانون على المساواة فى الأجر إذا كان العمل واحداً .
- ينطبق تأمين البطالة على المرأة كما ينطبق تماماً على الرجل .



الطبيعة الكندية ... فى حالة صفاء !

إن البناء — بما يقدمه للناس من خدمة — خال من الإرهاق وبعثرة الوقت .

إن قيمة البناء بنمط الذين يعملون فيه ، وبمدى استعدادهم للعمل . ودرجة تفانيهم فيه ! وخذوا على سبيل المثال أول واجهة قابلتها كزائر : المطار . ففى خلال دقائق كانت حقائب المسافرين تدور أمامهم فوق « طبلية » ، والتقطت حقائبي بدون أية مشقة . . وخلال دقائق كانت الحقائب أمام رجال الجمرك ، تفتش بدقة بالنسبة لأى عربى . . وتفتش بلامبالاة للأجنبي أو المهاجر إلى كندا . وخلال دقائق ، كانت جوازات السفر تفحص . والضابط يبتسم ويرحب . وخلال دقائق ، كنت أقف على باب المطار ، وأقلتنى سيارة صديق . سيارة فارهة «موديل ٧٢» ومجهزة بكل ما يحلم به الإنسان : ريكوردر . بيك آب . ثلاجة . تليفون . جهاز تكييف . وعندما أبديت انبهارى بالسيارة ، قالوا لى إن صاحبها مفلس ! لقد دفع قسطها الأول من جيب البنك وليس من جيبه . ومنذ اللحظة الأولى ، والسيارة الفارهة ، الخرافية ، تشق الطريق من مطار مونتريال لتقطع ٨ ساعات أخرى حتى أصل إلى «كتشنر أونتاريو» حيث أستقر ، بدأت أفهم سر الراحة على الطريقة الكندية !

إن كل شيء فى كندا ، بالتقسيط المريح ، فى استطاعتك أن تشتري أى شيء ، وتدفع مقدماً مبلغاً تافهاً والباقى على أقساط تمتد مدى الحياة ، والقسط فى غاية التفاهة .

مثلا ، أستطيع أن أشترى سيارة « بويك » مثلا أو كاديلاك



تستطيع أن تغسل وتكوى ملابسك فى أقرب « مغسل » كهربائى .
دقائق وتتسلم ملابسك ، وتهرب من عذاب المكوجى البدائى !

وأدفع « مبلغاً ما » ثم أدفع قسطاً شهرياً قدره خمسون دولاراً اوأستطيع أن أشترى ثلاجة رهيبة وأدفع قسطاً قدره ١٠ دولارات شهرياً . أستطيع أن أشترى « بيتاً » ، أستدين من البنك « مقدم » المبلغ ، ثم أدفع الباقى على أقساط . وعلى هذه النغمة ، تلعب إعلانات التليفزيون ! تظهر على الشاشة فتاة صاروخية الجمال ، لتغمز لك بعينيها وتهمس فى أذنيك :

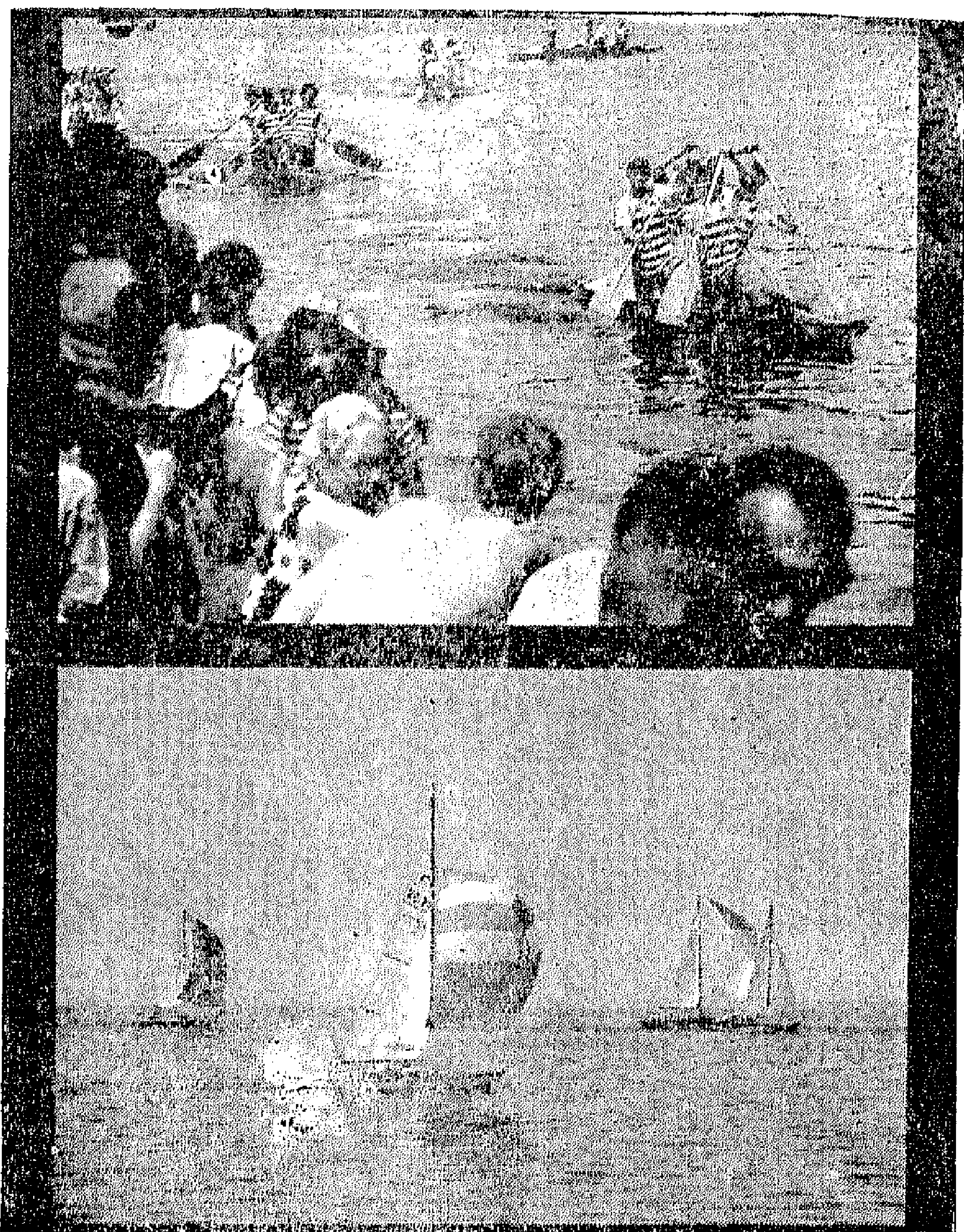
« أثث بيتك بعشرين دولاراً »

وليست هذه مبالغة . إن أى إنسان فى كندا يستطيع أن يشترى بيتاً وسيارة ويؤثث البيت تأثيثاً كاملا ، ويظل يدفع « أقساطاً » طول العمر ! إن المهاجرين يقولون إن كندا « تسهل » الحياة : بأسلوب رأسمالى ، وإن كانت تخنق العنق بالأقساط . ولكنها أقساط « مريحة » على أية حال !

خلال الطريق من « مونتريال » إلى « كتشنر » وهى مدينة صغيرة « ألمانية الشخصية » ، وكان الليل قد ابتلعنا فى جوفه ، اكتشفت كيف تجعل كندا ليلها مثل نهارها ! فأنوار الطريق مريحة للعين . والتزام قواعد المرور والسرعة مريح للأعصاب ، واتساع الطريق نفسه ، مريح للمسافر مثلى ، واستواء الطريق ونعومته مريح للسيارة . إنّ جوّاً من الراحة يغلف كل شىء فى هذه الأرض الشابة ! إن شباب كندا يغرى الرجال والشباب . إن محطات البنزين تتناثر على جانبى الطريق رقم ٤٠١ . وهو الذى يربط كندا من شمالها إلى جنوبها . محطات

لمعلوماتك

- افتتح المركز القومى للفنون فى « أوتاوه » عام ١٩٦٩ ، وقد تكلف إنشاؤه ٤٦ مليون دولار ، ويحتوى على دار للأوبرا تسع ٢٫٣٠٠ كرسى ومسرح يسع ٨٠٠ كرسى واستوديو للتجارب وصالون لموسيقى الغرفة .
- تحتل مونتريال المركز الرابع فى إنتاج البرامج التليفزيونية فى العالم وهى الأولى فى إنتاج البرامج الفرنسية .
- حرصاً على التراث القومى لكندا قررت الحكومة الكندية أن تكون اللغتان الإنجليزية والفرنسية اللغتين الرسميتين ، يستعملان معاً على قدم المساواة .
- تقوم الثقافة الكندية على أساس من التراث الثقافى النابع من اللغتين الإنجليزية والفرنسية ، وكذلك على أساس من التراث الثقافى لجميع اللغات التى يستعملها المستوطنون الكنديون كالألمان والإيطاليين والأكرانيين وغيرهم . إن الثقافة الكندية هى خليط ممزوج من جميع اللغات المسموعة فى كندا .



حين تصفو الطبيعة وتبتسم فإن الحياة كلها .. تبتسم !

البنزين هذه أشبه بـ « كافتيريات » راقية . وهي في الواقع « كافتيريات » مفتوحة ليلا ونهاراً ، ويخدم فيها الشبان والبنات على السواء ، وتقدم الوجبات الساخنة في أي وقت على مدى الأربع والعشرين ساعة .

إن لكل مقاطعة حدوداً . في الكويبك كان كل شيء مكتوباً بالفرنسية ، وحين دلفنا إلى مقاطعة « أونتاريو » كان كل شيء مكتوباً بالإنجليزية والفرنسية !

وفيما بعد فهمت أن « اللغة » إحدى مشاكل كندا .

وفهمت — مثلا — أن ترودو رئيس الوزراء ، وهو واحد من المرشحين في الانتخابات الكندية ، يلعب على وتر اللغة . يعلن في مبادئه أنه يريد أن يجعل اللغتين الرسميتين في كندا ، الإنجليزية والفرنسية . إنه بهذا يضمن أصوات سكان مقاطعة « الكويبك » الفرنسية ، وعددهم ٦ ملايين نسمة .

إن عيني — كالعدسات الدقيقة — مفتوحة على آخرها . فطول الطريق ، ألتقط ما هو مكتوب على اللافتات . فمن المكتوب : السرعة هنا ٦٠ ميلا ، وبعد قليل ، تصادفك لافتة أخرى تقول : السرعة هنا ٥٠ ميلا ، وتقابلك لافتة تذكرك أن محطة البنزين القادمة على بعد ٢٠ ميلا ، وتصادفك لافتة أخرى تنبهك أن الإسعاف بعد عشرة أميال ، وإذا كنت تنوي الدخول إلى قرية تقع على طول الطريق ، فإن لافتة تنبهك أيضاً أن تتجه إلى اليمين بعد ٢٥ ميلا ، . وعلى مدى البصر ، يظل يرشدك رقم ٤٠١ ، لتعرف أنك في الطريق الصحيح فلا تتوه ! شيء

مريح غاية الراحة . الأمى — مثلى — بجغرافية المدن والشوارع والطرقات لا يتوه . مادام يقظاً بعض اليقظة ويحمل خريطة . قد أتوه فى طنطا إذا أردت أن أذهب إلى بركة السبع ، ولا أتوه فى كندا إذا أردت أن أصل إلى قرية كندية فى حضن بحيرة « أونتاريو » !

المذياع لا يكف عن الموسيقى . المؤشر ينقل لى أغانى أمريكية مجنونة ، وأغانى حب فرنسية ، وتأوهات إيطالية ، وإعلانات مثيرة ، صريحة ، عارية ، غير مغطاة ! !

وألقى نظرة من شباك السيارة الفارهة ، أتأمل الليل والطريق وأنواع البشر المسافرين فى تلك الساعة . وتقع عيناى على سيارات تحمل فوق سقفها قوارب ، وسيارات أخرى تجر شيئاً أشبه ببيت صغير ، له نوافذ مضيئة وحجرات نوم ! وتبدو الدهشة فى نظرتى ، وآخذ الجواب . . اليوم هو الجمعة ، يوم الاستعداد « للويك إند » !

إن كندا « تهاجر » إلى الشواطئ والحدائق يومى السبت والأحد .

ويستوى كل الناس فوق الحشائش الخضراء . الكل « مستر أو مسيو » لا دكتور ولا حاج ولا مقدس . لا ألقاب بينهم . . الكندى يغرق فى الراحة لأنه — كما رأيته عن قرب — يغرق فى العمل .

إننى أقول « الكندى » ، مجازاً ، لأن الكندى الذى ينحدر من أصل كندى لم يستطع حتى الآن أن يصنع الحياة فوق أرضه الشابة . وإذا كنت أتحرى الدقة ، فإنى أقول إن الكندى الإنجليزى يحترم تقاليده العريقة . والكندى الفرنسى يتعصب لفرنسا الأم . والكندى الألمانى

يشرب نخب أعياد ألمانيا ، والكندى العربى ، جاء مهاجراً ليجمع ثروة بفطنته ! إن كندا مجموعة أقليات لم تذب بعد . إنها مجموعة « جاليات » تجمعها سماء واحدة وأرض واحدة وإن اختلفت همومها !

فى كندا هموم شخصية وليست « قومية » . ولأن كندا – الدولة – بلا هموم ، فلا فن فيها ولا معاناة . إنها تعتمد على جارتها أمريكا . فأمريكا وكندا شقيقتان من أبوين اثنين وأم واحدة ! ويقول الأمريكان إن الكندى كابن فى البيت يشاطر شقيقته الكبرى حجرة النوم !

حين رأيت أمريكا – فيما بعد – عرفت أن كندا وأمريكا « فولة وانقسمت نصفين » كما يقول المثل . ولكن النصف الكندى معقول والنصف الأمريكى مزعج ، قبيح ! والنصف الكندى شاب والأمريكى عجوز ممزق !

فى محطة « جاز ستيشن » أخرى على الطريق التقطت عدستى الفضولية المثبتة فى رأسى ، منظر قبلات عارمة وأيد عابثة بحرية ورضاء تام ، ولا مقاومة أو استغاثة . وليست هذه أول مرة أرى هذا « العرى » ، فى أوربا رأيت صوراً مماثلة ، ولكن ليست بهذه الإباحية القصوى ! كنت أنظر المشهد بنصف عين حتى لا أجرح الشعور بالحرية وهو مقدس . وقد رأيتها . . كندية جميلة ممشوقة فى « شورت » ممزق ، كما تحتم « الموضة » ، وجسمها عار لا تستر سوى صدرها . رأيتها تجر الشاب من يديه إلى « التريللر » وهو البيت الذى يمشى على عجل . أخذته بكل هدوء وأخفته بين ضلوعها ، وسار الاثنان ، واختفيا داخل

البيت الذى تجره سيارته أو سيارتها لست أدرى . وهمس فى أذنى صديق (١٠ سنوات فى كندا ومتزوج من كندية) قال :

لا ترتوى الكندية إلا بتحطيم ضلوعها برفق . ليس مهماً أن يكون الشاب حبيبها ، وأن تبادله أى مشاعر ، المهم أنهما التقيا فى « لحظة واحدة » فلماذا لا يشاطرها سريرها . أو لماذا لا تشاركه سريره ؟ الأمر سيان . . حتى الجنس مريح فى كندا .

الفجر شق الظلام . . ووصلنا إلى كتشنر . والنوم طار من عينى . « المسافر لا ينام » حكمة تعلمتها من رفيق رحلتى لليابان ، الرسام رجائى !

وغداً يوم آخر ! !

لمعلوماتك

- إن حماية البيئة تحتل اهتماماً كبيراً من الحكومة الفدرالية ، وفى هذا السبيل فإن القوانين التالية قد استحدثت :
- قانون مصايد الأسماك لمنع تلوث المياه السمكية .
- قانون مياه كندا ليوفر الإجراءات الكفيلة بحماية مياه الشرب .
- قانون نقاوة الهواء والتحكم فى تلوث الجو .
- قانون منع تلوث مياه منطقة القطب الشمالى .
- قانون المياه الداخلية للمنطقة الشمالية .

الفصل الثالث

الحياة الساخنة فوق أفدنة من الثلج

« لا بد أن تنسى شمس بلادك الجميلة
وسماءها الصافية ومطرها الحنون ،
ما دمت في كندا ، حيث يعاديك
الطقس ويعذبك الثلج ، وتطردك
العواصف ! »

في كندا إذا لمحوا حيوان « السنجاب » يقفز في الشارع فرحوا وهللوا !

إن ظهور السنجاب معناه تباشير الدفء ، والصيف ، والانطلاق ! فالسنجاب يهجر مخدعه الشتوى فقط حين « يشم » الدفء ! يخرج ليبحث عن أكل يختزنه بين جذوع الأشجار وأغصانها ، يواجه به أيام البرد والمطر والثلج !

إن « مرح » السنجاب ، إشارة للبهجة على الشواطئ . للتحرر من كل القيود . فيذهب الكنديون شبه عرايا ، حفاة . . إلى الغابات والبحيرات ، وهناك يغنون : «هيا نسبح ، هيا نرقص ، فالوقت قصير ، والحياة أقصر » .



حين تكشر الطبيعة ويسقط الثلج ، فلا بد من الاحتماء داخل ملابس « خاصة » يرتديها الجميع ، الكبار والصغار !

لكن للطقس — فى كندا — وجهاً آخر ، يستحق أن أحكيه لكم !

تصورت فى البداية أنها مجرد « نكتة » يستدر صاحبها ابتسامتى ، ثم اكتشفت فيما بعد أنها « حقيقة » دفعت ثمنها غالياً من أعصابى !

والحكاية — على طريقة ابن بطوطة — أننا حين عزمنا على السفر ، وكان ذلك فى منتصف يوليو ، سألت صديقاً كان قد هاجر إلى كندا ولكنه لم يألف الحياة هناك فعاد إلى مصر واستقر تحت سماء مصر . سألته : ماذا أحمل من ملابس إلى كندا فى هذه الفترة من السنة . فقال بلا تردد وبلهجة لا تقبل الشك : خذ ملابس صيفية خفيفة ، ولا تنس الملابس الشتوية الثقيلة ، ولا مانع من ملابس بين بين ! وضحكت . فما يقوله كان أشبه بالفوازير !

وكررت السؤال وركزت على تاريخ سفرى ، فقال بجدية شديدة : « خذ معك ملابس الفصول الأربعة » .

وهمست لنفسى : غريبة . إنه مصرّ على ما يفتى به . لا بد أنه « حاقد » على كندا لأنها لم تعطه النجاح الذى كان يحلم به .

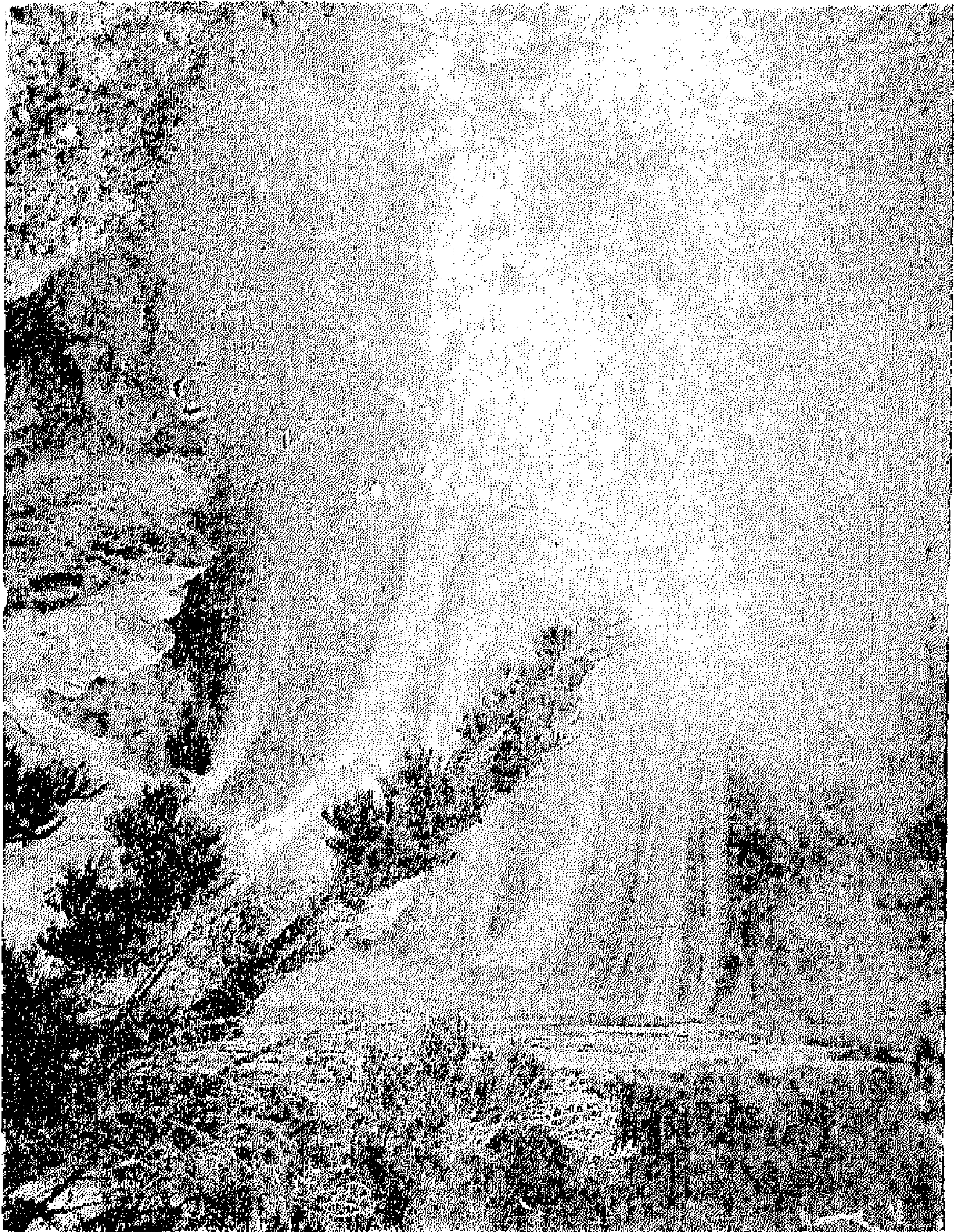
ولم ألتفت إلى ما يقول ، وحملت معى ملابس صيفية خفيفة فقط . وركبت الطائرة وتوكلت !

لكنى فى الأيام الأولى ، أدركت أن صديقى لم يكن يمزح ، ولم يكن يسخر ، كان يقول الحقيقة ، كل الحقيقة ، ولا شىء سوى الحقيقة .

فالجو فى الصباح حار ، خانق . تصل الحرارة فيه إلى درجة ٤٥ ، والرطوبة إلى درجة ٨٥ وأشعر أن التصاق أى ملابس على جسمى إهانة

لمعلوماتك

- فى كندا ٢,٦ مليون بقرة حلوب تنتج سنويا ما مقداره ١٨,٣٠٠ مليون رطل لبن و يستعمل ٦٣ ٪ من هذا الإنتاج فى صناعة الألبان .
- كانت تجارة الفراء هى السبب الأول لاستعمار كندا ، وكانت أول شركة تكونت للاتجار فى الفراء شركة فرنسية أنشئت عام ١٦٠٣ ،وفى عام ١٦٧٠ أنشئت شركة إنجليزية للاتجار فى الفراء .
- بلغت قيمةالفراء منذ عامين ما مقداره٢٧,٤٤٢,٤٤٢ دولاراً ، وكان هذا الرقم فى الموسم ١٩٦٩ /١٩٧٠ هو ٣٤,٢٤٦,٩٤٢ دولاراً .
- تبلغ مساحة الأرض المغطاة بالغابات المنتجة ما يقرب من مليون ميل مربع تحتوى على ثروة خشبية تقدر بأكثر من ٧٥٠,٠٠٠ مليون متر مكعب .
- يمتلك القطاع العام ٨٠ ٪ من هذه الغابات المنتجة .
- تمثل صناعات الغابات ما يقرب من ١٧,٧٪ من جميع صادرات كندا عام ١٩٧١ .
- تعتبر صناعة الورق الصناعة الأولى فى كندا ، وتبلغ قيمة مبيعات هذه الصناعة ٣,٤ ٪ من المجموع الكلى للإنتاج القومى ، كما أنها أسهمت بما يقدر بحوالى ١٢,٥ ٪ من القيمة الكلية للصادرات عام ١٩٧٠ .



مساقط المياه .. لعل أشهرها نياجرا فولز ، شيء من غزل الطبيعة!!

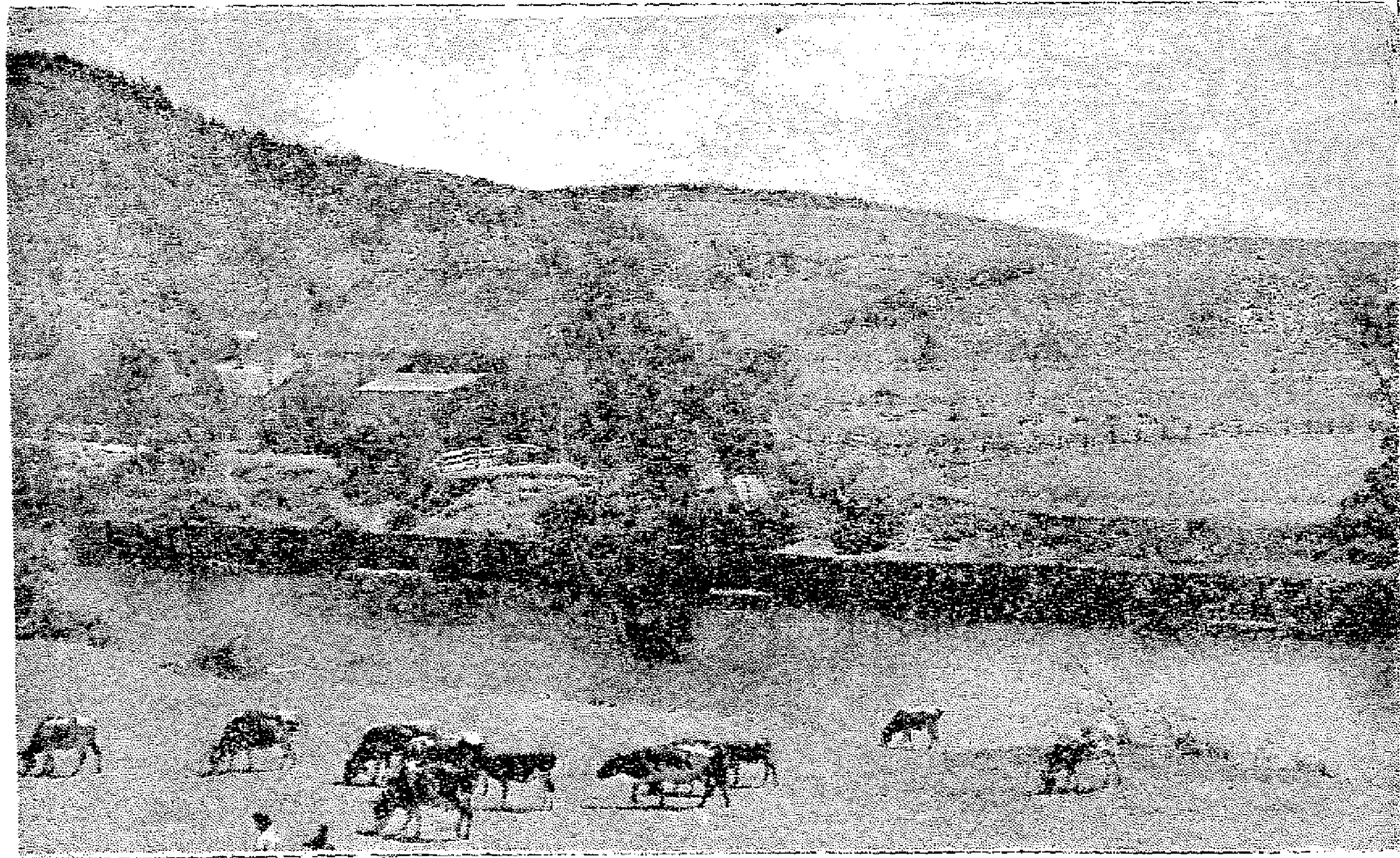
لإنسانيتى ، وأتمنى لو اخرج إلى الشارع عارياً ، وأكتفى بما لا يجعل الناس تظن أنى أقود « تطوراً » فى الهيبية ! وكعادتى أملأ معدتى بالماء المثلج لأرتوى ، وأبحث عن جهاز تكييف أحلم لو كنت « صامولة » فى موتوره ! وأحاول أن أنشغل عن الحرارة بالتليفزيون .. وتنجح برامج التليفزيون الكندى فى إثارتى حتى أنسى « الجحيم » . . وحين ينتهى البرنامج أجد نفسى غارقاً فى بحر من العرق ، وأفتح نافذة ، فيستأذن « الصهد » فى الدخول. فأغلق النافذة بسرعة ، فيتسلل بدون إذن منى ، من تحت الباب فأسد هذا الجزء بمخدة ، فأشعر أنى سأختنق ! هربت أكثر من مرة إلى الشارع ، فجهاز التكييف نفسه يحس بالحر بعد فترة ويكاد يتمرد ويحتج ! وتمر ساعات الصباح مملولا قاتلة مرهقة للروح والبدن ، وقبل الظهر ، أى حوالى الساعة الواحدة والنصف ، تغيب الشمس أحياناً وتدخل فى مظاهرة من السحب تحجبها عن الظهور. تحجب الحرارة قليلا ، وينسحب « الصهد » رويداً رويداً ، ويتحسن الجو وتعود إلى ابتسامتى .

وأظل محملقاً فى السماء .. أتابع احتجاب الشمس ، ولكن فرحتى لا تدوم ، وسعادتى لا تطول !

فبعد قليل «تلطشنى » لسعة هواء بارد. بارد وسخيف ، وأجد نفسى فى حيرة شديدة . ما الذى جرى ؟ كيف يحدث هذا التحول يا إلهى بهذه السرعة ؟! منذ نصف ساعة كنت داخل « فرن » ، والآن أنا داخل « ثلاجة » ! الهواء يزداد برودة . وأقفل بإحكام أزرار قميصى ، وألعن نفسى وأفقد أعصابى ، فالبرد شديد والناس فى الشارع تدثرت بالبلاطى .

لمعلوماتك

- تعتبر كندا أكبر دولة فى العالم تنتج ورق الصحف ، إذ كان إنتاجها عام ١٩٦٩ مقداره ٨,٩٢٨,٠٠٠ طن وهذا يمثل ٤٠ ٪ من الإنتاج العالمى .
- تعتبر كندا من الدول الكبرى فى إنتاج الأسماك وتبلغ حصيلتها السنوية من الأسماك ما مقداره ٢,٢٠٠ مليون رطل .
- إنتاج المواد المعدنية فى كندا يعتبر من الأعمدة الرئيسية فى الاقتصاد الكندى ، وبلغت قيمته ٥٩١٦ مليون دولار فى عام ١٩٧١ .
- بلغت قيمة البترول الخام الذى أنتجته كندا ١,٣٥١ مليون دولار عام ١٩٧١ بالمقارنة إلى ٤٢٣ مليون دولار عام ١٩٦٠ .
- تعتبر كندا السابعة من بين دول العالم فى إنتاج مادة الأسبستوس التى بلغ مقدارها ١,٦٤١,٠٠٠ طن عام ١٩٧١ وقيمتها ٢١٠ ملايين دولار .
- بلغت المصروفات الرأسمالية عام ١٩٧٢ ما مجموعه ٢٠,٧٦٠ مليون دولار .



المراعي فى كندا فسيحة هائلة ، بالتأكيد تشعر الحيوانات بهذا الاتساع والانبساط !

استمرت « موجة » البرد ٣ ساعات عدت بعدها إلى البيت الذى كنت أعيش فيه وهو فى مدينة « كتشنر » قلب كندا . وخلال الساعات الثلاث ، ضغطت على « زر » التدفئة الصناعية والتحفت بالدفء !

وقبل أن أستمرئ هذا الدفء كان الحرقد عاد مصحوباً بالمطر ! ظهرت الشمس، لكن السماء كانت تمطر بشدة . ومن النافذة أخذت أرقب الحياة . السيارات مسرعة لا تعبأ بالمطر ، الناس نشروا المظلات واختبأوا تحتها . الشبان والبنات راحوا يتبادلون القبلات تحت المطر . تختلط الشفاه بالرذاذ . تقتحم « الملوحة » ، طعم « الحلاوه » ! !

لكن الحياة ، لا تتوقف!

« البالوعات » تمتص الأمطار . . الشوارع تبدو كأنها مغسولة. لا تراب ، ولا وحل .

مرة أخرى يتغير الجو . . فالجو الخانق المصحوب بعاصفة قد عاد .. والرطوبة بسطت أجنحتها على البشر، وتهدر أجهزة التكييف!

• غريب أمر الجو فى كندا !

حين أرسلت إلى صديقى رسالة أعترف له أنى عاندته بلا مبرر وكان من الواجب على أن أستفيد من تجربته أرسل لى « كارت بوستال » وفيه عبارة واحدة . قال « هربت من كندا لأن الطقس رفضنى »!

هذه أول مرة أسمع أن الطقس يرفض البشر!

لقد عشت فى ظروف مناخية مختلفة ولم أر الجو يرفض الناس. فى اليابان كانت الأمطار تهطل أسبوعاً كاملا لا نرى فيه وجه الشمس !



حتى فى كندا ، مساكن شعبية ، تبنيها الدولة لبعض الطوائف .. هدفها الرئيسى تأمين حياة هؤلاء البشر !

فى « هونج كونج » ، كانت رياح « التيفون » المخيفة تهب ، فتحطم الطائرات وتأكل السيارات وتقلب المراكب . إنها دوامات سرعتها هائلة! فى الخليج العربى رأيت الناس يرقدون من أثر « ضربة الشمس » ! ولم يهرب أحد من اليابان ، ولم « يهاجر » الناس من «هونج كونج» ، بالعكس إن تعدادها تضاعف ٥ مرات عن معدله الطبيعى . والخليج العربى أرض بكر يجتذب الناس من كل مكان ومازال ! إذن كيف يرفض الطقس الإنسان ؟ !

أهو « سبب » يبرر به صديقى إخفاقه تحت سماء كندا ؟!

حين كنت « لعبة » مسلية فى يد الفرن والثلاجة . أى الساخن والبارد ، كنت أميل إلى تصديق العبارة . فليس كل إنسان يستطيع أن يتحمل ظروف هذا الطقس « المريب » ! إن أمطار اليابان واضحة . تسقط فى الشتاء . وإعصار أو « تيفون » هونج كونج ، أوانه معروف : الصيف . وضربات شمس الخليج من عطاء أغسطس . بيد أن صيف كندا يتنكر فى « زى الشتاء » . . . ويخدع الناس !

والكندى يعترف أن المناخ من أهم العوامل الطبيعية التى تقسو على كندا . فمعدل درجات الحرارة يصل فى الشتاء إلى مادون درجة التجمد وفى أجزاء يصل إلى ٢٥ تحت الصفر !

ويقول الكنديون العقلاء إنهم بصراحة لا يتوقعون أن يصل تعداد كندا يوماً إلى مائة مليون نسمة . قد يتضاعف مرة واثنتين وربما ثلاثاً ، خلال قرن من الزمان ، ولكن لا يصل أبداً إلى مائة مليون ! إن قسوة الجو تهزم طموح الناس وتصرع أحلامهم !



كندى من خليج هدسون ، فى يده سكين يقاوم بها ضراوة الثلوج !

وإذا كنت أحكى عن شهر يوليو وأغسطس وسبتمبر فى كندا ، فأنا أحكى فى الواقع عن الشهور « الرحيمة » حقـًّا فى هذه الأرض العملاقة المساحة !

فمنذ بداية نوفمبر وحتى نهاية يونية ، تغدو كندا فوق «أفدنة من الثلج » والتعبير « لفولتير » !

هذا هو موسم الثلج الذى أغرى رساماً أمريكيًّا اسمه « ديورانت كيت » أن يقول « كندا بدون ثلوجها ، لا تصبح كندا . إن الثلج فى كندا أحد ملامحها وليس أحد عوراتها كما يصفها الأجانب» ! هذا الفنان الأمريكى يؤجر بيتاً فوق ربوة عالية تغوص فى الثلج ، وحينئذ يغمس ريشته فى الألوان ، ويحبس الطبيعة الثائرة فى فرخ بل فروخ من الورق ! إنهم يسمونه فنان العواصف !

الذى يذهب إلى كندا فى الشهور الثلجية ، يذوق العذاب ثم يتعوده . يرفض الطقس ، لكنه « يطيعه » فى النهاية !

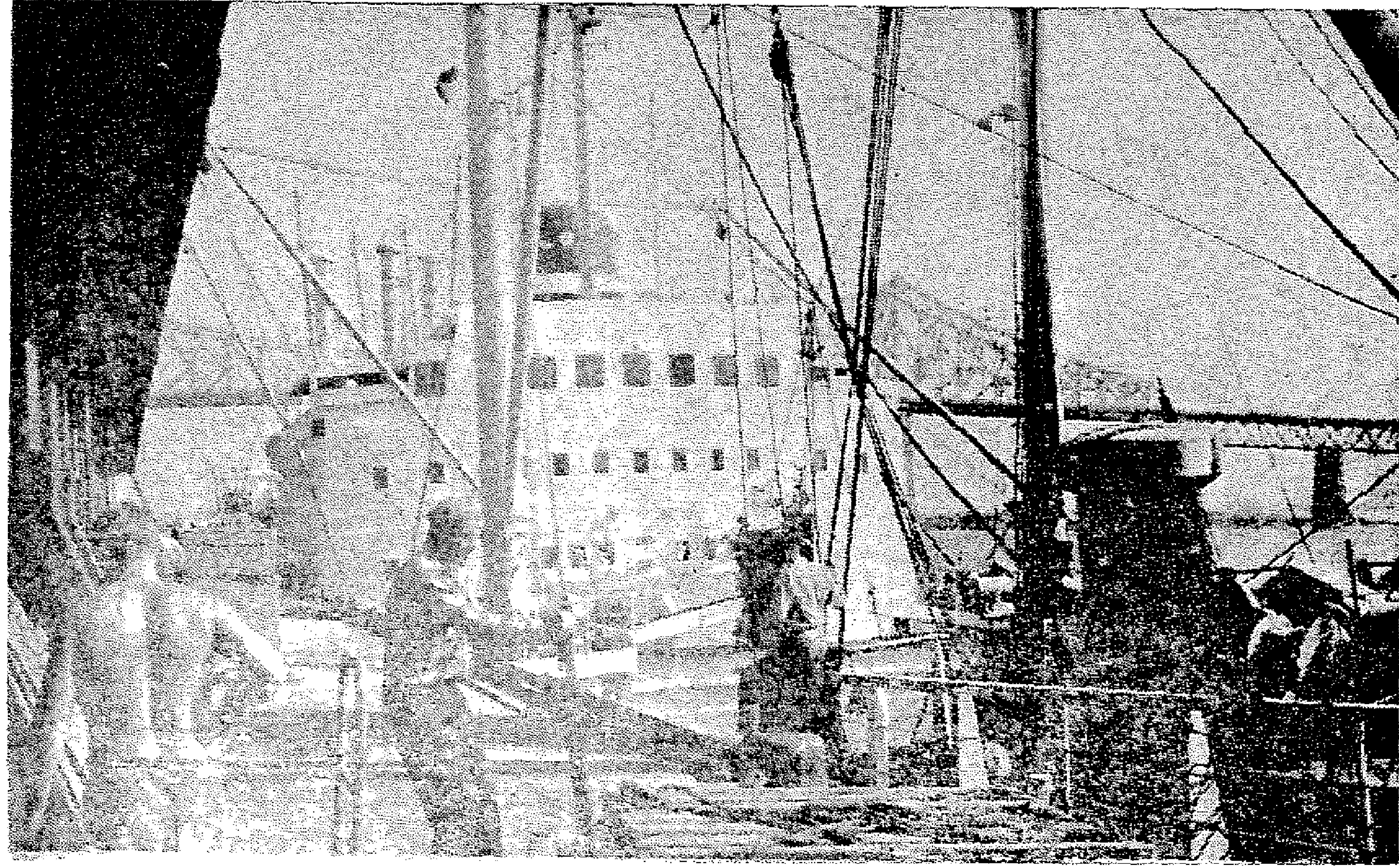
وعن الثلج وموسم الثلج ، سمعت حكايات « تتجمد » لها الأذن ! فالثلج يسقط ، ويملأ الشوارع والطرقات ، ويغطى الأسطح والهامات ، وترتدى البلاد عباءة بيضاء ناصعة ، ويختفى الناس داخل البيوت المدفأة ذات الزجاج المزدوج الذى يمنع البرد والصقيع ! فى شتاء العام الماضى كان ارتفاع الثلج فى الشوارع أربعة أمتار .. حين يأتى الثلج يهلل الأطفال وهم يرقبون مشهد سقوطه من خلف النوافذ ، وعندما تتاح لهم فرصة الإفلات من رقابة الأم والأب يجرون ويحملون كميات منه . . يتقاذفون

بها ! حين يأتى الثلج يفرح العشاق ، فهم مقبلون على موسم « دفء » ولكن على طريقتهم الخاصة ! حين يأتى الثلج يتعذب « المهاجرون الجدد» ويلعنون الحياة ألف لعنة ، ويتذكرون سماء أوطانهم . ويذكرون المثل الذى يقول « تحمدنى ياطيرى لما تجرب غيرى » !

حين يملأ الثلج الشوارع والطرقات ، ويتسكع فوق النوافذ يخرج الناس فى كندا للتحدى .. هناك من يستخدم آلة لشق طريق أمام باب البيت ، وهناك من يستخدم ماكينات « تشفط » الثلج . لكن هذه الماكينات ثمنها ٥٠٠ دولار ولا يشتريها إلا الأثرياء ! وتتحول كندا إلى معسكر عمل دولى . . يقاوم الثلج .

ويحكون لى أن كل مهاجر جديد إلى كندا ، يحمل ذكرى من موسم الثلج . فلا بد أنه « تزحلق » يوماً ، وكسر له ضلع أو ترقوة أو تمزقت عضلة مثلا ! وفى كندا قانون مقدس ، فإذا وقع شخص ما أمام بيتك لأنك لم تنزح الثلج — وهذا يستلزم جهداً بدنياً قاسياً — فلا بد أن تدفع خمسين دولاراً على الفور كغرامة ، وربما يعالج « المجنى عليه » على نفقتك !

وموسم الثلج هو موسم « صدأ » السيارات . فالكندى لا يستخدم السيارة إلا فى موسم واحد أو اثنين على الأكثر ثم يطلب « حارس مقبرة السيارات» ويسلمه إياها نظير ٢٠ دولاراً للسيارة « الشيفروليه » و ٥٠ دولاراً للسيارة « الكاديلاك » ! نعم إن الثلج يلتهم صاج السيارات وبعضهم يقذفون إلى الثلج ملحاً بكميات كبيرة « تصد نفس الثلج »!



قضيت ٦ ساعات فى ميناء مونتريال ، ولم أستطع أن أكمل .. إنه دنيا تعوم فوق الماء . البواخر ترسو فى كبرياء

إن موسم الشهور الثلجية هو موسم « الحوادث » .

إحصائية يضعها أمامى موظف السياحة فى « مونتريال » ، تقول : إن ٣٠ ٪ من السيارات تلاقى حتفها بسبب الثلج ! إنسان كندا يواجه هذا الطقس بأن يستخدم فى سيارته نوعاً من « الطارات » المزود بمسامير يؤجل قليلا المصير المخيف ، لكنه لا يمنعه فى أغلب الأحيان !

يقول لى شاهد عيان اعتاد السفر بين « مونتريال » وأتاوا العاصمة : إنه رأى سيارات تدور حول نفسها عشر مرات ثم تسقط فى البحيرة بعد أن ترتطم بأى شىء ! يقول لى إنه اعتاد أن « يركن سيارته ويضىء كل أنوارها التى تبدو على البعد كأنها مقهى على الطريق . . ثم يستخدم الفرامل استخداماً عنيفاً حتى لا تنزلق السيارة من فرط نعومة الجليد ! يقول لى إن الأمطار تدهم سائقى السيارات فى « الهاى واى » فيرتبكون بشدة ، ويحاولون السيطرة ، لكنهم يخفقون ، ولا يجرؤ أحد على القيام بهذه « المغامرة » إلا بعد التأكد من الجو . . ولهذا ينصت الناس فى السيارات لأجهزة الراديو إذا ما تحدث المذيع عن الطقس ! ولا مانع أن يبعث التفاؤل فيك بإذاعة أغنية فرنسية شهيرة تقول :

« يحيا الشتاء . . يحيا الشتاء . . من غير الشتاء . . لا توجد حياة . الثلج يأتينا ، والخير فى قدميه» .

إن الكنديين يرددون هذه الأغنية كلما جاء الشتاء . . وسقط الثلج .. ويقولون إنه إذا تأخر سقوط الثلج فى الكريسماس فهذا فأل قبيح !

إلى هذا الحد ، دخل « الثلج » فى أخلاق الناس فى كندا ، وأصبح الطقس يرفض البشر أحياناً ، ماداموا لا يقبلون التحدى . فالأرض العملاقة الشابة ، كانت أرضاً جليدية ثم تحداها الإنسان وأذاب الجليد ــ بالعلم ــ وزرعها بالإرادة وطوعها لنفسه بالإصرار وعاش تحت سمائها بالحب !

إن الثلج يصيب شوارع كندا بالتصدع ، وهذا يكلفهم ملايين الدولارات ثمن صيانتها بسرعة مذهلة تدعو إلى الإعجاب !

هناك ما هو أخطر من الثلج ، يدمر ويتلف ويخيف الكنديين . إنها العواصف الثلجية ! فالعواصف الثلجية تسبب الحرائق ، لأن البيت الكندى من الخشب ، وهذا يسهل التهام النار محتوياته؛ والرعد العنيف يحرق الأشجار ، ولما كانت كندا غابات كثيفة ، فإن حريق الأشجار يؤدى إلى كوارث .

يقولون لى إن سرعة الرياح فى عاصفة ثلجية خلال شتاء ١٩٧١ كانت ٧٠ ميلا فى الساعة ! إن الأنهار تتجمد وعندما يذوب الثلج ، تحدث حوادث غرق مؤسفة . تبتلع الأنهار عدداً من الشبان الذين يلهون فوق سطحها المتجمد الناصع ، غير منتبهين لبعض الثقوب فى الجليد !

حين تحدث العاصفة الثلجية ــ والراوى شاهد عيان ــ يهجر الناس سياراتهم ويهربون ، ولا تمضى سوى دقائق حتى يبتلع الثلج السيارات ، وتهوى إلى قاع بحيرة « أونتاريو » مثلا ! وحكاية تجمد أطراف الناس كنت أظنها « نكتة » ، ولكن صديقاً أرانى أذنه التى تجمدت فى شتاء ١٩٦٩ ،

لمعلوماتك

- أصبح للكنيسة القبطية المصرية مركز رئيسى فى « تورنتو »، ويبلغ عدد أعضائها ١٠٠٠ عضو، ويشرف هذا المركز على نشاط الكنيسة القبطية المصرية فى كندا والولايات المتحدة .
- الفنون فى كندا تضم نشاطات من المسرح والمهرجانات القومية والباليه والموسيقى والفنون المرئية والتأليف والنشر .
- يشرف المجلس العلمى لكندا – برئاسة وزير الدولة للعلوم والتكنولوجيا – على الدراسات العلمية ويقدم توصياته فى السياسة العلمية للدولة .
- البحث العلمى فى كندا يحتل أهمية بالغة فى سبيل تطور البلاد فى المجالات التالية :

أبحاث تطوير الصناعة .
الأبحاث العلمية والتكنولوجيا لشمال كندا .
الأبحاث الزراعية .
أبحاث تنمية الغابات والمحافظة عليها .
الأبحاث السمكية .
أبحاث موارد الطاقة والمناجم .
الأبحاث الصحية العلمية .

واضطر إلى إجراء عملية فيها تعيد إليها حرارة الشرايين !

ويبقى سؤال : هل يحبس الثلج الناس فى البيوت ؟ هل « يعتقلهم » ؟ هل تتعطل المواصلات ؟

أبداً . فالثلج يخلق حياة اجتماعية ساخنة خلف النوافذ المغلقة بإحكام . يستمدون الدفء من العلاقات الإنسانية « الموقوتة » بالشتاء .

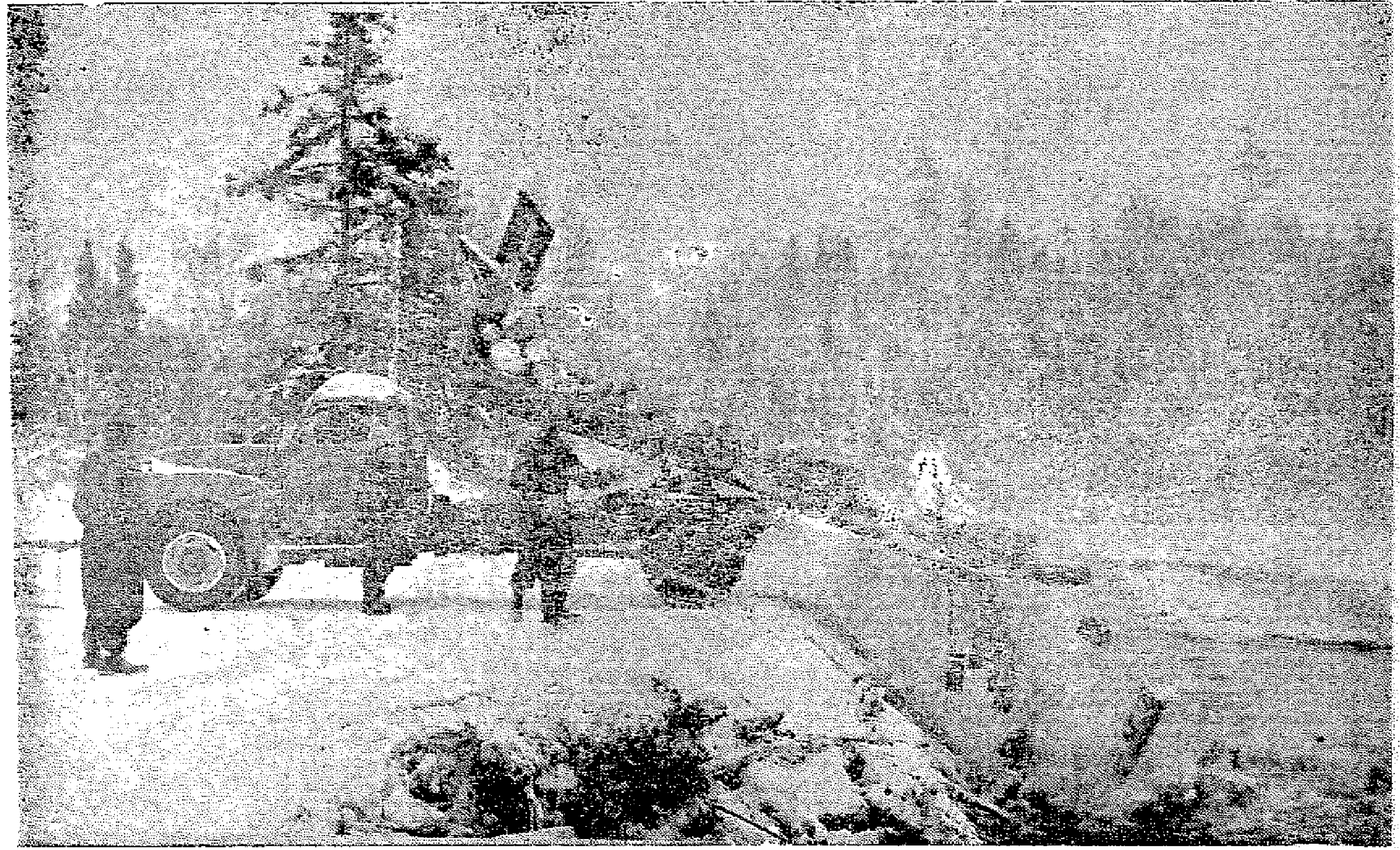
الكندى يعلم أن مبرر بقائه الوحيد فوق هذه الأرض ، المثيرة الطقس . هو العمل . إنه مصدر دخله !

إن بعض المليونيرات الكنديين « يهجرون » كندا خلال شهور الثلج . يطيرون إلى أوربا ويعودون مع ظهور السنجاب فى الشوارع !

إن الإنسان الكندى البسيط استطاع بالعلم أن يواجه هذا العالم الأسطورى من الجليد . استطاع أن يحطم كبرياء الطبيعة الثائرة ، فالآلات «تشفط » الثلج من الشوارع ، « والبالوعات » تمتص الأمطار من الطرقات ، والتدفئة الصناعية جعلت من البيوت أفرانا عند اشتداد الثلج ، والغابات منعت التراب ، وبالتالى انعدم الوحل بعد المطر !

إن ٤٤٤ ألف بحيرة فى كندا تتجمد فى الشتاء وتفيض بعد الذوبان فى الصيف . لهذا فإن كندا — فضلا عن أنها سلة خبز العالم — هى خزان المياه العذبة .

الناس فى كندا يعملون . فوق أفدنة من الثلج يعملون ! يرفضون الشكوى . يعبرون العذاب ، يصالحون الطبيعة إذا زمجرت !



نقل الأخشاب أو تفريغها فى الأنهار ، بطريقة أوتوماتيكية . وللخشب فى كندا حكاية !

إنهم لا يتعللون بالبرد أو المطر ، بالحر أو بالعواصف الثلجية المميتة . والعلم جعل من كندا ، بلاداً مريحة برغم ما سبق ذكره ، وبرغم أن بعض الناس لا يحتمل هذا العذاب ويفر!

ولست أروى هذه التفاصيل عن الطقس لأقتل الطموح فى السفر إلى كندا ، ولكنى أقرر حقيقة هامة هى أن عماد النجاح للمهاجر إلى هذه الأرض هو احتمال الطقس !

لا بد من الصداقة مع الشتاء القارس والحر الخانق والعواصف الثلجية .

ولا بد للمهاجر من نسيان شمس بلاده الجميلة وسمائها الصافية ومطرها الحنون حتى لا ترهقه المقارنة !

لا بد !

لمعلوماتك

- أول إنسان أبيض وضع قدمه على التراب الكندى كان فى القرن الحادى عشر .
- تقف كندا رمزاً للاعتقاد بأن «النوع يخلق الوحدة» فإن الكنديين الإنجليز والفرنسيين والألمان والروس والصينيين والهنود والباكستانيين والعرب وغيرهم ما زالوا متمسكين بتقاليدهم داخل كندا ،لكنهم جميعاً يعملون يداً واحدة من أجل رفاهية وطنهم الجديد .

الفصل الرابع

الأحضان الدافئة أمام حضرة الناظر!

« ما دمنا قد اخترنا هذه الأرض بيتاً لنا

فلابد أن نخضع لتقاليد الحياة هنا !!

إنى قلق بشدة على مستقبل أولادى» . .

أول يوم دخل الفصل وضعوا أحذيتهم فى وجهه ! كاد يصفعهم ويرتكب جريمة ، ولكنه تمالك أعصابه . . وابتسم ، ولكن لم تتزحزح الأحذية من مكانها !

فى اليوم الثانى دخل الفصل ، وأشعلت تلميذة ملائكية الوجه سيجارة ، وراحت تنفث دخانها بمتعة . غلى الدم فى رأسه . وكاد يرميها بأى شىء ، وتوقف عن الدرس حتى تنتهى من التدخين !

وفى اليوم الثالث استدعوه ليقول رأيه فى جرعة كبيرة من الثقافة الجنسية على وشك أن يتلقنها ابنه الطفل . احتج ورفض وتوتر واستسلم .

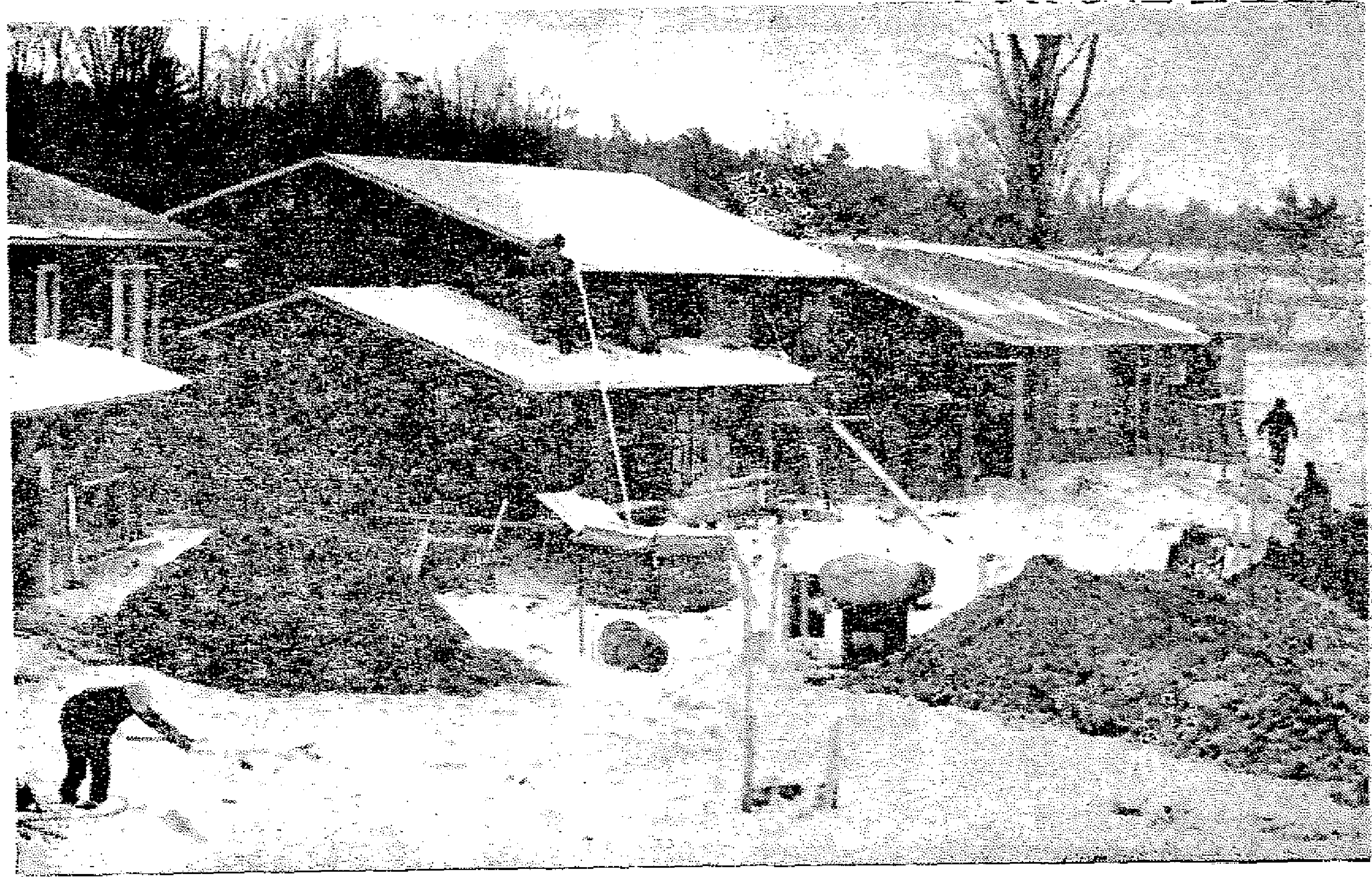
هذه يوميات مدرس مصرى ناجح فى إحدى المدارس الكندية ، التقطتها بصعوبة من خلال حوار معه :

« أتذكر أول مرة دخلت الفصل فى المدرسة الكندية . فوجئت بمشهد لم أتوقعه . كان التلاميذ قد وضعوا أقدامهم فوق التخت ، فى وجهى

مباشرة . . غلى الدم فى رأسى . كدت أرتكب جريمة . كدت أصفعهم وليكن مايكون . . لكنى ترويت : ولا أدرى كيف ترويت ! كل الذى أذكره أننى كنت أرتعش من الغضب والتوتر . وأحسست أن كرامتى سقطت فى أول امتحان . وفى ثوان كنت أسترجع فى ذاكرتى الوجوه الطيبة ، وجوه تلاميذى فى الخرنفش ! مرت دقيقة كأنها دهر . الأحذية فى وجهى لا تريد أن تتزحزح . . ابتسمت فربما يتغير الموقف، الأحذية فى وجهى لا تريد أن تتراجع . صرخت : اجلسوا فى أدب . وفجأة قام أحدهم وقال : « نحن لا نقصد إهانتك يامسيو ملطى . إننا نجلس كما نشاء . هذه الطريقة تريحنا . إنها مسألة راحة لا أكثر ولا أقل . لا علاقة لها بالأدب والأخلاق . ونحن أحرار فى الأسلوب الذى نجلس به . إن آذاننا صاغية لك فدعنا نجلس كما نشاء ! »

« كنت وأنا أستمع إلى هذه « المحاضرة » من التلميذ الكندى جورج بوشارد، أجتر صور تلاميذى فى مدرسة الخرنفش وأكاد أختنق . قدمت نفسى فى اقتضاب وبدأت أشرح الدرس الأول ، والأحذية فى وجهى ! أستطيع أن أملأ الصفحات لو سجلت انفعالاتى المرة خلال تلك الحصة ! وفيما بعد عرفت أن الكندى تلميذاً كان أو أباً أو عجوزاً، يعبر عن نفسه بطريقته . . والفرق فى المعايير التى تقاس بها الأخلاق والسلوك . والفرق فى المعيار الذى يقاس به « احترام » الصغير للكبير !

« وفى فصل ثان بالمدرسة نفسها التى تضم ٢٧٠٠ تلميذ وتلميذة ، أخرجت فتاة رقيقة حالمة، وجهها ملائكى ، أخرجت علبة سجائرها من



اشتهيت أن يكون لى بيت فى كندا ، عندما رأيت كيف يبنون البيوت . تماماً كما تطلب لنفسك « تفصيل » بدلة ! !

لمعلوماتك

- فى كندا أربعة أحزاب :

حزب الأحرار

حزب المحافظين التقدمى

الحزب الديمقراطى الجديد

حزب التجمع الائتمانى

- يتكون مجلس العموم من ٢٦٤ عضواً ومجلس الشيوخ من ١٠٢ عضو.
- أعضاء مجلس العموم ينتخبون بطريق الاقتراع الحر ، أما أعضاء مجلس الشيوخ فيعينون بواسطة الحاكم العام بناء على توصيات رئيس الوزراء ، ويعتزلون العضوية عند بلوغهم سن الخامسة والسبعين .
- إن الدستور الكندى يحدد الإطار الذى يتقاسم فيه المسئوليات كل من الحكومة الفيدرالية والحكومات المحلية .
- المسئوليات الكبرى للحكومة الاتحادية فى أوتاوه تنحصر فى السيطرة على الدفاع القومى والسياسية الخارجية والصناعة والتجارة والنقد والمصارف والقانون الجنائى .

حقيبة الكتب ، وأشعلت سيجارة ! ولم أصدق ما أرى أمام عيني . لكنه حقيقة . . والدخان يتصاعد ، وشارلوت تسألني سؤالا وتأخذ نفساً! ومضت ثوان ثقيلة . وكدت أن أرميها بأى شيء . لكنى ضبطت أعصابى. كل الذى فعلته احتجاجاً على هذه الصورة البذيئة أن توقفت عن الدرس حتى يبطل التدخين فى الفصل . ولكن يبدو أنى كنت أعاند نفسى ، يبدو أنى — كمدرس حديث ، مستجد على المدارس الكندية — كنت أحتج على حجم الحرية التى يتمتع بها تلاميذ « المدرسة العالية » فى باكنجهام ، وكل المدارس ! يبدو أنى أتصرف بطريقة من يناطح الحجر ! »

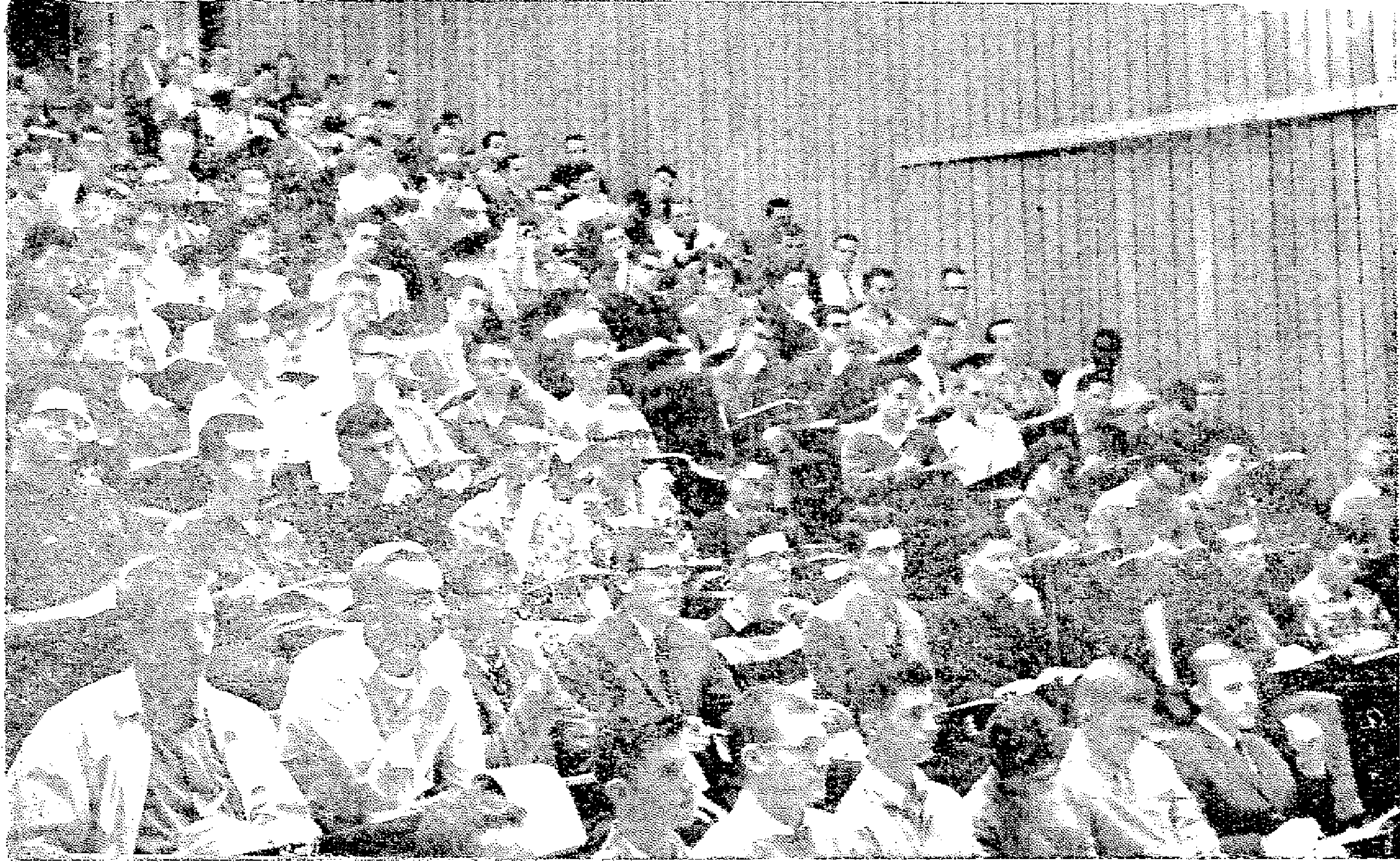
من يوميات مدرس مصرى فى مدرسة كندية

يجب أن تنسى المقاييس الخلقية التى تعودتها فى مصر . وفى الشرق عموماً .

١ — التدخين شائع فى المدرسة الكندية : ٩٠٪ من التلاميذ يدخنون ، و ٧٠٪ من التلميذات لا تفارق السيجارة شفاههن الوردية !

٢ — المخدرات شائعة بين التلميذات والتلاميذ : ٢٥٪ من البنات يتعاطين المرجوانا و ١٥٪ من التلميذات يحتفظن بأصناف أخرى فى جيوبهن .

٣ — الجنس منتشر . أكاد أعرف جيداً العلاقات التى تربط تلميذاً فى



عدد معقول ... من الطلبة والأساتذة . ولهذا هناك انتباه لكل كلمة تقال ، لكن أغلب أساتذة جامعات كندا أمريكيون !

فصل بزميلته ، إنها تبدأ بقصة حب هادئة . يجب أن تنسى – كما سبق أن قلت لك – المقاييس الخلقية السائدة التى تعودناها فى الشرق . العذرية فى القارة الأمريكية وهم ، بل منتهى القبح ! الفتاة العذراء غير مرغوبة . وحين تمل تلميذتى زميلها تفرز بعيونها زملاءها ، وتختار آخر . وتولد قصة حب ثانية ويتكرر الأمر . الجنس يمارس خارج فصول المدرسة ، ولكن لا مانع أن تكون المشهيات أمام عيوننا نحن المدرسين ، بل أمام حضرة الناظر . فمن الصور الطبيعية جداً أن يتعانق اثنان عناقاً حاراً أو دافئاً أمام الناظر . إنه هو الآخر يبارك هذه الحرية .

ولقد قضيت شهوراً طويلة فى صراع قاس مميت أمارس فيه نوعاً من اليوجا العنيفة ، هو كيف أتأقلم على هذه « البلايا والمصائب » .

لقد كانت هذه المشاهد اللاخلقية – فى تصورى – أشبه بالصدمات الكهربائية . (ولو أن هناك فى كندا مقاطعات محافظة ربما تكون محافظتها أكثر من بلاد الشرق . الأولاد لا يدخنون . المخدرات لا يذكر اسمها . . العذرية قائمة ومرغوبة . والبكارة قمة الخلق) .

وأعترف أن تلك المشاهد اللاخلقية التى تسود الأغلبية العظمى من شباب كندا قد اصطدمت بمعتقدات ثابتة فى رأسى . ولكن هل أحيا بمعتقداتى تحت سماء كندا ؟ وكيف ، بدون أن تسيل دماء كرامتى ؟ تلك كانت المعادلة الصعبة !

لمعلوماتك

● أعلنت وزارة العمل والهجرة الكندية أن «الغرض الأول وراء سياسات وبرامج الهجرة هو تشجيع وتسهيل الهجرة إلى كندا على من لديه مهارات ومواهب مطلوبة بشدة وبشكل عام وخاص فى كندا» .

● السياسة القومية الكندية للهجرة تقوم على الأسس التالية :

(ا) لأسباب اقتصادية وسياسية وأخلاقية ، فإن على كندا قبول عدد كبير من المهاجرين .

(ب) يجب أن تهدف سياسةالهجرة إلى وفود ما يساوى ١ ٪ من عدد السكان سنويا .

(حـ) إن سياسة الهجرة يعاد النظر فيها باستمرار لإحداث تعديلات ضرورية تتمشى مع تغير الظروف .

(د) سوف تمنح وزارة الجنسية والهجرة الصلاحيات اللازمة لقبول مهاجرين صالحين ومطلوبين قادرين على تطويع أنفسهم على الحياة الكندية ويعود وجودهم فى كندا بمنفعة اقتصادية عليها ، من الواضح أن الجنسية الكندية للجنسين الإنجليزى والفرنسى المؤسسين لكندا واللغتين والثقافتين والتاريخين كان لها الأثر فى السياسة العامة للهجرة .



الطفل الكندى ليس ذكياً ، ولكنه يملك إمكانيات حضارية فى التعليم !

من ملاحظات مدرس مصرى فى مدرسة كندية

لست راضيا عن طريقة التعليم فى المدارس الكندية .

لا بد أن ينتقل التلميذ إلى « السنة التالية » ، فلا مكان له إلا فى « المستوى » الذى يحدده عمره ! كأن النجاح بالعمر . فكلما تقدم التلميذ فى السن — وهو لا مناص سيتقدم — نقل إلى السنة التالية ونجح ! هذا الأسلوب السقيم فى التعليم قتل الطموح والاجتهاد والمعاناة !

* فالتلميذ الكندى ليس فى مستوى ذكاء الطفل المصرى . إن التلميذ الكندى يعتمد على الآلات . فى الحساب مثلا . يعتمد على الافتراضات . مثلا إذا قلنا لتلميذ كم تساوى ٧ × ٨ فإنه يقول تساوى ٦٠ أو ٨٠ أو ٧٥ ، وهذه الإجابة ليست خطأ . بل إنها تحتاج إلى مراجعة ! وبالآلة الحاسبة نكتشف أنها ٥٦ . إذن فالافتراض أساس للوصول إلى الإجابة الصحيحة .

* التلميذ الكندى يعوض مستوى ذكائه المنخفض بتحصيل المعلومات العامة .

* التلميذ الكندى لا يعرف دأب التلميذ المصرى ولا طموحه ولا حبه للتحصيل ولا سهره الليالى ولا خوفه ولا قلقه .

* التلميذ الكندى يعرف مقدماً أنه سينجح . . الترتيب لا يهمه . .



(٣) أنفاق تحت الأرض ، برغم أنه لايوجد أى كثافة سكانية ، لكن الحضارة لاتعرف المشاكل المرتقبة

لا يقيم له وزناً . . المنافسة ليست فى حسابه . . إنه سينتقل من الابتدائى إلى الثانوى فالجامعة بكل يسر وسهولة .

إن كل شيء يقدم له بدون مجهود . . الدرس والمعلم ، والنجاح !

• التلميذ الكندى تشغله « حرياته » عن التحصيل . ولا عقاب مطلقاً بسبب التخلف الدراسى . العقاب فقط فى حالة إحداث متاعب فى الفصل .

• عدد تلاميذ الفصل فى المدرسة الكندية لايزيد على ٣٠ تلميذاً : ١٨ تلميذة + ١٢ تلميذاً ، ولا يقل الفصل عن ١٥ تلميذاً . .

* من تقييم مدرس مصرى للتلميذ الكندى

هؤلاء هم تلاميذى وأصدقائى ، لا تقم وزناً للشعر الطويل . ربما لا تستطيع أن تميز بين الصبى والصبية . أنا لا أقيس أحداً فى كندا بشعره المتهدل على جبينه ! رأيت علماء صواريخ شعورهم تفوق شعر البنات ! ورأيت أخيب التلاميذ بشعر قصير متزمت !

هذا « كلود شاريون » إنه يربط شعره كالهنود الحمر . مدخن عظيم ، ترك بيت أبيه الثرى لكى يعمل ويعتمد على نفسه . . يقيم فى شقة إحدى زميلاته . . يعاشرها . . ولكنه لا ينوى الزواج منها ! لا تعجبه الجامعة . . يفضل عملا يدوياً .. وزوجته أوربية من الدول الإسكندنافية !

وهذا « جاك دو » إنه يسخر من كل شيء . ملم بمعلومات فى السياسة . يقول لى إن كندا مجموعة جاليات ذات مصالح اختارت أرضنا . . الإيقاع بالدولار فى حبائلها !

وهذه « دانيال تتكلى » هادئة . حساسة . إنجليزية الميلاد . رفضت أن تدارس الجنس مع زميلها « هوم رايات » فجاء وشهر بها أمام زميلاتها ! قالت دانيال يومها : « أنا حرة . هذا جسدى . هذه قلعتى . لا أتنازل عن أسوارها ! » وضج التلاميذ بالضحك . فبكت دانيال وخرجت من الفصل وهى تردد : أوغاد . وحوش !

وهذه « جانيت لا فرانس » . قوية الشخصية . . تنظم الإضرابات الهادئة . . تقابل الناظر « أرتو بوشار » إذا حدث شيء يتعلق بالبنات ، تعد نفسها ممثلة صوتهن الحر ! قالت ذات مرة للناظر : « لا تحاول أن تصبح أباً قاسياً . . لقد هجرنا بيوتنا وتركنا الحياة الأسرية لأننا لم نعد نحتمل القسوة فى المعاملة » !

وهذه « جين هايدن » . إنها تشبه النجمة الأمريكية سوزان هيوارد . إن جين تدخن المارجوانا . إن شقيقها يدسها لها فى حقيبتها كل صباح ويهمس فى أذنها : الحياة تعاش مرة واحدة وبعدها تصبحين رماداً . لا تصدقى كل ما يقوله الإنجيل ! « منذ ذلك اليوم . لا تفارق المارجوانا حقيبتى . إذا غابت عنى . بحثت عنها ! »

وهذا « ديك روسمان » إنه يهتم بالمعلومات العامة ، وكل أمله أن يعمل فى محطة « جاز ستيشن » . . يريد أن يكسب قليلا . . ويلهو

كثيراً . يقول لى : « شبح الحرب يدفعنا — نحن الوقود القادم — للمتعة بأى طريق » !

＊ أصدقاء مدرس مصرى فى مدرسة كندية

المدرسون يذهبون إلى المدرسة قبل بداية العام الدراسى بأسبوع ليضعوا برنامجاً للعمل . . ليتعرفوا على زملائهم ويعيشوا فى « باكنجهام » وربما فى « أتاوا » العاصمة (تبعد ٢٠ ميلا فقط) . ويجتمع فى مسرح المدرسة ١٤٠ مدرساً والمدرسات والمساعدون . لا سعاة فى المدرسة ، معاون المدرسة يعاونه بواب ونجار للصيانة وكهربائى . . العام الدراسى ٢٠٠ يوم للمدرس ، و ١٨٠ يوماً للتلاميذ . خلال العشرين يوماً تجتمع أسرة التدريس لتقويم العام الدراسى .

يهدف التقويم إلى إعادة النظر فى طريقة التدريس إذا احتاج الأمر ذلك ، فى وسائل الإيضاح . فى أسلوب شرح المنهج . فى مدى استجابة التلاميذ مع الكتب ! وهذه فضيلة تحسب للمدرسة الكندية . بل أكثر من هذا ، فإن إدخال أية مادة جديدة أو دراسة من نوع خاص لا تفرض فرضاً . إن الناظر يوجه الدعوة إلى الآباء والأمهات للمشاركة فى الرأى ، ويصبح «مجلس الآباء» ندوة علمية مثمرة وليس « فناجين قهوة » . . ولا بد أيضاً من ذكر تحفظ هام هنا . فمعظم الآباء يرفضون الحضور لأن أولادهم منذ سن السادسة عشرة هجروا البيت واستقلوا بأنفسهم واعتمدوا على دخلهم . . أما الآباء الذين

يلبون الدعوة . فما زالوا حريصين على فلذات أكبادهم . ذات مرة ذهبت إلى المدرسة التى يتعلم فيها ابنى « عماد » . كانت الناظرة تنوى تدريس « علم الجنس » للأولاد . وتتولى الراهبات هذه المهمة ليكون لها جلالها . وذهبت . بل لقد كنت الرجل الوحيد بين الأمهات . وأتوا لنا بفيلم سينمائى عليه شرح مبسط لكل ما يتعلق بالجنس . ووزعوا علينا أسطوانات يديرها الأولاد فى البيت ليستذكروا . وأعترف أنى رفضت فى البداية كل ما يتعلق بهذا العلم . فقد كنت ضد تدريس الثقافة الجنسية فى هذا العمر المبكر (١١ سنة) . وكنت أنادى بتدريس علم الجنس من الطفولة أو فى حالة الإدراك . أما مرحلة المراهقة فمرفوضة ، خصوصاً أنى رأيت بعينى الحريات الهائلة ، من حرية التدخين إلى حرية الجنس . فعندما واجهت الناظرة برأيى ، قالت :

« نحن نعترف أن الجنس يمارس ولكننا نريد أن نجعله أكثر احتراماً » !

* من مذكرات مدرس مصرى فى مدرسة كندية

تعودت طريقة الحياة الكندية فى البيت والشارع والمدرسة . تأقلمت عليها ، ولكن على مضض . هناك مثل يقول : « إذا كنت فى روما . فافعل كما يفعل الإيطاليون » . هأنذا أحاول أن أفعل ما يفعله الكنديون ! إننى قلق بشدة على مستقبل أولادى . . إننا أنا وزوجتى ، وهى تعمل مدرسة لغة فرنسية ، نشعر بهذا القلق ، إن « الحرية » تشدهم . .

والإغراءات تجتذبهم . صحيح للبيت دور مهم ، ولكن ما أبنيه فى البيت قد تهدمه المدرسة . . إنه لشيء مؤسف أن أعترف أن المدرسة « تهدر » القيم التى تعارفنا عليها بمقاييسنا الشرقية ، إن على المهاجر — وأمامه تجربتى ماثلة — أن يعرف أن ألف باء النجاح فوق هذه الأرض . ليس فقط التأقلم على الطقس المتقلب ولكن أيضاً « التأقلم » على القيم والأخلاق على الطريقة الأمريكية فى الواقع . . فأنا لا أستطيع أن أقول إن فى كندا نظام تعليم « كندياً » لأنه فى الحقيقة « أمريكى » ، ففى صفحات كتب التاريخ يتعلم الأولاد أمجاد أمريكا . . وانتصاراتها من أجل الحرية ! وفى كتب الجغرافيا يلم الأولاد بتاريخ الساحل الأمريكى جيداً . والجغرافيا والتاريخ مواد اختيارية . وبالنسبة للبنات الاختزال والآلة الكاتبة مواد اختيارية . . والدين إجبارى فى بعض المدارس ، والعلوم واللغات مواد أساسية . ومهما زرعت فى قلب أولادى الخوف من الخطيئة فالتيار أكبر من الولد ومنى . إنه جارف .

ولقد قلت لزوجتى : مادمنا قد اخترنا هذه الأرض . بيتاً لنا ، فلابد أن نخضع لتقاليد الحياة هنا . لا بد أن ننسى بالتدريج . تقاليد مدرسة الخرنفش . . وصرامة ناظرها . . ودماثة تلاميذها . حتى شغبهم المقبول! فالتعليم فى كندا له وظائف محددة : تنمية الشخصية ، التعليم حسب القدرات الشخصية ، التعلم حسب القدرات العقلية . تهيئة التلميذ للحياة العملية بحريات فوق التصور !

من يوميات رمزى ملطى مدرس اللغة الإنجليزية فى المدرسة العالية

بمدينة باكنجهام القريبة من « أوتاوا » عاصمة كندا .. وكان قد دعانى لزيارة المدرسة ، وشهد فناؤها الجميل حواراً طويلا بينى و بينه ، وأردت أن أقدم « تجربته » العملية فى مدرسة كندية مدة ٤ سنوات ، لنفرح بالتلميذ المصرى برغم حرمانه حتى من فصل هادئ لا يزيد عدد تلاميذه على أربعين تلميذاً ! !

لمعلوماتك

● بدأت برامج تنظيم الأسرة منذ عام ١٩٦٨ ،وفى فبراير ١٩٧٢ عقد أول مؤتمر قومى لتنظيم الأسرة ،ومن أهدافه:

(ا) تبادل المعلومات عن طبيعة ومدى الخدمات والتدريب والبحوث اللازمة لتنظيم الأسرة .

(ب) مراجعة فاعلية البرامج الحالية .

(حـ) دراسة الوسائل التى يمكن تطويرها حتى يمكن الوصول إلى معالجة منسقة تشد حاجة الكنديين لخدمات تنظيم الأسرة .

● هناك ٨٧ مركزاً لتنظيم الأسرة فى كندا .

الفصل الخامس

بشر .. صناعة أمريكية !

« إن أمريكا تحاول صنع العقول الكندية بمعتقداتها السياسية ، ولكن كندا تريد أن تسمع وجهة نظر العالم وتقيم حواراً معه بلا وصاية أمريكية ! »

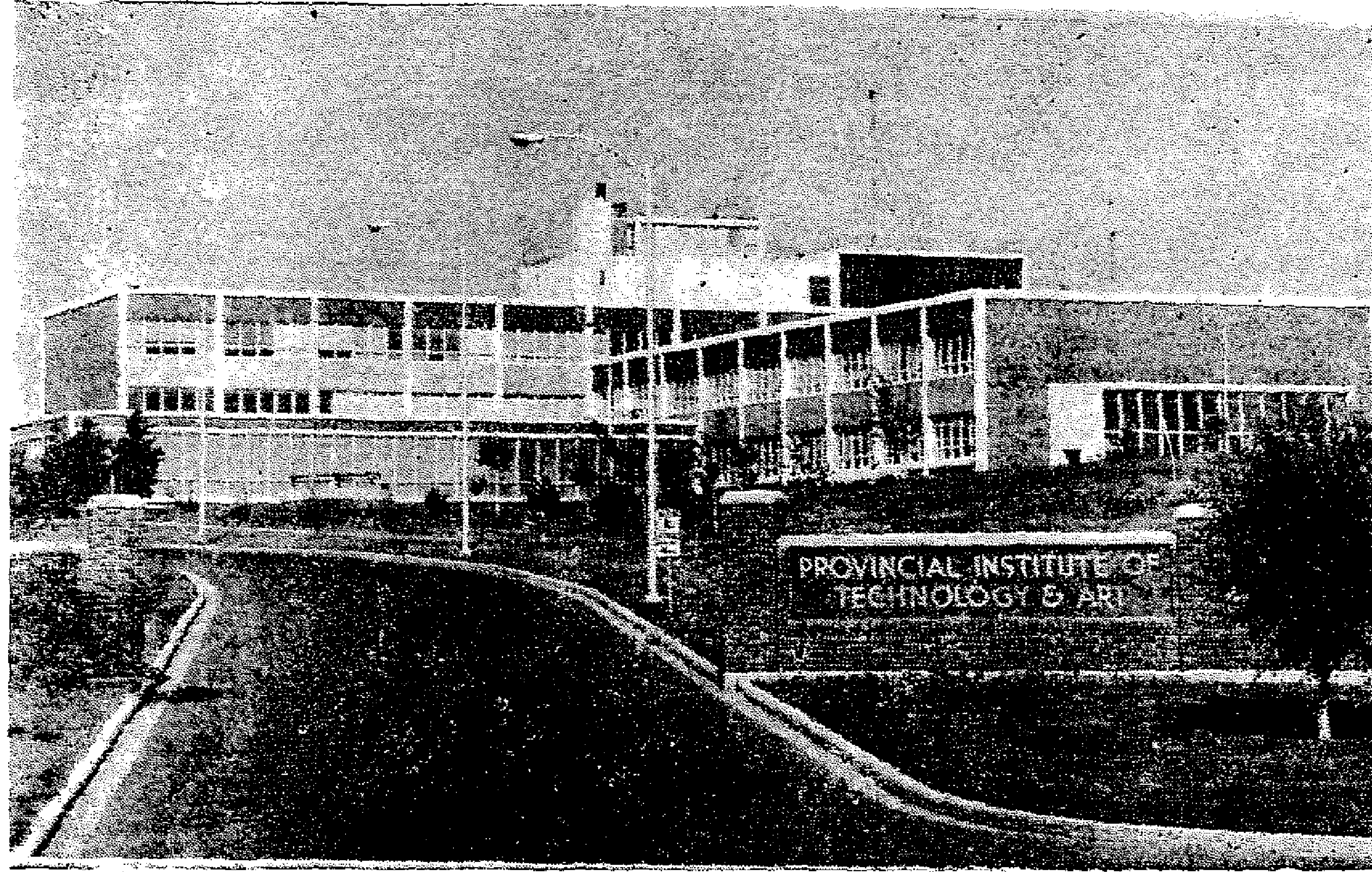
١

كلمة . . مجرد كلمة نطقتها . . أفسدت متعتى وأنا أتأمل ساعة الغروب عند شلالات نياجرا من الجانب الكندى ، حيث كانت الشمس تسقط فى خدرها ، وتلثم المياه الهادرة المتدفقة من علو . . قبل أن تنام فى مهدها . فالمشهد ذو أنوار خرافية ، لا تستطيع ألوان الرسام تسجيل فتنتها ، وتعجز عدسات الكاميرا عن الوصول إلى كنه روعتها . ذلك ما أحسسته .

وكنت ساعتها هائماً مع ذلك الشلال الملون من المياه حين نطقت بكلمة . عدها رفيق الصحبة إهانة قاسية توجب الاعتذار مائة مرة حتى أموت كبطل إحدى قصص تشيكوف القصيرة ! فالذى قلته — من وجهة نظره — مجاف للذوق . قلت إن شهرة شلالات نياجرا أنها أمريكية !

لمعلوماتك

- تعتبر كندا ثانى دولة – بعد الولايات المتحدة – فى تصدير الورق، ويبلغ قيمة ما تصدره أكثر من بليونى دولار سنويا .
- بالجامعات الكندية أقسام خاصة لتدريس علم الغابات يتخرج فيها متخصصون على مستوى عال لحماية الغابات فى كندا وتطويرها .
- يعتبر صيد الأسماك الصناعة الخامسة فى كندا ، وتساهم هذه الصناعة بما قيمته ٣٣٠ مليون دولار من الدخل القومى .
- تحتل صناعة التعدين فى كندا المرتبة الأولى فى الصناعات الأولية، وأهم المعادن هى : النحاس والحديد والذهب والبترول والأسبستوس والنيكل والفضة والزنك والجبس والبوتاس والألمونيوم .
- إن كندا هى الدولة الثانية فى العالم بالنسبة لاستهلاك الكهرباء لكل فرد ، والقوى المائيه تولد ٧٨ ٪ من الكهرباء التى تحتاج إليها كندا .



الجامعة فى كندا ، بناء لامع مصقول وواجهات زجاجية ، ولكنها محاضرات ومكتبة وأستاذ ،
والجامعات فى كندا تحتل واجهات المدن !

والتفت إلىّ رفيق الصحبة، وقال : « هذه شلالات كندية وتقع فى أرض كندا . والأمريكيون يقضون عطلة الأحد هنا فى مدينة « نياجرا فولز » الكندية . . وليس بالضرورة أن يكون كل عظيم ورائع « أمريكيا » .

واعتذرت برقة وقلت ضاحكاً : « كندا فى نهاية الأمر هى سقف أمريكا » ! . . واستشاط محدثى غضباً وهو كندى الأصل، ومولود فى مقاطعة نوفاسكوتيا . وقال :

« لماذا تلغى الشخصية الكندية . . إنك تكثف أحزاننا نحن الكنديين . فمشكلتنا هى البحث عن « الهوية الكندية » ، إن بطاقتنا العائلية — إن صح التشبيه — كندية الاسم ، ولكنها أمريكية فى نظر الغرباء مثلك ، إن عزلتنا جعلت العالم يظن أننا إحدى الولايات المتحدة جارتنا فى الحدود . . ولكنى لا أظن أنها تريد ابتلاعنا فى جوفها على طريقة التماسيح ».

وقلت لرفيق الصحبة — محاولا إعادة هدوئه إليه — ماذا يغضب كندا من أمريكا ؟ فأشعل سيجارة بللها رذاذ الشلالات الهادرة المتطاير .

وقال : كأنك تسألنى لماذا قتل قابيل أخاه هابيل .

وضاعت إجابة سؤالى فى مشهد الظلام وهو يحتضن الشلالات ، وألوان الطيف تشد الأبصار وتجذب الانتباه . . ولكنه همس فى أذنى قائلا : « إنها شلالات كندية » . .

نطق كلمة «كندية» كأنه يؤدبنى بطريقته !

ولكن السؤال الذى لم يبارح ذهنى طول إقامتى على الأرض

الكندية ، حتى وأنا داخل الولايات المتحدة الأمريكية ، وإن تبلور أكثر : ما حجم العلاقة بين الشقيقتين أمريكا وكندا ؟ !

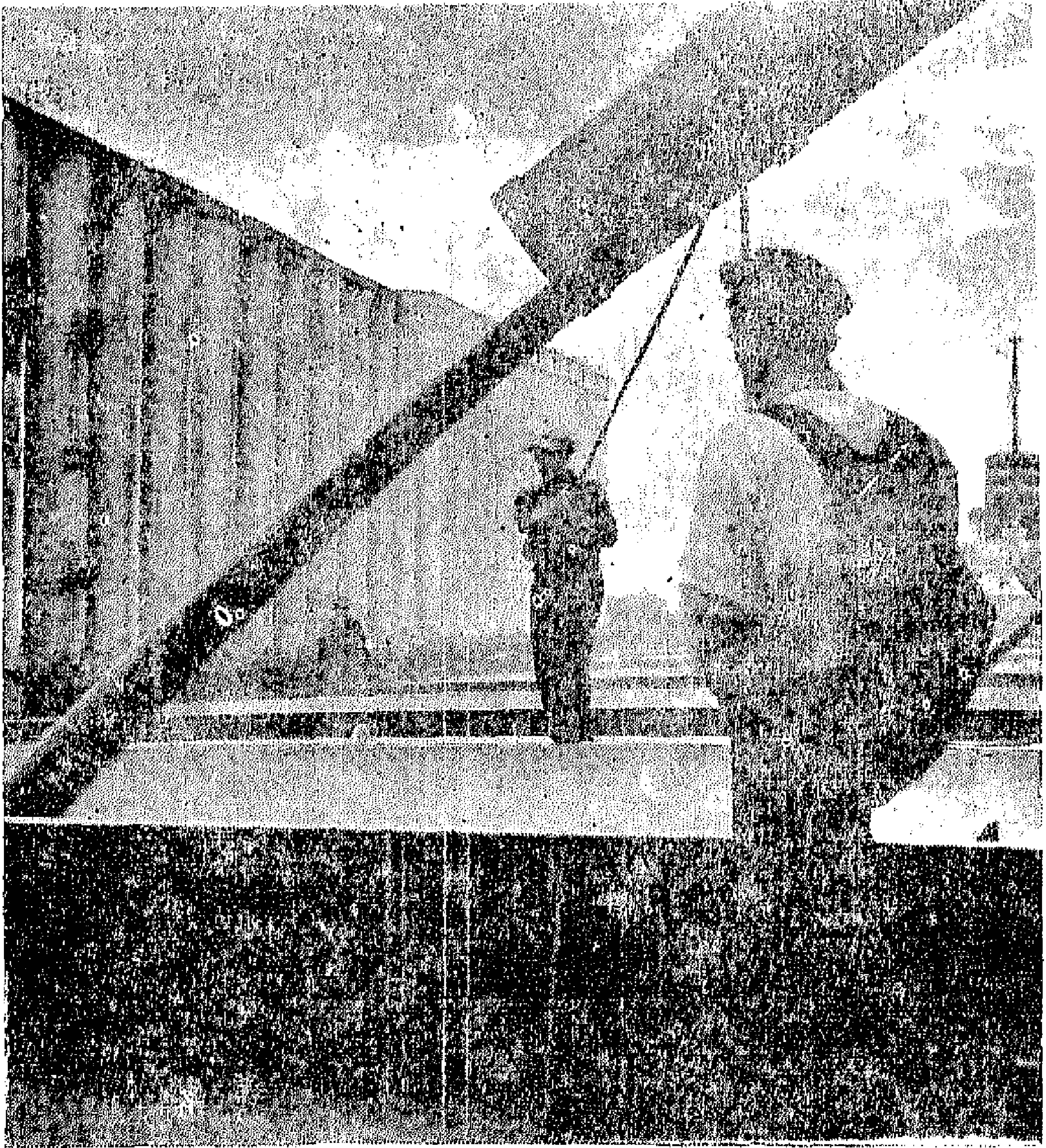
٢

الذى يلفت النظر أن الكندى يشبه الأمريكي إلى حد كبير . بل لا فارق بين كندى وأمريكى ! الاثنان يتكلمان بلغة واحدة ولهجة واحدة . . ويدخنان ربما سيجارة واحدة ، ويشاهدان أفلاماً واحدة . . ويركبان سيارة واحدة . . ويرقصان على أنغام واحدة ويستعملان نقوداً متشابهة ، ويلعبان رياضة واحدة ! ويشاهدان على شاشة التليفزيون أحياناً كثيرة قناة واحدة !

والكندى يقضى أيام الآحاد فى مدينة « بافالو » الأمريكية . والأمريكي ، لا تعجبه إلا مدينة « تورنتو » الكندية . . والاثنان يضحكان لنكتة واحدة ، ويتحمسان لفكرة واحدة .

والكندى يدخل أمريكا بلا جواز سفر ، والأمريكي يدخل كندا بلا جواز سفر . . ومن الممكن أن يقال إن الكندى يعيش حياة أمريكية أو– بعبارة مهذبة – يعيش على الطريقة الأمريكية !

وربما كان جو كندا أكثر برودة من أمريكا .. ولكن الطقس عموماً متشابه.. عندما ذهبت إلى أمريكا– ماراًّ بالحدود الكندية الأمريكية – ضحكت لأنى اكتشفت أن الحدود وهمية . . مجرد لافتة معلقة فى أعلى



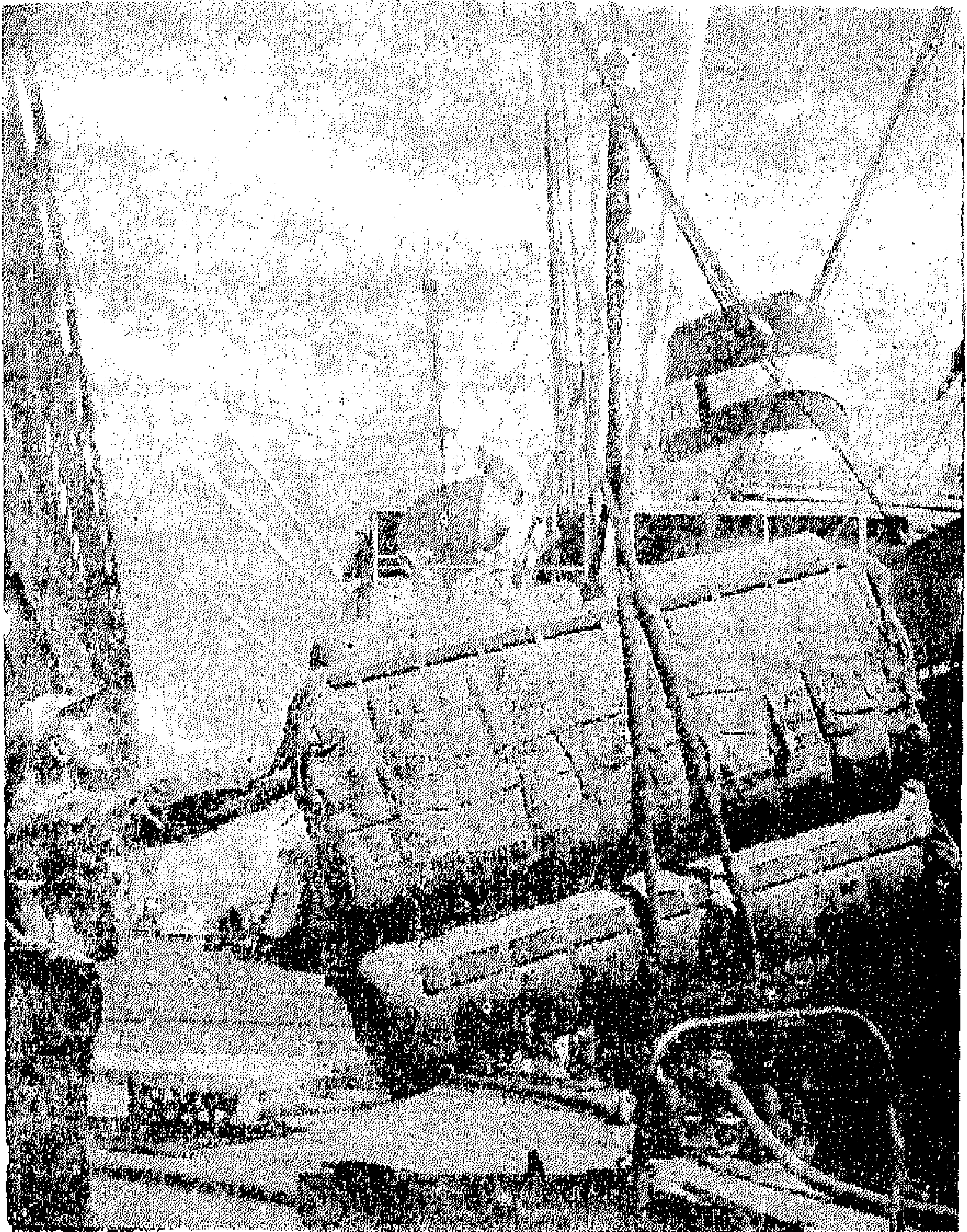
صوامع القمح ، فى سلة خبز العالم ، قمح قادم من مانيتوبا !

كوبرى تقول وهى تشير بسهم : إلى الولايات المتحدة الأمريكية ! وعبرناه . . فوجدنا تشابهاً فى أسماء الشوارع ، واتساع الطرق وإشارات المرور العلوية . . وهذا التشابه مذهل يصل إلى حد الاتفاق فى التسالى بالفشار الساخن والسجق ذى الرائحة المتصاعدة ! هناك ملاحظة واحدة ، هى أن جميع لافتات أمريكا باللغة الإنجليزية ، ولافتات كندا باللغتين الإنجليزية والفرنسية . . فيما عدا مقاطعة « كويبك » الفرنسية التى لا تعترف إلا باللسان الفرنسى وحده ! وملاحظة أخرى : أن الدولار الكندى يزيد « ٣ سنتات » على الأمريكى ، وقد كان الأمريكى يسبقه . ولكن الدولار الكندى فاز فى السباق ، وهذه الملحوظة يرددها الكندى المتعصب بفخر شديد !

هذا التشابه الفريد ، يراه الغريب مثلى — لأول وهلة — مؤشراً لسلام يسود حياة الشقيقتين كندا وأمريكا . ولكن المتوغل فى دراسة العلاقة بين هاتين الشقيقتين ، يصل إلى حقيقة غريبة ، هى أن الكنديين يكرهون الأمريكيين ويحقدون عليهم ، ويتمنون الخلاص من سيطرتهم ، ونفوذهم واستثماراتهم ! والأمريكيون يعرفون هذه الحقيقة . ولكنهم يتغابون عنها . والكنديون يضغطون كل يوم على « بيير ترودو » رئيس الوزراء ويطلبون منه أن « تكف الأصابع الأمريكية عن خنق العنق الكندى » ولكن « ترودو » يحاول أن يرضى الشعب الكندى الغاضب فلا يستطيع ، مثلا عندما التقى « نيكسون » الرئيس الأمريكى بمستر « بيير ترودو » رئيس الوزراء الكندى ، كان ترودو مستعدا للكلام مع « نيكسون »

لمعلوماتك

- تعداد كندا فى أول يناير ١٩٧٠ كان ٢١,٢٦٠,٠٠٠ نسمة
- أكثر من ٢/٥ السكان من أصل بريطانى وحوالى ٣٠ ٪ من أصل فرنسى .
- معظم سكان كندا من الفرنسيين يقطنون مقاطعة كويبك ولهم حياتهم الثقافية المتميزة .
- أكثر من ٣,٦ ملايين من الكنديين البريطانيين ينحدرون من أصل أسكوتلندى و إيرلندى .
- يشكل الكنديون المنحدرون من أصل ألمانى الجنس ، القسم الثالث فى حجم سكان كندا ، ويليهم الأكرانيون والإيطاليون والاسكندنافيون والهولنديون والبولنديون .
- يشكل سكان كندا الأصليون – وهم الهنود والإسكيمو – ١,٢ من مجموع السكان .
- من المعتقد أن اسم كندا قد اشتق من الكلمة الهندية كاناتا ومعناها بالهندى موطن .



من كندا ، لموانى العالم الأخرى !

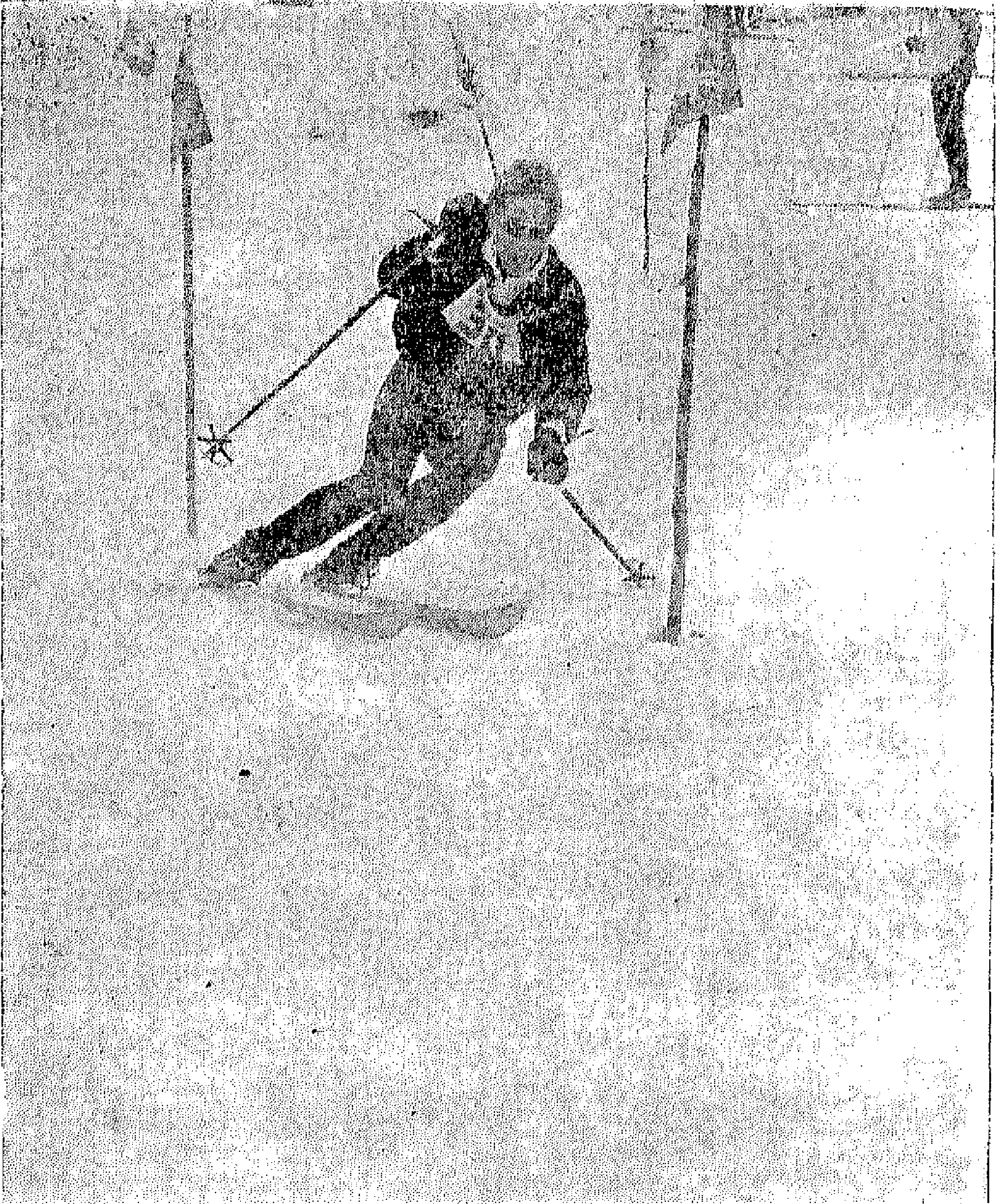
فى موضوعات محددة . . التجارة الأمريكية فى كندا . . أصحاب رءوس الأموال الأمريكية فى كندا . . العقود الأمريكية فى كندا . . حركة التصدير بين كندا وأمريكا . . ولكن « نيكسون » لم يناقش مع « ترودو » غير موضوع واحد يهم أمريكا فى المقام الأول وهو إمكانية عبو- أنابيب البترول الأمريكية عبر الأراضى الكندية ! ! وقالت الصحف الكندية المتطرفة فى عدائها للولايات المتحدة يومئذ : إن « نيكسون » فرض ما أراد من الحديث . . وأصبح « أصم » لبقية الكلام . . وفى التليفزيون الكندى ظهر المعلق السياسى المشهور « مستر بيير برتون » وقال : « هذه خيبة أمل » ! ويقول لى دكتور « كابورى » وهو أستاذ هندى فى جامعة « واترلو » « بأونتاريو » : إن « ترودو » نفسه يعرف أن حجم الاستثمارات الأمريكية فى كندا هائل ، لدرجة أن وقف هذه الاستثمارات سوف يشل الحياة كلها . ويستطرد الأستاذ الهندى قائلا : « لا تنس أن « ترودو » أستاذ اقتصاد ، ويعرف ما مدى تغلغل رءوس الأموال الأمريكية فى الاقتصاد الكندى ، بل إنهم فى أمريكا — ولا بد أنك أحسست هذا — يطلقون كلمة أمريكى على مواطنى الولايات المتحدة ويعدون « الكندى » من صميم المنتجات الأمريكية ! !

وضحك « مستر كابورى » وقال : « تصور أن ٨٠ ٪ من أساتذة الجامعات الكندية أمريكيون » ! ويسألنى الطلبة الكنديون لماذا ندرس على يد أساتذة العلوم السياسية ، مزايا الديمقراطية الأمريكية ؟ فلا أجد إجابة شافية ، سوى الصمت !

٣ .

إن فى كندا — اليوم — شعوراً عدائياً نحو أمريكا . ففى « تورنتو » و « مونتريال » حركات قومية تهدف إلى تعميق الإحساس بضرورة التخلص من السيطرة الأمريكية . . هذه الحركات طلابية ، ولكنها ضعيفة وليست منظمة ، وتسميها الحكومة الأمريكية « تشنجات الشباب الكندى » ! ! والشعور العدائى الكندى لأمريكا ، ليس « شيطانياً » . . إنه شعور له تاريخ . . فقد ظلت الولايات المتحدة سنوات عديدة لا تستجيب لاقتراحات كندا بعقد اتفاقية للتبادل التجارى بينهما ، واكتشفت الولايات المتحدة فجأة أن الفكرة مفيدة : فهى مدخل طبيعى للسيطرة على الثروات الكندية . وتبنى الفكرة الرئيس الأمريكى « تافت » . وكان من الممكن أن يتم إبرام المعاهدة لولا التعليق الذى جاء على لسان رئيس الكونجرس حين قال : « إننى أوافق على المعاهدة لأنى أحلم أن أرى اليوم الذى يرفرف فيه العلم الأمريكى على كل متر مربع من ممتلكات بريطانيا فى أمريكا الشمالية » . . وكان رد الفعل فى كندا رهيباً . . انفجرت الروح الوطنية . وأطاح الكنديون « بلورييه » رئيس الحكومة وقتئذ ! وتوالت الحقائق .

١ — إن الكندى البسيط الواعى يدرك الآن أن أمريكا « تستغفله » ! فالدخل الكندى يذهب إلى أصحاب رءوس الأموال الأمريكية . .



فوق الثلوج يمارسون التزحلق والسباق !

كيف ؟ إن كندا استطاعت أن تجتذب رجال الأعمال الأمريكيين بما لديها من خامات كثيرة ووقود وافر وقوى محركة رخيصة . . وقامت المنشآت الصناعية الأمريكية واتسعت على مر الأيام . . وكانت النتيجة أن أصبح ما يقرب من نصف الصناعة الكندية مملوكاً لرءوس الأموال الأمريكية !

٢ ــ إن أغلب النقابات الكندية تدار من أمريكا . نقابة عمال السيارات فى « ديترويت » . نقابة عمال الحديد فى « مانهاتن » . نقابة عمال المناجم فى « بفلو »

هذه النقابات تذهب إليها كل الأموال الكندية !

٣ ــ البضائع الاستهلاكية الكندية ثمنها فى أمريكا أرخص . الأيدى العاملة تأخذ أكثر ! مصانع السيارات الكندية فى أمريكا ! وليس فى كندا سوى مصانع « تجميع » فقط . وسعر السيارة « الكندية » أعلى من شقيقتها الأمريكية برغم أنها من الخامات نفسها والموديل وكل شىء !

٤ ــ ٤٥ ٪ من إنتاج العالم من الدخان كندى ولكنه يذهب إلى أمريكا لتصنيعه ويعود بسعر أغلى من سعر بيعه فى أمريكا ! !

٥ ــ بعض الوظائف الكندية يحرم منها الكنديون ، ويستولى عليها الأمريكيون برغم البطالة فى كندا . . على سبيل المثال ، عندما خلا منصب مدير الشرطة فى « كاليمورى » بكندا أتوا برجل شرطة أمريكى

لمعلوماتك

- بدأت الهجرة إلى كندا تأخذ شكلا جماعياً فى أعقاب الحرب العالمية الثانية عام ١٩٤٥ .
- لا يمكن ترك باب الهجرة لكندا مفتوحاً على مصراعيه فى عالم أصبح تسوده المهارات التكنولوجية والعلمية بدون أن يحكم هذه الهجرة نظام الاختيار تحدده الحكومة الكندية لتضمن وصول العناصر الفنية التى تساعد على استغلال الثروات الطبيعية فى كندا !
- يحترم قانون الهجرة الكندى الصادر فى أول أكتوبر ١٩٦٧ الصلات العائلية و يضمن جمع شمل العائلات.
- المؤهلات العلمية أصبح لها اليد العليا فى نظام الاختيار الذى يطبق على راغبى الهجرة .
- بلغ عدد المصريين الذين هاجروا إلى كندا فى الفترة من ١٩٥٥ إلى ١٩٦٧ : ١٠,٦٢١ مهاجراً وقد ارتفع هذا الرقم إلى ١٤,٨٧٨ حتى عام ١٩٧٠ .
- يستحوذ إقليم تورنتو على النصيب الأكبر فى عدد المهاجرين إلى كندا وفى المرتبة الثانية يأتى إقليم كويبك .



العلاقة بين الأستاذ وتلاميذه طيبة للغاية ، إنهم أصدقاء ..

كان قد قدم طلباً للعمل فى كندا ، فوافقوا على تعيينه بمرتب ٢٥ ألف دولار فى السنة !

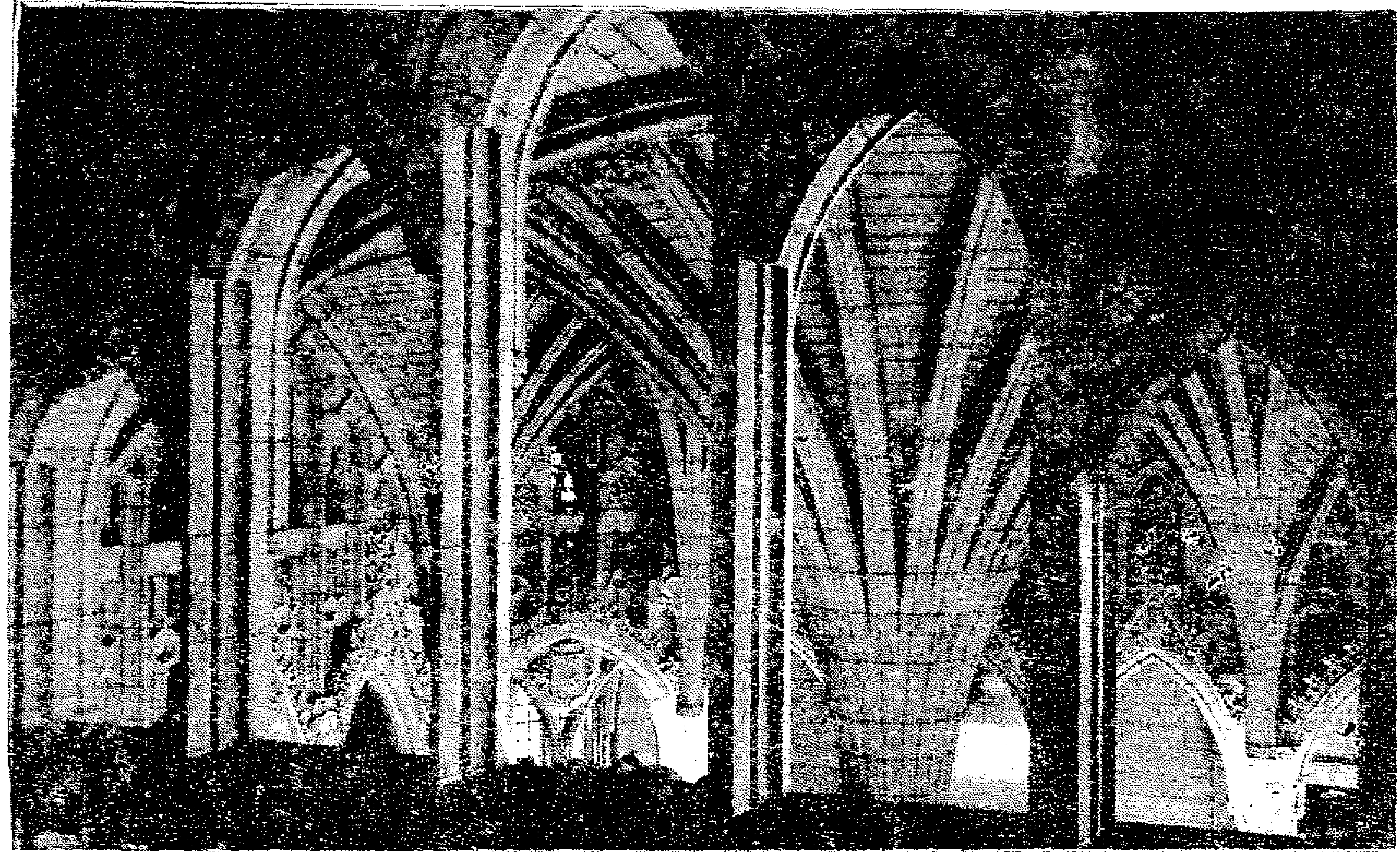
٤

إن التأمل الموضوعى لعلاقة الشقيقتين والجارتين المتجاورتين : كندا وأمريكا ، يكشف عن حقائق ذات دلالة ، استطعت أن أفهمها من كثرة الحوار مع الكنديين حول هذه المسألة .

● إنهم يعرفون أن « الرخاء » الكندى مبعثه تدفق رءوس الأموال الأمريكية . ولكنهم أفاقوا فجأة على أن هذا الرخاء ، قد يتقلص إذا أرادت أمريكا هذا ! روى لى الناشر الكندى « ديك هيمارت » أن الرأى العام الكندى جن جنونه عندما لعبت حكومة « واشنطن » لعبتها وضغطت على كندا لكى تتوقف عن إنتاج طائراتها الجديدة « افرو ارو » التى يعتقد الكنديون أنها لا تقل عن أية طائرة أمريكية . . وكان نتيجة ذلك أن خسرت كندا الكثير .

● إنهم يتساءلون — فى كندا — لماذا لا نعتمد على مواردنا الذاتية ؟ إن هذا السؤال سمعته مائة مرة كلما التقيت بعقول كندية مستنيرة .

● إنهم — فى كندا — يعرفون أن معامل البحوث العلمية تستغلها رءوس الأموال الأمريكية وهذا — يقيناً — لا يتيح للعلماء الكنديين فرصة العمل بها .



مبنى البرلمان فى « أتاوا » آية فى العمارة .. ظللت أتأمل نقوشه ، حتى ارتاب فى الحارس !

● إنهم — فى كندا — يدركون أن استفادتهم من صناعة التعدين الأمريكية طفيفة ، لأن المعادن عادة تنقل فى حالة أولية إلى أمريكا ، ليتم صنعها بأيد عاملة أمريكية !

● إنهم — فى كندا — يتألمون ، ولا يملكون سوى الألم !

٥

حين كان « موشى ديان » وزير الدفاع الإسرائيلى يزور مونتريال فى كندا كانت هناك حراسة « كندية » شديدة تحوطه لإنجاح مهمته ، وهى جمع التبرعات لإسرائيل . . قال لى بعض الطلبة الكنديين : نحن لا نستبعد تماماً أن يكون بين رجال البوليس الكندى شرطة سرية أمريكية « تساهم » فى الحراسة !

إن أمريكا تحاول « صبغ » العقول الكندية بمعتقداتها السياسية ، ولكن كندا قد أفلتت من العزلة التى فرضتها فترة طويلة على نفسها ، تريد أن تسمع وجهة نظر العالم وتقيم حواراً معه بلا وصاية أمريكية !

فهل تسمح لها أمريكا بهذه « الجرأة » ؟ !

هذا هو السؤال الذى يجيب عنه — فى الواقع — الشباب الكندى الغاضب .

الفصل السادس

لا تنزعجوا

« إنه مجتمع يشبه معسكر عمل صارم .
له لوائحه. من يتبعها ينجو ومن يصطدم
بها ، يواجه متاعب جمة ! » .

أولا :

الصورة ، بكل وضوح ، ليست وردية !

وأبادر وأعترف أنى لست متشائماً كما يبدو من السطر الأول ، ولكنى لا أريد أن أشترك فى عملية « تضليل » للشباب الذين يفكرون فى الهجرة إلى كندا أو استراليا أو أمريكا . فلقد ظهرت فى الفترة الأخيرة بعض الكتب التى تزين للشباب فكرة الهجرة، و « تعدهم » بثروات هائلة تتراوح بين المائة ألف دولار ، والمليون دولار ! وقد وجدت هذه الكتب صدى فى نفوس الشباب ، وحفزتهم إلى الهجرة بدون أساس، وكانت النتيجة : الإخفاق التام ! وكم تمنيت إنشاء مكتب يلتقى بالمهاجرين قبل أن يبدءوا إجراءات الهجرة ويبالغوا فى أحلامهم . فهذا اللقاء « الحنون » يقوم بمثابة الأب الناصح ، فإما أن يبارك أحلام المهاجر أو يثنيه عن عزمه بعد إقناعه ! ذلك أن الهجرة ليست نزوة ، وليست مغامرة . . خصوصاً



متجر كندى كبير ، ليلة رأس السنة .. والبحث عن هدايا ، والطبيعة تصالحهم فى تلك الليلة فقط !

إذا كانت إلى بلاد بعيدة مثل كندا أو أستراليا !

وأنا مقتنع تماماً أن المهاجر الناجح أحسن ألف مرة من المواطن المحلي الخامل . لأن كل مهاجر مصري هو سفير لبلاده .

والمهاجر السيئ يصبغ صورة كل المهاجرين بالسوء .

والنجاح تحت سماء كندا بالذات ليس حلماً سهل التحقيق . والإخفاق تحت سماء كندا ليس أمراً بعيد الحدوث . فالنجاح أو الإخفاق مسألة تخص المهاجر نفسه ، ولكنها تلون حياة أسرته بالبهجة أو المرارة .

ومئات المهاجرين الذين أخفقوا يحجبون عن أسرهم صور إخفاقهم لاعتبارين : الاعتبار الأول هو عدم إزعاج الأسرة التي ضحت بالكثير ، والاعتبار الثاني هو تحاشي شماتة الآخرين فيه لإخفاقه . . ومن هنا ، أجد نفسي مضطراً أن أخاطب الأسرة المصرية التي تفكر في الهجرة ، كلها أو أحد أفرادها . إن نقل الصورة بأمانة مهما كانت مرة ، أشرف من تزييفها والوعد بمليون دولار .

ثانياً :

إن نجاح أسرة مهاجرة لا ينبغي أن يكون « قاعدة » لكل أسرة مصرية هاجرت . وإخفاق شاب مهاجر ليس أيضاً قاعدة تدين كل الشباب المهاجر بالإخفاق .

لقد عشت شهرين[٦] في كندا . واختلطت بالمهاجرين . . . المصريين

والعرب. لم ألتق بهم كصحفى ، ولكن كصديق . وهذه التفرقة هامة « ضرورية » لأن المهاجرين اعتادوا عند لقاء أى صحفى مصرى أن يبالغوا فى حلاوة و « طراوة » الصورة . واعتادوا — وفى ذهنهم اعتبار أن هذه التصريحات ستنشر مع صورهم فى صحف ومجلات مصر — أن يضيفوا من عند أنفسهم قصصاً خيالية بعيدة عن الواقع ، تصورهم كأصحاب الملايين ، يملكون بيوتاً ويخوتاً على ضفاف البحيرات !

ولم تكن علاقتى بالمهاجرين فى كندا على هذا النحو الكاذب . كانت علاقة أصدقاء يجمعهم الحنين لمصر حتى تحت سماء كندا : ومن هنا كان الحوار خاليًّا من المبالغات . كان واقعيًّا وصادقاً .

قال لى أحدهم فى « أتاوا » العاصمة الكندية : « لو أنى استمعت إلى نصيحة أخى ، لكنت اليوم أسعد حالا . إن الحياة هنا مريحة بالنسبة للسائح أو للزائر مثلك ، ولكنك لو توغلت فيها لاكتشفت أنها قاسية ومريرة » . .

قال لى آخر ، وكنا نتناول الغداء فى مطعم يونانى « بمونتريال » « لو أنى أكملت دراستى فى مصر : لكنت اليوم أهدأ بالا . كنت قصير النظر . فرحت بفكرة السفر ، ربما لأن المصرى لم يتعود الترحال ، سافرت وتعذبت . واسترحت ، ولكن العذاب يقف على باب بيتى ، أقصد باب الحجرة التى أعيش فيها منذ ٤ سنوات . فى كل لحظة أتصور نفسى مطروداً من العمل ، إنه شبح مخيف : فما بالك برب أسرة عنده أولاد ؟ » .



صناعة الأحذية الكندية .. وجدتهم يحاولون إثبات وجودهم فى كل صناعة ..

قال لى ثالث : « جئت إلى كندا وأنا أتصور أنى « سأغرف » من الدولارات ما أشاء . منذ اليوم الأول أدركت أنى خدعت . خدعتنى أقوال أقارب لى سبقونى فى تجربة الهجرة . بما أن أصابع اليد الواحدة ليست متشابهة ، فإن المهاجرين لا يتساوون فى القدرات » .

هذه الاعترافات التى سمعتها وعشت فى تفاصيلها . . أكدت لى ثلاث حقائق :

١ — أن بعض المهاجرين سافروا وراء فكرة السفر والمغامرة .

٢ — أن بعض المهاجرين قلدوا أصدقاء أو أقارب سبقوهم فى الهجرة .

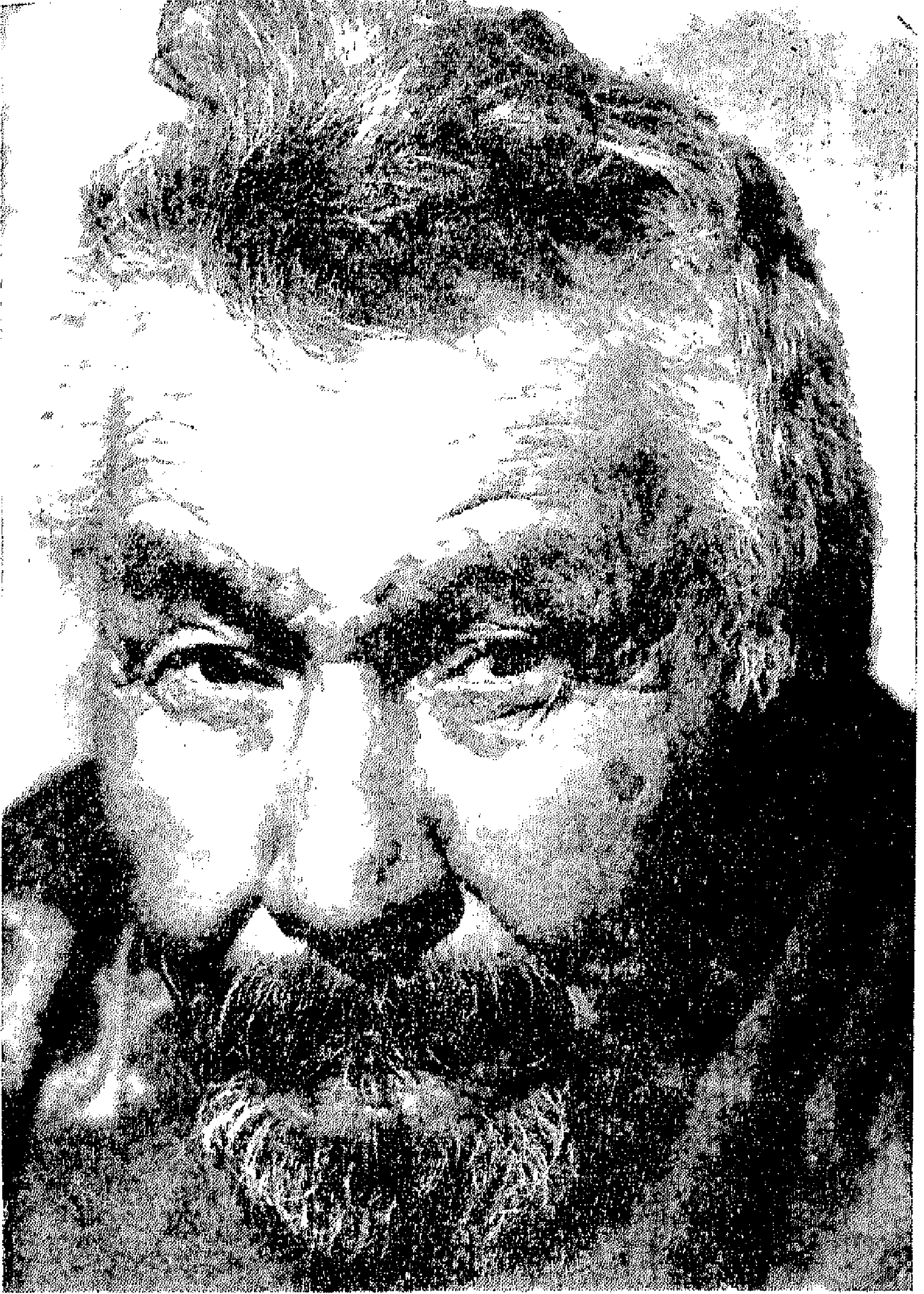
٣ — أن بعض المهاجرين ، نتيجة حالات نفسية عاشوها فى مصر ، هاجروا ، وهؤلاء يتعذبون مهما أخفوا عذابهم . هؤلاء مهاجرون فاشلون مهما كسبوا !

ثالثاً :

الهجرة ليست مجرد قرار يصدره إنسان ، وبعدها يبدأ فى القيام بإجراءات الهجرة والسفر . الهجرة استعداد . الهجرة تكوين نفسى . الهجرة ملكات شخصية .

ولندخل فى الموضوع مباشرة .

إن رأسمال أى مهاجر قادم إلى كندا هو اللغة . قد تتفاوت القدرات والكفايات ، ولكن إجادة لغة أجنبية ، الإنجليزية أو الفرنسية ، تصبح



إنه رجل معمر ، وفى كندا إذا قابلت معمراً ابتسم لك . . لأنه يمثل « أصالة »
كندا برغم أنها بلاد حديثة جداً !

بمثابة « جسر » للنجاح ، أو على أقل تقدير وسيلة تفاهم مريحة مع مجتمع جديد يرطن بلغة لم يتدرب عليها من قبل . والمهاجر الذى يتغاضى عن أهمية اللغة يحكم على نفسه فى الواقع بالإخفاق . وحتى إذا استطاع الحصول على وظيفة فإن الأكفأ منه يهدده دائماً !

يروى لى « ن . ع » مهاجر حديث (٣ سنوات) : « لم أكن أجيد اللغة . كنت أعرف منها بضع كلمات. استطعت أن أسافر بعد توصيات ، كان الشهر الأول بالنسبة لى أقسى عذاب عشته . فإن التفاهم بينى وبين المجتمع الكندى كان مقطوعاً كلية . كان يساء فهمى ،وكنت أتحدث بالإشارة وألوك بعض الكلمات . وحين ذهبت إلى مدرسة لأتعلم اللغة الإنجليزية على نفقة الحكومة الكندية ، كنت أهرب وأزوغ من المدرسة لكراهيتى الشخصية للدروس والواجبات .

وهأنذا منذ ثلاث سنوات أتعثر بشدة ، ولا أمكث فى أى عمل أكثر من شهرين . هناك دائماً من هو أكفأ منى ويجيد اللغة » .

ويحكى لى « صابر . . . » مهاجر منذ ٥ سنوات ويعيش فى « ترونتو » : « تعلمت اللهجة الأمريكية فى الحديث مع الكنديين من مجرد الالتقاط . . أستطيع أن أقلد اللهجات بسرعة . كنت ممثلا فى المدرسة الثانوية بمصر ، ولكنى لا أستطيع أن أكتب رسالة بالإنجليزية ولا أستطيع أن أملأ استمارة مطلوبة منى . ألجأ فى الغالب إلى فتاة كندية تزور أحد أصدقائى من حين لحين » .

ويقول لى « أ . س » مهاجر منذ عام ويعيش فى « أونتاريو» :

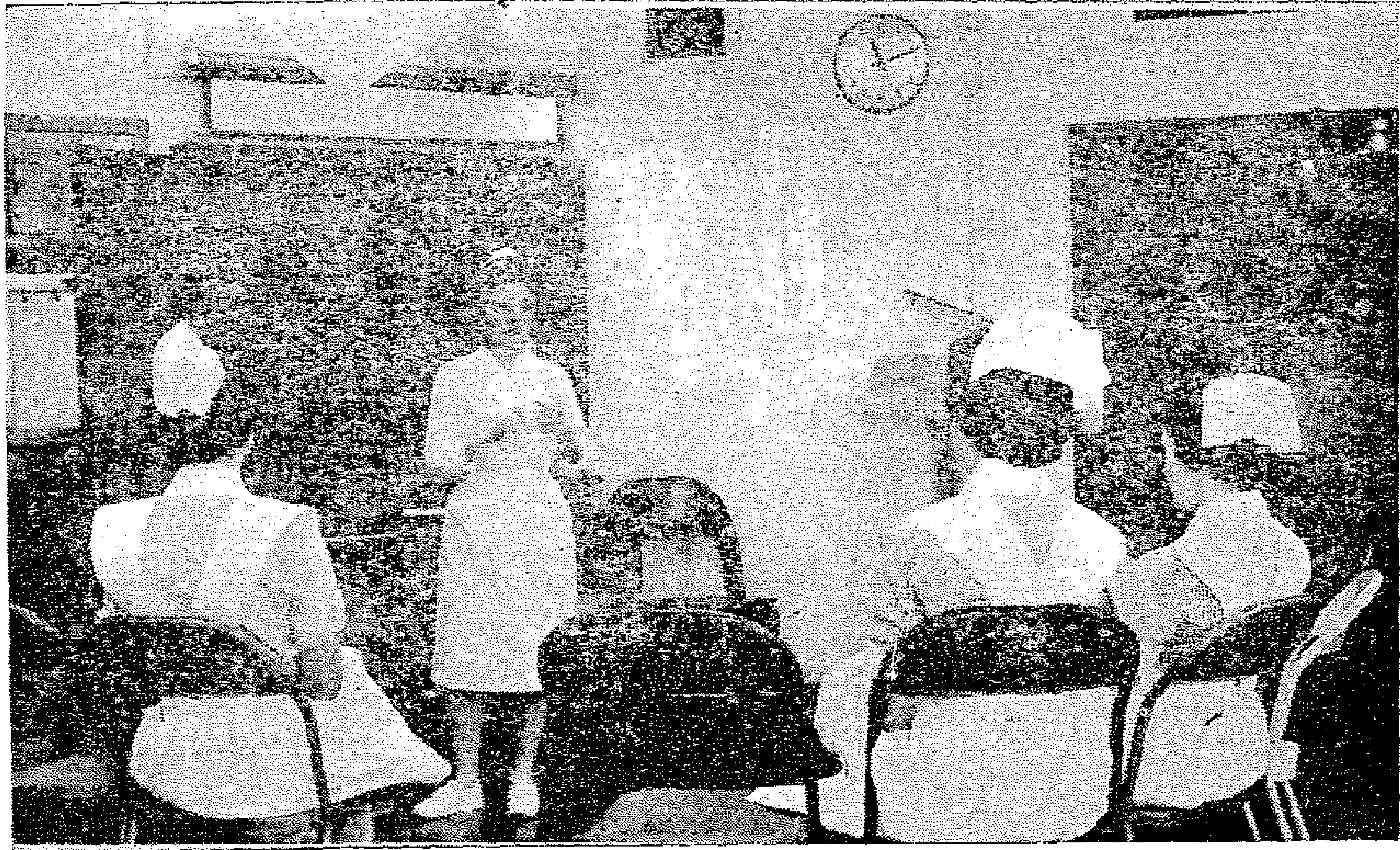
«ليتني كنت أجدت لغة أجنبية قبل سفرى إلى كندا . إن زملائى فى المصنع يسبقوننى فى الترقيات والمكافآت لأنهم " لبلب " فى اللغات ، أما أنا فقد تجمدت فى عمل تافه جداً لا يحتاج إلى التفاهم بلغة » .

هؤلاء وغيرهم كثيرون تناسوا أو نسوا ، لست أدرى ، أن رأسمال المهاجر هو اللغة . فجاءوا بلا رصيد فى اللغات ، فتوجت تجربتهم بالإخفاق !

رابعاً :

إن جواز مرور المهاجر إلى المجتمع الكندى أن يكون حاصلا على « الخبرة الكندية » . فكندا تستقبل مهاجرين من كل أنحاء العالم وتضعهم جميعاً فى نقطة واحدة هى نقطة الصفر ! فمهما كنت حائزاً على أعلى الشهادات ، ومهما كنت متعمقاً فى خبرة فنية ما ، فإن كندا لاتعترف إلا . . بالخبرة الكندية ! ولا بد من إيضاح أكثر.

إن المهاجر الحديث لا يستطيع أن يبحث عن عمل بين يوم وليلة فيجده . إنه يقيد اسمه ومؤهلاته ومواهبه فى سجلات وزارة الهجرة . إدارة كالقوى العاملة تماماً . ويظل يتردد أسبوعاً أو شهراً وربما عاماً كاملا على إدارة القوى العاملة ويسأل : هل عثرتم لى على عمل مناسب ؟ ويواجه المهاجر ابتسامة ساخرة من رجال إدارة القوى العاملة لأنهم لا يعرفون العمل المناسب والعمل غير المناسب . يعرفون أن هناك «عمل» . أى عمل ! والمهاجر الذى يتصور أنه لن يعمل إلا ما « يناسبه »



التمريض الكندى .... دروس فى استقبال المهاجر إذا فاجأه المرض !

مهاجر « عنيد » يخفق ما دام يصطدم منذ اللحظة الأولى مع التقاليد الكندية .

يحكى لى مهندس حاصل على دكتوراه فى الصوت ، أنه بدأ الحياة فى كندا يغسل صحون مطعم ما ، وكان لا بد قبل أن يلتحق بهذا العمل الصغير أن يحصل على « الخبرة الكندية » فى غسيل الأطباق. ولا بد أن تعرف أن غسيل الأطباق فى القارة الأمريكية وأوربا يتم بطريقة آلية وأزرار! وكان المهندس يتعلم ، فى دراسة مسائية ، طريقة غسيل الأطباق حتى أجادها ، والتحق بمطعم وكان يتقاضى دولاراً ونصفاً فى الساعة . وكان الدكتور المهندس « المرمطون » يبحث فى أوقات فراغه عن عمل يتلاءم مع دراسته . وبعد ثلاث سنوات ،عثر على عمل مهندس صوت فى مسرح للأطفال : فقبل العمل فوراً ! واستقال من المطعم .

إن أية مهنة لها دراسة على الطريقة الكندية . سائق تاكسى . ترزى . حلاق . مدرس . طبيب . مصمم أزياء . أى شىء ، لا بد للمهاجر أن يحصل على ما يثبت أن لديه « خبرة كندية » فى هذا الشأن !

قابلت مئات المهاجرين ، بعضهم « تعالى » على الأعمال البسيطة أو تسامى عليها ، وما زال حتى كتابة هذه السطور يستدين من كل أصدقائه ليعيش حتى ملُّوه وهربوا منه . صحيح أن الدولة الكندية تعطى إعانة للمهاجر حتى يعمل، ولكنها تمنع الإعانة إذا تكاسل أو تعالى على العمل .



صناعة الأخشاب تضم جنسيات مختلفة ، لكنهم جميعاً يعيشون تحت سماء كندا ... سمعتهم يحكون ذكريات عن أوطانهم قبل الهجرة !

إن الحكومة الكندية لا تعرف الرحمة ، إنها تسخر أى طاقة للعمل بشروطها أيضاً !

خامساً :

لأن كندا بلاد شابة ، تحاول أن تنتصر بالعلم على الطبيعة ، وتريد لنفسها اقتصاداً كندياً خالصاً ، وصناعة كندية مائة فى المائة .. فإن احتياجها الأول — فى الحقيقة — إلى الأيدى العاملة الماهرة .

ولهذا كان طبيعياً أن تكون أكبر نسبة بطالة فى كندا بين أصحاب الشهادات العالية ! !

لقد دهشت عندما قابلت شباناً مصريين متعلمين تعليماً جامعياً عالياً يتراوح بين الليسانس والماجستير والدكتوراه ، وهم فى حالة بطالة ! كيف هذا ؟

يقول لى واحد منهم هو الدكتور شريف عزيز متى : « كلما ذهبت للبحث عن عمل قيل لى بكل وضوح : «إنك تحمل مؤهلات ، ولا أستطيع أن أستغلك ! وأعود إلى العمل البسيط الذى أمارسه : كى الملابس بآلة تكوى ٨٠٠ قطعة فى الساعة ؟ » .

— ما موضوع رسالتك فى الدكتوراه ؟

— « طاقة النواة . . »

قلت بذهول : لماذا لم تستفد منك المعامل الكندية ؟



إنها عجوز ، دلالة على أن للكتابة تاريخاً ، إنهم يحاولون البحث عن « قلم » في حياة الكتابة الطويلة !

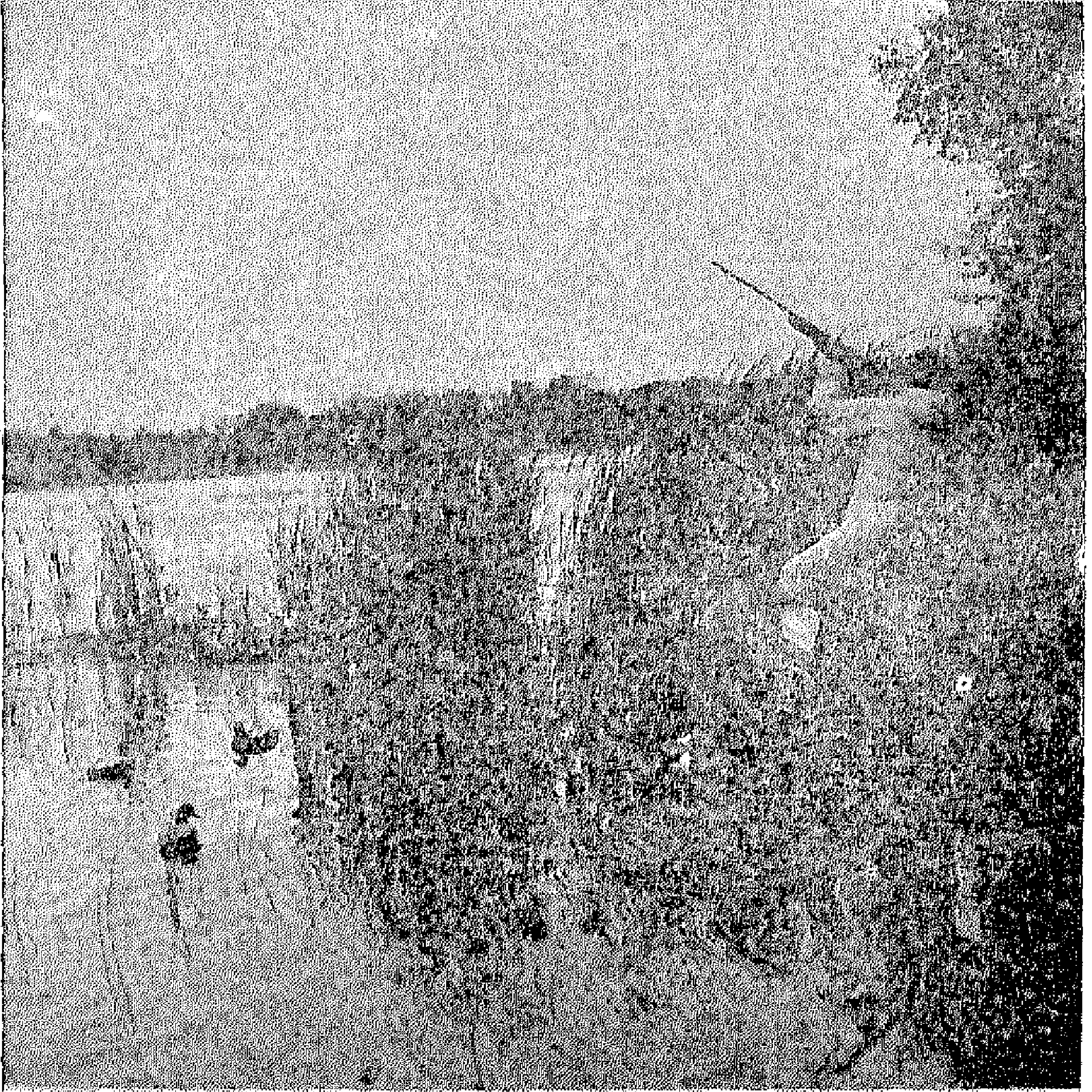
قال بسرعة : « إنها مملوكة لرأس المال الأمريكى ، وهؤلاء يحجبونها عن الكنديين ، فما بالك بالغرباء المهاجرين ؟ ! »

سألت الدكتور شريف عزيز : وما مستقبلك ؟

قال برنة حزن : دخلت الجامعة لأدرس ثلاث سنوات أحصل فيها على خبرة كندية فى صناعة النسيج . لأن مصانع النسيج الكندية تعلن عن حاجتها خلال السنوات الخمس القادمة إلى متخصصين فى صباغة النسيج !

وقابلت مكرم عبد الملك ، كان مهندساً فى البلدية، وهاهوذا منذ عام لم يعترفوا به كمهندس . عرض عليه أن يعمل موظفاً فى مصنع حلوى . رفض وأصر على دراسة الهندسة ثلاث سنوات ليحصل على الخبرة الكندية فى الهندسة . ويعمل مكرم الآن — فى مونتريال — كمساعد رسام ! ! إنه قانع بهذا العمل الضئيل حتى يسد حاجات أسرته المكونة من زوجة وبنتين . وزوجته « تهانى» تتعلم لغة . وتعمل عملا بسيطاً حتى تشاركه الكفاح. ولو تهاون مكرم فى الدراسة الجادة أو تصور أن على المجتمع الكندى أن يعترف به كمهندس برغم أنفه ، فكأنه ينطح الحجر !

أمثلة كثيرة ، أصحابها مهندسون وأطباء ومحامون جاءوا إلى كندا يدقون بابها . يبحثون عن فرص عمل فيخفقون . يعودون تلاميذ مرة أخرى وبإصرار يفوق الحدود ، يستذكرون ليصنعوا نجاحاً فى الغربة !



الصيد حين تصفو الطبيعة وتبتسم للكندى !

سادساً :

إن « ألف باء » النجاح فى الهجرة « التأقلم » على المجتمع الكندى .
إن الذى يرفض الحياة الكندية ترفضه كندا !

إن صداقة الجو القاسى ، واجبة . فشهور الثلج والمطر والعواصف الرهيبة أكثر من شهور الانطلاق والربيع !

الشتاء ، فى كندا ، غير محتمل برغم كل وسائل التدفئة الصناعية داخل البيوت . وحتى أيام الربيع لاتخلومن المفاجآت المذهلة فى الطقس ما بين شمس ساطعة ومطر يستمر أياماً ! إن قدر هذه البقعة من العالم التى أطلق عليها فولتير : كندا هى أفدنة من الثلج ! أن تصبح أسطورة جليدية مخيفة ، قهرها الإنسان بالعلم والسواعد والإصرار !

قابلت أكثر من أسرة مصرية ، فر منها واحد أو اثنان ، وعاد إلى مصر لأنه لم يحتمل قسوة البرد والعواصف الثلجية .

يقول لى « عادل أباظة » وهو مهندس كيماوى (٧ سنوات) :

كان الشهر الأول بعد وصولى إلى كندا أقسى امتحان عشته فى حياتى ، لو استبشعت الجو — وهو بالقطع بشع — لطاوعت نفسى وقررت « الهجرة » إلى مصر ، إلى السماء الصافية ، الساطعة الشمس ، الحنون المطر ، الدافئة ! لكنى بصبر شديد وجلد أشد قررت الاحتمال حتى صار الجو جزءاً من شخصية كندا ، تأقلمنا عليه !



مائة عام .. من عمر كندا !

والتأقلم على الحياة الكندية لا يقتصر على الطقس فقط ، ولكن على تقاليد التعليم التى تسمح بحريات واسعة للأولاد فى سن مبكرة !

إن معظم العائلات المصرية التى قابلتها تعيش فى ذعر شديد من الحريات التى اجتذبت أولادهم وبناتهم . . التدخين . الجنس . الشذوذ ! قال لى « فايد المغربى » وهو طبيب يعيش فى « أتاوا » : « الذى يحدث للأولاد يجعلنى أتعذب فى صمت . إن ابنتى إيمان تناقشنى فى سخافة الاحتفاظ بعذريتها ، وتقول لى إنها محل سخرية بين زملائها وزميلاتها . وابنى سامح يدخن وهو فى الثانية عشرة أمامى ! لكنه قدرى . جئنا إلى كندا ، وها هى ذى كندا تفرض علينا قبول حلوها ومرها . لقد تأقلمت فى الواقع على العذاب النفسى والقلق الروحى . إن أولادى كانوا يصلون . . وما عادوا يصلون . إنهم فى هذه اللحظة التى نتكلم فيها يرقصون ! »

على المهاجر أيضاً أن يحتمل صرامة النظام الكندى . مخالفات السيارات تحصل فى الحال . إقلاق الجيران مخالفة لها غرامة ، إهدار القيم له غرامة شديدة ! !

التساهل ، والتسامح ، والتنازل وكل هذه القيم البسيطة المصرية فى المعاملات لا وجود لها تحت سماء كندا !

إنه مجتمع من الأقليات تربطه مصالح مشتركة ، ومن هنا فالرابطة الإنسانية غير موجودة . والمجتمع نفسه بلا هموم روحية .



المتاجر الكبيرة فى كندا ، فيها كل ما تشتهى النفس

إنه مجتمع يشبه « معسكر عمل دولى » له لوائح صارمة ، من يتبعها ينجو ، ومن يصطدم بها يواجه متاعب جمة .

والحديث عن النجاح والإخفاق تحت سماء كندا . . طويل !

لمعلوماتك

- بلغ رقم الاستيراد ١٥,٥٥٨ مليون دولار ، ورقم التصدير ١٧,٧٨٥ مليون دولار .
- برغم أن الصناعة فى كندا قد جعلت منها بلداً صناعيا فى الدرجة الأولى فإن الزراعة تساهم بمقدار ٢٥ ٪ من النشاط الاقتصادى . وبلغت الاستثمارات الزراعية ٢٣,٠٠٠ مليون دولار .
- بلغت صادرات كندا الزراعية عام ١٩٧١ مقدار ١٩٨٠ مليون دولار وهذا الرقم يمثل ١١ ٪ من مجموع الصادرات الكندية .

الفصل السابع

لا تهاجر قبل أن تعرف كيف تروضها

« إن الهجرة ليست نزوة ، ولا مغامرة
ولا رحلة ، ولا نزهة !
إنها موقف ، ولها أسلحة للنجاح ،
وإلا أخفق المهاجر ! »

ملاحظة ضرورية !

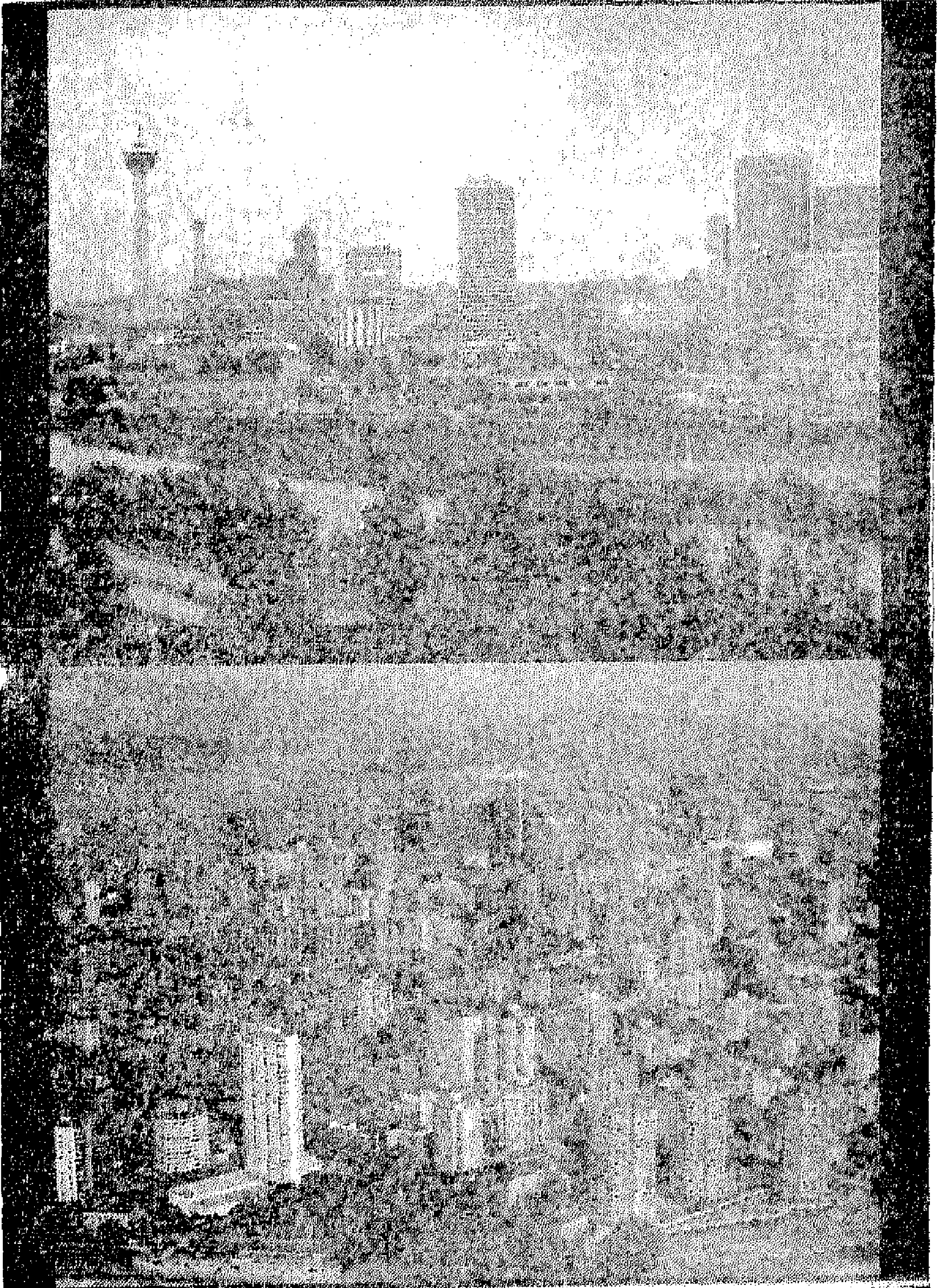
لا بد من إيضاح قبل المضى فى الحديث عن النجاح والإخفاق تحت سماء كندا .

* فأنا لا أدعو — بصراحتى فى نقل صورة المهاجر المصرى — إلى تثبيط همم الراغبين فى الهجرة .

* وأنا لا أعادى أساساً فكرة الهجرة . بالعكس أنا ما زلت أكرر أن المهاجر الناجح يخدم مصر أكثر من المواطن المحلى الخامل !

* وأنا لا أقف من المهاجر المصرى أى موقف . إنى أفرح لنجاحه وأتعاطف مع إخفاقه .

إن هذه السطور لا هدف لها إلا المحاولة المتواضعة للتعقيل والترشيد ! « تعقيل » أى إنسان يتخذ قراراً بالسفر إلى كندا . ومحاولة « ترشيده » .



هذه كندا وليست أمريكا ، برغم
ناطحات السحاب والعمارات الشاهقة !

محاولة لإنارة الطريق أمامه . محاولة « إنجاح » تجربته ، كمهاجر .

ولندخل فى الموضوع مباشرة .

فى قلبى كلام يجب أن يقال . قبل أن انتقل إلى الجانب « الوردى » من القضية .

ومرة أخرى ، أنا لست متشائماً .

إن كل مصرى قابلته تصرف — فى بداية هجرته — على الطريقه المصرية ، ولكنه وجد قانوناً حادا كالسيف ، فتراجع ، وخضع لهذه اللوائح وصار « كندياً » !

إذن فالتأقلم على صرامة النظام الكندى ضرورة للنجاة من المتاعب !

إن المهاجرين المصريين نقلوا إلى كندا كل مساوئ المصرى فى بلاده ! بلا تردد ، فإن كثيراً من المصريين فى كندا يعيشون مجتمع النميمة (والقر) والحقد وكل الصور البذيئة التى كنت أتصور أنهم تخلصوا منها تحت سماء بلاد جديدة . لكنهم للأسف ما زالوا مخلصين لها . ولكى أكون منصفاً فإن هؤلاء المهاجرين يعانون من فراغ شديد . بعضهم — مثلا — لا يعمل ، ولأنه مهاجر يعتمد على « إعانة » الدولة ! وبعضهم يذهب إلى الجامعة ويدرس أى شىء ويتنازل عنه فجأة ، ليدرس فى جامعة أخرى . وذلك ليظل يحصل على « إعانة » الدراسة الجامعية ، وبعض هؤلاء المهاجرين فهموا لعبة التأمين ، وكيف أنه يتكفل بالمؤمن عليه فى حالات العجز والمرض والبطالة ، فإذا أصيب أحدهم

لمعلوماتك

- فى أواخر ١٩٧١ بلغ مجموع ورق البنكنوت الذى أصدره بنك كندا ٣,٥٠٦ ملايين دولار، وبلغ مجموع العملات النقدية ٤٨٨ مليون دولار .
- بلغ عدد البنوك الكندية المرخصة تسعة بنوك يمتلكها مساهمون كنديون، ويتبع هذه البنوك عدد من الفروع تبلغ ٦٣٤٩ فرعاً منتشرة فى أنحاء كندا، كما يتبعها ٢٧٢ فرعاً خارج كندا .
- يمتلك الكنديون فى نهاية ١٩٧٠ ما قيمته ١٢١,٠٠٠ مليون دولار تأميناً على الحياة، وهذا يعنى أن متوسط تأمين الحياة على كل أسرة كندية يبلغ ٢٠,٨٠٠ دولار .
- يبلغ عدد شركات التأمين على الحياة فى كندا ٢٤٠ شركة يبلغ مجموع رأسمالها ١٥,٠٠٠ مليون دولار .
- بلغت القوى العاملة فى كندا فى ١٩٧١ ما يقدر بـ ٨,٦٣١,٠٠٠ إنسان، وبلغ عدد المتعطلين — من بين هذا الرقم — ٥٥٢,٠٠٠ نسمة .

فى حادث ، استمرأ الحصول على إعانة التأمين ، والسيارة الجديدة ، بدلا من المصابة ، وتعجب المهاجر حياة « التنطع » والنوم فى العسل ، ولا يفيق مادام « ضميره ميتاً » وكبرياؤه وكرامته فى حالة اختفاء !

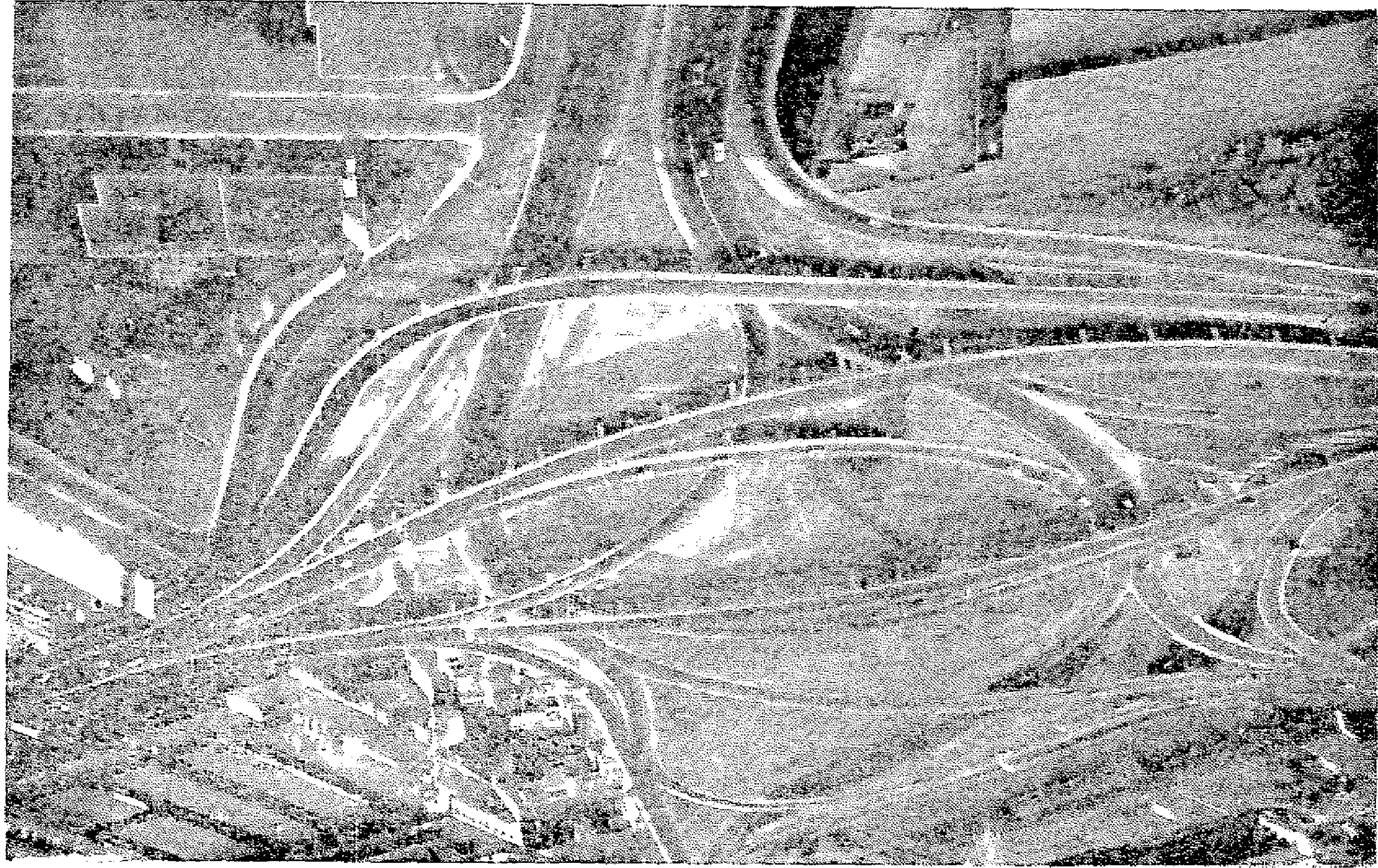
كنت أناقش فى « أونتاريو » ، بعض هذه الحالات الفاشلة ، قالوا لى : « إنهم يعجبون بهذه الحياة السهلة . . » !

واكتشفت أنهم عاطلون من المواهب والكرامة . . فأشفقت عليهم ، ووفرت على نفسى مشقة إقناعهم بالبحث عن عمل . . هؤلاء المهاجرون المصريون — للأسف — لا يصنعون نجاحاً مشتركاً مثلما يفعل اللبنانيون أو السوريون ، لأنهم يدورون فى حلقات مفرغة من الفراغ والأنانية واستمراء إعانة الحكومة الكندية !

إن المهاجر الناجح يدفع ضرائب باهظة عن دخله الكبير . ومن هذه الضرائب ينفق على المهاجرين فى حالة البطالة والتراخى والكسل ! إن المهاجر المصرى الناجح هو الذى يتخلص من « عيوبه » الاجتماعية وهو فى طريقه إلى كندا . . أو أى بلد آخر . إن كندا ، كما قلت ، مجتمع عمل جاد ، وراحة جادة أيضاً . وكندا تتيح للإنسان أن يعمل بطاقة ٧٥ ٪ ويحمى إنتاجه بطاقة ٢٥ ٪ وليس العكس !

والمهاجر الذى ينقل معه عيوبه ، يفاجأ بأن هذه العيوب تسللت إلى عمله وحياته وكيانه ، ونخرت فى مستقبله كالسوس !

قابلت عشرات المهاجرين ، وروى لى كل واحد منهم على حدة حلم حياته فى مشروع يدر عليه آلاف الدولارات . . ولما قلت لهم ،



معدة المدينة والأمعاء ، وهذه صورة من الجو للطرق فى المدينة الكندية !

لماذا لاتجتمعون أنتم العشرة ، وتدخلون برأسمال واحد ، لتبدءوا هذا المشروع فيدر عليكم جميعاً آلاف الدولارات ؟

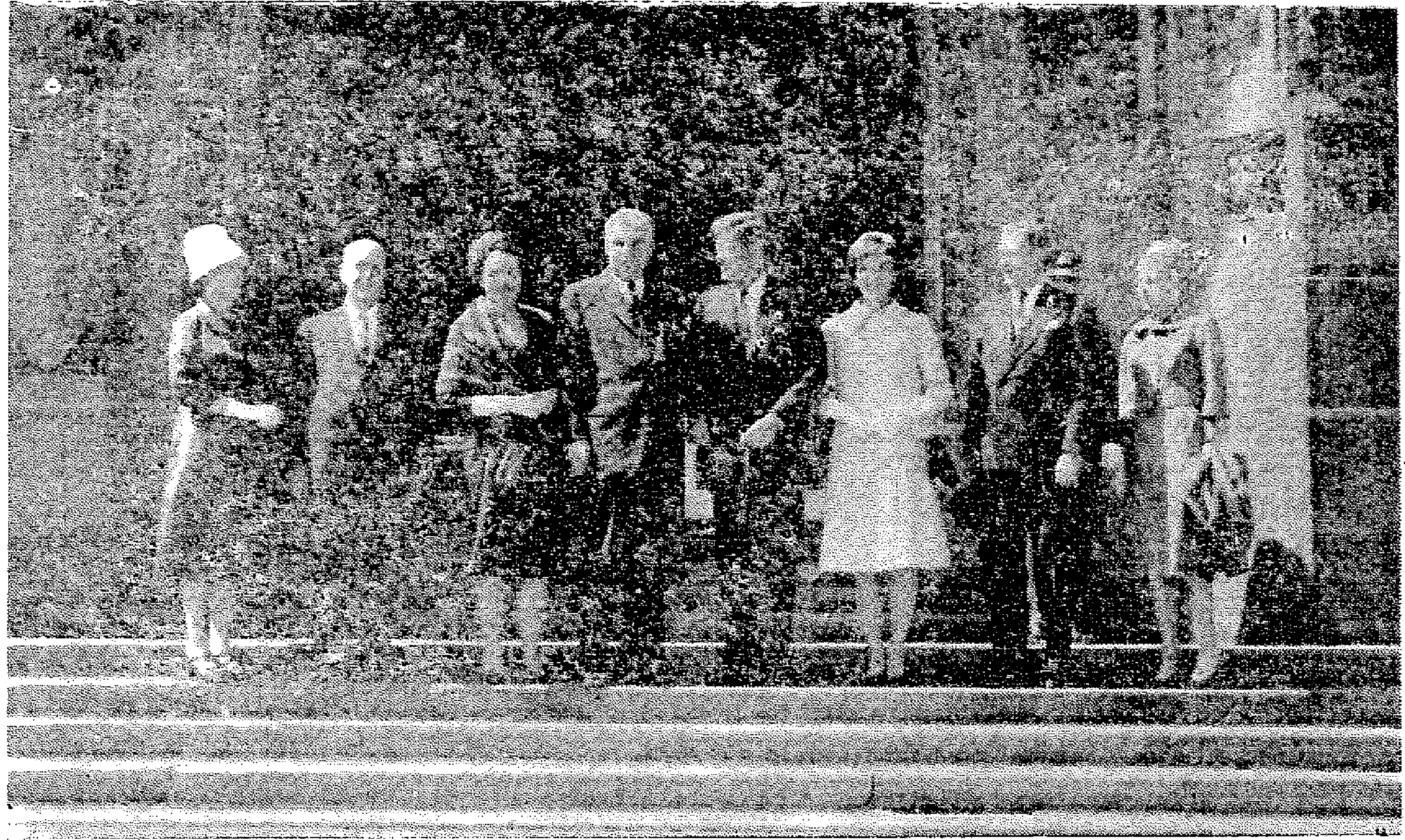
خفضوا رءوسهم . . وتعلل كل واحد منهم بمنطق ذاتى .

وكل التعليلات لا تخرج عن معنى واحد : الأنانية وافتقاد الثقة !

وإذا كانت هذه الصورة غير الوردية قد فاجأتنى فى كندا ، فهناك صورة وردية أخرى لمهاجرين مصريين ، ربما فاقوا مهاجرى دول أخرى فى النجاح . على أنى لا بد أن أسجل أن المصرى عندما هاجر إلى كندا اشتغل موظفاً ! إن طموح المصرى لا يزيد على « الاستقرار » ،ولكنه لا يعرف كزميله السورى واللبنانى المغامرة والجرأة والنجاح التجارى الباهر !

لا بد من المضى فى الصراحة !

إن بعض المهاجرين « يزوِّرون » المعلومات التى يقدمونها للسفارة والسلطات الكندية ابتغاء العمل والسفر ! يحكى لى الأستاذ رمزى ملطى ، وهو يعمل مدرساً فى مدرسة باكنجهام القريبة من « أتاوا » : « أعرف مهاجراً مصرياً ، للأسف ، قام بعملية تزييف فى أوراقه . قدم شهادات لم يحصل عليها . قدم وثائق لا علاقة له بها . . قدم مستندات خيالية . كل هذا فى سبيل الموافقة على سفره ومنحه « الإشارة الخضراء » . . كمهاجر ! لقد كان نتيجة اكتشاف هذا التزوير ، تخفيض مرتبات المدرسين ، وسوء السمعة . صحيح أنه حادث فردى ، تكرر أحياناً على فترات ولكنه ليس قاعدة . فقط ينبغى على المهاجر الأمانة فى تقديم المعلومات .



العلاقات الكندية الأمريكية قديمة جداً . الأمريكي يزور كندا باعتبارها « أرض » أمريكية . وكان كيندى يحلو له زيارة كندا كل ويك اند !

إن السفارة الكندية في القاهرة ، تصدق « المعلومات » التى يقدمها المهاجر . ولا يجوز أن تتأكد السفارة من صحة المعلومات وسلامتها، لأن عدم الأمانة ، يقع ضرره على المهاجر نفسه . إن المهاجر يغش نفسه فى نهاية الأمر ! .

هناك مهاجر، قدم وثائق تثبت أنه « صيدلى »، ثم اكتشف أمره فى كندا . اكتشف أنه « مجرد مساعد فنى بسيط ! » هذه الحالات ، تحيط المهاجر المصرى ، بنظرات الريبة والشك !

إن المهاجر المصرى يجد فى انتظاره . . كل شىء بالتقسيط : بيت . وأثاث . وسيارة !

يستطيع أن يدفع أى مبلغ كعربون ، ويشترى كل هذا بين يوم وليلة . . بلا أى مجهود أو عناء !

ويستطيع أن يستدين من البنك أى مبلغ ، بلا ضمان ، وعليه أن يسدد فى الموعد ، وإلا سحبوا منه البيت أو السيارة فوراً بلا رحمة !

ويستطيع — بمبلغ صغير يدفعه شهريا للتأمينات — أن يحتفظ بحقه فى الحصول على بوليصة تأمين ، تكون بمثابة غطاء له إذا تعرى ماديًّا . . أو أصيب فى حادث ، أو حتى حرق بيته ! هناك خمسون نوعاً من التأمين !

يستطيع أن يحصل على تعويضات لأية إصابة ، فى العمل أو خارج العمل . تعويضات تصل إلى آلاف الدولارات يتمناها المهاجر — أحياناً — لكى يحصل على مبلغ ، يبدأ به مشروعاً تجاريًّا !

يستطيع أن يضمن أن الأطفال سيجدون حياة مريحة ، وأن الاعتداء عليهم بقسوة له غرامة . وتركهم بمفردهم فى البيت له غرامة .

كل هذه « المميزات » تجعل حياة المهاجر مريحة طبعاً . ولكن عليك مقابل هذا أن « تتأقلم » على الحياة الكندية وأن تكون فى الواقع مواطنا كنديًّا .

إن كندا تريد منك أن « تطيعها » ولا تعصى « أوامرها » . وكلمة أوامر ليست نكتة . إن القانون الكندى لا يعرف الرحمة . إنه يطبق على أصغر عامل وأكبر مسئول فى الدولة،وإذا تصور المهاجرون أن القانون يمكن « استغفاله » مرة . . فلا يمكن أن « يستغفله » طول الوقت .

الغرامات فورية الدفع ،وسيارات البوليس الكندى تذرع الشوارع والطرقات . تمسحها مسحاً . والمهاجر الذكى هو الذى لا يصطدم بالقانون . أعرف « شابًّا مصريًّا » هاجر منذ ثمانى سنوات إلى كندا ويعيش الآن فى « تورنتو » . كان رياضيًّا ومصارعاً،وكان يتغلب على جميع مشاكله بعضلاته . ومنذ اللحظة الأولى فى كندا أدرك أن أسلوبه «المصرى» فى حل المشاكل لن ينجح فى « كندا » . واسمعوه يحكى :

« أثارت أعصابى مخالفات المرور . أترك سيارتى عشر دقائق وأعود لأجد ورقة مخالفة . لماذا ؟ لأنى وقفت فى المكان المخصص لمدير بنك ما فى الشارع ! أترك سيارتى فى الموقف وأتأخر عنها دقيقة فأكتشف أن خمسة دولارات تنتظرنى : كمخالفة . لأن الوقت المحدد لى انتهى منذ

٦٠ ثانية ! كدت مرة أن أعتدى على عسكرى مرور ،ولكنى تمالكت أعصابى بأعجوبة . ولولا ذلك ، لاعتذرت كندا عن قبولى مهاجراً ، وطلبت منى الرحيل على أول طائرة . منذ ذلك اليوم ، نبذت أسلوب " القوة " فى التفاهم ، وأصبحت أستخدم العقل والمنطق . إننى أحياناً أكاد أنفجر من الغيظ ، ولكنى سأدفع الثمن غالياً لو طاوعت نفسى » !

وعن الصرامة الكندية ، اسمعوا « ن . النجار » وهو يحكى : هنا فى « مونتريال » الحياة جميلة وظريفة ، ولكن الحريات مخنوقة . لا يمكن أن تتصوروا افتقادى للحرية الشخصية التى كنا نتمتع بها أنا وزوجتى. كنا فى الإسكندرية قبل أن نقرر الهجرة ، ندعو أصدقاءنا كل يوم خميس على العشاء وكنا نضحك ونمرح ونسمع أحدث الأسطوانات . كنا نمارس حريات شخصية بلا رقيب علينا . وقد حدث فى « مونتريال » شىء آخر . دعونا بعض الأصدقاء المصريين وسهرنا سهرة « سكندرية » . جاء البوليس الكندى يطلب إلغاء السهرة وإغلاق البيك أب لأن الجيران اشتكوا من الإزعاج، وقال ضابط البوليس هذه المرة ننذركم ، وفى المرة القادمة ستدفعون غرامة . والتهمة إزاعاج الآخرين ! إننا حين ندعو أحداً لزيارتنا نتوجس من ضحكة عالية أو بعض التهريج ، ونغلق النوافذ لنمنع تسرب الإزعاج » !

واسمعوا «سامح الألفى» وهو طبيب يعيش فى باكنجهام: « تصور

لمعلوماتك

- تبدأ فصول السنة فى كندا كالآتى :

الربيع من منتصف مارس إلى منتصف مايو .

الصيف من منتصف مايو إلى منتصف سبتمبر .

الخريف من منتصف سبتمبر إلى منتصف نوفبر .

الشتاء من منتصف نوفبر إلى منتصف مارس .

- نوعية الملابس ومواعيد استعمالها .

يناير وفبراير : ملابس ثقيلة ومعاطف (بلاطى) وقبعات وقفازات وأحذية كاوتش .

مارس : ملابس شتوية متوسطة الثقل إذ يبدأ الثلج فى الذوبان .

أبريل : ملابس متوسطة وبلاطى خفيفة ، إذ أن الجو يبدأ فى الاعتدال ، لكن يعود البرد مع الليل برغم اختفاء الثلوج .

مايو : ملابس متوسطة الثقل صيفية ، إذ أن الجو يكون دافئاً فى النهار ويظل الليل بارداً .

لمعلوماتك

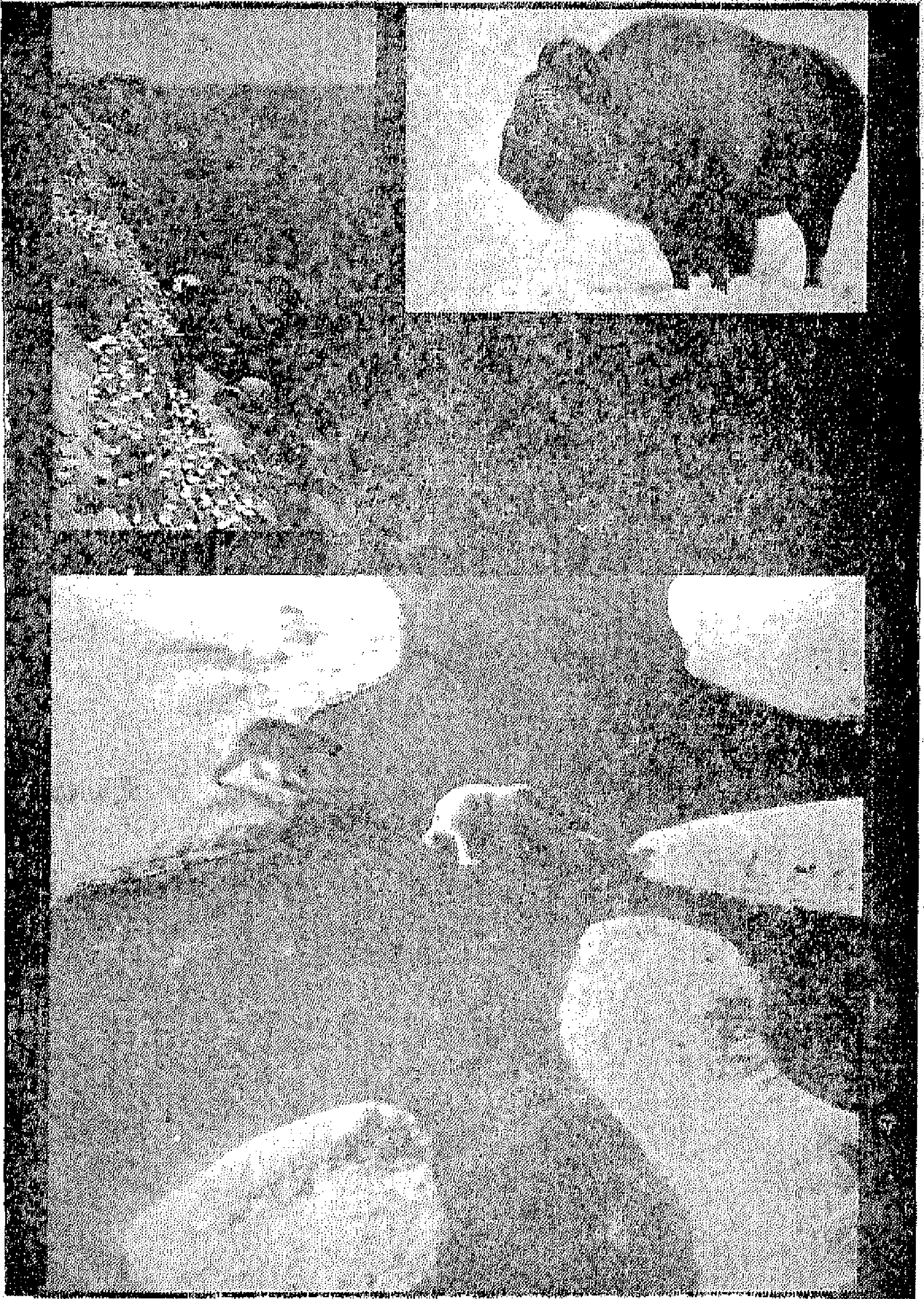
يونية	: ملابس صيفية و بعض الملابس متوسطة الثقل وقاية من الأمسيات الباردة .
يولية	: ملابس صيفية إذ أن الجو حار .
أغسطس	: ملابس صيفية إذ أن هذا الشهر أدفأ شهر فى السنة .
سبتمبر	: ملابس صيفية مع بعض الملابس المتوسطة الثقل لبر ودة بعض الليالى .
أكتوبر	: ملابس نصف ثقيلة بما فى ذلك بلاطى خفيفة للحماية من الجو البارد .
نوفبر	: ملابس نصف ثقيلة و بلاطى خفيفة إذ تزداد برودة الجو منذرة بقدوم الشتاء .
ديسمبر	: ملابس شهرى يناير وفبراير .

أن الاحتفاظ بكلب بدون إبلاغ السلطات يكلفك غرامة كبيرة . إن الدولة تشاركك أى تصرف . أية ملكية . . إنها تدخل بجهاز التأمينات وتجلس على مائدتك سواء أردت أولم ترد » !

واسمعوا « رضا . . ف » يدرس فى جامعة « واترلو » « بأونتاريو » :

« شربت مرة على سبيل المرح زجاجة صغيرة من البيرة الكندية أمام باب البيت . بالتحديد على سلم خشبى . ولمحنى رجل البوليس ، ودفعت غرامة عشرين دولاراً ، أى ما يعادل عشرة جنيهات . القانون ينص على أن احتساء أى مواد كحولية يجب أن يكون تحت سقف بيتك ، حتى لو كنت تملك حديقة صغيرة ، فهذا محرم عليك أيضاً ، ولا داخل سيارتك » .

واسمعوا « دينا روفائيل » ، وهى تعمل سكرتيرة لمهندس كندى كبير منذ ٤ سنوات فى « أتاوا » . تقول دينا : « لنا طفلة واحدة أنا وزوجى منير ، وعندما هاجرنا إلى كندا ، تعب منير فى البحث عن عمل ، كانت صحته لا تساعده على الأعمال ذات المجهود البدنى . ولهذا لم أتردد فى قبول وظيفة سكرتيرة لمهندس كندى . كنت أنفق على البيت حتى يعثر منير على عمل . وكانت أكبر مشكلة فى حياتنا هى ابنتنا " منال " . فى البداية كان منير يلاعبها ويلاطفها حتى أعود فى الخامسة عصر كل يوم ، ولكنى اكتشفت أنه ضاق بها لأن هناك أموراً فى معاملة الأطفال لا تعرفها سوى الأم ، والأم فقط . بدأنا نبحث عن " بيبى سيتر " أى الدادة التى تتقاضى أجراً بالساعة . لم ننجح ، فقد كانت الدادة تمتص الدخل أولا بأول . وكنا نتحسر على



الحيوان فى كندا عرف كيف يحمى نفسه من غدر الطبيعة ، بالغريزة طبعاً !

أيام بهانة وأم الخير وسعدية . . الشغالات اللواتى كنا نستبدلهن !
وجاءت " دادة " : قبلت العمل بـ ٢٥ دولاراً فى الأسبوع . وقبلنا
ونحن نكاد نجن، فقد أحسست أنى أعمل وأشقى من أجل الدادة . . ! »

واسمعوا « أمانى الدياسطى » وهى زوجة لمهندس مصرى ، يعيش فى « مونتريال » منذ ٥ سنوات : «أنا مستعدة أن أعود إلى مصر فى أية لحظة ، فأنا مصابة بمرض الحنين إلى أمى . لم أتعود أن أعيش بعيداً عنها طويلا . أحياناً تأتينى فى أحلامى . أنغص حياتى وحياة زوجى أسبوعاً كاملا حتى نتسلم رسالة منها . أعتذر لزوجى عن هذا التصرف عشرات المرات ، ولكنى أعود إلى ارتكاب الجرم نفسه . أى خاطر، أى حلم يزورنى فى أثناء النوم ، كفيل بأن يشقينى بشدة . هذا ثمن الهجرة فماذا أفعل ؟ ! » .

لا بد هنا من وقفة !

هذه الصورة التى أنقلها بأمانة تشير فى الواقع إلى « التغيرات النفسية » التى تطرأ على المهاجر عندما يواجه مجتمعاً جديداً . . يجهله . ومن هنا فإن الذى يعرف طبيعة المجتمع الذاهب إليه لا تفاجئه تقاليد كندا أو ظروفها أو مناخها !

إن الأستاذ رمزى ملطى ، وهو يعمل مدرساً فى كندا ، مهاجر ناجح ، لماذا ؟ اسمعوا ما يقوله : « درست كندا لمدة عام . قرأت عنها كل شىء . جلست مع مهاجرين هربوا منها ولم يحتملوها . وعندما جئت إلى هنا منذ عامين ، لم أشعر بأى قلق أو إرهاق ، كنت قد تعرفت على

المجتمع قبل أن تطأه أقدامى . وكنت صريحاً مع نفسى ، كنت أقول : هل أقبل كل صور الحرية لأولادى ؟ هل أقبل قسوة الطقس فى الشتاء ؟

هل أقبل الحياة الآلية ، الخالية تقريباً من العواطف ؟

هل أخضع للصرامة الكندية فى القوانين والمخالفات ؟

وجدت نفسى أجيب بكل هدوء : نعم !

ولهذا ، نجحنا أنا وزوجتى وأولادى ، ونعيش بلا خوف من الغد » .

إن حالة الأستاذ رمزى تجرنى إلى الحديث عن النجاح تحت سماء كندا . والنجاح – كما قلت – نتاج أشياء كثيرة فى تكوين المهاجر نفسه. فأى إنسان « قادر » على السفر ، وليس بالضرورة أن يكون « قادراً » على النجاح فى سفرته .

لقد قابلت مهاجرين ناجحين ، كثيرين ، وزاد فرحى بنجاحهم عندما سمعت قصص نجاحهم . إنها حكايات مثيرة ، فيها طموح . فيها قلق . فيها سهر . فيها جهد . فيها عذاب . فيها مرارة . وفيها أيضاً حلاوة !

إن هناك تصوراً ساذجاً للهجرة . أى شاب تخرج فى الجامعة ، يستطيع فى لحظة أن يهرش رأسه ويقول كأرشميدس : وجدتها .

إنه « يتصور » أن كندا هى الحل . ويتصور أن كندا ستفتح ذراعيها له وتحتضنه وتلثم جبينه وتقول له : أين أنت . لقد كنا ننتظرك !



للكلاب فى كندا ٢١ نوعاً من الطعام يعلن عنها التليفزيون خلال قنواته الثلاث عشرة !

أبداً . . هذا وهم . خيال .

هذا لا يحدث . إن كندا هى أرض الثلج والعذاب ثم الدولار !

وسأحكى لكم قصص النجاح تحت سماء كندا ، واسمحوا لى من خلال رؤيتى للمهاجرين ، أن أقدم عشر وصايا متواضعة للذين يفكرون فى السفر . . والهجرة !

لمعلوماتك

- تبلغ مساحة الأرض المنزرعة فى كندا ١٧٤ مليون أكر (الأكر يساوى أربعة آلاف متر مربع) .
- تقوم الزراعة فى معظمها على أساس « العائلات الزراعية » فتتولى كل أسرة أعمال الفلاحة بنفسها بدون الاستعانة بعمال من الخارج .
- التفاح هو أهم الفواكه التى تنتجها كندا من بين ٢٥ نوعاً من أنواع الفاكهة البالغ قيمتها الإنتاجية ٢٠٠ مليون دولار .
- بلغت التقديرات الأولية عام ١٩٧١ لقيمة الإنتاج الزراعى مبلغ ٤٤٦٧ مليون دولار منها ٢٦٦١ مليون دولار إنتاج حيوانى .

الفصل الثامن

أهلا بالصفر

ولهذا نجحوا !

« الهجرة تجربة . نجاحها يتوقف عليك .
على استعدادك النفسى . على إجادتك
اللغة . على طموحك . مثابرتك . على
عدم يأسك . على مواجهتك الطقس !

أجمل ماسمعت من المهاجرين فى كندا أنها — أى كندا — كامرأة جميلة ذات كبرياء ، تعذبك ثم تعطيك . تؤرقك ثم تسخو عليك ! فإذا بذلت من أجلها كثيراً ، أحبتك كثيراً ، وإذا أهملتها نسيتك ، وضنت عليك حتى بالنظرة ! إنها تعرف أنها جميلة ، وعطاؤها يتطلب المعاناة والتضحية !

وهذه هى اعترافات المهاجرين الذين نجحوا . . معها . . بذلوا ، وضحوا . . فابتسمت لهم . . وسخت !

« اسمى : راجى عبد الملك . جاوزت الأربعين بعام واحد . كنت موظفاً فى البريد . قررت الهجرة منذ ٥ أعوام . لم أكن أشكو أى

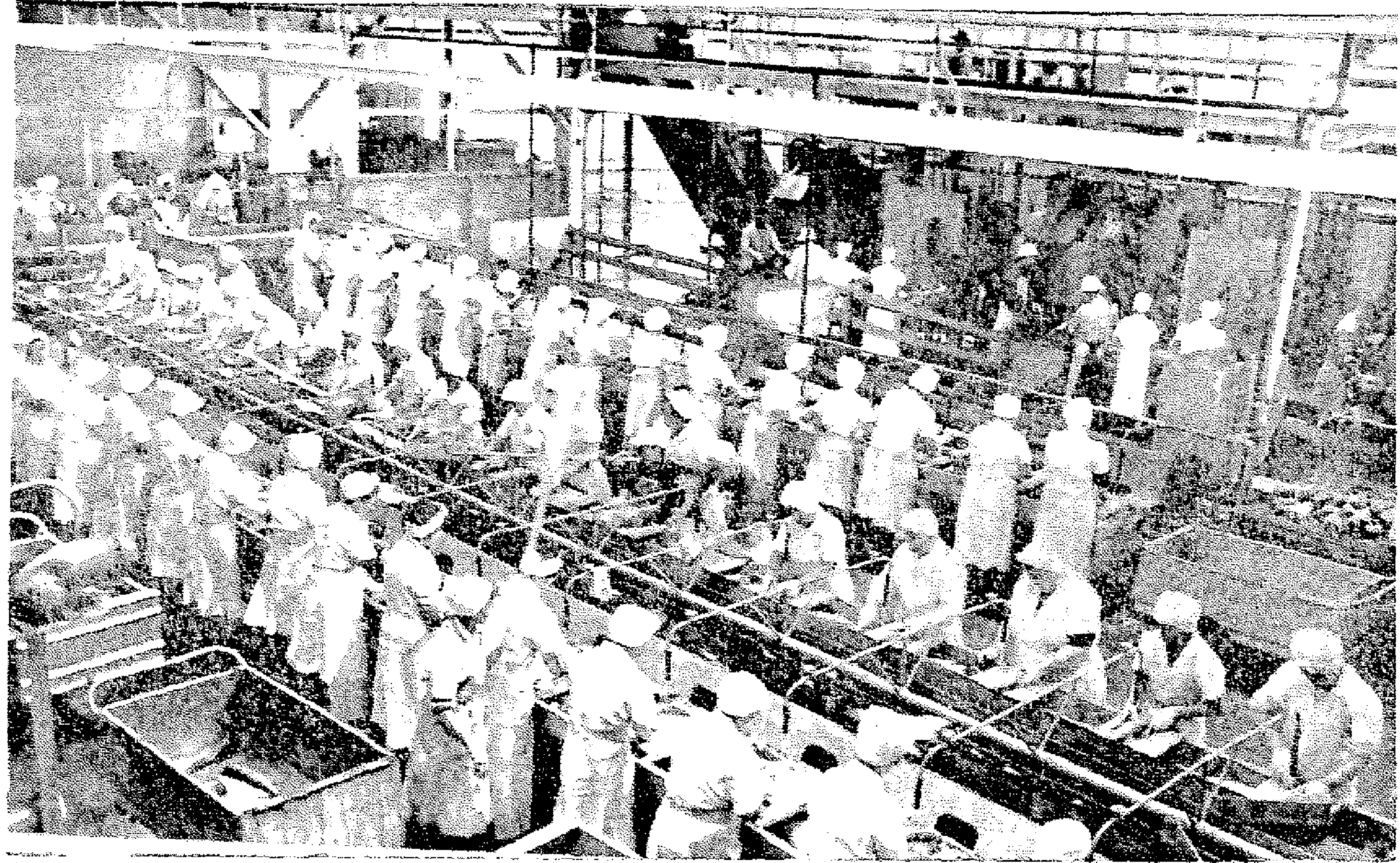
ضيق مادى . كنت قد تخرجت فى كلية التجارة وأنا أعمل فى البريد .. وكنت أعرض خدماتى على أصدقائى .

قرأت عن كندا الكثير . سألت طبيبى . هل الثلج يضاعف الربو الذى أشكو منه ؟ .

قال : لا ! قررت خوض التجربة . أقول التجربة وليس المغامرة . بدأت أعد أوراقى . . وسافرت . فى كندا قيدت اسمى فى مقر المهاجرين وطلبت العمل فى الصيانة . أهملت تماماً شهادة الجامعة . . اكتشفت أنها « رخصة » فى مصر فقط . العرق هنا . يدوى .

درست الصيانة على الطريقة الكندية .

أتممت خبرتى الكندية فى عام واحد . خلال العام اشتغلت زبالا . . وحمالا فى محطة سكة حديد . . وسائق تاكسى (ومرمطوناً) فى فندق . . ومنظف نجف . وبعد عام كامل . . ذقت فيه المر . التحقت بمصنع آلات كهربائية . وأصبحت أتقاضى اليوم ، بعد مرور ٥ سنوات ، ٨ دولارات فى الساعة . أى ٣٢٠ دولاراً فى الأسبوع . يوم السبت أتقاضى ١٦ دولارا فى الساعة وأيام الآحاد أتقاضى ثلاثة أضعاف . . كنت أعرف أن كندا لا تبتسم طويلا للمهاجر . أودعت نقودى فى البنك : ابتعدت عن المغامرات . كان لى أصدقاء من المصريين يلعبون « القمار » على سبيل التسلية . رفضت أن أقامر بعرقى ! أتمرد على هذه النظرية الهدامة . أشتهى شراء أشياء كثيرة يسيل لها لعابى . . ولكنى « فرملت » نفسى بشدة ! لقد كانت الأعمال الصغيرة التى قمت بها تعذبنى . إن



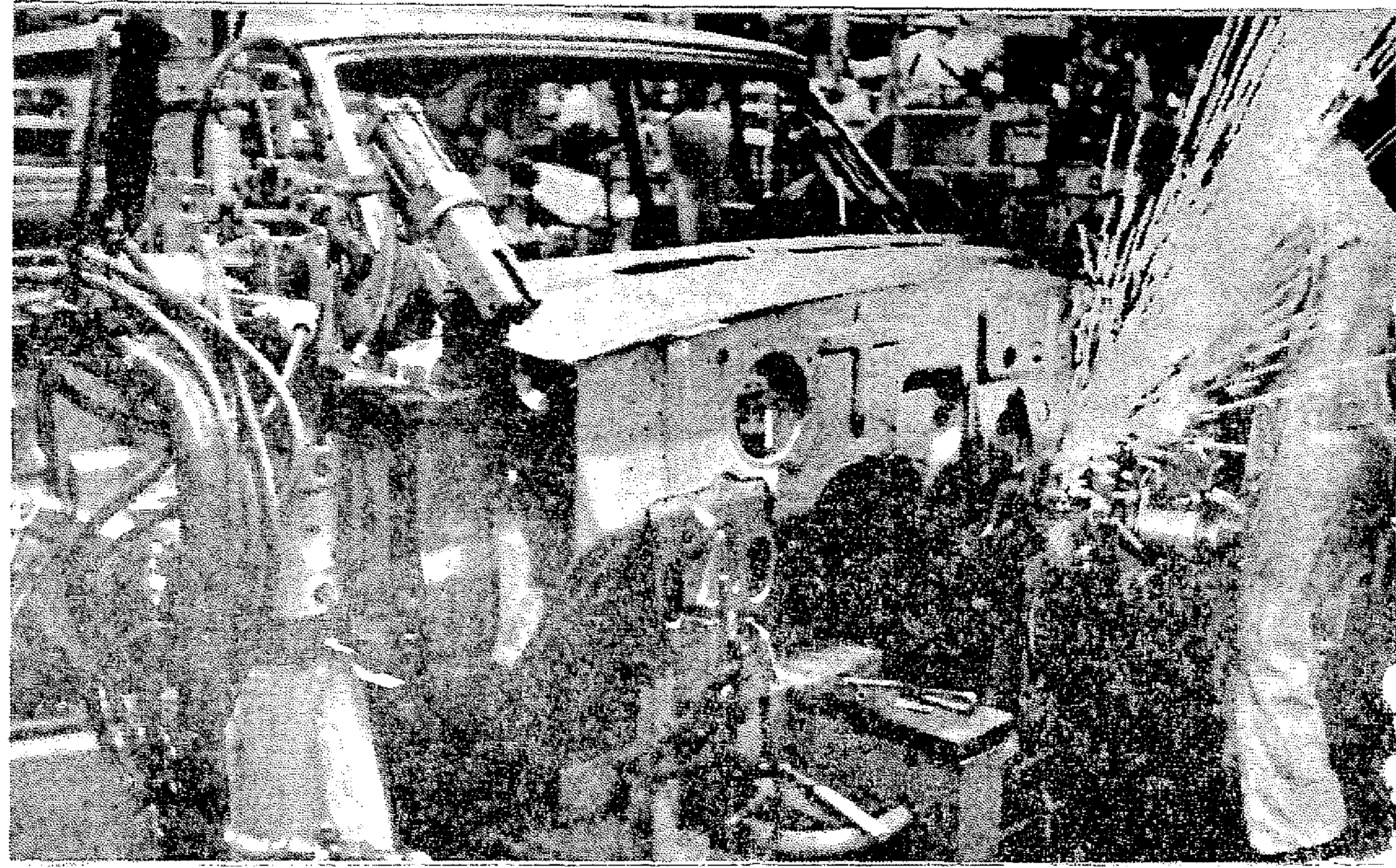
صناعة الدواء الكندى : التعقيم ، النظافة ، الدقة !.. ومعظم الأطباء أمريكيون . وهذه مشكلة كندا ، كيف تتخلص من « الاحتلال » الأمريكى فى الصناعة ؟

الانتقال من مرحلة إلى مرحلة يثير فى النفس أشياء كثيرة . . ولكنى فهمت ــ أو هكذا أدعى ــ فهمت سر هذه الأرض العملاقة . إنها تعذبك ثم تعطيك . إنها كامرأة جميلة ذات كبرياء . . عطاؤها ليس أمراً هيناً . إنك تبذل من أجلها الكثير ، حتى تبتسم لك . وقد ابتسمت لى كندا أخيراً . وتدرجت فى المناصب بسرعة . . أصبحت مسئول الصيانة فى المصنع . كسبت ثقة الكنديين بمهارتى . بمواظبتى . . بهدوئى . بكفايتى . بصبرى . بإيمانى العميق أن الجهد ــ هنا فى كندا ــ لن يضيع . . لن يذهب هباء لأن المدير لا يستعطفنى . لن يذهب سدى . لأن ابن خالة المدير يطمع فى هذا المنصب . اعتبرنى سعيداً » .

عن أسنانهم عرفت

« اسمى منيب زكى . تخرجت فى كلية طب الأسنان فى القاهرة . كنت أشكو القلق . إنه ينخر فى النفوس كالسوس !

قبل أن أفكر فى الهجرة . درست طبيعة المجتمع الكندى . وموقع طبيب الأسنان على خريطته . اكتشفت معلومات هامة . خذ عندك ! أغنى الناس فى كندا يرسلون أبناءهم إلى كلية طب الأسنان . طبيب الأسنان له مكانة اجتماعية تفوق مكانة المهندس والطبيب البشرى ، يصل دخل طبيب الأسنان أحياناً أعلى من دخل رئيس وزراء كندا . طبيب الأسنان بعد عشر سنوات من مزاولة المهنة يعمل ٦ أشهر فقط ، أما ستة الأشهر الأخرى . فيقضيها فى أوربا . . لو قضاها فى كندا .



صناعة السيارات ، تجتذب آلاف العمال من كل بقاع العالم . ولا تزال السيارة الكندية « أمريكية » الصنع ! !

فسوف يذهب « دخله» إلى الضرائب . يفضل أن يستريح ليعود بعد ٦ أشهر ، نشيطاً . . أى طبيب أجنبى – مثلى مثلا – لا يدخل كلية طب الأسنان فى كندا إلا بعد أن يمتحن . ويدخل الكلية . . ويقضى ثلاث سنوات ، من خمسين طالباً تقدموا للكلية . نجح ٨ فقط ، أنا واحد منهم . بعد أن أتم الدراسة . أتقدم لامتحان آخر . إذا نجحت فيه منحونى « ترخيصاً » لمزاولة المهنة .

لمعلوماتك : رسوم الامتحان فى السنة النهائية قبل التخرج ، ألف دولار . أعمل الآن فى أول مصنع للأسنان فى كندا . أعمل مساعداً لطبيب يقوم بأبحاث حول هذا الشأن . المصنع متخصص فى مواد الأسنان . الأطقم والأسنان الصناعية وعظام الفك . . اخترعت كندا مادة حديثة للأسنان .

ولمعلوماتك أيضاً : مهنة طب الأسنان لاتدخل فى التأمين الصحى . وخلع الضرس يكلفك ٥٠ دولاراً . أى ٢٥ جنيها مصرياً . وأقل طقم أسنان يكلفك ٥٠٠ دولار . وقبل أن أقرر الهجرة كنت أعرف أن الناس فى شمال أمريكا يفقدون أسنانهم بعد سن الخامسة والعشرين برغم العناية بها .

كلما ازدادت المدنية ، هبطت الأسنان وتساقطت . الأكل السريع والمسلوق ، والعلب السهلة وقت الظهر . كل هذا لا يعطى الأسنان مناعتها . هذا الفهم لعلاقة الكنديين بطبيب الأسنان حفزنى للسفر والهجرة والدراسة الشاقة من جديد .

وهكذا وجدت نفسى تحت سماء « بلاد الثلج والأهوال » !

بدايتى الصفر !

« اسمى نادية تادرس . تخرجت فى كلية طب قصر العينى . وسافرت مع زوجى إلى إنجلترا فى بعثة . ومن إنجلترا قررنا الهجرة إلى كندا . منذ اليوم الأول لوصولنا إلى كندا ، كان لا بد أن نلتحق بكلية الطب ، وندرس "الخبرة الكندية" . خلال ثلاثة أعوام كنت أعمل فى مهنة صغيرة لا تذكر . كان العمل شاقاً . كل يوم من السادسة صباحاً حتى الرابعة بعد الظهر . كنت أحلم باليوم الذى أتخرج فيه فى كلية الطب الكندية . هذا "الهدف" جعلنى أهون على نفسى أى عذاب وأى مشاق ، لقد كنت حديث الصحف الكندية مدة شهر كامل . . فقد اكتشفت "فيروساً" خاصاً يصيب الأطفال . . ويقتلهم خلال ساعات !

فى المستشفى الذى أعمل به . كانت الحالة : طفلا يشكو البرد . . بعد الكشف عليه أدركت أن الطفل لا يشكو البرد . لكن هناك "فيروس" أصابه . أصابتنى حيرة شديدة فى معرفة طبيعة هذه الجرثومة . كان الطفل يبكى ويتشنج ، وعمره لم يتعد عشرين شهراً . جاء أخصائى جراحة مخ ليقول كلمة . قال هذا نزيف مفاجئ ! مات الطفل فى اليوم الثالث . . أرسلت الجثة إلى المشرحة . ولكنى لم أتم اقررت تشريح الجثة . . وسألنى الطبيب الفرنسى « بنزلوف » : لماذا تريدين تشريح الجثة ؟

قلت : عندى شك لم يتأكد بعد . قال بسماحة صدر :



المرأة الكندية لا تعرف الخمول !

استمرى فى أبحاثك . . وجمعت ٥٠٠ شريحة من جثة الطفل حتى عثرت على "الفيروس" وصورته . وتأكدت من وجوده . . إن جرثومته تنتقل من روث الكلاب إلى الأطفال . فتتسرب إلى المخ . . وتؤدى إلى تزيف قاتل !

قالت صحف كندا "هذه هى الحالة الوحيدة فى كندا . التى اكتشفتها الطبيبة المصرية" . . كنت قد نبهت إلى عمل بحث عن الكلاب فى كندا لنعرف مدى إصابة الكلاب بهذا الفيروس . وجدنا أن ٨٠ ٪ من الكلاب مصابة بهذه الديدان . اهتمت كندا بالقضية وظهر على شاشة التليفزيون طبيب بيطرى كبير . قال "إن بحث الطبيبة المصرية نادية ما يكل (زوجة بشرى ميخائيل وهو طبيب) أضاف لنا الكثير" . أحس بسعادة . أفخر بأنى مصرية . رنين كلمة مصر فى أذنى كأحلى نغم . البحث المخلص لا يضيع .

هناك أشياء صغيرة لا بد أن أذكرها لك . مادمت تكتب قصتى لقرائك :

١ – الطبيب المشرف لم يسخر من رغبتى فى البحث . بالعكس عرض تقديم كل معونة لى . !

٢ – عندما كنت أسهر الليالى لأكمل بحثى ، كانت ابتسامة التشجيع من زملائى تدفعنى لمواصلة الجهد بلا كلل .

٣ – عندما ظهرت نتيجة البحث فرحوا واحتفلوا بنجاحى حتى بكيت من الفرح .

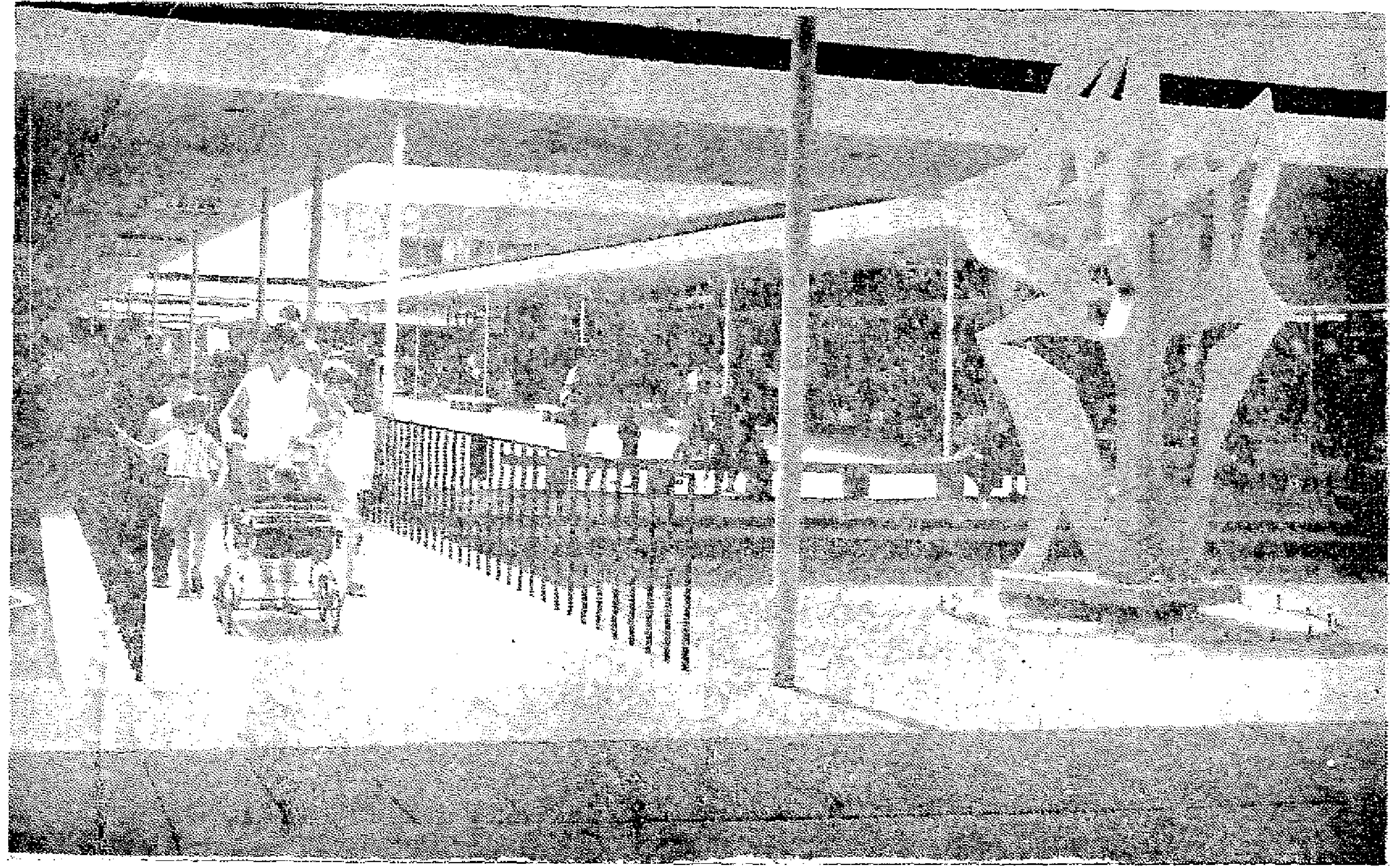
٤ ــ عندما طلبت إحدى الصحف الكندية أن تكتب عن البحث، قدمنى رئيسى للمحرر ، وقال إنه يفخر بوجودى فى المستشفى ولم يزج باسمه فى المقال !

هذه تجربتى المتواضعة إذا كنت تعدلى مهاجرة ناجحة » .

تكاتفنا معاً

« اسمى فوزى سيداروس التحقت بشركة أدوية . . مجرد موظف صغير ، وظللت أعمل وأتفانى ، حتى أصبحت الآن بعد ٤ سنوات مراجعاً للحسابات لكل فروع الشركة المترامية من فان كوفر إلى سان جونس . تسألنى ما سر نجاحى ؟ أقول لك : صبرت وصبرت حتى نلت . إننى أقيم تمثالا للصبر .

هذه نقطة . والنقطة التالية أن البداية الصغيرة لم تزعجنى . بالعكس . . لقد كانت جسرى للعمل الذى أحلم به . إن تجربتى هنا فى كندا ــ أنا وزوجتى ــ ربطت بيننا عمقاً لا حدود له . لقد جعلتنا الحياة القاسية فى كندا نعيد النظر فى "حساباتنا"، لا بد للمهاجر من بعض « المرمطة » حتى يدعم نفسه . هذا ثمن النجاح . . تسألنى كيف استقبلت قسوة الجو . كان الشتاء الأول هو الامتحان الذى اجتزناه بنجاح . لا بأس من السقوط مرات فوق الثلج ، لا بأس من نزلات البرد الحادة . لا بد من تجمد أطرافنا . لا بأس من حادثة بالسيارة . لكن الله ستر . هذا كله لم يفت فى عضدى . . إن عبور أى حاجز



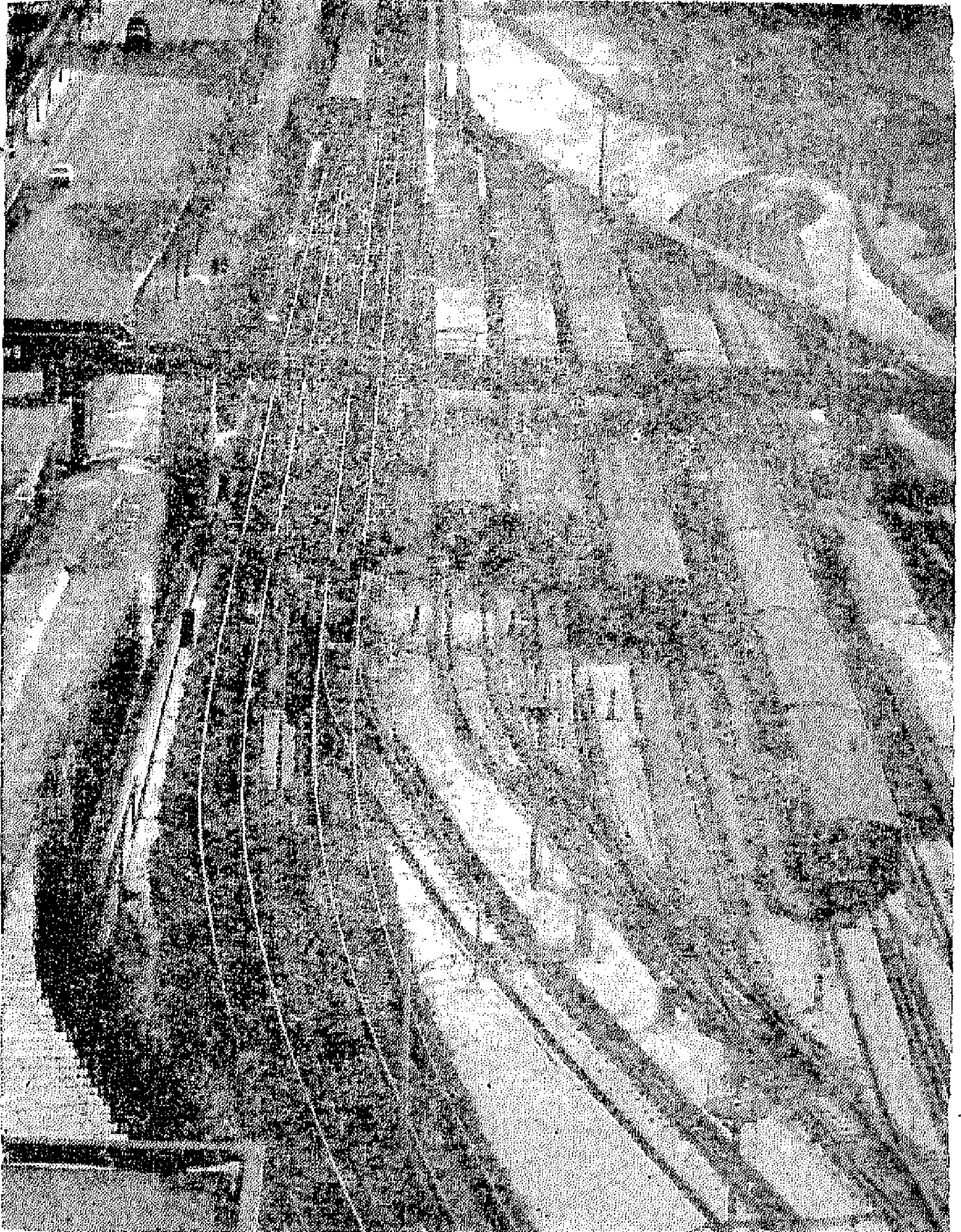
الطفل فى كندا له احترام .. له مكان .. يفكر فيه الكبار .. إنه ابن كندا القادم ..

ضرورى للمهاجر. إن الهجرة ليست "فسحة صيد".. إنها تجربة شاقة. وتكاتفنا أنا ونادية ، ونجحنا، وهذه الابتسامة التى تلمحها الآن انتزعناها من وسط العلقم » !

اللغات رصيدى

« اسمى أحمد خلف . كل موهبتى تتلخص فى أنى أعرف ثلاث لغات أجنبية جيداً : الإنجليزية والفرنسية والألمانية. وأصارحك أنى لم أتعب كثيراً منذ اليوم الأول لوصولى إلى كندا، وجدت عملا يقتضى إجادة اللغة الفرنسية . وكان هذا العمل يبدأ فى السادسة صباحاً حتى الثانية عشرة ظهراً .

وقررت أن أستفيد من بقية الوقت فعرضت خدماتى على محطة بنزين . فوافقوا . كانوا محتاجين إلى شاب يجيد الإنجليزية ونجحت فى العمل . وكنت طماعاً . لقد أردت الاستفادة من اللغة الألمانية . فقدمت طلباً فى مطعم ألمانى لا يتعامل إلا مع الألمان . . وقبلونى، وصرت أقضى السهرة فى المطعم الألمانى « بمونتريال » . إننى أكسب كثيراً . . . وهأنذا قد اشتريت بيتاً ، وسيارة . وسأتزوج من فتاة فرنسية . وأنا فى الواقع ، إذا كنت ناجحاً ، فنجاحى سره إجادتى اللغات الأجنبية . بعد ذلك فأنا تكيفت مع كندا . لم أرتكب مخالفة سيارة حتى الآن . لم أدفع دولاراً واحداً غرامة . وأنا سعيد بنجاحى وأفضل أن أسميه "كفاحى" !



انفاق تحت الأرض ، وقطارات تتحرك بالثانية .

وبعد . .

فإن عندى – بعد هذه الأمثلة – عشر وصايا متواضعة لمن يفكر فى الهجرة :

أولا : لاتفكر فى الهجرة ، لمجرد أنك تعبت فى مصر ماديًّا .

فالهجرة لا تحل مشاكلك المادية كما تتصور ، بل بالعكس إنها تحملك فوق طاقتك !

ثانياً : إذا كنت ناجحاً فى عملك هنا فحاول أن تتمسك بهذا النجاح ، ولا تفكر فى الهجرة إلا إذا كان لك أقارب يدعمون نجاحك هناك !

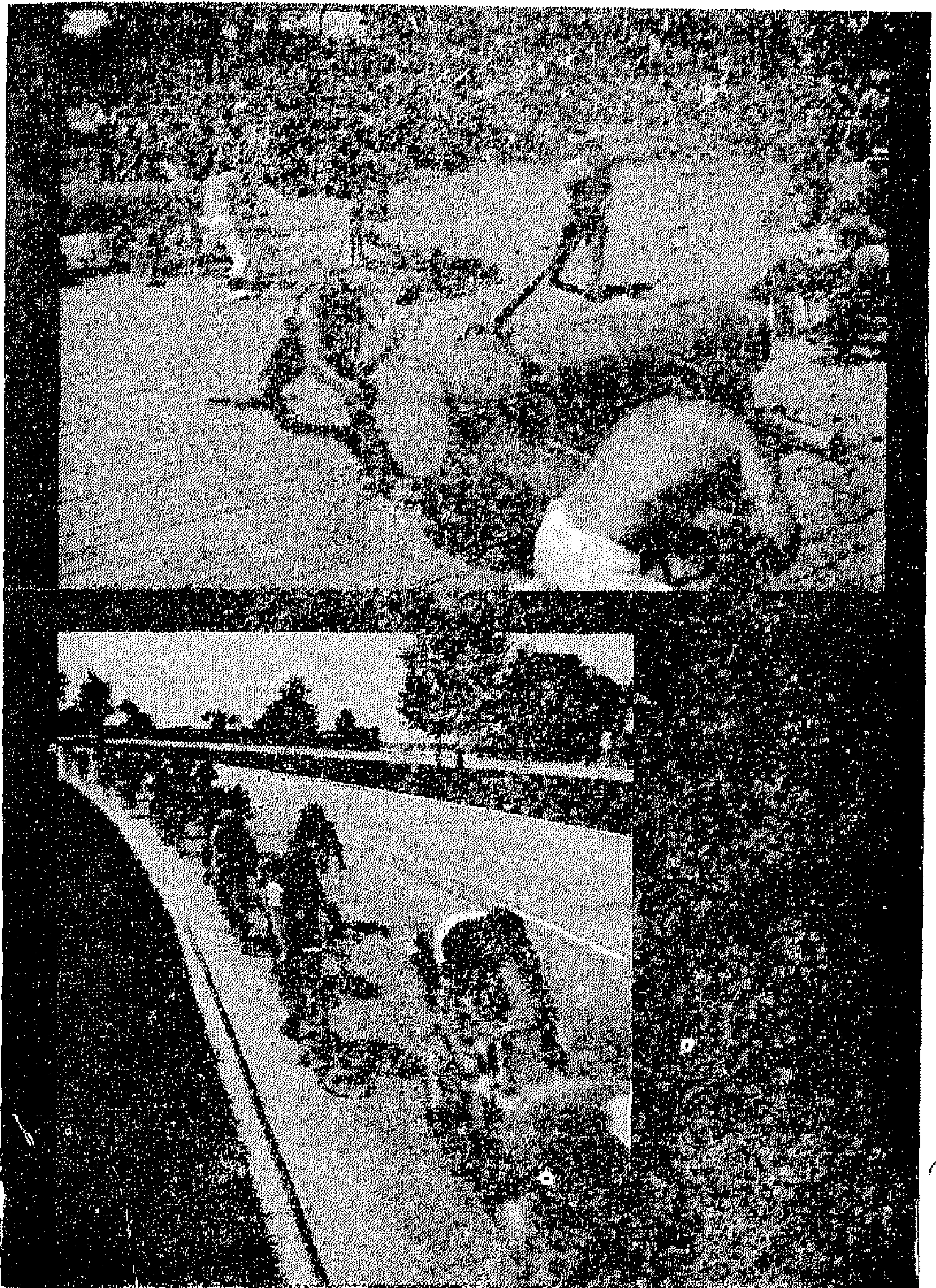
ثالثاً : كندا بلاد شابة . وتريد الأيدى الصناعية . صاحب الشهادة الجامعية يجب أن يتردد قليلا . صاحب المهنة حظه أوفر .

رابعاً : ادرس ظروفك قبل السفر ، هل أنت قادر على الابتعاد عن أسرتك طويلا ؟ ألا تعطلك مشاعر الحنين للأهل ؟

خامساً : حاول أن تعرف أكبر قدر من المعلومات عن المجتمع الجديد الذى لن تزوره كسائح ؛ ولكن كإنسان سيعيش تحت سمائه .

سادساً: تأقلم على الحياة الكندية ، لا تشك من الجو . لا تشك من صرامة القوانين . لا تشك من الآلية !

سابعاً : ابدأ من الصفر . ابدأ من الصفر . ابدأ من الصفر ، هذه نصيحة مهاجر مصرى نجح ، ونجاحه حديث كل الجاليات العربية الأخرى .



الرياضة .. فى الربيع فقط ، قبل العواصف الثلجية ! !

ثامناً : لا تصطدم بالقانون الكندى، حاول التكيف معه . تصور نفسك بلا تاريخ . لا تتعال على المهن الصغيرة . فهى دائماً نقطة البداية فى مشوار النجاح .

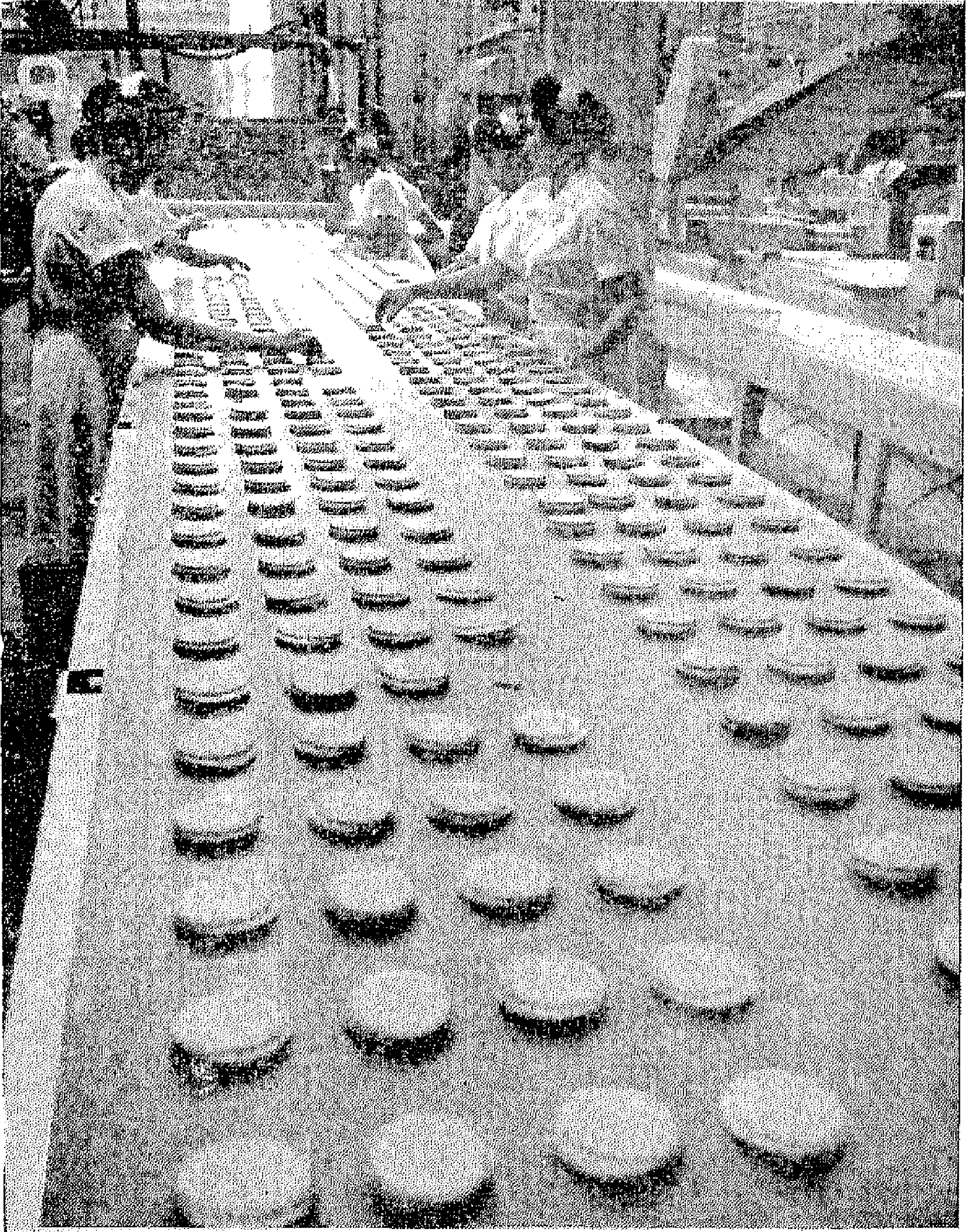
تاسعاً : إذا كان لك أولاد ، فلا تنس أن نظام التعليم الكندى مختلف عن النظام المصرى، ولا بد من « قبول » الحريات المخيفة بالعقل المجرد .

عاشراً : الهجرة تجربة . نجاحها متوقف عليك . على استعدادك النفسى، على إجادتك اللغة . على طموحك ومثابرتك، وصبرك ، وعدم يأسك .

وأتمنى لك إقامة طيبة فى كندا !

لمعلوماتك

- نظام الحكم فى كندا نظام برلمانى مكون من ملكة ومجلس الشيوخ ومجلس العموم .
- الملكة إليزابيث الثانية – ملكة المملكة المتحدة – هى نفسها ملكة كندا وأستراليا ونيوزيلاندا ، ويمثلها فى كندا الحاكم العام الذى تعينه بناء على توصيات رئيس الوزراء لمدة خمس سنوات .



الخبز ، كل أنواع الخبز ، على المائدة الكندية . هذا البسكوت الفرنسى ، للفرنسيين المهاجرين إلى كندا .

الفصل التاسع

الأسود خرجت من الأقفاص !

« غدا موعدنا فى العاشرة ، لنقضى فى الغابة يوماً مع « الأسود » !

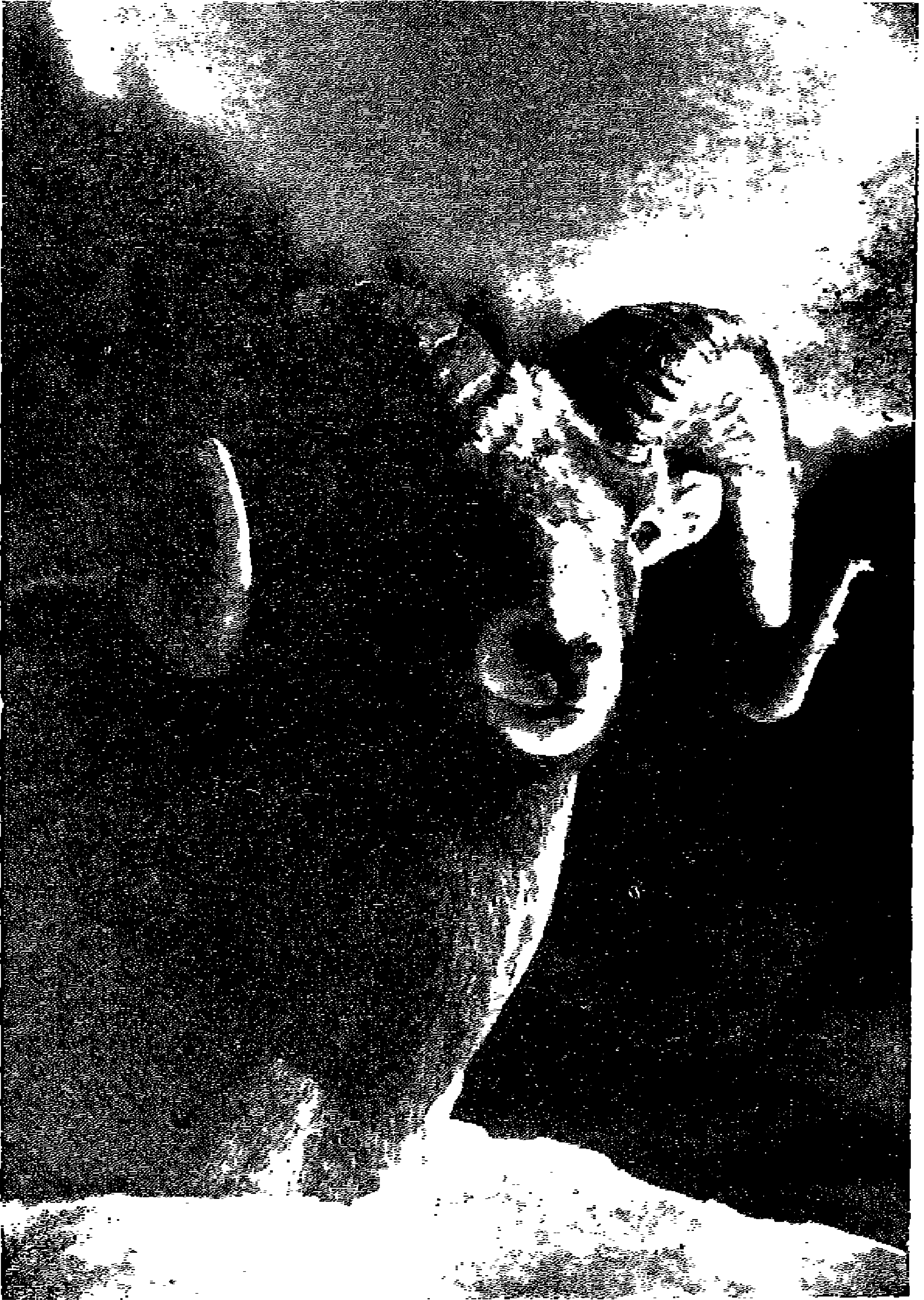
١

لا أدرى بالضبط . ماسر هذه المشاعر الغريبة التى تستولى علىّ فى تلك اللحظات .

إننى أحاول كثيراً أن أحللها ولكنى أخفق .

لا أحد سوى طبيب نفسى يستطيع أن يعرف حقيقتها !

أنا ــ مثلا ــ لا أحب ارتياد السيرك كثيراً ، وبخاصة إذا كانت الحيوانات تؤدى أغلب الأدوار . لقد رأيت السيرك العالمى الألمانى فى ميونخ منذ سنوات . خمس مرات على مدى شهر ، لأنه يخلو تماماً من الحيوانات ويعطى فرصة للبهلوانات الطائرة . الماهرة . حينما أشاهد الحيوانات يسيطر علىّ إحساس قوى أن أحدها سوف يحطم القفص ويهجم على عنق واحد . ربما عنقى بالذات ! ولا أذكر أنى توقفت كثيراً عند بيت الأسود أو النمور فى حديقة الحيوانات بالجيزة . بنفس الإحساس الغريب الذى يداهمنى ويفسد متعتى ، أتصور أن مدرب الأسود اقتطع [لنفسه] كمية من اللحوم المقدمة للأسود فهاج أحدها وماج ،



الحيوانات فى كندا أنواع وأشكال .. لقد تحالفت مع الجليد ..

وكسر القفص . وخرج ينتقم .

وبرغم هذا كله ، فقد قبلت اقتراحاً فى كندا ، بالذهاب إلى « غابة » صغيرة تعيش فيها الأسود طليقة حرة ، بلا أقفاص !

وحاولت أن أستدرج مرافقنا ، صاحب الاقتراح ، لأعرف أكبر قدر من المعلومات عن هذه « الغابة » ، ربما عن فضول، وأغلب الظن أنه عن خوف .

ودق قلبى بشدة ! وسألته : هل من الضرورى أن نذهب . كان صوتى وقتئذ ، كتلميذ خائب يهرب من واجبه المدرسى . أجاب مرافقنا :

غداً موعدنا فى العاشرة صباحاً ، لنرى الغابة ، ونقضى يوماً مع « الأسود » الطليقة !

٢

من مدينة « كتشنر أونتاريو » . تحركت سيارتنا وسرنا فى طريق طويل متعرج يتلوى أحياناً . وأنا أكثر الخمسة رغبة فى الوصول ومواجهة التجربة !

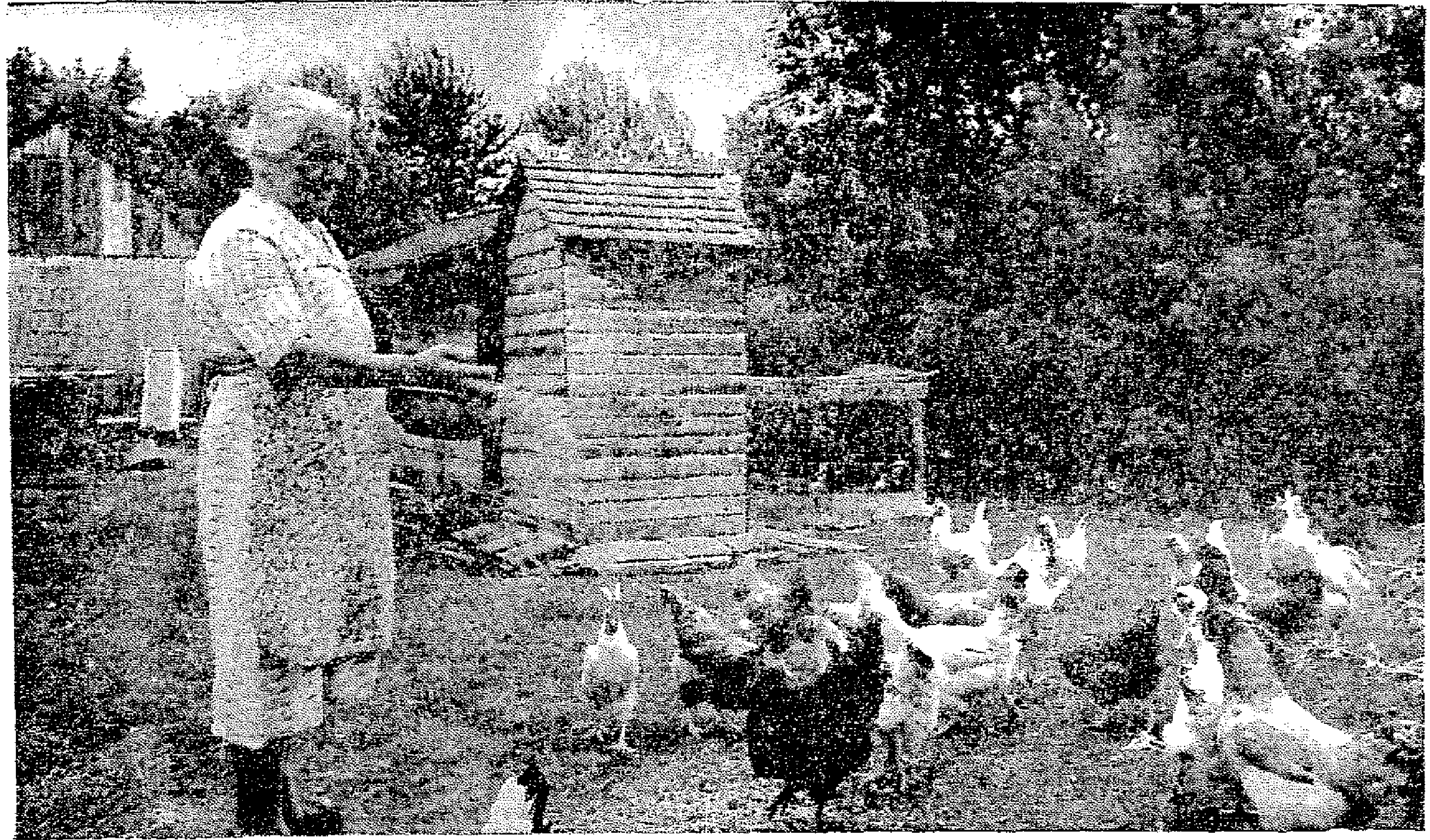
كان الحديث فى السيارة عن « التأمينات »، وكيف أن فلاناً حصل على مبلغ كبير بعد حريق بيته، وكيف أنه بدأ مشروعاً يدر عليه مائة دولار فى اليوم . (ملحوظة اعتراضية) : « الحديث عن التأمين ، والحصول على مبالغ باهظة نتيجة إصابة أو حادث أو حريق ، هو

الموضوع المفضل لدى المهاجرين المصريين بالذات » . كنت أفكر في « ليلوش » أسطورة السينما الفرنسية ، وجدت نفسى أحلل « ليلوش » . إنه صحفى ومصور سينمائى و . . مخرج ! إن الجزء التسجيلى المذاب في كل رواية من رواياته هو من إملاء « الصحفى » فيه . لقد بدأ « ليلوش » حياته بفيلم تسجيلى عن دورة طوكيو الأولمبية . لم يهتم بالألعاب نفسها . اهتم بالهزيمة والنصر على الوجوه ، وفى فيلمه رجل وامرأة ، قدم فيلماً تسجيلياً عن سباق السيارات عالمه المثير ، وحوادثه الأكثر إثارة . وفى فيلمه « الحياة للحياة » اصطحبنا إلى الأدغال ، ودنيا المرتزقة . وفى فيلمه « الحياة الحب الموت » أدخلنا برغم أنوفنا ، عتبة المشنقة . وشنقنا بالانتظار ، انتظار إعدام إنسان . وأفقت فجأة . لماذا أفكر فى « ليلوش » الآن . ربما لأنى ذاهب إلى « دراما تسجيلية » تستهوى فناناً مثله ! أسود طليقة بلا أقفاص . أية إثارة أكثر من هذا ؟ ! كان الرفاق المهاجرون لا يزالون يتحدثون عن فرص التأمين العظيمة ، على حين كنت أنا فى « واد » آخر !

. . ووصلنا . .

٣

فى رأيى دائماً أن المدينة هى البشر ، والنزهة هى الصحبة . وأجمل ما فى الطريق هو الرفيق . وأحفظ عن ظهر قلب مثلا عامياً يقول « جنة من غير ناس ماتنداس » .



فى كل بيت هادئ تقف ربة البيت ، تنثر القمح للطيور . هذه الصورة تجعلنى أحس بالريف المصرى ساعة الأصيل

كان لا بد أن أختار من الرفاق الخمسة « واحداً » أتفاهم معه ويبادلنى مشاعرى . ويكون مستعداً للحديث معى فى شىء غير التأمينات ! _ كان لا بد أن أتقاسم أنا وواحد منهم الحوار الصامت وهذا أضعف الإيمان . ووجدته ، إنه شاب يدرس التصوير فى كندا . اسمه فاروق آذار ! إنه قادم معنا لكى يلتقط فيلماً كاملا لوجه الأسد . يريد أن يقترب منه كلية ويصوب عدساته فى عينى الأسد ! إن فاروق آذار فنان حساس . إن حديثاً عن الفن جمعنا ، وعزله فجأة عن موضوع التأمينات . إنه يقول لى إن الكاميرا هى « بندقية » المصور ، إنه يسددها فى المرمى دائماً .

إذن ، ها هو ذا رفيقى فى التجربة !

نحن الآن أمام بوابة « الغابة » ، صاحب الاقتراح يدفع ٥ دولارات ويحصل على بطاقة دخول وإعلان صغير المفروض أن نلصقه على زجاج السيارة الأمامى !

كنت أجلس فى المقعد الأمامى ، باعتبارى ضيفاً ، فقمت بعملية اللصق ، حرصت — ولست أدرى لماذا — على قراءة السطور التى تطل من الاعلان .

توترت ، وأخفيت توترى بمهارة لاعب البوكر !

٤

قرأت التعليمات التى توجهها إدارة الغابة للرواد :

١ ـ منذ اللحظة الأولى أغلق زجاج سيارتك فوراً .

٢ ـ لا تشاغب الحيوانات ، فالأمر خطير ـ غير مأمون .

٣ ـ لا تطعم الحيوانات ، الغابة تتكفل بهذه المهمة .

٤ ـ لا تفتح زجاج السيارة حتى تجد لافتة تدعوك لهذا .

٥ ـ لا تستخدم عدسات تصوير لها فلاش .

٦ ـ لا توقظ أى حيوان من النوم . إيقاظه يكلفك حياتك .

٧ ـ لا تستخدم الكلاكسات ، لأنها تزعج سكان الغابة .

٨ ـ لا تغادر السيارة بأى حال مهما كانت الظروف .

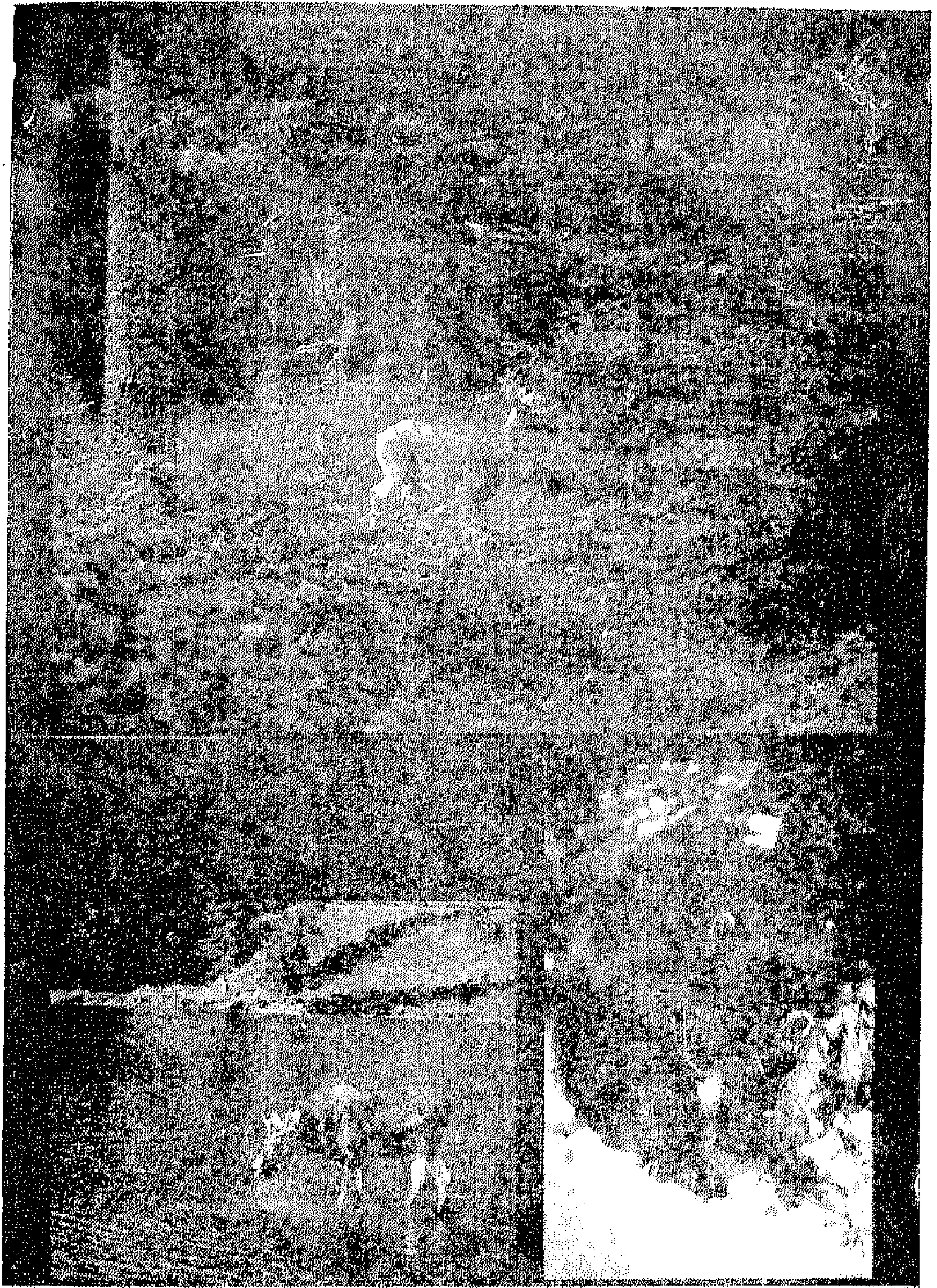
٩ ـ راقب جيداً حركة أطفالك .

١٠ ـ نتمنى لك إقامة طيبة .

وهمست لنفسى : إقامة طيبة ؟! بعد كل هذه التعليمات المخيفة سننعم بإقامة طيبة ؟ !

وقررت أن أواجه الأمر ، وليكن مايكون . إن هذه التجربة تكشف عن « قصور » روح المغامرة عندى ! كان « فرانز فانون » يقول : « إن الشجاعة ، هى شجاعة العقل قبل العضلات » .

المشاهد السريعة ، تقطع تأملاتى البطيئة ! دلفنا من باب الغابة



الطبيعة ، أجمل مشهد فى كندا . . إنها جزء من بانوراما الجمال !

ومعنا بطاقة ، وألصقنا الإعلان الذى تتصدره صورة « أسد » .

وقفنا أمام باب حديدى رهيب ، لم أر مثله في حياتى . طوله ١٠ أمتار ولا يوجد بجواره حارس أو بواب . السيارات تقف خلفنا فى طابور طويل ، حاستى الصحفية تعمل . معظم السيارات تحمل أرقاماً قادمة من أمريكا . الأمريكان تأسرهم بشدة هذه المغامرات . العجائز عددهم أكبر من الشبان،الأطفال خلف الزجاج يحملقون بعيونهم البريئة . لو كانت معى ابنتى حنان لفتحت الشباك . لأجرت حواراً مع الحيوانات لا يفهمه سواها !

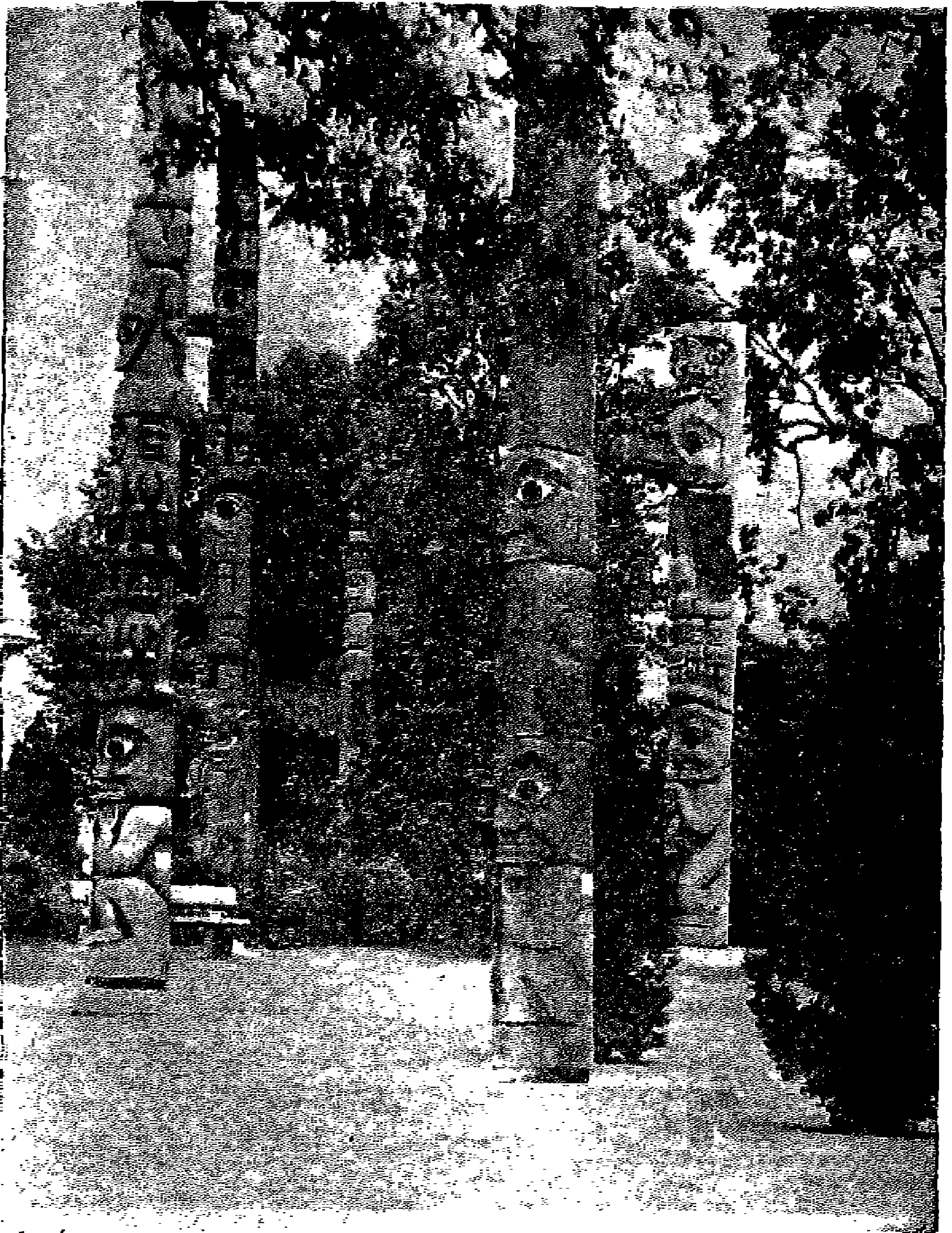
٥

الباب الحديدى انفتح !

تحرك طابور السيارات تقوده أسهم .

فاجأتنا لافتة ضخمة تقول بكل اللغات الممكنة (ماعدا العربية طبعاً) : أغلقوا الشبابيك .

تعودت فى كندا « اللهجة الرقيقة » فى المخاطبة ، لكن هذه اللافتة « تأمر » بإغلاق الزجاج فوراً وبلا إبطاء. إن المسألة لا تحتاج إلى تردد . شعرت أننا مقبلون على تجربة فيها عنصر خطر ! عاودنى الإحساس السيئ الذى سيطر علىّ . ماذا لو هجم أحد أسود الغابة الطليق على سيارتنا . من الممكن أن تعيش الغابة فى سلام طوال العام ، وربما يحدث شىء



ليس فى كندا فن تشكيلى مكتمل .. كما رأيته .. وهناك محاولات للإفلات من سيطرة الفن الأمريكى

مفاجئ ذلك النهار ! طردت الإحساس . انشغلت عنه بالحوار مع فاروق آذار . أخذت بلا مناسبة أسأله عن سر اسم «آذار» . قال لى إنه لا يعرف منبع التسمية ، لقد ولد والتصق الاسم باسمه شأن كل شيء فى حياتنا : الأب والدين والحياة !

نحن الآن فى منطقة الأسود . إن الغابة فسيحة جداً . صاحبها كان صياداً فى الأدغال ، ويقال إنه عقد معاهدة صداقة مع الحيوانات . عمر هذه الغابة خمس سنوات ، تدر يومياً آلاف الدولارات . فيها أسود وفيلة وقرود وزواحف ، وبقر وحشى ونعام وزراف ، لكن أهم فروعها على الإطلاق منطقة الأسود ، ٢١ أسداً تمرح فى الهواء الطلق وليس لها أقفاص .

يتحرك الطابور الطويل ببطء شديد . النوافذ مغلقة . الأبواب مغلقة بإحكام شديد . الجو داخل سيارتنا حار . خانق . لا يطاق !

٦

السيارة اقتربت من الأسود . الأسود بعضها نائم والآخر يحملق فينا . ساد صمت شديد داخل السيارة . اختفى حديث التأمينات تماماً . فى السيارات الأخرى العدسات مصوبة إلى الأسود . نحن على بعد متر واحد من أسدين طليقين . كلما دققت النظر فى عينى أحدهما وجدت عينيه خضراوين ، وشعراً كثيفاً يحيط بكل رأسه . إنى ألمح براءة . لا أجد شراسة ،

يبدو أن قمة الشراسة لا تصدر إلا من العيون البريئة !

الأسد يتمطى. يتثاءب . حين تثاءب، دققت النظر فى أنيابه . إنها ليست مخيفة . إنها الخوف نفسه . تمنيت لو أرى صاحب الغابة. إنه شخصية فريدة . فى يدى كتيب صغير يحمل رسالة منه إلينا ، نحن رواد غابته ! يقول فى الرسالة « إن الحيوانات محبة للسلام ، بيد أن الإنسان خاصم السلام . إن الأسد أشد الحيوانات شراسة ، بلا قفص مسجون داخله ، لا يؤذى أحداً ، ولكنه افترس رجلا شاغبه بعصًا ، إن الأسود ملوك الغابات لأنها تملك القوة ولا تستخدمها . لقد علمنى الصيد أشياء كثيرة . أهمها أن الإنسان — فى عالمنا — أشد شراسة من الحيوانات ، إن الحيوان يستخدم أنيابه الظاهرية ، أما الإنسان فأنيابه لبست مرئية !

فجأة ، قام أسد وجرى بسرعة ، لا أدرى لماذا ؟

تحركت واحدة من السيارات المصفحة الرهيبة المتناثرة فى الغابة . تحركت صوب الأسد واستعدت !

فى كل سيارة أسلحة ، وجهاز لاسلكى ، وبوق نداء ورجل مجهز مدرب مستعد ، يملك قدراً من المغامرة يوزع على مدينة بأسرها . من حين لآخر ، يصيح فى البوق : ممنوع الشغب مع الحيوانات . راقبها بهدوء من وراء الزجاج . نرجوك !



الملكة فى مباريات الهوكى . . أشهر رياضة فى كندا

٧

حين لمح الأسد السيارة المصفحة التى يميزها لونها ، عاد إلى قواعده فى بطء وكبرياء ! أردت أن أفتح النافذة بدون أن يشعر أحد — رغبة طفولية والسلام — كنت أبحث عن نسمة هواء . مجرد نسمة فالجو صار فرناً ، والشمس تحرقنا وحركة السيارات لا تسمح بأية سرعة ، إن السيارات تقف ، نتأمل حياة ملوك الغابة . إن المتعة أننى أرى الأسد يتحرك أمامى بحرية . إنه قادر على الصمت ساعات . رجل السيارة المصفحة يعلن فى البوق « الأسود هادئة . لا نريد إزعاجها ، لا تستخدم الفلاش . لا تلق بأى شىء للأسود . الأطفال ممنوعون من فتح الشبابيك ، قد تدمر الأسود كل طابور السيارات بمن فيه لو أرادت ذلك . هذه الأسود ، حيوانات شرسة . ليست " ديكور " . إنها وديعة مادمت وديعاً ! » .

عقب كل عبارة ، كان قلبى يدق وعيناى تستقران . مرة على التعليمات الملصقة فى الزجاج أمامى ، ومرة على الأسد وهو يغط فى النوم . مرة على السيارة المصفحة . مرة على عدسة فاروق وهى تحاول أن تضبط تثاؤب الملك ! .

إن الأسد ، حنون جداً ، إنه يعامل « اللبؤة » بحنان شديد . إنها تتمسح فيه ، وهو يخلى لها المكان ، يهدهدها ، يمسح رأسها

(٦)



الأوتوبيس فى مقاطعات كندا متعة ، لقد كنت أركب الأتوبيس لأصافح الطبيعة بعينى ، إن المساحات الشاسعة تريح العين ، وتملأ النفس بهجة !

بكفه . وعندما فرت هاربة من بين يديه ، ظل فى أرضه بكبرياء شديد ينتظر عودتها . .فعادت وتمرغت أمامه كأنها تعتذر !

إن الأسود يعامل بعضها بعضاً بوداعة غريبة ، إن غزل الأسود بالذيول ! إن الأسد يستخدم ذيله فى العبث فى وجه أسد آخر ! والأسد يسلى نفسه بتنظيف مخالب قدميه . وحين ينام يغلق عينيه ويفتح فكه بانفراجة صغيرة ، لا تخفى الأنياب !

٨

فى أثناء هذا التأمل الفاحص الطويل ، هبت الأسود واقتربت من السيارات . . و . . . وشعرت أن أسنانى تصطك .

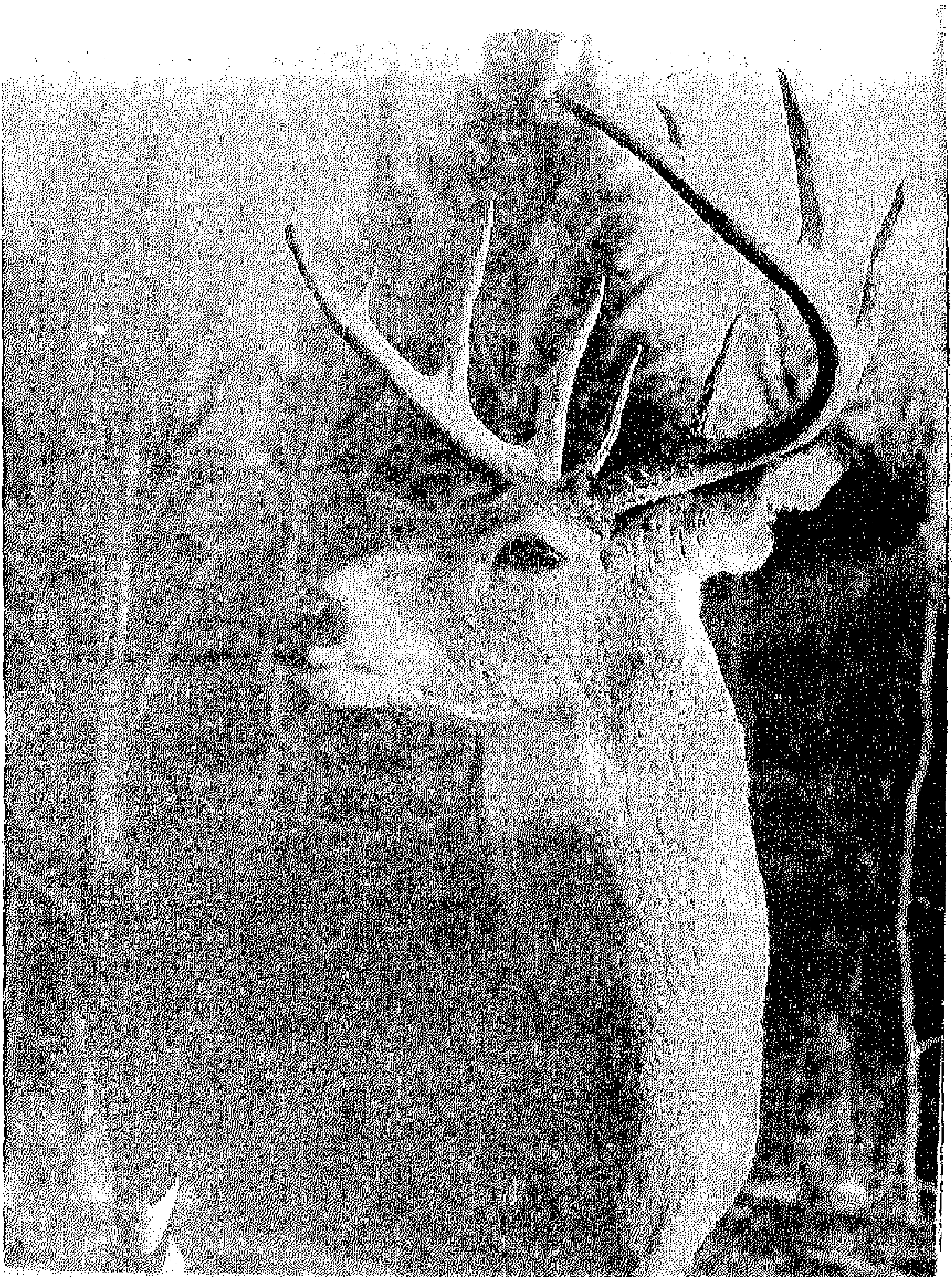
لا بد أن شيئاً أزعج الملوك والقياصرة فى غابتهم الفسيحة . إنها قادمة لتدمير السيارات بمن فيها .

ما أغربها من ميتة !

ومرت ثوان كأنها دهور . .

وسمعنا الأبواق تصيح . .

« الكاميرات تختفى فوراً . إن صوت بعض الكاميرات ، يبدو للأسود كأنه سلاح للهجوم عليها !.. السيارات تسير .. بنفس البطء . لا أحد يعلق على النداء . تبادلنا النظرات . الأسود تسير هى الأخرى فى طابور . أكبر الأسود حجماً يمشى فى المقدمة !



حيوان يسكن المناطق القطبية ، ويختفى فى الشتاء ، وحين يأتى الدفء
يظهر ويتجول فى خيلاء !

أصبحت جميعها في شبه حلقة مستديرة ، كأن أحدها سيدير ندوة ! الأطفال في السيارات الخلفية تصيح مهللة . . العجائز صامتون . البعض يأكل .

في بحر من العرق كنا نستحم !

فجأة ، وكنا قد ابتعدنا عن الأسود ، وتركناها في دنياها ، فاجأتنا لافتة : تستطيع أن تفتح شباك سيارتك الآن ! تنفسنا الصعداء .

٩

بي رغبة شديدة أن أشرب . . بي رغبة شديدة أن أرتمي على النجيل الأخضر . . بي رغبة شديدة أن أنام . . بي رغبة شديدة أن أريح أعصابي من توتر دام ساعات . . كنا فيها نتنزه مع أسود طليقة ، وقد اكتشفت أن الأسود كانت « تتفرج » على آدميين ، محبوسين في أقفاص ، أشبه بالسيارات ، وهي بالفعل سيارات !

الفصل العاشر

عارية يوم الأحد

« كندا تخلع ملابسها يوم الأحد
وتستحم عارية فى الراحة ! »

لا أسرار على القارئ ! ولا سر مهنة يحيط الكاتب بالألغاز! واسمحوا لى إذن أن أنقل لكم « مسودات » رسائل ، كتبتها لبعض أصدقائى . فبعد السلامات والطيبات والأشواق الزائدة سجلت رأيى فى سطور عن « يوم الأحد على الطريقة الكندية » حيث تتحرر كندا من هموم ٤٠ ساعة عمل متواصلة !

١

عزيزى الدكتور سيد عويس
المستشار بالمركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية

أكتب لك من كندا ، ومهما كان فى هذا المجتمع من سلبيات ، ومهما كان فيه من آلية ، فهناك قيمة هامة وقفت عندها بإعجاب ووددت لو أننا — فى مصر — تأملناها مليًّا . إنهم هنا يعملون . يعملون ٤٠ ساعة كل أسبوع . اليوم ٨ ساعات جادة . نصف ساعة فى العاشرة



يوم الأحد تخرج كندا عارية !

للشاى والقهوة . وساعة وسط النهار للغداء . وحين يأتى يوم السبت يستعدون لحياة اللهو. يقضون السبت والأحد فى لهو جاد . وحينما أقول لك فى لهو جاد . . لا أمزح. إنهم فى كندا يتحررون من القيود. من الملابس . من كل شىء . فى فصل الصيف يخرجون إلى الحدائق .لقد بنت الدولة أرائك خاصة وموائد خشبية تغرى بقضاء اليوم وسط الطبيعة والخضرة، إن حدائق كندا لوحات سيريالية خرافية . والحدائق تقع على شواطئ البحيرات . لا أحد يبحلق فى الآخر . لا أحد يرمى فضلات على الحشائش . هناك احترام لحرية الآخرين . للأطفال مكان فى كل حديقة . الأراجيح يحرسها مشرف حنون يعمل بحب بلا « بقشيش » . دورات المياه نظيفة . لقد حرصت خلال الأسابيع التى قضيتها فى كندا أن أقضى « الويك إند » خارج المدينة . قضيته مرة فى حدائق « ترونتو» الشهيرة ، ومرة فى « نياجرا فولز » ومرة فى « حدائق مونتريال الجميلة » . وفى كل مرة كنت أشعر أن كندا بأسرها تخلع ملابسها وتستحم عارية ! إن كندا فى أيام السبت والأحد تتخلص من متاعبها طوال الأسبوع وتستحم فى بحر من الراحة لا مثيل له !

قال لى رئيس تحرير « أتواستار » : « إن الحكومة الكندية تبالغ فى الاهتمام بوسائل الترفيه عن الكنديين ، لأنها فى الواقع تجنى الثمار فى العمل » ! إذن فهناك فلسفة تحكم المسألة وليست عفوية .

عزيزى الدكتور سيد ، أكتب لك هذا الخطاب . وأتذكر أيام الجمعة عندنا . وكيف أنها أيام النكد فى حياة الأسرة المصرية .



الإنسان والكلاب .. صداقة عميقة بلا شروط !

كيف أن الناس صباح الجمعة تصحو متأخرة من النوم لأنها « إجازة » ، وكيف يتحول البيت المصرى بفضل وجود الديكتاتور إلى غم عظيم . وكيف أننا « نلهو » فى العمل ، وليس عندنا ضوابط ذاتية لاحترام العمل كقيمة . ولكن يبدو أن السبب أننا فى مصر لا نعمل ما نحب وهذا سر اللهو فى العمل . أما عن مرحنا الماسخ ، فحدث ولا حرج . . تحياتى لك .

٢

عزيزى كمال الملاخ ـ الأهرام .

كندا ـ كما سبق أن ذكرت لك ـ بلاد شابة احتفلت عام ١٩٦٧ بمرور مائة عام على إنشائها . وعند الكنديين رغبة فى تأصيل تاريخهم ، إنهم ـ كالأمريكان ـ مهووسون بكل قديم ! وأراهن أنك لو جئت إلى هنا وحدثتهم عن تاريخ الفراعنة وحكاياتهم بطريقتك الفريدة ، لأنصتوا لك ساعات بل أياماً كاملة بلا ملل ! أكتب لك من قرية قديمة تقع فى أطراف مدينة صناعية صغيرة هى « كتشنر أونتاريو » . يوم الأحد لا تستطيع أن تجد مكاناً لسيارتك، فالمدينة بأسرها تخرج لتقضى النهار فى القرية القديمة . والكنديون يشعرون بسعادة عندما يرددون كلمة « قديمة » لدرجة أن بعض المحلات التجارية تحمل أسماء غريبة منها على سبيل المثال « أقدم الأشياء » و « قديم جداً »

و « تاريخ بعيد » وكل هذه الأسماء الغريبة ، تعكس كما قلت لك رغبة كندا فى « تعميق » تاريخهم القصير ! وندخل القرية القديمة ويدفع كل فرد ٥ دولارات . إنها تقدم صورة للحياة فى « كتشنر » نفسها منذ ٥٠ عاماً فقط ! وبوصفى مصرياً ولى تاريخ موغل فى القدم ، فإنى أضحك فى سرى من كلمة قديم التى يذكرونها دائماً ! فى القرية القديمة نماذج للحياة فى الأثاث والملابس والعملة والسيارات والعجلات والموضة ، حتى دوار العمدة نفسه . إنها فى الواقع أشياء حديثة ، لكنهم يضعونها بحرص شديد داخل دواليب زجاجية مغلقة بإحكام وعليها تاريخها وهو يقع دائماً بين ١٨٦٧ و١٩٦٧ ! تاريخ عمره مائة عام ، إن الشىء الذى أثار دهشتى أن هذه القرى القديمة متكررة فى كل مدن كندا ، ليحرص الكندى على المقارنة بين « الأمس » و « اليوم » ، تصور لو كان هؤلاء الكنديون يملكون جزءاً على مائة من تماثيلنا وحضارتنا وآثارنا . . ماذا كانوا يفعلون به ؟ ! كانوا اجتذبوا العالم إليه . إن معرض كندا الدولى شد انتباه العالم ولا فضل لكندا فيه إلا البناء والطرق الممتدة إليه . فى القرية القديمة ، ترى سيدة كندية قديمة . . تمضى الوقت وبين أصابعها نول للنسج ، وهذا يشير إلى الأنوال اليدوية وكيف تطورت إلى الآلة ! مسألة لا تستحق الالتفات ، ومثلها فى مصر مئات بل ألوف الأنوال اليدوية .

وفى كل قرية قديمة رجل من الهنود الحمر بملابسه التقليدية الملونة . . إنه يشير أيضاً إلى سكان كندا الحقيقيين الذين يعيشون



الكلاب فى كندا صديقة الفلاح الكندى !

اليوم حياة بائسة ، وتحرمهم الحكومة الكندية من مميزات المواطن الكندى ، وهؤلاء يعيشون فى قرى نائية ، ولكن لا مانع من « استيراد » أحدهم للفرجة عليه باعتباره دلالة من دلالات التاريخ القديم لكندا ! ويسأل سائح أمريكى الرجل الهندى الذى يقيم فى بيت تقليدى : من يثبت لنا أنك أصل هذه الأرض ؟ ويرد الرجل الهندى بابتسامة ساخرة ، ومن يثبت لك أن حواء وآدم أول بشر على ظهر الأرض ، وتنتهى المناقشة إلى صورة تذكارية بين الأمريكى والهندى الأحمر ! إن الكنديين — يوم عطلتهم — يقصدون القرى القديمة للتعرف على تاريخ بلادهم . ولعلك تحس أنهم فى الواقع يحيطون أشياءهم الصغيرة بإطار جذاب . ذلك هو سر اللعبة كما يقولون . وأتحسر على آثار الأقصر . وعلى السرقات التى تكتشف بين يوم وآخر فى متاحفنا . وأتحسر على تاريخنا القديم بحق ، الذى لا نحس به . . ربما من شدة الجوار . . ربما لقربه منا ، قتل لهفتنا عليه ! أو عندك — ياعزيزى كمال — تفسير آخر .

٣

عزيزتى ليلى رستم . تليفزيون لبنان

إن التليفزيون الكندى يقدم لك دنيا بأسرها . إن الصورة الشائعة فى كل بيت كندى ، هى أن الأسرة تجلس حول الشاشة الصغيرة ، عينهم على الجهاز السحرى وأسنانهم تقضم أى شىء . سندوتشات . فشار . ذرة

مشوية . أى شىء ساخن أو بارد !

ما محتوى ماتقدمه القنوات الثلاث عشرة الملونة . ذلك هو السؤال ! إن التليفزيون الكندى يخصص قناة تعليمية لراغبى الثقافة . ميزة هذه القناة أن الإعلانات لا تقطعها . أما بقية البرامج ، فالإعلانات صاحبة الحق فيها وفى قطعها فى أية لحظة ، إنها تقدم جوائز تصل إلى مائة ألف دولار ! إن الإثارة هى الطابع الأساسى للتليفزيون الكندى . إنهم متحررون من الكراسى المذهبة والإيماءات المرسومة والرقاب المخشبة . يناقشون كل شىء من العجز الجنسى للبرود ، للشذوذ ! الهدف ليس التثقيف ولكن ترويج السلعة المعلن عنها !

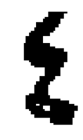
الناس هنا فى كندا يلتقطون ثقافتهم من التليفزيون . فالكندى عموماً لا يعرف شيئاً خارج حدود مدينته الصغيرة ! الكنديون عشاق هوكى ، لا عشاق ثقافة . والقناة التعليمية تبدو يتيمة وسط القنوات الاثنتى عشرة !

إن عندنا « الفكر » التليفزيونى الناضج فى بلادنا ، ولكن تنقصنا الآلات . تنقصنا الإمكانيات الهائلة . تنقصنا الحرية فى التفكير والجرأة فى التناول . تنقصنا أن نمسك بتلابيب المشاهد .

لك تحياتى من بلاد الثلاث عشرة قناة الملونة !



الانتصار على الطبيعة إحدى سمات الإنسان الكندى . الطبيعة هنا الجبال والصخور !



عزيزى بليغ حمدى – الزمالك

الناس فى كندا – يا بلبل – يفطرون هوكى ويتغدون هوكى . ويتعشون هوكى! حياتهم هوكى فى هوكى! الطفل قبل أن يشتد عوده الأخضر يؤهله والده ليلعب هوكى! النجم ، ذو الشهرة العريضة عند البنات ، هو نجم الهوكى! لا أحد يعرف «موزار أو بيتهوفن» . كل الناس تعرف « بلفايو وبوبى هيل » . وكان « ديدرن . وفياتى أسبوزيدو » . هؤلاء ألمع أسماء نجوم فريق الهوكى الكندى الذى انتصر على الفريق الروسى بفضل تشجيع الشعب الكندى واهتمامه ! تصور أن « بوبى هيل » أعلن ذات مرة اعتزاله اللعب بعد أن بلغ الخامسة والثلاثين . وقامت الدنيا وقعدت . وراحت الاحتجاجات لمنظمة اللعبة وضغطوا عليها لتعيد بوبى هيل إلى الملاعب ! نجم الهوكى يتقاضى فى العام مرتباً قدره ٢٠٠ ألف دولار . رقم يسيل له لعابك وقبل لعابك لعاب محمد حمزه !

تصور – يابلبل – لعبة الحكشة القديمة صار لها شأن تحت سماء كندا ! الشىء الوحيد – برغم حرارة المباريات وسخونتها – أن الأعصاب فى ثلاجة ، والمباريات لا تلغى ، والحكام لا يشتمون . ويقولون فى كندا « الناس اثنان واحد عاشق للهوكى ، والثانى عاشق لنفسه » ! ولك تحياتى من بلاد الهوكى !

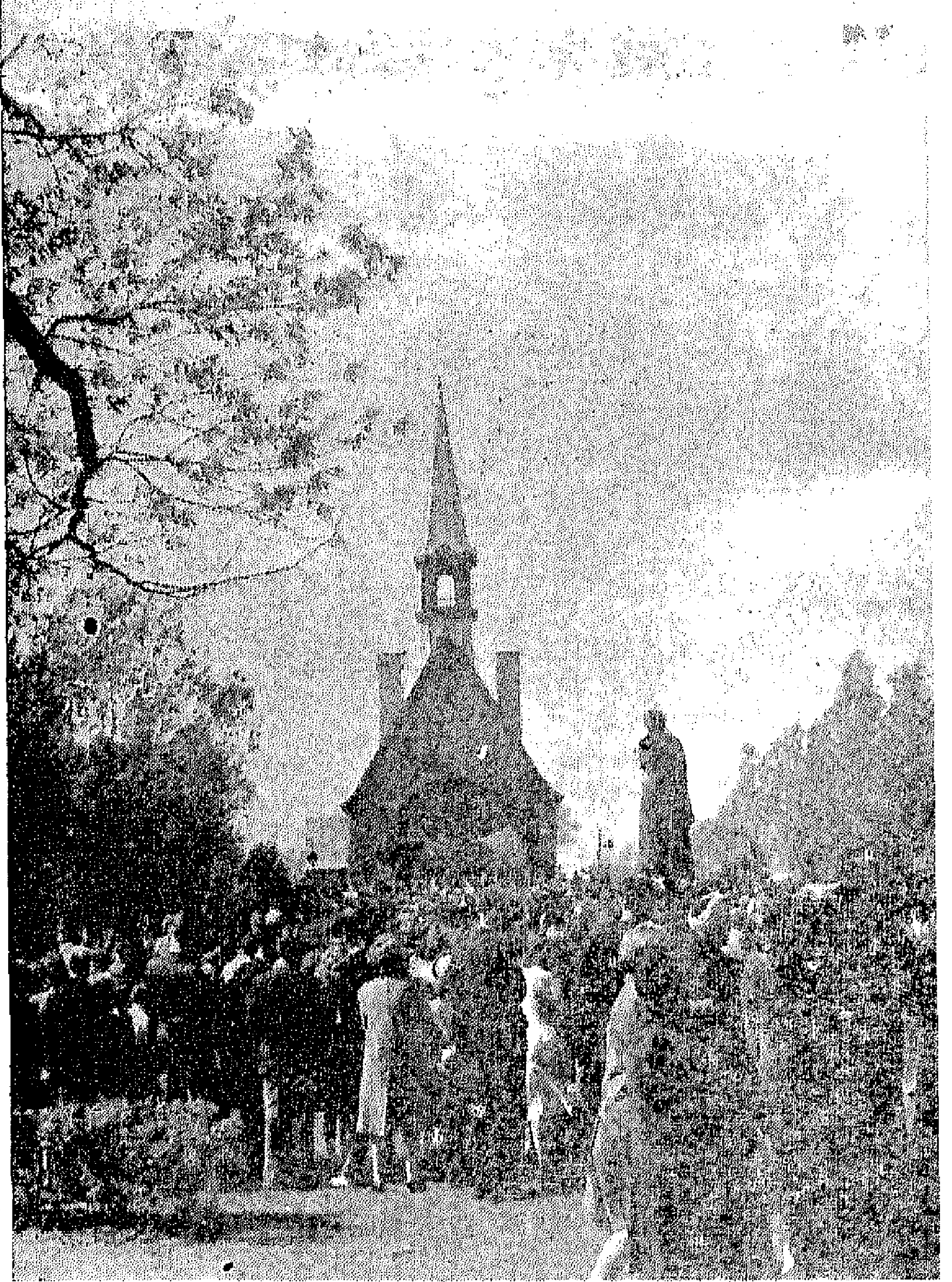
٥

عزيزتى نادية لطفى — جاردن سيتى القاهرة

الذى لا يعرف كيف « يلهو » . لا يعرف كيف « يعمل » ، حكمة تعلمتها من كندا . حكمة آمنت بها ، وأيام الآحاد تتوالى أمامى والشعب الذى يعمل ويعرق يلقى بنفسه فى أحضان خضرة مساحتها ١٧٢ مليون فدان . ينام على ضفاف بحيرات عددها ٤٤١ ألف بحيرة . تحياتى من بلاد الـ ٢١ مليون نسمة والـ ٢٥ مليون سيارة .

لمعلوماتك

- إن سياسة الهجرة فى كندا ترفض الأخذ بأى تمييز عنصرى أو دينى .
- بلغ عدد المهاجرين لكندا من ١٩٤٦ إلى ١٩٧١ من جميع أنحاء العالم ٣,٥٣٦,٧٥٧ منهم ١,٨٦٤,٥٢٩ اختاروا الإقامة فى أونتاريو .
- افتتح مكتب الهجرة بسفارة كندا بالقاهرة عام ١٩٦٣ .
- كتب رئيس مكتب الهجرة بالقاهرة يقول « إن نوعية المهاجر المصرى كانت من أرفع مستويات المهاجرين إلى كندا » .



الحياة المادية والحضارية لا تحول بين الكنديين والصلاة !

الفصل الحادى عشر

عيون كندا ترانا هكذا

« كيف ترى كندا عاصمتنا ؟

اقرءوا ما يقوله كاتب زار القاهرة

وغاص فيها ، ونشر تحقيقاً عنها ! » .

كان الموقف حرجاً للغاية !

فبينما كنت أقضى أمسية جميلة فى بيت رئيس تحرير جريدة « أتوانيوز » . . والموسيقى تسبح فى المكان ، ورذاذ المطر يتساقط على زجاج النافذة فى إيقاع لذيذ ، لفت نظرى صورة لسوق الخضار فى روض الفرج بالقاهرة ! نقلتنى الصورة فى ثوان لروض الفرج وصراخ الباعة وزحام الناس والمشاجرات الدموية فى أغلب الأحيان ! وأعترف أنى شعرت بغيظ شديد . دققت النظر فى الصورة ، فاكتشفت أنها واحدة ضمن تحقيق مثير فى مجلة كندية أنيقة الطباعة وملونة !

كان التحقيق عن « العاصمة » : القاهرة . أكثر مدن العالم العربى زحاماً واضطراباً كما تقول المجلة !

كان الموقف حرجاً فى الحقيقة . ذلك أن أحد المدعوين فى السهرة قدم لى نفسه « ديورانت أسكى » الناشر الكندى ! وكانت

هناك مفاجأة أخرى تنتظرنى . لقد قال لى الناشر الكندى وهو يرشف كأساً من نبيذ فرنسى معتق : « أنا ناشر المجلة التى بين يديك الآن ! هذا تحقيق عن القاهرة ، وافانا به مراسلنا المتجول فى عواصم العالم ، لم أكن أتصور أن مدينة كالقاهرة تشكو التخمة . وتكاد تنفجر سكانياً . على أى حال هذا شأن العواصم فى كل بلاد الدنيا . ولكن القاهرة مدينة متناقضات لا حد لها « والوصف للمهندس المصرى حسن فتحى ! »

قلت بسرعة : فى طوكيو يتصارع الشرق والغرب . لكن الحضارة اليابانية قاومت « التأمرك » وانتصرت . فى اليونان حدث الشيء نفسه . فى استانبول حيث آلاف الجنود الأمريكان يرابطون فى قاعدة أمريكية لا تزال الحياة « تركية » لغة وعادات ومشارب! مصر — مثلا — مر عليها صنوف من الاستعمار ، وإنك لو توغلت فى أعماقها لصدمتك رائحة « مصر » النفاذة . فالتناقضات أمر بديهى فى العواصم . والنظرة السطحية تجهض الواقع !

قال الناشر بابتسامة خبيثة : لا تستطيع أن تكذب الصور ، إنها حقائق محفورة . قلت : أنا لا أنكر هذا ، وكصحفى أفهم جيداً أن الصورة تساوى مائة مقال ، ولكن ما أريد الوصول إليه هو : ليست هذه « الصور » هى القاهرة . القاهرة مدينة تنمو وتكبر ، ونحن نعانى من مشكلة . . هجرة الريف والمدن إلى القاهرة . ونحاول أن نجعل فى المدن حياة ترضى الطبقات الطموحة للاجئ إلى العاصمة .

لمعت عينا الناشر وقال : ليس فى المقال شيء عن هذه المشكلة .



فن الباليه فى كندا .. هناك قناة فى التلفزيون الكندى تقدم ساعات طويلة من فن الباليه للمتذوقين

كيف فاتت على الكاتب ؟ !

قلت : إن « ديزمونت » أديب إنجليزى له وزنه ، كتب عن القاهرة بمعايشة دقيقة ، ذكر جمالها ولم ينس قبحها ، تعرض للورد والشوك معاً .

وكل عواصم العالم لا تخلو من قبح شديد ، ولكن القبح هو أحد أبعاد الصورة .

قال الناشر الكندى : هذا التحقيق محايد ، إنه وجهة نظر كندية بحتة !

ضقت ذرعاً « باللت والعجن » فى هذا الموضوع وقلت سوف أقرأ الموضوع بنفسى ، ولكن لا بد من ذكر حقيقة .

وقلت : هل يبدو حديثى مجافياً للذوق ، إذا قلت إن كندا هى اسم « مستعار » للولايات المتحدة الأمريكية ؟ هذه حقيقة يجب ألا تغيب عن الأذهان . والكندى فى اعتقادى رجل أمريكى « الطبعة » مزاجاً ومشاعر ورغبات ونظرات . كل شيء ماعدا جواز سفره . هل يبدو كلامى غريباً ؟ !

قال رئيس تحرير « أتوانيوز : « لقد أصبت الحقيقة بهدف » .

قال الناشر الكندى : « إن رأسمال شركتى أمريكى » . وكان هذا كافياً ، فانفردت بنفسى ، وأخذت أقرأ التحقيق !

التحقيق يقول أشياء كثيرة . إنه مجرد حكايات وانطباعات أكثر منها دراسة . ولكن المجلة واسمها « دوكيومنت » يقرؤها أكثر من ٩ ملايين كندى . انتشارها هذا جعلنى أتوقف وأتأمل « كمية » المعلومات التى

معلوماتك

- التنظيف بالبخار للبدل والمعاطف والفساتين بثمن رخيص وبسرعة .
- السيارات والتسهيلات النقدية تشجع غالبية الكنديين على شرائها .
- الشراء بالتقسيط الشهرى لكل شيء تحتاج إليه .
- يحتاج المهاجر إلى الخدمات التالية التى تقدمها له الحكومة الكندية :

تقوم إدارة الهجرة باستقباله عند وصوله لكندا .

يمنح تسهيلات سكنية .

يبحث له عن عمل .

الرعاية الطارئة والخدمات الطبية .

تدريب اللغة .

خدمات فى الترجمة .

إعلام وتوجيه .

استشارات فردية وعائلية .

تدريب مهنى .

لمعلوماتك

برامج تعليمية خاصة ومساعدة للأطفال والأمهات .

المشاركة الاجتماعية .

حماية الحقوق الإنسانية الفردية .

- ينتج المجلس القومى الكندى للأفلام التسجيلية حوالى مائة فيلم جديد كل عام ، بالإضافة إلى الشرائح العلمية والتربوية والاجتماعية .
- يحتل سكان كندا البالغ عددهم ٢١,٥٧٠,٠٠٠ نسمة، نسبة ٧,٣ ٪ من مساحة العالم كله .
- بلغ عدد الطلبة فى العام الدراسى ١٩٧٠ /١٩٧١ ٦,٥ ملايين وعدد المدرسين ٣٠٠,٠٠٠ .
- تبلغ ميزانية التعليم فى كندا ٧٣٠٠ مليون دولار .
- بدأت كندا تنشئ مدارس بدون صفوف وفيها يسمح للطلاب بالتقدم فى دراستهم حسب قدراتهم بدون امتحانات .
- فى كندا ٨ جامعات تمنح درجات فى علوم المكتبات إلى درجة الدكتوراه .

يطرحها التحقيق ! ولابد من وقفة عند أسلوب المقال نفسه . إنه أسلوب ملتو : ملفوف !

إنه يقول مثلا : العاصمة من شباك الطائرة جميلة رائعة خلابة . هاهو ذا سحر الشرق . هاهى ذى قاهرة المعز . هاهى ذى لؤلؤة العالم العربى . ثم يقول بعد قليل : لكن النظر من الطائرة شىء، والسير على الأقدام شىء آخر . القاهرة بعد ذلك، خرابات. قمامة . أشياء مقززة!

إنه يقول مثلا : فى مصر جامعات..البنات يذهبن كل صباح جماعات ملونة زاهية . الأزياء آخر صيحة . الماكياج وارد باريس . وبعد قليل يقول ، ولكن الحجاب ما زال . والبيوت فى الطبقات الوسطى لا نشاط لها إلا الإنجاب . والمرأة ربة البيت ، تشبه زير المياه الذى يستخدمه الناس فى الأحياء الشعبية !

هذه الطريقة « المسمومة » فى الكتابة، هى طريقة علمية تكتيكية . تماماً مثل أفلامهم التى تروج لشىء معين يخدم الصهيونية وسط إطار فنى جميل .

ماذا يقول التحقيق الملون عن القاهرة . .

يقول : إن الزحام فى القاهرة لا يطاق ،إن مصالح الناس فى الأقاليم لا تجد حلها الطبيعى إلا فى العاصمة . فبرغم أن هناك تجربة « حكم محلى » فى مصر ، فما زالت القاهرة هى « مركز » كل شىء .

يقول : إن خطط وقف أمواج النسل تكلف الدولة الكثير ، ولكن الأمل فى نجاحها ضعيف . إن الانفجار السكانى وشيك الحدوث . إن



المهاجر الذى نجح فى امتحان قسوة الطبيعة شتاء . يحقق ذاته !

الأغلبية الساحقة لا تتصور كيف تحرمها الحكومة من الإنجاب ، بيد أن الطبقات المثقفة — وهى قليلة — تؤمن بالنظرية .

يقول التحقيق : إن القاهرة تأكل جيداً . تأكل كميات هائلة من الطعام . ولقد رأيت بنفسى كيف يهجمون على الخضراوات والفواكه التى بلا غسيل أو تنظيف . رأيتهم يأكلون الفاكهة وهم فى السوق ، هذه الكميات الرهيبة تصيبهم بأمراض كثيرة ، إذ أن الحقيقة التى صدمتنى هى . . كيف تلتقى كميات الأكل الكبيرة مع الأمراض الوفيرة . إنه لغز محير !

يقول التحقيق : إن القاهرة كسائر مدن مصر ، تنام نوماً عميقاً ما بين الثالثة والسادسة . لا تستطيع أن تطلب أحداً فى التليفون وتجده فى حالة استيقاظ . الكل نائم . والنوم ساعة الظهر بلسم راحة من عذاب المواصلات التى يمكن أن توصف أنها « غير آدمية » بالمرة !

يقول التحقيق : إن القاهرة تسهر مع الراقصات الشرقيات فى ملاهى شارع الهرم ، وتصيبك الدهشة عندما ترى الوجهاء وصغار المسئولين فى الدوائر الحكومية يأكلون بنهم جسد الراقصة التى تضاعف تثنيها لترضيهم !

يقول التحقيق : إن القاهرة ضائعة بين مهندسى التخطيط . بعضهم يرى أن القاهرة الكبرى يجب أن تلقى بالمصانع خارج المدينة ، وبعضهم يرى أن التوسع فى العمران يلتهم الأرض الزراعية ، ولا تزال القاهرة المسكينة تتضخم ، وتصاب بكل أمراض التضخم !

لمعلوماتك

- إدارة شئون المستهلك تهدف أساساً إلى حماية حقوقه على النحو التالى :

١ – حقه فى الأمان وتحرره من أى أضرار جسدية أو اقتصادية ، نتيجة لما يأكله ، ويلبسه ، ويقوده وما يستعمله حول منزله .

٢ – حقه فى الحصول على المعلومات الصحيحة الكاملة فى معرفة ما يشتريه وثمنه وما يحتويه . . إلخ .

٣ – حقه فى المعاملة الأمينة العادلة من ناحية المصنفين وتجار التجزئة والسماسرة والمعلنين وتحرره من احتمالات التزوير والغش .

٤ – حقه فى حرية الاختيار .

- إن الزراعة فى كندا تعتبر الصناعة الثانية فى البلاد، برغم أنها لا تستخدم إلا أقل من ٧ من القوى العاملة الكندية ، وأهم الزراعات هى الحبوب والفواكه والخضراوات والطباق، كما يهتم المزارعون بتربية المواشى ومنتجات الألبان والدواجن والفراء ومستخرجات شجرة الإسفندان .

يقول التحقيق : إن العاصمة (القاهرة) نموذج للضوضاء التى لا تنقطع ليل نهار .

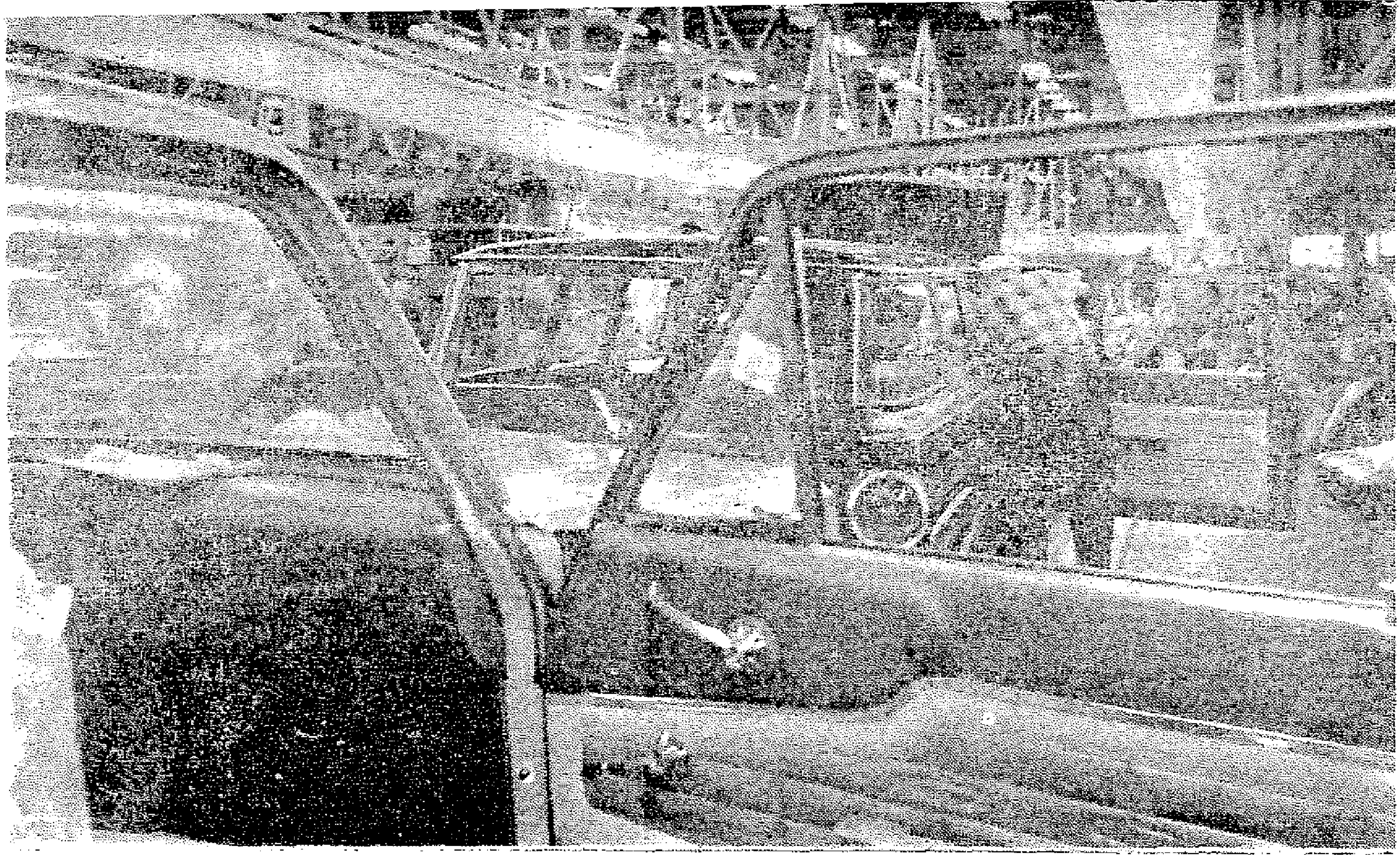
يقول التحقيق : إن مستشفيات القاهرة تحتاج إلى علاج لأنها مستشفيات ذات أبنية ضخمة وينقصها الدواء والممرضة والطبيب المتفرغ !

يقول التحقيق : إن السائح — أى سائح — يقضى فى القاهرة ثلاث ليال سياحية على الأكثر لأنه لا يستطيع أن يسير بعد منتصف الليل فوق أحد الكبارى ، فسوف تقبض عليه السلطات . إن السياحة فى مصر ، فنادق ، وليست عملية « إرضاء السائح » . . ولا بد من الاعتراف أن فنجان القهوة المصرى لا مثيل له فى العالم ! (ياسلام) !

كنت قد انتهيت من التحقيق واحتفظت بنسخة من المجلة معى وأخذت أفكر فى كل ما أثاره التحقيق .

إنه — بالتأكيد — لم ير غير الشوك . ولم يشم غير رائحة القبح . إنه بالتأكيد غفل تماماً عن الوجه المضىء للقاهرة . غفل وتناسى ! إن بعض ماذكره التحقيق صحيح . وهى وجهة نظر فى نهاية الأمر ولا بد أن نعرف كيف ترانا العيون . عيون العالم وآذانه .

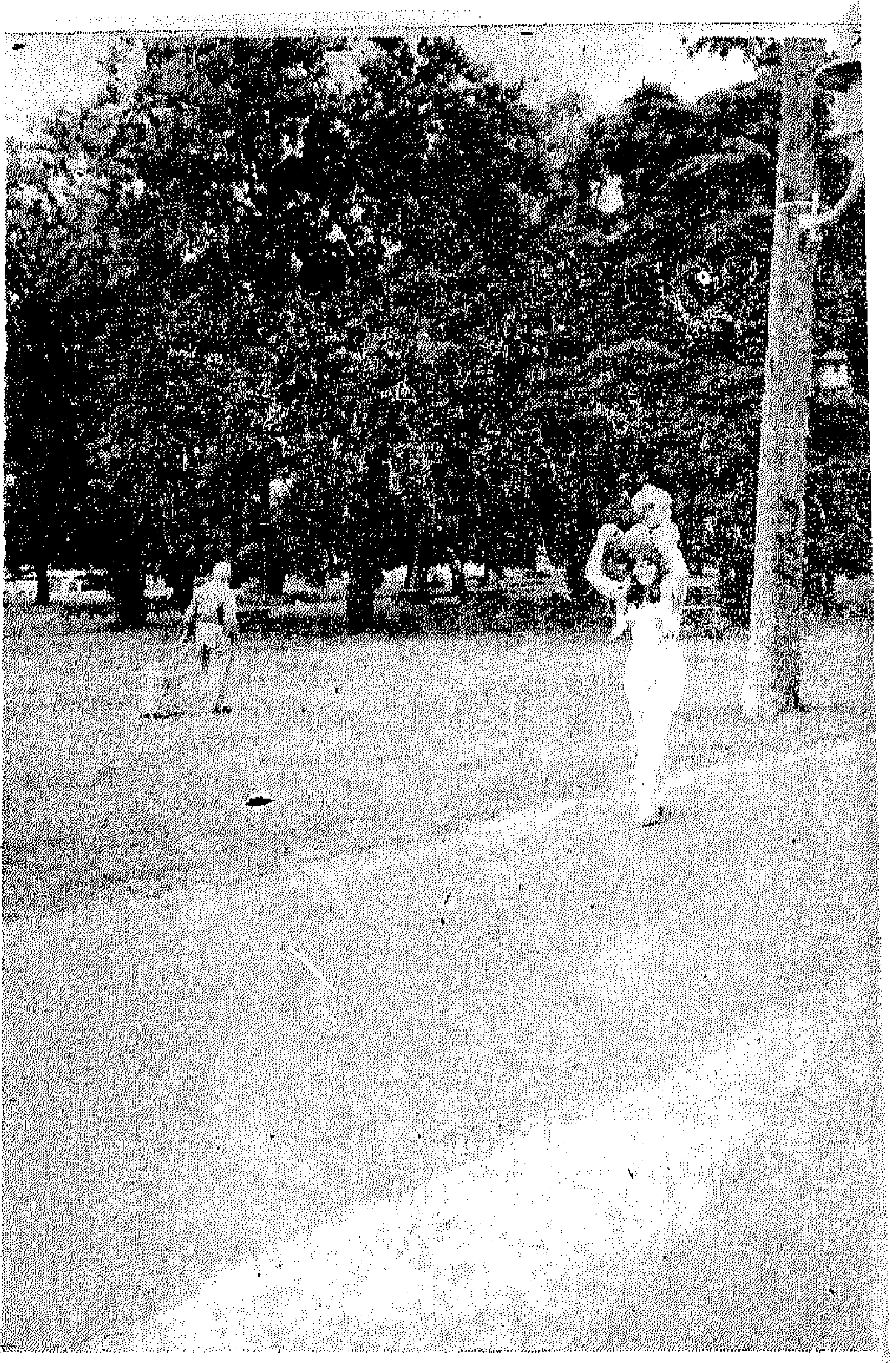
ولكن ليس من المعقول أن تقوم مجلة — ينفق عليها رأسمال أمريكى وناشرها كندى يطير كل أسبوع إلى تل أبيب ليقضى « الويك إند » — بإنصاف « القاهرة » العاصمة العربية !



تحاول كندا أن تسرق الكاميرا من أمريكا فى صناعة السيارات .. وبالفعل نجحت !

لمعلوماتك

- فى كندا أكثر من ٦٠ جامعة تمنح الدرجات الجامعية . قارن هذا العدد بعدد السكان البالغ عددهم ٢١ مليوناً تقريباً ! !
- برغم ضآلة عدد السكان فى كندا بالنسبة لمساحتها ومواردها الطبيعية فقد وجدت الحكومة أنه من الضرورى إنشاء جهاز تنظيم الأسرة ، وكانت ميزانيته عام ١٩٧١ /١٩٧٢ مبلغ ٦٨٥،٠٠٠ دولار ومهمة الجهاز العمل على تخفيض عدد الأطفال غير المرغوب فيهم .
- تحتل مشكلة تلوث الجو المركز الأول لاهتمام الحكومة الكندية والشعب الكندى إلى الدرجة التى جعلت الحكومة تفكر فى فرض « ضريبة التلوث » حتى تفرد لهذه المشكلة ميزانية ضخمة تعالج بها هذا الموضوع الذى يمس الاقتصاد الكندى مسا مباشراً .
- المشكلة الثانية بعد التلوث هى مشكلة التضخم والبطالة والارتباط الوثيق بين الاثنين .



هكذا يعاملون الأطفال . غابات فسيحة ، ينطلق فيها الطفل الكندى ،
والأمهات يخرجن إلى الطبيعة أيام الآحاد!

الفصل الثانى عشر

كيف نحترم طفلا !

« إن للطفل – فى كندا – كلمة مسموعة ،

إنه دنيا قائمة بأسرها . إن كل سلعة

تتعلق به معفاة من الضرائب ! »

لحظة ميلاد طفل جديد ؛ تلتقط العدسات صورته ؛ وفى اليوم التالى تنشرها الصحف ! وهو ما زال فى اللفة « يوأوأ » يتقاضى مرتباً من الدولة : ٨ دولارات شهرياً ، نفقات اللبن !

إذا كان الطفل غير شرعى ، سئلت أمه : هل تضمينه إليك . إذا وافقت منحتها الدولة إعانة ، وإذا رفضت تبنته الدولة ، وانقطعت صلة أمه به ، مدى الحياة !

قد تتبنى الطفل أسرة كندية ثرية يحمل الطفل اسمها . وله حقوق فى الميراث تتساوى تماماً مع الأبناء الشرعيين . إن الدولة لاتفرط فى « مواليدها » بسبب آباء جبناء يرفضون الاعتراف بثمراتهم ، الدولة تحتضن هؤلاء الذين لاذنب لهم !

هذا يحدث فى كندا .

يستطيع الطفل أن يشكو للبوليس من قسوة أبيه . إن ضابط البوليس لن يهمل شكوى الطفل باعتباره « عيل » ، سوف يتوجه الضابط إلى

لمعلوماتك

● بلغت قيمة الإنتاج القومى فى كندا عام ١٩٧١ مبلغ ٩٣,١٠٠ مليون دولار .

● استوردت كندا من السيارات وقطع الغيار عام ١٩٧٢ ما قيمته ٤,٤٤٩ مليون دولار وهذا الرقم يمثل ٢٦٪ من مجموع قيمة الاستيراد الكندى .

● إن ما يحكم الهجرة إلى كندا وجعل بابها مفتوحا هو :

● الجغرافية الكندية والموارد الطبيعية الضخمة التى تنتظر الأيدى العاملة .

● التطور السريع الخطير فى الصناعة .

● الانفجار السكانى العالمى وصلته بالمساحات الشاسعة فى كندا التى يمكن أن يسكنها فائض السكان فى بلاد أخرى من العالم .

● بينما تقبل الولايات المتحدة الأمريكية مهاجرين جدداً من جميع أنحاء العالم ، فإن عدد الأمريكيين الذين يهاجرون إلى كندا أصبح يشكل المورد الأول للمهاجرين لكندا بعد أن كانت المملكة المتحدة هى المورد الأول .



حتى أطفال المهاجرين والسياح وزوار كندا يعانقون بعيونهم الشواطىء الكندية . طفلة مصرية هى ابنتى أحبت كندا بدون أن تعرف أى بلاد هذه !

بيت الطفل ويسأل الجيران عن قسوة الأب ، فإذا أيدوا رواية الطفل ، أنذر الضابط الأب فإذا عاد لقسوته ، دفع غرامة لا تقل عن خمسين دولاراً ، فإذا تكررت القسوة ، اضطر البوليس آسفاً أن يسحب الطفل من يدى أبيه . وإذا بلغ الجيرانَ البوليس أن أباً وأماً تركا ابنهما فى البيت ، وهو دائم البكاء ، ذهبت سيارة البوليس وأفرجت عن الطفل وانتدبت له — على نفقتها — دادة تتقاضى أجراً بالساعة من أجل سواد عيون الطفل ، حتى لا يبكى . هذا ينطبق على الطفل الكندى والطفل المهاجر !

هذا يحدث فى كندا

فى أى ملهى مكان للأطفال ، فى دور السينما حفلات خاصة للأطفال . فى المتاحف يوم مخصص للأطفال . يذهب الأطفال للمتحف يقضون فيه ساعتين . يتجولون بلا آباء أو أمهات . مرشدة حنون فقط ، هى الأب والأم معاً . قبل الظهر يقدم لهم « بوفيه » المتحف المشروبات و « السندوتشات » والحلوى . يتصرف الصغار كالكبار . ويحصلون على مايريدون . المرشدة الحنون صدرها واسع . تجيب عن كل سؤال يخطر أو لا يخطر على البال ! أول درس يتعلمه التربويون هو : لا تهمل سؤالا لطفل . لا تعبر سؤالا وجهه طفل . أجب عن أى سؤال يخرج من شفتى طفل .

هذا يحدث فى كندا .

لمعلوماتك

- للحصول على الجنسية الكندية يجب توافر الشروط التالية :

الحصول على تأشيرة إقامة دائمة على أساس الهجرة النهائية .

الحياة فى كندا مدة خمس سنوات .

التحدث بالفرنسية أو الإنجليزية .

حسن السير والسلوك .

معرفة بعض المعلومات عن كندا وواجبات وحقوق المواطن الكندى .

نية الحياة الدائمة فى كندا .

- حلف يمين الولاء لكندا .
- تتمتع كندا بأعلى مستويات المعيشة فى العالم ، لكن لا تتوقع أن تتمتع بكل شىء فى البداية . وبقدر ما تبذل من وقت ومجهود وعمل شاق بقدر ما تأخذ فى مقابل هذا الكثير .

٢٠ ٪ من الأفلام التسجيلية في كندا . . كعبة الفيلم التسجيلي في العالم ، مخصصة للأطفال . نشاطهم . لعبهم . شقاوتهم .. كاتب برامج الأطفال في التليفزيون يتقاضى أعلى الأجور . مخرج الأطفال له « سمعة اجتماعية » مرموقة. ناشر قصص الأطفال يتصدر حفلات الأدب والفن . كاتب قصص الأطفال يتسلم أجره كاملا قبل أن يخط حرفاً واحداً في قصة جديدة . في برنامج يوم واحد على شاشة التليفزيون أكثر من ٥ برامج مشوقة للأطفال . واحد « كارتون » والثاني حي والثالث رياضة والرابع ألغاز والخامس غناء وهوايات . آخر برنامج يذاع في الثامنة . . وتظهر المذيعة لتقول لأطفالها الحلوين : « الآن إلى السرير . قبلوا بابا وماما . . تصحبكم السلامة » .

هذا يحدث في كندا .

اللعب . . يشتهيها الكبار قبل الصغار . سال لعابي أكثر من مرة أمام قطار يتحرك بالكهرباء ويجرى فوق قضبان . . ويقف على محطة ويصعد الركاب ويطلق صفارته ويمضي . سال لعابي أمام أرجوحة مبتكرة . سال لعابي أمام عروسة تتكلم وتغني وتبكي وترقص . . ثمنها ٢٠ دولاراً . . هذه اللعب بعضها كندي والبعض الآخر مصنوع في اليابان لحساب كندا . . كل أنواع اللعب التي يتصورها العقل تغمر الأسواق . مصانع لعب الأطفال معفاة من الضرائب . أي شيء يباع للأطفال معفى من الضرائب وهي ٥ ٪ . أي بيت كندي لا تستطيع أن تحصى عدد اللعب فيه . يراعي تماماً في اللعب دقة الصنع والبساطة

لمعلوماتك

- قد يتمكن الطالب الجامعى من اقتراض ما يصل إلى ٥٠٠ دولار فى أثناء دراسته الجامعية على أن يردها عند التخرج .

- تنال حركة الفنون والعلوم الإنسانية تشجيعاً كبيراً ، لذلك قام المجلس الكندى عام ١٩٦٨ /١٩٦٩ بصرف مبلغ ثمانية ملايين دولار فى أوجه متعددة للمساعدات فى حقل الفنون فقط .

- حدد القانون إجازه الولادة بمدة طولها ١٧ أسبوعاً ، كما يمنع القانون فصل المرأة العاملة بحجة أنها حامل .

- للمرأة العاملة الحق فى المعاش على قدم المساواة مع الرجل ، ويرث زوجها وأولادها هذا المعاش فى حالة الوفاة ، تماماً كما ترث هى وأولادها معاش الزوج فى حالة وفاته .

- تستخدم الحكومة الفدرالية الكندية ٦٣,٤٠٠ امرأة .

- تستنفد الأعمال الإدارية ما يقرب من ٨٣ ٪ من مجموع النساء العاملات .

وعدم الإيذاء . اللعب تعيش فترة طويلة . والألوان بهيجة . لا كآبة مطلقاً . محلات اللعب منتشرة فى كل زقاق . مهرجانات ملونة للأطفال تدخل الفرحة على قلوبهم .

هذا يحدث فى كندا .

الطفل فى سن الثامنة والتاسعة يحلم ببطولة الهوكى . والده يشترى له كل « عدة » الهوكى . يعرف أسماء اللاعبين . وأحياناً يراسلهم إذا التقط العنوان من صحيفة أو مجلة . . بالمناسبة فى كل مجلة أو جريدة « مساحة مناسبة » للحديث عن الأطفال . . وفى الإذاعة برنامج يومى فى العاشرة موجه للكبار وموضوعه « حقوق الصغار » !

عندما يلعب الفريق القومى الكندى للهوكى خارج حدود بلاده فإن كندا تطبع « كارت بوستال للتشجيع » فقط . تضع اسمك وعنوانك وتوجه الكارت للاعبك المفضل وتلصق ورقة بوستة . . وتصل ملايين الكروت إلى الفريق . . حيثما كان . . الغريب أن الأطفال يشتركون فى التحية والتشجيع . . بخطوطهم الركيكة . . ولكنها حتما تحية صادقة . إن الأطفال لهم أيضاً حق التشجيع . وقد اعترف الفريق الكندى بأن تشجيع الأطفال لهم فى أثناء مباراتهم مع الفريق الروسى ، كان له أبلغ الأثر فى الفوز . لقد تأثرت بالحب الغض البرىء .

هذا يحدث فى كندا . .

عند مدارس الأطفال تتوقف السيارات تماماً أو تهدئ السير . وأمام الأطفال عسكرى مرور يتولى المساعدة فى عبور الشارع . وفى خلف

لمعلوماتك

- قال رئيس وزراء كندا مستر بيير ترودو فى ٣ مارس ١٩٧١ :أعتقدأنه من الممكن أن يقال بثقة إن مجتمعنا ماكان وصل إلى ما هوعليه خلال نصف القرن الأخير لو أن جهود المرأة التى شغلت مناصب حكومية وصناعية كانت أكثر مما هى الآن . وعلى سبيل المثال : فهل كنا نعانى اليوم نفس التهديد من تلوث البيئة الأمر الذى يعود إلى حد كبير للتكنولوجيا التى يسيطر عليها الرجل ؟
- قامت وزارة العدل الكندية بتعيين النساء فى مناصب القضاة ورؤساء المحاكم .
- تتعلم المرأة الهندية « المهاجرة » والإسكيمو اللغتين الإنجليزية والفرنسية: مجاناً .
- أقبلت المرأة الهندية « المهاجرة » على التعليم ، وهناك ما يقرب من ٤٧,٠٠٠ امرأة ما بين سن ١٦ ، و٦٤ يشتركن فى برامج تعليمية .

أى أتوبيس أطفال كتبت هذه العبارة « نرجوك، لا تسرع . ليعبر كل الأطفال فى أمان » . عند أى إشارة مرور تتوقف السيارات إذا عبرت أم حامل ، أو طفل أو عجوز . لا يهم أن تكون الإشارة حمراء . . فى الحفلات أو المباريات الأولوية للأطفال ، فالسيدات .

هذا يحدث فى كندا .

ملابس الإسكيمو للكبار التى يشترونها لاتقاء أخطار العواصف الثلجية فى الشتاء . . مثلها أيضاً للصغار . أى شىء يباع للكبار : يستطيع الأطفال الحصول عليه فى أحجام مصغرة . داخل أى مخزن ملابس أو مطعم ضخم عربات صغيرة للأولاد . وفى أى مكان توزع هدايا للصغار ليجبروا الأهل على العودة إلى المحل التجارى نفسه . : ذكاء إعلانى !

بالمناسبة . . الإعلانات الكندية توجه « الدعاية للسلع » للأطفال . : تعاملهم على أنهم كبار . الأطفال يضغطون على الآباء والآباء يستسلمون ويشترون اللعب أو الحلوى أو أى شىء يتعلق بالأطفال : هذا يحدث فى كندا .

حدائق الصغار . . جنات خضرة وملاعب ولعب أراجيح وحديقة حيوانات صغيرة تشد انتباه الأطفال .

قال ترودو ذات مرة لأحد المسئولين فى وزارة البناء . حدائق الأطفال لا تهدم ، إنها فى قداسة الكنائس وبيوت الله .

هذا يحدث فى كندا . .

لمعلوماتك

- تقف كندا فى المركز الثانى عشر بين دول العالم فى إنتاج الصلب .
- يبلغ طول الطرق والشوارع المرصوفة فى كندا ٥٢٥,٠٠٠ ميل وهناك ما يقرب من ١٠ ملايين سيارة مرخصة ، ويبلغ طول الطريق عبر كندا من الأطلسى للهادى ٤٨٦٠ ميلا ، تسير عليه جميع أنواع السيارات .
- فى كندا ٢٥ ميناء كبير كل منها يتعامل فى مليون طن بضاعة سنوياً .
- يبلغ عدد طائرات النقل المدنى حوالى ١١,٠٠٠ طائرة نفاثة ، تنتقل بين ١٦١٠ مطارات داخل كندا ، وتنقل هذه الطائرات ما يزيد على ١٠ ملايين راكب ، وأكثر من ٢٠٠,٠٠٠ طن بضائع سنوياً .
- يبلغ طول خط أنابيب البترول فى كندا ٣٢,٠٠٠ ميل ، وتنقل هذه الأنابيب ما يقرب من ١,٨ مليون برميل من البترول يوميا بالإضافة إلى ٤,٢ ملايين قدم مكعب من الغاز الطبيعى سنوياً .

قال لى المدرسون المصريون المهاجرون إلى كندا . إن الطفل الكندى لا يتمتع بمهارة المصرى أو شطارته أو ذكائه . يبدو أن أطفال الدول النامية ليسوا أسعد حالا . . ولكنهم أكثر ذكاء . . يبدو أن المعاناة تصنع ذكاء ومهارة . سمعتهم يقولون أيضاً إن الطفل الكندى سعيد جداً . . ولكنها سعادة بلا معاناة ، سعادة معلبة وليست طازجة .

هذا يحدث فى كندا .

لا أظن أن طفلا فى العالم يشعر بالسعادة مثلما يحس الطفل الكندى . لقد رأيت أطفال العالم فى أكثر من دولة ، إنهم جميعاً ينالون الحب والعطف والحنان والاهتمام ولكن الكندى ينال كل هذا بجرعات كبيرة من الأب إلى الدولة — فضلا عن شىء آخر هو الاحترام .

إن للطفل كلمه مسموعة . إنه دنيا لها وزنها وكيانها .

هذا يحدث فى كندا . .

يوم سافرت من كندا عائداً إلى مصر ، بكت ابنتى حنان وكانت تصحبنى فى الرحلة . بكت بشدة كأنها تبكى مجتمعاً احترمها ، واهتم بها وخصها بحنانه واهتمامه . فقد كانت تقضى وقتها بين الحدائق واللعب والمتاحف والأكل . وحينما حان وقت السفر تشبثت بالبقاء ولا تدرى هى لماذا تريد البقاء ! ولهذا ظلت تبكى وتطل من شباك الطائرة بحسرة غامضة ، ولهذا جعلت عنوان مقالى : كيف تحترم طفلا !

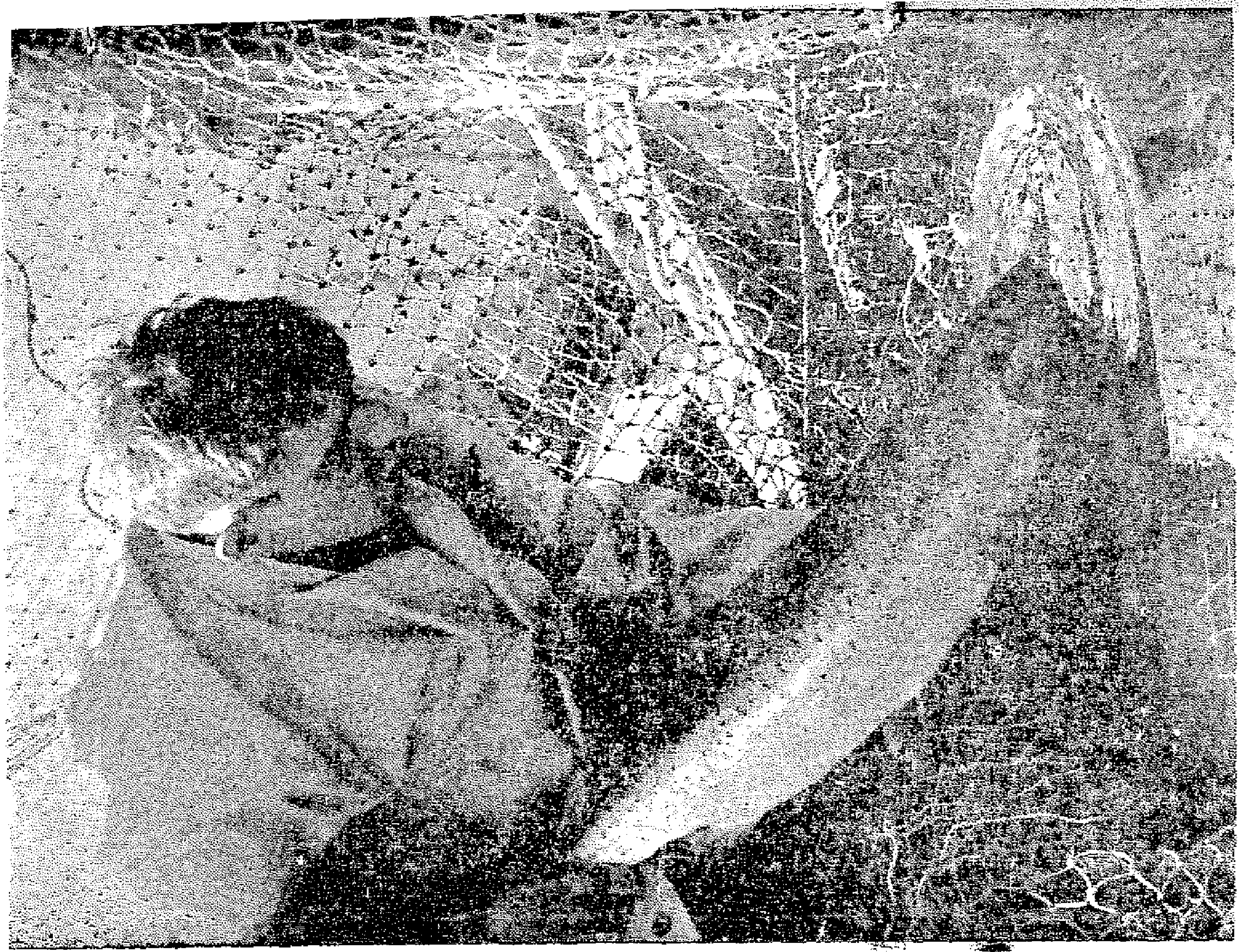
لمعلوماتك

● يبلغ عدد الحكومات المحلية فى كندا ١٠ يرأسها نائب الحاكم العام ولها مجلس تشريعى ، وهذه الحكومات مسئولة عن التعليم والعمل والصحة والعدل ، كما أن لكل مقاطعة من هذه المقاطعات العشر رئيس وزراء ووزراء ومجالس بلدية .

● شاركت كندا فى قوات الطوارئ الدولية التى أنشأتها الأمم المتحدة عام ١٩٤٨ وساهمت فى حفظ السلام فى كشمير وفلسطين وكوريا والكونجو وإريان الغربية واليمن وقبرص ، وهى كذلك عضو فى لجنة نزع السلاح بجنيف .

● إن تعداد كندا يجعلها تحتل الترتيب الثامن ،لكنها تعتبر سادس دولة من ناحية التجارة الدولية .

● تؤيد كندا التطبيق الكامل لقرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢ فى نوفمبر ١٩٦٧ وترى فيه أنسب وسيلة لاستقرار السلام القائم على العدل فى الشرق الأوسط .



الصيد فى كندا متعة شخصية تعلم الصبر وسط مجتمع يجرى ويلهث !

الفصل الثالث عشر

أنا أحب سماء بلادى أكثر

« حضارة كندا ، كالنحلة ، ترشف رحيق كل الحضارات . . . تمتص خلاصتها وتذيبها فى وعاء (صنع فى كندا) » .

هأنذا أرحل من كندا . أتسلل إلى أمريكا وأنا فى طريقى إلى مصر .

ولم يبق فى « الجعبة » أو « الجراب » سوى قصاصات ورق دونتها فى كندا واحتفظت بها . لعلها تجيب عن أسئلة تراود عقلا يسأل و يبحث وينقب !

هل حضارة كندا تتجه إلى الانهيار أو إلى البناء .. أو أنها مجرد صدى لحضارتين متعارضتين ؟ ! الحضارة الفرنسية والحضارة الأمريكية ؟

حضارة كندا كالنحلة . ترشف رحيق كل الحضارات . . تمتص خلاصتها . تذيبها فى وعاء « صنع فى كندا » . ترفض العنف الأمريكى برغم أن أمريكا جارتها المجاورة، حضارة كندا مزيج غريب

لمعلوماتك

- ساهمت كندا عام ١٩٧٢ بمبلغ مليون ونصف مليون دولار لوكالة الأمم المتحدة للاجئين الفلسطينيين .
- بلغت قيمة المساعدات الدولية عام ١٩٧١ /١٩٧٢ مبلغ ٤٢٦,٤ مليون دولار وكانت عام ١٩٦٣ /١٩٦٤ فى حدود مبلغ ٦٤,٤ مليون دولار .
- إذا تورطت كندا فى كارثة حربية بين القوى الكبرى فإنها بذلك تكون ضحية موقعها الجغرافى بين روسيا والولايات المتحدة .
- بلغت ميزانية الدفاع الوطنى فى كندا عام ١٩٧٢ ١,٨٦٣ مليون دولار .
- تبلغ القوى العاملة فى كندا ٨ ملايين شخص ، ونسبة المرأة العاملة تبلغ ٣٣٪ من هذا العدد ، وتبلغ نسبة المتزوجات ٥٤ ٪ .
- إن المهاجر المتعلم الطموح صاحب المهارة أو المهنة المطلوبة يمكنه الاستقرار فى كندا بسرعة معقولة .
- ٦٠ ٪ من الكنديين يمتلكون منازلهم .

متآلف ، الدستور « إنجليزى » ، وأسلوب الحياة « فرنسى » والنظام الصارم « ألمانى » . والأرض والميراث « هندى » والنقود « أمريكية » والمستقبل لكندا برغم المشاكل الحضارية التى تواجهها . ولكن يبدو أن القرن القادم محسوب لكندا . . لأنها تنتزع نفسها من أنياب أمريكا . تحاول أن تقاوم الضياع فى المتاهات الأمريكية ، تحاول كندا أن تجعل دماء عروقها « كندية » ، إن شعوراً عميقاً يسيطر عليها ، إنها تعيش بعقل إنجليزى ، وقلب فرنسى ، وعينين أمريكيتين . وتقاليد ألمانية . إن الكندى ، ابن الأرض ، يحلم بأغنية ترددها كل الشفاه الكندية . كلماتها الإنجليزية تتعانق مع الفرنسية ، وتراقص اللغة الألمانية !

* علاقة الألفة بين الجيران فى كندا ، هل هى موجودة ؟

الألفة بين الناس هناك هى طقوس « دين » اسمه المصالح !

الجيران يأتلفون إذا كانوا أصحاب مصالح مشتركة . غير ذلك لا يربطهم سوى احترام حريات بعضهم ، لا مكان للمجاملات ، للعواطف السيالة . قد يمضى قرن من الزمان بدون أن يتزاور جاران ، المسافة فى كندا تقاس بالمصلحة !



بواخر تعبر من شاطئ إلى شاطئ ، الفرحة على الوجوه .. فالراحة جزء من نسيج الشخصية الكندية ...

* **هل رأيت على ابتسامة أى كندى، طعم ابتسامة الإنسان ؟**

فوق ابتسامة أى كندى رأيت ملامح الدولار .

* **الإرهاق ، هناك ، مانوعه ؟**

انتظار للدولار . الحب للدولار . المضاجعة أحياناً للدولار . الإرهاق مادى . فلا شىء اسمه « هموم الروح » فى كندا . إنها هموم الدولار .

* **الإنسان، هل هو جزيرة منفصلة أو متصلة مع الآخرين ؟**

الإنسان الكندى جزيرة منفصلة تسمح لنفسها أحياناً أن تتصل بالآخرين ، ولكنها لا تذوب فيهم !

الإنسان الكندى . واحد من أعضاء معسكر عمل دولى ينطق بكل لغات العالم . قلت ذات مرة لكندى من أصل ألمانى : لماذا لا تنام يوم الأحد وتستريح ؟ قال ساخراً : الذى ينام فى « البورصة » يخسر !

* **الموضة فى كندا ، ماحجمها ؟**

الكندى يلبس أى شىء . . الكندية لا تحلم بموديل جديد . بل لا تعرف ملوك الموضة .

لمعلوماتك

- يتاح للمرأة العاملة الحرية فى أن تعمل نصف الوقت بنصف الأجر ونصف الامتيازات المترتبة على عملها .

- تتساوى المرأة مع الرجل فى حق دخولها كلية الدفاع الوطنى وتخرجها ضابطاً بالقوات المسلحة .

- اقتصاد كندا : إن صناعة الحديد والصلب وصناعة بناء السفن وصناعة الطائرات وشبكة المواصلات الشاسعة بدأت كلها تلعب دورها الكامل لتدفع بكندا إلى مجال التصنيع الحديث .

- النمو الداخلى : إن كندا هى قصة النمو الرائع للصناعات الأولية والثانوية ، وللاكتشافات البترولية والغاز الطبيعى والمواد المعدنية الجديدة الكثيرة ، وهى قصة التقدم العلمى والثقافى والتعليمى ، كما أنها قصة التحدى المستمر لبلوغ الوحدة القومية بدون إغراق لثقافات الشعوب التى ساعدت على بناء الأمة .

* الدين، هل هو وسيلة الاعتذار عن الخطأ أو العبادة ؟

الدين فى كندا تجارة . ثمن إشعال الشمعة فى أكبر كنائس « مونتريال » الجميلة يتراوح بين دولار و٣ دولارات : بحثت عن « الله » فى كندا . . فتعبت .

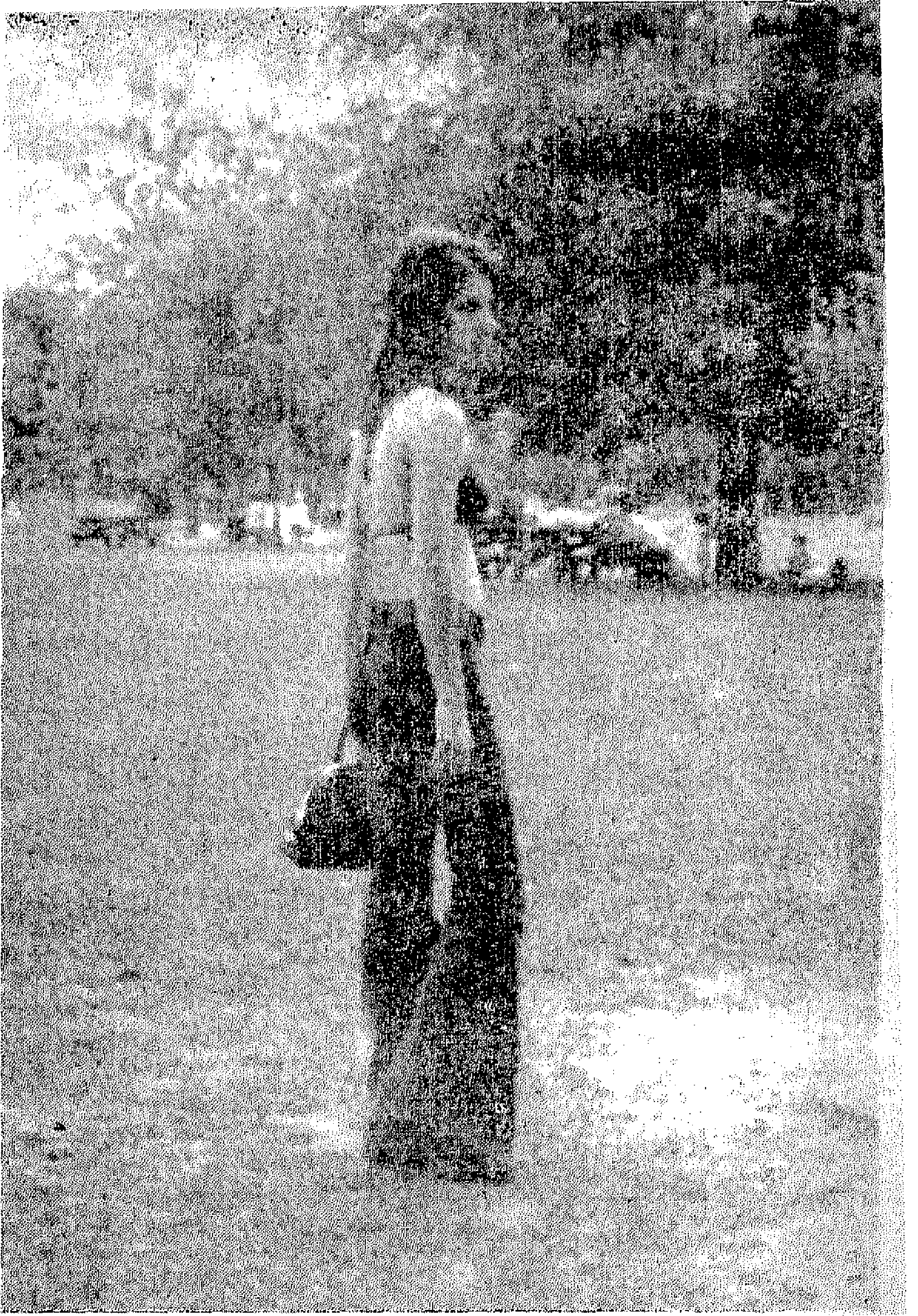
* هل فى بيت الكندى ، مكتبة ؟

المكتبة عند الكندى ديكور جميل ورفوف تحتضن الكتب ! لكن الساعة التى يقضيها الكندى مع كتاب قد تساوى كذا دولاراً لو استغلها . إن ثقافة الكندى – عموماً – يتلقاها من التليفزيون الملون الساحر الجذاب .

* هل يرضخ الكنديون للإعلانات ، وإلى أى مدى ؟

الإعلان الكندى ، كالأمريكى ، فن قائم بذاته . فن يعتمد على استغلال الضعف البشرى . فن يعتمد على مخاطبة الغرائز . فن يرتبط بالجنس! .. أى إعلان حتى لو كان عن « اللبان » يخاطب الرجولة والأنوثة !

إن المحلات الكبرى تطبع مجلات مذهلة الألوان وتنشر صوراً للسلع مقرونة بأسعارها واستعداد المحل « لتوريد » البضاعة حتى باب البيت ! هذه المجلات يجدها الكنديون فى صناديق بريدهم كل صباح ، فتثير فيهم عشق الاقتناء !



الظهر العاري ، آخر موضة ، وصلت إلى كندا عن طريق الكنديين من أصل فرنسي !

* الفن هناك .. هل هناك فن كندى ؟

الفن فى كندا لا وجود له . لا توجد « م و م » إنسان توحى بأى فن . هناك فقط الفيلم التسجيلى وكندا بحق هى كعبة العالم فى هذا المجال والفيلم التسجيلى الكندى ، مصوره أمريكى . . ومخرجه فرنسى . . وكاتب السيناريو إنجليزى .

وبرغم أن فى كندا إمكانيات آلية كبيرة ، فقد رفضت كندا أن تدخل ميدان الرواية الطويلة واكتفت بفيلمها التسجيلى . إن الفن الكندى ابن غير شرعى ، لفنون أخرى ليست كندية !

* هل يهاجر الكندى وأين يذهب ؟

أصحاب الملايين يطيرون فى الشتاء لأوربا هرباً من الثلوج ، الكادح الكندى ربما لا يرى غير مدينته طوال الحياة !

* هل المصرى الموجود فى كندا له رأى فى أى سلوك يصدر عن الحكومة الكندية ؟

يستطيع المصرى أن يكون صاحب رأى فى تصرفات السلطات لكندية حين يصبح مواطناً « كندياً » يتجنس بالجنسية الكندية ويحمل جواز سفر كندياً .

ذلك لا يتم قبل خمس سنوات . يقدم أى مهاجر طلباً لنيل الجنسية . تجيب السلطات على طلبه بعد ثلاثة أشهر . يذهب

لمعلوماتك

- يعنى المتحف القومى للإنسان بالحفاظ على التراث الثقافى لكندا عن طريق البحث والجمع والتعليم .
- المتحف القومى للعلوم الطبيعية يجرى دراسات فى علوم الحيوان والنبات والتعدين .
- يبلغ عدد المكتبات الخاصة بالشركات والحكومة والجمعيات والمعاهد والمستشفيات حوالى ألف مكتبة ، وبالإضافة إلى هذا العدد فهناك دار الكتب القومية ومكتبة العلوم الطبيعية ومكتبة البرلمان ومكتبة وزارة الزراعة والمكتبة القومية للعلوم .
- التعليم إجبارى وبالمجان حتى المرحلة الثانوية ، وأغلب المدارس مشتركة .
- فى كندا حوالى ٢١٩ جامعة وكلية ويبلغ عدد الطلبة حوالى ٣٥٠,٠٠٠ يسددون مصروفاتهم عن طريق دخلهم من عملهم فى أثناء العطلة الصيفية .

ويقابل قاضى الأحوال الشخصية . بعد شهر رابع يدعى لحفل الجنسية ويقسم الولاء: « أقسم أن أطيع القوانين الكندية وأن أكون مواطناً صالحاً وأن أطيع الملكة إليزابيث الثانية وخلفاءها » .

فى تلك اللحظة يصبح من حق المصرى أو غيره أن يكون له رأى فى تصرفات الحكومة الكندية .

* السفارة المصرية فى كندا كيف وجدتها ؟

إن الحياة فى كندا تسير كالساعة . كل شىء مريح . ترسل رسالة للبنك فيردون عليك فى اليوم التالى . تطلب ورقة من وزارة فتصلك خلال يومين على أكثر تقدير . تطلب تأشيرة خروج لبلد ما بالتليفون . لا تشعر بأى إرهاق . لكن السفارة المصرية تتخلف عن هذا « الانضباط » وتتفنن فى تعذيب المهاجرين الذين يلجأون إليها أحياناً بقصد استيفاء أوراق أو بيانات .

سمعت عشرات القصص من مهاجرين مصريين ، كلها تدين السفارة بالروتين المصرى الذى سافر وعبر المحيط . . ووصل إلى كندا .

* قصيدة شعر ، سمعتها أو قرأتها فى كندا .

□ قصيدة لشاعرة مولودة عام ٣٩ فى تورنتو ، اسمها مارجريت تود . تقول :



المسئولون فى كندا يودعون الملكة !

« لا أدرى إذا كان العالم يكذب أوأنا أكذب!

« لا أدرى إذا كان العالم يتآمر ضد الحب أو أنى أتآمر ضد الحب .

« العذاب غير محتمل وأنا معذبة . . حتى بغير القنبلة الذرية

« أرفض أن أجعل الكذب ، شريعة !

« كلنا يكذب . .

« كلنا نختار لأكاذيبنا حزام عفة من الصدق !

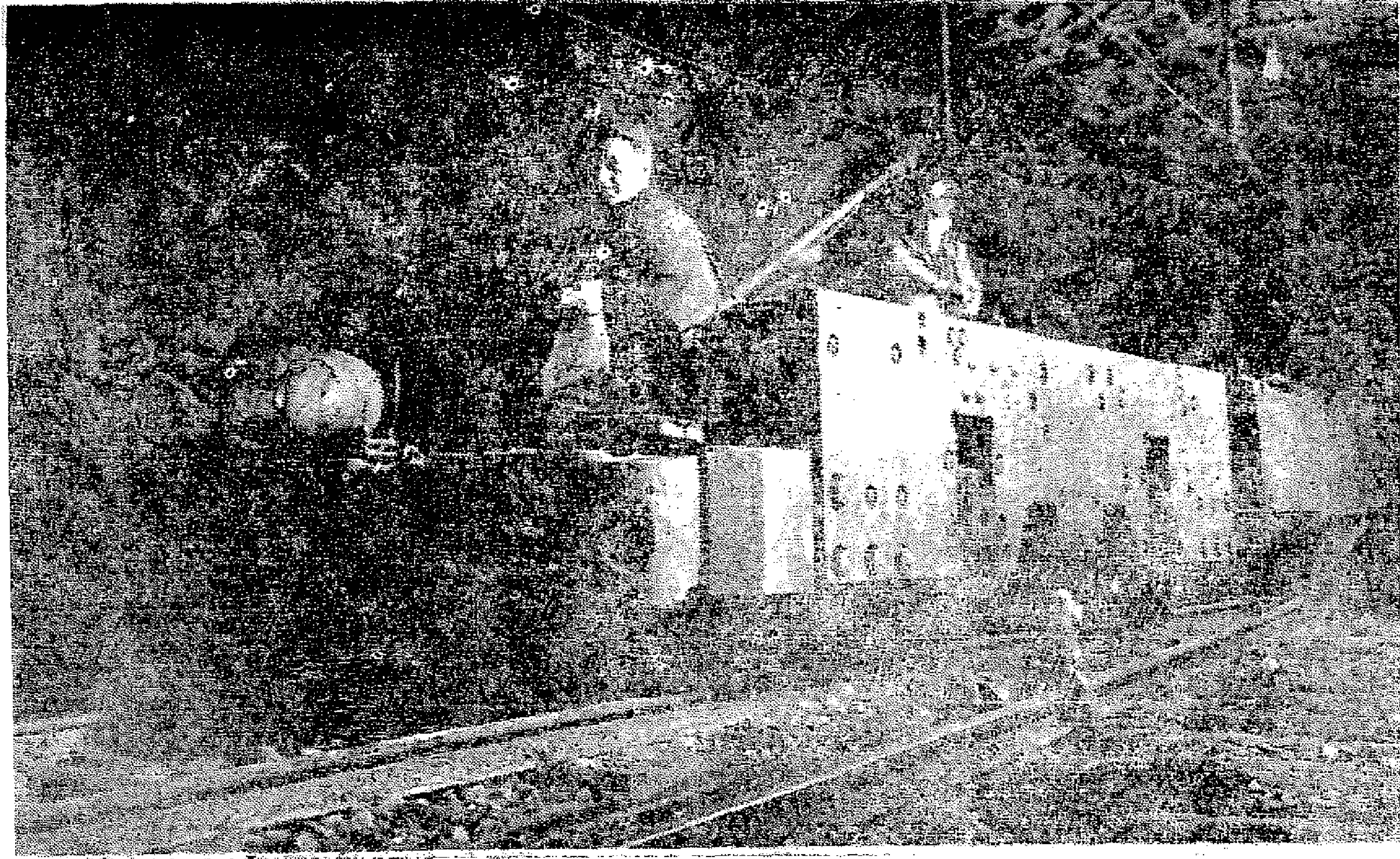
« صدقونى . .

* هل فى كندا « أدب كندى » ؟

هناك روائى اسمه « هيوما كملان » . مولود فى مقاطعة نوفاسكوتيا . هناك شاعر فى الخامسة والثلاثين من عمره اسمه ليونار كوهين ، مولود فى مونتريال . هناك إرفنج ليتون ، شاعر ، مولود فى رومانيا . . وشب فى مونتريال . . محور الرواية الكندية ، أحاسيس المهاجرين الأوربيين وحنينهم ، وذكرياتهم للأرض الأم ! محور قصائد الشعر تعرية الزيف ! وهذه المؤلفات ليس لها « الانتشار » الكبير . إنها « أعمال » محلية . ربما لا تعرفها أو تسمع عنها المقاطعات الكندية الأخرى !

* المحامى الكندى ، ما نوعية قضاياه ؟

إن طبيب الأسنان فى كندا مليونير . والمحامى أيضاً مليونير خرافى . إن كل كندى يلقى بمتاعبه إلى محام فهو لسان حاله !



فى كندا مناجم غنية ، وعامل المنجم الكندى يتقاضى أجراً مرتفعاً ، ويملك سيارة ،
وله زوجة جميلة وطفل يحلم بالمناجم !

أية صغيرة أو كبيرة ، تلجأ إلى المحامى وتسأله ! والمحامى يحسب وقت مكالمتك معه فى أمورك بالدقيقة ! إنه كالعداد يحسب عدد الدقائق التى استغرقها لمناقشة مشاكلك . . ثم يرسل لك الفاتورة آخر الشهر مثلا . مطلوب منك ٨٠٠ دولار لأنك أخذت من وقتى كذا دقيقة . وكل محام له تسعيرة ! وأقل محام دقيقته بـ١٠ دولارات ! وأهم قضايا المهاجر هى علاقته بالتأمينات ؛ فالتأمين يدفع لك مصاباً ، أو مصيباً !

* هل فى كندا « دعارة » ؟

الجنس فى كندا ، ليس مشكلة . والدعارة فى المدن الكبرى ، من ملامح الجاذبية السياحية . وأخطر ألوان « الدعارة » ، هى التى تسود صفقات رجال الأعمال ، حيث يلوح بالزوجات والشقيقات الجميلات ! إن القيم تنام فى حضور « الدولار » !

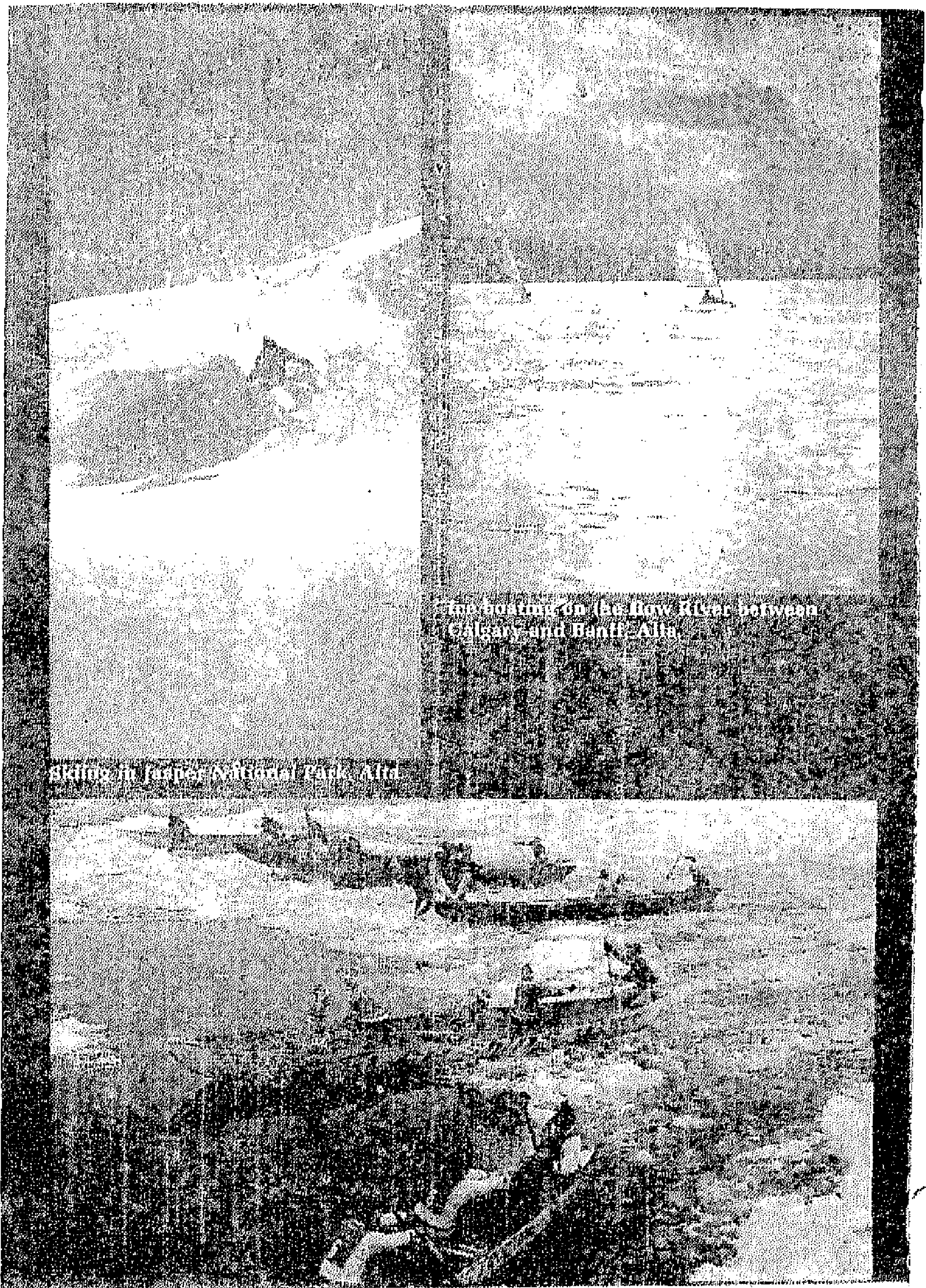
* النكتة ، هل سمعت نكتة لها طعم كندى ؟

فى كندا يقولون لك : « كن مبتسما دائماً » عبارة تصافح عينك فى أى بنك . . فى مستشفى ، فى مكتبة . . فى أى مكان . ولا توجد « نكتة كندية » طعمها كندى . لأنه لا توجد متناقضات إنسانية تفرض السخرية !

من النكت التى سمعتها على لسان كندى . . أن المرأة الكندية تحب الغزل الفرنسى ، وتموت فى الثقل الإنجليزى ، وتعبد الدعابة الأمريكية ، وتعجب بالصرامة الألمانية . ولكنها لا تفضل الرجل الكندى !

لمعلوماتك

- يبلغ عدد الحدائق العامة فى كندا ٧٨ ، هذا بخلاف مئات الأمكنة الطبيعية التى يلجأ إليها الكنديون لتمضية عطلة نهاية الأسبوع .
- المعسكرات الصيفية أصبحت من التقاليد السارية فى كندا ، يلجأ إليها الكنديون للاستمتاع بالهدوء الذى يسود الريف والغابات .
- فى كندا ١٠٠ جريدة إنجليزية و ١٢ فرنسية يبلغ أرقام توزيعها ٤,٥ ملايين نسخة يومياً لكن عدد قرائها يبلغ ثلاثة أرباع عائلات كندا .
- فى كندا يبلغ عدد المجلات الأسبوعية ٩٠٠ مجلة وتوزيعها يصل إلى ٣ ملايين نسخة .
- أقامت كندا عام ١٩٦٧ أحدث متاحفها ، وهو متحف العلوم والتكنولوجيا ، وقد زاره أكثر من نصف مليون زائر عام ١٩٧١ . وأقدم المتاحف هو الصالة القومية للفنون التى أنشئت منذ ٩٢ عاماً .



Ice boating on the Bow River between Calgary and Banff, Alta.

Skiing in Jasper National Park, Alta.

فوق صفحة المياه الكندية تولد حياة ، مادامت الطبيعة تصالح الكنديين !

* هل فى كندا أغان يرددها كل الكنديين ؟

الأغنية أمريكية . الكلمات ، والألحان ، والصوت ، والمطربون فى كندا . محاولات « محلية » فقط !

* هل هناك « يسار » فى كندا ؟

اليسار فى كندا محور نشاطه التخلص من سيطرة أمريكا . وعبودية الارتماء فى حضن اقتصادها . وهو بيساريته « سقف » ولا يحلم بأى عقائديات خارج حدود القارة الأمريكية . إنه يمين متطرف ، يريد أن يجعل لكندا « شخصية » ليس إلا !

* الكنديون ، كيف ينفقون الفلوس ؟

أصحاب الملايين يشترون بحيرات بأكملها بالمسافات ويصبح الماء واليابس ملكاً لهم . الأثرياء فقط يشترون اليخوت والطائرات الصغيرة ، المهاجرون الناجحون ، يرسلون أموالهم إلى بلادهم البعيدة . الكندى العادى ينفق ثلثى دخله على الأكل .

* الحذاء الكندى ماعمره ؟

كل شىء فى كندا له عمر : الحذاء . . اللمبة . . اللعبة . . ماكينة الحلاقة . أسلوب رأسمالى . يجبرك على شراء « الجديد » !

لمعلوماتك

- يعمل الكنديون خمسة أيام فى الأسبوع على أساس ٨ ساعات يومياً .
- طلبات الهجرة يجب أن تستوفى الشروط التالية :

لا تقل سن الطالب عن ١٨ عاماً .

- قبول الطلب يتوقف على :

السن .

التعليم .

المهارة .

حاجة كندا من الوظائف .

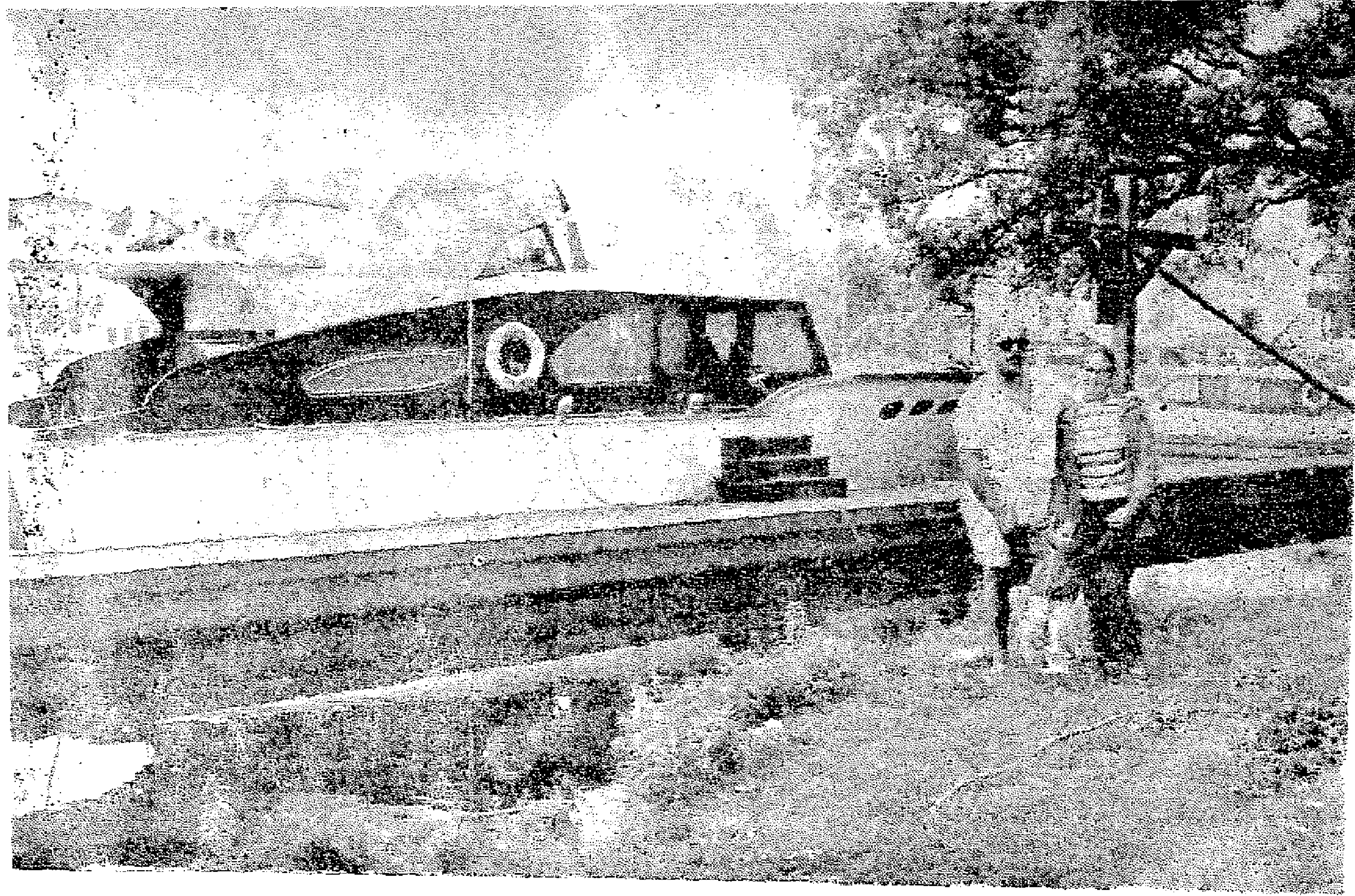
معرفة الإنجليزية أو الفرنسية .

اللياقة الشخصية .

الحصول على عقد عمل مقدماً .

وجود بعض الأقارب فى كندا .

- يقبل الهجرة الطلبات المقدمة ممن لهم أقارب فى كندا من الدرجة الأولى بشرط ألا تقل سنهم عن ٢١ سنة وبشرط أن يقوم هؤلاء الأقارب بضمانتهم وتحمل مسئوليتهم المادية حتى يوجد لهم عمل مناسب ،



حلم المهاجرين أن يملكوا لنشات .. مصرى : هو كمال توفيق وزوجته الكندية وابنهما « بيتر » !

* **الفلاح الكندى ، هل هو سعيد بعالم الزراعة الميكانيكى؟**

فلاح كندا ، سلة خبز العالم ، من أنجح وأمهر فلاحى العالم إنه يستخدم الماكينة بذكاء . إنه يروضها ، ويطورها . وإذا كان القمح هو المحصول الأول فى كندا ، فالفضل للقادمين من أوكرانيا . . زراع القمح فى روسيا .

* **هل فى كندا « رشوة » ؟**

لا رشوة صغيرة يدفعها كندى ليحصل على مكاسب تافهة . . الرشوة تبدأ من مائة ألف دولا ر ! !

* **علم النفس ، هل له مكان تحت سماء كندا ؟**

علم النفس الأمريكى تسلل إلى كندا . . لكن النفس الكندية ليست فى حاجة إلى طبيب نفسى مثل قلب وعقل الأمريكى القح . الكندى يعرف « بوصلة » حياته واتجاهاتها . يعمل جيداً ، ويريح نفسه جيداً . ينحنى للدلاور باحترام . يعطى جسده وجبات الجنس بانتظام . الحب لا يهم .



الملكة إليزابيث ملكة إنجلترا ، فى مدينة كويبك .. صورة فى بيت كل كندى من أصل إنجليزى !

*** لو أتيح لك أن تقترح إرسال بعثات تدريبية من مصر تسافر إلى كندا .. وتتعلم شيئا .. فماذا تقترح ؟**

أقترح ذهاب الموظفين الذين « يتعاملون مع الجمهور » أي موظفي الخدمات ، ليتعلموا كيف « يخدمون » الناس بلا استعلاء . بحب . بإخلاص . بضمير .

*** لو جاءتك فرصة لتهاجر إلى كندا ، فهل تفعلها ؟**

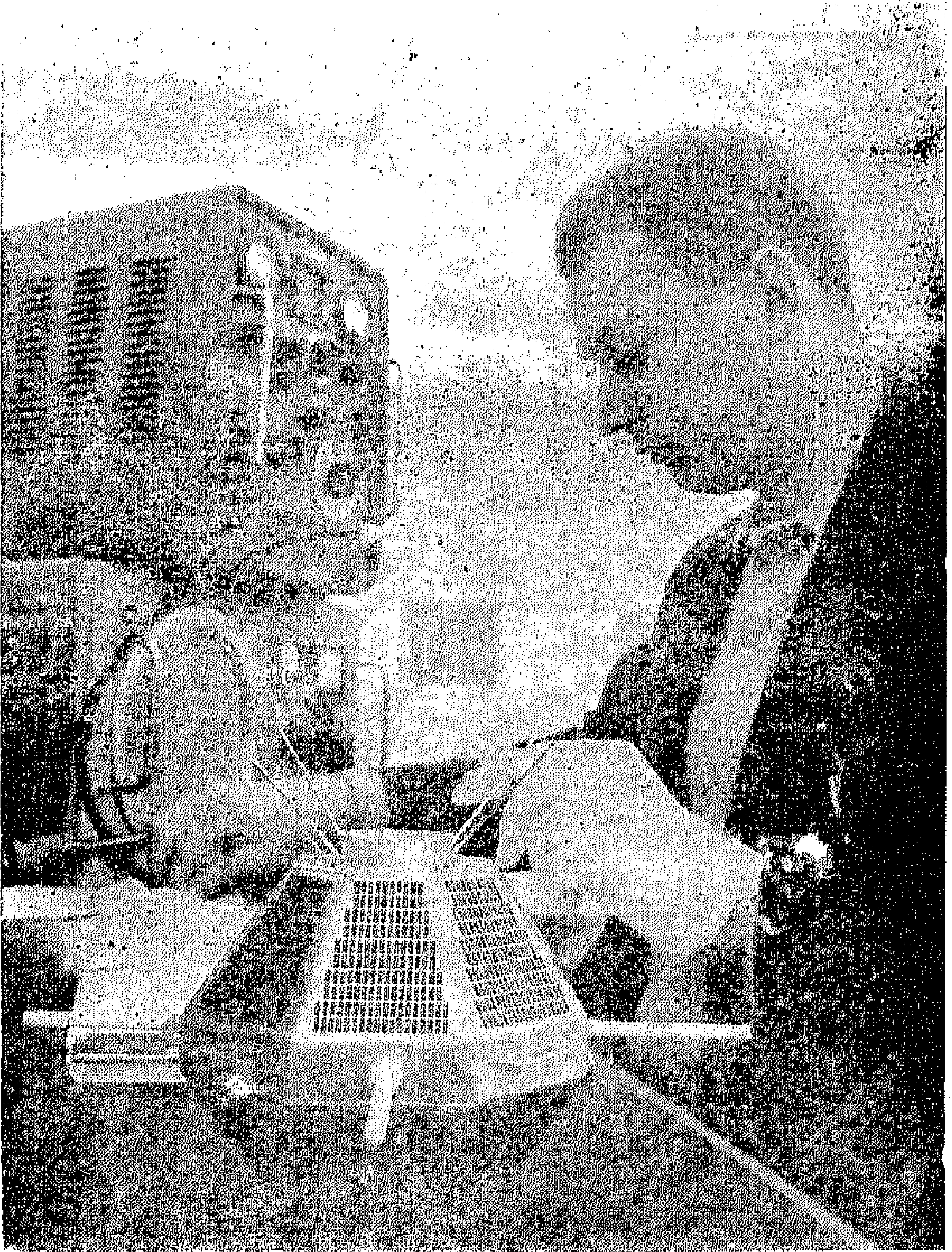
لقد احترمت في كندا أشياء كثيرة . . وانحنيت للحضارة التي تريح الإنسان . صاحب أرض . أو مهاجر . لكني والحق يقال أحب سماء بلادي أكثر . فزرقتها حلمي ، وصفاؤها قدري . وحتى أمطارها الكثيرة أو الشحيحة . سخاء وعطاء .

لمعلوماتك

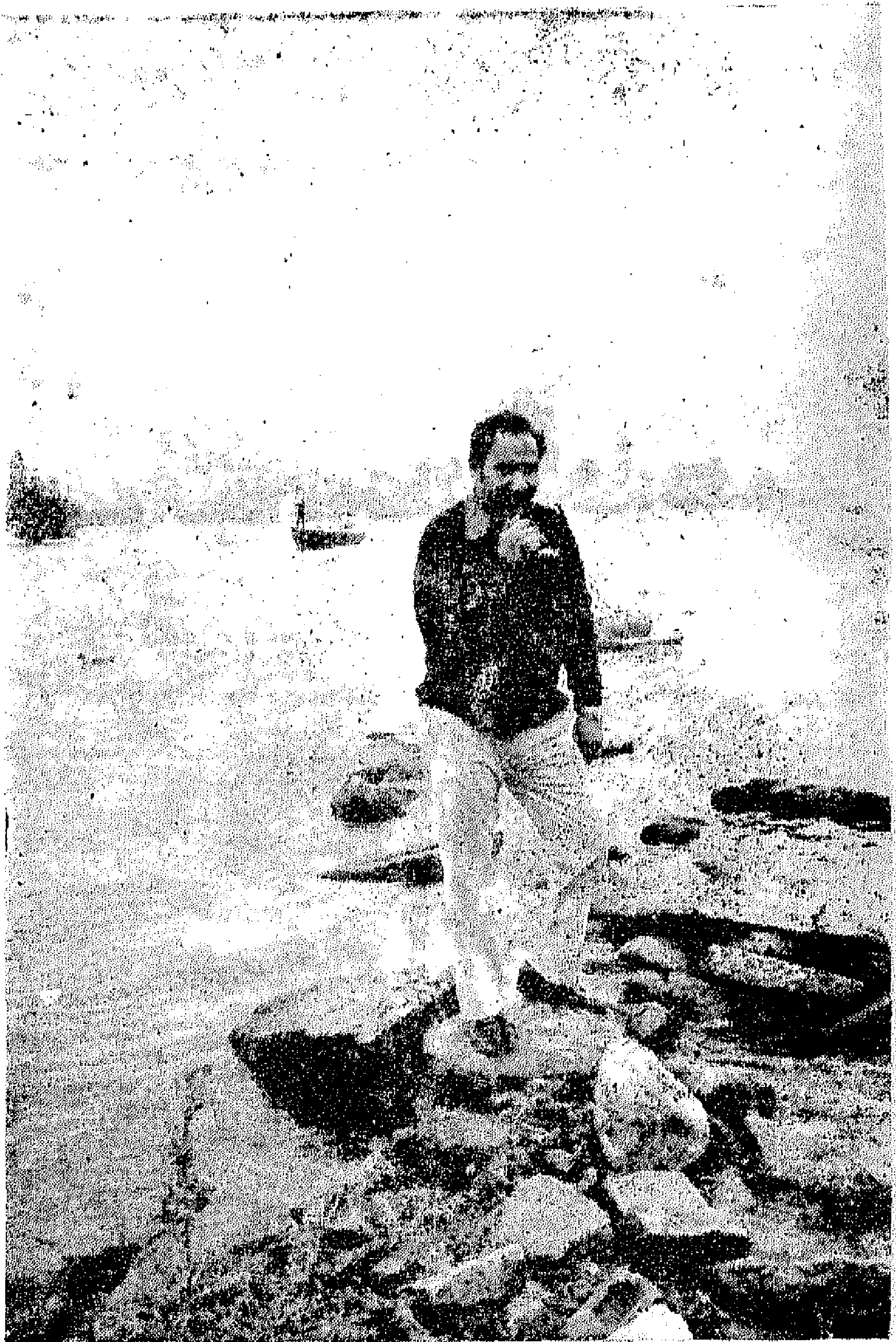
- في كندا أكثر من ٢,٥٠٠ مزرعة للفراء حيث تربى الحيوانات ذات الفراء وتعطي إنتاجاً للدخل القومي يبلغ ٣٧ مليون دولار .
- تغطي الغابات مساحة ١,٧ مليون ميل مربع تحتوي على ١٥٠ نوعاً من الأشجار الكندية .

وتمثل الغابات ما يزيد على ٢٠ ٪ من جميع صادرات كندا .

من "ألبوم" الرحلة



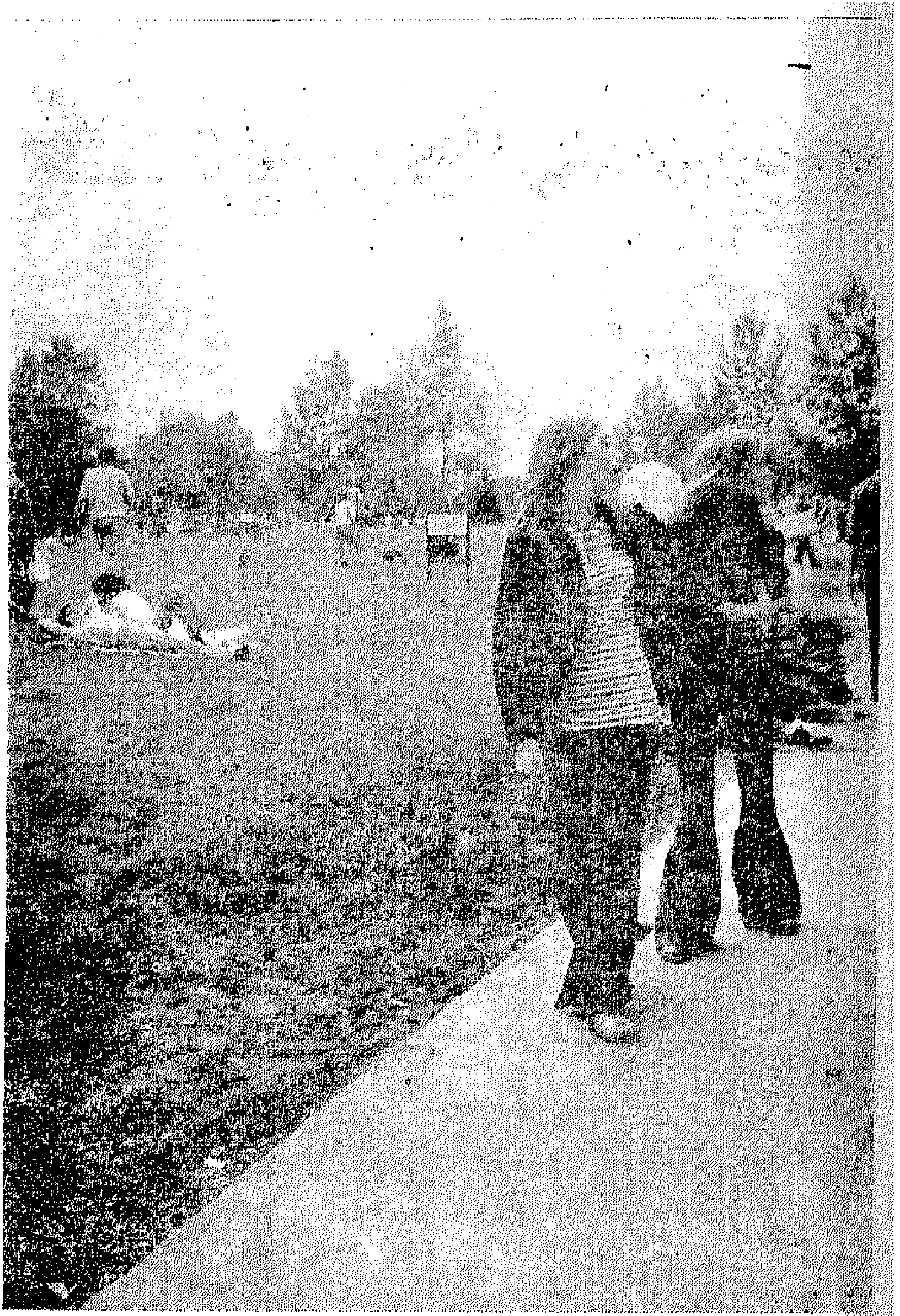
العلم ، يسخره العلماء لرفاهية الإنسان فى كندا . .



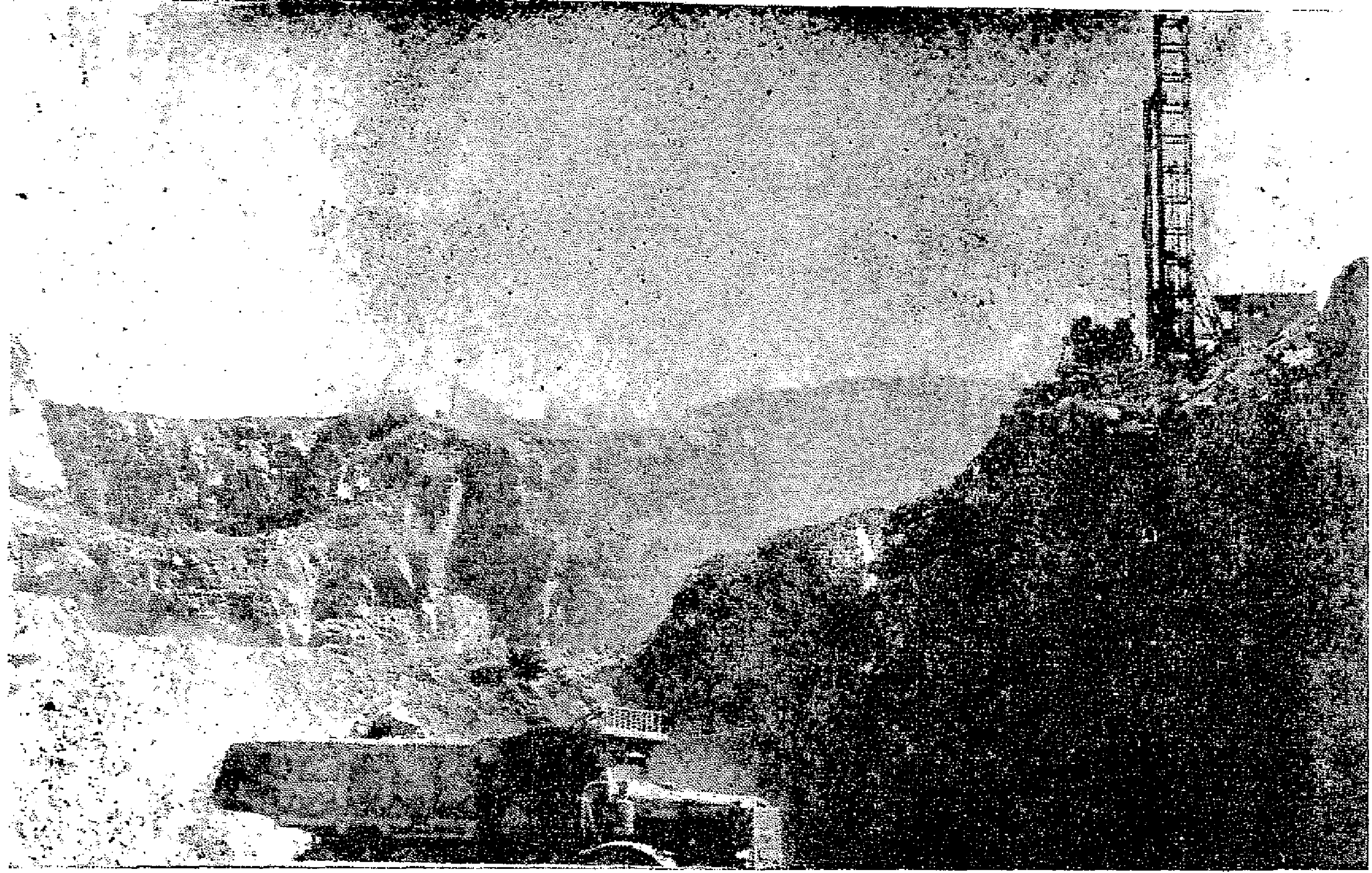
فى تورنتو وقفت أفكر .. واكتشفت أنى أحب سماء بلادى أكثر !



البوليس الكندى فى حالة تأهب دائماً، لكنه صديق للإنسان الكندى . .
وهو مدرب على أحدث الوسائل العالمية فى كشف الجريمة . .



الفتاة الكندية ، أيام الأحد ، لاتعرف الهموم . تعرف الراحة والمتعة فقط ...



في مدة قصيرة قفزت كندا إلى دول التقدم بفضل الخبرات القادمة من كل بلاد الدنيا ، وبفضل الإصرار والإرادة والعمل الجبار بلا كلل !



هذا الرجل الهندى بملابسه التقليدية ، دلالة على « أصل » الإنسان الكندى
سألته ماعمرك ؟ ... قال : بل اسأل ما عمر هذا الزى ! !



قرية عمرها ٥٠ عاماً ، ومع ذلك يطلقون عليها قرية الرواد . إنهم يحلمون بالقدم والأصالة، لقد أصر مصور القرية أن يلتقط لى هذه الصورة كتذكار !



يوم الأحد كنت أركب « الفيرى بوت » وأتسكع من شاطىء إلى شاطىء فى بحيرات كندا الفسيحة ..
إنها متعة لا حدود لها !



هذه هى كندا : بلاد شاسعة المساحة ، وهى الجار المجاور للولايات المتحدة الأمريكية . .

محتويات الكتاب

تم إيداع هذا المصنف بدار الكتب والوثائق القومية تحت رقم ٣٨٩١ /١٩٧٣
مطابع دار المعارف بمصر سنة ١٩٧٣

ص ١٥

